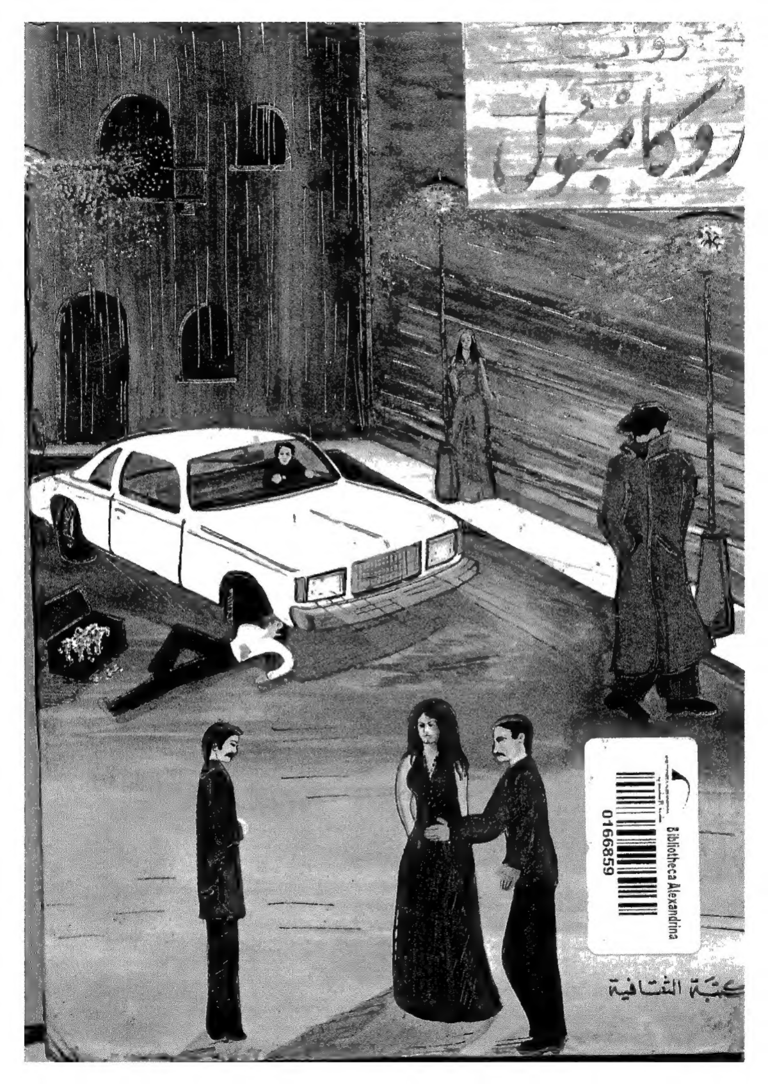

رواية
روكامبول
Bibliotheca Alexandrina
0166859
عتبة الثقافية

رواية

روكامبول

المجلد الاول

يحتوي هذا المجلد على :

الارث الخفي

التوبة الكاذبة

الغادة الاسبانية

انتقام باكارا

الارث الخفي



ترجمة الكاتب البليغ الأستاذ

طانيوس عبده

الجزء الاول

الارث الخفي

المكتبة الثقافية

بيروت - لبنان

الارث الخفي

المقدمة

- ١ -

كان نابوليون الأول عائداً من مدينة موسكو بعدما نشبت فيها نار الروسيين وقد غرق نصف معسكره العظيم في مياه نهر بريزينا الثلجية . وكان السيل عرماً والريح زعزعاً تهب من جهة الشمال والأفق مقتماً متلبداً بالغيوم السوداء والبرد قارصاً فكانت تلك الجنود التي القت الرعب في قلوب أوروبا المتحدة ، تقاوم بقوة اليأس جواذب النعاس المميت وتدافع بعامل الانفة ألم الجوع القاتل ، وكان بعض المشاة ينازعون العقبان جثث الخيول ومنهم من كان يغلبه النوم فيرقد رقدة لا انتباه بعدها ، وهم مع كل ذلك يلجأون إلى الفرار من حين إلى حين خشية مدافع الروسيين ومطاردة القوزاق . وان بين أولئك المنكودين ثلاثة فرسان قد أووا إلى غابة صغيرة وجعلوا يجردون الثلوج عن أغصان العليق ثم أحرقوها وقعدوا حولها يصطلون .

وكان أحدهم في الخامسة والثلاثين من عمره مرتدياً بملابس تدل على أن له في الجيش رتبة أمير الاي وهو فوق الربعة في الرجال أزرق العينين قد ارتسمت على محياه النبيل علائم الشجاعة والصبر وهو ملقى بين رفيقيه وقد تكسرت

ذراعه واثخن بالجراح .

وكان الثاني قائد مائة وهو في مقتبل الشباب أسمر لون الوجه ذو نظر مضطرب لا يستقر وقد جلس إلى جنب رئيسه يمينه على الاصطلاء ولوائح الاضطراب ظاهرة على وجهه العبوس .

أما الثالث فكان من جنود الحرس وقد طار فؤاده شعاعاً لجراح مولاه فكان جالساً بقربه ودموع الحنو تنهمل من عينيه فكان إذا سمع دوي مدافع أو أحس بوقع حوافر ينهض نهضة الليث ويسير باحثاً عن جهة المطـــاردين ثم يعود إلى مولاه فيغسل جراحه الثخينة بمنهل الدموع .

وكان الظلام قد أقبل وأخذ ضباب الشفق المقتم يمزج الأرض بالسماء فنظر الأميرالاي إلى قائد المئة وقال له: ما ترتأي يا فيليبون أنقيم الليلة في هذا المكان.

فلم يدع الجندي مجـــالاً للقائد وأجاب بحماسة : مولاي ، أن الـــبرد قارص وليس من الحكمة أن نبيت في هذه الغابة فان القوزاق قريبون منا .

فجعل الأميرالاي ينظر اليهما ثم سأل فيليبون ثانية عن رأيه فأجاب . لقد أصاب بستيان فيما ارتآه من وجوب الرحيل لأننا إذا اختفينا في هـذا المكان الخطر فلا نفيق ، ومتى خمدت النار نموت من البرد ، وفوق ذلك فان دوي مدافع الروسيين ينذرنا بقربهم منا فلا نجاة لنا إلا بالفرار .

فتنهد الأميرالاي وقال : يا للشقاء ويا للعار ، انهرب من وجه فرقـة من القوزاق ، وما يتحدث الناس عنا ومن عرف ما لنا من الاقدام ، ولكن ويلاه من يستطيع أن يغلب الطبيعة ، ومن يطيق ثباتاً أمام هذا البرد الهائل ؟ بل كيف أقدر على الرحيل وقد وهنت قواي لفرط ما نزف من دمـــائي ؟ بالله دعوني أموت قرب هذه النار فان رجلي قد ضعفتا عن حملي .

قال هذا وقد صاح صيحة الألم وانطرح أمام النار وهو على وشك الموت .

فتشاور رفيقاه بالنظر ثم همس القائد بأذن الجندي وقال إذا تركنـاه ينام فلا نعود نقوى على إيقاظه .

فمال الجندي على أذنه وقال : لا بأس من رقاده ساعة فاني أحمله نائماً على كتفي .

فأصغى القائد قليلاً ثم قال : أن الروسيين على مسافة ثلاثة فراسخ منا فلينم إذا شاء ونحن نسهر بقربه .

وقد سمع الأميرالاي هذه العبارة فمد يده إلى فيليبون وقال له أنني أسديك أيها الصديق الحميم جميل الشكر لما تظهره نحوي من الرأفة والبر بي واني أهنئك لثباتك أمام البرد الهائل فلو لم تكن أشجع مني وأصبر لكنت على ما تراني عليه الآن من الوهن وضعف العزيمة .

فأجابه القائد قائلاً : اني أقاسي من البرد نفس ما تقاسيه غير انك مثخن بالجراح وأنا لم ينزف مني قطرة دم وهذا هو السبب فيما اتهمت بــه نفسك من الوهن وضعف العزيمة .

فشكره الأميرالاي وقال له : إصغ اليّ فاني أشعر بدنو الأجل وأحب أن أحدثك بأمر أرجو ألا يثقل عليك سماعه أن لي من العمر خمسة وثلاثين عاماً وقد دخلت في سلك الجندية في السادسة عشرة من عمري وارتقيت إلى رتبة أميرالاي ولي من العمر ثلاثون عاماً ، أريد بذلك انه كان لي شيء من الشجاعة والصبر تدرجت بهما في سلم المعالي وكدت أبلغ بهما منتهى آمالي ، وهما صفتان ما لزلتا بنفس امرىء إلا رفعتاها من دركات الخمول إلى أقصى درجات التقدم وكأني بهما الآن وقد سالتا مع دمائي النازفة من جراحي وحل مكانهما هذا البرد القارص الذي لا يحتمل وطالما خضت المعامع واستهدفت لسهـــام الخطوب وعرضت نفساً رخصت في حب الوطن إلى الأخطار ، فاني أذكر معركة دفنت بها يوماً كاملاً تحت جثث القتلى ، ويوماً اقتحمت صفوف الأعـداء في حصار ساراكوس في اسبانيا وفي صدري رصاصتـان وأخرى في واركرام ثبت على ظهر الجواد إلى نهاية القتال ، وقد جرحت فخذي إحدى الحراب وتراني الآن أشبه بالأموات جسماً بغير روح ، جباناً يهرب من مطاردة القوزاق كل ذلك مما

أقاسي من البرد لا مما تزف من الدماء .

فقال له القائد بلهجة المعزي : صبراً أيها الصديق فسنغـــادر هذه البلاد المصقعة إلى بلاد تسطع بها أشعة الشمس فيخرج الأسد من عرينه .

فتنهد الأمير الاي وقال : واشدة شوقي إلى الأوطان وواأسفاه فاني سأموت قبل أن أرى بلادي . ثم تبسم ابتسام القانط وقال وهو يدفع جواذب النعاس القاتل : لا ، لا يجب أن أنام فإن علي أن افتكر بامرأتي وولدي قبـل ذلك فاصغيا إلي انكما يا صاحبي ستعيشان بعدي وسيطبع تذكار ودادي أثراً في قلبيكما فأعيراني السمع فهذا آخر ما أحدثكما به . ثم مد يده إلى فيليبون وقال : اني تركت أيها الصديق في فرنسا وطني المحبوب أمرأة في مقتبـل الشباب وطفلا صغيراً ، وعن قريب ستصبح تلك المرأة أرملة وذلك الطفـل يتيماً .. لا تقطع علي حديثي أيها الصديق فانني أتمنى لنفسي مـا تتمناه لي من العيش لأشاهد امرأتي وولدي ولكن قلبي يحدثني بقرب الوفاة وأن تلك الأرملة وذلك اليتيم يحتاجان الى نصير أمين .

فركع بستيان على ركبتيه واستشهد السماء بيديه وهو يقول : اني سأبذل حياتي ودمي قطرة فقطرة في خدمة امرأتك وولدك اذا أصابك الدهر بمكروه.

فشكره الأمير الاي وكان اسمه ارمان دي كركاز ثم حول نظره الى القائد فقال : وأنت .. أنت أيها الأخ الشفيق والصديق الصدوق ..

وكأن هذه الكلمات قد فعلت بالقائد فعل الكهربائية بالأجسام فاضطرب عند سماعهـــا كاضطراب الريشة في مهب الريح . ولكن ذلك مر بأسرع من التصور فلم يلبث أن عاد إلى ما كان عليه من الكدر ، واقترب من ارمان مصغياً اليه فقال ارمان أنت يا خير من عرفته في أيامي انك ستكون سند تلك الأرملة ووالد ذلك الطفل الصغير

فاحمر وجه القائد وبرقت اسرة وجهه غير ان ارمان لم ينتبـه الى ذلك فمضى في حديثه يقول :

— اني لا أجهل سابق غرامك بامرأتي منذ كانت تدعى باسم ذويها وأنك تذكر يوم خلبت قلبينا بأدابها وراحنا على حبها كيف تركنا لها الخيار في انتخاب أحدنا بعلاً لها ، فكنت يومئذ أوفر منك حظاً واختارتني لها قريناً برضاك فلم يكن ذلك ليقطع صلات المودة بيننا بل استحكمت في أثره علائق الوئام واستوثقت عرى الأخاء مما دعاني الى شكرك في حينه شكر محب عرف سر الولاء ودعا لك الله في صلواته إذ كنت السبب في ما وصل اليه من ذلك الهناء ..

والآن فان ذلك الزوج الرؤوف سيزج في ظلمات الأبدية وسيغادر تلك المرأة أرملة لا نصير لها الاك ، ولا رجاء لها سواك ، فأنت ستكون بعدي زوج تلك الأرملة لتكون أباً لذلك اليتيم .

نعم انك ستتزوجها من بعدي وهذه وصيتي الأخيرة كتبتها عند نشوب هذه الحرب ، وقد تركت لك بها نصف ثروتي ، أما الآن فانك ستقتسمها مع امرأتي وولدي لأني أثق بك وباخلاصك ، ولا ريب عندي بأنك ستنفذ ارادة محبتك الأخيرة . قال ذلك ومد يده السليمة إلى جيب صدرته فأخذ منها غلافاً ضخماً واعطاه لفيليبون

فاصفر وجه القائد وأخذ الغلاف بيد ترتجف وهو يقول كن مطمئناً أيها الصديق فسأ تثل لأمرك اذا اصبت بمكروه ، ولكنك ستبرأ من جراحك وستعيش لامرأتك التي طبعت على قلبي خير أثر من الاحترام .

فتبسم ارمان تبسم القانط الواثق بدنو الأجل ولم ينبس ببنت شفة بل تأوه واطبق عينيه وقد غلبه النعاس . فقال فيليبون لبستيان : لندعه ينام بضع ساعات نتناوب بها السهر عليه ، ثم اضجعاه بقرب النار وغطياه بما كان عليهما من الثياب فلم تمر دقيقة حتى سمع غطيطه .

فجلس بستيان بقرب رأسه وجعل يزيد الضرم كلما اخمدت النار او كادت وهو يحاذر من وقوع الشرر عليه ويكاد يذوب حنواً على مولاه .

اما فيليبون فكان غارقاً في لجج التصورات ملقياً بنظره إلى الأرض وهو ينكتها بحسامه الطويل، وكان يقطع تصوراته من حين الى حين ناظراً إلى ارمان نظرة احتقار وانتقام، والى بستيان نظرة حذر وتحسب. ولا بد لنا في سياق هذا الحديث من الالماح الى ماضي هذا الرجل الذي كان يحبه ارمان محبة اخاء ويثق به ثقة عمياء، وهو لو مثلت صورة اللؤم لما مثلت بغير رسمه. نقول: انه كان فاسد الاخلاق كثير اللين والمكر وهو في الأصل من رعـاع الطليان تطوع في الجيش الفرنسي فلم تكن اصحابه على فقره المدقع الا من اصحاب الملايين.

ولم يمض عليه زمن يسير حتى ارتقى الى رتبة قائد لفرط تحيله ولاحتياج الجيش الى قوادلا لبأسه واقدامه، فانه كان يستر جبنه ومكره ببراقع من الرثاء.

وقد ارتبط مع ارمان منذ خمس عشرة سنة برابط متـين من الوداد حتى أصبحا لا يفترقان. وقد لقيا منذ ثلاثة أعوام مرت على المعركة التي نحن بصددها السيدة هيلانة دبران، ابنة احد كبار القواد وكانت بارعة في الجمال فعلق بها الأثنان، اما هي فاختارت ارمان بعلا لها على ما ذكرناه آنفاً فثارت الغيرة بفيليبون واضمر الشر لرفيقه كاتماً احقاده مترقباً فرص الانتقام حتى انه اطلق عليه الرصاص في مواقع كثيرة فلم يصبه بأذى ولم يوفق لقتله وهو في كل ذلك يظهر له التودد وتزيد احقاده بازدياد محبة ارمان له شأن من طبع على الخسة والدناءة.

والآن فقد وجد ضالته المنشودة وتيسر له ما كان يحلم به من الانتقام فنظر الى بستيان الساهر على مولاه بحنو الوالدة وقال بنفسه: ان هذا الجندي يثقل علي ويحبط مساعي.. قال ذلك وانتصب على قدميه وذهب الى جواده.

فسأله بستيان: ماذا تفعل؟

- أريد أن امتحن غدارتي فانني اخشى ان تكون قد ترطبت من البرد. وعند ذلك اخذ مسدساً وامتحنه امام الجندي الذي كان يراقبه بسكون

وارتياح ، ثم اخذ مسدساً ثانياً فامتحنه كما امتحن الأول وبعد ان وثق منهما صوب احدهما على الجندي وقال : اتعلم يا بستيان ان لي مهارة شديدة باطلاق الرصاص ؟

- هذا لا ريب فيه ايها القائد .

اتعلم اني اصبت يوماً قلب عدو لي بمبارزة على بعد ثلاثين خطوة ؟

- ذلك ممكن .

ولقد فعلت اعظم من ذلك فاني كنت اراهن على ان اصيب إحدى عيني خصمي وكنت اربح دائماً .. ولكني اؤثر دائماً اصابة القلب فان ذلك يقتل الخصم على الفور ؟

فرجع بستيان مذعوراً الى الوراء لما رآه يصوب المسدس اليه وقال بلهجة الرعب ماذا تفعل ؟

فأجابه ببرود : اني اصوب الى القلب فاني لا اريد لك العذاب .

وللحال اطلق عليه المسدس فصاح ذلك الخادم الأمين من الألم وسقط على الأرض مخضباً بدمائه .

وقد دوت الغابة بصوت البارود واستيقظ ارمان بالرغم عن نعاسه الشديد فنظر الى ما حوله نظرة الرعب والقلق ورأى ذلك الجندي المسكين ساقطاً على الأرض ينظر اليه نظره المودع الآسف ويده على قلبه المطعون .

ثم نظر الى فيليبون فرأى الزبد على شدقيه وملامح الانتقـام الوحشي ظاهرة بين عينيه فنسي جراحه المؤلمة وجلس مسرعاً وهو يحاول الوقوف ، ولكن فيليبون لم يمهله بل وثب عليه وثوب النمر المفترس والقاه على الأرض فوضع إحدى ركبتيه على صدره المثخن بالجراح وضغط عليه ضغطاً شديداً وهو يقول تباً لك ايها الغر الأبله فلقد وثقت بي في حين كان يجب ان تحـذر مني كما تحذر من الد اعدائك .. انت يا من سلبني المرأة التي كانت مطمح امالي، تلك التي لم أحب ولن أحب سواها في هذا العـالم ، طب نفساً فسأتزوج

بامرأتك وسأتمتع بأموالك على ما أوصيت . والآن فلم يعد لك إلا دقيقة واحدة للحياة ، إذ لا فائدة لي من حياتك فلتمت لأحيى بعدك .

فاجتهد ارمان ان يتخلص مجذوباً بميل حفظ الحياة فعاجله فيليبون باطلاق الرصاص فسقط ارمان وهو يقول : يا ايها النذل.. وكانت هذه آخر كلمة قالها

أما فيليبون فغادر ارمان وقد سال نخاعه على يده الأثيمة وبستيان وهو غارق بدمائه ولم يطلع على ذنبه غير الله .

مضى على تلك الموقعة الهائلة والجرم الفظيع أربع سنوات أصبح في غضونها ذلك القائد الوحشي أميرالاياً وزوجاً لأرملة ذلك النبيل أرمان دي كركاز .

وكان فيليبون يصيف مع امرأته وابنها في قصر له في كرلوفان وهي من أحسن قرى بريطانيا وكان هذا القصر من قبل لعائلة أرمان دي كركاز فانتقل بعضه بالارث الى ارملته وبعضه بالوصية الى ذلك الغادر ، وهو واقع عند حدود فيتر على شاطىء البحر ، تحيط بـه من أكثر جهاته غابات كثيرة الأشجار

- ٢ -

وكان ظاهر القصر يدل على قدمه ، وهو محاط بسور تدل آثاره أنه من عهد الصليبيين ومزدان من الداخل باجمل التصاوير التاريخية وقد جاء اليه فيليبون مع امرأته في أواخر ابريل عام١٨٣٦، ومعها ولدهما الذي كان يدعى أرمان باسم أبيه القتيل ، فكان قد حصل على لقب كونت عندما خمدت نار الثورة فكان يعيش عيشة العزلة والانفراد مع تلك المرأة التعيسة التي أصبحت بعدما علمت بوفاة زوجها ارمان ، شاحبة اللون ساهية الطرف نحيلة الأعضاء

بعد ان كانت من أجمل نساء عصرها كما شهد لها بذلك كل من كان يراها في بلاط نابليون العظيم .

فبينما كانت يوماً منذ أربعة أعوام جالسة في منزلها تنتظر عودة زوجها بملء الجزع وتتسلى على فراقه المؤلم بمداعبة ولدها الصغير دخل عليها فيليبون وهو بملابس الحداد .

ولا بد لنا أن نذكر ان هيلانة كانت تكره هذا الرجل كرهاً شديداً ، وتؤنب زوجها لموالاته وتحذره منه غير ان أرمان كان طاهر القلب صافي السريرة فلم يعر امرأته اذناً صاغية ولم يرعها سمعاً ، واستمر على مودة صديقه فكان ذلك يزيد هيلانة نفوراً من هذا الرجل وبغضاً له حتى انها كانت تتشاغل عندما يزورهم أو تتمارض كي لا تجتمع به ولا تراه .

فلما رأته داخلاً عليها بملابس الحداد وهيئته تنذر بالمصاب وقفت منذعرة وقد ارتعدت فرائصها من الخوف فدنا منها وأخذ يدها بين يديه وهو يتكلف البكاء وقال : لا حيلة لنا يا سيدتي بقضاء الله فلقد فجعت بزوجك وفجعت بخير صديق لي فلنستوف البكاء اذ نحن في المصاب سواء .

ولم يمر على ذلك بضعة أيام حتى علمت الأرملة بوصية زوجها القائلة بوجوب زواجها بعده بفيليبون غير ان كره الأرملة لفيليبون كان شديداً فعصت في بادىء الأمر ارادة زوجها ورفضت الزواج بصديقه الخائن

أما القائد فانه أظهر انذهاله لوصية صديقه وانه غير أهل لها وكان واسع الصدر كثير الصبر شديد اللين فتوسل الى الأرملة ان تقبله كصديق لهـــا ولطفلها فقبلته ، وبقي بقربها ثلاثة أعوام يتظاهر بالحشمة والوقار ، ثم جعل يستعطفها بملء التودد والحنان الى ان أخذت تراجع نفسها في سابق حكمها عليه ، وكانت قد سمت رتبته في البلاط الامبراطوري واملت لولدها خـيراً بواسطته لما رأت من علو منزلته واستحالة اخلاقه فرضيت عنه بعض الرضى وركنت اليه بعض الركون فاغتنم تلك الفرصة وجعل يزيد من تذلله وتصببه

وما زال بها الى ان رضيت به بعلاً وا 'نهر قرانها .

ولكنها لم تلبث بعد ذلك القران التميس ان عادت الى سابق كرهها له ونفورها منه لما رأته من شراسته وقسوته التي كانت كامنة في صدره كمون النار ولما كان يظهر فى الانتقام من تلك الأرملة الضعيفة فرجعت إلى عزلتها فراراً من ذلك المفترس الذى كان يبسم لها امام الناس ابتسام الحب والاحترام ويبلوها بأشد العذاب عند اختلائها

وكان لا يشغل باله إلا بما يستطيع أن يسيء به إلى تلك المرأة التي لم تحبه غير يوم واحد ولا يهتم إلا بما يسهل له سبل الأنتقام منها وهي لم تسيء اليه قط بحياتها إلى أن علم يوماً أنها علقت بولد منه فوجد ضالته المنشودة وأملت عليه قريحته الجهنمية هذا التصور الفظيع (إذا مات ابنها فان ابني يرث جميع هذه الثروة العظيمة وحده ولا أسهل من اعدام طفل لم يبلغ أربعـــة أعوام) ومن ذلك الحين أخذ يترقب الفرص للوصول إلى هذه الغاية الهائلة .

ولقد سبق لنا القول أن قصر كرلوفان كان قائماً على شاطىء البحر وكان به سطح يحيط به رواق ضيق كان يلعب عليه أرمان عندما تتحول عنه أشعة الشمس .

وكانت أمه كثيرة الخشوع شديدة الرغبة في الصلاة إذ كانت تجد بها خير تعزية على أحزانها فتركته يوماً يلعب وحده على السطح وولجت غرفتها فجثت أمام صليب من العاج واستغرقت في صلاتها فلم تفرغ منها إلا وقد غربت الشمس وسار الظلام فانتبهت مرعوبة لهدير الأمواج وأول ما خطر على بالها ولدهـــا الذي لم تره بقربها .

وكان الجو قد أقتم وثارت الرياح وأدلهمت السماء فلعلعت الرعود واندفع السيل كأفواه القرب فهاجت الأنواء حتى كاد صوت الأمواج يزيد على قصف الرعود فخرجت تبحث عن ولدهـــا وهي تضطرب كالعصفور بلله القطر فلم تكد تبلغ الباب حتى لقت زوجها داخلاً بملابس الصيد وعليه ملامح الرعب

فارتاعت لرؤياه وانقبضت نفسها لمنظره فلم تستطع كتمان اضطرابها وسألته عن ولدها سؤال قلق وارتياب فاجابها ببرود أني عجبت لبعده عنك ولو لم تسبقيني بالسؤال عنه لكنت سبقتك اليه .

فاختلج فؤاد تلك الأم التعيسة وفتحت نافذة في الغرفة تطل على السطح ونادت بصوت متقطع أرمان فلم تسمع لصوتها صدى ولم تجبها غير الرياح الثائرة

وكان على الطاولة في الغرفة مصباح ضعيف يضيء بأشعته المضطربة جوانب الغرفة فنظرت إلى فيليبون وإذا بعلائم الخوف مرتسمة على وجهه وعيناه تضطربان اضطراب الأثيم الخائف فأحست بالخيانة وصرخت به تقول : ولدي قل لي ما صنعت بولدي .

أما فيليبون فانه تجلد جهد الطاقة وقال : اني لم أر ولدك ولم أدخل القصر إلا الآن .

فلم يزدها جوابه غير ريبة وخرجت من الغرفة هائجة تصيح أرمان أرمان ولكن صوتها لم يسمعه غير ذلك البحر الهائج .

- ٣

كان فيليبون قد عاد من الصيد ودخل القصر منذ حين دون أن ينتبه اليه أحد من الخدم فسار اتفاقاً إلى السطح الذي كان يلعب الطفل عليه .

وكان الظلام قد أقبل فلم يسر بضع خطوات حتى عثرت رجله بالعوبة الطفل وهي فرس صغير من الخشب فتحقق منها وجود الولد لانه لا يفارق العوبته وبينما هو يبحث عنه إذ سمع غطيطاً خفيفاً فسار اليه فرأى الطفل نائماً بقرب حصانه الخشبي وقد تعب من اللعب .

وكان فيليبون قد صرف جميع ساعات النهار في العزلة يجهد الفكرة

لتمكنه من حيلة يلقي بها الطفل في شراك الموت طمعاً بامواله وتشفياً من أمه فلم يهتد إلى سبيل ولم يفتح له باب فلما رآه راقداً على السطح أيقن بالفوز والظفر بأمنيته فاخذ الطفل بين يديه ونظر إلى الجهات الأربع نظرة السارق يحاذر رقيباً ثم التمى به إلى البحر ووقف في الرواق يراقب سقوطه بعينين تتوقدان بنار ذلك القلب الفظ الأثيم فهوى الطفل إلى البحر واحتجب عن مرآه بين الأمواج فكان كفنه الأبيض ذلك العجاج المتلاطم .

ثم وقف بعد ذلك يبتسم ابتسام المنتصر وهو يقول في نفسه : قد بلغت ما اردت فإن تلك الثروة العظيمة ستكون لابني من بعدي ولا دليل على جرمي ، فإن ما يتبادر الى الذهن هو ان الولد قد هوى الى البحر من نفسه ولا بد لي في ذلك ولم يرني احد عند دخولي فلا خوف عليّ من التهمة . ثم لبث برهة ساهي الطرف بغير حراك الى ان عاد اليه هدوءه وسكونة فدخل الى غرفة امرأته وكان ما كان من محادثتهما .

اما امرأته فكانت قد اقلقت بصياحها القصر وساكنيه فشغلوا جميعهم في البحث عن ارمان ، يجولون من مكان الى آخر ،وهي تبكي بكاء الخنساء وتنادي ولدها بصوت متقطع يذيب قلب الجماد كل ذلك وفيليبون يسير في اثرهـا وهو يتكلف الحزن ويتظاهر بالقلق ، وما زالوا كذلك الى أن عاد اليهم أحد الخدم وبيده قبعة الطفل والعوبته، فلما رآهما فيليبون اظهر الاضطراب وقال: واأسفاه اني أخشى ان يكون قد سقط الى البحر ،فوهت قوى امرأته لخوفها من هذا القول وسقطت على كرسيها وهي توشك ان يغمى عليها من الاشفاق ، فبينا الخدم يحيطون بها وفيليبون يحاول ان يطمئنها ويسكن روعها ، اذ دخل رجل غريب ووقف في الباب ينظر الى فيليبون نظرة العظمة والاحتقار ، فلم يكد فيليبون يتبين وجهه حتى رجع وجلاً الى الوراء منذعراً ، كأن الصاعقة قد انقضت عليه واتكأ على الحائط كأن رجليه قد ضعفتا عن حمله .

- ٤ -

أما ذلك الرجل الذي ظهر على باب الغرفة وراع منظره فيليبون فقد كان يناهز الأربعين من العمر مرتدياً برداء أزرق طويل عليه إشارة حمراء كما كانت تلبس الجنود في ذلك العصر وكان عالي القامة عليه ملامح الشهامة ، وقد اصفر وجهه من الغيظ عندما أبصر بفيليبون فرماه بنظرة احتقار خرجت من عينيه كالسهم المارق الى فؤاده ثم تقدم اليه وصرخ به يقول :

– أيها القاتل .

فانذعر فيليبون وقال بصوت متقطع:من الذي أرى .. بستيان ؟ أدنا يوم النشور ، أبعث من في القبور ؟

فقطع بستيان عليه الكلام وقال: نعم أنا هو بستيان ، أنا هو ذلك الرجل الذي ظننت انك قتلته وهو لا يزال حياً يرزق . نعم أنا هو ذلك الجندي الأمين الذي أطلقت عليه غدارتك فأغمي عليه لفرط ما نزف من دمائه ، ثم أفاق فوجد نفسه قرب مولاه القتيل ، نعم أنا ذلك الخادم المطيع الذي مكث في أسر الروسيين أربعة أعوام فعاد الآن يسألك عن دم مولاه الذي هدرته غدراً وعدواناً ..

ثم نظر الى الكونتسة وقال : سيدتي .. ان هذا هو الذي قتل الولد كما قتل أباه ..

ولقد تعجز الأقلام وينحبس اللسان عن وصف ما كان من الكونتسة بعد أن تبينت لها تلك الخيانة ، وعلمت بمقتل زوجها وابنها ، فزأرت كاللبوة التي فقدت أشبالها وانقضت على فيليبون انقضاض الكواسر ، تحاول تمزيقه باظافرها وهي تصيح به : أيها القاتل .. ان النطع ينتظرك وسأقودك إلى الجلاد بيدي .

فكان فيليبون يهرب من وجهها وقد شعر بدنو الأجل وهي تجد في أثره ، فبينا هي هاجمة عليـــه إذ وقفت متكئة على كرسي وصاحت صيحة ألم أضلت صوابها .

ذلك أن المخاض فاجأها وأحست بان ذلك الرجل يتحرك باحشائها فسقطت على الأرض واهية القوى بغير حراك وكان مخاضها علة نجاة ذلك الرجل الذي عزمت ان تقوده الى النطع. ذلك الخائن القاتل الذي لم ينقذه من انتقامها سوى ولده الذي كان يشفع به في أحشائها .

- ٥ -

مضى على تلك الحوادث الهائـلة أربعة وعشرون عاماً ، نعود بعدها إلى قص مـا ستقفون عليه من حـوادث ، كان بدؤهـا في أواخر أكتوبر من عام ١٨٤٠ .

كان في إحدى ليالي هذا الشهر رجل يحكم عليه من لباسه انه فرنسي الأصل قطع نهر التيبر وسار الى تراستافر ماشياً مشية الفاكر المتأني .

وكان في عنفوان الشباب له من العمر ثمانية وعشرون عاماً جميل الهيئة حسن الوجه أسود العينين ذو جبين متجعد يدل على شدة معاناة ذلك الشاب لمتاعب الحياة لندور الغضون في جباه الشبان .

وكان يسير الهوينا في طريق ضيق إلى ان بلغ مـــنزل قائم عند منتصف ذلك الطريق تعرش على جدرانه الدوالي الايرلندية ، وقد تهدلت أغصانهـا واختبأت عناقيدها الذهبية تحت الأوراق ، وكانت جميع نوافذ المنزل مغلقة والسكوت سائداً شاملاً والنسيم بليلاً لطيفاً والقمر تتماوج أشعته فوق الدوالي فلا يسمع إلا حفيف الأوراق وتمايل العناقيد .

فوقف الشاب عندما بلغ الباب وفتحه بمفتاح صغير كان في جيبه فولج منه الى دهليز ضيق الى أن وصل الى سلم طويلة من المرمر كان في أسفلها غرفة فدخلها وقد استاء إذ لم ير بها أحداً فصعد السلم بمنتهى السرعة والقلق الى أن بلغ الى غرفة فوقف أمامها يلهث من التعب وطرق الباب فسمع صوتاً لطيفاً من الداخل قال له : أدخل .

فدخل ورأى صاحبة هذا الصوت مضطجعة على مقعـــد في تلك الغرفة المفروشة بأجمل الأثاث .

وكانت الصبية على غاية من الجمال تـكاد تبلغ العشرين من العمر ، فمذ رأته نهضت مسرعة وهرعت اليه تقول ببشاشة وارتياح: لقد طال غيابك يا أرمان فاني انتظرك منذ حين .

فاعتذر لها ارمان وقال : اني كنت قادماً اليك منذ ساعة فأعــاقتني زيارة رجل طلب إلي ان أنقش له تمثالاً فكان ما كان من أمر عاقني ، ولكن ما لي أراك شاحبة اللون وعليك ملامح التأثر الشديد ؟

فاضطربت الفتاة وقالت : أنت ترى ذلك ؟

فأجابها وقد أخذ يدها بين يديه وجلس على المقعـد بقربها : نعم يا حبيبتي مرتا ويسوءني جداً أن أراك دائماً قلقة البال ساهية الطرف واجفـة القلب ، كمن يخاف أمراً ، ولقد رأيتك اليوم على ازدياد فهل تريدين أن تطلعيني على كنه أمرك ؟

فأجابت الفتاة : نعم يا ارمان انك مصيب بظنك فلقد خفت اليوم كثيراً ولذلك أنتظرك على جمر

— ممن خفت وممن تخافين وكيف تخافين وأنا بقربك ؟

فأسكتته الفتاة وقالت : إصغ إلي يا ارمان واعمل برأيي ، فانه يجب أن نغادر رومة فانك ظننت اني هنا بأمن من مطاردي وتوهمت انه لا يهتدي إلي بهذا الشارع المنفرد ، ولكن ظنونـك قد خابت ، فانه قـد علم بوجودي

برومة كما علم بذلك بفلورانسا ، ويجب أن نخرج من هـذه المدينة العظمى كما خرجنا من تلك .

وبينما كانت تتكلم اعتراها اصفرار شديد ، فسألها أرمان : أين هي فورترينا الخادمة ؟

– إني أرسلتها كي تدعوك فربما تكون قد سارت بطريق آخر غير الطريق التي أتيت منها .

– ربما ولكني موجس ريبة من تلك المرأة التي أقمتها في خدمتك وأمرتها ألا تفارقك على الأطلاق .

– لا تظن سوءاً فهي تؤثر الموت على خيانتي .

فنهض أرمان وجعل يمشي في الغرفة بخطوات غير موزونة تدل على قلقـه وارتيابه ثم نظر اليها وقال : ولكن ما الذي دعاك الى طلب الرحيل ؟

- قد رأيته .

من ؟

هو . .

ثم قامت الى النافذة وأشارت باصبعها إلى باب على قارعة الطريق وقالت: أمس رأيته بعد ذهابك من عندي واقفاً على هذا الباب وهو ينظر إلى منزلي بعين يتطاير منها الشرر وما كنت أضأت المصباح في منزلي ولكن القمر كان مضيئاً فما وقع نظري عليه حتى صرخت من الرعب وأغشي علي .

وكأنها رأته إذ كانت تقص حكايته فعاد اليها اضطرابها إلى حد خشي عليها من الاغماء ، فأخذها أرمان بين يديه وأجلسها على المقعد ثم جثـا أمامها على ركبتيه وقال أتريدين أيتها الحبيبة أن تصغي إلي . أتريدين أن تتكلي علي كما يتكل المؤمن على الله وأن تثقي بي كما يثق الولد بابيه ؟

فتنهدت مرتا وقالت : نعم أيها الحبيب قل ما تشاء فليس لي سواك في هذا العالم ، فانك عضدي ونصيري وأبي وأمي فعليك معتمدي وفي كل حال وعليك

اتكالي بعد الله

ثم أنهضته وأجلسته بقربها ، فأخذ يدها بين يديه وقال إني لقيتك منذ ستة أشهر جاثية عند منتصف الليل على باب الكنيسة باكية قانطة وعيناك مرتفعتان إلى الأفق ، فخلت اني أنظر ملاكاً هبط من السماء وكنت تبكين وتبتهلين إلى الله ان يغفر لك فدنوت منك وكلمتك بصوت لا أعلم في ذلك الحين إذا كان وجد طريقاً إلى قلبك الطاهر ولكني أذكر انك نهضت في الحال واتكأت على ذراعي فتبعتني .

وقد كنت على ثقة مني فأنقذتك من الموت وقد كنت تطلبينه ، وعوضتك عن اليأس بالأمل فكنت حينئذ من أسعد الناس وانت فقد برئت بعض البرء مما كنت تقاسيه ، أليس كذلك ؟

قالت : نعم يا ارمان فانك شريف واني أحبك .

فتنهد ارمان وقال واأسفاه ما انا إلا نقاش بسيط ليس لي اسم ولا لقب ولا موطن ، فلقد وجدت في البحر ولي من العمر خمسة أعوام وأنا معلق بما لا أعلم أصادم الأمواج بالرغم عن حداثتي وإني وإن أكن مثرياً فان صناعتي كافية للقيام باودي وأودك وسأجعلك امرأتي بأقرب حين ولكن لكي أحميك ألا يجب أن أعرف اسم عدوك وأطلع على سرك ؟ من هو هذا الرجل الذي يطاردك وكيف لا تخبرينني عنه ، ألا تظنين بي الكفاءة لحمايتك منه ؟

فأطرقت مرتا الى الأرض وقد احمر خداها من الخجل ثم جعلت تختلج وقد تبدلت تلك الحمرة باصفرار شديد كمذنب اضطر الى قرار يخاف منه ، فقال لها ارمان بصوت محب حنون خرج من صدره كمن يجهش للبكاء حبيبة قلبي ، لا تكتمي عني أمراً مهما كان من أمر ماضي حياتك فان ذلك لا يؤثر شيئاً على حبي لك الذي لا تضعفه قوة في هذا العالم

فرفعت عند ذلك رأسها وقالت واأسفاه إذا لم يكن الحب ذنباً فلا أخجل لماضي حياتي . نعم لقد أحببت حباً نقياً طاهراً رجلاً فاسد الأخلاق

لئيم دني الطبع خدعت به وخلته شريفاً ولا جرم فقد كان لي من العمر سبع عشرة سنة فاستغواني وسرقني من بيت ابي ولكن شهد الله اني ما لبثت أن عرفت ما انطوى عليه من الخسة واللؤم حتى هجرته وهربت منه .

فوقف أرمان متأثراً وقال : قسماً بحبك اني سأقتل هذا التميس

فأجلسته مرتا وقالت : إصغ ايها الحبيب فاني سأقص لك أمري مع هذا الفاجر .

فجلس ارمان وعادت هي إلى حديثها فقالت :

– إني ولدت في بلوا من أب تاجر غني وأم من الشرفاء وقد ماتت أمي وأنا في العاشرة من عمري فبعث بي أبي الى الدير وحين بلغت السابعة عشرة خرجت من الدير فلقيت ذلك الرجل الهائل

وكان أبي قد ترك التجارة وانسحب من الأشغال بثروة عظيمة فمذ خرجت من الدير ترك مدينة بلوا وذهب بي الى أرض جميلة له في أورليان وهي تبعد بضعة فراسخ عن بلوا .

وكان على بعد ساعة من منزلنا قصر جميل لضابط ايطالي الأصل فرنسي التبعة كان يدعى الكونت فيليبون .

وكان هذا الكونت يصرف مدة الصيف في هذا القصر مع إمرأته وابنه الفيكونت أندريا ، أكبر مجرم ظهر على وجه الأرض من ايام آدم وحواء .

أما الكونت فانه كان رجلاً حاد المزاج شرس الأخلاق بعكس إمرأته التي كانت مثال اللطف والدعة والذي ظهر لي انه كان يسيء اليها إساءة شديدة أثرت شر تأثير على مزاجها اللطيف فان رائيها كان يظنها في الثمانين من عمرها مع أنها لم تبلغ الخمسين .

وكانت علائق الوداد بين الكونت وبين أبي متينة فذهب بي يوماً إلى قصره حيث عرفت الكونتسة التي أحبتني بحنان وإشفاق فصرت ازورها في كل يوم وهي تزداد نحولاً ، ولكنها كانت تتعزى بقربي منها بعض العزاء .

فما مضى عـلى ذلك شهر حتى تبينت انها عائشـة مع زوجها كغريبين في هذا القصر ، وعرفت ابنها الفيكونت اندريا فتبين لي ايضاً انه لا يحب امه على الاطلاق .

لم تزل تلك المرأة الفاضلة تزيدها العزلة وهنـاً والأحزان ذبولاً حتى دنت ساعتها الأخيرة وأحست بالنزع الشديد في ليلة برد هواؤها وأظلم جوها وهي تقاسي ألم النزع وحدها لأن زوجها وابنها كانا في الصيد .

فبعثت تدعوني اليها فأتيت على الفور ورأيتها مسجاة على فراشها تختلج والكاهن بقربها يصلي صلاة الموت وبعض الخدم ركع يبكون .

وكانت تبحث عبثاً بنظرها الملتهب عن ابنها ، ففاضت روحها الطاهرة في الساعة العاشرة وكانت آخر ما قالت (اندريا يا ايها الابن العقوق) وأذكر إني سمعت خادماً طاعناً في السن قال بصوت منخفض (ان الفيكونت هو الذي قتل أمه) .

وبعد موتها بيومين عاد الكونت وابنه إلى القصر ، وكان الفيكونت يكاد لا يفارق منزلنا فلم يمض على هذا الائتلاف ثلاثة أشهر حتى استعضنا باللسان عن العين في نقل أحاديث قلبينا ، ولا أعلم كيف دخل حبه الى قلبي ولا كيف فتنت به بعد ان علمت انه كان السبب في موت أمه بل أعلم انه مرت بنا ساعة آمنت به كما تؤمن الملائكة بالله فاستسلمت اليه وضحيت والأسفاه نفساً زكية على هيكل ذلك الحب الفاسد ..

ومما كان يقوله لي بعد ذلك مراراً اني أقسم لك بما تريدين من الايمان اني سأتزوج بك .. كنت عندما الح عليه بوفاء وعوده كان يتملل برفض ابيه لما بين عائلتينا من التفاوت في الغنى ويقول ان ذلك لا يكون قبل وفاة ابي وقد اتخذ من هذا الحاجز حجة على وجوب هربنا فقال لي يوماً ألا تذهبين معي الى ايطاليا فأتزوج بك فيها ؟

- وأبوك ؟

– إنه يغضب حيناً ثم لا يلبث ان يرضى
– وأبي ؟
– سندعوه الينا .
. إذاً فلنخبره بما عزمنا عليه فهو لا يرفض اذا اعترفت له بما كان بيننا ، ولئن يكون معنا أجدر بنا وأشرف لنا من ان نكون وحدنا .

فأطرق برهة وقد ظهرت عليه علائم الارتباك ثم قال : ذلك لا يكون ابداً وعلينا بذلك الاقرار خطر شديد فان أباك شديد المحافظة على الشرف فلا آمن عليك منه إذا اعترفت له بما كان وإذا صفح عنك فهو لا يشترك معنا بخداع أبي ولكن متى علم الاثنان بارتباطنا الشرعي وعلم ابي ان لا حل لذلك العقد فهو يصفح عني لأني وحيده كما تعلمين وله بي مبرة وإشفاق .

وكان ذلك جل ما تتوق اليه نفسي وانا اعتقد به الصلاح والافراط في حبي فقبلت بما اقترحه علي وكتبت إلى ابي كتاباً كادت تمحو سطوره دموعي ثم سرت مع من عشقته نفسي في ليلة حالكة الأديم تكاد تكون اشد سواداً من حظي فبلغنا مدينة ليلان بعد ٨ ايام .

فاستأجر منزلاً رحباً وتعرف باشراف ميلان الذين كان يقدمني اليهم كامرأته فعاش فيها عيشة بذخ واسراف كانت أعظم وسيلة لتقربه من اشراف تلك المدينة وحسن علائقه مع أعيانها

وكنت دائماً الح عليه ان يكتب الى ابي ويدعوه إلى المجيء الينا فكان يماطلني في ذلك إلى ان قال لي يوماً قد وصلني كتاب من ابيك وابي يدلان على سخطهما علينا فلا استطيع الآن ان اكتب الى ابيك في هذا الشأن ولنصبر إلى ان تهدأ ثورة غضبهما

فامتثلت لما امر وصبرت كما صبر اما مسألة الزواج فكان يتجنب المباحثة فيها الى ان اعياني الأمر فكتبت الى ابي رسائل جمة لم تصله واحدة منها لأن اندريا كان يأخذها من الخادم كما علمت ذلك بعد حين .

ثم اني الحت عليه يوماً في طلب القران فأخرج من جيبه كتاباً واعطاني إياه وهو يقول : ان ابي قد طمن في السن ، وهو سيموت عن قريب ، فأتزوج بك

اما الكتاب فكان من ابيه وهذا مفاده :

(إنك مخطىء يا بني باساءتك الى تلك الصبية وإغرائها على الفرار معك ، ولكني اؤمل ان لا تقترن بها فان بين نسبيكما ودرجتيكما بوناً عظيماً ، وفوق ذلك فاني توفقت ووجدت لك عروساً موافقة فأسرع بالعودة ودع تلك الفتاة تعود الى منزل ابيها) .

فسقط الكتاب من يدي مما نالني من الضعف ، وقلت له : على ماذا عولت ؟

- على ان ننتظر .

— ماذا ننتظر ؟

- موت ابي ، فاني اعرف طباعه فاذا عصيت له امراً فهو يحرمني من إرثه لا محالة .

ثم تركني وانصرف ضاحكاً كأن لم يكن شيء .

ومن ذلك اليوم ابتدأت ان اعلم انه يريد ان يتخذني خليلة له لا حليلة ، فأصبت بحمى ضعضعت حواسي اياماً طويلة ، ثم نقهت من دائي فذهبت من يوم برئي الى كاهن واعترفت له بجميع ما كان فأملني بعفو الله عني وامرني ان اغادر هذا الرجل وان اعود الى ابي فخرجت من حضرته وقد عزمت على ان امتثل لأمره وذهبت الى منزله فأخبرته باعترافي الى الكاهن وبعزمي على الرحيل فلم يحفل بطلبي وقال لي ببرود إلى اين ؟

فأنست من سؤاله عدم الاهتمام وثارت بي الأنفة والأبوة فقلت بعظمة وكبرياء : إني سأذهب الى بيت ابي .

فتصنع الاضطراب وقال : ابوك ؟

قلت نعم ابي وهو سيصفح عني ويغفر لي ذنبي لا ريب متى علم كيف كان خداعك لي .

فتنهد وقال بصوت الحزين الآسف : واأسفاه اني أكتم عنك من زمن طويل أمراً لم أكن أجسر على إطلاعك عليه لرقة عواطفك ولخوفي عليك من تأثير الأحزان ولكني لا أجد الآن بداً من ايقافك على ما كنت أكره ان اوقفك عليه لأنك عزمت عزماً ثابتاً على فراقي .

ثم أخذ من جيبه كتاباً عليه إطار أسود وقدمه لي فأغمي علي بعد ان اطلعت عليه وكان هذا الكتاب واأسفاه ينعي أبي الذي مات من الحزن لأجلي والذي لم يقتله سواي .

قالت هذا واتكأت على صدر ارمان تبكي بكاء مؤلماً فجعل يعزيها ويلاطفها الى ان هدأت ثورة أحزانها فعادت الى تتمة حديثها فقالت :

قلت لك ان أبي قد مات ولم يكن لي سواه في هذا العالم ، فمنذ رأيتني فريدة شريدة لا ملجأ لي ولا نصير غير اندريا الذي كان حبه لا يزال متمكناً من قلبي رجعت عن سابق عزمي وعولت على البقاء معه وانا أرجو ان يرق لمصابي ويفي بوعوده لي فصرفت الشهور الأولى من حدادي وهو يتودد إلي ويعاملني بلطف وحنان ولكنه لم يلبث بعد حين ان غلبه الطبع وعاد الى معاملتي كخليلة فقطعت كل رجاء وعلمت اني كتبت أمالي على صفحات الماء .

وربما كان يحبني ، ولكن حبه لي كان أشبه بحبه لكلبه او لحصانه او لمتاع يملكه ، ثم أدركه الملل فجعل حبه يتلاشى شيئاً فشيئاً إلى ان زال تماماً وقام مقامه الجفاء والقسوة .

ولا بد انك تستغرب بقائي على حبه بعد ما ظهر لي من قسوته وبعدما تيقنته من جفائه فاني كنت معه على حد قول الشاعر :

أدعوه الى هجرة قلبي فيتبعني حتى اذا قلت هذا صادق نزعا

ولكنه كان يزدني جفاء في كل يوم ، وآخر ما كان منه انه علق ببائعة زهر

لقيها على باب أحد المراسح فشغفت قلبه وانقطع اليها حتى سئمت الحياة وعزمت عزماً ثابتاً على الهرب ولكن كيف أفر والى اين ؟ . .

- ٦ -

ولا بد لي قبل ان أذكر لك أمر فراري ان أوضح لك شيئاً عن أخلاق هذا الرجل وشراسته ، فمن ذلك انه اختصم يوماً مع ضابط نمساوي فآل بهما الأمر إلى المبارزة .

وكان من شروط المبارزة ان يكون لكل من المتبارزين الحق بالاطلاق على خصمه متى شاء فأطلق الضابط اولاً فلم يصبه فصرخت الشهود باندريا كي يطلق النار ولكنه لم يصغ اليهم بل تقدم الى خصمه وقد أيقن من فراغ غدارته حتى صار منه على قيد خطوة فوقف الضابط مكتوف اليدين باسم الثغر ولكن ذلك اللئيم لم يتأثر لتلك البسالة بل تقدم منه ايضاً الى ان وضع غدارته بصدره وقال : إنك لا تزال بريعان الشباب وسيكون حزن امك عليك شديداً .

ثم قهقه ضاحكاً وأطلق عليه الرصاص فسقط المسكين يخبط بدمائه .

وقد كان مولعاً بالقمار وفاتحاً منزله للمتقامرين فكان كثير التوفيق يربح في كل يوم أرباحاً عظيمة ولكن حظ المقامر لا يدوم ولا يثبت على حال .

وقد اتفق يوماً انه خسر مبالغ طائلة أربت على كل ما ربحه فانصرف جميع المدعوين ولم يبق منهم إلا البارون سبولتي وهو كثير العناد في اللعب شديد الحظ فيه فأقام يلعب وحده مع أندريا .

وكان اندريا قد امتقع وجهه وأخذ العرق البارد يتصبب من جبينه لفرط ما خسر في تلك الليلة المشئومة فكان يلعب بحدة ويأس بعكس البارون الذي كان يلعب بمنتهى البرود كمن هو واثق من حظه .

وكان قد ذهب اكثر الليل فلم يبق أمام اندريا سوى ورقة واحـدة بالف فرنك فخسر ولما لم يعد لديه شيء وأحس بعزم البارون على الانصراف قال له : أيها البارون ان الدراهم قد نفدت مني ولكن ابي وافر الغنى واني اريد أن تلاعبني على الشرف بمائة الف ريال فقط .

فتملل البارون ولكنه خشي ان يسيء اليه برفضه بعد كل ما كسب منه فقبل بذلك على شرط ان يلعب دوراً واحداً بلعبة (الكاراتيه) فبرقت اسرة اندريا باشعة الأمل وأخذ الورق وقدمه لخصمه .

واني لم اجد اشد هولاً منهذا اللعب ولا اعظم خطراً على اندريا من خسارته فيه فان شرفه كان متعلقاً على الخسارة او الربح لأنه كان على ثقة من ان اباه لا يمده بشيء وإذا خسر ولم يدفعه في اليوم الثاني حسب القواعد المقررة في المقامرة فانه يخسر شرفه وتسقط حرمته عند أشراف ميلان .

فأخذ البارون الورق وخلطه جيداً ثم شرعـــا في اللعب فربح اندريا في مرتين اربعة أعداد ولم يبق عليه إلا عدد واحد ليربح فخسر ذلك العـدد ، وربح في الدور الثاني ايضاً فتساويا في الأعداد وأصبح كلاهما في حاجـة إلى عدد واحد ، ولكن الأرجحية كانت للبارون لأن الورق كان بيده ، فنظر اليه اندريا نظرة النمر المفـترس وقال : ألا تريـد ان توقف اللعب ونؤجله الى الغد .

— لا حاجة الى ذلك .

ثم خلط الورق وأعطاه وبعد ذلك رمى ورقة الى الأرض فكانت (الروا) وعدده واحد في قاعدة هذه اللعبة فربح البارون ونهض يقول : انك مديوني ايها الفيكونت بمائة الف ريال

فقال اندريا بصوت متهدج من اليأس لنلعب ايضاً ايها البارون فاني كثير الغنى .

— لم تسبق لي عادة ايها الصديق ان العب مرتين على الشرف وفوق ذلك

فان الصباح قد طلع وانا في حاجة الى النوم .

فسكت اندريا وكأن الصاعقة انقضت على رأسه ، ثم جعل ينظر بجمود الى البـارون وهو يجمع ذهبـه وأوراقه ، وأنا اراقبه حتى خشيت عليه من تأثيرات اليأس .

وبينما انا انظر اليه فاكرة في مصيره وأ كاد أذو ب إشفاقاً عليه إذ رأيت عينيه قد برقتا باشمة من الأمل واستحالت هيئته بغتة من القنـــوط الى البشر فاعتذر إلي لكونه اضطرني الى كثرة السهر وقام يشيع البارون .

وكان جميع الخدم نياماً وانا وحدي ساهرة وقد نالني من اليأس لخسارتـــه نفس ما ناله . فلم يمض خمس دقائق حتى عاد الى المنزل وعيناه تقدحان بشرر الغيظ فرأيت باحدى يديه خنجراً مصبوغاً بالدماء وباليد الثانية محفظة وبها جميع ما كسبه البارون تلك الليـــلة الهائلة ، فصرخت من الرعب وهربت من ذلك المنزل التعيس بغير ان يراني فعثرت وانا أعدو في الحديقة بجثة البـارون القتيل فزادني ذلك رعباً على رعبي وأسرعت في العدو وانا لا أعلم اين اسير الى ان بلغت الكنيسة التي رأيتني منطرحة على بابها وكان ما كان من أمر إنقاذك إياي ومسيري معك .

فقال ارمان: قد علمت الآن ذلك السر في يأسك أيها الملاك المعبود وعلمت لماذا تلحين في طلب الفرار .

– كلا فانك لم تعلم بعد كل شيء فان هذا الشقي قد علم باقامتنا في فلورانسا وبعث إلي بهذه الرسالة الوجيزة وهي : (إرجعي إلي حالاً وإلا فان عاشقك الجديد مقتول لا محالة) ، يريد به انت . فهـــل علمت الآن السبب الذي دعوتك لأجله الى مغادرة فلورانسا لأننا لو بقينا فيها لـكان قتلك فهو ذو قلب لا يعرف الرحمة ، والآن فانه يجب علينا ان نترك رومة أيضاً لأنه عالم بوجودنا فيها

ثم طوقته بذراعيهـا وقالت له بحنان · لنهرب ايهـا الحبيب .. لنفر من

ذلك القاتل .

- كلا لا تفارق ابداً رومة وإذا جسر على الدخول الى هذا المنزل ، فاني اريك كيف اقتله

فاختلجت مرتا كالورقة تحركها رياح الخريف وجعلت تنظر الى ارمان نظرة ذهول فأخذ ساعته من جيبه ونظر فيها ثم قال : إني ذاهب الآن لقضاء بعض المهام وسأعود اليك بعد ساعة فأسهر على عتبة بابك والويل لذلك الشقي اذا جسر على الدنو من هذا المكان .

قال ذلك وخرج عاجلاً وجهته نهر التيبر وفيما هو خارج لقي الخادمة مرتى وهي عجوز كهلة أقامها في خدمتها لحراستها ، فقال لها : أسرعي الى سيدتك واقفلي الباب جيداً ولا تفتحي لأحد على الاطلاق فان معي مفتاحاً .

فانحنت الخادمة وذهبت ولكنها لم تكد تبلغ المنزل حتى سمعت صفيراً سرياً فولجت الباب وبدلاً من ان تقفله كما أمرها مولاها تركته مفتوحاً .

وكانت تلك الليلة حالكة الظلام والشارع خاوياً خالياً من المارة فلما دوى ذلك الصفير ظهر على اثره رجل كان يمشي الهوينا الى ان بلغ المنزل ففتح الباب ونادى بصوت منخفض « فلورينا » فأجابت الخادمة : ها أنا .

- وها انا قد أتيت .

على الرحب والسعة فانه قد ذهب ولكنه سيرجع .

- لا بأس فان الوقت فسيح لدينا وقد هيأت العربة فلم يبق علينا إلا العمل .

ثم اخذ كيساً من جيبه واعطاه إياها على سبيل المكافأة فشكرت فضله ودعت بالتوفيق ثم تركت المنزل وهربت .

أما هو فانه صعد السلم الى غرفة مرتا فطرق الباب ثلاثـاً ولبث ينتظر بسكينة ان يؤذن له بالدخول .

فاضطربت مرتا إذ علمت ان الطارق لا يمكن ان يكون ارمان لأنه لم يحن وقت إيابه ولا الخادمة لأنها اعتادت أن تدخل بغير استئذان وفيما هي مضطربة

حائرة لا تعلم ما تعمل إذ فتح الباب ودخل ذلك الرجل فصرخت صراخ القانط ورجعت الى الوراء كأنها رأت الشيطان بصورة ذلك الانسان

أما هو فلم يبال بهذا الاضطراب ولم يكترث بما لقيه من اندعارها بل انه خلع رداءه وتقدم منها فقال : هذا أنا .

فقالت بصوت مختنق : أندريا !

– نعم اندريا فما الموجب لعجبك .

فرجعت ايضاً الى الوراء مذعورة ولم تحر جواباً فدنا منها وقال لها ببرود : ايتها الحبيبة انك هربت مني بسبب بسيط دلني على ضعف قلبك وشدة طيشك وكان يجب ان تعلمي انك اذا تركت الفيكونت اندريا فهو لا يتركك لأنــك تعلمين انه من الذين لا يدعون خليلتهم تفر منهم الى رجل عامل لا ثروة عنده ولا رزق له إلا من شغل يديه .

وكان أندريا في الخامسة والعشرين من عمره أشقر الشعر ربعة القامة جميل الطلعة قوي الاعصاب فدنا منها وهي منطرحة على المقعد بين حية وميتة وقال لها بلطف هيا بنا ايتها الحبيبة فإنك لا تعلمين إني لا ازال على ما كنت عليه من حبك .

ثم أخذ بيدها فنفرت وأفلتت منه وهي تصيح به إذهب من هنا .

فقال لها بصوت المتهكم : إن ذهابي لا بد منه ولكننا نذهب سواء لأني ما أتيت إلا لأجلك وقد شدت لك قصراً في نابولي فهلم بنا اليه نقيم على رغد العيش ونعيم الحياة .

فرجعت مرتا مذعورة الى ان لصقت بالحائط وقالت : كلا ذلك لا يكون فاذهب عني لأني أبغضك .

ذلك ممكن ولكني أحبك فالبسي شيئاً يقيك البرد ، وهلمي بنا فإن الوقت ضيق .

ولما رأى منها ذلك النفور وأيقن أنها لا يمكن ان تتبعه عن رضى أقبــل

عليها وحاول ان يحملها بين ذراعيه ويفر بها فصرخت تستغيث · إلي يا أهل النجدة ، إلي يا أهل المروءة ، إلي يا أهل العرض !

فلم يجبها غير الصدى ، أما اندريا فإنه حملها بين يديه ومشى بها الى الباب وفيما هو يسير بها وهي تستغيث ولا مجيب إذ سمعت وقع اقدام سريعة على السلم وكأنها علمت ان تلك الخطوات هي خطوات ارمان ، فصرخت بذلك الصوت الذي تستغيث به النساء في موقف الخطر : إلي يا ارمان .

فألقاها أندريا على مقعد في ساحة الدار وتأهب للقاء عدوه الألد .

أما مرتا فانها لم تنقطع عن الصراخ ولم تكف عن الاستغاثة حتى بلغ صوتها الى مسمع ارمان فهرول اليها كالنمر المفترس .

وقابله أندريا على الباب فصرخ به ارمان : إلى الوراء ايها المختلس .

فأجابه اندريا بمثل هذا الشتم ثم جردا خنجريهما والتحم بينهما القتال فلم ير اشد هولاً من هذه الساعة

أما مرتا فانها لم تر شيئاً من هذه المعركة الهائلة لأنها أغمي عليها ووقعت قرب المقعد الذي كانت عليه جثة باردة بغير حراك ، فلم ينتبها اليها وشغلا عنها بما هما فيه وكذلك الجيران والمارة فانهم كانوا يسمعون صراخ المتقاتلين ولا يبالون شأن سكان إيطاليا في ذلك الزمن لكثرة تعدد مثل هذه الحوادث ، ويقولون ليس من الحكمة أن نتداخل في شؤون الغير

ومر عليهما ساعة وهما في أشد قتال حتى سالت الدماء من جسديهما وصبغت ثيابهما بلون الارجوان فكانا إذا تعبا من الصدام يفترقان برهة وهما يلهثان لخفوق قلبيهما وكلاهما ينظر إلى الآخر بعين الأفعى ثم ينقضان على بعضهما انقضاض الكواسر ، وما زالا يتراوحان بين النصر والفشل إلى أن لاحت فرصة لأندريا فطعن خصمه بخنجره طعنة وقعت في عنقه فسقط على الأرض لا يعي ، وهكذا انتصر أندريا على أرمان وأسرع إلى مرتا وهو مخضب بالدماء فحملها بين يديه وخرج بها مسرعاً فرحاً وهو يقول · ظفرت بها وهي لي ..

يوجد في باريس شارع عظيم بالقرب من مونتمارتر يدعى شارع بريداً يجتمع ليه الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازله مختصة بارباب الحرف وبعض المتمولين وكان يحيي به في أكثر الأحياء ليالي رقص عمومية يحضرهـا من يشاء بازياء مختلفة وبراقع على الوجوه يراد بها التستر والخفاء جرياً على عاداتهم في مثـل هذه الحفلات .

وقد غص في أحد الليالي منزل أحد المصورين بالناس من مدعو وطفيلي فدار الرقص والتفت الخصور وترنحت القدود على أطيب الألحان .

وان بين اولئك المدعوين شاباً مرتدياً بملابس سوداء ، وعلى وجهـه برقع كان ينظر إلى تلك الحفلة نظرة الازدراء وهو واقف على شرفة تطـل على الطريق ، لاه عن الرقص وبهجة ذلك المجلس بتأملات عميقـة ، وتصورات كان يجسمها التأثر فيخرجها صوتاً متقطعاً ، بحيث لو دنا منه رقيب لسمع كل ما يقول .

وكان ينظر إلى منازل باريس وقصورها الباذخة بملء السويداء وهو يقول بصوت منخفض

« هكذا تمر الحياة وتسير بنا الأيام وكلنا نسعى وراء السعادة ونجد في أثر النعيم ولا ينال من ذلك ارباً ولا تقضى له لبانة .. أرقصوا أيها المغترون فانـكم لا تزالون في عنفوان الشباب ونضارة العمر ولم تصلوا بعد إلى متاعب الحياة . إفرحوا واضحكوا فإنـكم لا تهتمون بغير أنفسكم وأعينـكم غافلة عن إخوانـكم الذين يتعذبون ويبكون .

« يا مدينة باريز العظمى ويا ملكة العواصم ويا أم البلاد فيك اجتمع النعيم والهناء وبساحتك استقر البؤس والشقاء . هنا النعيم طالع وهناك البؤس مخيم

وأمامي الحظ مقيم وورائي الكد عامل وعن يميني أغاني السعداء وابتسام المحبين وأحلام الآمال الذهبية وعن يساري بكاء المنكودين وشقاء الأرامل والأيتام وأنين الموجع ودموع ابن السبيل .

« هنا ضجيج مركبات الموسرين وهناك عويل المظلومين وصوت سياط الجائرين وقلقلة مفاتيح السارقين . أيتها المدينة العظمى لقد حويت وحدك من الفضائل والرذائل اكثر مما حوته جميع ممالك الدنيا . يا بابل القديمة ويا مرسح الوقائع الهائلة لقد عجزت شرائعك عن معاقبة الجانين وعجز أولو البرفيك عن اغاثة المساكين فلا عوقب المسيء ولا كوفيء المحسن فمن لك برجل موسر طاهر الأخـــلاق يغل يد الظالم ويجبر قلب البائس ويرثي لدمع الأرملة ويحن لشقاء اليتيم . أواه ومن لي بالمال ؟ فلو كنت مثرياً لكنت ذلك الرجل » .

وقال ذلك ثم تنهد تنهداً طويلاً وحاول الدخول إلى ساحة الرقص فاعترضه أحد الرقاصين وكان متستراً بثوب أيكوسي وقال بلهجـة سخرية ، عفواً يا سيدي فاني أرى تشابهاً بين أخلاقك وثوبك المقتم

فلم يكد يسمع الشاب صوت الايكوسي حتى اختلج فؤاده واضطرب ووقف مصغيــاً إلى حديث الايكوسي وقد تبين له انه سمع هذا الصوت في موقف شديد فقال الايكوسي : يخال لي إني سمعتك تحدث نفسك بأحاديث جليلة الفائدة .

— ربما .

— ألم تقل فيما كنت تحدث بـه نفسك انك لو كان لك مال لكنت ذلك الرجل ؟

— نعم يوجد مهمة عظيمة لا يستطيع أن يتولاها في هذه المدينة الرحبـة إلا من كان كثير المال .

— أنا لها فان أبي أصبح على أهبة الموت وسيدع لي بعد موته دخلاً سنوياً يزيد على المليون .

- أنت ؟

- نعم أنا .

-- إذاً أنظر إلى هذه المدينة التي بلغت إلى أضعاف ما بلغته بابــل من العظمة . أنظر اليها تر الذنوب تحتك بالفضائل وأصوات الضحك تقترن بأنات البكاء وأغاني الحب تمتزج بدموع اليأس والقـاتل السفاك يمشي على الأرض التي يمشي عليها الورع الشهيد ، ألا نظن أن الرجل الحاذق الموسر يقدر أن يفرق بين هذه الأضداد .

فنظر اليه الايكونت وقال له بصوت الهازىء : لقد أصبت فيما تقول فان من كان مثرياً في هذه المدينة يعمل بها ما لا تقوى على عمله الأبالسة فان بها كثيراً من النساء تغري وكثيراً من البنات تباع وتشرى ولا أسهل على صاحب الثروة من أن يغري الفتاة التي تشتغل الليل والنهار لكسب درهم تنفقه على طعامها إذا أراحها من عناء هذه الأشغال بما ينفق عليها من المال ولا أقرب اليه من إفساد ذلك الشاب الذي يعيش من عرق الكد والعمـــل أن يشتريه بالذهب الوضاح والمرء ميال إلى الراحة مفطور على الكسل . هذا الذي أفهمه من هذه المهمة وهذا ما كنت أجريه بفضل أموالي لو لم أكن في غنى عنه بما هو موفور لدي من أسبابه .

وكان هذا الرجل مرتدياً بثوب يمثل دون جوان، وهو رجل شهير بالفساد، فأتم حديثه يقول ولا جرم إذا كنت أصرف اهتمامي إلى مثل هذه الشؤون فأني أمثل دور صاحب هذا الثوب التي لا تجهل سيرته فلا فضيلة عندي إلا ما تعتقدونه رذيلة ولا خيانة إلا ما تتوهمونه شرفاً وصدقاً فان الملاذ خلقت لي فوجب علي أن أتمتع بها وأسعى وراءها وما الشرف والمروءة والفضائل غير احاديث أوهام. قال هذا وهو يضحك ضحك الساخر ثم أزاح البرقع عن وجهه فرجع ذلك الشاب متزعجاً إلى الوراء وصاح قائلاً ، أندريا !

فقال الفيكونت وكان هو اندريا بعينه ، نعم أنا هو فهل تعرفني ؟

- ربما .

- إذن أزح البرقع عن وجهك عسى أن أعرف من أنت كما عرفت من أنا .

- لم يحن الوقت بعد وستعرفني عند العشاء .

- لماذا ؟

- ستعلم ذلك فيما بعد .

ثم تركه ودخل الى قاعة الرقص فتبعه أندريا وهو يقول: عجباً يخال لي اني سمعت هذا الصوت ولا أذكر أين .

وبعد ذلك بهنيهة جلس جميع الحضور على المائدة ورفعوا البراقع عن وجوههم حسب العادة المألوفة عندهم فلم يبق منهم واقفاً ومستتراً غير ذلك الرجل الذي كان يحادث اندريا على الشرفة

فاستغرب الجميع وقوفه وتستره وقالت إحدى النساء : نحن على المائدة الآن فاجلس وازح البرقع .

لم يحن الوقت يا سيدتي فاني آليت على نفسي ان لا أعلمكم بنفسي قبل ان أقص عليكم حديثاً محزناً مؤثراً .

- أنقص أحاديث الحزن في مثل هذا المقام ؟

- ولكنه حديث غرام .

- إذا كان حديثك عن الحب فلا بأس ، فان حديث الغرام شائق كيف كان .

- ولكنه محزن يا سيدتي واني أخشى ان لا يقع منكن موقع القبول او يكون له عليكن تأثير .

فصرخ الجميع قائلين : لا بأس ، قل .

فاسترعاهم السمع وقال :

- « أنا صاحب هذه السيرة التي سأقصها عليكم ، وقد جرت تلك الحادثة لي منذ سنين عندما كنت في ربيع شبابي ونضارة عمري ، ذلك أن من الشبان

من يعشق كثيراً من النساء فيتصبى الواحدة حتى تحسبه أسير غرامها ، ويهيم بالثانية حتى تخاله قتيل هواها ، يحن الى هـــذه فتظنه وقع في شرك حبها ، ويتشوق الى تلك فلا تشك ان الوجد قد ملك قياده وصيره لها عبداً ، أمــا أنا فاني لم أحب إلا امرأة واحدة حباً طاهراً مقدساً ، وكانت أول مرة دخل فيها الحب الى قلبي فلم أكن احبها حباً بل أعبدها عبادة .

وكانت معرفتي بها اني رأيتها في إحدى الليالي المظلمة راكعة على عتبة باب الكنيسة تبكي وتستغفر الله عما جنته باستسلامها الى شاب عشقته فخانها وهربت إذ تبين لها انه مجرم لص سفاك .

فارتجف اندريا عند سماعه هذا الكلام اما الشاب فلم ينتبه اليه بل اندفع في حديثه فقال :

— وقد أراد ذلك السفاك أن يسلبني إياها بعد ما بحث وعلم انها عندي فدخل الى منزلها دخول السارق وبينما هو يحاول ان يفر بها وهي تصيح وتستغيث إذ دخلت أنا وهي مغمى عليها بين يديه .

فتطاعنا بالخناجر — ولا أذكر شيئاً مما كان بيننا ولا كم دامت تلك المعركة الهائلة ، بل أذكر انه طعنني بخنجره طعنة سقطت على أثرهــــا لا أعي ، ولم أستيقظ إلا بعد ساعتين فوجدت نفسي غريقاً في بحر من الدماء وذلك السفــاك قد هرب بمن أحب .

قال هذا ونظر إلى اندريا فرآه أصفر الوجه والعرق ينصب من جبينه فعاد الى حديثه فقال :

ولبثت ثلاثة أشهر أقاسي عذاب النزع وانا بين الموت والحياة ، ولكني كنت في عنفوان الشبــــاب فتغلبت قوى الشبيبة على تلك الحمى التي كدت أصل بها الى الموت ، وشفيت من مرضي فقمت أطوف البلاد باحثاً عمن عشقتها نفسي وعن خاطفها ذلك اللص الذي كاد ينزع حياتي بنزعها مني .

وما زلت أطوف حتى التقيت بها في منزل حقير بقرية من قرى ايطاليا وحيدة شريدة وقد غدر بها وتركها بغير مستقبل وبغير مال فماتت والأسفاء بين يدي وهي تبتهل الى الله وتسأل لقاتلها الغفران » .

ثم أجال نظره بين الحضور الذين كانوا محدقين به كأن على رؤوسهم الطير وقد ذهب الضحك من أفواههم وتقطبت وجوههم فقال :

– والآن فإن هذا الرجل بل هذا اللص بل هذا السفاك قد لقيته هذه الليلة منذ ساعة وآن لي أن انتقم لتلك المرأة التعيسة ولنفسي نعم لقيت هـــذا الخائن فهو هنا بينكم .

ثم أشار بيده الى اندريا وقال : وهذا هو

وبينما اندريا يثب عن كرسيه إذ أماط الشاب اللثام عن وجهه فصرخ جميع الحضور · هذا ارمان النقاش .

أما أرمان فانه لم يبال باندهالهم بل نظر الى اندريا وقال بصوت يتهدج من الغضب اندريا هل عرفتني . .

وفيما جميع الحضور منزعجون يتوقعون عراكا هائلا بين الاثنين إذ فتح الباب وولج منه رجل كهل بملابس سوداء فتقدم الى انـدريا دون ان ينظر نظرة الى الحضور وقال له :

– سيدي الفيكونت انك تعلم اشتداد وطأة المرض على ابيـك الكونت فيليبون وهو الآن على فراش الموت يريد ان ينظرك النظرة الأخـيرة لينال تعزية لم تنلها سيدتي والدتك .

فاغتنم اندريا هذه الفرصة للتخلص من موقفه الحرج ونهض فودع الحاضرين بالاشارة فمشى .

اما ذلك الشيخ الذي جاء يخبره عن نزاع ابيه فانـه مشى في أثره ، وفيما هو يجيل نظره في الحاضرين إذ لاحت منه التفاتة الى ارمان فرجع الى الورا منذهلا وقال :

— إلهي . ماذا أرى ؟. إن هذه حقيقة رمم الكولونيل أرمـــان دي كركاز .

* * *

أما الكونت فيليبون والد اندريا، فقد كان منذ ساعة مضطجعاً على فراش الآلام وبالقرب منه خادم كهل قوي الأعصاب يهيىء له دواء .

فكان الكونت يقول لذلك الكهل :

— إني سأموت يا بستيان ولم يعد لي بالحياة أقل مطمع ، فهل شفيت غلك من الانتقام ؟ . إنك بدلاً من ان تقودني الى المشنقة وكان ذلك ميسوراً لك ولم يزل بوسعك ، أثرت أن تكون دائماً بقربي لأذكر برآك سابق أيامي ، فكنت تجلني بلسانك وتحتقرني بقلبـــك ، وتدعوني بمولاك وأنا لا أشعر بعذاب أشـد هولاً من هذه الكلمـة . ألم يرتو غلك الى الآن ؟ ألم يحـن لك يا بستيان ان تعفو عن ذنبي الذي عوقبت فيه على الأرض ، وسأجزى عنه في السماء ؟

فقال بستيان . كلا يا مولاي ان صوت ذلك الكولونيل لا يزال يصيح بك ايها التعيس لماذا تزوجت بامرأتي ؟

— ماذا تريد مني ايضاً ؟ فانك تراني أموت وليس بقربي احد ، حتى ولا ولدي .

أريد ان أنتقم لتلك المرأة الفاضلة التي ماتت دون ان تتزود من وداع ولدها . أريد ان تموت ايضاً كما ماتت دون ان تنظر ولدك .

فاجتهد فيليبون ان ينهض من فراشه وهو يقول : ولدي .. أريد ان

أرى ولدي .

ولكن الضعف كان يمنعه فلم يستطع حراكاً

فأجابه بستيان : إن ولدك متبع أثرك ، وهو مثلك فاسد الأخلاق بذيء الطباع يرتكب كل منكر ومحرم ولكنه ولدك ويسرك فيما اظن ان تنظر اليه النظرة الأخيرة قبل الموت .

فانهالت دموع الحنان من عيني فيليبون ، وقال : ولدي دعني أنظر ولدي ..

— إنك لن تراه أبداً ، فهو غائب عن القصر ولا أحد يعلم اين هو سواي فلا تطمع بمرآه.

— بستيان أليس بقلبك رحمة ؟

— لا تذكر الرحمة أو قل أين كان قلبك عندما قتلت الكولونيل وابنه وامرأته ؟

فتنهد فيليبون تنهد محرم أجبر على الاقرار وقال نعم اني قتلت ارمان دي كركاز بالرصاص وقتلت امرأته التي صارت امرأتي من بعده بالحزن وسوء المعاملة أما ابنه .

— أتنكر أيها الخائن انك القيته عن سطح المنزل الى البحر ؟

— لا أنكر ولكنه لم يمت .

— كيف ذلك : ألم يمت ؟

— كلا ، فقد أنقذه الصيادون وذهبوا به إلى انكلترا ، وبعد أن ترعرع ذهب إلى إيطاليا ، ومنها عاد الى فرنسا ، وقد عرفت ذلك منذ ثمانية أيام

— اين هو الآن وكيف عرفت ذلك ؟

فانقطع صوت فيليبون وقد بلغت روحه التراقي ، فدنا منه بستيان وقال

بصوت الآمر قل كيف عرفت ذلك وأين هو ؟

- عندما خرجت المرة الأخيرة أتنزه ، لقيت وأنا في المركبة ، شاباً يبلغ الثلاثين من العمر يمشي على مهل ، وكانت المركبة تسير بي سيراً بطيئاً فتبينت وجه ذلك الشاب ، فرأيته يشبه ارمان دي كركاز شبهاً تامـــاً ضاع له رشدي ، فتبعته وبحثت عنـــه ، فعلمت انه نقاش ، لا يعـلم من أمر مـــولده سوى ان الصيادين أنقـــذوه من الأمواج ، وانـــه كان يدعى أرمان .

فقال بستيان وقد طار فؤاده شعاعاً لهذا الخبر : أيها التعيس إذا أحببت أن ترى ابنك وان لا يدنس اسمـــك بما عندي من البراهين ، فأرجع تلك الثروة التي تتمتع بها إلى ذلك الشـــاب ، واكتب بيدك انك سرقتها منـــه وأنا أجده .

- لا حاجة الى ذلك ، إذ لا يحق لي أن أرث أرمان دي كركاز إذا كان ابنه حياً ، فما عليه إلا ان يظهر حقيقة مولده ، فيرجع اليه الشرع ذلك المال

ذلك لا ريب فيـــه . ولكن كيـــف يتسنى له أن يثبت كونـــه ابن كركاز ؟

فأشار فيليبون بيده الى صندوق أمامه وقال . إني لما رأيتني على فراش الموت تذكرت سابق أيامي ، فندمت على مـــا فرط مني وكتبت تاريخ ذنوبي مضيفاً اليه جميع الأوراق التي تثبت نسب ارمان ليكون هذا الاقرار كفارة عن ذنبي

فأخذ بستيان الصندوق وأعطاه لفيليبون ففتحه بيد ترتجف وأخذ منه ملفاً من الورق فأعطاه لبستيان .

أما بستيان فانه أخذه والفرح ملء فؤاده وقال : طب نفساً فسأجد الولد

والآن فاني أسامحك عما أذنبت به إلي وسترى ولدك

ثم تركه وانصرف فركب في مركبة وقال للسائق أسرع إلى فندق بيكال (وهو المنزل الذي كانت فيه حفلة الرقص) .

وبقي فيليبون وحده يقاسي ألم النزاع وهو يلتهب شوقاً لرؤية ولده ، فلم يمر على انتظاره ساعة حتى فتح الباب ودخل اندريا وهو بالملابس التي وصفناها ، وكأنما الله اراد أن ينهي حياة هذا المجرم بالعذاب فانه لم يكد يرى ابنه بملابس الرقص حتى أدار وجهه الى جهة الحائط فتأوه وأسلم الروح قبل ان يتمكن ابنه من الوصول اليه .

فأخذ اندريا يده فلقيها باردة فوضع يده على قلبه فوجده بغير حراك فابتسم وقال :

- ها قد مات أخيراً وصارت لي وحدي تلك الأموال .

ولم يكد يتم عبارته حتى فتح الباب ودخل منه اثنان احدهما بستيان والآخر ارمان فنظر اليه بستيان شذراً وقال :

- إن هذه الأموال ليست لك بل لك السجن الذي ينتظره أولاد مثل ابيك ايها التعس ، فاعلم الآن ايها الفيكونت ، ان أباك قد قتل زوج أمك الأول ، ثم رمى بأخيك الأكبر الى البحر وهذا هو أمامك . أما أبوك فقد ندم وهو على فراش الموت على ما اقترفه من الذنوب ، فأرجع الأموال المسلوبة إلى صاحبها ، وأما أنت فلست الآن في منزلك بل في منزل ارمان دي كركاز . فاخرج من هنا .

فنظر اندريا نظر الباهت المنذهل الى أرمان فأخذه أرمان ومشى به إلى شرفة تطل إلى الطريق فقال :

- أنظر الى باريس التي أردت ان تستخدم ثروتك بها لإغراء النساء ، وإضلال الرجال ، أما أنا وقد رجعت الي تلك الثروة فسأنفقها لخير الأعمال ، فاخرج الآن من هنا فاني سأجتهد أن أنسى كوننا ابني أم واحدة ، كي

لا أذكر إلا ذنوبك وتلك المرأة التي قتلتها ، فاذهب من هذه المدينة واحذر أن أراك

فمشى أندريا ، وقد شعر بالغلبة ، إلى أن بلغ البـاب ، فالتفت إلى أخيه وقال :

– إن الأيام بيننا ، فإذا أردت ان تكون مثال الفضيلة فسأكون رسول جهنم على الأرض ، وستكون باريس معترك القتال .

ثم خرج وهو يضحك ضحك اليأس ويتهدد السماء بقبضتيه .

انتهت المقدمة

– ١ –

السير فيليام

كان في إحدى ليالي ديسمبر الباردة رجل ملتف برداء طويل يمشي على رصيف سانت بول بالقرب من القلعة غير مبال بالبرد ، وبما كان يهطل عليه من المطر وكان يقف من حين الى حين ينظر الى النهر السائر بالرياح الشديدة ويحدث نفسه بكلام متقطع غير مفهوم .

وما زال يمشي الى ان بلغ الى منزل بالقرب من فندق لمبرت ذي ستة أقسام بعضها فوق بعض ، فوقف عنده ونظر الى نافذة القسم الأعلى فرأى عليها مصباحاً موضوعاً بشكل يدل على انه اشارة متفق عليها فنظر اليه هنيهة وقال : ذلك يدل على ان كولار في منزله ينتظرني .

ثم أدنى إصبعيه من فمه وصفر ، فانطفأ المصباح للحال ، وبعد عشر دقائق أجيب بصفير مثله ، فدنا من الباب وما وقف هنيهة حتى سمع وقع أقدام ضعيفة ثم تلاها صفير آخر فأسرع إلى لقاء القادم ، وقال له سائلاً : كولار

قال كولار : نعم .

– يسرني انك أمين على الملتقى .

– ليس ما يعيقني عن خدمتك وارجوك ان تخفض صوتك وأن لا تدعوني باسمي فاني اذا عدت إلى ذلك فلا أخرج منه .

– إنك مصيب ولكن الشارع مقفر وليس هنا من يسمعنا .

– لا ضرر من الحذر وأرى انالأوفق ان نذهب الى شاطىء النهر فنتحدث هناك باللغة الانكليزية فاذا اتفق مرور أحد فهو لا يفهم ما نقوله

– ليكن

ثم مشى الاثنان الى جهة النهر وهما غير مكترثين بالمطر فقال كولار : متى عدت من لندره ؟

– في الساعة الثامنة من هذه الليلة وأنت ترى اني لم أضع الوقت فقل مـا فعلت أنت في مدة غيابي ؟

– جمعت عصابة على غاية الموافقةوإن يكن الباريسيون لا يعدلون الانكليز في مهنتنا ولكني فعلت ما قدرت عليه، وإننا نقدر ان ندربهم في مدة وجيزة وستراهم وتفحصهم .

– متى ؟

– الآن إذا أردت .

– هل اتفقت معهم على الملتقى ؟

– نعم وإذا أمرت سرت بك الى مكان بحيث تراهم واحـداً فواحداً ولا يراك منهم أحد .

– حسناً فلنذهب .

– ألا تريد أن نتفق قبل الشروع في العمل ؟

– لنتفق .

– تعلم يا مولاي اني بلغت الخمسين من عمري ، فصـــار يجب علي أن أهتم بايامي الأخيرة .

– هذا عدل فأظهر شرطك .

– إني أطلب ٢٥ الف فرنك كراتب يدفع لي في كل سنة وعشرة آلاف فرنك تعطى لي عند النهاية من كل عمل ينجح على سبيل المكافأة .

– سيكون لك ذلك .

– والآن بقي علي أن أتفق معك على رواتب عصابتي .

– إني عرفت أهليتك فلم أساومك ، أما عصابتك فاني لا أعرف منها أحداً .

– هذا حق .

– إذاً فلنذهب اليهم ومتى عرفتهم وخبرتهم اتفق معك على تعيين رواتبهم ولكن قل لي كم عددهم .

– عشرة ، اليس ذلك بكاف ؟

– يكفي الآن وسنرى فيا بعد

ثم غادرا ذلك المكان ومشيا ، فكان كولار يسير أمام السير فيليام الى أن بلغا إلى غطة مظلمة في شارع لاتين فسارا فيها الى أن وصلا الى بيت قديم متداع الى السقوط .

ولم يكن ينبعث منه نور مما يدل على انه غير مأهول فأخذ كولار مفتاحاً من جيبه وفتح به باب المنزل ، فدخل مع السير فيليام ثم أقفل الباب وراءهما وأشعل شمعة فأدخل السير فيليام الى غرفة وقال له : هذا هو المكان الذي تستطيع ان ترى منه رجالي دون أن يروك ، من هذا الثقب الموجود في الحائط .

فنظر السير فيليام ورأى غرفة كبيرة جميلة الأثاث حسنة الظاهر فسأل : لمن هذه الغرفة ؟

فقال له كولار : هذه لرئيس عصابتي كوكيلات وهو رجل حسن الصيت وجميع سكان هذا الشارع يحسبونه متمولاً متنحياً عن الأشغال ويغبطونه لسعادته مع امرأته التي اشتهرت عند الجميع بالفضيلة

ـ حسناً أين كوكيلات الآن ؟
ستراه عن قريب .

ثم وضع إصبعه بفمه وصفر ، ففتح الباب ودخـــل رجل هزيل يناهز الخمسين من العمر حاد النظر مقطب الجبين ، فانحنى مسلمـاً ونظر الى كولار مستفهماً

فقال له كولار : إن هذا هو الرئيس .

وقال للسير فيليام : هذا هو كوكيلات .

وبعد أن فحصه السير فيليام اشار الى كولار ان يصرفه .

فقال له كولار إني ضربت موعداً لرفاقك في الساعة الأولى بعد منتصف الليل وقد حان الوقت فاذهب الى لقائهم أما أنا فسأبقى هنا مع حضرة الرئيس لقضاء بعض المهام .

فانحنى كوكيلات وانصرف .

أما السير فيليام فانه جلس مع كولار أمـــام الثقب وأقام ينتظر وفود العصابة ولم يطل مكثهما حتى طرق الباب وأخذ رجال العصابة يتوافدون تباعاً وكولار يصف كل واحد منهم بين مقـــامر ومزور وخاطف ومخادع ومفتح أقفال ومسجل وضخم الجثة فتاك وغيرهم من أبناء الشر والوزر الى ان أتم عددهم وبلغ الى التسعة وبعد ان استعرض السير فيليام هذه العصابة قال له كولار : أتريد ان يروك ؟

ــ كلا .

ــ لماذا ألست راضياً عنهم ؟

ــ ليس ذاك ، ولكني احب أن لا يراني أحد منهم وان لا تصلهم أوامري إلا بواسطتك ، وسنبحث غداً في شؤونهم ونجد لكل واحد منهم عملاً يوافق مهنته ، والآن اني ذاهب وسأراك غداً في نفس المكان الذي رأيتك فيه هــذه الليلة وبنفس الساعة .

ثم ودعه وخرج

فدخل كولار لمقابلة رجاله ، أما السير فيليام فانه ترك هذا المنزل واجتاز المطفة المظلمة الى أن بلغ الى الشارع ، وفيما هو يمشي على مهل وهـو مشتت الفكر ساهي البال إذ سمع صوت سائق مركبة يقول له إحذر ، فصعد السير فيليام مسرعاً الى الرصيف ونظر الى داخل المركبة ، فاختلجت أعضـــاؤه وصاح بصوت يتهدج من الغضب قائلاً - أرمان - اما المركبة فكانت تسير سيراً حثيثاً ، فلم يسمع ذاك الذي دعاه ارمـــان نداءه ، ولم يتمكن من الانتباه اليه .

فوقف السير فيليام برهة ينظر الى المركبة وهـو يكاد يلتهب من الغيظ ، الى ان توارت عن عينيه فقال : ها قد التقينا أخيراً أيها الأخ الذي يسعى الى الفضيلة ويعدو بمثل هذه السرعة الى مساعدة التعساء ، إذهب وانفق من الذي اختلسته مني ، ولكن اعلم اني قد عدت الى باريس ظمآن الى الذهب والانتقام

وفي اليوم الثاني ذهب السير فيليام لمقابلة كولار فصفر له كما فعل بالأمس فنزل اليه وسار به السير فيليام الى ضفة النهر وقال له إستعد فان لدينا إثني عشر مليوناً .

- ٢ -

كيرمور

مضى يومان على مقابلة السير فيليام لكولار ، الذي خدمـــه في لندرا خدمات ذكرها له بالشكر وجمله يثق به ثقة لا مزيد عليها ، حصل لهما فيهما

ما سيقف عليه القراء في حينه . وقد حـــدث ان مركبة يدل ظاهرها أنها من مركبات الأمراء وصلت في ســاعة متأخرة من الليـل الى قصر شاهق جميل الزخرف ، غريب الاتقان ، فلم تكد تبلـغ الى ساحة ذلك القصر حتى فتحت أبوابـه وكان مكتوبـاً عليها بأحرف ذهبية كبـيرة قصر الكونت كركاز .

فدخلت المركبة وفي ذلك الحين ظهر على السلم رجل كهل بيده مصباح أقبل مسرعاً إلى لقاء الكونت فلما وصل اليه قال له :

– لقد ابتدأت ان أقلق عليك فانك لم تتأخر عن الرجوع الى المنزل مثل تأخرك في هذه الليلة .

فأجابه أرمان ، وقد كان هو بعينه : لا بأس في ذلك يا بستيان فقد قضت علي بعض المهمات الخيرية أن اتأخر الى الآن .

ثم توكأ على ذراعه وصعدا سوية الى المنزل ، فسار به بستيان الى غرفته وقال له .

– إنك ستنام فيما أظن .

-- كلا يا بستيان فاني مضطر الى كتابة بعض رسائل ولا أؤجل الى الغد ما أقدر ان أفعله اليوم .

فأجابه بستيان بلهجة أبوية . ولكنك ساع الى حتفك بقدمك فان كثرة السهر والتعب تضنيك .

– إن الله كريم عادل يحفظ لي قواي لأني أبذلها في خدمته .

وعند ذلك قرع باب الغرفة قرعاً خفيفاً ثم دخل رجل يقوده أحد خــدم القصر فوقف امام أرمان وقال :

– هل أنا بحضرة الكونت دي كركاز ؟

– نعم .

فانحنى أمامه وأخرج من جيبه رسالة مختومة فقدمها له .

وأخذ أرمان الرسالة وفضها ونظر الى التوقيع فلم يجد غير كلمة (كريمور) وقرأ ما يأتي :

« سيدي ...

« إنك رجل ذائع الصيت كثير البر وقد كرست ثروتك الطائلة في سبيل الخير والاحسان . وإن الذي يكاتبك هو رجل ثقل عليه ذنبه وقد دنت ساعته الأخيرة ويحب أن يراك لبعض الشؤون وان الطبيب يقول انه لم يعد لي من الحياة غير ساعات قليلة فأسرع الي فانني سأعهد اليك بمهمة خيرية لا يقوى على القيام بها سواك »

(كريمور)

فنظر ارمان الى الرسول وتأمله ثم قال له : ما اسمك ؟

— كولار .

— قل من أعطاك هذه الرسالة ؟

فتصنع كولار هيئة البله وقال : اني أسكن في منزل كريمور وهو الذي أعطاني هذه الرسالة كي أوصلها اليك .

— أين يسكن ذلك الرجل الذي أرسلك ؟

— في شارع سانت لويس .

وكان الصباح قد كاد يطلع فلم يبال ارمان بذلك ولا بتحذير بستيان بل أمر بان تهيىء المركبة ولم يمض على ذلك نصف ساعة حتى بلغ منزل كريمور وكان كولار يسير بصحبته فنزل من المركبة وسار بامان في فناء المنزل الى ان وصلا إلى غرفة المريض ورأى فيها رجلاً هزيل الجسم نحيل الأعضاء أصفر الوجه مضطجعاً في سريره يتقلب عليه من الآلام فحيا ارمان بيده وأشار عليه بالجلوس ثم أمر كولار بالانصراف .

ولما خلا لهما المكان قال المريض : إن مظاهري لا تدل على اني وشيـــك الموت ولكن ذلك لا ريب فيه وقد أكده لي الطبيب

ـ لا تخف أقوال الأطباء فانهم يخطئون .

فتنهد المريض وقال : انك مصيب ولكن طبيبي لا يغلط ولا يخطىء وقد أكد انه سينقطع لي عرق بعد ست ساعات يكون به انتهاء حياتي وليس لأجل ذلك دعوتك بل لأكلفك بقضاء مهمة لا أئتمن عليها سواك فأرجو ان تصغي إلي ، ثم تأوه وقال :

اني ادعى البارون كيرماروت وليس لي وريث بعد موتي في عرف الناس والشرع ولكن قلبي يحدثني ان لي ولداً يرثني من بعدي ولا أعلم إذا كان ذكراً أو انثى .

وقد تقدم لي القول أن ليس لي قريب في هذا العالم فاذا مت فليس من يبكيني وترجع ثروتي الطائلة الى دار الأحكام لفقد الوارث .

أما ثروتي فهي عظيمة تكاد لا تحصى ومصدرها غريب أيضاً كغرابة ما ألقاه من العذاب الذي جازاني به الله عقاباً عن ذنب هائل اقترفته في صباي .

ذلك اني كنت في سنة ١٨٢٤ قائداً في الجيش ، ولم يكن لي مستقبل غير سيفي وكانت حرب الاسبان قد ابتـدأت فكانت فرقة الجيش الذي أنا فيه معسكرة في برسلون وكنت انا في باريس بالرخصة فسرت منها مع إثنين من الضباط للانضمام الى الجيش وقد كان سفرنا على الجياد فكنا نبيت في كل قرية نصل اليها عند ظلام الليل .

وان الليل فاجأنا على بعد مرحلة من تولوز فلم نجد سوى فندق صغير لجئنا الى المبيت فيه بحكم الاضطرار .

ولم يكن بهذا الفندق من المسافرين سوى امرأتين قدمتا من بيريناس في تلك الليلة وكانت إحداهما كهلة عجوزاً والثانية في عنفوان الشباب رشيقة القوام وضاحة الجبين غزالة العينين صبوحة الوجه وقد قدمت مع أمها التي وصف لها الأطباء التجول فاضطررنا الى مشاركتها في الحديث لما اضطررنا اليه من مشاركتها في العشاء

ولم تتهيبا منا وكان لها مزيد الثقة بنا بالنظر لملابسنا العسكرية ولم يكن في الفندق غير غرفتين فناما بها أما نحن فبتنا في الفناء وقد اتخذنا من القش اليابس رزماً جعلناها وسائد .

وكنا في ربيع الشباب وطيش الصبا وليس فينا من يزيد عمره على العشرين فأثرت بنا المدام وهاجنا ما رأيناه من جمال الصبية فاقترح احدنا أن نقترع عليها فقبلنا ذلك الاقتراع ضاحكين واقترعنا فأصابتني القرعة دون رفاقي .

ولم يكن في الفندق ممن يخشى غير صاحبه فرشوناه كي يتغاضى عنا ودخلت الى غرفة الصبية من النافذة أما أمها فكانت تعول وتصيح ولكن صياحها كان يسير في الهواء ولا يسمعه أحد ..

وعندما طلع الصباح ذهبت برفاقي وقد غادرت بالفندق تلك الفتاة مدنسة تعض البنان من الأسف وتدعو علي الله في خلوتها ولم أعلم منها سوى انها كانت تدعى تريزا ، وقد رأيت في جيبي بعد فراقها نوطاً ذهبياً كانت تعلقه في رقبتها ولا أعلم الى الآن كيف وصل الى جيبي ولعل السبب في وصوله إلي انه انقطع عند دفاعها فسقط في جيبي اتفاقاً .

ثم ذهبت ورفاقي الى برسلونا لننضم الى الجيش وفي اول معركة قتل رفيقاي فأعددت ذلك عقاباً لهما وإنذاراً لي وكان صوت سري يقول لي ان الله لم يعاقبك في المعارك إلا ليبلوك بعقاب أعظم .

ثم توالت الأيام ودرجت الليالي فنسيت ذنبي الى ان وصلت الى الثروة وها أنا مظهر لك كيف وصلت إلي .

ذهبت يوماً إلى مدريد فنزلت ببيت رجل يهودي كان يتاجر بالجلد وقد كان أصل هذا اليهودي فرنسياً هاجر وطنه سنة ١٧٨٩ .

وعندما جعلت سكني في منزله كان مريضاً فاتفق بعد وصولي اليه بيومين ان اشتدت عليه وطأة المرض الى أن بلغت حداً خشي عليه فيه الموت ولم يكن يعوله في مرضه غير خادم واحد فدعى بي اليه يوماً عند منتصف الليل وقد أعياه

الداء وبرحت به الآلام .

فهرعت اليه وجعلت أعينه وأعزيه على مصابه وهو ينظر إلي نظرة الباهت الى ان سألني : ما اسمك ؟

- كيرمور دي كيرماروت .

فرجع اليه صوابه عند ذكر اسمي وخرج بلهجة الفرح والاستغراب يقول : أنت تدعى كيرماروت ؟

- نعم .

فرفع يديه الى السماء ثم شكر الله وقال : أعطني أدوات الكتابة .

فأحضرت له ما طلب فكتب بيد ترتجف :

« إني أعترف ان كيرمور دي كيرماروت هو وريثي الوحيد دون سواه ».

ثم أمضى هذه الوصية وبعد عشر دقائق أسلم الروح .

وقد وجدت بعد موته رسالة بين أوراقه تبين السبب في إعطـائي ثروته ، ذلك أن جدي البارون كيرماروت كان قد أودع في زمن المهاجرة ٢٠٠ الف فرنك عندهذا اليهودي ثم توفي ولم يعلم اين كانت وفاته ، وسافر اليهودي إلى أسبانيا فتاجر بمال جدي المودع عنده وكثرت أرباحه واتسعت ثروته بفضل ذلك فرده الي اثني عشر مليوناً ، وكنت في الثلاثين من عمري عندما وصلت الي تلك الثروة الواسعة ، فلم تدفعني عوامل الثبات الى التنعم بهـا بل عادت الي تذكارات تلك الليلة الهائـلة ، وأصبح تمثال تريزا ممثـلاً نصب عيني ، فأخذت أطوف البلاد باحثاً عنها فلم الق إلا الخيبة ، ولم أظفر بغير الفشـل وقد أدت بي خاتمة المطاف الى باريس ، فاشتريت هـذا المنزل الذي أنا فيه فأصابني الله بداء عضال لم تنجح فيه حيلة الأطباء ، وسيقضي علي بعـد ساعات معدودة .

واليوم عرفت نهاية أجلي من الطبيب على ما أخبرتك فتمثلت لعيني تلك الابنة المسكينة التي دنستها بنزقي وحدثتني نفسي انها لا تزال بقيد الحياة وقد علمت

انك رجل كثير الخير والاحسان وان لديك عمالاً وأعواناً يشاركونك في البحث عن التعساء ومساعدة أولى البأساء ومجازاة الأشقياء فقلت في نفسي انك الوحيد الذي يجدها ويسلمها تلك الثروة .

فقال ارمان إني أشكرك لثقتك بي ولكني أخاف ما يمكن ان يكون اتفق من موت تلك الابنة وربما لم يكن لك منها ولد فان مناجاة الضمير قد تخطىء أحياناً .

– إذا كانت الابنة قد ماتت ولم يكن لي منها ولد فإن ثروتي تكون لك تنفقها في سبل الخير فتكون كفارة عن ذنبي وأنا أعلم بأنك رجل كثير المال ولكن ثروتي هي طائلة فاذا أنفقتها على المصابين مع ما تنفقه من مالك خففت من بلوى التعساء وأعانتك على بلوغ أمانيـك ، والآن فاني أرى على وجهك علائم الانذهال وأراك تشير بالرفض فبالله لا تضع الوقت في الجـدال وانظر الى الساعة فلم يعد لي من الحياة في هـــذا العالم غير ساعات معدودة فانظر الآن الى هذا الصندوق الذي هو بقربك وهذا مفتاحه معلق بعنقي ، تأخذه بعد موتي وتفتح الصندوق فتجد فيه وصيتين مختلفتين ، إحداهما تثبت انك انت وريثي والثانية تثبت ان تريزا هي الوارثة او ولدها إذا كان لها ولد ثم انك تجد في طي هذه الوصية الأخيرة ذلك النوط الذهبي الذي وقع من عنقها في جيبي في تلك الليلة الهائـــلة فاذا فتحته تجد فيه خصلة من الشعر وصورة إمرأة هي صورة أمها لا ريب فعسى ان تعينك على وجودها وليس لدي غير هذا الدليل .

ثم سكت ، نيهة رقد أعياه التعب إلى ان عاد اليه شيء من قواه فاستحلف أرمان على قبول الوصية وقال وقد سمع قرعاً على الباب : هوذا الكاهن الذي دعوته قد حضر فأدخله الي فاني اريد أن أعترف وأستمد لملاقاة الديان .

ففتح أرمان الباب للكاهن وخرج من الغرفة عندما شرع بالاعتراف . ولم يمض على ذلك ساعتان حتى صدق نبأ الطبيب ومات البارون فدعي أرمان رجال

الشرع في الحال وختم على جميع موجودات المنزل فلم يأخذ منها غير الوصيتين وذهب الجميع ولم يبق في المنزل غير كولار الذي جعل ينظر الى تلك الجثة التي لم تزل حارة ويقول ضاحكاً :

– ايها الأبله انك لو علمت السبب لدخولي في خدمتك لما أطقت أن تنظر الي رالآن فطب نفساً فان ارمان دي كركاز رجل صافي السريرة طاهر القلب وسيعرف السير فيليام كيف يجد الابنة وكيف يغنم تلك الملايين .

– ٣ –

سريز وباكارا

بعد هذه الحادثة بخمسة عشر يوماً كان في الطبقة الخامسة من احد المنازل الحقيرة إبنة تشتغل في غرفتها بغيرة ونشاط وأمامها على منضدة جميع الأدوات اللازمة لعمل الزهور الصناعية .

وكان يظهر من ملامح وجهها ان لها من العمر ست عشرة سنة ، وهي ممشوقة القامة بيضاء كالزنبق سوداء الشعر . وقد سميت بسريز اي الكرز لحمرة شفتيها .

وكانت تشتغل وتغني وأشعة شمس الصباح الذهبية قد ملأت غرفتها الصغيرة التي كان معلقاً في جدارها قفص فيه عصفور من نوع الكناري كان يشاركها في الغناء من حين الى حين .

فعندما كادت تصل في جمع طاقة الزهر إلى آخرها ولم يبق لها إلا أن تحيطها بالورق القتها من يديها على المنضدة ثم تنهدت وقالت : إني سأتمم هذه الطاقة بعد عشر دقائق فأسير بها الى المعمل وبطريقي أراه

ان يوم الأحد قد قرب وسأكون فيه من أسعد الناس فان ليون سيصحبني مع أمه الى المنتزه في بلهيل . قالت هذا وتبسمت بعد ان تنهدت قليلاً ثم عادت الى شغلها وهي تحدث نفسها فتقول : إن ليون سيسافر الى بلده فيبيع أرضاً له فيها وسيرقيه سيده فيجعله رئيس المعمل بعد شهرين حيث يتزوج بي في ذلك الحين ولكني أرى ذينك الشهرين بشابة جيلين وما أصعب الانتظار على المحبين .

وفيما هي تناجي نفسها بمثل هذه الأحاديث إذ سمعت صوت غناء على السلم تبينت منه صوت اختها فقالت : هذه هي باكارا التي لا أعلم السبب في كثرة زياراتها لي في هذه الأيام بعد ان كان يمر العام ولا أراها !

ثم فتح الباب ودخلت منه باكارا .

وكل من رأى هاتين الصبيتين يعلم للحال انهما اختان لكثرة ما بينهما من المشابهة ولم يكن الفرق بينهما سوى ان سريز في السادسة عشرة من عمرها عفيفة فاضلة ترتزق من شغل يدها وتقنع باليسير من العيش ، وأن باكارا في الثانية والعشرين من العمر وقد هربت منذ ست سنوات من منزل أبيها مع عاشق لها كان وافر الثروة ، فعاشت عيشة بذخ وإسراف ثم تخلف لها عاشقها عن ثروة عظيمة فاستبدلته بسواه ونهجت سبل بنات الهوى ، أما أبوهما فانه مات من الحزن لما لبسه من عار ابنته فاكتفت برضى أمها عنها التي ذهبت اليها وعاشت معها في قصرها الشاهق ، تاركة ابنتها الثانية التي سرى الى عروقها دم أبيها الفاضل ، فلم تتبع أمها واختها في سبيل الغواية وعاشت بعيدة منفردة عنهما عيشة طاهرة تقية ، ترتزق من شغلها وتقنع بالقليل .

وكانت لا تزور امها ولا أختها على الاطلاق ، ولا تدع لهما مجالاً لزيارتها لها ، ولذلك استغربت عندما رأت أختها داخلة عليها لما رأته من ترددها في زيارتها منذ خمسة عشر يوماً وعلمت ان في ذلك سراً شاقها

استطلاعه .

فجلست با كارا بالقرب من النافذة ودار بينهما الحديث فقالت با كارا :

- ألا تزالين يا سريز تحبين ليون ؟

- وما يمنعني عن حبه وهو رجل طاهر القلب حسن الأخلاق .

لا أنكر ذلك ولكنه عامل بسيط فاذا تزوج بك تميشان عيشة فقيرة طول العمر وتكونان تعيسان .

- وأنا لا أرى رأيك في ذلك فعندي ان الزوجين اذا توافقا وكانا متحابين لا يكونان تعيسان وفوق ذلك فان صاحب المعمل سيعين ليون رئيساً عليه وهو سيبيع أرضاً له في وطنه فمتى تم ذلك فهو ينشيء لي محلاً لبيع الزهور فنصبح من أسعد الناس ولا يقتضي هذا المشروع من النفقات أكثر من أربعة آلاف فرنك وهذا المال ميسور لديه

فتبسمت با كارا ابتسام احتقار وقالت :انت تعلمين لو سألتني أضعاف هذه القيمة لما تأخرت دقيقة عن مددك .

أشكر فضلك وأعتذر عن عدم قبولي هبتك فان الابنة الشريفة لا تأخذ المال إلا من أبيها او زوجها .

- ولكني اختك .

- لو كان لك زوج أو لو كنت على غير ما أنت عليه لقبلت .

فعضت با كارا شفتيها من الغيظ وقالت : وما يضرك لو أخذت مني هـذا المال على أن ترديه الي متى تيسر لك

- أعذريني فاني لا أحب ان أستدين

ثم عادت الى شغلها فكانت تشتغل وتحادث اختها التي جلست بالقرب من النافذة وقد أسندت رأسها بيدها متظاهرة بعدم الاهتمام ولكنها بالحقيقة لم تجلس الى النافذة إلا لتتمكن من النظر الى نافذة المنزل المجاور التي رأتها مقفلة فقالت بتمرمر : إنه ليس في البيت

أما سريز فإنها كانت تراقبها خفية وقد سمعت ما قالتـه فقالت لها : ألا تصدقينني يا اختي في القول فإنك منذ زمن قريب جعلت تأتين الي في كل يوم بعد ان كنت منقطعة تمام الانقطاع فما السبب في ذلك ؟

فارتعشت باكارا وأجابت اختها بصوت متكلف فقالت : إني أزورك كل يوم لأني احبك وفراغي يسمح لي بزيارتك .

– أم يكن لك ذلك الفراغ سابقاً أم لم يكن لي حب في قلبك من قبل ؟

فأفحمت باكارا عن الجواب ولم تجد بداً من الاباحة فقالت :

– إني مصابة بداء عضال يقال له الحب أقول ذلك لأن جميع الباريسيين يعلمون ان باكارا هي بغير قلب تهزأ من الحب والمحبين في كل حين .. نعم أحب وقد سرت الي هذه العلة من هذه النافذة ، ذلك اني كنت عندك منذ شهر فنظرت عيناي شاباً برز كالقمر من نافذة هذا المنزل المجاور فنفذت سهام عينه إلى فؤادي وسمعت باذني رنين السهم فيقلبي الذي لم يعرف الغرام منقبل فصادف ذلك الحب قلباً خالياً فتمكن .

فضحكت سريز وقالت . اني أعلم من تعنين بحبك فهو جارنا فرديناند روسي .

فتنهدت باكارا وقالت:نعم هو بعينه واني أحبه اكثر مما تحبين أنت ليون وقد رأيته ثلاث مرات من هذه النافذة فلم يعرني انتباهاً ولم يتدان الى النظر الي انا التي ينطرح على قدميها أصحاب الملايين

وأنا لا أحضر الى هنا إلا لأراه وأنت ترينني كيف أنتفض عند ذكره انتفاض العصفور بلله القطر وهو غير عالم بحال قلبي وبما يكابده من الصبابة وأخشى إذا طال بي الأمر ان أكتب اليه أو أذهب الى منزله فأركع أمامه واقول فرناند ألا تعلم اني أحبك ؟

ثم مسحت الدمع عن خديها وهو يتساقط كاللؤلؤ وقالت اليس من العار على المرأة ان تستسلم لرجل لا تعرف اسمه ولا شيئاً من أمره وتألف السهاد في

حبه فاذا نامت لا تحلم إلا به ولا يتملى لعينيها سوى خياله .

نظرت اليها سريز نظرة العجب وقد أنكرت صدور مثل هذه العواطف عن اختها .

ـ أنت تحبين الى هذا الحد ؟

ـ نعم واني أكاد أجن بهواه وها أنا منذ ساعة عندك ونظري لا يحول عن النافذة وقلبي شديد الخفوق ، اليس هو بمنزله الآن ؟

ـ إنه يرجع إلى منزله في الساعة الثانية .

ـ حدثيني عنه يا سريز وقولي لي من هو هذا الرجل ؟ وماذا يشتغـــل ؟ وكيف تعرفينه ؟

ـ عرفني به ليون

ـ كيف ذلك ؟

ـ إنه اشترى أثاث منزله هذا من المعمل الذي يعمل فيه ليون وهو الذي فرشه وقد عرف ليون في عسر مالي فساعده والتحمت بينهما عرى الصداقة ثم عرفني به واكثر الأحيان يسلم علي من نافذته .

ـ إذن هو أعزب ؟

ـ نعم .

ـ ألا ترين أحداً يزوره ؟

كلا .

ـ إذاً فسيحبني كما أحبه .

وفيما هي تقول ذلك إذ فتحت النافذة وأطل منها فرناند فاختبأت باكارا خلف اختها وقالت لها : هذا هو .

فجعلت سريز تحرك روافد نافذتها حتى استلفتت انظار فرناند فسلم عليها ثم أظهر انذهاله لما رأى اختها وراءها وانها تشبهها مشابهة تامة فقالت لهسريز : هذه هي اختي .

فانحنى فرناند مسلماً عليها ، أما باكارا فانها انحنت على اذن اختها وتوسلت اليها ان تدعوه .

وقد أثر توسلها على فؤاد سريز بما أنساها موقفها وخطورة هذا السلوك ، فأشارت الى فرناند ودعته الى الحضور اليها فشكرها واعتذر عن عدم تمكنه من قبول هذه الدعوة لاضطراره الى الذهاب الى مكتبه ثم سلم مودعاً وأغلق النافذة .

فقالت باكارا : انه سيذهب ولا ريب الى زيارة امرأة ولكني سأعلم أين يذهب وسأكون شديدة الغيرة من هذه المرأة كثيرة الحنق عليها .

– وبأي حق تغارين فان فرناند لا هو زوجك ولا يحب لك .

– سيصير أحد الاثنين .

– أتتزوجين به ؟

فهزت باكارا كتفيها وسكتت فقالت سريز : أذكر ان ليون قال لي أن فرناند عازم على ان يتزوج .

– فرناند يتزوج ؟

– نعم ، وماذا يمنعه ؟

– يمنعه اني لا أريد أن يتزوج .

– وبأي حق ؟

فضربت باكارا رجلها في الأرض من الغيظ وقالت : أيوجد في الحب حقوق اني أحبه وهذا هو حقي الوحيد .

– ولكن اذا كان هو لا يحبك

– سيحبني فان أصحاب الملايين تنطرح على قدمي وتتفانى في حبي أيصعب علي وأنا باكارا أن أحب من رجل فقير .

وكانت سريز قد فرغت من جمع طاقتها فأخذتها وخرجت بها مع أختها كي توصلها الى معمل الزهور فقالت لها باكارا أتريدين أن أوصلك بمركبتي

الى المعمل .

فامتنعت وقالت لا يليق بعاملة زهور مثلي تشتغل كل ساعـــات النهار لكسب فرنكين ان تركب في مركبة تجرها الجياد المطهمة ، دعيني أذهب على الأقدام واذهبي كما تشائين

ثم ودعتها سريز وذهبت .

أما باكارا فانها صعدت الى المركبة وأمرت السائق أن يقف وما زالت بها الى أن خرج فرناند فقالت للسائق : إتبع هذا الرجل الى حيث يذهب .

– ٤ –

فرناند

كان فرناند في الخامسة والعشرين من سنيه ، حسن الطلعة عالي القامة وافر الأدب وقد ربي يتيماً عند عم له وتخرج في إحدى المدارس العالية فاستخدم عندما بلغ العشرين من عمره في وزارة الخارجية براتب قليل ثم أخذ راتبه يزيد شيئاً فشيئاً إلى ان فاق جميع أقرانه .

وكان كثير الشغف بفن الروايات وقد علق آماله المستقبلة على هذا الفن لشدة الاقبال في هذه البلاد التي لم تنشط من عقالها ولم تبلغ ما بلغته من المدنية إلا بهذا الفن الجميل فكان يصرف معظم فراغه بين المحابر والأقلام .

وكان شديد المطامع من ذلك انه عشق ابنة رئيسه في الوزارة واسمها هرمين وهو يعلم ان دون زواجه بها المصاعب الجمة لفرط غناء ابيها ولشدة بخله ولكنه كان كثير الأمل لتبادل الحب بينهما

وكان والد هرمين قد دعاه الى الطعام في ذلك اليوم الذي خرجت باكارا

في أثره ، وكان كثيراً ما يدعوه ليساعده في تأليف كتاب عزم على نشره باسمه والاستعانة بفرناند عليه لما كان يعلمه من حبه لابنته والتذرع الى مرضاته بجميع الوسائل .

ذهب فرناند يقطع الأرض نهباً وقلبه يخفق خفوق الأجنحة من الشوق إلى هرمين إذ لم يرها منذ ثلاثة ايام .

وكانت باكارا تسير في أثره الى ان وصل الى منزل رئيسه فولج اليه وأمرت باكارا السائق ان يقف بعيداً عن الباب ثم نزلت من المركبة فأسدلت برقعها ودخلت الى نفس المنزل الذي دخله فرناند .

فأعطت البواب قطعة من الذهب ثم دنت اليه مبتسمة وقالت : اليس لك لسان ؟

– كلي السنة ناطقة بشكرك .

– إذن قل لي فانك ستنال خيراً من خدمتي ، من هو هذا الشاب الذي دخل الآن ؟

– هو مستخدم في الوزارة وهذا هو منزل رئيسه .

– ما اسم رئيسه ؟

– المسيو دي بيرابو

– هل هو متزوج ؟

– نعم .

– هل امرأته صبية ؟

– كلا فانها تناهز الخمسين .

– اليس له إبنة ؟

– نعم وهي على غاية من الجمال .

عضت باكارا على شفتيها وقالت : ما اسمها ؟

– هرمين وأظن انهما متحابين .

– ما دعاك لهذا الظن ؟

– ذلك لا ريب فيه عندي لكثرة تردده على هذا المنزل فانه يجيء أربع مرات في الأسبوع .

– في أية ساعة يغادر هذا المنزل اعتيادياً ؟

– في الساعة العاشرة مساء .

شكرته باكارا وأعطته ديناراً ثانياً على سبيل الجزاء ثم خرجت الى المركبة التي كانت في انتظارها

وبينما كانت باكارا تسأل عن فرناند ، كان هو يصعد السلم لا يداخله ريب بها ، ولا يعلم أمراً من غرامها به حتى بلغ المنزل في الطبقة الثالثة وطرق الباب

أما بيرابو هذا فانه كان في أول عمره فقيراً معدماً وقد جاء باريس منذ ثلاثين سنة فتوفق للدخول في خدمة الوزارة ثم ترقى بجده ونشاطه وتزلفه من أولياء الأمور الى ان عين رئيساً لاحدى دوائرها .

ولقد لقي عند قدومه إمرأة تدعى تريزا لها ثروة وجمال ، وكانت تلك المرأة قد ارتكبت هفوة لم تستطع إصلاحها أو أنها خدعت وكان لها ابنة صرفت اليها معظم حنوها فتقرب منها بيرابو طمعاً في ثروتها وعلم ان ابنتها غير شرعية فتغاضى عن ذلك ، ووعد تلك المرأة ان يكون لها أباً لابنتها فقبلته بعلا بملء السرور ، ومن ذلك الحين أصبحت ابنتها هرمين معروفة باسمه .

ولنعد الى فرناند فنقول انه عندما طرق الباب فتحت له هرمين ولم تكد تراه حتى تلون خداها بصبغة الورد ، فحياها تحية المحب الوله ثم دخل معها الى غرفة البيانو فجلست تعزف عليه ألحاناً كانت تهيج كوامن غرامها وتحرك عوامل قلبيهما ثم شغلا عن حديث الألحان بأحاديث الغرام الى ان شفيا غلهما فقال لها فرناند يسرني ان أخبرك عن قبول روايتي في ملعب سانت مارتين

وقد وعدني مديرها انه سيمثلها في هذا الشتاء وأنا أرجو ان ينالني من ذلك ربح عظيم فعند ذلك أجسر في محادثة أبيك في شأن زواجنا .

فقالت هرمين بصوت منخفض إني كنت أتحدث مع أمي أمس في هذا الشأن

فاضطرب فرناند وقال : بماذا أجابت ؟

أجابت هرمين قائلة : ان أمي راضية عن حبنا ولا تمانع في زواجنا لما تعلمه من كرم أخلاقك وحسن مستقبلك ولكنها تخشى معارضة أبي .

فأحنى فرناند رأسه بحزن وكآبة وقال . إني اختبرت أباك وأنا أعلم انه سيرفض طلبي بالنظر لفقري ، وهو يعلم ان لا رجاء لي إلا من مستقبلي الروائي .

فقاطعته هرمين وقالت له : إصغ الي إن أمي سألتني بالأمس اذا كنت على ثقة من حبك .

– آه يا هرمين أعندك ريب في ذلك ؟

– حاشاي ان أشك بصدق ودادك ولكني أريد ان أقول ان أمي لها نفوذ على أبي وهي تحبني حباً شديداً وحيث انها وثقت من صدق حبك لي بعد ان ثبت لها ذلك فهي تبذل جهدها في إقناعه

– ومتى يكون ذلك ؟

– في هذا المساء

وعندها دخلت أمها فعانقت هرمين بحنو ثم نظرت الى فرناند وقالت له : أحقيقي يا فرناند انك تحبها ؟

فلم يجبها فرناند بحرف ولكنه ركع أمامها ونظر الى هومين نظرة تكلمت عن فؤاده بافصح لسان .

فارتعشت تريزا وقد أيقنت من صدق حبه ثم أنهضته ووضعت يده بيد ابنتها وهي تقول اني لا أعارض في هناء ابنتي وأنت يا فرناند انك ستدخل

مع هرمين الى غرفة الشغل بعد العشاء وتدعيني في خلوة مع أبيها .

ثم تركت العاشقين يتناغيان ويتناجيان وانصرفت الى إدارة شؤونها البيتية ، فلم يمر بهما أحلى من تلك الخلوة ولم يشعرا بأطيب من تلك الساعة ، إلى ان أيقظهما من تلك الأحلام السعيدة دخول المسيو بيرابو ، فلم ينظرا اليه حتى أيقنا أنه مصاب بحادثة أضاعت حواسه ، لأنه كان شديد الاضطراب

- ٥ -

كينيون

بينما كانت باكارا تقفو أثر فرناند كانت سريز تسير بطاقة الزهر الى المعمل وهي تذهب من شارع الى آخر فتهيج النفوس وتفتن العقول وقد دارت بها العيون كالنطاق وما من أحد كان يراها إلا ويدهش من محاسنها ويسكر بجمالها العجيب فيقرظه بما يحضره من رقيق الكلام ورائق المعاني ولكن اذنها لم تكن تصغي لمثل هذه الأحاديث وقلبها لم يكن يحفل بمثل هذا المديح لما كان يشغلها من أماني نفسها وحبها لخطيبها ليون فكانت تمشي بوقار واحتشام لا تسمع حديث الأفواه ولا تفهم لغة العيون الى ان وصلت الى المعمل فأودعت فيه الطاقة ثم قبضت اجرتها وأخذت شغلا جديداً وبدلاً من ان تعود الى منزلها ذهبت في شارع شابون حيث يشتغل خطيبها وهي تقول : كم أكون سعيدة إذا اتفق لي ان أراه ؟

أما ليون رولاند فإنه كان شاباً يبلغ الثلاثين من العمر أشقر الشعر ضخم الجثة قوي الأعصاب ولم يكن جميل الوجه غير انه كان صافي السريرة طاهر

القلب حسن النية عاملاً نشيطاً شريف الأخلاق وقد اتفق انه حين مرور سريز كان واقفاً بباب الحانوت الذي يشتغل فيه .

ولما رآها مارة أسرع اليها وسلم عليها ونفسه تكاد تطير شعاعاً من بهجة لقائها ثم شكرها لمرورها بهذا الشارع فقالت وقد صبغ الخجل وجنتيها: إني لم أمر من هنا إلا على أمل ان أراك .

— قد صدق ظنك ولو لم تمري من هنا الآن لكنت قصدتك في هذا المساء لأنه يجب ان أحادثك في شأن مهم .

فارتاعت سريز وقالت : لقد شغلت بالي بأي الشؤون تريد محادثتي ؟

— لا تخافي فليس ما يحمل على الكدر وأول ما أبدأ به هو اني عزمت ان أذهب غداً مع أمي الى بلفيل وسأكون من أسعد الناس حظاً اذا قبلت دعوتنا وذهبت معنا

— أراضية أمك بذلك ؟

— ذلك لا ريب فيه لأنها تعلم انك ستصيرين إمرأتي بعد حين .

فأرخت سريز نظرها من الحياء وجعلت تنكت الأرض بمظلتها ثم نظرت اليه وقالت : أهذا المهم الذي تريد ان تحادثني فيه ؟

— كلا فإن هذه الحكاية قد جعلتها مقدمة لحديثي لما أجد بها من السرور وأية ساعة أشهى الي من ان أكون وإياك في منتزه واحد. أما الذي اريد ان اقوله لك فهو انك تعلمين ما وعدني به صاحب المعمل من انه سيجعلني رئيساً عليه بعد شهرين .

فتنهدت سريز وقالت : نعم

— والآن فإنه غير افكاره

— ماذا ارجعه عن ترئيسك ؟

— كلا فإني عيذت اليوم

— كيف ذلك ؟

— ذلك ان الرئيس الذي خلفته في منصبه قد انتهى اليه إرث من قريب له توفي منذ يومين فاضطر الى السفر والتنحي عن الأشغال ، ولكونه من مواطني فقد رجوته ان ينوب عني في بيع ارضي التي كان في نيتي ان اسافر لبيعها .

— إذاً قد رجعت عن السفر ايضاً ؟

— نعم وبعد ثمانية ايام يصل الي ثمن تلك الأرض وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً نقدر ان نتزوج .

فظهرت على ملامح مريز علائم السرور وعبق خداها بحمرة الخجل ، ثم قالت : إن هذا الأجل قريب جداً .

— وأنا أراه شديد البعد ابنتها الحبيبة .

ثم ضغط بيديه على يدها ونظر اليها نظرة توسل واستعطاف باحت بمكنونات فؤاده واستوقفت بعض المارة .

فودعته بلطف وحنو وأفلتت منه وهي تقول : إلى الغد وسنرى .

ولم يزل واقفاً يشيعها الى ان توارت عن عينيه في شارع سانت مارتين .

وفيما هي تمشي سمعت صوتاً يناديها باسمها فالتفتت ورأت شاباً بالقرب منها رفع قبعته وحياها باحتشام فدنت منه وسلمت عليه .

وكان هذا الرجل من أصدقاء خطيبها يدعى كينيون وهو شاب في الثلاثين من عمره هزيل الجسم قبيح المنظر ، ولكنه كان رقيق الحاسة لطيف الشعور طيب النفس .

وكان سيء البخت نكد الطالع وقد عرف ذلك من دهره فأدار له ظهر المجن ولم يعبأ بصروفه وكان على الدوام باسم الثغر طلق الوجه شديد المزاح كثير الميل الى خدمة معارفه وعلى الجملة لم يكن له في باريس بغيض

فلما رأى مريز استوقفها وبعد السلام سألها عن وجهتها فقالت اني ذاهبة إلى أم ليون لأخبرها بأننا سنذهب غداً إلى منتزه بلفيل فهل لك ان

تكون معنا ؟

- ذلك ما أتوق اليه لا سيا وأني أجد فرصة مناسبة لتأنيب ليون .

- على أي شيء تريد أن تؤنبه ؟

- على صداقة عقدها من عهد قريب مع رجل لا يستاهل المودة ويجب أن يحذر منه .

- من هو هذا الرجل ؟

- هو رجل صناعته عمل الأقفال يدعى روسينيول وهو فاسد الأخلاق قبيح السيرة بذيء السمعة وقد ساءني التحام الصداقة بينهما وبلوغها إلى حد أصبحا فيه لا يفترقان فرأيت أن من واجباتي أن أردع ليون عن معاشرته وأن أظهر له ما لم يعلمه من فساد أخلاقه وبعد ذلك فله الخيـار بالميل اليه أو بالبعد عنه .

- عجباً اني لا أعرف هذا الرجل وأنت تقول انه من اصدقاء ليون .

- نعم وأن السبب في ذلك هو الصداقة بينهما حديثة العهد وقلبي يحدثني انها ستكون سيئة العاقبـة وما استوقفتك إلا لما ارجوه من مشاركتك أياي بنصيحته على تجنب معاشرته وتحذيره منه فاجتهدي أن تردعيه وأنا سأبذل مجهودي، ثم ودعها وذهب في شأنه فواصلت سريز سيرها إلى منزل أم خطيبها وفي الوقت نفسه كان يسير في الشارع رجل كهل ينـاهز الخمسين قصير القامة نحيل الجسم مجعد الجبين فاتر العينين وكان لابساً ثوباً أزرق وعلى سترته زر أحمر يشير إلى انه متقلد وسام جوقة الشرف .

ولم يكن هذا الرجل سوى بيرابو والد هرمين فانه كان عائداً إلى منزله ليوافي فرناند الذي كان قد دعاه إلى الطعام كما تقدم البيان وقد اتفق انه تقابل وجهاً لوجه مع سريز فلم يكد يراها حتى اختلجت أعضاؤه واضطرب فؤاده فوقف في البدء ينظر اليها بتدله وقد اندلع لسانه وجحظت عيناه ثم رأى أنها لم تلتفت اليه ولم تعره جانب الانتباه فسار في أثرها يقفوها .

ولم يكن ذلك أول ما أتفق لهذا الكهل فانه كان ينفق أكثر ساعات فراغه متجولاً في الشوارع يتعقب الحسان من بنات الهوى فلم يكن يخيب منه أمل ولا تضيع له أمنية ليساره وكثرة انفاقه مما زاد من جرأته ولكنه ساء فأله بسريز ولقي منها ما غير معهوده وأجله ما رآه بهـا من الاحتشام بالتهجم عليها بالحديث فاندفع يمشي في أثرها باقدام مضطربة وقد أعاد جمالها إلى قلبه دم الشباب .

ولم تعلم سريز أنها متبوعـــة حتى بلغت إلى شارع مقفر ورأته وراءها فاسرعت في مشيها فاقتدى بها ، فهلع قلبها وضاعفت سرعة سيرها حتى وصلت إلى منزل أم خطيبها فدخلت وقد عاد سكونها وأقامت عندها مدة طويلة تزيد على الساعتين .

ثم خرجت من عندها وعندما وصلت إلى الشارع رأته واقفاً على الرصيف وعلى وجهه ملامح السأم من الانتظار فلم تجد حيلة في الرجوع ولا بدأ من مواصلة السير فمشت ولم تسر بضع خطوات حتى أدركها واستوقفها وهو يقول : سيدتي ..

فالتفتت اليـــه سريز وقالت له بلطف .. لست يا سيدي من اللواتي تعهدهن ولم تسبق لي عادة أن احادث في الشوارع من يتبع خطاي فخير لك أن تمضي في شأنك .

ثم تركته وهو لا يدري بماذا يجيب ومضت فجعل يتبعها على مسافة بعيدة بحيث يراها ولا تراه فلم تزل تسير حتى وصلت إلى منزلها فدخلت مسرعـــة والتفتت وراءها فلم تره فاطمأنت وصعدت السلم وهي تغني .

أما بيرابو فانه رآها دخلت ولكنه لم يعلم إذا كان المنزل منزلها فلبث زمناً طويلاً ينتظر إلى أن أعياه الانتظار فذهب إلى البواب وأعطاه ذهباً كما فعلت باكارا في سؤالها عن فرناند ثم سأله عن سريز فقال له البواب اسمح لي يا سيدي أن أقول لك انك تنفق وقتك ومالك عبثاً فان هذه الفتاة شريفة .

ـ ولكني كثير الأموال .

ـ لا يجديك مالك نفعاً ولو أنفقت منه الملايين لأنها ابنـة طاهرة وفوق ذلك فانها مخطوبة ولو كان لك شأن مع اختها لكنت احادثك بعكس ما تسمع .

ـ من هي أختها ؟

ـ هي ابنة بغي كثيرة الجمال لها قصر شاهق ومركبات .

ـ وما اسمها ؟

ـ باكارا

ـ أين منزلها .

ـ بشارع مونسي .

ـ حسناً ، وتركه وانصرف وهو مشلت الفكر مضطرب البال وقد أصيب بذلك الداء العضال الذي ليس له دواء وهو حب الشيوخ فأحب سريز حباً ليس فوقه حب ومضى وهو ينظم في أفكاره الجهنمية طرق غوايتهـا إلى ان وصل إلى منزله وهو على ما وصفناه من القلق والأضطراب .

ـ ٦ ـ

بيرابو

فعندما رأته امرأته وابنته صاحتا صيحة انذهال وقلق وقالت له امرأته : بالله قل ماذا أصابك وماذا اعتراك فان هيئتك تحمل على الخوف .

ـ قال بيرابو وهو يرتعش : لست في شيء مما تتوهمين وليس بي ما يحمل على الرعب .

إذن لما علة هذا الارتعاش ؟

- بينما كنت ماراً في الشارع وإذا بمركبة قد جمحت جيادها كادت تصدمني لو لم تحل بيننا المقادير وقد نجوت والحمدلله من هذا الخطر فهلم بنا إلى الطعام ثم قدم ذراعه إلى هرمين وذهبوا جميعهم إلى المائدة .

أما فرناند فانه لم يعبأ بهذا العذر الملفق وأيقن أن السبب في اضطراب رئيسه هو غير ما قال فاوجس خيفة من هذا الانقلاب وعلم ان امرأته لا تستطيع أن تحادثه في شأنه وهو على مثل هذه الحال ولكنه لم يلبث ان تغير ظنه باستحالة رئيسه من الانقباض إلى الهشاشة مما يدل على انه اهتدى إلى طريقة تمكنه من غواية سريز .

وعندما فرغوا من الطعام دخل فرناند إلى قاعة الكتابة ثم تبعته هرمين باشارة امها ولما خلا المكان ببيروابو وامرأته قالت له :

أتسمح لي أن احادثك بشأن هام ؟

- وما عسى أن يكون هذا المهم ؟

- اني أريد ان احادثك بشأن ابنتي التي بلغت التاسعة عشر من عمرها أي انها بلغت سن الزواج .

- تريدين أن تزوجي أبنتك .. ولماذا ؟

لأننا لا ندوم لها .

- ليكن ولكن يجب أن نجد لها زوجاً

- ان الزوج موجود .

- هل هو غني ؟

- كلا . ولكن مستقبله حسن .

فهز بيرابو كتفه وقال ولكن هذا لا يكفي .

انما هرمين تحبه بقدر ما يحبها .

- ما اسمه ؟

- انك تعرفه وتقدر فهو فرناند .

فوثب بيرابو عن كرسيه وقال بتعجب واحتقار أزوج ابنتي من رجل لا مستقبل له ولا مال ولا يزيد راتبه على الألفي فرنك انك لا ريب قد جننت فان مثل هذه الآراء لا تصدر عن العقلاء وإذا كنت ظننت اني أصادق على هذا الزواج فان نفسك قد خدعتك فلا تحلمي به فانه لا يكون ولن يكون ما زلت في قيد الحياة .

ثم جعل يمشي في أرض الغرفة ذهاباً واياباً بخطوة غير موزونة وهو يعثر بما تصادفه قدماه ولا ينتبه كمن به جنة أو ضرب من اللمم ، أما امرأته فكانت جالسة بالقرب من المستوقد فلما سمعت ما كان من جوابه أخذت تشهق وتنتحب كالأطفال ، ورآها والدمع يتساقط من عينيها فقال : انك تبكين لكوني رفضت أن أزوج ابنتك من رجل لا مال له في حين كان يجب عليك ان تشكريني لغيرتي على ابنتك التي هي ليست بابنتي بل ابنة الصدفة بل ابنة الزيغ والغي

فوقع هذا الكلام على تريزا وقوع الصاعقة ولم تكد تسمعه حتى وقفت وقد التهبت عيناها من الغيظ وقالت انك تهينني وانك من أسفل الرجال .

— فعلم بيرابو انه قد أفرط في الإساءة اليها وحاول اصلاح ما فسد فقال لها بلطف : تلك بادرة بدرت مني ولكنك انت دفعتيني إلى هذا الحد

فقالت له تريزا : انك تعلم اني كنت منذ عشرين سنة ابنة نقية طاهرة ولم أكن قط بغياً واني كنت في احدى الليالي المشؤومة في فندق على مرحلة من تولوز مع أمي التي وصف لها الأطباء التجول فاغتصبني فيه أحد الجنود الأشرار وعلقت منه بهرمين ، وقد اعترفت لك اعترافاً جلياً في كل ذلك عندما طلبت أن تتزوج بي طمعاً بمالي وقدمت لك ابنتي النقية فاخذتها بين ذراعيك وقلت لي (طيبي نفساً فسأكون أباها) .

— وماذا رأيت بأقوالي ألم أفي بوعدي إلى الآن بشأن هرمين أعنده شك بأني أبوها أيعلم أحد من الناس حقيقة السر ؟

- كلا . ولكن هذه الأبنـة التي وعدتها أن تحبها كما تحب ولدك تسائل نفسها في كل حين كيف يكون الرجل أبي وكيف يعاملني بقسوة ونفور بخلاف ما يعامل به أختي ؟

- ذلك لأني أفضل عليها أختها وهي ابنتي وهذا طبيعي معقول انما .

فاوقفته عن الكلام بنظرة ازدراء وقالت : انها كما كانت تستغرب نفورك منها كانت تعجب أيضاً عندما تراني باكية العين وتعلم انك أنت السبب في هذه الدموع التي كنت أذرفها في خلوتي ولا يعلم بها غير الله .

فضرب الأرض برجليه من الغضب وقال : انك تتهمينني بما أنا بريء منـه فاني لم أسيء اليك ولم أغتصب اموالك فانك إذا كنت أعطيتني مالا فقـد استعضت عنه باسمي الشريف الذي ستر زلتك ودفع عنك عار الغواية فليس لك عليّ شيء بعد أن غسلت باقترانك بي ذلك العار

- انك منخدع بما يوسوس لك ضميرك لأنه يوجـد شيء تفضله الأم على راحتها وهنائها ونفسها وشرفها وهو هناء ولدها ولقد رأيت مني امرأة صبوراً طائعة منخفضة الرأس لا تخالف لك أمراً ولا تعصي لك إرادة وتسأل لك العفو من الله عندما تسيء اليها ولكن هذه الإساءة كانت للام أما وقد أردت أن تسيء إلى ولدها فان هذا الرأس المنخفض سيرتفع وهذه النفس الفاترة ستنشط وتدفع عن ولدهـا كل مكروه . . أن هرمين تحب فرناند وهو رجل حسن الأخلاق شريف النفس بعيد منال الهمة وأنت الذي تصفه بهذه الصفات فما لك الآن تناقض نفسك وما الذي يمنعك عن الرضى بهذا الزواج ؟

- يمنعني فقره المدقع .

انك عندما تزوجت بي لم تكن أيسر منه مالاً ولا أوسع حالاً .

فقال وقد احتدم غيظاً أني عندما تزوجت بك على هذا الحال كان لك ولد لا تعلمين ولا يعلم الناس أباه والآن ما لنا ولهذا الجدال أتريدين أن أصادق على هذا الزواج . قولي فان ذلك منوط بك .

فمسحت تريزا دموعها وقد عزمت على أن تقاومه إلى النهـاية فقالت . قل ماذا تريد أن أفعل ؟

فجلس أمامها وقال : اسمعي ماذا يجب أن تفعليه إذا كنت تطلبين هذا القران انه يحق لك حسب اتفاقنا أن تهبي ربع ثروتك البالغة مائة الف فرنك إلى ابنتك هرمين وان تدعي الباقي لي او لأولادي فاذا كنت تتركين حقك من هذا المال إلى ابنتنا الشرعية رضيت بزواج هرمين ...

فقاطعته تريزا وقالت : كلا فاني لا أوثر أحداً من اولادي على الآخر وما ميزت الأمهات على البنين.

فأجابها ببرود ، إذاً فلندع هذا الحديث فاني اعترفت عند قراننا ان هرمين هي ابنتي الشرعية ولا حق للابنة أن تتزوج بغير رضى أبيها إلا متى بلغت سن الرشد وهي الآن دون هذا السن وأنا لا أصادق على قرانها .

- ليكن ما تريد أما نحن فسننتظر ويسوءني انك ستضطرني إلى أن أبوح لأبنتي بكل شيء من أمر ماضي حياتي وأن أذوب أمامها من الخجل .

وفيا هي تقول ذلك فتح الباب ودخلت هرمين فطوقت عنق أمها بذراعيها وهي تقول : أماه انك من أشرف النساء ولم ترتكبي أثماً تخجلين به أمام ابنتك ... وأني أسألك المعـــذرة فقد سمعت كل حديثكما وعلمت نبلك وقداسة قلبك .

ثم تركتها ونظرت إلى بيراوبو وقالت : ان امي لا تريـد أن تجردني من حقي من مالها ولكن يحق لي أن أرفض هذا الحق ولذلك أقبـل بما اقترحته عليها ، ثم انحنت امامه بتهكم ومشت إلى الباب ونادت فرناند .. فرناند ..

ولما أتى أخذته بيده وقالت له أمام بيراوبو .

- ألا تقبل بي امرأة لك يا فرناند بغير مال ؟..

٧ -

كولار

في اليوم الثاني من اتباع باكارا لفرناند أي يوم الأحد صباحاً كان كولار الذي عرفناه بزعيم عصابة السير فيليام يسير سيراً سريعاً في شارع انتين الى أن بلغ إلى شارع النصر فمال منه إلى بستان كبير قائم في وسطه قصر شاهق بناه أحد الأغنياء الانكليز فاقام فيه زمناً ثم سافر وترك فيه خادماً له وقد سمح له أن يؤجره وينتفع بريعه .

وكان قد استأجره السير فيليام حين رجوعه إلى باريز من لوندره ولا بد لنا أن نذكر شيئاً من سابق حاله في هذه المدينة التي أقام فيها زمناً طويلاً على سعة من العيش وخصب من الحيــــاة نقول انه كان معروفاً في لوندره انه من الأشراف ذوي الثروة الواسعة وهو في الحقيقة رئيس عصابة من اللصوص وكان يسمي نفسه البارون فيليام وقد حلق شاربيه كي لا يعرف فكان يدخل إلى أحسن البيوت وله عشرة من أشراف العائلات وقد جمع كثيراً من المــال من مهنته اللصوصية أنفق معظمه على البذخ والاسراف ثم غادر البلاد الانكليزية بغتة ولم يعلم أحد من معارفه علة هذا الرحيــــل الفجائي فكثرت الأقاويل وتواترت الظنون وأشيع عند الأكثرين انه كان متلبساً بقلب البارون وانه كان لصاً سافلاً وانه كان تلياني الأصل وان كان يحسن الكلام باللغـة الانكليزية كأبنائها فعندما عاد إلى باريس أطلق شعر شاربيه وصبغ شعره بصبغة سوداء وقد تغيرت ملامحه بعض التغيير فساعدته تلك الصبغة على الخفاء .

وكان عندما وصل كولار إلى منزله واقفاً أمام مرآة في غرفة النوم يصلح صبغة شعره وهو يقول

اني منذ أشهر في باريس وأشغالي سائرة على محور النجاح الأكيد فاذا دامت

الأبالسة على الصدق في خدمتي فان ملايين كرماروت ستكون لي وحدي .

تباً لك يا أرمان دي كركاز من بله يحب البشر وينفق امواله على المساكين طب نفساً فانك سترد تلك الملايين المؤتمن عليها إلى السير فيليام الذي عرف كيف يغير ملامحه فلا تستطيع أن تعرف انه أخوك العزيز اندريا الذي اختلست امواله بحجة ان أباه سرق أموال أبيك .

أما كولار فانه شديد الذكاء وهو وان كان لم يخدمني في لوندرا خدمات جليلة فانه كان غريباً فيها أما الآن فهو في موطنه ويعرف خفايا باريس كما يعرف خفايا منزله فلا شك ان هذه العصابة التي ألفها سيكون لي منها خير فائدة وقد ظهر من أعمالها إلى الآن ما يبشر بالنجاح الأكيد .

وفيما هو يناجي نفسه بمثل هذه الأحاديث إذ فتح البـــاب ودخل كولار فحياه ثم جلس على الكرسي بالقرب منه ودار بينهما الحديث الآتي :

قال كولار : اني أتيت لأخبرك عن أمور مهمة توفقت للوقوف عليها بواسطة رجالي الذين يشتغلون بالدقة والنظام .

– أتظن ذلك ؟

– هذا لا ريب فيه ودليلي عليه أننا أصبحنا على اليقين من أن مدام بيرابو هي ذات تريزا التي نبحث عنها.

– أصحيح ما تقول ؟

– نعم وأن ابنتها هرمين هي ابنة كرماروت صاحب الملايين وليست بابنة بيرابو كما هو المتعارف عند الناس .

– أرى من هنا يجب أن تبتدىء الرواية فإن بيرابو شديد البخـل وإذا وعدناه بمليون فهو لا يرفض أن يزوج ابنته ، ثم نظر الى المرآة مبتسماً وقال : أما ابنته فلا أخالها ترفض من كان مثلي زوجاً لها .

– إنما للصبية عشيق وسيتزوج بها بعد خمسة عشر يوماً كما علمت .

فاصفر وجه أندريا اصفرار اليأس وقال هذا محال .

– أن ما أخبرتك به هو الحقيقة بعينها وان خطيب هرمين هو موظف في الوزارة الخارجية .

– هل هو غني ؟

– ليس له دراهم ولكنه محبوب .

– ما اسمه؟

– فرناند روشي .

– أين منزله ؟

– في شارع باريس .

فأخذ أندريا دفتراً صغيراً وكتب فيه بضعة سطور بالحرف المصري القديم ، ثم سكن اضطرابه فقال : وما عندك وراء هذه الأخبار .

– قبل كل شيء أحب أن أخبرك عن صداقة عقدتها حديثاً مع رجل نجار .

– لماذا ؟

– لهيام قلبي بفتاة شغفت لي وأخذت بمجامع قلبي

– أنحن الآن بمعرض الغرام ياكولار أتسمح حالتنا الحاضرة أن نعشق ونهيم .

– قر بالاً يا سيدي فإن ذلك لا يشغلني فترة عن واجب خدمتك .

– حسناً ، ولكن أية صلة بين هيامك بتلك الفتاة وبين مصادقتك لذلك النجار

– اصغ الي يا سيدي ، اني لقيت حديثاً فتاة جميلة الوجه طاهرة القلب عفيفة النفس فهامت بها روحي وحن اليها قلبي وبحثت عنها فعلمت أنها مخطوبة . ومن المقرر أن من يحاصر قوماً يجتهد عند شبوب الحرب أن تدمر قلاع أعدائه ويقطع كل مدد عنهم كي يجبرهم على التسليم ولذلك عقدت تلك الصداقة مع هذا النجار الذي هو خطيبها ولا أريد بذلك إلا فساد أخلاقه طمعاً بأن تنفر عنه خطيبته سريز ، أما هذا الشاب فإنه يدعى ليون رولاند وله صداقة مع فرناند روشي خطيب هرمين

فأظهر أندريا علائم الرضى وقال: تمم حديثك فقد بزغ لي منه نور من الأمل

– فقال كولار : وقد ذهبت أمس لزيارة ليون في محل شغله ، فبينما أنا عنده إذ جاءه فرناند وأخبر صديقه والفرح ملء فؤاده بجميع ما كان من خطيبته وأمها وأبيها ، وأنه سيتزوج بعد خمسة عشر يوماً ، وكيف ان بيرابو رفض أولاً أن يزوج ابنته من فرناند حرصاً على المهر إلى أن تنازلت هرمين عن ذاك المال

فاصفر وجه أندريا وقال : اننا في أحرج المواقف وأشدها ولا أصعب من بزغ الهوى من قلب فتاة تحب .

– اصغ الي فلم انته بعد من تقريري واعلم أن لسريز اختاً بغياً وافرة المال وقد تهتكت في حب فرناند، ولم تجد صبراً عنه .

فبرقت عينا أندريا بأشعة الأمل وقال : هل هي جميلة ؟

– أنها كثيرة الجمال والدلال .

– هل هي عاقلة ؟

– هي رجيحة العقل شديدة الذكاء .

– إذاً فهي تكفل لي غواية فرناند واقلاعه على حب هرمين وسنرى في شأنها .

فقال كولار . يوجد أيضاً شيء آخر لم أطلعك عليه وهو أن والد هرمين مفتون بسريز وقد تبعها امس ووقف بالقرب من منزلها طويلاً ثم عاد في المساء وسهر طول الليل متجولاً تحت نوافذ غرفتها فهل أنت راض عن هذه الافادات.

فلم يجبه أندريا بشيء عن سؤاله وأخذ يفتكر بتلك السلسلة التي جمعت تريزا وهرمين وأمها وخطيبها وورلاند ، وبعد أن أمعن الفكرة طويلاً نظر إلى كولار وقال : أتعرف منزل باكارا ؟

– نعم ، فهو في شارع مونسي

– حسناً ، فإن هذه الفتاة ستخدمني وأنت فهل تحب سريز حباً شديداً ؟

ـ لا أعلم ولكني رأيتها في عنفوان الشباب كثيرة الجمال فتقت إلى أن أتخذها خليلة لي فأنا أحبها ولا أحبها .

ـ ولكن إذا احتجنا اليها؟

فنظر اليه نظرة انذهال وحيرة وقال : لم أفهم مـا أردت وكيف تحتاج اليها ؟

ـ لننصب منها فخاً لبيرابو ويجب قبل كل شيء أن نتخلص من خطيبهـا ليون فإنه يثقل علينا .

ـ إن هذا رأي جليل وسأشرع في انفاذه هذه الليلة في بلفيل .

ـ إذاً لا يسوؤك ذلك ؟

ـ كلا ولا سيا أننا مضطرون إلى إجرائه وفوق ذلك لا داعي إلى الغيرة من الكهول .

فنادى اندريا خادمه وأمره أن يهيىء المركبة ثم قـال لكولار : يجب ان تجد لي من اليوم إلى ثلاثة أيام منزلاً للأجرة في الشانزليزه مع اصطبل للخيل والآن إذهب لقضاء هذه المهمة ولا تغفل عن أمر ليون.

فذهب كولار ، أما أندريا فإنه ركب المركبة وسارت به إلى منزل باكارا وكانت باكارا لا تزال في غرفة النوم وقد لسعتها عقرب الغيرة من هرمين والفت السهاد ، ولم تذق طعم الكرى ، ولم تكن تعرف الحب قبل أن رأت فرناند فكانت تهزأ بالهوى وتعبث بعشاقها، وهي بغير قلب يحن وبغير نفس ترحم لا يهمها سوى جمع المال واحتقار الرجال وتركهم يقتتلون لأجلها وهي ضاحكة لاهية وحبها يكتئب وينتحب حتى نفذت اليها سهام الهوى وعرفت أن لهـا قلباً كقلوب البشر وأحالها الحب من الحيوانية إلى الانسانية وجعلت تعض يديها من الغيرة وهي تردد بصوت منخفض اسم فرناند .

وكانت قد اضطجعت على فراشها من الساعة العاشرة وهي ترجو ان تطعم النوم وتعلل نفسها بخيال من تحب ولم يغمض لها جفن وما زالت تتقلب على مثل

الغضب إلى ان طرق الباب ودخلت خادمتها تخبرها بزيارة اندريا وبيدها رقعته فقالت لها :

ـ لا أريد أن أقابل أحداً فاخبري كل من يزورني اني لست في المنزل .

وخرجت الخادمة ثم رجعت بعد هنيهة وقالت لها سيدتي ان هذا الرجل يلح في طلب مقابلتك وهو واسع الثروة كما يظهر .

واخذت باكارا رقعة أندريا وقرأت فيها« السير فيليام .. بارون » ثم القتها على منضدة أمامها وقالت اني لا أعرف هذا الانكليزي .

وخرجت الخادمة ثم عادت ايضاً وقالت : سيدتي إن هذا الرجل يقول انه قادم لمخابرتك في شأن مهم .

ـ ليس لي أشغال مهمة .. إذهبي واصرفيه .

ـ لقد كلفني ان أذكر لك اسم رجل يقول انه يهمك شأنه .

ـ قلت لك إذهبي فإني لا أريد أن أعرف امرأ .

ـ ولكن هذا لا يمنعني أن أذكر لك اسم الرجل الذي كلفني أن أذكره أمامك .

ـ لقد تجاوزت الحد في عصياني فأنا أطردك من خدمتي منذ الآن ولا تعودي إلى هذا المنزل .

أما الخادمة فلم تكترث بما سمعت وكانت قبضت من اندريا ماجعلها تعصى هذا العصيان .. قالت لها ببرود . إن السير فيليام كلفني أن أقول لك انه آت ليخابرك بشأن فرناند روشي .

ولم تكد باكارا تسمع اسم فرناند حتى وثبت من فراشها وقالت: هو آت ليخابرني بشأن فرناند قولي له اني هنا واني مستعدة لقبوله،اذهبي وادخليه في الحال إلى قاعة الانتظار ، ثم اختنق صوتهـــا وجعلت تختلج وتضطرب اضطراب الريشة في مهب الريح .

- ٨ -

البارون

ولبست ملابسها بسرعة ، ثم دعت خادمتها فاني وأمرتها ان تدخله ، فذهبت وعادت باندريا الذي لم يقع نظره حتى قدرها وعرف من رياش منزلها منزلتها من سلامة الذوق ونظر الى عينيها فعلم شدة سلطانها على القلوب فقال في نفسه هذه هي المرأة التي أحتاج اليها وسأجعل منزلها قفصاً لفرناند فلا يخرج منه قبل أن أقضي أوطاري .

وتأملت هي أيضاً بدورها اندريا فاستدلت من توقد عينيه ومن ابتسامه السحري ومن جبهته الواسعة انه شديد الذكاء فقالت في نفسها : إنه إذا كان عدواً لي فقد لقي مني كفؤاً، وإذا كان صديقاً فسأنتصر ولا ريب لأنه سيكون لي أقوى نصير .

وبعد ان سلم عليها أشارت اليه ان يجلس وصرفت فاني فجلس اندريا ينظر اليها بغير تأثر ولا اختلاج كمن جاء يحدثها باشغال مهمة ولا يعبــأ بما وهبتها الطبيعة من الجمال ثم قال ·

– إني أدعى يا سيدتي السير فيليام وقد أتيت لأعرض عليك خطة .

– قل ما تريد ، ولكن إحــذر ان تحدثني باحاديث الغرام ، فاذا كان هــذا مرادك ، فاني أســألك تأجيله إلى يوم آخر ، لما أنا مصابة به من ألم الرأس .

– أعلم ذلك فإن ألم الرأس مسبب عن قلة النوم وان الخيبة في الحب تعدو الى الأرق

– ماذا تعني بالحب والخيبة فيه ؟

فأجابها بسكينة :عجباً كنت أظن أنك مفتونة بفرناند روشي وإنك تحبينه

حباً يوشك أن يكون عبادة .

فارتعشت باكارا ، ولكنها تجلدت فقالت : إني لا أحب أحداً أيها الميلورد .

أنا دون الميلورد يا سيدتي فإني بارون ويسرني جداً اني خدعت .

– نعم ايها البارون فقد خدعوك .

– ذلك لحسن الحظ .

– ماذا تريد بذلك ؟

– أريد انه لو صح أنك تحبينه وثبت ما أعلمه من ذلك لكنت الآن بمنتهى التعاسة .

فاصفر وجهها وقالت له بعظمة : لماذا أكون تعيسة ؟

– لأنه يسوء المرأة ان يفر الرجل الذي تحبه من قبضتها

فهاجت عواطف الكبرياء من باكارا وقالت . إن المرأة التي تكون مثلي تجفو الرجال وليس الرجال الذين يجفونها .

– إن الرجل لا يترك امرأة وافرة الجمال مثلك إلا عندما يريد أن يتزوج. فرناند سيتزوج.

فوقع هذا الانذار عليها وقوع الصاعقة فصاحت صيحة يأس وسقط رأسها على الكرسي من الكآبة .

– ها قد اعترفت أخيراً انك تحبينه .

– نعم لم يعد من مجال الكتمان فاني أحبه حباً مبرحاً لم يعد لي فيه حيلة الى الصبر . ولا جرم فهو أول سهم غرام نفذ الى قلبي . نعم أحبه ، وهو لا يتزوج وسأمنعه عن الزواج ، ولو أفضى بي الأمر الى قتل مزاحمتي عليه بيدي .

ثم تأوهت وبدأت تنتحب انتحاب الأطفال .

فقال لها سكني روعك يا سيدتي فإني ما أتيت إلا لمساعدتك وإنقاذك مما

أنت فيه .

– كيف تساعدني ؟

– أنظري إلي وتأملي بي ، ألا ترين من ملامحي رجلاً يقدر ان يفيدك إذا رضيت بي حليفاً ؟

– أنت تكون حليفي ؟

– أي شيء يمنعني ؟

– أنت تخدمني ؟

– كل شيء ممكن .

– ولكن ما الذي يدعوك إلى خدمتي ولأية غاية تريد أن تحالفني ؟

– من المؤكد ان لي بذلك مأرباً ولولا ذلك ..

وقبل أن يتم حديثه فتح الباب ودخلت فاني وأعطت سيدتها رقعة زيارة، أخذتها باكارا وقرأت فيها هذا العنوان :

بيرابو

رئيس قلم التحرير في وزارة الخارجية

ثم القتها بجزع إلى أعلى المنضدة وقالت: إني لا أعرف هذا الرجل فقولي له اني لست في المنزل .

فاضطرب اندريا عندما قرأ الرقعة وقال لها : يجب أن تقابليه

ثم نظر الى فاني وقال لها : أدخليه الى قاعة الانتظار .

فعلمت فاني ان اندريا أصبح الآمر في المنزل فامتثلت لأمره وانصرفت

أما أندريا فانه عاد إلى باكارا وقال لها . ألا تعلمين ان هذا الرجل هـو والد هرمين ؟

فاختلج فؤادها وقالت . قد ذكرت الآن ، إن هرمين هي خطيبة فرناند .

– نعم ولذلك يجب أن تقابليه .

– ماذا يريد مني وما الذي يدفعه الى زيارتي ؟

– إنه أتى ليتفق معك على أمر شائن ، فاصغي اليه واحذري من أن تغضبيه ولا تنهي معه أمراً ، بل عديه ولا ضرر من الوعود ، وقولي له كي يعود اليك في الغد وأنا سأختبىء وراء هذا الستار ، فانظر الي من حين إلى حين .

ثم دعا فاني وأمرها ان تدخل بيرابو وذهب واختبأ وراء الستار .

دخل بيرابو وسلم بغاية الاحتشام والاتضاع وردت تحيته بعظمة وكبرياء ثم أشارت اليه بالجلوس فجلس وقال :

– أتأذن لي سيدتي أن أحادثها بما أتيت لأجله ؟

– قل .

– إنك قد علمت ولا ريب من رقعة الزيارة من أنا ؟

فأشارت برأسها إشارة إيجاب .

– إني واسع الثروة وذو منصب عال في الحكومة .

فقالت بصوت الهازيء : اني أهنئك بهذا المنصب .

– إني أقدر ان أقدم للمرأة تقدمات كثيرة وان أفيدها فوائد جمة لخطارة منصبي .

فظهرت علائم الحزن على محيا باكارا وتبسمت تبسم احتقار ، فأزيح الستار للحال وظهر منه وجه أندريا فأشار اليها بما معناه «أنسيت ما أوصيتك به وهل تريدين أن يتزوج فرناند» فغيرت ملامحها وظهرت بمظاهر البشاشة والأنس بما تشجع له بيرابو فقال :

– سيدتي إن لك اختاً حسناء .

– إنك آت لتحدثني بشأن اختي التي علقت بحبها كما يظهر .

– نعم إني أحبها حباً مبرحاً ليس بعده حب .

– أراك تضيع وقتك عبثاً في حبها فانها طاهرة الأخلاق حسنة السيرة .

– ولأجل ذلك أتيت اليك .

ونظرت باكارا الى الستار ورأت أندريا مطلاً من ورائه كأنه يقول إلزمي السكينة واحذري من إغضابه فعادت إلى بيرابو وقالت :

ـ لا علاقة لي بشؤون اختي وقد قلت لك انها حسنة السيرة .

ـ ومع ذلك إذا أردت فربما يتيسر لك أن .

فخطر على بال باكارا أن تبادله اختهـــا بفرناند ، وللحال عبق وجهها بحمرة الخجل ، ثم استحال ذلك الاحمرار الى الغضب وحـــاولت طرد ذلك الفاسق، فظهر اندريا من خلال الستار وقال لها : إنك إذا طردته فان فرناند يتزوج بعد ثمانية أيام

فهدأ روعها وسكن هياجها وقالت :

ـ إن اختي بلهاء حمقاء ولو اتبعت نصائحي لكانت الآن على ما أنا عليه من النعيم ، ولكني أعود فأقول لك انها مطلقة التصرف وليس لي علاقـة في شؤونها .

ـ وأنا أتوسل اليك ان تمدي لي يد المساعدة فهل تريدين ان تتوسطي في هذا الشأن .

فتوقفت عن الجواب ونظرت الى اندريا فرأته يشـير اليها برأسه قائلاً : قولي نعم .

فأرخت عينيها إلى الأرض من الخجل وقالت : ربما .

ـ سأتقيد بفضلك الى الأبد ولا أجحد نعمتك مدى الدهر فبالله ألا مـــا استبدلت الشك باليقين واستعضت عن ربما بنعم .

فنظرت الى اندريا ورأته يشـير اليها بان تمده ، فقالت : دعني أتأمـل بذلك ملياً .

ـ أيطول زمن الافتكار ؟

ونهضت عن كرسيها وهي تقول · عد الي غداً وسنرى

فأخذ بيرابو قبعته وودعها وهو يقول إذاً تسمحين لي أن أزورك وسترينها

ولا ريب

- سأراها عد الي في الغد

فخرج بيرابو وقلبه يخفق خفوق قلب عاشق في أوائل الشباب ، ولم يكد يغادر الغرفة حتى خرج اندريا من وراء الستار ، فقالت له باكارا : ما هذه الخيانة التي لا تطاق .. أأبيع أختي وأزجها بيدي الى هاوية الغي والفساد . لا ، لا . إن ذلك لا يكون ولو هلكت غراماً . نعم ان لي قلباً قد من الصخر إزاء عشاقي ولكن ذلك القلب يستحيل الى رقة الهواء وصفاء الماء بازاء عائلتي التي خرجت عن خطتها بتلك الغواية ذلك الأب المسكين . كلا ان ذلك لا يكون ولن يكون .

فقال اندريا : إعلمي انه لا أحد يستطيع حل عقدة الزواج بين فرناند وهرمين غير بيرابو وانك ترتكبين أشد الخطأ بمخالفته .

ثم اندفع بمحادثها وقد طال الحديث بينهما ساعتين ، فلم يعلم شيء مما كان بينهما غير انه لما خرج اندريا كان مرتفع الرأس وعليه ملامح النصر ، فشيعته باكارا ورأسها مطرق الى الأرض والدموع تجول في عينيها ، أما سريز الطاهرة النقية فقد كانت مجال بحثها ، وقد عزمت باكارا على تضحيتها ذهاباً مع تيار حبها الفاسد .

- ٩ -

حنـة

بزغت أنوار شمس الأحد المنتظر بفارغ الصبر من سريز فنهضت من فراشها ورتبت غرفتها الصغيرة وأخذت تشتغل في تزيين ثوبها الجديد إلى ان قربت ساعة

الظهيرة فلبسته وعزمت على الذهاب الى منزل خطيبها الذي كان ينتظرها مع أمه للذهاب الى بلفيل على ما قدمناه

وفيا هي تحاول الذهاب فتح باب غرفتها ودخلت فتاة قابلتها سريز بمنتهى الاحتفاء والاكرام .

أما هذه الفتاة فقد كانت جارة لسريز ، وهي من ذوات النسب والأدب عاشت في عهد أبيها الكولونيل بالدر عيشة سعة وهناء ، إلى أن أحنى عليها الدهر بوفاة أبيها وغادرها يتيمة فريدة ، ليس لهـــا من يعتني بشؤونها غير حاضنتها جرتريدة .

ولم يترك لها أبوها من المال إلا قدراً يسيراً يكاد لا يقوم باودها ولا ينطبق على اسمه الشريف المنزه عن كل وصمة وشين ، فكانت تعيش من ربا ذلك المال على غاية من الاقتصاد ، وقد أقلعت عن معـــاشرة أترابها من ذوات اليسار كي لا يطلعن على مـــا استحالت اليه حالها من العوز ، فاتركت قصر أبيها الشاهق واستعاضت عنه بغرفتين صغيرتين بالقرب من غرفة سريز ، فألف بينهما الجــوار ، وجمعت بينهما صـلة الأدب والعفاف ، غير انـ سريز كانت تعرف حقيقة نسبها وسابق حياتها ، فـكانت تجلها وتحترمها غاية الاحترام .

وكان اسمها حنة ولها من العمر ثمانية عشر سنة وهي على غاية من الجمال تدل ملامحها على انها من أصل كريم وهي بيضاء اللون شقراء الشعر ممتلئة الجسم رشيقة القوام وكل ما بها يدل على جمال نادر المثال

فلما فرغا من أحاديث السلام قالت لها حنة : إني آتية اليك أيتها الصديقة أسألك قضاء مهمة راجية ان يكون لي منها خير وفائدة ومأمولي ان تجيبيني الى رجائي

- أنت يا سيدتي ترجينني بعد ما ثبت لك من إجلالي لقدرك واحترامي لمقامك . إني لك بحملي فمري بما تشائين .

فاحمر وجه حنة وشكرتها ثم قالت : إن حاضنتي جرتريدة قـد شاخت وأضعف بصرها توالي الأيام ، وقد خدمتني منذ ولدت وما زالت تدأب ساعية في كل ما يؤول الى راحتي الى ان أوهى عزمها الكبر ، فوجب علي السعي في راحتها ، إذ هي عندي بمثابة الأم الحاضنة ، ولأجل ذلك يقتضي أن يكون لي مال .

– عندي مئتا فرنك وضعتها في بنك الاقتصاد فإذا شئت إني اذهب الآن وأحضرها لك .

– أشكر فضلك فإني لا أحب كسب المال من هذا السبيل ، بل أريد أن أشتغل .

– انت يا سيدتي تشتغلين وانت فتاة شريفة النسب .

– إن الشغل هو الشرف الثاني ، ولعله الشرف الحقيقي فلماذا يخجل منه الأشراف ؟ إصغي الي فاني تعلمت في المدرسة الخياطة والتطريز وقد مهرت فيهما كثيراً وإذا كنت تحبينني ذهبت بي لأحد المعامل لأتفق معه على الشغل فيه أو في منزلي .

– أنت تذهبين إلى المعمل سيدتي . كلا ان ذلك لا يوافق من كان في مقامك وعندي رأي حسن .

– ما هو ؟

– هو اني أعرف مخزناً للتطريز بالقرب من معمل الزهور الذي أشتغل فيه وأن رئيسة هذا المخزن صديقة لي فسأحضر لك شغلاً منه في كل اسبوع وعندما تنتهين منه أرجعه ، فأوفر بذلك عليك مشقة الذهاب والاياب ، ولا ينالني من ذلك أقل عناء لأن هذا المخزن بجـوار مخزن الزهور وانا مضطرة الى الذهاب كل أسبوع

فعانقتها وهي تقول ما أشد كرمك وما أطيب قلبك

– إذاً إنك تقبلين ؟

– نعم أيتها الحبيبة اني أقبل اقتراحك مع الشكر . والآن دعيني أسأل عنك إني منذ اسبوع لم أرك

– أنا بخير وعافية ، وليس لي ما أخبرك عنه سوى ان ليون قد رقي الى رئيس وأظن انه بعد خمسة عشر يوماً سيتم بيننا عقد القران .

– اهنئك أيتها الحبيبة وأدعو لك بتمام السعادة لأنك أهل لكل هناء وقد سرتني جداً بهذا النبأ حتى انني لا أملك عيني عن البكاء .

– ان هنائي لا يتم ولا يكمل إلا اذا أجبتني الى ما سأرجوك به فاني منذ يومين أتردد في التماس هذا الطلب منك .

– قولي أيتها الصديقة ما تشائين فلا أخالف لك إرادة واني أتوق الى خدمتك ، ولا سيا بعد ان بدا لي منك ما بدا من كرم الأخلاق .

– عفواً يا سيدتي ، فان ما أحب ان التمسه منك هو اني سأذهب اليوم مع ليون وأمه في بلفيل ، وما أشد ما يكون سرورنا إذا كنت معنا . أقول هذا وانا التمس العفو عن هذا الطلب لأني لم أتجرأ عليه إلا لما لي عليك من الدالة

– سأذهب معك بطيب خاطر ، وسيكون لي من الانس بينكم أوفر نصيب .

– إذن تنتظرينا في البيت حيث نأتي بك جميعنا في الساعة الرابعة .

فأجابتها بالقبول ولبثت عندها هنيهة ثم ودعتها وانصرفت

فأفعم قلب سريز الصغير سروراً بما لقته من مؤاسة حنة وخرجت من منزلها إلى منزل ليون وهي تغني كما يغرد العصفور على الأشجار أغاريد الصباح .

فأقامت حيناً مع أم ليون ، ثم جاء ليون وبرفقته كينيون الذي استوقف سريز على الطريق وحذرها من معاشرة كولار لخطيبها . فأخبرته سريز عن قبول حنة بالذهاب معهم فسر بذلك وقال وأنا أيضاً قد دعوت

صديقاً لي حسن العشرة مزاحاً اسمه كولار ، فسيكون يومنا من أبهج الأيام .

فامتعض وجه سريز وكينيون لذكر هذا الرجل ، وبينا ليون يطنب في مديح صديقه طرق الباب ودخل كولار فسلم على الجميع ثم دنا من ليون وقال : ما أتيت أيها الصديق إلا لأعتذر اليك عن عدم تمكني من الذهاب الى الدعوة التي دعوتني اليها ، فإن أبي قد قدم منذ ساعة من قريته وقد أصيب بمرض عضال ، فاضطررت الى ملازمته واغتنمت فرصة رقاده للقدوم اليك في طلب الاعتذار .

ثم ودعهم وخرج من المنزل فركب مركبة سارت به الى قهوة تدعى بقهوة مصر فنزل ولقي فيها رجلين كانا في انتظاره فأمرهم بتغيير ملابسهم ثم غير هو أيضاً زيه وركبوا جميعاً في المركبة ، وأمر السائق ان يسير بهم الى بلفيل .

أما ليون وأمه وسريز فانهم ذهبوا الى منزل حنة فوجدوها تنتظرهم ولا شيء يعيقها عن الذهاب وذهبوا جميعاً إلى بلفيل .

- ١٠ -

فاتح الاقفال

بينا كان ليون وامه والصبيتان ينزلون من المركبة ليسيروا إلى فندق بلفيل كان ثلاثة رجال مختبئين وراء الفندق يراقبونهم ، وهم كولار واثنان من عصابته أحدهما يدعى نيكولو والآخر فاتح الأقفال ، فقال لهما كولار مشيراً الى ليون أنظرا هذا الرجل الذي يدخل الفندق مع هؤلاء النساء وتأملاه جيداً فهو نفس

الرجل الذي أتينا لأجله .

فقال نيكولو : حسناً لقد عرفناه .

وقال فاتح الأقفال ، وأنا لم أنس حرفاً مما علمتنيه .

فقال كولار : أعد علي ما علمتك لأعلم اذا كنت ذاكراً

— إنني أدخل مع نيكولو ونجلس في القاعة التي يجلسون بها ، ثم أتظاهر كأني رأيت هذا الرجل فأصبح منذهلاً ثم أركض اليه وأسلم عليه وهو سيدهش ولا ريب لأنه لا يعرفني من قبل ، فأقول عجباً أتنكر صداقتي أمام السيدات الست ليون رولاند عاشق باولينا وان لك منها ولدين فيغضب عند ذلك ويحاول الانكار ، فأقول ما بالك تتظاهر بنسيان هذه الفتاة وقد قلت لك أن باولينا هي الشقراء التي تسكن في شارع النمل فيشتمني ويكذبه فألكمه ويفتح باب الخصام وعلى نيكولو البقية

قال كولار : حسناً ، واجتهـــد أن تنجح وانت يا نيكولو إحذر من الفشل واجتهد أن تقتله بضربة واحدة ، والآن لقد آن أوان العمل وادخلا الى الفندق أما انا فإني أنتظركما في الشارع وسأهيىء لكم سبل الفرار إذا دعت الحاجة .

ثم تركهما ومضى ودخلا الى الفندق وهما غير مرتابين بشيء ، ولكنهما لو انتبها لكانا رأيا رجلاً متخفياً مثلهما ، كان واقفاً وراء صخر فسمع كل ما دار بينهما وبين كولار وعندما دخلا في الفندق دخل معهما

وكان هذا الرجل طويل القامة قوي الأعصاب ، بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره وهو بالرغم من تستره بملابس الفعلة كان يستدل من يديه على انه من الأعيان وانه لم يلبس هذه الثياب إلا بغية التخفي .

وقد كان شاهد كولار ورفيقيه فارتاب بهم ولذلك كمن لهم وراء الصخر وسمع حديثهم دون ان يروه ، وعندما دخلا الى الفندق سار بأثرهما وهو يقول: ستعلمان أيها اللصان على من تدور الدوائر وكيف ان عيون أرمان دي كركاز لا

تغفل عن مراقبة الأشرار .

وقد علم القراء ولا ريب ان هذا الشاب لم يكن سوى ارمان دي كركاز الذي كان يتستر كل يوم بازياء مختلفة ويطوف جميع أنحاء باريس ليسد عوز المحتاجين ويكشف ظلامة المظلومين ، فتبع ذينك اللصين الى ان دخلا الى الفندق .

أما ليون فإنه دخل الى قاعة الفندق ولم يكن جاء اليها أحد بعد وجلس حول منضدة مستديرة وجلست حنة على يمين أمه وسريز على يسارها بجواره ، ولم يمض هنيهة حتى دخل نيكولو وفاتح الأقفال وجلسا حول منضدة بالقرب منهم فاستاء ليون لما رآه من ملابسها وخجل أمام حنة .

ثم دخل بعد ذلك أرمان وجلس حول منضدة تجاه ليون وبالقرب من اللصين فطلب ما يشربه ، وجعل يتأملهما بامعان بما أراب نيكولو ، فقال لرفيقه :

– ما شأن هذا الرجل وما أتى ليعمل هنا ؟

– يظهر انه قوي الأعصاب شديد القوى .

– لما ينظر إلي شذراً كأني عدو له ؟

– لينظر كما يشاء فان العيون لا تخلق إلا للنظر .

وعند ذلك التفت الى ليون الذي كان يحدق بارمان فتكلف الانذهال وقال: أهذا أنت ايها الصديق ؟

فانذعر ليون وقال : أتكلمني أنا ؟

– عجباً ألم تعرفني ؟

– أظن انك غلطان .

– وأنا لا أظن ذلك الست ليون ؟

– نعم .

– ليون رولاند ؟

ـ نعم ولكني لا أعرفك .

فأجابه بوقاحة وهزء : أظن انك لا تتجاهل عن معرفة صديقك القديم إلا لوجود نساء معك .

ـ إنك تهين أمي .

فلم يكترث باعتراضه وأتم كلامه فقال : أنسيت خليلتك باولينا التي .

فلم يدعه أرمان يتم حديثه ونهض عن كرسيه فضغط على عنقه بيد من الفولاذ وهو يقول : خسئت ايها النذل فلن تنال مآربك

فصرخ بصوت مختنق : إلي يا نيكولو .

أما نيكولو فإنه للحال أخذ مدية عن المنضدة وانقض على ارمان يحاول طعنه بها .

وأخذ ارمان من جيبه مسدساً وصوبه الى وجه نيكولو وهو ضاغط باليد الثانية على عنق فاتح الأقفال .

وإشهار السلاح الناري على الشجاع القلب الأبي النفس يكاد لا يكون له تأثير . وإذا أشهر على لص جبان دنيء الطبع منحط النفس فهو يرتجف أمامه ويهلع له قلبه من الخوف . وهكذا فان سلاح أرمان قد افزع اللص الى ان انذعر منه ورجع حتى لصق بالحائط .

فقال له ارمان وكان لم يزل قابضاً على عنق فاتح الأقفال : الق هـــذه المدية من يدك واحذر من ان يبدو منك ما يريبني بك وإلا قتلتك في الحال شر قتلة .

فامتثل نيكولو لهذا الأمر الذي نزل عليه نزول الصاعقة فقال ارمان للبون· إعلم ان لك عدواً ألد بعث اليك بهذين اللصين ليقتلاك ولم يأتيا الى هذا الفندق إلا لهذه الغاية

ثم قص عليه جميع ما سمعه وعلمه من مباحثتهما مع كولار وعاد الى اللصين فقال : إذا كنتما تؤثران الحياة اخرجا من هذا المكان .

فلم يجدا بداً من الامتثال وذهبا وهما يتوعدان .

ولما خرجا وسكن النساء ولا سيما حنة التي كان ينظر اليها ارمان بامعان جاء ليون فشكره شكراً جزيلاً ، ثم دعاه إلى مناولة الغذاء معهم ، فحاول أن يرفض وهو يتردد عن القبول الى أن صادف نظره نظر حنة فكانت كأنها تقول له « حبذا لو بقيت معنا لنفيك حقك من الشكر » فقبل الدعوة وجلس بينهم .

أما اللصان فإنهما انطلقا والخيبة رائدهما الى ان لقيا كولار فأخبراه بما كان فغضب عليهما أشد الغضب لجبنهما ثم سألهما عن اسم ذلك الرجل الذي رد كيدهما فلم يعرفاه قال : إذاً انا أعرف اسمه ، إجلسا معي وراء هذه النافذة الى ان يمر .

وقد طال انتظارهما ساعتين حتى سئموا ثم سمعوا وقع أقدام فأطل فاتح الأقفال من النافذة ورجع مذعوراً وهو يقول : هذا هو .

ونظر كولار فرأى أرمان وقد تأبطت حنة ذراعه ووراءهما ليون وأمه وسريز فصاح صيحة انذهال وقال : هذا أرمان !

- ١١ -

ليلة الرقص

لم يكد كولار يتيقن ان الذي أحبط مساعيه هو ارمان ، ولم يكد يراه حتى ترك رفيقاه وهرول مسرعاً الى الشارع فركب مركبة وامر السائق ان يسوق الجياد خبباً الى سانت لازار نمرة ٧٥ اي الى بيت اندريا فسارت به الجياد تنهب الأرض حتى بلغت المنزل بنصف ساعة فرقفت ونزل كولار

ورأى اندريا في مركبته مستعداً للسير فأوقفه للحال وقال له . يجب أن ترجع الى المنزل .

فقال له اندريا : ماذا حدث ؟ وما الذي يضطرني الى الرجوع ؟

ـ سأخبرك متى اختلينا .

ورأى اندريا من ملامح كولار ما يدل على الاهتمام .

فامتثل ودخلا الى المنزل ولما خلا بهما المكان قال اندريا : اخبرني الآن ما الذي طرأ ؟

ـ حدث ما ذهب بامانينا ادراج الرياح .

ـ عن اي أمنية تعني ؟

ـ عن الإرث فان أرمان يقتفي أثرنا .

فاصفر وجه اندريا من الغضب وضرب على المنضدة بيده وهو يقول: إذن فهو يريد ان يموت

ثم هدأت سورة غضبه فحدثه كولار بجميع ما كان في بلفيل ثم قال له بعدما انتهى من سرد تلك الحادثة :

إنك تعلم ان ليون وخطيبته يعرفان فرنـاند وهما الآن يعرفان ارمان وأقل كلمة تحدث منها بشأن تريزا ولو على سبيل الاتفاق تمكنه من الوقوف على صاحب الإرث وتحبط جميع مساعينا ، ألا تعلم ان فرناند أخبر ليون عما دار بين تريزا وزوجها من الحديث يوم كلمته بشأن زواج ابنتها هرمين بفرناند وكيف ان هرمين علمت انها لم تكن ابنة بيرابو ، أيبعد ان يخبر ليون ارمان عن ذلك كما أخبرني وان يعلم ان هرمين ابنة كرماروت كما علمنا نحن ؟

فأجابه اندريا ببرود : وانا من رأيك .

ـ أهكذا تجيبني وانا أكاد اجن خوفاً من الفشل ؟

فأجابه وهو يبتسم تبسم احتقار : كنت أظنك أشد ذكاء مما أراك .

– ولماذا ؟

– لأنك فقدت حواسك عند اول حادثة ، فما يكون من امرك لو أصبت بأمر جلل؟ فاعلم الآن ان مثل ارمان الوصي على هذا الإرث مثل الراعي ومثل الإرث مثل القطيع ومثلنا مثل الذئاب فنحن نحاول افتراس هذا القطيع وهو يحاول الدفاع عنه فالقتال بيننا متوقع في كل حين . وقد قلت لي ان ارمان له معرفة بليون ؟

– نعم .

– ولكن ارمان لم يتعرف بعد بفرناند ؟

– هذا ممكن .

– إذن يجب ان نمنع واسطة التعارف بينهما .

– كيف ذلك ؟

– ذلك امر هين ولا ينقضي هذا اليوم حتى أجد طريقة موافقة .

– ولكن إذا أجهزنا على ليون فان سريز تخبر ارمان .

– سنجد طريقة لسريز أيضاً .

– سريز . أيخطر على بالك قتل سريز ايضاً ؟

– كلا ولكننا سنرجو المسيو بيرابو ان يحتفظ بها .

– وبعد ذلك . .

– وبعد ذلك اذا بقيت على حب الفتاة فسنرى .

– ولكن فرناند . . فان اكثر أصحاب ليون يعلمون علاقته معه ، وله مقام جليل عندهم لاستخدامه في الوزارة ، فاذا فقد ألا يسأل أصحاب فرناند عنه ؟

– ربما ولكن طب نفساً فسينال فرناند حظه من الشرك مساء غد والآن أجبني هل استأجرت لي منزلاً في الشانزليزه ؟

نعم وهو منزل وفق مرادك .

– حسناً فسأراه صباحاً لأني مضطر في هذه الليـــلة ان أذهب إلى حفلة راقصة في الوزارة الخارجية حيث أتعرف بوالد هرمين .

– إذن ستراه في هذه الليلة ؟

نعم سأراه مع امرأته وابنته والآن فاني ذاهب لأرى باكارا فارجع إلى هنا في الليل وانتظرني إلى ان أعود مهما تأخرت .

ثم افترقا فذهب كولار بشأنه واندريا إلى باكارا فلما وصل إلى منزلها ورأته فاني أسرعت إلى سيدتها وقالت : سيدتي هوذا الانكليزي قد عاد أتسمحين له بالحضور مرتين في يوم واحد ، فقالت لها باكارا بقسوة وجفاء : ليس هذا من شؤونك فاذهبي وادخلي الى السير فيليـــام في الحال وبعد هنيهة دخل اندريا فجلس بالقرب منها وقال لنتحدث الآن .

- بماذا ؟

– اصغي إلي انك كنت صباحاً شاحبة اللون مضطربة والآن فأنك على عكس ما كنت عليه والسبب في ذلك انك كنت في الصباح تحبين فرناند حب يأس وأنت قانطة من قربه ، والآن فانك تحبينه حب رجاء وتأملين انه يحبك ويكون بقربك بعد حين .

– ربما .

– والآن تنتظرين غداً زيارة بيرابو .

– ذلك لا ريب فيه فهل امتنع عن الحضور ؟

– كلا ولكني أتيتك بخبر علاج ينزع به من قلب هرمين حب فرناند .

- فبرقت أسرة عينيها من السرور وقالت : أصحيح ما تقول ؟

– نعم ، وسيكون فرناند بعد يومين منطرحاً على قدميك .

فطار فؤادها من الفرح وقالت : قل ماذا تريـــد أن أضحي لأحظى بهذا النعيم .

– لا أريد سوى أن تجلسي على هذه المنضدة وتكتبي ما أمليه عليك ،

فامتثلت باكارا وأملى عليها أندريا ما يأتي :

« حبيبي فرناند »

هوذا أربعة أيام لم أرك بها وأنا أحسبها اربعة أجيال أقول اربعة أجيـال يا حياة دمي ويا ملاكي المعبود لأنك تعلم أن حبيبتك باكارا لا تعيش إلا لأجلك كما انك لم تعش إلا لأجلها أيها الناكث العهد قبل ان تلهو عنها بشأنك الجديد كما تقول . ولا جرم فهذه طباع الرجال الذين يحبوننا حباً يكاد يكون عبـادة ثم يصادفون ابنة ذات حشمة كما يقولون تتبسم بابتسام البلهاء ولها من المهر مئتا الف فرنك فيميلون إلى الزواج بها رغبة في مهرها دونها .

« وأظن انك عندما ترتكب هذه الهفوة وتبلغ الغـاية من هذه السياسة الخرقاء ، سياسة المطامع ، السافلة ستجد واسطة لتقدمني الى امرأتك فان البارون . يريد أن يتزوج بي فسأكون أنا امرأة محتشمة أيضاً وأقسم لك بكل ما هو عزيز لدي اني سأحضر عرسك من غير بد لأنه لا أحب إلي من ان أراك بالملابس الرسمية متأبطاً ذراع امرأتك المحتشمة .

« انك لم تتزوج بعد أيها القاسي وأراك تهملني قليلاً وانك أقسمت لي انك لن تحب سواي في هذا العالم فهذه هي ايمانك وماذا يمنعك من أن تزور في كل يوم حبيبتك باكارا التي ستحافظ على حبك إلى آخر نسمة من حياتها .

« اني أكاد أجن من غيرتي فاعلم انك اذا لم تزرني في هذه الليلة فسيكون بيني وبين خطيبتك ما تكرهه .

« يدي في يديك وشفتاي على شفتيك باكارا »

فلما انتهت من كتابة الرسالة نظرت إلى اندريا كأنها تسأله عن الغـاية من هذه الرسالة ؟

فقال لها وهو يبتسم : ألم تفهمي إلى الآن المراد من هذه الكتابة .

– كلا، وقد ابتدأت ان ارى نفسي العوبة بين يديك تديرها كيف تشاء .

– ستفهمين كل شيء فاكتبي الآن العنوان هكذا :

(إلى المسيو فرناند روشي ، في شارع ماريس)

فكتبت قال : أكتبي أيضاً على هذه الرسالة هذه الحاشية .

« إن خادمتي فاني ستحمل اليك هذا الكتاب فاحذر من أن تغازلها فإنني وإن أكن على ثقة من مداعبتك لها كما أكدوا لي فلا أريد ان أصدق انك تتدانى إلى حب خادمة غرفتي .. آه من الرجال » .

فعندما انتهت قال لها أندريا · والآن أيتها العزيزة إنك لا تفهمين المراد من هذا الكتاب إلا غداً ، أي عندما يقع في يد هرمين .

– آه لقد فهمت كل شيء الآن ولكن من الذي يوصله اليها .

– أبوها بيرابو .

– هو بعينه ؟

– أتريدين إذن أن نبيع سريز لهذا الكهل بغير ثمن ؟

– هذا أكيد .

– ان فرناند سيتناول الطعام غداً عند رئيسه ، وبعد إنصرافه يجدون هذا الكتاب على منضدة ، أو على بساط الغرفة ، فيفتحونه ويقرأونه وهو كاف لنزع حب فرناند من قلب هرمين إلى الأبد .

- هذا لا ريب فيه ولكن أتظن أن بيرابو يقبل بهذه الخيانة ؟

- يقبل بكل شيء لأنه يحب سريز والآن اسمحي لي أن أذهب إلى منزلي لأنني أريد أن أستعد للحفلة الراقصة التي كما اخبرتك سأتعرف فيها ببيرابو .

– إذاً فهو لا يحضر في هذا المساء ؟

– كلا . ولكنه سيأتي غداً من غير بد.

– وعندما يأتي فماذا ينبغي أن أعمل ؟

– تطلعه على الرسالة ؟

– وبعد ذلك ..

تقولين له أنك تحبين فرناند وإنه إذا سمح بزواجه بابنته فهو لا يرى

سريز على الاطلاق ثم تعطيه الرسالة وتقولين لهأن يجتهد في أن تطلّع عليها هرمين ، وأن تكتب لخطيبها بعد ذلك سطرين بخطها يشيران إلى انحلال عقد الخطبة بينهما وتعديه أنه متى أتم ذلك تجمعيه بسريز .

– أتظن أنه يقبل ؟

– لا أظن بل أؤكد وسترين غداً يكون ثم ودعها وانصرف .

وبعد ساعتين ذهب إلى حفلة الرقص فعرفه الوزير بجميع من وجد في تلك الحفلة من الأعيان وعرفه الجميع باسم السير فيليام وكثر التحدث بشأنه وقيل أنه راغب في الزواج ،فجعلت الأمهات تتهافت وتتنافس في إكرامه ، ثم عرفه أحد العاملين في الوزارة بالمسيو بيرابو ، وتعرف بواسطته بهرمين فرقص معها مرتين وبذل قصارى جهده في مرضاتها حتى أعجبت بجماله وأدبه وحسن عشرته ،وعند منتصف الليل ترك الحفلة وذهب إلى منزله وهو يقول .انها جميلة فإذا وفقت إلى الحصول عليها وعلى ملايينها أكون من أسعد البشر .

- ١٢ -

الرسالة

أن بيرابو كان رجلاً شحيحاً مفرطاً في محبة الذات وقد أثر عليه كثيراً احتقار امرأته له وما رآه من كرم هرمين يوم رفضت حقها من المهر بمنتهى العظمة والجلال ، غير أن حبه للمال انساه كل ما لقيه من الإهانة فصادق على زواج هرمين بفرناند ، وجعل من ذلك الحين يبالغ في إكرام فرناند ويزيد من ملاطفته ومؤانسته .

وفي اليوم الثاني من اتفاقه مع باكارا وأخذه منها تلك الرسالة التي أملاها أندريا ذهب إلى الوزارة حسب عادته ودعا فرناند فلما أتى قال له: انني أحب

أن أطلعك على مسألة سرية سأكشفها لك ولكني قبل أن انسى أقول لك أن امرأتي وهرمين تنتظرانك اليوم للغداء .

فأختلج فؤاد فرناند من الفرح وظهرت على محياه علائم السرور .

فقال بيرابو : وأنها بعد الغداء يذهبان لحضور تمثيل رواية جديدة دعيتا اليها وحبذا لو أقمت مقامي ونبت عني برافقتها .

— إنني رهين أمرك ولا أحب الي من الرضوخ والامتثال لإرادتك .

— أشكر فضلك والآن فاصغ الي فإنني مطلعك على كل أمري ومعترف لك بما يحسبه البعض ذنباً من أشد الذنوب . نعم أيها الصديق وربما كان ذاك ذنباً فإن من تجعد جبينه وغارت وجنتاه وجحظت مقلتاه فقد فات حد الصبا ، ولكن اذا شاب رأسي فإن قلبي لم يشب وانا الآن عاشق مفتون .

ولم يطق فرناند أن يملك نفسه وقـــال له بدهشة واستغراب : أنت يا سيدي تعشق ؟

— نعم فلا تقطع علي الكلام اني احب كما يحب الفتى وهو في العشرين من عمره وأرجو أن لا تخونني في سري .

— معاذ الله يا سيدي أن أخونك في سرك فقل ما تريد .

— لقد بدأت باقراري فوجب علي أن أبلغ به إلى النهاية . أقـول أن التي أحبها فتاة في مقتبل شبابها لم تر عيناي أجمل منها صورة ولا أبهج منظراً ولقد بلغت من الجمال ما يفوق حد الوصف فكأنها خلقت كما اشتهت ولذلك فتنت بها ولو تراها رؤيتي لهمت بها نفس هيامي .

فتبسم فرناند تبسم ازدراء وقال : ليسمح سيدي ان أسأله إذا كان هـذا الحب بل هذا الهيام متبادلاً .

لا أعلم شيئاً من ذاك ، غير ان من بلغ سن الكهولة يغض الطرف ويتسامح في هذه الشؤون والذي أعلمه انني أحب هذه الفتاة حباً يضيع صوابي ويعيقني عن واجباتي فان رئيسنا سيحيي في هذا المساء ليلة أنس ولا أجد بداً من الذهاب

بنفسي او إرسال من ينوب عني ، وقد علمت الآن انني اوثر الملتقى بتلك الفتاة على جميع الحفلات وعلى قضاء كل ما يدعونه بالواجبات

إذن فسأذهب من قبلك واعتذر عنك .

- حسناً ولكني لا أحب ان تعلم امرأتي وابنتي شيئاً من ذلك بل أود أن تعلما انني ذهبت إلى تلك الحفلة

- ماذا تريد ان افعل ؟

- أريد ان ترافقها الى التمثيل وبعدها ترافقها معتذراً ان احد اصدقائك عازم على السفر في الغد وانك ذاهب مع زمرة من الاصدقاء إلى إحياء ليلة وداع عنده ثم تذهب إلى منزلك فتلبس ملابسك الرسمية وتعود منه الى منزل الرئيس فتنوب عني في حضور هذه الحفلة

فأجابه فرناند بالقبول وهو شديد الأسف لاضطراره إلى البعد عن هرمين في هذه الليلة ، ثم غادره وذهب الى هرمين فقابلته بمنتهى البشاشة والحنان وذهبوا جميعاً الى قاعة التمثيل وعادوا منها في الساعة الخامسة ، واستأذن فرناند منهما على الشكل الذي اتفق مع حميه ومضى الى منزله

اما بيرابو فإنه عاد الى المنزل في الساعة السادسة وبعد ان تناولوا الطعام دخلوا جميعاً إلى قاعة البيانو ، وجلست هرمين تعزف على تلك الآلة اشجى الانغام ، وجلس بيرابو بالقرب منها وهو يتكلف عدم المبالاة . اما تريزا فإنها صرفت اهتمامها الى اصلاح نار المستوقد ، وفيما هي تنحني لأخذ الملقط عثرت برسالة مفتوحة فأخذتها دون ان تنظر اليها واعطتها لزوجها وهي تقول ان هذه الرسالة لك ولا ريب . فأخذها بيرابو وقرأ بصوت عال هذا العنوان : « الى المسيو فرناند روشي » ثم قال :ان هذه الرسالة لفرناند وليست لي وقد سقطت منه دون ان ينتبه اليها .

أما هرمين فإنها لم تكد تسمع إسم فرناند حتى تركت البيانو وتقدمت من بيرابو يدفعها الشوق إلى الاطلاع على هذه الرسالة .

وقال بيرابو وهو يتكلف السذاجة : ان هذا العنوان غريب في بابه ويظهر انه مكتوب بيد امرأة بدليل هذه العبارة المكتوبة بعد العنوان وهي «بواسطة خادمة غرفتي » فارتعشت هرمين واحمرت وجنتاها ثم استحال ذلك الاحمرار الى اصفرار وجعلت تختلج وقد حدثها قلبها بمصاب جلل .

اما بيرابو فإنه تظاهر انه يقرأ الرسالة بغير اهتمام كمن يريد ان يقف عرضاً على علائق صهره ولكنه ما لبث ان قرأ سطرين منها حتى صاح صيحة انذهال وانكار وقرب من النور ليتم قراءة الرسالة بجلاء .

وعندما فرغ من تلاوتها تكلف الانفعال ودنا من امرأته التي كانت واقفة تراقب ملامح زوجها وترتعش من الخوف فقال لها : هذه الرسالة من باكارا المومس البغي الشهيرة مرسلة الى الذي اردت ان تصاهريه فأهنئك بهذا الصهر الفاضل وارجو ان تقرأي هذه الرسالة كما قرأتها .

فأخذت تلك الأم المسكينة تقرأ هذه الرسالة التي خطتها يد الزور والباطل والتي اهينت فيها ابنتها اقبح إهانة ، ولم تبلغ الى آخرها حتى صرخت صراخ اليأس واغمي عليها واسرع زوجها إلى مساعدتها واخذ يصيح ويدعو الخدم ويكثر من الجلبة والاهتمام ليدع وقتاً لهرمين كي تطلع هي ايضاً على الرسالة .

اما هرمين فانها اخذت الرسالة وقرأتها الى آخرها بغاية السكينة والهدوء وبعد ان اتمت تلاوتها جعلت تنظر الى امها والى بيرابو نظرة يأس وهي لا تنبس ببنت شفة ولا تذرف دمعة الى ان افاقت امها من اغمائها فعانقتها عناقاً طويلاً والدموع تنهل من عينيها كالمطر ثم نظرت هرمين الى بيرابو وقالت له بصوت متهدج كمن يجهش للبكاء انك سترجو ولا ريب المسيو فرناند ان ينسى ارتباطنا السابق .

فأجابها بيرابو وهو يتصنع الغضب : اذا جسر هذا التعس على الرجوع الى هنا تلقى ما هو اهل له .

– سكن جأشك يا ابي فان المسيو روشي لن يكون بعلاً لي .

ثم مشت بعظمة الى المنضة وكتبت ما يأتي :

« سيدي .

« لقد طرأت حادثة لا اجد حاجة الى ذكرها الجأتني الى العدول عن اتفاقنا السابق واني سأدخل الدير بأقرب حين فأرجو ان تنقطع عن زيارتنـــا فإنها ستكون بغير فائدة » .

وبعد أن وقعت على هذه الرسالة اعطتها لبيرابو فقرأها وقال: لقد احسنت وانا سأرسلها اليه في حينه ، ثم قال في نفسه وقد كاد يطير من الفرح :بشراي فإن سريزهي لي . وبعد ذلك خرج من المنزل والرسالة في جيبه فركب مركبة وقال للسائق : اسرع بي الى شارع مونسي : اي منزل باكارا

- ١٣ -

فاني

بينا كان بيرابو قادماً الى منزل باكارا كانت باكارا مختلية مع اندريا في غرفة صغيرة كانت تعدها لمقابلة اصدقائها المخلصين وهي فيها بأمن من ان تسمع حديثها فاني التي كان من عادتها ان تسمع كل محادثات سيدتها بوقوفها على ابواب الغرفة التي تقابل فيها زوارها .

وكانت باكارا ساعتئذ مضطربة الفكر صفراء الوجه والدمع يترقرق في عينيها ، اما اندريا فكان هادئاً ساكناً يبسم من حين الى حـــين ابتسام الهزء والسخرية وقد دار بينهما الحديث الآتي

قالت باكارا: ايبلغ بي الحب الى هذا الحد من الدناءة فأبيع اختي بيع السلع . لا يغرب عنك ايتها العزيزة ان الانسان في هذا العالم لا يربح شيئاً دون ان يخسر ما يقابل ذاك الربح ، وان بيرابو سيفرق بين ابنته وبين فرناند

لأجلك ، اليس من العدالة ان يناله ما نالك من الفائدة ؟

ـ ولكنها اختي التي سأضحيها .

ـ انك لا تضحينها بل تعملين لسعادتها ونعيمها .

ـ انها نقية طاهرة لا ترغب في معيشة البغي والفساد فهي تريد ان تتزوج.

ـ لا بأس .. فإنها ستكون بعد حين من الزمان ، من اسعد النساء ، وسيكون لها قصور وخيول ومركبات كما لك الآن ، اليس ذاك خيراً لها من ان تشتغل الليل والنهار لسد عوزها وان تتزوج برجل عامل قذر الملابس ، خشن اليدين يسومها الخسف والعذاب وهوان العيش ، ثم انها بعد ان تقيم زمناً يسيراً مع بيرابو ريثما يتم مأربك من فرناند تنفصل عنه وتعاشر شاباً غنياً ذا ثروة واسعة ينفق عليها بكرم وسخاء فلا يمضي عليها العام حتى تغدو في أحسن حال . والآن فإن الساعة بلغت الثامنة ونصف وان بيرابو يكون ولا ريب قد تمم حيلته فاشتي الان في عزمك والا فاني اذهب الى هرمين والقي الحجب بينك وبين فرناند فلا ترينه الى الأبد .

فأحنت با كارا رأسها ولم تجب بكلمة .

قال لها : قومي الى المنضدة واكتبي ما أمليه عليك .

فامتثلت وكتبت بإملائه ما يأتي :

« يا اختي العزيزة

« انني في اشد موقف الخطر فإذا لم تسرعي اليّ فأنا هالكة لا محالة . ولا تسمح لي الحال بأن اذهب اليك ولا ان اقص عليك ما انا فيه وما انا عليه من الاضطرار الى نصرتك ولكني اعلمك فقط ان تأخرك عن الحضور ينتج عنه خطر على مستقبلي وعلى حياتي فاسرعي ايتها الأخت العزيزة بالذهاب حين اطلاعك على الرسالة الى شارع الحية نمرة ١٩ واسألي عن مدام كوكليت وقولي لها انك آتية من قبلي وحينئذ تعلمين ما الذي يجب ان تفعليه لانقاذ اختك .

(با كارا) »

ولما انتهت من كتابة الرسالة سقط القلم من يديها وجرى الدمع في عينيها وهي تقول . مسكينة اختي .

وفيما اندريا يلاطفها ويسكن من شجنها إذ قرع جرس الباب الخارجي فقال: هذا هو بيرابو .

فنهضت باكارا لتذهب الى غرفة الاستقبال العمومية ، فقال لها اندريا : إذا كان القادم بيرابو إعلمي منه أولاً ما حدث ، ثم ارجعي الي قبل أن تمديه بشيء .

فمسحت عن خديها آثار الدموع وأصلحت شعرها ثم دخلت الى الغرفة وأمرت فاني بإدخال الزائر فدخل وكان بيرابو .

وقد دخل اليها وعليه ملامح الفوز وحياها ببشاشة واحتشام ثم أعطاها الرسالة التي كتبتها هرمين الى فرناند وقرأتها بسرور لا يوصف ، وعندما انتهت الى آخرها قالت بصوت منخفض : إنه لن يتزوج وقد قضي الأمر على وفق مرادي .

أما بيرابو فانه انتظرها الى ان فرغت من القراءة فقال والآن يا سيدتي ألا تجرين شيئاً لأجلي ؟

ولم تجبه بشيء بل قالت له : اصبر وانتظرني قليلاً إلى ان أعود اليك .

ثم تركته ومضت الى اندريا وأخبرته بما كان بينهما وأعطته الرسالة فتلاها مراراً وهو يقول : قد تم الأمر على اكثر ما كنا نرجو وهو فوق المأمول .

ثم نظر الى باكارا وقال لها : والآن ايتها العزيزة إذهبي الى بيرابو وقولي له أن يذهب في الساعة العاشرة الى شارع الحبة نمرة ١٩ وان يسأل هناك عن مدام كوكليت وان يعتمد عليها بالحرص على سريز

أهذا كل ما تريده ؟

- نعم وحذريه أيضاً من أن يبوح بامر لفرناند إذا سأله عن السبب في قطع

العلائق وعن رسالة هرمين وعندما يذهب إرجعي إلي لأطلعك على ما يجب أن نصنعه بهذه الرسالة واعلمي انك إذا صبرت وعقلت فان فرناند يكون عندك ولا يخرج إلا بامرك .

فخرجت باكارا والفرح ملء فؤادها أما اندريا فانه نادى فاني وقال لها : إر ذبي في مركبة سيدتك وخذي هذه الرسالة الى اختها سريز واذا سألتك عنها لا تجيبي بشيء بل قولي انها في أشد حالات القلق وخذي هذه الدنانير واستعيني بها على حالك

وبعد ذاك ذهب اندريا من منزل باكارا وأمر السائق ان يسير به الى شارع الحية نمرة ١٩ .

- ١٤ -

بيرابو

أما فاني فانها ركبت مركبة سيدتها وسارت بها الى سريز . وكانت سريز قد قضت عدة ساعات من النهار في منزل صديقتها حنة وأحبت ان تستعيض عما أضاعته من الوقت في النهار بالشغل في الليـل ولما دخلت فاني رأتها منكبة على شغلها تعمل بمزيد الرغبة والاجتهاد .

واندهلت عندما رأت فاني قادمة اليها في مثل هذه الساعة ولكنها لم تلبث أن قرأت رسالة اختها حتى استحال اندهالها الى حزن عميق وقلق عظيم وقالت : بالله قولي ما أصاب أختي ؟

— لا أعلم ولكنها كانت شديدة الاضطراب عندما سلمتني هذه الرسالة حتى اني خشيت عليها من الجنون .

ونهضت سريز ولبست ثيابها بمنتهى السرعة وقالت لفاني : اسرعي اليهـا واخبريها عن ذهابي

ثم خرجت من المنزل وذهبت الى أقرب محل تجتمع فيه المركبات واستأجرت واحدة منها وقد أنفت من الركوب في مركبة اختها وقالت للسائق أسرع بي الى شارع الحية نمرة ١٩ .

وكان قلبها يخفق وهي موجسة أشد الخوف على اختها الى ان بلغت بهـا المركبة الى ذلك المنزل فطرقت الباب بيد ترتجف ففتح لهـــا ، ولما دخلت رأت الظلام سائداً ولم تجد احداً فقالت بصوت مرتفع : ألا يوجـد بواب في هذا المنزل ؟

وأطلت إمرأة عجوز من أعلى السلم وبيدها مصباح فقالت : من هذا ؟

– اني أتيت لأرى مدام كوكليت فهل هي هنا ؟

– نعم انا هي ، إصعدي .

وصعدت سريز وقد اشتدت مخاوفها لخشونة صوت تلك العجوز ولما رأته من قذارة ذلك المكان ، حتى وصلت اليها فقالت : سيدتي ، إني أتيت من قبل اختي باكارا .

واستحال عنف العجوز الى الرقة والحنان وقالت لها : اتبعيني .

ثم فتحت باباً كان مقفلاً ودخلت منه في رواق طويل مظلم حتى انتهت منه الى غرفة ضيقة ليس بها من الأثاث غير مقعد قديم وكرسي طويل ومنضدة عليها قنديل من النحاس ، وكل ما فيها كان يحمل على الريبــــة ودخلت اليها وقالت لسريز بصوت تكلفت فيه جهد اللطف : أدخلي ابنتها الحبيبة

وامتثلت سريز وجعلت تراوح نظرها بين تلك الغرفة ووجه تلك العجوز وهي تستغرب كيف ان اختها التي تعيش بمنتهى البذخ والسعة يكون لها علاقة واتصال بمثل هذه المرأة وفي مثل هذا المنزل

وقالت لها العجوز انك آتية من قبل باكارا ؟

- نعم انها أختي

- حسناً ، إجلسي .

- سيدتي ان اختي قد كتبت لي انه يجب ان أجيء اليك واني انا وحدي القادرة على إنقاذها مما هي فيه .

- هذا لا ريب فيه ، إجلسي قليلاً ريثما يأتي الذي سيحدثك بشأنها فقد آن له ان يحضر .

ثم وضعت المصباح الذي بيدها على المستوقد وخرجت قبل ان تدع وقتاً لسريز ان تسألها وأوصدت الباب .

وجلست سريز وهي عرضة للانذهال ، وكانت تنظر الى تلك الغرفة وتتصور تلك العجوز وتتذكر رسالة باكارا وتتأمل بذلك السكون السائد في هذه الغرفة التي لم يكن يسمع بها غير دقات الساعة وخفقان قلبها ، وكادت تجن من الخوف ولم يطل انتظارها الى الساعة العاشرة حتى سمعت حركة من ورائها والتفتت فرأت باباً من الورق لم تكن نظرته قبل قد فتح ودخل منه رجل وأوصد الباب من وراءه ، ثم دنا ومد إحدى يديه اليها السلام بمنتهى البشاشة ورفع بالثانية قبعته التي ظهر من تحتها تجعد جبينه ، ولم تردها هذه البشاشة غير قلق ورجعت خطوة الى الوراء وهي تقول : أأنت هو الرجل الذي أنتظره ؟

- نعم .

ثم أخذ بيدها وقال لها : تفضلي بالجلوس لنتحدث .

وسحبت يدها من يده ولبثت واقفة وقالت : إن اختي باكارا ..

- نعم وهي بارعة في الجمال تكاد تضاهيك في محاسنها .

- وقد كتبت لي ..

- إني عالم بكل شيء

- إنها في حالة خطرة ...

خطر شديد .

– وانه يجب علي أن ..

– نعم انها تثق بك جداً وتتكل عليك فهلم واجلسي بالقرب مني لنتحدث في هذا الشأن . هل تخافين مني ؟

– لا .

وكانت لا تفهم شيئاً من حديث بيرابو وكانت شديدة البعد لسلامة نيتها عن أن تسيء الظن بمثل هذا الشيخ وان تعلم حقيقة نياته وامتثلت لاشارته وجلست على المقعد بالقرب منه فقالت له بصوت شجي يلين الجماد أتوسل اليك أن تنقذ اختي .

– هذا لا ريب فيه وهو غاية ما أسعى اليه ، ولكن لنتحدث أولاً بشأنك .

ثم أخذ يدها وحاول تقبيلها .

ورجعت الى الوراء وجعلت تنظر اليه بريبة وانذهال .

واقترب منها جيداً وقال لها . تفرسي بي جيداً ألم تعرفيني ؟

فتذكرته سريز للحال وقالت : نعم أذكر يوم تبعتني الى منزلي .

ثم نهضت مسرعة وحاولت ان تهرب ، ولكنها افتكرت باختها وقالت في نفسها : إن هذا الرجل لم يتبعني في ذلك الحين إلا لمحادثتي في شأن اختي فخفف ما عندها ولبثت ساكنة لا تبدي حراكاً .

فقال لها بيرابو : يخال لي اني تراءيت لكِ بمظاهر القسوة ولا أظن السبب في ذلك إلا تجاوزي سن العشرين، ولكني أؤكد لك انك ستكونين راضية عني وسأتصرف معك بشرف ونزاهة إصغي إلي إني كثير الوجاهة والمال وستلقين عندي جميع ما تتوقين اليه من السعادة والنعيم واني ...

ولم تدعه سريز يتم حديثه وقد علمت كل شيء حتى خيانة اختها الـسائلة فركضت الى الباب تريد الفرار ولكنه كان موصداً . أما بيرابو فانه تبعها

وحـاول ان يضمها اليـه فأفلتت منه وصرخت تستغيث وتقول : إلي . أدركوني . .

ولم يجبها غير قهقهة بيرابو الذي بعد ان فرغ من ضحكه أعاد الكرة عليها وأخذها بين يديه وضمها الى صدره ، فهبت لديها قوة من السماء مما أثار فيها من الغضب ، وإن الحدة تضاعف القوى ، ودفعته دفعة عظيمة فانطرح على الأرض وأسرعت الى المنضدة وتسلحت بالمصباح النحاسي الذي كان عليها . أما بيرابو فانه بعد ان نهض من سقطته ورآها وبيدها ذلك المصباح تزيد حنقاً أحجم عنها ، ثم ثارت به عوامل الغرام وذكر انه ليس في المكان غير مدام كوكليت التي أعطاها مبلغاً وافراً من المال فوعدته بالسكوت والتغاضي عنها فهجم عليها وهي تصيح وتستغيث .

وفيما هو ماسك بها وهي تدافع عن نفسها بشهامة وبأس ، إذ فتح الباب فجأة وولج منه رجل فبدلت صراخ اليأس بصيحة الفرح وقد علمت ان العناية بعثت اليها بمن ينقذها من هذا الوحش الضاري ولكن بيرابو لم يتبين وجه هذا الرجل حتى جمد الدم في عروقه وتمتم قائلاً : السير فيليام .

وكان هذا الرجل هو نفس السير فيليام أي اندريا ، فدخل وبيده مسدس أشهره على بيرابو الذي أحنى رأسه عندما عرفه وهو يكاد يذوب من الخجل ، فمشى اليه بعظمة واحتقـار ثم رجع الى سريز وقال : لا تخشي ايتهـا الفتاة ولا بأس عليك ان الله ارسل اليك من يصون طهارتك وينقذك من أيدي الأشرار .

ثم رجع خطوة الى الباب ونادى قائلاً : كولار .

ودخل كولار في الحال من الباب الذي دخلت منه سريز ، فعرفته انه صديق خطيبها ، فركضت اليه واحتمت به كما يحتمي الطفـل بأمه في مواقف الخوف .

فقال له اندريا : اني أعهد اليك بارجاع هذه الفتاة الى منزلها واذا أصيبت

بكروه أنت المسؤول عنها .

وتكلف كولار الاندهال وقال إنها بالحقيقة السيدة سريز كما أخبروني، وقد اكتفى بما ذكره ولم يوضح شيئاً من مقاله واخذ بيدها فخرجا من ذلك المنزل وهي واثقة به مزيد الثقة وداعية السير فيليام .

- ١٥ -

الميثاق

بعد ان ذهبت سريز مع كولار بقي اندريا مع بيرابو في الغرفة نفسها وقد لبثا هنيهة ينظر كل منهما الى الآخر نظرة الأعداء في ساحة القتال الى انذهب أندريا وأوصد الباب وعاد الى بيرابو فقال :

— يخال لي يا سيدي انك المسيو بيرابو رئيس قلم في وزارة الخارجية وانك والد السيدة هرمين التي تشرفت بالرقص معها ليلة امس واني اراك اليوم في منزل مشتبه تحاول اغتصاب فتاة شريفة وتلقي بنفسك الى .

فقاطعه بيرابو وقال ماذا يعنيك ؟

- انا لا يعنيني ذلك أبداً ولكن يجب ان تعلم ان هذه الفتاة في السابعة عشرة من عمرها وانك قد حاولت اغتصابها قهراً وغلاباً وهذا الذنب من اكبر الجرائم وما وراءه غير السجن . أفهمت الآن ؟

وأصغى اليه بيرابو وهو ينظر بملء الخوف الى المسدس في يده فأتم اندريا حديثه وقال :

— ولكي تصل الى هذه النتيجة، أي لكي تبدل ثيابك التي تدل على منصبك العالي بثياب المجرمين وتستعيض عن تلك النياشين التي تعلقها على صدرك بقيد

يوضع في رجلك ، ويستحيـــل اسمك الذي هو رئيس قلم في وزارة الخارجية الى اسم مجرم مغتصب لا ينبغي إلا شاهدان يشهـدان أمام القاضي على جرمك الفظيع .

– إذن أنت تريد هلاكي ؟

– ان أمر هذه الفتاة يهمني وسأشهد مع كولار على ما رأيناه .

فجثا بيرابو على ركبتيه وقال : رحماك ان كلمة منك تزجني الى أعمـاق السجون .

وكان هذا الشيخ وقحاً مع الأدنى متذللاً للأعلى ، قوياً مع الضعيف جباناً مع القادر ،فجعل يتوسل الى اندريا وهو يبكي بكاء الأطفال فأنهضه اندريا وقال: كفاك الآن توسلاً واجلس أمامي لنتحدث

فقال بيرابو وقد استحالت ملامحه من اليأس الى الأمل : أتعفو عني ؟

– كلا ولكني سأجتهد ان أتفق معك وان لم اكن قاضياً قادراً على سجنك ولكن لي الآن سلطان عليك وعلى حريتك وشرفـك ومنصبك وسارى إذا كنت أستطيع ان أحصل على مطلوبي بهذا السلطان

فظن بيرابو ان اندريا طامع بالمال فقال له أتريد مالاً .. نعم اني لست بغني ولكن قل كم تريد ؟

فهز اندريا كتفيه مبتسماً وقال : انى أريد أكثر مما تظن .

– إذاً أنت تريد خرابي ؟

– ليهدأ روعك فلست بحاجة الى مالك واصغ إلي .

فتنهد تنهد الراحة ونظر الى اندريا نظرة إجلال ، فقال اندريا : إن لك إبنة وقد رقصت معها ليلة أمس .

– نعم .

– وقد عقدت خطبتها الى فرناند روشي .

– هذا أكيد .

– إنك أخطأت في ذلك ، فإن ابنتك قد أعجبتني ويسرني ان تكون زوجة لي ، والآن إصغ إلي . ان هرمين ليست بابنتك الشرعية ، اليس هذا أكيد ؟

– نعم .

– إنها ابنة رجل لا يعلم اسمه سواي ، وقد مات تاركاً ١٢ مليوناً ، ولا يعلم سواي ايضاً بوصيته وقد أوصى بها ان يبحث عن تلك المرأة فإذا كان لها ولد منه تعطى له جميع هذه الملايين أفهمت الآن ؟

فأدرك بيرابو جلية الأمر وجعلا ينظران الى بعضهما كلصين دم أحدهما الآخر ثم اضطرا الى الاتفاق بعد ان كان كل منهما يريد قتل الآخر .

فقال اندريا : إنني إذا تزوجت بابنتك فستكون هذه الملايين لها ، وسيكون لك منها نصيب ، وإذا أبيت فاني أكتم اسم أبيها فتخسر هذه الثروة الواسعة .

فقال بيرابو وقد هاجت به أطماعه : ستتزوجها من غير بد .

– إذاً إصغ الي الآن ، إنك رجل أهل لكل جريمة ، كثير الشهوات ولكنك ضعيف العقل ، فلا تستطيع ان تخوض في مضمار المآثم بغير مرشد ، أما أنا فسأكون ذلك القائد وستكون آلة بيدي أديرها كيف أشاء .

– قبلت وسأكون لك أطوع من العبيد .

ثم اختليا ولم يعلم أحد ما دار بينهما غير انه لما خرج بيرابو كان قد وقع على شروط تقرر في بعضها موت فرناند .

- ١٦ -

امين الصندوق

في اليوم الثاني من تلك الحادثة جاء بيرابو في الساعة العاشرة حسب عادته وكان قد اطمأنت نفسه لوعود اندريا لا سيا بما يتعلق بسريز ، فما قال له : طب نفساً يا عماه فان اليوم الذي تزف الي ابنتك تجد على باب منزلك مركبة فيها كيس ملآن من الذهب وبقربه سريز فتذهب بها الى خير بقعة خارج باريس وتقضي معها شهر العسل .

وكان اندريا ضاغطاً على بيرابو بثلاثة أمور أولها خوفه من تهمة الاغتصاب وهو شر الذنوب ، ثم حبه لسريز وما يجد بها من الهيـــام المبرح ، ثم طمعه بملايين ذلك الإرث الخفي . فلما دخل الى غرفته في الوزارة على ما قلناه دخل اليه فرناند ، ولم يكن قد وصلت اليه تلك الرسالة الهـــائلة فكان باسم الثغر طلق المحيا ، شأن السعداء في الحب فحيا رئيسه وقال : إني آت لأخبرك عن حفلة الأمس .

- عسى ألا تكون قد ضجرت فهل حدثوك عني بشيء .

- نعم وقد تمحلت لك عذراً لعدم حضورك .

- حسناً فعلت . والان ايها الصديق انك قد أصبحت من أشد خلصاني ، فلا أجد بداً من ان أطلعك على جميع سري فاصغي إلي . ان هذه الفتاة قـــد ملكت قيادي واسترقت فؤادي وانا الان مضطر الى الذهاب اليها فأرجوك ان تنتقل إلى غرفتي وتنوب عني في قضاء الأشغال ، ثم أعود بعد ساعـــة وسأترك لك مفاتيح الصندوق ، فاذا جاء احد ليقبض شيئاً فادفع له من هذا الصندوق .

وكان يوجد في هذا الصندوق اعتيادياً الف جنيه بين ذهب وأوراق مالية

واسمه صندوق المساعدات السرية .

وكانت تلك الغرفة التي فيها بيرابو قاعة واسعـــة ، وعلى الباب الخارجي خادمان لنقل أوامره الى سائر المأمورين ، فقـال بيرابو لفرناند : اذهب الان واقفل غرفتك وعد إلي .

فامتثل فرناند .

أما بيرابو فانه فتح الصندوق بمنتهى الخفـة وأخرج منه محفظة خضراء وأخفاها في جيبه ثم أقفل الصندوق وعاد الى مجلسه ، ولما دخل فرناند أعطاه المفاتيح وخرج بعد ان أوصى المأمورين ان يعتمدوا على صهره فيما يعرض لهم من الأشغال أثناء غيابه ، ثم ركب مركبته وأمر السائق ان يسير مسرعـاً الى سانت لازار

ولم يطل مكوث فرناند في غرفة حميه حتى دخل اليه أحد الخادمين فقال له : ان على الباب رجلاً يحمل اليك رسالة

فأمره بادخاله فدخل .

وكان هذا الرجل كولار والرسالة هي الكتاب الذي كتبته هرمين .

فوصل منها الى أبيها ومنه الى اندريا الذي عهد الى كولار بايصاله ففض فرناند الرسالة ولم يكد يأتي في تلاوتها على آخرها حتى امتقع لون وجهه وأحس ان الأرض اهتزت تحته ، وكان كولار قد قال له : إن امرأتين إحداهما كهلة والثانية صبية قد كلفتاه بايصال هذه الرسالة ، فعـــلم انهما تريزا وهرمين . ثم قرأ الرسالة مرة ثانية ، فأضاعت رشده ونسي موقفه فخرج من تلك الغرفة مهرولاً بغير قبعة وبغير رداء وهو يرجو ان يراهما على الطريق ولم يكن معه غير مفاتيح الصندوق .

مضى على ذلك ساعة ولم يعد فرناند وقد عاد بيرابو ولم يجده فتكاف الانذهال ودعى بالخادم فقال له :

– أين فرناند ؟

انه ذهب بعدما ذهبت .

ـ عجباً أيذهب قبل ان أعود ؟

ـ أظن انه في غرفته لأن قبعته لا تزال هنا .

وجعل بيرابو يبحث عنه في جميع الغرف ثم عاد الى أشغاله وهو يتظاهر بالتعجب والقلق ، وفيما هو جالس إذ دخل عليـــه رجل وبيده صك يريد قبض قيمتــه ، فقال له بـيرابو : إن مفاتيح الصنـدوق ليست معي ، فانتظر قليلاً .

فلبث ذلك الرجل منتظراً حتى أعياه الانتظار ، فتلبس بيرابو بالغضب ودعى الخادم وقال له : إصعد الى الطبقة العليا وابحث عنه ولا بد ان يكون فيها لأن قبعته ورداءه لا يزالان هنا .

فذهب الخادم ثم عاد وقال : إن فرناند خرج من الوزارة .

ـ أيخرج من غير قبعة ان هذا مستحيل .

ـ ان الحارس قد أكد لي خروجه وقد قال انه شاهده يركض في الطريق من جهة الباستيل .

واصفر وجـه بيرابو واخـذ يردد في ذاته : هذا محـال ... ان فرناند شريف

ـ لقد غاب عني ان أخبرك انه قدم اليه رجل على أثر خروجك برسالة ولما قرأها ذهب .

فتنهد بيرابو تنهد ارتياح وقال : لا شك انه ورد اليه نبأ مكدر اضطره الى الذهاب وإني اؤثر ان يكون ذلك على ان يكون ما تسرعت في تصوره .

ثم قـال للخادم . إذهب الى أمين الصندوق العمومي ، وقـل له أن يأتي إلي .

فذهب الخادم وعاد مع امين الصندوق فقال له بيرابو إني نسيت مفاتيحي فأعطني مفاتيحك

وأخذها منه ثم أسرع الى الصندوق ففتحـــه ، وللحال رجع الى الوراء متذعراً واصفر وجهه ووقف ساكتاً قلقاً لا يبدي حراكاً .

فقال له أمين الصندوق ماذا أصابك ؟

وسكت بيرابو هنيهـة ثم قال : ألم نضبط بالأمس حساب الصندوق سوية ؟

– نعم ، وأذكر فيه اثنان وثلاثون الف فرنك منها أوراق مالية قيمتها ثلاثون الفاً كانت موضوعة في طي محفظة خضراء .

فقال بيرابو بصوت مختنــق : إن تلك المحفظة قد سرقت ، وقــد سلمت مفاتيح الصندوق منذ ساعة الى فرنـاند روشي ، لثقتي به ، ولاضطراري الى الخروج .

ثم غطى وجهه بيديه كمن يريد ان يظهر خجله لعزمه على تزويج إبنته برجل لص .

ولم يمض على ذلك مدة وجيزة حتى شـاع أمر فرناند عند جميع عمال الوزارة ، وكان الجميع يتلقون هذا النبأ بالارتيـــاب لاجماعهم على احترام فرناند ولثقتهم من أمانته ، ولكن كل ما مر به من الحوادث كاستيلائه على مفاتيح الصندوق وخروجه من الوزارة راكضاً يدل على وقوع التهمة عليه ، ولا سيما تركه قبعته ليوهم ان خروجه مؤقت فلا يلتفت أحد اليه ولا يبحث عنه قبل ان يتمكن من الفرار وكانوا يعلمون انه لم يكن ذا يسار فتوهموا انه طمع بما أؤتمن عليه من المال ، ثم مرت الساعات ولم يعد فثبت الجرم وقضي على هذا البريء .

- ١٧ -

الشرطة

بينما كانت هذه الحوادث تجري في الوزارة كان فرناند التعيس يعدو في شارع سانت لويز حتى وصل الى منزل بيرابو فصعد اليه وطرق الباب ففتحت له الخادمة ولما عرفته اعترضت سبيله ولم تدعه يدخل ، فقالت له : ان المسيو بيرابو قد ذهب .

- اني أريد ان أرى السيدات .

– إنهن خرجن ايضاً .

– إذن أنتظرهن .

وأبعد الخادمة محاولاً الدخول فاعترضت ايضاً في سبيله وقالت : إن انتظارك لا يجديك نفعاً ، فانهن غادرن باريس ولا يرجعن اليها قبل ثلاثة أيام .

فارتعش فرناند وقال هذا محال .

– ولكن هي الحقيقة أظهرتها لك حسبما بلغتها .

ورجع فرناند وهو يتعثر في مشيته كالشارب الثمل ومشى في الأسواق مشية المجانين وهو لا يعلم اين يسير ، وقد أخذ منه اليـــأس بعدما تيقن من سفر هرمين ، وتغلب على عواطفه حتى أضاع رشده ثم اشتدت عليه تلك الأزمة فسقط على قارعة الطريق مغمياً عليه ، وتسارع اليه الناس للاعتناء به وفيما هم يهتمون بانهاضه إذ مرت بهم مركبة فوقفت للحال ونزلت منها فتاة عليها مظاهر الغنى واخترقت الجماهير حتى وصلت الى فرناند واحنت عليـــه إحناء الأم على ولدها ثم وضعت يدها على قلبه ومذ احست بحركة فيه صاحت صيحة فرح وهي تقول : حبيبي فرناند .

فابتعد عنها جميع الناس وكلهم واثق ان انصرافه لم يكن الا عن يأس في الحب اما تلك الفتاة وكانت باكارا فانها امرت السائق ان ينقـــل فرناند الى المركبة ثم صعدت في أثره خبباً الى منزلها .

ولم يفق فرناند الا بعد ان وصل الى منزل باكارا ، فظن نفسه رأى حلماً ونظر حوله باندهاش فوجد نفسه في سرير بملابس النوم في تلك الغرفة الحريرية التي كانت باكارا تستقبل بها اندريا ولم يكن قد بقي من النهار الا بقية نور ضعيف تنير تلك الغرفة البديعة الرياش فغالط نفسه وعـــاوده الظن انه يحلم فأطبق عينيه كأنه يريد ان يستتم ذلك الحلم ولكنه لما عاد وفتحها وجد شخص امرأة منحنية عليه كما تنحني الأم على طفلها ثم اخذت يده وقالت له بصوت حنون رن في أعماق قلبه انت محموم

فأجابها وهو في حالة الذهول أين أنا ؟

فأجابته باكارا وصوتها يتهدج أنت في منزل صديقة .

ثم دنت من الموقد وأضاءت شمعتين كانتا عليه فتأملها فرناند ملياً وصاح مندهشاً وهو يظن انه في حضرة ملاك لا في حضرة انسان

- إن الطبيب يأمرك بالراحة فلا ينبغي ان تتكلم ولا تتحرك ، لأن مرضك شديد حتى انك سقطت في الشارع مغمياً عليـك ، ولو لم أكن حاضرة ..

فقاطعها وقال أكنت حاضرة ؟

فقالت وقد ورد الخجل وجنتيهـــا : كنت مارة من هناك اتفاقاً فعرفتك وحملتك في مركبتي .

- عجباً . أتعرفينني !

- نعم .. أولا تعرفني أنت ؟

فقال وهو يمر يده على جبينه : أعل اذكر اني رأيتك .

فقالت وقد أطرقت بنظرها الى الأرض أنا أخت سريز .

ـ أجل ، ولقد تذكرت الان ويخيل لي اني رأيتك عندها في النافذة

ـ هو ذاك ، ولكن سنتحدث في هذا الشأن ملياً غداً او بعده ، أما الان انك في حاجة الى الراحة ولا ينبغي ان تتكلم فاهدأ وكن عاقلاً .

ثم انحنت عليه كما تنحني الأخت على أخيها وقبلته في جبينه قبلة رجف لها فؤاده واضطربت أعضاؤه وكاد يعاوده الظن انه في حلم لا في حقيقة ، ثم شعر بانفاسها تهب في وجهه وقلبها يخفق في صدرها فوق صدره ، وخيل له انه قد سمع كلمة خرجت من شفتيها الورديتين همساً ، كما يهمهم نسيم الماء ، تلك الكلمة التي ما وقعت في قلب رجل إلا اهتزت لها كل عروقه والتي لا شبيه لهـــا الا رنة العود في قلب الحزين ، او صوت المطرب في اذن النشوان ، ولا يقولها أحد بمثل تلك اللهجة والحنان الا أفواه النساء ، وهذه الكلمة هي (أحبك) وهي كلمة تختلج لها كل نفس فكيف اذا كانت نفس ابن عشرين .

* * *

ولما طلع الصباح ومرت نسائمه الباردة على جبهة العليل ففتح عينيه ووجد باكارا واقفة تجاهه وقد ضمت رأسه بين يديها ، والقت عليه نظرات غرامها وانعطافها وهي تكرر له هذه العبارة على اتفـــاق امعان واختلاف روي (احبك وأهواك) .

وفيما هي كذلك وقد أخذها الحب وأطلقت عقدة لسانها أيدي الصبابة والهوى طرق أذنها صوت جلبة ووقع أقدام كثيرة تدنو من بابها فوثبت الى السرير مسرعة وارتدت اول ثوب وقع تحت يديها ودنت من البـــاب فسمعت صوتاً من ورائه يقول افتحوا باسم الحكومة .

فعلمت انهم رجال الشرطة على بابها وداخلها الرعب والخوف منهم مع علمها بانها لم تجن في حياتها ذنباً يستوجب دخول حاكم في أمرها الا اذا كان

ذنب الغرام الذي لا حكومة فيه ، ولكنها تجلدت وفتحت الباب وإذا بكبير الشرطة قد دخل عليها ووراءه اثنان من رجاله وحياها بأدب ولطف واعتذر عن دخوله في مثل تلك الساعة وقال : لا تخافي يا سيدتي فإنما أنا أطلب رجلا يدعى فرناند روشي فهل هو عندك

فأجابه فرناند من سريره : هو أنا يا سيدي فماذا تريد ؟

— أأنت فرناند روشي الموظف في وزارة الخارجية ؟

— أجل ..

- إذن البس ثيابك واتبعني فأنا آت في طلبك بأمر من المدعي العام .

فاصفر وجه الفتى لهذه العبارة وقال يا رب ماذا تراني صنعت .

فأجابه الشرطي بعنف لا أعلم فالبس ثيابك واتبعني .

فنهض فرناند راجفاً مذهولاً وهو لا يدري انه ارتكب ذنباً وارتدى ملابسه وهو يضطرب حتى إذا أتمها نظر الشرطي إلى تابعيه وقال لهما : اقبضا على هذا الرجل

وكان فرناند قد تمالك وتشدد فقال ما بالكم تقبضون علي وأي ذنب جنيت .

فقال له الشرطي : إن رئيسك ائتمنك بالأمس على مفاتيح صندوقه فاختلست منه محفظة تحتوي على ثلاثين الف فرنك

فصاح فرناند صياح الانكار والدهش وقال : انا أسرق ، انا ارتكب جريمة الاختلاس .. ان هذا زور واختلاق . ثم وهت قواه وسقط بين ايدي الشرطة وهو قريب من الاغماء فأخذوه بالرغم عنه .

أما باكارا فكانت واقفة منذهلة من شدة ما ترى حتى إذا خرج الشرطة بأسيرهم وثبت من مكانها وثبة منكرة وقد استنارت عيناها بفكر خطر في خاطرها ، وتجلت لها حقيقة المكيدة على وجهها ، وهمت ان تجري في أثر الجماعة وتنزع حبيبها من أيديهم وتقول لهم : قفوا ليس هو الفاعل بل السير فيليام ولكن خانتها قواها واحتبس لسانها وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وعند ذلك فتح باب غرفتها ودخل منه أندريا فنظر اليها بسكون وهدوء وهو يتبسم تبسم الأبالسة وقال في نفسه لقد حسبت لك هذا الحساب وقد حذرت لنفسي ما أمكن ثم قرع جرساً أمامه فدخلت فاني ومعها رجل قصير بلباس الأطباء وهو أحد رجال العصابة الذين جلبهم كولار لخدمة هذا المحتال ، فقال أندريا : ضعي سيدتك في سريرها وانضحي وجهها بالماء حتى تفيق وأنت تعرفين الدور الذي عليك ، ثم التفت إلى الرجل وقال : أمـــا أنت فستكون بصفة الطبيب على حسب ما اتفقنا ثم تركهما وانصرف .

ولما فتحت عينيها بدأت باسم فرناند تكرر لفظه حتى إذا رجع رشدها نظرت إلى فاني وقالت : اين انا ومـــاذا جرى ، ثم نظرت فرأت الطبيب المتصنع جالساً على كرسي بجانبها فصاحت مذعورة · من هذا الرجل؟

· هو الطبيب يا سيدتي ..

عجباً اذن انا مريضة .

نعم ومريضة جداً .

وعند ذلك نهض الطبيب وجس نبضها وقال : هذا هو اليوم الثـامن من أيام الحمى .

فصاحت مستنكرة : اليوم يوم الثامن

فقال الطبيب وهو ينظر الى الخادمة : ان الحمى قد خفت ولكني اخشى أن لا يكون الهذيان قد زال او ان يكون مصيره إلى الجنون .

فصرخت باكارا وقد استوت جالسة : أمجنونة انا .. ويلاه ماذا جرى .. وأين فرناند ..

فالتفت الطبيب الى الخادمة وقال انظري فقد عاودها الجنون !

فقالت باكارا لكني لست مجنونة ، ثم أمسكت الخادمة وادنتها منهـــا وقالت لها : انظري اليّ يا فاني واصدقيني الخبر ، أمريضة أنا .

نعم يا سيدتي ومن ثمانية ايام .

ـ ذلك مستحيل فقد كنت الآن سليمة وكان الشرطي هنا

ـ لم يأت الى هنا على الاطلاق .

ـ عجباً وفرناند كان بجانبي .

ـ ان فرناند لم يأت إلى منزلك قط وأنا لا أعرفه إلا بالسماع عندما تذكرين اسمه وكنت مريضة .

فبهتت باكارا وقالت : أمجنونة انا حقيقة ام انا في حلم .

ـ بل كانت الحمى شديدة عليك ثمانية ايام .

ـ ذلك مستحيل والف مستحيل ، ثم عادت تحدث نفسها وتقول : انني لست بمجنونة ولا حالمة بل انا مخدوعة مغرورة واخذت فرنـــاند امس عن الطريق مغشياً عليه وجئت به في مركبتي واستدعيت له طبيباً ولكن غـير هذا الطبيب .

فقاطعها الطبيب المتصنع وقال للخادمة : ان هذا النوع من الجنون يسمى اختلال الشعور ولا يمكن شفاؤه الا باستعمال الحمام البارد كل ساعتين .

وكأن تلك العبارة كانت ضربة قاضية على باكارا فغطت وجهها بيدهـــا وأخذت تبكي حتى إذا سكن روعها وخفف الدمع تأثرها عادت الى صوابهـا وعاودتها الحقيقة التي خفيت عنها وقالت : كل هذا من اعمال فيليام . ثم جعلت تنقل نظرها بين الخادمة والطبيب عساها تستكشف منهما ما يدلها على الحقيقة ، فلم يظهر على وجهيها شيء فنهضت من سريرها مسرعة ووقفت تجاه مرآتهـــا وقالت عجباً ليس في هيئتي ما يدل على ما يقولون وليس هذا الوجه وجـــه مريضة بل اراني على اتم عافية ، ثم نظرت نظرة ثانية الى فاني فلم يؤثر عليها ذلك النظر الحاد شيئاً بل ثبتت على تمثيل دورها وقالت لها : عودي يا سيدتي إلى فراشك ذاك خير لك .

فقالت باكارا . أنك توهمت أن هذا الانكليزي وافر الثروة وانه سيكون لك من هباته ما يغنيك عن الخدمة ولكنك جريت شوطاً بعيداً واقتحمت

امراً مستحيلاً فلست من الذين يعبثون بهم إلى هذا الحد .

ثم ذهبت مسرعة إلى منضدة واخذت خنجراً كان عليها وقـــالت لذلك الطبيب المتصنع : إذا جرأت على الدنو مني فأنت ميت لا محالة .

فاختلجت فاني واضطربت رجلاها من الخوف ، أما الطبيب المتصنع فإنه لم يكترث بهذا الانظار ونظر نظرة خفية الى فاني أعادت اليها مـــا فقدته من الجسارة فقالت لبكارا : أتريد سيدتي أن أساعدها على لبس ثيابها .

ـ نعم اتبعيني، ثم سارت أمامها وهي تقول في نفسها لا أراني مجنونة بل أراني أعقل مما كنت ولا يزال فرناند ممثلاً أمام عيني وأنا اذكر امر الشرطة وكيف ساقوه إلى السجن بدعوى اختلاس . بقي ان فاني تخدعني، ولا ريب في ان كل ذلك من صنع فيليام ، وفيما هي تلبس ثيابها نظرت إلى فاني فرأتها تمسح عينيها كأنها تبكي لما ألم بسيدتها فقالت في نفسها : ان هذه الخادمة تمثل دورها على ما ينبغي من الاتقان ، وقد بقي لدي برهان واحد اقدر ان اميط بـــه الحجاب عن هذه الخديعة ، اني اذكر انه كان بعنق فرناند نوط ذهبي فيـــه خصلة من شعر حبيبته وانني قد قطعة سلسلة هذا النوط باسناني لفرط ما ألم بي من الغيرة وخبأته تحت فراش السرير ، فإذا كان باقياً في مكانه فقد كشفت سر هذه الخائنة ، وإلا فإن ما ادعته من حلمي وجنوني حقيقة لا ريب فيها وللحال تركتها وذهبت الى غرفتها فمدت يدهـــا وهي تختلج إلى المكان الذي خبأت فيه النوط فعثرت به واخذته والفرح ملء فؤادهـــا حتى إذا سكنت عوامل سرورها عادت اليها حكنتها وأيقنت من مكيدة أندريا فقالت سأنتقم سريعاً وسأذهب بتلك البلهاء إلى رئيس البوليس لتثبت عنده جنوني وسيرى السير فيليام أنني أشد منه دهاء .

ثم رجعت إلى فاني فاتمت لبسها وقالت لها : ان الهواء بليل في هذا النهار والجو صاف وقد أيقنت من صدق مقالك فاني أشعر بضعف وفتور فلا أجد بأساً من النزهة واستنشاق الهواء النقي في مثل هذا اليوم . لم يبق لدي ريب

باني كنت أحلم فان حب فرناند قد تمكن مني بحيث أضاع رشدي ولعل ذلك الحلم والجنون مسببان عن الحمى .

فقالت لها الخادمة . لا شك في ذلك فانك كنت لا تفترين عن ذكر اسمه الليل والنهار في مدة هذه الحمى وتتحدثين عند انتباهك باحاديث تثبت جنونك وقد زالت الان والحمد لله تلك الأعراض فعليك الوقاية وعند انه خير لك لو لبثت في منزلك إلى ان تتاثلي ويبعد عنك كل خطر

– كلا ، فاني مصممة على الذهاب فاسرعي واتبعيني لأني لا أحب ان اسير وحدي ثم مشت امامها فتبعتها وهي تتظاهر بالقلق الشديد إلى ان خرجت من المنزل فوجدت مركبتها بانتظارها فصعدت اليها ثم تظاهرت انها نسيت منديلها فارسلت فاني كي تعود به واغتنمت فرصة غيابها وقالت للسائق ، بأي يوم نحن من الأسبوع ؟

– يوم الخميس .

– ألم تذهب بي بالأمس إلى شارع سانت لويس .

– نعم .

– اتشهد بذلك لدى رئيس البوليس ؟

– نعم .

– الان ، فاصبر الى أن تعود فاني فسر بنا اليه ولا تدعها تعلم بشيء من ذلك .

وقد أيقنت باكارا أن اندريا يسير على خطة مبهمة ضدها وضد فرناند ولكنها لم تعلم شيئاً من سر الخطة وغايتها فعزمت على ان تطلع رئيس البوليس على الأمر بالتفصيل توصلا إلى كشف سر هذه الخيانة . وقد كان لها معرفة به بواسطة . عشيقها القديم .

فلما عادت فاني سارت بها المركبة حتى بلغت إلى منعطف يؤدي إلى شارع مونتارتر فعرجت عليها وسارت بها فانتبهت باكارا ورأت ان السائق يسير في

غير الطريق التي امرته ان يسير بها ، ففتحت نافذة المركبة واستوقفت السائق وفيما هي تؤنبه إذ فتح باب المركبة بغتة وصعد اليها ذلك الطبيب المتصنع الذي رأته في منزلها ثم أغلق البـاب وجلس بقربها فصاحت صيحة رعب ، أما هو فلم يبـالي بصياحها ، وقال لها ببرود هازئاً ، انك تخاطرين بحياتك بخروجك من منزلك فانك معتلة ويجب علي أن امنعك عن كل ما يعود عليك بالأذى شأن كل طبيب صادق مع مرضاه ، وبينما هو يحادثها كانت المركبـة تسير في شارع مونتمارتر .

فأيقنت باكارا أن سائق مركبتها قد باع نفسه مثل فاني من فيليام وقالت للطبيب أين تذهب بي ؟

أنزل الطبيب المتصنع جميع ستارات المركبة وقال لها : ذاهب بك إلى مونتمارتر ، فاحذري من ان تفتحي الستائر ولا تستغيثي فان الهواء والغضب يضران بك وقد فك اثناء حديثه ازرار صدرته وأخرج من تحتها خنجراً فجرده من غمده وقـال ان هذا الخنجر دواء لتسكين الهياج ولك بعد ذلك الخيار .

فأحست باكارا انها مغلوبة وان حياتها في خطر إذا استغاثت فعادت إلى سكونها وقالت : لقد ثبت لدي الآن اني مجنونة فسر بي حيث شئت فلا أعصي أمراً ولكن ، قل لي أين تذهب بي .

– لقد قلت لك اننا ذاهبون إلى شارع مونتمارتر .

– ولكن إلى أين ؟

فأجابها بمنتهى البرود ، إلى مستشفى المجانين .

- ١٨ -

المركبة الصفراء

لقد ركبنا كولار ذاهباً بسريز إلى حيث أمره السير فيليام فكان يقول لها لا تجزعي أيتها السيدة واطمإني فإني سأصحبك وأدافع عنك

أما سريز فانها لم توجس منه خيفة لعلمها انه صديق خطيبها ولإنقاذه إياها من أيدي بيرابو ، فكانت تسير إلى جنبـــه مطمانة حتى وصلا إلى الشارع . وكان هناك مركبة صفراء كانت تنتظر كولار ، فتقدم منها وطلب إلى سريز أن تصعد اليها فعادت المخاوف إلى سريز وخشيت من أن تعرض بنفسها لخطر جديد فقالت له · لماذا لا نذهب على الأقدام ؟

- إن منزلك بعيد .

- انني قادرة على المسير .

- أما أنا فإني أتعب ولا أستطيع أن احتمل مثل هذه المشاق .

- دعني إذن أسير وحدي .

- إنني أخاف أن يقفو أثرك ولا تجدين من يحميك ، ولم يجد خيراً من هذه الحجة لإرهابها ، فأطاعته وصعدت إلى المركبة فصعد في أثرها وأمر السائق بالمسير .

وكان اضطراب سريز شديداً ولم تنتبه إلى سرعة سير المركبة حتى بلغت بها إلى جسر السين ، ورأت انها قد عرجت إلى جهة الشمال في طريق الانفاليد فقالت برعب وقلق : إن السائق قد ضل ولا أدري إلى أين يذهب بنا .

- أنا أعلم .

- ولكنه قد سار في غير الطريق التي يجب أن يسير بها .

- كل السبل تؤدي إلى الجهة المقصودة .

فقالت سريز وقد تضعضعت من هذا الجواب : دعني أنزل فإني لا أريد أن أذهب في هذا الطريق .

ثم حاولت أن تفتح باب المركبة فوجدته محكم الايصاد فنظرت إلى الشارع فألفته خالياً مقفراً فجعلت تستغيث بصوت مختلج لم يجبه غير الصدى .

أما كولار فإنه أشعل غليونه وقال لها لا تزعجي نفسك بصراخ لا يجديك فليس هنا من يسمعك ، وإذا أصغيت اليّ تعلمين اني لا أريد بك شراً.

– قل ما تشاء . إني مصغية اليك !

- اني صديق ليون !.

فعادت الطمأنينة إلى فؤادها عند ذكر إسم خطيبها وقالت : إذاً فلماذا لا تذهب بي إلى منزلي ؟

– لأن ذلك ليس بوسعي لأن ليون بخطر شديد وإذا عدت إلى منزلك تعرضينه للموت

فارتاعت سريز وقالت بملء الرعب : ليون يموت ؟

– نعم إذا رجعت إلى منزلك .

– ولكن ما هذا الخطر الذي يتهدده ، كيف ان بعدي عنه ينقذه ؟

– هذا سر لا أستطيع أن أبوح به لأنه سر سواي ولكني أقول لك انت إذا لم تطيعيني طاعة لا حد لها فان خطيبك يموت قبل الغد .

وجعلت سريز تختلج اختلاج ريشة بمهب الريح وأخذ صوتها يتهدج .

إني أطيعك ولا أخالف لك امراً ولكن بالله ألا ما أنقذت خطيبي .

– الآن سررتني وسكنت مني روعي فاني اشفق على ليون نفس اشفاقك عليه فالبثي الآن بقربي وكفي البكاء ، فلم يعد من خطر عليه ولا تسألني شيئاً بعد ذلك

– رحماك واسمح لي أن أسألك سؤالاً واحداً !.

تكلمي !.

ـ وصلني منذ ساعتين رسالة من أختي

ـ اعلم ذلك واسمها باكارا ..

ـ وقد كتبت لي بها ان حياتها في خطر واني وحدي القادرة على انقاذها فإذا لم أسرع إلى مساعدتها في شارع الحية فهي تموت .

فتصنع كولار الغضب وقال : ان أختك قد بلغت منتهى الخيانة فإنها قد نصبت لك شركاً مذموماً لتلقيك في أيدي بيرابوليست على شيء من الأخطار .

فاسترسلت سريز في البكاء وهي تقول : ايمكن أن تخون الأخت أختها .

ـ نعم وحبـذا لو استطعت ان أبوح لك بهذا السر ولكني في ذلك أعرض حياتي وحياة ليون للموت وربما كان لك حظنا من الموت .

ـ بالله إذا كان في موتي انقاذ ليون فاقتلني .

فأخذ كولار يدها بين يديه وضغط عليها بتودد وحنان وهو يقول : لا تخشي أمراً فإنني عندما يتاح لي أن أبوح بهذا السر تقفين على الحقيقة وتعلمين اني خير صديق ، ثم انقطع الحديث بينهما وزادت المركبة في سرعة المسير حتى إذا بلغت إلى سنت جرمين خارج البلدة عاد الرعب إلى سريز فقالت . اتسير بي الى محل بعيد ..

ـ كلا .. سنصل الى وجهتنا بعد ساعة .

ـ إلى أين نحن ذاهبون ؟

لا أقدر أن أقول .. ويجب علي الآن أن أعصب عينيك !.

فصرخت سريز صراخ الرعب ، فقال . تذكري سابق وعدك لي بأنك تطيعيني وان حياة ليون متوقفة على امتثالك ، ثم أخذ منديلا من جيبه فعصب عينيها دون ان تبدي أقل اعتراض ، وقال لها : لا تبحثي أبداً عن المحل الذي تذهبين اليه فإن ذاك مما يضر بنا ، فسكتت سريز وهي بمنتهى الانذهال تخال نفسها في حلم فلم تنبس بكلمة ولم تبد إشارة حتى وقفت المركبة فقال لها : قـد وصلنا فهات يدك لأساعدك على النزول ، ثم فتح باب المركبة ونزل واياها .

وكانت المركبة قد وقفت في سهل متسع أمام حائط طويل ففتح كولار بمفتاح كان في جيبه وقاد سريز وهي معصوبة العينين فمشت معه عرضة للاضطراب والخوف وقد سمعت وقع أقدام وهي تسير مع كولار ثم سمعته يقول « هوذا العصفور » ، وسمعت صوتاً خشناً أجابه « لقد أعددت القفص » ثم شعرت ان كولار قد ترك يدها فمدتها حالاً الى العصابة وأزاحتها عن عينيها ثم تطلعت بنظر قلق ، وكان شفق الصباح قد بدأ يتوقد ، فرأت نفسها في حديقة واسعة الأرجاء محاطة بسور طويل وفي وسط هذه الحديقة منزل صغير ، فحولت نظرها الى الجهات الأربع فلم تجد أقل أثر للمساكن ، ثم نظرت بعد ذلك إلى الذي سمعته يخاطب كولار فرأت امرأة عجوز تناهز الستين قد جمدت وجهها الأيام وهي بمنتهى القبح ، فرجعت سريز الى الوراء مذعورة وقد أخذ منها الرعب . فدنت منها تلك العجوز ، وكان اسمها مدام فيبار فأخذت بيدها وتوددت اليها تودداً عظيماً لم يكن الا ليزيد من خوفها ورعبها فصرخت مستغيثة بكولار الذي بعد عنها وتظاهر انه لم يسمع نداءها فكانت تناديه وهو يمشي مسرعاً ، وقد قبضت عليها العجوز بيد من حديد فلم يمكنها الافلات واللحاق به ، حتى وصل الى الباب الذي دخل منه فخرج واقفله وراءه.

فأخذت العجوز تسكن جأشها وتطيب قلبها وهي تسير بها حتى وصلت الى المنزل فأدخلتها الى غرفة بها مستوقد وقالت : اجلسي هنا وتدفأي فإن البرد شديد وثوبك مبتل من المطر وسأحضر لك شيئاً من الشراب يعينك على الدفء.

فأبت سريز وقالت بجزع ويأس : كلا لا أريد ان أبقى هنا .. أريد أن أعود إلى باريس .

– ان المسافة شاسعة وانك ستؤذين قدميك الجميلتين .

– كلا .. فإن لي مقدرة وقوة على الرجوع وإذا تعبت في الطريق استريح !
فتنهدت مدام فيبار وقد تكلفت هيئة الرفق والاشفاق .

قالت سريز : نعم ان لي قوة على المسير وليس ما يتعبني في سبيل ذهـابي إلى ليون ؟

– من هو ليون ؟ أهو عشيقك ؟

. ألا تعرفين ليون ؟

– كلا !

فداخل سريز الريب وقالت : إذا كنت لا تعرفين ليون فإنك لا تعرفـين شيئاً من سر هذه الحادثة !.

. وماذا تريدين أن أعرف ؟

– كيف ألم يخبرك كولار انه أتى بي الى هنا لأن حياة ليون خطيبي بخطر.

فضحكت مدام فيبار وقالت : كولار قال لك ذلك ؟

. نعم !

– وهل صدقته ؟

فارتاعت سريز وقالت : أليس ذلك بصحيح ؟

فعادت مدام فيبار الى ضحكها وقالت : حقـاً ان كولار من أعظم المضحكين ، كما ان هذا الحديث من أطرب المضحكات .

فجثت سريز على قدميها وتوسلت الى تلك العجوز وهي تبكي وتقول : بالله الا ما قلت لي أين أنا وما يريدون مني !

– ذلك هين سهل فإن أحد الأغنياء العظام رآك فأحبك وأنت تعلمين البقية

– ليس ذلك بصحيح ..

ثم ذكرت بيرابو فقالت : بل هي الحقيقة بعينها فإن رجلاً وحشي الأخلاق حاول.. ولكن رجلاً شاباً قد انقذني منه وسلمني الى كولار ليوصلني الى منزلي

فضحكت ضحكاً شديداً ثم قالت هذا هو الفتى الذي أخبرتك عنـه وأنت الآن في منزله .. فصاحت سريز صيحة يأس !.

- ١٩ -

المستنطق

ندع الآن سريز ، لنعود الى فرناند الذي تركناه خارج غرفة باكارا فنقول انه كان يسير بينهم وهو يخال انه يحلم ، الى أن وصلوا به الى الحديقة ورأى الخدم تنظر اليه بغرابة واندهاش فأيقن انه في يقظة ثم افتكر بما يتهمونه به ، وان لا يد له بهذه الخيانة ، فثار الدم في عروقه وحاول ان يتخلص من الشرطة ولكنهم كانوا ثلاثة أشداء فأحاطوا به وتغلبوا عليه ، وكان يقاومهم كلما لاحت له فرصة ، واشتدت عليه الذكرى فقال له رئيسهم : انك فرد ونحن ثلاثة فدفاعك لا يفيدك شيئاً ، ولكنه يثبت جريمتك ، وما يؤثر عليك أن تحاكم وأنت بريء كما تقول ، فاذا صح ذلك وهو ما اتمناه لك فإن المحكمة لا تلبث أن تطلق سراحك ولا ينالك شيء من الاهانة .

فقنع فرناند مكرهاً وسار معهم بغير دفاع حتى وصلوا الى السجن فأدخلوه اليه فلبث فيه ساعة وهو منهوك القوى فاقد الرشد، وكان يؤثر الموت على أن يتهم بسرقة ، وهو مشهور عند الجميع بالنزاهة والعفاف ، فكان يذكر باكارا ، ثم الجنود ، فالتهمة فالسجن ، فكتاب هرمين وواحدة من هذه المصائب تكفي لأن تهيج أعظم الناس رشداً فيزبد كما تزبد الجمال . ثم ينكس برأسه الى الأرض متأملاً بما أحاط به من الكوارث ، ويرى ان كل ما مر به من الحوادث يثبت تلك الجريمة الهائلة فيتهدد السماء بقبضته ، ثم يجد ان كل ذلك لا يفيده ، ولا يجد باباً لتبرئة ساحته فتصغر نفسه ويسترسل الى الدموع ويبكي بكاء الأطفال ، وكان يعود بعد ذلك الى الافتكار بهرمين وكيف بعثت اليه بتلك الرسالة ، وهو لم يجن ذنباً يستحق هذه الاهانة فينسى موقفه وما هو متهم به الى أن يفيق من غفلة تصوراته ويرى نفسه منفرداً في ذاك

الحبس الضيق حبس المجرمين ، فيفقد صوابه ويعود الى ما كان عليه .

وكان يقول إن مفاتيح الصندوق معي وقد تركت الوزارة حاسر الرأس وأنا أعدو في الشوارع كالمجانين ، وبدلاً من أن أعود وأرجع المفاتيح الى رئيسي بقيت معي إلى أن فتشوني وقد وجدوني عند مومسة كثيرة المطامع فهل بقي ريب بأني اختلست هذه النقود لأنفقها في سبيل مرضاتها ، ولكني لم أسرق شيئاً والمفاتيح كانت معي فكيف سرق هذا المال ، بل كيف وجدت عند تلك المرأة ، وإذا صح ان المال قد سرق فمن السارق ومن اتهم وأنا المسؤول ؟ ومن يدافع عني وليس لي غير بسيرابو الذي أصبح خصمي . إلهي أنت خلقتني بشراً وهذا فوق طاقة البشر ، وفيما هو على ذلك دخل عليه شرطي وذهب به إلى الاستنطاق فاستنطق على ما يأتي :

قال المستنطق : أنت هو الذي يدعى فرناند روشي ؟

– نعم ..

– انك متهم بجرم هائل وكل ما لدينا من الأدلة يثبت جرمك فإن رئيسك قد اضطر في الساعة العاشرة من صباح أمس إلى الخروج فنقلك إلى غرفته وائتمنك على مفاتيح الصندوق ، الذي تحقق بعد إثبات أمين الصندوق العام انه كان يحتوي على ثلاثة آلاف فرنك ذهباً وثلاثين الفاً قراطيس مالية .

– لم يكن لي علم بهذا لأني لم أفتح الصندوق .

– ولكن مفاتيحه كانت معك ؟

– نعم .

– وقد وجدوها في جيبك عند تفتيشك ؟

فأشار فرناند إشارة إيجاب .

وان رجلاً قد قدم اليك قبل خروجك ولم نعلم عنه شيئاً إلى الآن فمن هو هذا الرجل ؟

لا أعرفه فإني لم أره سوى مرة واحدة .

– احذر من أن تضلني بإنكارك وقل ألم يكن هذا الرجـل شريكك في الجرم ؟

فأجاب فرناند بصوت خرجت فيه الحقيقة من أعماق قلبه : أقسم لك أنه لا يمكن أن يكون لي شريك لأني بريء .

– ولكن من هو هذا الرجل وماذا يبتغي منك ؟

– قد أحضر لي رسالة .

– ممن ؟

فاختلج فرناند وأرخى نظره إلى الأرض ثم قال ذلك ما لا أقدر أن أبوح به لأن الرسالة قد وردت الي من امرأة شريفـــة لا يليق بي أن أصرح بذكرها في هذا الموقف .

– إني كنت أتوقع منك مثل هذا الجواب الذي تحاول فيه الدفاع عمـــا أنت متهم به ، ولكن المسيو بيرابو قد أوقفني على الحقيقة فإنك كنت مزمعاً على أن تقترن بابنته اليس كذلك ؟

فتوسل اليه فرناند أن لا يذكر هذا الشأن فقال المستنطق :

– وقد علمت أن لك خليلة !

فقال فرناند بكراهة ونفور : لا صحة لما يقال .

فلم يحفل المستنطق بجوابه واستمر في الحديث فقال : وان هذه الخليـــلة تدعى باكارا وهي كثيرة الدلال شديدة التلهف الى المال فلا يبعد انك لأجل مرضاتها ولشغفك بها قد ..

فقاطعه فرناند بحدة وقال : اني لم أعرف هـذه الفتاة قبل امس

فقال المستنطق بلهجة الناصح : اعلم ان الاقرار في مثل هذه الشؤون اولى من الانكار الذي لا فائدة منه سوى تعظيم ذنبك .

فأجاب فرناند بلهجة جعلت المستنطق يثق ببراءته بالرغم عمـا لديه من البراهين ، أقسم لك يا سيدي اني بريء .

هذا ما أتمناه لك ولكن كيف تنطبق سرقة هذا المال وخروجك من الوزارة على ما كنت عليه من الاضطراب واحتجابك والقبض عليك في منزل تلك المومسة على براءتك ؟

فرفع فرناند عينيه الى السماء وقال ان الله عظيم عادل فهو يكشف سر هذه الخيانة واني اقسم بجلاله اني بريء .

– سيذهب بك الآن جنديان الى منزلك ومنزل خليلتك ويفتشان فاذا لم يجدا بها المحفظة نرى في شأن تبرئة ساحتك .

فصاح فرناند والفرح ملء فؤاده : هلموا إلى حيث تريدون فاني بريء .

فدعى المستنطق جنديين وقال لفرناند بلطف ودعة : سر معهما وعسى ان تبرىء ساحتك وتنجو من هذا العار

فذهبوا جميعاً حتى وصلوا الى منزل باكارا ، ثم ركبوا مركبة وذهبوا الى شارع مونسي .

وكانت باكارا قد خرجت من المنزل مع فاني كما تقدم ، ولم يكن في المنزل غير الخدم فبدأوا بتفتيش الغرف حتى بلغوا الى الغرفة التي كان نائماً فيها فرناند . وبعد ان فتشوا في خزائنها ولم يعثروا على شيء ، نظر أحدهم فرأى رداء رجل معلق فقال : هوذا رداء رجل ، وعسى ان يكون رداء المتهم فلنفتش فيه .

وكان هذا الرداء لفرناند ، وذلك انه عندما سقط مغمياً عليه في الطريق كان مرتدياً به ولم يفطن اليه عندما أخذته الجنود ، فبقي عند باكارا ، ولما رأى الجنديين يشيران اليه قال هذا الرداء لي .

وجلس على كرسي وعليه لوائح عدم المبالاة ، أما الجندي فإنه أخذه وقال : انه ثقيل وأظن ان المحفظة في جيبه .

ثم مد يده اليها فأخرج منها تلك المحفظة الخضراء بنفسها فارغة من المال ، فقال لفرناند لا أظنك تقوى بعد ذلك على الإنكار .

أما فرناند فلم يجبه بحرف ، ولكنه صاح صيحة يأس وسقط مغمياً عليه ، فانتصر اندريا بما كاده للبريء وأصبحت تبرئته ضرباً من المحال .

- ٢٠ -

البحث عن تريزا

بينا كان اندريا يدبر بحذقه هذه الحادثة ، وقد زج بفرناند بالسجن بتهمة الاختلاس ، وحبس با كارا في المستشفى بصفة الجنون ، وحجر على سريز في منزل مدام فيبار ، ففرقهم عن بعضهم ، وأبعد كل من يحتمل ان يوقف ارمان دي كركاز على آثار تريزا وابنتها . وكان ارمان يسعى بملء الشيرة والنشاط لايجاد تلك المرأة وولدها ، ليدفع اليها ملايين البارون كرماروث المؤتمن عليها .

وكان يستعين على ذلك ببستيان وبيوليس سري ، ولم يكن الى الحين الذي رأيناه فيه يقفو أثر الرجلين في بلفيل قد وقف على شيء من أثر تريزا فوصل الى تلك القرية في حينه ، ومنع ذلك الاعتداء عن ليون رولاند . ولا يزال يذكر القارىء انه كان قبل دعوة ليون فلما عزموا على الرحيل قدم ذراعه الى حنة وسار الجميع الى منزل سريز .

ومن غرائب القلب في سرعة تأثره وتقلبه انه لا تكاد تسري اليه النظرة أحياناً حتى تفعل فيه لأول وهلة فعل سواها بعد طول الممارسه والتكرار ، كأنما هي بين الحب والكره وقع السعادة والشقاء ، فان كليهما يملأ القلب عند وقوعه وكثيراً ما تختلف نظرتان فتكونان بدء الحب الأكيد أو البغض الشديد عند اول مقابلة منها في الفراء ، وهما زهرة ورد يتهاداها القلبان من طريق

العيون في الحب وفي الكره ، سهمان مسمومان تتراشق بها القلوب عن قسي الجفون، وهو سر من أسرار الطبيعة لا يعرفه إلا من يعرف سر الوداد والبغضاء ولعله تشابه القلبين أو تباينهما جملة حتى يمتزجا او يتنافرا في لحظة عين كما يمتزج النور بالنور ، ويتنافر الضياء بالظلام ، ولقد كان من هذا القبيل نظرة أرمان الى حنة فانه لم يكد يقع نظره عليها حتى شعر ان جمالها يملأ فؤاده كما يملأ النور العين عند انفتاحها ، وانها ارتسمت على جوارحه كما يرتسم أثر الختم عند الطباعة وانه قد أصبح لها وهو يعلم أنها أصبحت له بدافع الأمل الذي يرجوه فيها واعتقاده ان من القلب الى القلب دليلا ، وما أدري هل استحسان النظرة هو الذي ينشيء هذا الأمل والاعتقاد أم هما ينشئان تلك النظرة ويكونان رائد القلب الى العيون :

والذي حارت البرية فيه　　　داء قلب بنظرة العينين

وان الذي زاد ارمان ميلا الى حنة وحنواً عليها ما استشفه في ظاهر هيئتها من ذلة الانكسار وآثار الشقاء والحزن وهي آثار قد تفعل في القلب الشريف أحياناً ما لا تفعله طلائع الحسن والازدهاء . فلما وصل القوم الى منزل سريز ، دخلت الى منزلها ودخل معها ليون وامه ، اما حنة فانها اعتذرت وسألت ارمان ان يوصلها الى منزلها ، فسار وإياها وقال إلى أين تريدين أن أوصلك ؟

– إلى شارع مسلي .

وفيما هما يمشيان قال : أتعرفين سريز حق المعرفة ؟

– نعم أعرفها أيام كان أبوها حياً وكنا جيران .

– عجباً .. فاني أرى من تباين حالتيكما ..

فقاطعته الفتاة وقالت : صدقت ياسيدي ، ولكن المصائب والشقاء تناسب بين القلبين في الألفة أكثر مما يناسب بينهما المقام .

ثم تنهدت تنهداً طويلا رق له قلب ارمان وقال لها : أتراك يتيمة ؟

— نعم ، فان أمي قد ماتت من بضعة أشهر ، وأبي راح قتيلاً في ساحة الحرب .

وعند ذلك وصلا الى منزل الفتاة فودعها وقبل يدها باحترام وعاد إلى منزله مفكراً مهموماً وهو يقول : أتراني لا أزال فتياً أم لا يزال في قلبي وتر لم تنقر عليه أصابع الغرام ؟

ولما كان الصباح دعا اليه بستيان فقال له : البس ثوبك العسكري واذهب في الحال الى شارع مسلي نمرة ١١ واجتهد ان ترى فيه منزلاً معداً للأجرة ، وإذا لم تجد فادفع للبواب قدر ما يشاء ليخلي لك أحد المنازل المأهولة ، فان ذلك لا يصعب عليه ، وبعد ان تجد ذلك المنزل تنقل اليه الأثاث ثم تذهب اليه فتقطن فيه باسم باستيان ، اما هذا المنزل نمرة ١١ فان ابنة تدعى حنة ساكنة فيه ويهمني أمرها جداً ، وأول ما تشرع به عندما يتيسر لك أن تكون بجوارها هو أن تفحص عنها،فقد علمت انها ابنة رجل كريم النسب وقد أخنى عليها الدهر بوفاة ابيها وفقد ثروتها ، ثم تجتهد ان ترتبط معها بالعلائق الوثيقة فان ما بلغته من العمر يدفع عنك كل ريبة ..فاذهب الآن وعد إلي سريعاً في كل حال لأعلم ماذا فعلت

وبعد ان ذهب بستيان قام ارمان الى مكتبته فأخذ منها دفتراً ضخماً وكتب فيه بالخط المصري هذين الاسمين « ليون رولاند في شارع البوربون ، وسريز في شارع التامبل » ثم كتب تحتها هذه المذكرة « يجب البحث عن الغاية التي دفعت نيقولا وفاتح الأقفال الى الاعتداء على ليون وخطيبته » وبعد أن فرغ من الكتابة أخذ يقلب صفحات الدفتر ثم غلبت عليه الهواجس فغرق في تأملات عميقة

وما زال على أتم الذهول حتى قرع الباب ودخل بستيان فقال :

— إن تلك الابنة التي أرسلتني لأبحث عنها تسكن في الطبقة الرابعة من المنزل ، وقد توقفت لايجاد منزل مقابل له فاستأجرته بستمائة فرنك ، وبعد

ذلك ذهبت الى البواب واستطلعت منه كنه أمر الصبيـــة ، فقال لي : إنها تدعى حنة بالدر وانها حسنة التربية ، أما أجرة منزلها فهي ثلاثمائة فرنك وهي عائشة مع خادمة لها طاعنة في السن شديدة الطوع لها ، وهي حسنة السيرة جداً لا تزور ولا تزار وقد أخبرني البواب انه شاهد منذ يومين نوراً في غرفتها بعد منتصف الليل ففحص عن ذلك فعلم انها تشتغل اشغالاً يدوية ولم يكن يراها تشتغل قبل هذا العهد

وقد كانت من قبل تسكن منزلاً كبيراً في شارع شابون الى ان ماتت أمها ولم يبق لديها من المال ما يتيح لها ان تعيش في بذخها السابق ، فتركت ذلك المنزل الأنيق واستبدلته بهذا المنزل الحقير بغية الاقتصاد ويظهر انها قـد اضطرت لفقرها ان تعيش من أشغال يدها وهي حسنة الصيت وافرة الأدب ، وجميع معارفها من الأعيان .

وبينما كان بستيان يقص أخبار حنة كان قلب ارمان يختلج بعاطفة سرية وقد طفح سروراً بما سمع .

ثم قال بستيان . وقد علمت أيضـاً من البواب انه كان عندهـا في منزلها القديم بيانو وعندما استبدلت منزلها لم تنقله اليـــه مما يدل على انها اضطرت لفقرها الى بيعه .

فقال ارمان : إذن إذهب واشتري بيانو قديم الطراز ، وأنا أعلم انك لا تعرف ان تعزف على هذه الآلة ولكني أرغب اليك ان تشتريها وتنقلها لمنزلك ثم تدعي ان منزلك ضيق وان هـذه الآلة لا يمكنـك ان تبيعها لأنها كانت لابنتك وهي آخر تذكار بقي لك منها ، فترجو السيدة ان تسمح لك بأن تودعها عندها .

فامتثل بستيان ومضى لينفذ أمر سيده . أما ارمان فانه وضع رأسه بين يديه ، وانتقل الى عالم التصور والخيال ، فصورت له أوهامه تذكار تلك الفتاة مرتا ، التي طالما أحبها وطالما حاول إنقاذها من اندريا الخائن ، فـلم

يقدر على ذلك .

وكان هذا الخيال الذي هو خيال حبه الماضي المشؤوم ، قد تجلى لديه بكمال صورته كأنه يغالب غرامه الجديد ، ولكنه لم يمكنه ان يقوى عليه لأن ذلك الحب القديم لم يبق منه إلا أثر صغير ، وقد محت باقيه تقلبات الأيام في ذلك القلب الذي ملأته ظلمة الأحزان حتى لم يعد يظهر فيه الأمـــل إلا نوراً ضعيفاً يجلي من وراءه صورة المحبوبة الجديدة ، وتنبت من تحت أكداره زهرة الحب الجديد كما تنبت الوردة تحت الشوك ، وكما يخضر غصن الآس بين المقابر ، وإنما كان ذلك لأن القلب لا يزال يحب ما دام حياً ، وكل حب قديم يحدث فيه لا يكون إلا رماداً تلوح من تحته نيران الحب الكامن ، ولذلك لم يكد خيال مرتا يتمثل لعينيه إلا نظر من ورائه تلك البسمـــة الحلوة على شفتي حنة ، كأنها اليقظة تمحو الأحلام والنور يبدد غياهب الظلام ، والذي كان يساعده على زوال تلك الصورة الماضية هو ما كان يتصور معها من تذكار اندريا عدوه الذي طالما طبع على فؤاده من ذكرى المصائب ما لا يكاد يمحوه كرور الأيام ، ثم قال في نفسه : كيف يكون حظي لو أحببت هذه الفتاة ثم ظهر بيننا خيال اندريا الجهنمي وعرف بحبنا وكاد لنا كيداً كما فعل في أمي وأمه وحبيبتي وحبيبته .

- ٢١ -

بستيان

وكانت حنة قد أصيبت بنفس ما أصيب به ارمان من الحب ، وهي وإن تكن قد رأته بملابس الفعلة غير انها أيقنت لما رأتـــه من حسن أدبه وكرم

أخلاقه انه بلباس التخفي ، وانه يستر تحت تلك الملابس نفساً طاهرة وأدباً وافراً ومنزلة عالية بين أرباب المقامات . ولم تكن تعرف الحب من قبل ، فصرفت معظم ليلتها بالتصورات المقلقة . ونهضت في الصباح باكراً ، وهي على ما كانت عليه من الاضطراب ، فاستسلمت الى التأملات ولم يوقظها من تلك الغفلة غير صوت بستيان الذي كان منهمكاً حينئذ في نقل أثاثه وهو يتباحث مع البواب بصوت مرتفع في شأن البيانو وأين يجب ان يضعه فأشار عليه البواب أن يودعه في منزل السيدة حنة ، وكان على اتفاق مع بستيان في ذلك الشأن بحيث أنه كان يتكلم بصوت مرتفع بلغ الى مسمع حنـــة ، فاختلج له فؤادها اختلاجاً شديداً .

وكان بعد ذلك ان بستيان دخل إلى حنة ، فتعرف بها واستأذنها بوضع البيانو عندها حسبما أوعز اليه ارمان . ولما رتب منزله ولم يعد لديه ما يشغله فيه أقفله وخرج منه فاستأجر مركبة وأمر السائق بالذهاب إلى شارع سنت كاترين وفيما تسير به المركبة حانت منه التفاتة ، فرأى مركبة قادمـــة من جهة الباستيل وهي تسابق في مسيرها الهواء . وكان يقود هذه المركبة شاب عليه ملامح الأشراف وبالقرب منه خادم كان جالساً وراءه مكتوف اليدين. فحدق بستيان نظره في ذلك الشاب ولم يكد ينتبه اليه حتى صاح مذعراً : يا إلهي ! إن هذا اندريا وقد صبغ شعره بالسواد .

ثم نظر إلى السائق وقال . إنك إذا تمكنت من ان تسير في أثر هذه المركبة بحيث لا تحتجب عنك فاني أجازيك خير الجزاء

فضرب السائق الجواد بالسوط فانطلق يعـــدو كالسهم وما زال يسير في أثر المركبة حتى وقفت أمام قصر جميل بهيج المنظر فنزل الشاب منها ودخل الى القصر مسرعاً . أما بستيان فانه أوقف المركبة على بعد قليل وتقـدم الى مركبة الشاب فوقف امام الجواد وجعل يتكلف ان يفحصه وقد أعجب به ثم نظر الى الخادم وقال له : أيبيع سيدك هذا الجواد ؟

ـ لا أعلم وإذا شئت فاسأله عن ذلك .
ـ من هو سيدك ؟
ـ إنه إنكليزي يدعى السير فيليام .
ـ وأين منزله ؟
هو الذي تراه أمامك .
ـ أهو الذي كان يسوق المركبة بنفسه وكنت وراءه .
ـ نعم .

فتركه بستيان ودخل الى ذلك القصر ، فأوصله احد الخدم الى غرفة اندريا واستأذن له بالدخول فدخل .

وكان اندريا قد غادر باريس منذ ثلاثـــة أعوام ، فتغيرت هيأته بعض التغيير ، ولكنها لم تكن تخفى على بستيان الذي رباه منذ نشأته . فلما رآه اندهش وظهرت منه إشارة الاندهال بالرغم منه ، فلم يحفل بها اندريا فقال بستيان : إني رأيت ذلك الجواد الكريم الذي كنت تسوقه وقد أعجبت به غاية الاعجاب .

فأجاب اندريا بلهجة إنكليزية : إنه من خير الجياد وقد أعطيت فيه ستة آلاف فرنك فأبيت بيعه .
ـ ألا تزال الى الآن تأبى هذا الثمن ؟
ـ نعم .

وعند ذلك نهض اندريا فذهب الى منضدة وأخذ سيكارة فقدمها الى بستيان الذي رأى به عرجاً فصاح وقد نسي موقفه قائلاً : هذا هو بعينه .

وكان ذلك ان اندريا قد كبا به الجواد مرة في حداثته فكسرت رجله وبقي فيها هذا العرج فلما رآه بستيان يعرج لم يعد عنده شك به .

أما اندريا فانه سمعه يقول هذا هو بعينه التفت اليه وقال بغاية الهدوء : أتعرفني يا سيدي ، إني لم أرك قبل الآن ؟

– لقد قيل لي انك تدعى السير فيليام وهذه اول مرة أرى فيها إنكليزياً ذا شعر أسود .

- لست إنكليزياً بل أنا ايرلندي .

فقال بستيان ببرود أظن انك ولدت في فرنسا .

– إنك غلطان يا سيدي في ما ظننت .

. لا أراني غلطاناً بل انك مولود في فرنسا بقصر كارلوفان .

ثم وقف وقال . وان أباك يدعى فيليبون .

– أعود وأقول لك انك مخطىء .

– وأنا أقول لك أيضاً أن أباك الكونت فيليبون قد تزوج بارملة الكولونيل أرمان دي كركاز وان له منها ولد وهو أخوك .

– ليس لي أخوة ولم أولد بفرنسا وليس أبي الكونت فيليبون بل أنا وحيد ولدت في ايرلندا وأدعى السير فيليام

– إن أخاك يدعى الكونت أرمان دي كركاز ، كما انك تدعى الفيكونت أندريا .

فأجابه اندريا ببرود أدهش بستيان قائلاً : إنك مخطىء ، فاني لم أسمى بهذا الاسم .

– إصغ إلي أيها الفيكونت أن أخاك قد بحث عنك طويلاً في جميـع الأنحاء وهو قد غفر لك وعفى عنك وعزم على أن يقـــاسمك ثروته فان قلبه الشريف لا يعرف الحقد ولا سيا وأنتما ابنا أم واحدة فهو يود أن تعيشا في منزل واحد وقد تيسر لي بعد ما بذلت من العناء في التفتيش عنك ان أجدك فلماذا تحاول الاحتجاب عني .

فأجابه أندريا بغاية الهدوء والسكينة : إني أقسم لك انك مخطىء وإني لا أعرف الكونت دي كركاز ولا اسمي الفيكونت اندريا، ولم أتشرف برؤياك قبل الآن . .

أما بستيان فانه رأى مسعاه قد أخفق ، وقد بذل ما لديه من الوسائل ، فانه استعمل في بادىء الأمر الحيلة ، ثم ذكر له ثروة أرمان الواسعة وان أخاه يبحث عنه في كل مكان ليشاطره هذه الثروة ، آملاً ان تثور به المطامع ، فيخلع ثوب الخفاء ويعترف باسمه الحقيقي ، فذهبت جميع آماله أدراج الرياح

وكان بستيان على كهولته شديد الأعصاب متين القوى فلما رأى إخفاقه ثار به الغضب فتقدم من أندريا وقبض عليه بيدين من الفولاذ وهو يقول : أيها الفيكونت انك لا تستطيع ان تخدعني طويلاً وستعرف الآن انك لست بالسير فيليام ؟

فتصنع أندريا الانذهال وأجابه باللهجة الانكليزية المعهودة قائلاً ألا تريد أن تدعني وشأني فقد ابتدأت أن أحسبك مجنوناً ؟

— لتعلمن أيها الفيكونت اني أشد منك ساعداً واني قادر على خنقك ببضع ثوان فاحذر من ان تستغيث إذ لا يجديك الصراخ نفعاً .

— إذن تريد قتلي ؟

— كلا بل اني أريد أن أجردك من ثيابك وأكشف عن صدرك لأتبين فيه علامة أعهدها من قبل فاني رأيتك عارياً مراراً كثيرة في حداثتك وكنت أرى تحت ثديك الأيمن شامة سوداء .

— إن بصدري كثيراً من تلك الشامات وستحقق مـا أرتك عيناك من الأوهام .

ثم أفلت منه ونزع ثوبه ومزق قميصه فظهر من تحته صدر كثير الشعر ملآن من تلك الشامات السوداء التي تسميها النساء حبات الجمال ، فارتاع بستيان مما رآه ورجع الى الوراء وقد علا وجهه الاصفرار وهو يقول: ليس هو إياه ولكن الشبه شديد .

وكان السير فيليام هو ذات أندريا ، ولكن لم يدر بخلد ذلك الكهل الطيب

السريرة أنه صبغ شعره بلون السواد وأخفى كل أثر يعرف فيه .

ووقف الاثنان بعد ذلك ينظر كل منهما الى الآخر إلى ان افتتح أندريا الحديث فقال : أن كل ما ظهر لي منك يدل على الجنون فأنت دخلت إلي وأنا لا أعرفك ودعوتني باسم رجل لم أسمع بذكره في حياتي ، وعندما أظهرت لك خطأك بلطف وأدب هجمت علي هجوم الكواسر ، فأنا أعتبر أنك أهنتني .

فأجاب بستيان بصوت المتوسل وقد شعر بما ارتكب من الخطأ :

– أسألك ان تتعطف بالاصغاء إلي دقيقة واحدة . فاعلم الآن ان اندريا الذي دعوته بالفيكونت اندريا والذي يشبهك شبهاً غريباً ، هو رجل شرير وأهل لكل الذنوب وان له أخاً يدعى الكونت ارمان دي كركاز له من النبل ومكارم الأخلاق بقدر ما لذلك الخائن من الدناءة والشؤم والاقدام على كل منكر . أما ذلك الخائن فهو شديد الحقد على أخيه الذي رد اليه الشرع ثروة واسعة كان سلبها أبوه من أبيه ، إذ هو أحق منه بها وقد سافر منذ ثلاث سنوات من باريس على أثر ذلك وهو يجد ولا ريب ، وراء وسائل الانتقام لأنه على ما أبنت لك أهل لكل شر ، وإني أحب الكونت دي كركاز كما يحب الأب ابنه ، وهو يحب فتاة طاهرة الأخلاق ، فاذا علم بأمرها ذلك الخائن ، فهو لا يعدم وسيلة لغوايتها لأنه هو شديد المكر كثير طرق الغواية . وقد علمت الآن ان الذي دفعني الى التصرف معك ، على ما أنكرته علي ، لم يكن إلا ذلك الشبه الغريب ، ومع ذلك أعتذر اليك وأسألك الصفح عما كان .

فلبث أندريا هنيهة يفتكر ثم قال له ببرود : إن ذلك الحديث الذي قصصته علي جليل الفائدة ، ولكنه لا يرضيني تمام الرضى ولا أجد سبيلاً للعفو عما أسأت إلي به لذلك أسألك ايضاً ان تخبرني عن اسمك وعن محل سكنك فاني لم أقتنع بسلامة قصدك .

فأجابه بستيان ، وقد وقع عليه هذا الكلام وقوع الصواعق اني أدعى بستيان .

فأجابه اندريا باحتقار . بستيان ماذا ؟

– بستيان فقط . فإني نشأت في باريس وولدت بها دون ان أعرف اسم أبي ، ولكن نابوليون العظيم قلدني وساماً في معركة واغرام وسماني قائداً في فرقة الحرس .

فقال اندريا : لا بأس في ذلك فان بيني وبينك شيئـــاً من التكافؤ ، وقد قلت لك اني لم يسعني قبول عذرك ، فأنا أسألك ترضية عما فرط منك .

– ليكن ما تريد. فقد علمت اسمي واني اقيم في شارع سنت كاترين في منزل الكونت ارمان دي كركاز

-. حسناً وسأبعث لك بشهودي بعد غد لأني مقيد اليوم وفي الغد .

– انك تجدني طوع أمرك عندما تشاء .

ثم أخذ من جيبه رقعة زيارة فوضعها على المستوقد وحيا أندريا وذهب ، فشيعه إلى خارج الباب .

ولما خلا أندريا بنفسه جعل يضحك ضحك الساخر وهو يقول بنفسه : اني كنت أجهل ان أخي العزيز عاشق ، وقد كنت أظن انه اكتفى بما لقيه من حبه السابق الى ان أعلمني بذلك بستيان ، فصح ما قيل (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) . أما الآن فانه ذهب وهو واثق من اني غير أندريا وان العدو الخفي أشد هولاً من العدو الظاهر ، وسيكون ذلك الأخ العزيز شاهده بلا ريب ، فستتقابل وجهاً لوجه وسأعلم كيف أقنعه اني ايرلندي الأصل ، حتى إذا تزوجت بهرمين أطلب منه ملايين كرماروت فيدفعها لي بغير صعوبة .

وفيما هو في هذه التأملات إذ وردت عليه رسالة من كولار ففضها وقرأ بها ما يأتي :

« إن الفتاة التي يحبها ارمان دي كركاز تدعى حنة دي بالدر وهي بارعة في

الجمال ومنزلها في شارع مسلي » .

فسر بهذا النبأ وقال : سأجتهد بعد ان أقتل بستيان بأن أتخذها خليلة لي .

أما بستيان فانه خرج من منزل اندريا أصفر الوجه شديد الاضطراب ، وذهب الى ارمان فقص عليه جميع ما كان بينه وبين السير فيليام ، فارتاع لذكر اندريا الى ان تيقن ان السير فيليام شبيه له وليس هو بعينه ، فاطمأن ولم يعد يشغله سوى منع هذه المبارزة باحدى الوسائل لخوفه على بستيان . وبعد ان فرغ بستيان من حكايته قص عليه ما كان بينه وبين حنة فسر لنجاحه وقال له :

— إذهب الى منزلك الجديد واختلق عذراً يمكنك من زيارة حنة ولا تخرج من عندها إلا حينما تسمع قرعاً على باب منزلك وأكون أنا القارع فتخرج وتشيعك هي بالطبع الى الباب حيث أكون أنا هناك .

— قد فهمت .

وذهب للحال لينفذ ما عهد اليه ولم يكد يخرج بستيان من الباب حتى دخل خادم المنزل وفي يده رسالة ففضها ارمان وقرأ هذه السطور :

« انه في شهر اكتوبر عام ١٨٠٠ ، أي في غضون الحرب الأسبانية ذهبت فتاة صبية تدعى تريزا مع امها الى قرية بجوار فونتنبلو ، فأقامتا فيها فصلي الشتاء والربيع ، وعندما رجعتا كانت الفتاة حبلى ولا يعلم هل كانت أرملة أم انها ارتكبت خطأ ، وقد ولدت في آخر الربيع ابنة دعتها هرمين ثم أقامت عاماً كاملا في مارلوت وسافرت في آخر اكتوبر الى باريس فأشيع في مارلوت انها ذهبت لتتزوج ، ويؤكدون انها تزوجت برجل مستخدم في الوزارة » .

هذا هو مفاد الرسالة التي لم يهتم بها ارمان كثيراً ، لكثرة ما كان يرد عليه من أمثالها في كل يوم ، ولكنه أخذ دفتر مذكراته وكتب فيه

بالخط المصري :

يجب البحث إذا كان يوجد رجل في وزارة الخارجية قد تزوج في آخر شهر اكتوبر من سنة ١٨٠٠ بابنة تدعى تريزا ، واذا كان لها ابنة تدعى هرمين

ثم أرجع الدفتر الى مكانه وذهب الى منزل بستيان الذي كان ساعتئذ عند حنة فقرع الباب وجاء الأمر طبقاً لما تصوره ، فان بستيان عندما سمع القرع استأذن من حنة فخرجت تشيعه الى الباب الخارجي حيث كان ارمان ينتظر وقلبه شديد الخفوق .

فلم تكد تراه حتى عرفته فاصفر وجهها واختلج فؤادها ولكنها تجلدت وانحنت مسلمة عليه بابتسام ثم دخلت الى غرفتها وأغلقت الباب أما ارمان فلم يخف عليه اضطرابها فكان سروره لا يوصف .

٢٢

الرسالة

مر على ذلك يومان وقد جرى من الحوادث ما عرفه القراء كأمر سريز في منزل مدام فيبار خارج باريس وسجن فرناند لاتهامه بالسرقة وحبس باكارا في مستشفى المجانين واتفاق اندريا مع بيرابو على الزواج بهرمين فبينما كان اندريا جالساً في منزله في اليوم الثاني من اتفاقه على المبارزة مع بستيان ، وهو قد نال جميع ما يبتغيه من إبعاد جميع من يخشى ان يعترضوا في سبيل مساعيه بحيث لم يبق عليه سوى إقناع هرمين على الزواج به ليفوز بتلك الملايين إذ دخل عليه بيرابو ودار بينهما الحديث الآتي :

فقال بيرابو : إني أتيت لأخبرك عن سفر هرمين وأمها .

– الى أين سافرتا ؟

– إلى بريطانيا ، فان لنا فيها بعض الأنسباء ولا أخال ان فرناند يستطيع الوصول اليها .

فأجابه أندريا ضاحكاً : يقتضي له للوصـول اليها أن تصادق الحكومة على سفره .

– ذلك مستحيل فان جرمه قد ثبت وسيحكم عليه باقرب حين

– ألا توافقني يا عماه على رأيي وهو ان الحكومة تقدر أن تعثر على المجرم الحقيقي .

فارتعش بيرابو وقال : ذلك لا ريب فيه .

– إذن ان هرمين وأمها قد سافرتا .

– أجل ان هرمين قد حاولت الانتحار في بادىء الأمر ثم الآن لانت بعض اللين ورضيت بالسفر .

– إن السفر خير بلسم لجراح الأحزان ، وان العشاق يســـافرون باليأس ويرجعون بالنسيان فلا دواء لمثل هذه الأمراض خير من السفر .

– لا ريب عندي بشماتة هرمين لا سيما عندما تعلم بجريمة فرناند .

– كلا لم يحن الوقت بعد لاطلاعها على ذلك حذراً من ان يؤثر عليها تأثيراً لا تحمد عقباه وان النساء غريبات الأطوار فربما زادتها خيانة من تحب تعلقاً به وفي كل حال يجب اولاً ان يصدر حكم المجلس

– كما تشاء .

بقي علي أن أسألك اذا كان يمكنك ان تعرفني بانسبـائك في بريطانيا عندما أذهب اليها .

– لقد افتكرت بذلك من قبل ورتبته على أحسن منوال فان كبير العيلة شديد الولع بالصيد محب لكل راغب فيه ولا أيسر لك من ان تتظاهر بشدة الميل الى الصيد ، فتلتحم بينكما العلائق وتتصل الى العيلة فلا يمضي الشهر إلا

وأنت صهري .

- وعند ذلك تنعم بسريز وبحظك من الملايين .

- يجب ان أصبر شهراً كاملاً ، إن ذلك لأجل طويل وإني أكاد أجن من شوقي اليها .

- ذلك منوط بك فإذا أمكنك ان تزف هرمين إلي بعد أسبوع تكون لك سريز وهذه هي طريقتي واحدة بواحدة جزاء .

- لا أراك مصيباً في ذلك لأنك تعلم ما ينالني من الفائدة بزواجك هرمين وأنت وحدك تعرف .

- تريد أن تقول اني وحدي أعرف المودعة عنده تلك الملايين ولكن ألا يتفق لذلك الرجل المودعة عنده أن يعلم اتفاقاً او باحدى الطرق اسم الوارث فإذا أعطيتك سريز الآن واتفق بعد ذلك حصول هرمين على الارث فإنك ترفض لتستأثر دوني بالملايين

- ولكن أنسيت اني المجرم الحقيقي في مسألة فرناند ؟

- لم أنس ذلك ولكن الرابطين أشد من الرابط ومن كان مثلك فإنه يتحمل كل عار لكسب الدراهم ولكنه ينفق ذلك الدرهم في سبيل غرامه ولا أشد من غرام الشيوخ فاذا أعطيتك سريز فإنك تلبث في خدمتي ولكنك تخدمني ببطء كشريكك في الجرم وأنا أريد أن تخدمني بغيرة كعاشق لذلك أعود فأؤكد لك اني في اليوم الذي اتزوج فيه بهرمين تنعم انت بسريز ولندع الآن الخوض في هذا إذ لا فائدة منه واعلم اني سأذهب بعد بضعة ايام الى بريطانيا فعليك ان تستأذن من الوزارة فتذهب قبلي الى امرأتك وابنتك واجتهد أن تكتب لي في كل يوم عن هرمين وأن تمهد لي السبيل .

سأعمل كما أشرت وسأسافر اليوم .

ثم ودعه وانصرف ، وخرج أندريا بعده وذهب الى السفارة الانكليزية حيث اجتمع بصديقين له فيها ، وعرض عليهما ما كان بينه وبين بستيان وسألهما أن يكونا شاهديه ، فقبلوا وخرجوا سوية من السفارة ، فرجع

أندريا إلى منزله وذهب الشاهدان الى منزل الكونت ارمان دي كركاز ليتفقا مع بستيان على شروط المبارزة فلم يجداه بل وجدا ارمان الذي بذل ما في وسعه لمنع المبارزة ، فلم يجد الى ذلك سبيلاً لما اشتهر به الانكليز من العناد في مثـل هذا الموقف ، فاتفقوا على ان المبارزة تكون بالسيف ويكون الملتقى في الساعة السابعة من الغد في غابة بولونيا ، ثم تركاه وذهبا إلى أندريا فأخبراه بما كان وبعد أن ذهبا ورد الى أندريا رسالة من كولار هذا نصها :

« أكتب اليك الآن من منزل فتاة بجوار منزل حنة قد أغويتهـــا بحيث اصبحت آلة في يدي اديرها كيف اشاء .. وقد وثقت الآن ان بستيان لا يبيت هذه الليلة في منزله الجديد فلا يبقى أحد بجوار حنة بحيث يخلو لنـــا الجو فتدبر وسأحضر اليك بعد قليل للمداولة في هذا الشأن . »

أما حنة فانها كانت قد اجتمعت مراراً ببستيان فعلمت منه نزاهـة قصد ارمان وشغفه بها وشدة رغبته بالاقتران بها ما زاد حبها له وحقق أمانيها ثم زارها ارمان فحقق بالعيان ما كانت علمته بالخبر بحيث اصبحت لا تحلم الا بتلك الأماني الزاهرة ولا تحدث نفسها إلا بحب ارمان وبما ستلاقي معه من الغبطة والسعادة وكانت قد استوثقت بينهما العلائق فكان يكثر من زيارتها على قدر ما يسمح له المقام .

وقد علم القراء انه عندما أتى شاهد أندريا كان بستيان في منزله الجديد فذهب اليه ارمان وتباحث ملياً بشأن البراز وكانا يتكلمان بصوت مرتفع بحيث سمعت حنة بعض حديثهما وعلمت انه سيحصل مبارزة ولكنهـــا لم تعلم اسم المتبارزين ، وكان آخر ما قال ارمان لبستيان : يجب ان تذهب الآن لترتيب هذا الأمر المكدر وانت تعلم انها تحبني بقدر ما أحبها ويسوؤني انني لا أستطيع زيارتها في هذا المساء حيث علينا أن ننام باكراً ، وأما غداً فإنك تأتي اليها من من قبلي وتخطبها رسمياً بالنيابة عني ثم انصرفا .

فاختلجت حنة لما سمعت وسقطت على كرسي في حـــالة تقرب من الإغماء

وتقول ، رباه ما عسى أن يكون هذا الأمر المكدر

ولبثت بعد ذلك ساعتين وهي غارقة في بحار الهواجس والقلق إلى أن قرع الباب فانتبهت من سبات غفلتها ونظرت إلى حاضنتها جرتريدة داخلة وبيدها رسالة مختومة فقالت : لقد كلفني رجل لا أعرفه بأن أعطيك هذا الكتاب، ثم دفعته اليها ومضت ، وفضت حنة ختامه وقرأت ما يأتي :

« أول ما ابدأ به سؤالك المعذرة عما جسرت عليه من مكاتبتك » ، فظنت ان هذا الكتاب قادم اليها من ارمان فبحثت آخره لترى التوقيع فرأته غفلا فعادت إلى القراءة :

« إني أحبك يا سيدتي واول مرة نظرتك علمت ان قلبي قد شغل بعد ذلك الخلاء بهواك وان بك وحدك يناط مستقبل سعادتي » ، فوضعت حنة يدها على قلبها وهي تقول رباه .. هذا هو . ثم استمرت في قراءتها :

« إني واسع الثروة أيتها الحبيبة وقد رأيتك ملاكاً طاهراً فاعددت لك جنة أعيش فيها على قدميك متى اراد الله تحقيق هذه الأماني ولا أصح من تسميتها بذلك المنزل الأنيق الذي تحيط به الأشجار وتكتنفه الرياحين والأزهار وتأن فيه الأنهار لتغريد الأطيار حيث تناجي بلسان الهوى وتكشف أسرار القلوب لأنك ستقيمين فيه ومنازل الملائكة هي الجنات .

أيتها الحبيبة أني لم أجسر ان ابوح لك بغرامي لأني معرض لخطر عظيم فاني سأبارز عدواً لي في الساعة السابعة من الصباح » .

فما قرأت هذه الفقرة حتى شعرت ان الأرض قد انطبقت عليها فصاحت صيحة عظيمة وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وعندما أفاقت من اغمائها وجدت نفسها مضطجعة على سريرها وامامها حاضنتها جرتريدة وفتاة حسناء عليها ملامح الضنك وفي عينيها ما يدل على المكر والرياء .

وكانت هذه الفتاة هي التي اغواها كولار وكتب في منزلها رسالته السابقة

الى اندريا ، وقد سمعت صيحة حنة قبل اغمائها وسقوطها واستغاثة جرتريدة فأتت مدفوعة من كولار الذي كان باقيـاً عندها وعرضت على جرتريدة مساعدتها فقبلتها

أما حنة فانها لم تلبث عندما استفاقت ان عادت الى الافتكار بارمان وانه في خطر عظيم فعزمت على ان تذهب الى منزله وتبذل كل ما تستطيع في سبيل منع هذه المبارزة ثم رأت خيالاً قد انتصب امام عينيها وخيل لها انه يقول « لا يجب على المرأة الشريفة ان تمنع من تهواه عن ان يخاطر بحياته للدفاع عن شرفه » وكان هذا الخيال خيال أبيها فنهضت من فراشها فركعت أمام صليب معلق في الحائط وصلت ثم رجعت الى الفراش فمكثت ريثما تناولت قليلاً من المرق ولم يمر على ذلك عشر دقائق حتى استرخت عيناها وشعرت بنعاس عظيم لم تستطع مقاومته وثقل رأسها فانطرحت على الفراش وكانت جرتريدة جالسة بالقرب منها على كرسي طويل .

وبعد ذلك بساعة فتح باب الغرفة ودخل اليها رجل ومشى الى فراش حنة وهو يضحك ضحك الساخر ويقول . خليلتي قد أتمت واجباتها على ما يرام ووضعت في القدر جميع ما أعطيتها من المرقد بحيث ان صوت المدافع لا يقوى على ايقاظ خليلة السير فيليام المستقبلة وكان هذا الرجل هو كولار .

استيقظت حنة عند الضحى وقد نفذت أشعة الشمس الى غرفتها فنظرت الى ما حولها فلم تر ذلك الصليب الذي كانت تصلي امامه بالأمس داعية لأرمان وقد وجدت نفسها نائمة بملابسها على مقعد في غرفة متسعة يرى من نوافذها انها محاطة بالأشجار المرتفعة .

وقد رأت في وسط تلك الغرفة البديعة الأثاث سريراً ذا عواميد موشحة بالذهب وستائر من المخمل وفيها جميع ما تحتاج اليه العذارى من كل ما يروق للعين ويحلو للنفس وجميع أدوات الزينـة مما يتفاخر به عظماء باريس وتماثيل ومرائي مرتبة أحسن ترتيب مما يدل على سلامة ذوق مرتبهـا وفي الجملة فان

هذه الغرفة كانت محتوية على كل ما تحلم به العذارى .

وقد خيل لها انها في حلم عندما رأت نفسها في غير منزلها وفي غرفة توافق ذلك الكتاب الذي ورد اليها وهي تظنه من ارمـــان فأخذ العرق ينصب من جبينها وهي تجهد النفس ولا تقدر على حل شيء من هذه الألغاز فقامت ومشت في أرض الغرفة ضائعة الصواب موجعة القلب ، وهي لا تزال تعتقد انها في حلم ثم فتحت إحدى النوافذ فهب في وجهها نسيم الصباح البليل ، وأطلت منهـا على روضة غناء كثيرة الأشجار ، وسمعت تغريد الأطيار فتمثلت لها تلك الجنة التي ذكرت في كتاب ارمان ، ثم أخذت تفحص جميع الأشياء الموجودة في الغرفة المجهولة عندها ، فتحققت انها في يقظة ، وأخذ الخوف يداخل قلبهـا وهي تقول : ترى أين أنا ، وكيف جيء بي الى هذا المنزل الذي تدل ظواهره على انه خارج باريس ؟ ومالي لا أرى حاضنتي جرتريدة ؟ ويلاه أفي يقظة أنا أم في منام . كلا ان ذاك غريب لا محالة ، ولكن نسيم الصباح الذي كان يبرد جبينها الملتهب وأشعة الشمس التي كانت تتدفق على الحقول الخضراء ، وتغريد الطيور التي كانت تتناجى في الشجر وتتناغى فوق رؤوس القضب، وحفيف الأشجار وتمايل الغصون التي كانت ترقص لنغمات النسيم كل ذلك كان يثبت لها انها في يقظة .. وفيما هي تتأمل في تلك الغرفة وقع نظرها على رسالة مفتوحة على المستوقد فأسرعت اليها وأول ما نظرتها رأت ان خطهـا هو نفس خط رسالة الأمس فأخذتها إذ أيقنت انها من أرمان وقرأت ما يأتي:

« الساعة التاسعة صباحاً .

« لقد تبارزت في الساعة السابعة فانتصرت وأنا سليم لم أصب بشيء »

فصاحت صيحة فرح وقالت في نفسها ما يهمني بعد ذلك ان اعرف أين أنا فإن الذي تحبه نفسي حي ثم عادت الى الرسالة تتم تلاوتها فقرأت :

« دخلت الى غرفتك ايتها الحبيبة فرأيتك نائمة فلم اوقظك بل اني لثمت جبينك الوضاح كما يقبل الأخ اخته ورجعت على الأثر بملء السكون

« أيها الملاك المحبوب انني اتصور فرط انذهالك عندما تستيقظين وتجدين نفسك في مكان لا تعرفينه من قبل وتجهلين كيف وصلت اليه وأية يد قادرة اغتنمت فرصة رقادك ونقلتك الى هذا القصر بل إلى هذه الجنة التي لم تشد إلا لأجلك فاطمأني ايتها الحبيبة انني لا أحبك حباً بل أعبدك عبادة وان تلك اليد القادرة لا تستخدم قوتها إلا لخدمتك فإن تلك اليد هي الحب » .

فرجف قلب حنة ونظرت الى ما حولها نظرة قلق ورعب وقـــالت في نفسها . كيف يمكن ان ذلك الرجل الذي سمعته بالأمس يقول لبستيان (انك ستخطبها لي في الغد رسمياً) ان يجري على هذا السبيل أتراه يريد ان يتخذني خليلة له وانه اغتنم فرصة رقادي . ولم تجسر ان تطلق ظنها الى ما وراءذلك وعادت إلى تتمة الرسالة

« أيتها الحبيبة اني رجل شريف وأريد ان أبقى اهلا لحبك الشريف فانك تحبينني بقدر ما احبك فتجدين نفسك على ما كنت من الطهارة ومع ذاك فإني أسألك الصفح والمعذرة فقد انتشلتك لأنني لم أستطع الصبر على ما رأيتك فيه من ضيق العيش ، وانفت من ان اراك تأوين إلى منزل حقير وعلمت بأنك لا ترضين بالرحيل معي قبل ان يتم بيننا القران فالتجأت الى الحيلة واغريت خدم المنزل ووضعت في طعامك مرقداً حتى إذا غفوت بتأثير ذاك المرقـد نقلتك الى مركبة مقفلة سارت بك كل الليل حتى وصلت إلى هذا المكان ولكني أعود فأقول لك اطمئني لأنك في منزلك وستكونين امرأتي في اقرب حين » .

فوضعت حنة يدها على قلبها وهي تحاول تسكين خفقانه ثم عادت إلى الرسالة فقرأت :

« وأعلمي ايتها الحبيبة انه قد يمر على المرء في حياته حوادث غريبة محاطة بالأسرار الخفية ، فاني بالأمس كنت معرضاً لخطر البراز وقد انتصرت فيـه بحول الله ، واراني اليوم في خطر شديد اعظم من الأول ، اما الأول فقـد انقذني منه ساعدي ، واما الثاني فلا ينقذني منه سواك فانتبهي الى ما اطلبه

منك . »

« ان في ذاك سر أيتها الحبيبة لا يتعلق بي وحدي ولا يسوغ لي افشاؤه ، وقد يمر عليك في هذا المكان بضعة أيام لا ترينني فيها فاطمئني وثقي بي لأنني أحبك . إذا لم تبحثي أبداً أين أنت ، وإذا كنت لا تحاولين مغادرة هـذا المنزل ، وإذا كنت لا تسألين الخدم الذين جعلتهم منذ اليوم في خـدمتك أقل سؤال ، أكون في مأمن من هذا الخطر ، وإلا فإن أقل مخـالفة تجرينها تقضي عليّ بالموت فتدبري واعملي بما يدعوك اليه واجب الحب »

« وسيصلك مني رسالة في كل يوم ، ثم لا تقلقي لبعد جرتريده عنـك ، فإنني قد أخذتها معي لأنها تعلم بحبنـا ، وهذا أيضاً من الأسرار التي لا أستطيع أن أبوح بها لك الآن فأستودعك الله أيتها الحبيبة على أمل اللقـاء القريب » .

وكان هذا الكتاب غفلا كالكتاب السابق أي بغير توقيع .

- ٢٣ -

المبارزة

لندع حنة الآن تعيد تلاوة هذا الكتاب الغريب ، ولنعد إلى أرمان وبستيان فنقول انهما خرجا من منزل بستيان وذهبا توا إلى منزل ارمان حيث دخلا إلى قاعة السلاح وامتحن أرمان بستيان بلعب السيف فوجـده متين الساعد ، ولكن لعبه قديم لا ينطبق على القواعد المقررة في هذا العصر بما جعله في قلق عليه ، ثم دخل كل إلى غرفته وناما باكراً ، وعند الساعـة السادسة استيقظ أرمان فأيقظ بستيان وقال له: هلم بنا الآن إذ يجب علينا ان نصل

قبلهم فإن الفرنسيين لا يتأخرون .

ثم ذهبا إلى غابة بولونيا فلم يلبثا هنيهة حتى قدم مسير فيليام مع شاهديه وفيما هم في المركبة نظر اليهم أرمان فاختلج واضطرب عندما رأى أندريا ، وأشار اليه وهو يقول لبستيان هل انت واثق من أنه ليس اندريا بعينه ؟

– انني على أتم الثقة كما ثبت لي بعد الامتحان .

ثم وقفت المركبة ونزل اندريا منها مع شاهديه فتبادلوا التحية ودار بين أرمان وشاهدي أندريا الحديث الآتي :

قال أرمان : نحن الآن يا سيدي في موقف حرج يتيح لنا المداولة بصراحة وجلاء ، فلا يؤخذ كلامنا في غير مأخذه بما يمكن أن يتناول منه مس كرامة او ظن ، لسوء قصد ، وانني استأذن منكما فألقي عليكما هذا السؤال : أتعرفان السير فيليام من زمن طويل وهل تعتقدان انه ايرلندي ؟

– اننا نعرفه منذ شهرين وقد اطلعنا على أوراقه العائلية فهي تثبت أنه السير فيليام وانه إيرلندي .

– لم يعد عندي ريب في ذاك ، وان كان الشبه عظيماً بينه وبين اخي والان فإنني أرى أسباب البراز طفيفة جداً بحيث يجب التساهل فيه لاسيما وان التباين شديد بين سني المتبارزين .

– ونحن الان على رأيك لذلك نقترح ان يكف عن المبارزة عند أول جرح ، وان لا يقصد أحدهما قتل الاخر

– ليكن ما تريد وليسرع في القتال .

فخلع المتبارزان سترتيهما وفحص الشهود السيفين ، ثم أعطيت الإشارة فبدأ العراك ، وكان بستيان شديد الهياج في القتال خلافاً لأندريا الذي كان يقاتل بأتم السكون كأنه يريد ان يقلد الانكليز بجميع حركاتهم ، اما ارمان فإنه علم لأول وهلة ان بستيان دون خصمه ، يفضله بالثبات وقوة الساعد ولم

يمض على مبارزتها خمس دقائق حتى صح ظن ارمان ، فإن اندريا دحر بستيان ووضع سيفه بصدره ، فعف عنه ، ولم يدع الحسام يصل إلى جسمه ، فـأوقف ارمان القتال ، ولم يعد لديه اقل ريب بأن السير فيليام هو إيرلندي ، بدليل ما رآه من عفوه عن بستيان بعد المقدرة عليه ، وهي شهامة لا يعرفها أندريا .

وبعد أن أوقف القتال واعترف بستيان بأنه مغلوب تقدم أندريا وصافحه ثم أشار الى الحضور فقال : اسمحوا لي الآن ايها السادة ان اظهر لكم السبب الذي حملني على البراز بعد ان قدم لي خصمي من الاعتذار ما هو كاف . ذاك اني كنت يوماً جالساً في أحد المنتديات مع بعض مواطني فدار بيننـا حديث عن البراز فأنكره مواطني وقالوا ان الشرفاء لا يتبارزون ، اما انا فقد اعترضت عليهم واثبت وجوب المبارزة وأخذت ارقب الفرص كي اثبت مـا قلته بالفعل ثم ما كان بيني وبين خصمي فعزمت على مبارزته تـأييداً لقولي ورفضت قبول ذلك الاعتذار .

وبعد ان قال ذلك تقدم من ارمان فقال : يا سيدي الكونت اني اشبـه أخاً لك تبحث عنه منذ حين في سائر الأنحاء .

- لا أنكر وجود الشبه بينكم ولكنكما تختلفان بالشعر فإن شعره أشقر وشعرك اسود .

— ومع ذلك فإنني أريد ان تزورني يوماً فأطلعك على أوراقي التي تثبت لك حقيقة نسبي .

فاعتذروا له اعتذاراً حسناً .

اما اندريا فتكلف هيئة ودية وأشار الى الجميع فقال : لا ريب ايها السادة ان كلا منكم قد أحب امرأة واحدة في حياته على الأقل اما انا فإنني اعشق الآن فتاة ملكت لبي ، وقد اسكنتها بين الغابات لشدة غيرتي عليها ولم استطع ان اراها مساء امس لاضطراري الى الاجتماع بكم في هذا الصباح .

ثم التفت إلى ارمان فقال له · انني أكون لك من الشاكرين ايها الكونت إذا تفضلت وأوسعت في مركبتك مكاناً لشاهدي كي استأثر بمركبتي وحدي فانني غير راجع الى باريس .

فأحنى ارمان رأسه اشارة الى القبول وصعد اندريا الى المركبة وهو يقول اليست السعادة الحقيقية انيجتمع العاشق بمن يحب وعندي ان من يحب خطيبة له يجب عليه ان يخفيها عن جميع العيون .

فافتكر ارمان بحنة ' واختلج قلبه ، اما اندريا فإنه ضرب الجواد بالسوط وقال لارمان بصوت الهازىء إذا احببت امرأة فإني اشير عليك ان تحافظ عليها كما يجب .

فاصفر وجه ارمان وافتكر ثانية بحنة فملأ قلبه الخوف .

وسارت مركبة اندريا تعدو به كالبرق الخاطف ساعات طويلة الى ان بلغت الى ذاك المنزل الذي جلست فيه حنة وسريز ، وهو منزل مدام فيبار ففتح باباً سرياً ودخل منه فنظر الى الرمل واذا عليه آثار اقدام فتنهد تنهد الفرح وقال : وقع الطير في الشرك وقد اصبحت حنة لي .

وفيما هو يسير في الروضة رأى كولار مضطجعاً تحت ظل شجرة على غاية الاطمئنان فدنا منه وقال · ما وراءك من الأخبار ؟

فنهض كولار ووقف امامه بإكرام واحترام وقال : انها لا تزال نائمة ؟

– في أية ساعة تركت الموقد ؟

– في الساعة العاشرة

فنظر اندريا الى ساعته وقال الان ثمانية وهي لا تفيق قبل العاشرة . ثم مشيا سوية ودخلا الى ذاك المنزل الأنيق فولجا تلك الغرفة التي تركنا فيهـا حنة منذهلة مستغربة لوجودها في مثل هذا المكان . وكانت ساعتئذ نائمة فدنا منها وتفرس في وجهها ثم قال اني أهنيء أخي ارمان لسلامة ذوقـــه فهي بالحقيقة على غاية من الجمال، وبعد ذلك سأل كولار عن سريز فقال : أنها لا تزال

تزال تبكي وتشكو من معاملة مدام فيبار .

فاغتاظ اندريا من ذلك وقال له : إذهب وادع لي مدام فيبار وأخبر سريز بأني قادم لزيارتها .

فذهب كولار وجلس أندريا بالقرب من منضدة فكتب إلى حنة الرسالة التي مر ذكرها ثم نهض ووقف أمام حنة فجعل ينظرها ويقول : انهـا بارعة الجمال وهي الآن متأثرة من المرقد فلا تشعر بشيء ، ولو كان سواي لكان ينتقم انتقاماً اشد واقسى ، وأنا لا أريد جسم هذه الفتاة بل اني أريد قلبها ، فهي قد ابتدأت أن تحب ارمان وستنتهي بأن تحبني ، وقد كان يتمثل ارمان لها بالأمس شخص الفضيلة ، ولكني سأدعها ترى فيه بعد ذلك المكر والدناءة والخداع ، وأنه مخادع وقد انتحل اسمي ليتمكن به من غوايتهـا فسأكون أنا أرمان الحقيقي بعينها ويكون ارمان المنتحل الخائن .

وبعد ان انتهى من تصوراته قرع الجرس فدخلت الخادمة وكان أعدهـا لخدمة حنة فأمرها ان تدعو جميع الخدم ، ولما أتوا قـال لهم : انني أعطي كلا منكم مائة دينار إذا كنتم تظهرون أمـــام هذه السيدة النائمة انني أنا الكونت أرمان دي كركار ، وإذا كنتم تجعلونها تعتقد بذلك وإلا فإنني أطردكم جميعاً .

ثم صرفهم وخرج في أثرهم وهو يقول : سينطـلي مثل هـذا الحـال على سريز أيضاً ، فـإذا لم تقتنع حنة من الخدم ، فهي تقتنع ولا ريب من صديقتها سريز !

- ٢٤ -

الوعود

لقد تركنا سريز مغمياً عليها في منزل مدام فيبار وبعد أن أفاقت من إغمائها نقلتها إلى غرفة عالية حسنة الأثاث ، ثم تركتها ومضت في شأنها بعد أن أقفلت الباب عليها . وكان أول مـــا بدأت به سريز بعد ما رأت نفسها وحيدة بهذه الغرفة انها أسرعت الى الباب وحاولت فتحه والخروج ، ولكنها رأته مقفلاً فأخذت تصيح وتستغيث ، ولكن لم يجبها غير الصدى . ولما لم تستطع شيئاً أخذت تبكي بكاء الأطفال . وعند الظهر دخلت عليهـا مدام فيبار بآنية طعام فرفضت ان تأكل ، فتركتها وخرجت فأقفلت الباب من الخارج وفي المساء عادت اليها بالطعام فرفضت أيضاً ، فلم تكاثرث مدام فيبار بذلك وفعلت نفس ما فعلته عند الظهر ، وفي اليوم الثاني تغدت بالقليل من الطعـام وأرادت أن تخرج من الغرفة ، فمنعتها العجوز وعـاملتها أسوأ المعاملة .

ومضى على سريز في ذلك المجلس ثلاثة أيام حتى نضب الدمع من عينيها ، وكادت تجن من اليأس . وفيما هي ذات يوم متكأة على النافذة فتح باب غرفتها ودخل منه السير فيليام .فلما رأته صاحت صيحة رعب شديدة وركضت مذعورة إلى آخر الغرفة كمن تريد الهرب .

أما السير فيليام فكان هادئاً مبتسماً ، وقد تكلف هيئة اللطف والاحترام فرفع قبعته وانحنى مسلماً بمنتهى الأدب وقـــال : إطمئني يا سيدتي ، فاني رجل شريف

فلبثت بمكانها تنظر اليه نظرة القلق والريبة ، وقد ذهب عنها بعض ذلك الرعب ، فقال لهـا بصوت رقيق إصغي إلي يا سيدتي فاني سأخبرك بمـا

لا تعرفينه .

ـ أيمكن يا سيـدي ان تكون أنت الآمر بجميع ما كابدته من المتاعب والاهانـة ؟

فتصنع أندريا الغضب وقال : من الذي جسر على ذلك ؟

ـ تلك العجوز الشمطاء ، التي قالت لي أنهم أتوا بي إلى هذا المكان بقصد أن ...

فقاطعها أندريا وقال : كل ما قيل لك كذب وزور وسأنتقم لك .

فقالت سريز وقد تهدج صوتها وأجهشت بالبكاء : إني أسيرة في هذه الغرفة منذ ثلاثة أيام ولم أعلم شيئاً عن ...

فلم يدعها تتمم وقال : تريدين ان تقولي انك لم تعلمي شيئـاً عن خطيبك ليون رولاند .. إطمئني ولينعم بالك فان خطيبك يستحق حبك ، وسأجعل لك مهر يتسع فيه حالكما بحيث تعيشان على أتم السعادة .

فتنهدت سريز تنهد الفرح وقالت لم أكن أصدق أبداً يا سيدي ما كانت تقوله لي هذه العجوز

ـ ماذا كانت تقول لك ؟

ـ إنه لم يؤت بي الى هنا إلا بأمرك . . لأنك شاب واسع الثروة ، وأنا صبية فقيرة ..

فتظاهر اندريا أنه التهب من الغيظ وقال : أنا الكونت أرمان دي كركاز أرتكب مثل هذه الدناءة !..

ـ أنت يا سيدي هو الكونت أرمان دي كركاز ؟

ـ أجل يا ابنتي ، وقد عرفت خطيبك ليون بواسطة خادمي بستيان الذي قد رأيته ولا ريب فهو ذلك الرجل الذي أنقذكم من أخصامكم في فندق بلفيل.

ـ أجل ، أجل . إني أذكر ذلك وقد عرفته .

ـ إذاً فاصغي إلي ولا تخشي أبداً ، فإنك حسناء فاضلة وكذلك ليون

فهو أهل لك وأنا سأكون لك بمثابة أب أو أخ ، فان مدام فيبار قد قالت شيئاً من الحقيقة ، وهو انه قد أتى بك إلى هنا بأمري ، ولكن ما قالتـه لك من اني أريد غوايتك افك وبهتان ، والذي يجب علينا الآن هو إنقاذ ليون وحنة .

فصرخت سريز بمنتهى الانذهال : حنة .

– نعم حنة دي بالدر التي أحبها حباً مبرحاً ، والتي ستكون امرأتي في أقرب حين ، فانها أصيبت أيضاً بنفس ما أصبت به أنت واني أراك شديـدة الاضطراب لهذه الحوادث الغريبة التي تمر عليك كالغاز ، فاصغي لي أوضحها لك ، فلنبدأ بك أولاً ثم نعود الى حنة فأنتما قد أصبتما بمصاب واحد .

إنك تحبين ليون وهو يحبك ، وقـــد كنتما اتفقتما على أن يكون قرانكما بعد خمسة عشر يوماً وان لك اختاً شقية بغياً باعتك ببيع السلع الى رجل غني قادر على ان يقتحم أشد الأمور وهذا الرجل هو بيرابو رئيس القلم في الوزارة وهو الذي أنقذتك منه واضطررت إلى نقلك هنا كي تكوني بمأمن من كيده ريثما يدعى الى المجلس ويحاكم بما جنت يداه وهو لا يستطيع ان يأتي اليك وأنت في هذا المكان أفهمت الآن ؟

– فما الذي دعاك ان تعاملنا بمثل هذا الإحسان ؟

– إني رجل واسع الثروة وقد أوقفتها لصنع الخير ودفع كل شر ولدي رجال صادقون أبثهم في جميع الأنحاء ، فيطلعوني على كل شيء ، وهم الذين أعلموني بما كان بين اختك وبيرابو من الاتفاق بشأنك ، والآن فاصغي إلي فاني أكلمك عن حنة .

ثم وضع يده على قلبه وقال : إني أحبها حباً ليس فوقه حب ، وقد كانت معرضة لخطر يشبه الخطر الذي كنت أنت معرضة له ، ذلك ان بستيان خادم غرفتي قد انتحل اسمي وتقدم اليها باسم الكونت ارمان دي كركاز .

فقالت سريز بانذهال : بستيان الذي كان معنا في بلفيل ؟

– أجل ، هو بعينه وقد توهمتم يومئذ ان الصدفة قد بعثت به اليكم لإنقاذكم من ذينك اللصين اللذين لم يكونا إلا رفيقيه ، والسبب في ذلك أن بستيان هذا قد رأى حنة واقتفى أثرها مراراً وعلق بها فاتفق مع شريكيه عندما رأى حنة ذاهبة معكم إلى بلفيل ، ومثل هذه الرواية المضحكة التي تعلمينها بحيث اضطررت بعد ما شاهدت من شهامته ان تدعوه الى ذلك المشاء ، ثم ذهبتم إلى منزلكم فاغتنم هذه الفرصة لايصال حنة ، التي سرها ما رأته فيه من الشهامة الى منزلها ، وانك لا تعرفين هذا الرجل إلا بالنظر ، أما أنا فقد عرفته بالخبر ، فهو أهل لكل شيء ، فلما رأي ميل حنة اليه انتحـــل اسمي فتسمى بارمان دي كركاز ، وأعطى اسمه لرجل كهل استـــأجر منزلاً باسم بستيان بجوار منزل حنة ، فتعرف هذا الرجل بها وأخبرها انه كان له سابق صداقة مع أبيها ، فلما وثقت به أخذ يخبرها عن ميـل الكونت دي كركاز اليها ويحدثها بشهامته ومكارمه ، ثم زارها ذلك الخائن المتلبس باسمي وأظهر لها ما يؤيد كلام شريكه المنتحل اسمه فأحبته عندما تأكد لها أن حبه شريف وان ما وراءه إلا الاقتران

فاضطربت سريز وقالت باشمئزاز : ذلك محال فان مثل حنة دي بالدر لا يمكن أن تحب خادماً .

– وأنها كانت تحسبه الكونت أرمان ، وهو حسن الظواهر ، فخدعت به وقد أطلعت على هذا السر الغريب اتفاقاً ، لأن خادمي هذا كان يفتخر أمام رجالي بأن حنة دي بالدر تحبه . وإذا كنت أحبها حباً شريفاً طاهراً ، كمن يحب الفتاة التي سيتزوجها ورأيت انها قد تدلهت في حب ذلك الخائن الذي كان يتلبس باسمي فقد أسقيتها مرقداً وجئت بها في الليل إلى هذا القصر بعد أن كتبت لها كتاباً بغير توقيع .

فصرخت سريز بفرح : أهي هنا الآن ؟

– أجل وستزينها ، فهلمي معي اليها .

ثم أخذ بيدها وخرجا من الغرفة سوية ، وفيما هما في طريق الروضة صادف مدام فيبار ، فنظر اليها شذراً وقال لها بقساوة : إن زوجك كان رجلاً صادق الخدمة ، وإني أراك على عكس ذلك فاني عهدت اليك الاعتناء بهذه الفتاة فأوسعتها شتماً وسباباً ، وعاملتها أسوأ معاملة ، لذلك أكتفي بطردك .

وفيما هو يقول ذلك أشار اليها بطرف خفيفهمت مراده ، وانصرفت وهي تتكلف هيئة الكدر .

•

ولما وصلا الى غرفة حنة قال لسريز : إصغي إلي جيداً ، فان حنة لا تزال نائمة ولا تستيقظ إلا عند الساعة العاشرة ، عندما أكون سافرت لأني مضطر الى التغيب ثمانية أيام في قضاء بعض الشؤون المهمة ، وإنك ستقيمين معها إلى أن أعود بحيث تكونين بمأمن من اختك الخائنة ، ومن مطاردة بيرابو اللذين سينالان من العقاب ما يكونان فيه قدوة لسواهما ، وإني سأكتب لها كل يوم وستقفين على رسائلي اليها ، فلا تظهري لها سوى ان الذي يحبها الحب الأكبر هو الكونت أرمان دي كركاز ، وليس ذلك الخائن بستيان ، وإني أرجو ان يكون لرسائلي تأثير عليها ، فتمحو من قلبها حب ذلك السافل .

فنظرت اليه سريز متعجبة وقالت : كيف لا تنسى حبه بعد أن تعلم بدناءته ولا يقتضي لأن تهواك إلا أن تراك .

– إذاً أردعك على أمل اللقاء القريب ، فاني مضطر الى السفر ولا يوافق أن تراني الان .

– قل لي بالله متى أرى ليون ؟

– لا أقدر أن أفيدك بالتدقيق ، ولكن ثقي بي واصبري قليلاً واني اقسم لك انك ستزفين اليه بعد خمسة عشر يوماً .

ثم تركها وقلبها مفعم بالأمل ، وانصرف فلقي كولار بانتظاره فقال له :

لقد تم كل شيء وفق المراد ، فاني لم أسرق امرأة أرمان فقط ، بل قد سرقت اسمه ايضاً ، والان فلننظر في شأن الملايين ، إذ قد شفيت نفسي من الانتقام .

– هذه هي النقطة المهمة .

– وانا من رأيك . والان فانني مسافر الى بريطانيا لأقترن بهرمين ...

وهكذا ، فان اندريا قد انتصر بجميع أعماله : فانه سجن فرناند ، واستولى على حنة وسريز ، ووضع باكارا في مستشفى المجانين . بحيث لم يعد في وسع الكونت أرمان دي كركاز أن يجد الوارث للملايين البارون كرماروت .

- ٢٥ -

قلق ليون

مر يوم على اختطاف سريز ، التي كانت تمر كل مساء بالمعمل الذي يشتغل فيها خطيبها ، وكان ليون ينتظرها في الباب الخارجي في وقت معين وقد انتظرها ذلك اليوم حسب العادة ، فلم تمر به ، فقلق وظن انها مريضة أو أصيبت بسوء . فصبر بملء الجزع إلى ان أقفل المعمل وانطلق مسرعاً الى منزلها فقرع الباب فلم يجبه أحد ، فظن انها ذهبت الى الشارع في بعض الشؤون فلبث منتظراً الى ان تعود وقد طال انتظاره حتى عيل صبره ، فنزل إلى البواب وسأله عن سريز فقال له : إنها ذهبت أمس مساء ولم تعد الى الان .

– كيف ذلك وهل ذهبت وحدها ؟

ـ كلا ، بل قد ذهبت مع فاني ، خادمة با كارا . وأظن ان أمها او أختها أصيبت بمكروه ، بدليل ما رأيت على وجهها عند خروجها ، من ملامح القلق .

فارتاع ليون لذكر با كارا ، إذ كان يخشي دائماً منها ، ولم يكد ينتهي كلام البواب حتى تركه وذهب مهرولاً الى شارع مونسي حيث منزل با كارا ، فوجد الأبواب والنوافذ مقفلة فقرع الباب قرعاً شديداً فلم يجبه أحد . وكان في زاوية الطريق حمال وقد اعتاد خدمة المنزل ، فلما رأى ليون يقرع الباب ذلك القرع الشديد تقدم منه وقال له : لا يوجد أحد في المنزل فإن صاحبته قد سافرت في هذا الصباح .

ـ ذلك مستحيل ألا تعلم أين ذهبت ؟

ـ كلا .

فاختلج فؤاد ليون وتأكد له ان با كارا قد اختطفت سريز ، فترك ذلك المكان وهو يكاد يجن من اليأس . وذهب الى أمه آملاً أنها تفيده شيئاً عن سريز فألفاها لا تعلم شيئاً . فذهب الى صاحب المعمل الذي كان يشتغل فيه وهو يرجو أن ينفعه شيئاً برأي سديد . وكان صاحب هذا المعمل رجلاً عاقلاً محباً لليون ، فسكن جأشه وطيب قلبه وقال ان خطيبته قد ذهبت ولا ريب مع أختها ، ووعده أن يذهب معه غداً إلى دائرة البوليس فيعرضون الشكوى فذهب ليون الى منزله ونام تلك الليلة على أحر من الجمر ، فلم يغمض له جفن . وعندما طلع الصباح ذهب الى منزل سريز فقيل له إنها لم تعد ، فتوجه الى منزل با كارا فوجد الأبواب مقفلة ، فذهب إلى صاحب المعمل وانطلقا سوية الى دائرة البوليس ، فأخبرا الرئيس بما علماه عن اختفاء سريز ، فقال لهما : إن البنات التي تخطف في باريس يكون اختطافهن في الأغلب الأعم عن طوعهن ومع ذلك فسأنظر في هذا الشأن فارجعا إلي بعد يومين

وكان هذان اليومان لدى ليون أشبه بعامين ، فخرج من عند الرئيس وقلبه

مفعم من اليأس ، فارتأى أن يذهب الى منزل حنة عساه أن يعلم منها ما يوقفه على سر اختطافها . فذهب ولما وصل لم ير غير جرتريدة جالسة في المنزل وهي تنوح وتبكي البكاء الأليم ، فعلم منها أن حنة قد اختطفت وانها قد تركت رسالة هذا نصها

« حبيبتي جرتريدة

« إنك ستستيقظين فلا تجديني لأني قد سافرت إلى مكان لا أستطيع أن أخبرك عنه ولأجل ذلك لا أقدر أن أسميه أما السبب في هذا السفر الفجائي فهو أني أريد الهرب من الكونت أرمان دي كركاز الذي لا أحبه لألحق بالرجل الذي هامت به روحي والذي لا أقدر أيضاً أن أسميه ، فاطمئني أيتها الحبيبة وربما نلتقي بعد حين . »

فقص عليها ليون خبر اختطاف سريز ، وفيما هما يتحادثان سمعا وقع أقدام على السلم فأطلت جرتريدة بحيث رأت القادم هذا الكونت ارمان دي كركاز ، فنظره ليون وقال بمنتهى العجب هذا الذي رأيناه في بلفيل وأنقذنا من اللصوص

وكان القادم الكونت ارمان بعينه يصحبه بستيان ، فإنه بعدما سمع من أندريا ذلك التحذير على أثر المبارزة اشتد قلقه على حنة ولم يهدأ له بال . فأسرع مع بستيان الى زيارتها وهو يقول : إن قلبي يحدثني بمصاب جلل .

وعندما وصل الى ذلك المنزل وجد جرتريدة تشهق وتنتحب فعلم بوقوع المصاب وأعطاه ليون رسالة حنة فلم يتم قراءتها حتى سقط على المقعد واهي القوى وهو يقول إن ذلك صنع اندريا . وهو الذي رأيناه .

- ٢٦ -

رسالة بيرابو

ولنعد الآن الى بيرابو وهرمين اللذين تركناهما على ما عهده القراء فيهما من التأثر من الكتاب الذي كتبته باكارا الى فرناند .

وقد أفضى اليأس بهرمين الى أن قالت لأمها على أثر هذه الحادثة

– أماه إني أحب أن أدخل الدير ولا أريد الزواج .

– إنك تدخلين الى الدير وتاركينني وحدي ؟

وكان صوت تريزا يتهدج من الحنان بما أثر تأثيراً شديداً بهرمين فقالت : كلا يا أماه ، بل أبقى بقربك ما دمت حية ، وما دفعني الى هذا القول غير اشتداد الأحزان .

ثم أكبت على عنق أمها تعانقها وتبكي البكاء الشديد

طال هذا البكاء زمناً طويلاً الى ان سكن جـاش هرمين فقالت لأمها : إني لا أستطيع ان أمكث ساعة في باريس . فهل لك ان نذهب لزيارة عمتي مدام كرمارك .

فقبلت أمها هذا الاقتراح بفرح لا يوصف لأنها كانت ترجو ان يخفف السفر أحزانها فأجابتها بالقبول .

وعند منتصف الليل عاد بيرابو الى المنزل ، فأخبرته امرأته باقتراح هرمين بوجوب السفر الذي يمهد للمشتاق سبل السلوان فصادق هو أيضاً على هـذا الطلب ليس حباً بشفاء هرمين بل لرغبته ان يكون حراً في غيابها عن باريس فيمرح كما يشاء . وهكذا فإنهما عند الصباح سافرتا الى بريطانيا ولما وصلتا اليها قابلتهما مدام كرمارك بمزيد التودد والاحتفاء

وكانت مدام كرمارك امرأة عجوزاً عائشة معزوجها في قصر واسع تكتنفه

الأشجار وتحيط به الغابات والحقول وكان مولعاً بالصيد بحيث كانت تقضي جميع ساعات نهارها بمنزلة فلا ترى أمامها غير الخدم لذلك أنست بلقائها وتعزت برؤياهما مما كانت تلقاه من ضجر الوحدة والانفراد .

وبعد يومين من ذلك استأذن بيرابو من الوزارة لاحقاً بهما ، حسبما كان الاتفاق بينه وبين اندريا . وكانت جودة الهواء وما كانت تلقاه هرمين في تلك البرية من جمال الطبيعة قد لطف أحزانها ، فلم تسكب دمعة بل كانت تبتسم بعض الأحيان إذا سمعت نكتة مضحكة ، وربما كان ذلك منهـــا من قبيل التصنع إرضاء لأمها التي كانت تذوب لهفاً على مـــا أصابها والتي كانت تخشى عليها في كل حين أن يفعل الحزن في جسمها النحيف مـــا تفعل ريح الشتاء بأوراق الشجر . .

ولم تكن هي ولا أمها تنتظران بيرابو ، فاندهشتا جداً لرؤياه . أما هو فإنه عانقهما عنـــد وصوله بغاية الحنـــان ، وأظهر لهما من التـــودد ما لم تكونا تعهدانـــه فيه ,وفي يوم وصوله أخذ بيد امرأته بعـــد ان قاما عن المائدة ، وخلا بها فقال :

— إصغي إلي فإني لا أجهل انك تسيئين بي الظنون ، وليس لك بي ثقـــة المرأة بزوجها . ولكني أتيت لأباحثك في شأن هرمين التي أحبها كما تحبينهـــا أنت . . إني كنت أعلم من قبل فساد أخلاق فرناند الذي رمانا بهذه النكبة ولذلك كنت أرفض مصاهرته ، ولم أقبل به زوجاً لهرمين إلا لما رأيته من رغبتك ، وحذراً من ان أسوءك بهذا الرفض فإن هذا الرجـــل التعس لم يرتكب فقط مـــا تعلمينه من خيانة لهرمين ، بل انه قد ارتكب ذنباً من أعظم الذنوب . أتعلمين ما كان مراده من زواج هرمين ؟ إنه لم يتزوج بها إلا لينفق مهرها على خليلته التي أوصلت به الى هذا الشقاء .

وكانت والدة هرمين لا تزال تحب فرناند فقالت لزوجها بالله كفى ولا تحكم على هذا الشاب بمثل هذه القسوة .

– إنك لا تعرفين شيئاً بعد

فقالت وهي تضطرب وما عسى ان يكون قد طرأ أيضاً ؟

– إن فرناند في السجن .

ثم قص عليها جميع ما حصل لفرناند من اتهامه بالسرقة ومن القبض عليه في منزل باكارا ووجود الدراهم المسروقة عندها ولما انتهى من هذه الحكاية قال :

– وستنشره الصحف بعد صدور الحكم ، ولأجل هذا قد حضرت اليوم كي أطلعك على هذا النبأ فإني أخشى ان تقف هرمين على جرم خطيبها باحدى الصحف فتصاب بما لا ينجع فيه دواء . والآن لم يبق علينا سوى ان نطرد هذه الأفكار من مخيلة هرمين ، فإن المسمار يدفع المسمار والحب الجديد يدفع الحب القديم

فقالت تريزا والدموع تنهل من عينيها لما سمعته عن فرناند : ماذا تعني بالذي قلته ؟

– أتذكرين حفلة الرقص الأخيرة التي حضرناها في وزارة الخارجية ؟

– نعم وماذا تريد بهذا السؤال ؟

– أتذكرين ايضاً الشاب الانكليزي الذي عرفك به سفير انكلترا والذي رقص مع هرمين ؟

– نعم اني أذكره وانه يدعى السير فيليام .

– نعم هو ذاك . فاعلمي الآن ان هذا الشاب شريف الحسب حسن الأدب وافر الثروة وقد علق بحب هرمين حين رآها في تلك الحفلة . وقد زارني مرتين بعد السفر كا . .

فقاطعته تريزا وقالت : إن هرمين متى أحبت رجلاً فلا تحب سواه .

– ولكنها متى علمت ان ذلك الذي تحبه قد خدعها وخانها بدناءة ثم متى علمت انه لص فلا يبقى في قلبها أثر من حبه . فاذا رأت شاباً شريفاً جميلاً ، قد اجتمعت جميع الصفات الحسنة فيه يحبها ، فلا يبعد أن

تبادله هذا .

- إنك قلت ان هذا الشاب يحب هرمين .

– إنه يحبها كثيراً

– كيف يمكن أن يحبها وهو لم يجتمع بها إلا مرة واحدة .

– إن روميو أحب جولييت وهو لم ينظرها إلا نظرة واحدة .

-- شهد الله اني إذا لقيت رجلاً يقدر ان يرد الى ابنتي قلبها المسلوب أنطرح على قدميه وأقول له « رحماك أنقذ ابنتي مما هي فيه » .

– وإن ذلك الرجل هو السير فيليام .

– إذن يجب أن نعود إلى باريس .

– لا حاجة الى ذلك ، بل هو يأتي الى هنا . وإنني سأكون من أسعد البشر إذا يسر الله هذا الزواج ، فان الرجل عريق النسب وثروته تقدر بالملايين ولا أقرب من ان تحبه هرمين متى حصلت بينهما العشرة لما هو عليه من الذكاء وطيب الحديث ووفرة الآداب وما شاكل من كل ما تتوق اليه نفوس الأديبات .

وما زال بها حتى أقنعها واتفقا على اتخاذ الوسائل اللازمة لتحببه إلى هرمين ثم افترقا فدخل بيرابو إلى مخدعه وكتب الى أندريا ما يأتي :

« أيها الصهر العزيز

« لم أزل بامرأتي حتى أقنعتها وأصبحت آلة بيدنا نديرها كيف نشاء ولم يبق عليك سوى أن تسرع بالحضور وان تكتب لي قبل سفرك » .

وقد وصلت هذه الرسالة الى اندريا بعد خروجه من عند سرين فخلا بكولار وقال له : إنني مسافر الآن لأهتم بالملايين وسأدعك أمام عدو هائل يجب ان تخافه

– العلك تريد به أرمان دي كركاز .

– هو ذاك .

– طب نفساً فسأراقبه .

– إن فرناند بالسجن ولا يمكن ان يخرج منه فيجب ان نحرص الحرص الشديد على سريز وحنة .

– لا تخشى من هذا القبيل .

– بقي علينا عدو أشد هولاً من الجميع وهو ليون رولاند .

– أتريد أن يموت ؟

– هذا ما أرتئيه أيستطيع نيقولا أن يقتله ؟

– لا ريب فيه ولكن كيف يقتله وفي أي مكان ؟

– إنك لا تزال أبله ضعيف الرأي ، أيصعب عليك ان تدعه يذهب خارج باريس باحدى الطرق ؟

– لقد خطر لي فكر وهو ان ليون يعتقد اني صديق له وسأذهب به في الليل الى بوجيفال بدعوى اني علمت ان سريز مختبئة هناك ويكون نيقولا مترقباً حضورنا فنقضي عليه .

– هذا فكر حسن ، ولكن لا تفعل شيئاً قبل أن أكتب لك .

ثم ألقى اليه بعض أوامره وودعه وسافر الى بريطانيا .

– ٢٧

جموح المركبة

وكانت قد استحكمت العلائق بين مدام كرمارك وضيوفها ، فبينا كانوا يوماً جلوساً على المائدة وذلك بعد وصول بيرابو بيومين دخل مأمور البريد وقدم الى بيرابو رسالة ففضها وقرأ ما يأتي :

« سأسافر بعد ساعة حيث انتظرك في سنت مالو التي تبعد خمس عشرة مرحلة عن القرية التي أنتم فيها ، فأسرع إلي عندما تقف على هذه الرسالة لأني بانتظارك »

فنهض بيرابو وقال : لقد جاءني رسول من قبل الوزارة وهو ينتظرني في سانت مالو فيجب علي ان أسرع في المسير اليه .

ثم انحنى على كتف امرأته وقال لها سراً : إني ذاهب لألاقي السير فيليام ، وسأعود عند الغروب فاذهبي مع هرمين لملاقاتي .

فأمرت مدام كرمارك ان تهيىء له المركبة ، فركب فيها وسار ينهب الأرض نهباً حتى وصل الى سنت مالو وكان اندريا قد سبقه اليها منذ ربع ساعة فاجتمعا وقال له اندريا : كيف مسير أعمالنا ؟

— على أتم النجاح فإن امرأتي أصبحت تميل اليك أشد الميل ؟

— حسناً فكيف عزمت على أن تعرفني باهل المنزل الذي أنت فيه ؟

— إن البارون دي مادي هو صديقك وهو ابن أخت مدام كرمارك ، ومنزله بجوار منزلها ، وستدخل القرية عندما يجن الظلام فتسأله الضيافة ، وعلي تتميم الأمر . أما الآن فان طريقنا الى المنزل وعرة المسالك .

— أعرف ذلك .

وبالحقيقة فان أندريا يعرف تلك الطرق أتم المعرفة لأنه كان يسكن على عهد أبيه فيليبون في قصر كارلوفان ، كما يعلمه القراء وهذا القصر واقع في البراري نفسها .

— عجباً ! كيف تعرف هذه الطرق ؟

— إني أعرفها أكثر منك .

— إذن تذهب الى مغارة الذهب وتجلس على تلك القمة العالية المشرفة على الأوقيانوس حتى إذا مرت إمرأتي وابنتها تجدانك جالساً في ذلك الخلاء مستغرقاً في تأملاتك الحزنة .

— حسناً . ولكن لدي طريقة تفضل ، ذلك اني أنقذك على مرآها من خطر عظيم .

— تنقذني أنا ؟

— نعم ، فاصغي إلي

ثم اتفق وإياه على ما سيقف عليه القراء في حينه .

وافترقا فذهب بيرابو على مركبته لملاقاة امرأته وابنته وذهب اندريا على جواده من طريق آخر الى القمة الكائنة أمام مغارة الذهب .

ولم يكن أشد خطراً من تلك الطريق التي سار فيها بيرابو على المركبة ، فانها كانت ضيقة لا يزيد عرضها على ثلاثة أمتار وهي شديدة الارتفاع يحيط بها من الجهة اليمنى وديان عميقة كثيرة الصخور ومن الجهـــة اليسرى البحر الأوقيانوس وهي كثيرة الشعاب بحيث ان أشد الخطر فيها كان على المركبات التي إذا جمحت بها الجياد تسقط بها إما الى ما وراء البحر وإما الى الوديان ومع ذلك ، فقد كان المنتزه العام لأهالي تلك القرى ، لكثرة ما يكتنفها من جمال الطبيعـة ، ولا سيا في شهر نيســان ، التي تساق هذه الحادثة في غضونه .

وبينا كانت هرمين وأمها سائرين الهوينا في تلك الطريق لملاقاة بيرابو إذ رأتا جواداً كريماً يرعى الكلأ ، فدنتا منه فأبصرتا عليه سرجاً مزركشاً بالخيوط الذهبية على غاية من الدقة في الصناعة ، مما يدل على ان صاحبه من أولي اليسار . ثم حومتا بنظرهما لتبحثا عن صاحب هذا الجواد ، فرأتا على على قمة عالية رجلاً فاخر اللباس جالساً على صخر مرتفع وهو واضع رأسه بين يديه ينظر الى الأرض نظراً ساهياً وهو غارق في بحار تصوراته ، فاختلج فؤاد الأم وقالت في نفسها . لا ريب بأن هذا الفارس هو السير فيليام .

أما هرمين فإنها أنكرت وجود هذا الشاب على مثل هذه الحالة من العزلة التي تدل على منتهى الكآبة فقالت لأمها : ترى ما شأن هذا الرجل وما علة

انفراده في مثل هذا المكان

— ربما كان مصوراً يمثل جمال هذه المناظر فيرتزق منها .

— ذلك محال فان مصوراً يرتزق من عمل يديه لا يكون له مثل هذا الجواد وفوق ذلك اني لا أرى أمامه معدات التصوير

— إذاً فهو سائح وقد استوقفته هذه المناظر البهجة .

لا هذا ولا ذاك يا أماه، بل هو رجل منكود وقد التجأ إلى هذه البراري لترويح النفس وللتأمل بعظمة الله .

فارتعشت أمها في البدء ثم اختلج فؤادها بعاطفة سرور وأمل لأنها رأت ان هرمين قد نسيت مصابها فاشتغلت عنه بمصاب الغير وقالت في نفسها : إذ كان هذا هو السير فيليام فان مقابلة واحدة تكون كافية في مثل هذا المكان ولا شيء يؤلف بين القلوب مثل الأحزان .

وقد عزمت أن تجعله أمام ابنتها مثالاً للفضيلة كي يروق بعينيها

وكانت الشمس قد ابتدأت تصفر مؤذنة بالمغيب وهي تلقي باشعتها الباردة على ذلك العباب فترقص أشعتها الذهبية على أمواجه الزاخرة وتدبج الحقول الخضراء بأبهج الألوان . فنهض ذلك الشاب واتشح برداء طويل ثم ذهب الى جواده فامتطاه وسار به الى جهة سان مالو . ولم تستطع هرمين ان تتبين وجهه ، ولكنها قدرت أن تعلم انه في شرخ الشباب ، وظهر لها من مشيته وسيمائه انه منقبض الصدر شديد الحزن . وما زالت تشيعه بالنظر الى ان غاب في أعماق الوادي .

وكانت قد اتفقت مع أمها لملاقاة بيرابو فأوجست خيفة لطول غيابه الى أن رأت عن بعد نقطة سوداء كانت تدنو منها وتتسع حتى تمثلت بهيئة مركبة فعلمت انها مركبة أبيها .. ثم سمعتا صوت استغـــاثة من تلك المركبة عقبه صوت بارود ارتج له الوادي . فنظرتا فاذا بالمركبة قد وقفت فأيقنتــا انها في خطر ، وكانتا واثقتين من انها تحمل بيرابو فجعلتا تركضان الى ان بلغتا اليها

فإذا بالجواد قد سقط ميتاً وبيرابو خارج المركبة يصافح السير فيليام ويشكره الشكر الجزيل . ولما رآهما تقدم منهما وقال : اني مديون لهذا النبيل بالحياة فإن جواد المركبة قد جمح ولو لم يطلق عليه الرصاص لكانت سقطت المركبة بي الى الوادي . .

وبينما كان بيرابو يقص على تريزا وهرمين مـا كان من الجواد كان اندريا مطرقاً بنظره إلى الأرض ، الى ان انتهى من حديثه فرفع عينيـــه ونظر إلى هرمين وصاح صيحة كآبة واندهال ثم انحنى عليها مسلماً ووثب مسرعـاً إلى جواده فسار به يقطع الأرض نهباً .

فأخذوا ينظرون إلى بعضهم وكلهم يقول: من هذا الرجل الغريب الاطوار؟

ثم قال بيرابو : يخال لي أني نظرت هذا الشاب قبل الآن .

قالت تريز : وأنا كذلك ولكني لا أذكر أين .

قالت هرمين : وانا أيضاً نظرته قبل ذلك وقد عرفته فهو السير فيليـام الذي عرفنا به سفير انكلترا في حفلة الرقص التي أحيتها الوزارة الخـارجية واذكر اني رقصت معه أيضاً .

فقال بيرابو : إذن ما الذي دعاه إلى هذا السلوك الغريب ولمـاذا غادرنا بهذه السرعة ؟

فقالت هرمين وقد أثر عليها ما رأت عليه من الكآبة : انه عندمـا نظر الينا تنهد تنهداً طويلاً عميقاً ثم صاح صيحة أسف وقد كان قبل جـالساً على هذا الصخر ، ساهي الطرف مشتت البال لا يعبأ بجمال هذه الـــبراري ولا يكترث بتلك الأمواج التي قد ذهبتها أشعة الشمس مما يدل على انه بلغ أقصى درجات الكآبة .

فقال بيرابو : ذاك يدل على انه عاشق منكود .

فتنهدت هرمين وقالت : مسكين هذا الشاب .

وحول بيرابو الحديث إلى غيره وقال : ان الجواد قد قتل فكيف نرجع

الى المنزل

— اننا نذهب على الأقدام فإني أعرف طريقاً قريبة .

ثم تأبطت ذراع أمها ومشت معها مشياً سريعاً كأنها تريد ان تدرك الشاب الذي حمل فؤادها على الشفقة عليه ، ولاسيما بعدما رأته نظر اليها فاصفر وجهه وتنهد ، وكانت تبحر بنظرها في جميع الجهات آملة أن ترى ذلك المنكود الذي ماثلها في اليأس ورأت انه يكابد من الأشجان نفس ما تكابد .

أما أندريا فإنه ما زال يسير الى أن وصل إلى منزل كرمارك وقد كان قد جن الظلام فأوقف جواده أمام الباب وقال لأحد الخدم : قل لسيد هذا المنزل ان غريباً تائهاً يسأله الضيافة

فهرول الخادم مسرعاً إلى مدام كرمارك ووصف لها هيئة أندريا وملابسه ثم قال لها : انه تائه يسأل الضيافة .

— أسرع بادخاله فإن هذا المنزل معد للضيوف منذ تشيد .

فذهب وعاد به وانحنى أمامها مسلماً وقال أسألك يا سيدتي الصفح والمعذرة فإني تهت في هذه البرية وقد أظلم الليل فلم أعلم أين أنا .

فأشارت اليه بالجلوس وقالت · إن قصري معد منذ أعوام لقبول الغرباء والتائهين ولكل من يلتجىء اليه

فقبل يدها باحترام ثم عاد فقال انني ذاهب يا سيدتي إلى قرية مانوار لزيارة صديق يدعى البارون دي مادي وقد ضللت الطريق

فظهرت على وجهها علائم البشاشة وقالت أنت صديق البارون دي مادي انه ابن اختي وأنت الآن في منزلك.

— لم أكن أعلم ذلك من قبل وإنني اشكرك في كل حال وأرجو ان تسمحي ان أتسمى لديك ، فإني ايرلندي الأصل وأدعى السير فيليام .

فانحنت بدورها .

فقال أندريا بلهجة محزنة : انني أضرب الأرض وأطوف الليل والنهـــار جائلاً دون غاية ومن غير قصد

— عجباً كيف تجول من غير قصد ؟

- واأسفاه نعم يا سيدتي إنني اخترق الهضاب والبطاح وأجوب الفلوات ، وأجول في البلاد كقانط لا يقبل العزاء ، أو كمجرم يفر من القضاة ومـــا أنا مجرم ، بل أنا قانط لأني محب غير محبوب ولا يمكن أن أحب . وقد كنت منذ ساعتين تائهاً في هذه البراري ليس لي وجهة غير منزل صديقي البارون وأنا أظنني بعيداً عمن أحبته نفسي وهامت بها روحي ولكني عدت فوجدت تلك الضالة المنشودة فلم تكن رؤياها إلا ليهيج مكامن أشجاني .

— كيفَ رأيت التي تحبها في هذه القرية ؟

— نعم وعندما رأيتها هربت منها فلكزت بطن الجواد وأنا لا أعـلم أين أسير ولا أصغي لصوت قلبي المنكود فسار بي الجواد يسابق الرياح الى أن جن الظلام ، وسلك سواء السبيل ثم وقف ذلك الجواد الكريم أمـــام هذا المنزل الكريم فدلني بأنه أعقل مني وأنا لا اعلم إذا كنت بعيـــداً عن قرية صديقي البارون ، أو قريباً منها فالتجأت إلى هذا المنزل الى أن أهتــدي الى وجهتي ، وأنا اسألك صفحاً والتمس منك عفواً .

— كفى يا سيدي تعتذر فانني أشكر العناية التي اضلتك الطريق وارسلت الي هذا الضيف النبيل

فانحنى اندريا وقبل يدها ثانية باحترام ثم دار بينهما الحديث الآتي :

قالت : ألا تبالغ في حديث غرامك ؟

— كلا يا سيدتي فإن حبي لا اصفه إذ لست انصفـه ، ولا اعـده إذ لست احده ، وليس هو حب بل هو جنون بل هو داء قاتل لا يعمل فيه دواء ولا تنفذ فيه حيل الأطباء .

— ولكن الا يمكن لتلك المرأة ان تحبك ؟

.. ليس لي ذرة من الأمل ..

– إذن هي من غير قلب .

– إنها من اشد الناس شعوراً واعظمهن تأثيراً وقد اجتمعت بها كل الصفات التي تجعل المرأة تعبد عبادة لا تحب حباً .

فتبسمت تبسماً خفيفاً ثم قالت : أهي متزوجة ؟

– كلا فهي عذراء .

– إذاً انت متزوج

– كلا يا سيدتي فاني لا أزال عازباً ولي من العمر ثمانية وعشرون عاماً ومن المال ما يقدر بالملايين .

– وما يمنعك عن الاقتران بها ؟

فأجابها بصوت نفذ إلى اعماق قلبها : انها تحب سواي .

– ان حديثك بمنتهى الغرابة فإني منذ اربعين عاماً في هذه القرية وليس بها الان من العذارى غير فتاتين إحداهما السيدة ب . والثانية السيدة ر .. ولا بد ان تكون احداهما التي صادفتها بهذه الضواحي .

– كلا يا سيدتي فإني لا أعرف هاتين الصبيتين .

– اذاً .. اين لقيتها وهل كانت في مركبة ام كانت تسير على قدميها ؟

– كانت تمشي ..

– أكانت وحدها ؟

– كلا بل كانت مع امها تسيران في طريق سانت مالو .

– الهي ماذا اسمع اليست تدعى بهرمين ؟

فوضع يده على قلبه وتنهد طويلاً ثم قال : أواه نعم هي بعينها .

انها نسيبة لي وهي ابنة بيرابو رئيس قلم في الوزارة الخارجية .

فتنهد ثانية وقال نعم .

اني اعجب يا سيدي كيف ان مثل هرمين تبلغ من فساد الذوق الى ان

لا تحب مثلك وترغب عنك بسواك .

- إنها تحب شاباً لا يستحق حبها فهو غير اهل لها .

- كيف ذلك ومن هو هذا الشاب ؟ انني اريد ان ادقق البحث في هذا الشأن وهي آتية فسترى .

فصاح اندريا صيحة اندهاش وقال : اهي آتية الى هنا ؟

- لا ريب في ذلك فإننا ننتظرها للعشاء .

فنهض مسرعاً وقال : استودعك الله يا سيدتي فاني لا اطيق النظر اليها وليس بوسعي ان اقف امامها .

ثم خرج مسرعاً بغير ان يدع لها مجالاً لمنعه .

وبعد ان مثل هذه الرواية المضحكة وسار الى منزل صديقه البارون دي مادي ووصل بيرابو وهرمين وامها الى المنزل فوجدا مدام كرمارك على غيرما عهدوها من البشاشة فسألوها عما أصابها فقالت . انني أعجب لأطوار الانكليز فإنهم كثيرو الشواذ في معاملاتهم .

فأجابها بيرابو : عن اي انكليزي تعنين ؟

ألم تصادفوه في مسيركم ؟

- من ذاك ؟

- السير فيليام .

فقال بمزيد الاندهاش : كيف رأيته وانا أبحث عنه في كل مكان لأنني مديون له بحياتي ؟

- كيف ذلك !

فقص بيرابو حديث المركبة وجموح الجواد .

قالت : كل ذلك يدل على انه من نبلاء القوم وقد جاء الى هنا منذ حين بحجة انه تائه عن الطريق ثم ذهب لأنه لم .. وكادت تظهر السبب في رحيله ثم رأت ان ذلك لا يوافق قصة أمام هرمين فأرادت إبعادها بحيلة فقالت لها :

ارجوك ان تذهبي الى المطبخ وتحثي الطاهي على تهيء الطعام فذهبت هرمين ولما خلا بهم المكان قالت مدام كرمارك : اتعلمـــان ان السير فيليام عاشق مفتون . فأشار بيرابو برأسه اشارة إيجاب قالت . اتعلم ذلك ؟

ـ نعم انه قد توله بحب هرمين وقد خطبها من شهر .

ـ ارفضت طلبه ؟

ـ لم ارفضه الا لأن هرمين كانت مخطوبة وهي على اهبة الزواج .

ثم قص عليها حديث فرناند روشي وكيف ارتكب ذلك الاثم الذي زج بسببه في السجن وهتك حرمته بما دعى إلى حل هذا العقد بينهما .

فارتاعت مدام كرمارك وقالت : عجباً كيف ان هرمين تحب مثل هذا السافل ؟

فأجابتها تريزا : انها تحبه حباً ليس فوقه حب .

-- يجب نزع هذا الحب من قلبها فهو يشينها ويجب ان تحب السير فيليام من غير بد فهو من نبلاء القوم ، شريف الحسب وافر الأدب واسع الثروة حسن السمعة ولا اجد لها عذراً في رفض حبه فيجب ان نتفق جميعاً على اقناعها إذا لازمت الاصرار على هذا الغي وسأشرع بتمهيد هذا السبيل منذ الآن إذ ينبغي قبل كل شيء ان يحصل التعارف بينهما ثم دعت بخادمها وقـــالت له . اعطني ادوات الكتابة فأتاها بها فكتبت إلى البارون ما يأتي :

« يا ابن اختي العزيز ..

« انه قد زارني منذ خمسة ايام نسيبي بيرابو مع امرأته وابنته التي لها ولع بالصيد وشغف بركوب الخيل وانا اعلم ان عندك السير فيليام فإذا رأيت ان تحضره معك في الغد فنذهب سوية الى الصيد واكون لك من الشاكرين »

وأعطت الكتاب الى خادمها وقـــالت له : سر الى ابن اختي وارجع الي حالاً بالجواب .

* * *

بينما كان السير فيليام مجداً في الاستيلاء على قلب هرمين كان ارمان يبحث مع ليون وبسكيان عن حنة وسريز وقد فرق رجاله الخفيين في جميع أنحــاء باريس فلم يقفو لهما على أثر .. وكان ارمان شديد الحزن لبعد حنة ، وكان يبكي لفراقها البكاء المر . وفي اليوم الرابع من اختطافها كان جالساً في منزله وهو مشتت البال ضائع الرشد ، فدخل عليه ليون رولانــد الذي أصابه من فقد سريز نفس ما اصاب أرمان وقال له يظهر يا سيدي الكونت أن الشقاء قد أحاط بجميع معارفي وأن لي صديقاً طاهر الأخلاق أحبه كأخ وقد رزيء بمصاب .

– من هو هذا الصديق وما أصابه ؟

فأعطاه ليون رسالة مفتوحة وقال له : إقرأ يا سيدي الكونت

فقرأ أرمان ما يأتي :

« صديقي العزيز ليون

« انك الرجل الوحيد الذي أقدر أن اكتب اليه واسأله مساعدة وعزاء ، فإني كنت يوم آخر عهدي بلقاك من أسعد البشر لقرب اقتراني بمن أحب وكنت محترماً في عيون الناس ، أما اليوم أيها الصديق فاني مطرود من خدمتي متهم بالاختلاس منطرح في أعماق السجن ولا أعلم أين يقذفون بي بعد الحكم علي . فتعال أيها الصديق لأراك المرة الأخيرة فإن الشقاء سيقتلني وأظنني أموت قبل صدور الحكم ، محبك .

فرناند روشي »

فلما أتم أرمان قراءة الرسالة سأل ليون عن فرناند فقال له : انه مستخدم في الوزارة الخارجية وانه في السجن منذ أربعة أيام

بأي ذنب قد سجن

– لا أعلم ولكني اقسم أن فرناند لا يمكن أن يجترم ذنباً يعاقب عليــه بالسجن والطرد .

– أين منزله ؟

. هو ذلك المنزل المقابل لمنزل سريز .

– أكان له معرفة بحنة ؟

. ربما فإنه كان يراها كثيراً مع سريز .

– إن كان ذلك فهو من الغرابة بمكان فإن أربعة أشخاص متعارفون قد احتجبوا تقريباً في وقت واحد مما يدل على ان يداً واحدة قد وضعت هذه الحوادث . ولكن لماذا ولأية غاية ومن هو الفاعل ، إن ذلك من الأسرار المغلقة التي يصعب حل رموزها فلنذهب إلى فرناند عسى ان نقف منه على شيء

ثم ذهب الاثنان إلى السجن واستأذنا بزيارة فرناند فأذن لهما ، فلما شاهده أرمان حن اليه قلبه وهاجت به عواطف الشفقة لما رأى على ملامحه من اليأس والانفعال فقال له انك لم ترني قبل ذلك ولا تعرفني ولكن سأهتم بشأنك وآخذ بناصرك لأسباب لا يمكن التصريح بها الآن ، ولأني أعتقد ببراءتك ، غير اني احب أن أعرف بالتدقيق بما يتهمونك وكيف انت هنا .

فقال فرناند انهم يتهمونني باختلاس ثلاثين الف فرنك من صندوق الوزارة الذي كانت مفاتيحه معي . ثم قص عليه حكايته من حين ائتمنه بسيرابو على المفاتيح ، وكيف أعطاه كولار الرسالة من هرمين إلى ان قبض عليه بمنزل باكارا

ولما انتهى من حكايته نظر ارمان إلى ليون وقال لم يبق لدي ريب بأن اتهام هذا الشاب بالاختلاس واختطاف حنة وسريز صنع يد واحدة وقد صار يجب أن أرى باكارا .

فقال ليون واأسفاه هي ايضاً قد احتجبت ولا يعلم أحد بمكانها .

فقال فرناند وأن الأغرب من ذلك وجود المحفظة في جيب سترتي التي كانت معلقة في منزل باكارا وأنا لم أمسها على الاطلاق .

فقال ارمان ثق أيها الشاب ان الحقيقة ستتضح عن قريب وانه يهمني

حل هذا اللغز أكثر ما يهمك فاخبرني الآن عن خطيبتك هرمين أهي جميلة ؟
فأجابه فرناند ببساطة : لا أعلم ولكنني أحبها

ـ هل هي غنية ؟
ـ كلا ، وفوق ذلك فإن بيرابو لم يسمح بقراني بها إلا على شرط أن تجرد من مهرها الذي يصل اليها من امها وأن بيرابو ليس بأبيها .
ـ هل تزوجت امها مرتين ؟
ـ كلا .. ولكنها قد ارتكبت هفوة في صباها وان والد هرمين غير معروف .

فتذكر أرمان تلك الرسالة التي أتته من قبل وكان بهـــا ان امرأة تدعى تريزا قد ارتكبت هفوة في مارلوت فولدت بنتاً ثم تزوجت برجل مستخدم في الوزارة في باريس فقال في نفسه : الا يمكن ان يكون هي تلـك المرأة التي بحثت عنها منذ حين ، وقد علم من فرناند أن والدة هرمـــين تدعى تريزا ، فتأكد لديه أنها ابنة البارون كرماروت صاحب الملايين المؤتمن عليها ، وقال في نفسه ان هذه الحادثة ستكشف لي جميع هذه الأسرار

ثم ودع فرناند وقد وعده بأن يزوره في اليوم الثاني ولم يـذكر شيئاً من أمر ذلك الأرث الخفي الذي ستحصل عليه هرمين ، وذهب مع ليون إلى منزله فأخذ ذلك النوط الذي أعطاه إياه البارون كرماروت وهو على فراش الموت ليكون كعلامة يعرف بها صاحبة الارث على مـــا تقدم في موضعه من سياق هذا الحديث كما يذكر القراء .

وقد عزم على أن يذهب إلى منزل بيرابو فيتحقق الأمر ، ثم عـدل عن ذلك بغية التأني وقال لليون : لا ريب عندي ببراءة فرناند وان الرجل الذي رماه بهذه التهمة يريد أن يتزوج بهرمين ، ولكن إذا صح ذلك ألم يقدر ذلك الرجل أن يفسخ بينهما عقد الخطبة بغير هذه الواسطة ، وبعد فكيف أن فرناند بعد ان اغمي عليه في الطريق وجـــد في منزل باكارا التي هي اخت

سريز ، وكيف أن باكارا وسريز وحنة قد احتجبن تقريباً في يوم واحـد ، أن ذلك يدل على أن فاعل هذه الفعلة لم يدفعه اليها الغرام وحده ، بل له بذلك مآرب أخرى ، وربما كانت مآربه عظيمة ، فإذا صح أن مدام بسيرابو هي التي أبحث عنها من زمن طويل فستكون ثروة ابنتها ١٢ مليوناً قـد ائتمنني عليها البارون كرماروت ، ولا أحد غيري يعلم هذا السر ، أيمكن لذاك الذي القى التهمة على فرناند بقصد إبعاده عن هرمين أن يكون عارفاً بهذا السر ، وكيف يتاح له معرفة ذلك ، وهب انه عرف بذلك الارث الحقي ، وان هرمين هي الوارثة فما السبب في اختطاف سريز واختها وحنة .

فقال ليون : أظن أن باكارا هي التي فعلت كل ذلك فإنها مشغوفة بفرناند

ـ ذلك لا يمكن أن يكون فإنها إذا كانت تحبه فهي لا تريد له ضرراً، وما أظنها إلا آلة قد أدارتها يد قوية ، ولا أحد سوى باكارا يقدر أن يفيدنا عن ذلك الجرم ، فيجب أن أراها من غير بد مهما تجشمت من المشاق .

ثم أشرق ملياً فطرأت على باله حنة وتذكر ابتسام السير فيليام السخري فطار فؤاده شعاعاً وقال ، كل ذلك من صنع أندريا .

وللحال دعى بستيان وقال له : ألا تزال واثقاً ان السير فيليام هو غـير أندريا ؟

ـ لا ريب عندي في ذلك فقد امتحنته بغاية التدقيق .

ـ ولكن قلبي يحدثني بأنه هو بعينه ، لا بأس من أن تنظره مرة ثانية ، فإنك مديون له بزيارة فاذهب الآن اليه على الفور واجمـل حديثك معه على غاية التودد واجتهد أن تدعه يكثر من الحديث فقد رابتني لهجته التي يستكشف منها المدقق أنها فرنسية محضة

فذهب بستيان ثم عاد بعد قليل وقال أنه غادر باريس وقد قـال لي خادمه انه ذهب إلى إيرلندا وسيعود اليها بعد خمسة عشر يوماً .

فارتاع أرمان وخشي أن يكون هذا الذي اختطف حنة وسار بها إلى تلك

البلاد .

وكان قد أرسل ليون إلى منزل بيرابو فعاد أيضاً مسرعاً وقال : ان مدام بيرابو قد سافرت مع ابنتها الى بريطانيا من يوم قبض على فرناند .

فضرب على جبهته بيده وقال اقسم أن كل ذلك من صنع اندريا ..

وفيما هو يتمايل إذ دخل خادم غرفته وقال له . يا مولاي ان امرأة على الباب تقول انك تعرفها وهي تطلب ان تراك

– لتدخل

فلما دخلت ورآها صاح صيحة انذهال وقال : هذه باكارا .

* * *

ولكي نظهر كيف أن باكارا قد جاءت إلى منزل أرمان وهي لا تعرفه أن نعود إلى حيث تركناها مع الطبيب المتصنع تسير في المركبة إلى مونمارتر فنقول:

يذكر القراء انها كانت جالسة في المركبة بين خادمتها فاني وبين ذلك الطبيب المتصنع ،وانها عندما حاولت ان تستغيث أشهر عليها الخنجر فارتاعت وسكتت ، ثم أنها بعد حين همت أن تثب من المركبة فأمسكها بيديه وقال لها . اختاري بين أن تكوني في مستشفى المجانين أو أن تكوني في السجن مع المجرمين .

فأجفلت باكارا وقالت : أنا أزج في السجن وأي جرم ارتكبت ؟

– انك ارتكبت جرم السرقة فإن لك شركاً في سرقة المحفظة المحتوية على ثلاثين الف فرنك التي سرقها عشيقك فرناند من الوزارة وقد قبض عليه في منزلك ..

- إذن فهو بالحقيقة سارق !

- لا أعلم إذا كان هو الذي سرق المحفظة أو إذا كان أحد أعدائه قد وضعها في جيبه ، ولكن الذي أعلمه أن الشرطة قد القوا القبض عليه في

منزلك حيث وجدوا المحفظة في جيبه بما كان فيها من المال

– أوجد المال عندي ؟

– نعم .. في غرفتك الذاتية !

فانطرحت داخل المركبة واهية القوى وهي تقول : إلهي ماذا أسمع .

وعند ذلك وقفت المركبة ففتح بابها ودخل أندريا وقال لفاني : اصعدي أنت واجلسي بجانب السائق ودعيني أجلس مكانك .

فامتثلت ، أما باكارا فإنها نظرت ابتسام أندريا السخري فقالت : لقد عرفت من قبل أن ذلك من صنعك .

– هذا مما يثبت لي رجحان عقلك فلا تضيعي مني تلك الثقة فيك واعلمي اني لا اريد بك ضرراً وربما اتخذتك خليلة بعد حين فإنك وافرة اللطف بارعة الجمال ، ولكني أسعى وراء أمر خطير وأن حريتك تعرقل مساعي ، وربما كانت عقبة في سبيلي فاضطررت إلى أسرك مكرهاً بضعة أيام من قبيل الحذر والاحتياط وسترد اليك حريتك بعد ذلك وتعوضين أضعاف ما خسرته .

– أنا لم أسيء اليك قط فلماذا تريد ان تسيء الي ؟

– ألم تفهمي بعد اني شديد الشغف بك وقد اضطررت إلى أن أحجبك عن العيون حذراً عليك .

مما تحذر علي فاني لم أسرق المحفظة .

– ولكن السارق وجد عندك والمحفظة وجدت في غرفتك .

– يا للخيانة انه برىء .

– ربما ، ولكن من صالحي أن يكون هو المجرم .

– أنا لا أرضى بذلك وسأظهر مكرك وخيانتك أمام الشرع .

– كيف تقدرين أن تثبتي براءته وقد وجدته الشرطة في منزلك وفي جيبه المحفظة والمال ، فكأنك بذلك تقودين نفسك بيدك إلى السجن وتثبتين انك شريكته في الجريمة ، ومع ذلك فاني أخيرك بين السجن وبين مستشفى

المجانين وعندي ، انه خير لك ان تلزمي السكون فلا مره لما قضي به عليك ، ولا يمر بك ثمانية أيام حتى تنفجر عندك الأزمة وتعودي إلى منزلك فلا يحنق عليك البارون

ـ أنا كتبت له أن ذلك زور وبهتان .

ـ ومع ذلك فقد ورد اليوم إلى البارون رسالة بخطك ويظهر أن كاتبها قد أجاد تقليد الخط حتى لم يدع للبارون أقل شك فيها

فصاحت باكارا صيحة منكرة وعلمت انها أصبحت في قبضة هذا الرجل يفعل بها ما يشاء .

وعند ذاك وقفت المركبة على باب المستشفى فقال لها : لقد تم الاتفاق بيننا على ان تكوني هادئة وذلك خير لك على ما ابينه .

ـ ولكن ماذا يجري بفرناند أيحكمون عليه ؟

ـ لا تخافي فان فرناند متهم بسرقة وهذا ما يدعو هرمين الى ترك حبسه والاقتران بي !

ـ ومتى اقترنت بك فماذا يكون ؟

ـ يكون انني ابرىء فرناند من تهمته .

فصاحت باكارا صيحة الفرح وقالت : بالله كيف ذلك .

ـ هو سري فاسمحي لي بكتمانه .

ـ وهم يطلقون سراح فرناند .

ـ نعم .. ويقترن بك !

فتنهدت الفتاة وأحنت رأسها كمن يستسلم للقضاء وقالت . افعل ما تريد !

وعندها نزل السائق وقرع باب المستشفى وأدخل المركبة إلى ساحته فنزل أندريا وأقفل الباب على باكارا والطبيب وذهب إلى رئيس المستشفى فقال انني أريد ان استودعكم فتاة مجنونة تدعى اليس هوتية وهي معشوقتي وأنا أريد ان اتولى النفقة عليها ، أما جنونها فقد اصابها على أثر حادثة جرت

لها مع مومسة شهيرة تدعى باكارا غارت هذه الفتاة منها على عشيقهـا حتى اختل عقلها واصبحت تزعم انها هي نفس باكارا .

قال الرئيس : لا بأس فسنجتهد في علاجها .

فدفع له اندريا اجرة شهر مقدماً وانثنى إلى المركبة فأخرج منها باكارا وقال لها لقد أصبح اسمك الآن اليس وانك مجنونة غيرة من باكارا حتى صرت تعتقدين انك هي بعينها وهذا كل جنونك أفهمت ؟

- انك شيطان مريد !.

- لا بأس ، ولكن افتكري بانقاذ حبيبك .

ثم خاطبها بصوت عال فقال كمن يملق مجنوناً : تعـالي يا حبيبتي اليس لتنظري هذا المنزل الذي اشتريته لك حديثاً .

ثم تأبط ذراعها وسار بها حتى أدخلها إلى الغرفة المعدة لها فتركها هناك بحجة انه يرى الحديقة وخرج فاستدعى طبيب المستشفى وقص عليـه حكاية جنونها المزعوم وانه قد أصابها منذ ثلاث أيام ، ورأى الطبيب فـتاة تتبع سيدتها فقال من هذه الفتاة ؟

- هي خادمة اليس أفلا يمكن ان تبقيها معها تسهيلاً لخدمتها ؟

- لا بأس في ذاك فهو يفيد العليلة .

فعاد أندريا إلى باكارا فوجدها جالسة حزينة فعزّاها بلطف وقال : لا تجزعي فان حبسك لا يطول فقد ابقيت معك خادمتك فاني .

- بل أبقيتها جاسوسة عليّ .

- أنا ذاهب وسأراك غداً ..

ثم ودعها وانصرف ودخل الطبيب على أثره وهو يقول . اعذريني يا سيدتي إذ دخلت بلا استئذان ..

فتقدمت اليه باكارا وقالت : قد عرفت من أنت يا سيدي فانك طبيب هذا المكان !.

فانذهل الطبيب لرقتها وسكونها ، وعادت فقالت انني أعلم أيضاً أين أنا وأعلم انك قادم لتفحصني .

فزاد انذهال الطبيب من هذا الثبات الذي يدل على العقل .

وعادت باكارا وقالت لا تحسب أني أرتكب الحماقة التي يرتكبها كل داخل إلى هذا المكان ويكون أول كلامه لك غير مجنون

فابتسم الطبيب بسمة الريب ، وأدركت معنى ابتسامه فقالت له أنا أبرهن لك على ذلك .

فجلس الطبيب إلى جانبها وأخذ يدها وقال أن داءك غير عضال وعلاج أيام قليلة يكفي لشفائه .

فنظرت اليه نظرة هادئـــة وقالت اتسمح لي أن اكلمك وتصغي إلى آخر ما أقوله

– تكلمي يا سيدتي ؟

– ألا يحصل أحياناً أن يأتوك بأناس عقلاء اصحاء يزعمون انهم مجانين رغبة في اخفائهم عن أعين الناس .

فاضطرب الطبيب وقال . ذلك ممكن فهل أنت من اولائك المظلومين

فاخذت يده بلطف وهزت رأسها واستوت جالسة شأن كل امرأة تعودت الدلال واستهواء القلوب وقالت اسمع لأقص عليك حكاية غريبة ندر أن تسمع بمثلها في هذه الأيام ، فعـاد الطبيب ظنه انها مجنونة ولكنه صبر إلى النهاية وأصغى ، فقصت عليه حكايتها بالتفصيل من يوم احبت فرناند إلى يوم إلقاء القبض عليه بتدقيق وبيان غريب ، وقالت انهـا مستعدة لتأييد أقوالها بشهادة كل الذين عرضوا لها في هذه الحكاية ، ثم دلت الطبيب على منزلها في شارع مونسي وسألته أن يذهب اليه ويجتمع فيه بامها فتنجلي له الحقيقة .

فأثر كلامها على الطبيب وقال لها : اني ذاهب الآن إلى منزلك فافحص الأمر بنفسي فاذا صح الأمر كما تقولين فاني أكون لك محامياً لا طبيباً وسأعود

اليك في المساء ، ثم تركها وانصرف .

جلست باكارا في غرفتها تنتظر الأجل المضروب على أحر من الجمر .

وكان اندريا قد قدر ذلك من قبل فاتفق مع مومس كثيرة الدهاء واقامها بمنزل باكارا وقد علمها ما تقول فلما جاء الطبيب حكت له قصة باكارا كما رواها له اندريا فلم يعد لديه ريب بجنونها وعاد إلى المستشفى وهو آسف عليها ...

ولما رأته باكارا داخلاً عليها صاحت صيحة فرح واستهلت حديثها معه بالشكر له والثناء عليه ، ثم قالت انك قد رأيت أمي ولا ريب وثبت لك الآن اني غير مجنونة ، فجل ما ألتمسه منك الآن أن تسير معي إلى دائرة البوليس فتوضح مكر السير فيليام وتنقذ ذلك التعيس البريء من عذاب السجن . وعند ذلك دخلت فاني فنظرت الى الطبيب نظرة استفهام اجابها على سؤالها بابتسامة حزينة تدل على الشفقة ثم قال :

- لقد بدأت بها أعراض الجنون ويجب أن تستحم بالماء البارد .

فصاحت باكارا صيحة منكرة وقد سمعت ورأت كل شيء فقالت : إذاً أنا مجنونة حقيقة .

فاجابها الدكتور لا بأس يا سيدتي فان داءك غير عضال وستنقهين منه بزمن يسير إذا لزمت السكون .

ألم تذهب إلى منزلي ، ألم تر أمي وخدمي فيه .

ــ ذهبت يا سيدتي ورأيت فيه باكارا .

ففطنت حينئذ لحيلة اندريا واسترسلت الى اليأس فهاجت هياج المجانين ، ثم هدأت ثورتها وعاد اليها سكونها فوضعت رأسها بين يديها وجعلت تبكي بكاء مراً ، وفيما هي على ذلك إذ سمعت الدكتور يقول لفاني لقد التمست من رئيس المستشفى أن يسمح لك بالبقاء ليلاً بقرب سيدتك فابى علي ذلك ولكنه سمح ان تزوريها في النهار وان تبقي بقربها الى الساعة العاشرة مساء فقط ، فلم تنبس ببنت شفة وجعلت تفكر بما سمعته من الدكتور عند خروج

فاني من المستشفى في كل يوم .

ثم ذهب الدكتور فبقيت با كارا في غرفتها مع فاني فنظرت اليها با كارا وقالت : إنك تمثلين رواية مضحكة ولكنها ستكون مفجعة وتنالين جزاء ما جنته يداك .

— ستتأكد سيدتي بعد حين انني من اشد الناس تعلقاً بها ستظهر لها الأيام حقيقة ما أقول .

ولما دنت الساعة العاشرة عزمت فاني على الذهاب فقالت لسيدتها : إنني ذاهبة وسأعود في صباح الغد فهل تريدين ان احضر لك شيء معي ؟

— نعم احضري لي علبة الشغل التي في غرفتي .

— استودعك الله يا سيدتي الى الغد .

- إلى الغد .. ثم قالت بصوت منخفض وقد التهبت عيناها بشرر الانتقام إلى الغد أيتها الخائنة وسترين كيف يكون جزاء الخائنين .

ولبثت طوال الليل تهيء في فكرها سبيل الفرار ولما طلع الصباح عادت اليها فاني بعلبة الشغل وكان فيها لفافة كبيرة من الخيوط القطنية الثخينـة ، وكانت قد طلبت العلبة لأجل هذه الخيوط فأخذتها منها ، وتظـاهرت كل النهار بالبشاشة بما سر الحكيم ودعاه أن يضاعف لها اوقات الاستحمام ، وعند الساعة الثامنة قالت لفاني انني احب ان انام فاغلقي نوافذ الغرفة ورتبي لي السرير ، وبينما كانت تغلق النوافذ نظرت اليها با كارا ثم نظرت إلى نفسهـا بالمرآة كأنها تريد أن توازن بين القوتين واخذت خنجراً كانت قد خبأته في صدرها ، ثم هجمت على فاني هجوم الأسد على فريسته ، ووضعت يديها في طوقها حذراً من ان تستغيث ، ثم القتها على الأرض فركمت على صدرهـا واشهرت عليها الخنجر وهي تقول · إذا استغثت او فهت بكلمة فانك ميتـة لا محالة ..

— عفواً سيدتي ومرحمة !

فاستمرت مقلتا باكارا من الغضب حتى خيل لفاني ان ساعتها الأخيرة قد دنت وقالت : انك تقولين اني مجنونة والجميع هنا يعتقدون بجنوني فاذا قتلتك لا أعاقب بقتلك إذ ليس على المجانين حرج . ثم ادنت الخنجر من صدرها وقالت احذري من ان تفوهي بكلمة وإلا قتلتك بغير اشفاق واعلمي انني اريد الخروج من هذا المكان ، ولا أحد سواك يستطيع مساعدتي على ذاك .

كيف استطيع إخراجك فان الأبواب مقفلة .

– انهم يفتحونها لأجلك لأنك تخرجين كل يوم الساعة العاشرة .

– ولكنهم لا يدعونك تخرجين معي .

اعرف هذا ولكنك ستبقين واخرج مكانك فاعلمي الآن انني اشد منك ساعداً وانني مسلحة بهذا الخنجر وانني إذا قتلتك فلا حرج عليّ لأنهم يحسبونني مجنونة فاختاري اذن بين الامتثال وبين الموت.

- مري بما تشائين .

– انهضي واخلعي ثيابك في الحال .

فامتثلت فاني وخلعت ما عليها من الثياب .

اعطني الآن علبة شغلي ، فأحضرتها لها وهي تكاد تجن من الخوف فأخذت باكارا لفافة الخيوط وامرتها ان تضم بعضها الى بعض وتجدل حبلاً رفيعاً ، فامتثلت . ولما انتهت اخذت باكارا الحبل وقالت لها اديري يديك إلى الوراء ففعلت وربطتهما باكارا بذلك الحبل رباطاً وثيقاً ، ثم ربطت رجليها ، وبعد ذلك خلعت ثيابها فلبست ثياب فاني وقالت لها : قولي لي كيف تخرجين من هذا المكان واياك ان تكذبي بحرف واحد فانني أعود اليك فأميتك شر ميتة واذكري انني مجنونة

– يوجد في آخر الرواق بابان احدهما إلى جهة اليسار وهو الباب الذي يخرج منه المجانين إلى الحديقة ، والآخر إلى جهة اليمين فتخرجين من ذاك الباب

إلى رواق آخر طويل حيث تجدين في آخر ذاك الرواق باباً كبيراً وهو باب المستشفى العام.

— اما كان يسألك البواب شيئاً ؟

— لم أخرج غير مرة واحدة وقد سألني من انا فقلت له انا خادمة السيدة التي دخلت إلى المستشفى بالأمس ثم فتح لي الباب فذهبت .

— ألم يتبين وجهك ؟

— كلا فانه فتح لي الباب وهو يقرأ في جريدة وفوق ذاك فان النور ضعيف .

وخرجت باكارا بعد ان اقفلت الباب واستوثقت من صدق فاني وذهبت في الطريق التي اشارت اليها حتى وصلت إلى آخر الرواق فوجدت البواب منهمكاً في القراءة فسألته ان يفتح الباب وهي تقلد صوت فاني ففتح دون ان ينظر اليها ، فخرجت وهي تظن انها تحلم ولم تصدق انها تمكنت من الفرار فجعلت تركض في الشارع المقفر وهي تلتفت إلى الوراء من حين إلى حين شأن الهارب الخائف ، ثم وقفت في عطفة الشارع تفتكر اين تذهب فانها خشيت من الرجوع الى منزلها حذراً من اندريا ، ولعلها انه رشا جميع خدم المنزل بحيث اصبحوا جميعاً في قبضة يده ، وخطر لها ان تذهب الى عشيقها البارون .. لأنه هو وحده القادر على انقاذها وانقاذ حبيبها فرناند لما له من النفوذ والوجاهة فمشت حتى مرت بها مركبة فركبتها ودلت السائق على منزل البارون فسار بها اليه .

وكانت كثيراً ما تأتي إلى ذاك المنزل فيبيت فيه ، وقد عرف جميع الخدم انها عشيقة البارون سيدهم فكانوا يتملكونها ويكرمونها ، ولما دخلت انكر عليها الخدم لباس الخادمات وحسبوا انها تريد مزاحاً ، فأمرت احدهم ان يدفع الى السائق اجرته وهي غير مكترثة بعجبهم ، وسألتهم عن البارون ، فقالوا : انه خرج منذ حين . قالت : اتعلمون اين ذهب ؟ قالوا كلا ..

قالت : حسناً سأنتظره . ثم ذهبت إلى غرفتــه الخصوصية وانطرحت على مقعد فيها .

ولما كانت الساعة السابعة دخل عليها البارون فأيقظها ، وكان قد وردت اليه رسالة مزورة عن لسانها تخبره فيها انها سافرت مع أمها وتغيب بضعـة أيام ، ولما أفاقت من نومها قال مندهشاً ألم تسافري بعد .

فضحكت وأخبرته بأمرها وكيف انهم خدعوها وأرسلوهـا مجنونة إلى البيمارستان ، وكيف خلصت منه ، وكيف أقام مقامها في منزلها امرأة سواها باسمها وانها قادمة اليه ترجو مساعدته واسعافه ، وان يعطيها مبلغاً من المـال تستعين به على أمرها ، لأنها أخذت من منزلها ولا مال معها .

فنقدها البارون ما شاءت وسألها عن الاسعاف الذي تطلب فقالت : هو أن تكتب لي تذكرتين إلى مدير الشرطة ، وقـاضي التحقيق لأن لي معهما شأناً أريد ان يسعفاني فيه ، وان يسمعا ما أنصه عليهما منه ، وان لا يسألهـا أكثر من ذلك ، فأطاعها البارون كما هو دأبه وكتب لها ما سألته ، فوضعت الرسالتين في جيبها شاكرة مسرورة ، وكانت قد استبدلت ثياب الخادمة بمـا كان لها من الثياب في منزل عشيقها البارون ، ثم ركبت في الساعة الثامنة من الصباح مركبة وانطلقت مسرعة إلى مدير الشرطة .

وكان البارون معروف المقام لدى هؤلاء القوم ، فلما قرأ المدير رقعته أمر بادخال باكارا اليه ، وكان يهمه أن يراها لما شاع من وجود فرناند عندهـا ، وانهم قبضوا عليه بتهمة السرقة فاستقبلها وهو يقـول : يسرني ان أراك يا سيدتي لأن المحكمة تلح عليّ من يومين أن أقبض عليك ولكن يظهر ان قدومك لي بنفسك انني لا أحتاج الى هذا الأمر لأنني سأعرف منك شيئاً

نعم وهو شيء مهم ثم قصت عليه في حديث طويل كل حكايتهـا مع السير فيليام وكيف اتهم فرناند افتراء وزوراً إلى آخر ما يعرفه القراء مما في علمها من هذا الشأن ، وبينما هو منذهل من حديثها وغرابة تلك الخدعة قالت :

والآن أتسمح لي أن أقابل فرناند في حبسه ؟

ـ ذلك يحتاج إلى إذن قاضي التحقيق .

فأعطته الفتاة التذكرة التي معها باسم القاضي وأضاف هو من عنده سطراً وأرسلها مع أحد الحجاب ، ولم يلبث أن جاءه الجواب بالاذن ،فأمر الحاجب أن يوصلها إلى سجن فرناند وسألها ان ترجع اليه بعد نهاية المقابلة

وكان قبل دخولها عليه بقليل خرج من عنده ليون والكونت ارمان بعد أن اطمعاه بالخلاص من ورطته ، ولما دخلت إلى سجنه وجدته في جانب سريره مهموماً مفكراً فدنت منه وطوقته بذراعها فاندهش من مرآها في بادىء الأمر حتى تبسم بالرغم عنه كما يتبسم العاشق لمعشوقه المسيء اليه وينسى اساءته عند أول وهلة من مرآه ، ثم خطر له ما وصل اليه من إساءتها واعتدائها فدفعها عنه بازدراء وقال : اتتبعيني إلى هنا

ـ رويداً يا فرناند، إنك تكون ذا حق باحتقاري ولكني أرجو منك أن تسمع لي ما أقول وان تعي برهان براءتك من ذلك كما القيه عليك .

ـ أتقرين الآن بانني غير مجرم .

ـ بل أقر اكثر من ذلك ، أي بأسماء المجرمين الحقيقيين .

ـ عجباً إلى هذا الحد .

فتنهدت الفتاة وغطت وجهها بيديها وقالت : ويلاه انه لا يصدقني ولا يزال يحسبني شريكتهم في الذنب .

وكان في صوتها رنة حنو وحزن رق لها قلب فرناند وتلطف معها وقال : ألم تكوني أنت الساعية في هلاكي .

ـ عجباً يا فرناند أيسعى إنسان في إهلاك من يهواه ؟

ثم ركعت أمامه وشخصت اليه بعينان مغرورقتان بالدمع وقـــالت له بصوت الحزين اللائم انه لوكان لي عرش لأعطيتك إياه .

وكان صوتها اللطيف ومنظرها المؤثر قد فعلا في قلب فرناند حتى رق لهـــا

وانهضها وهو يقول : صدقت فإن من المستحيل أن تسعى في إهلاكي ما دمت تقولين إنك تحبينني فتكلمي وافصحي عما تعلمين .

وأخذت يده برفق وقالت وهي تنظر اليه نظرة ملؤها الحنو والغرام : عفواً يا فرناند إذا تجاسرت وقلت لك إنني أهواك أنا التي لا أستحق أن تهواني ولست إلا فتاة ساقطة ، ولكن براءتي من ذنبي اليك تستلزم أن اقر لك بهواك وما انكر عليك انني لست أهلاً لك ، ولا مستحقة لودادك ، ولكني اسمعان الحب الحقيقي يطهر من الأدناس ويصلح فاسد القلوب ويكون داعي مغفرة وسماح من عند الله الذي يغفر كثيراً لمن يحب كثيراً .

نعم ؟ ثم ماذا ؟

اني أنا يا كارا المرأة الساقطة لدى الجميع ، قد شعرت انني صرت خيراً مما كنت من يوم علق قلبي بهواك وصرت أحسب انني أصبحت شريفة يوم دخل إلى قلبي شعاع من الأمل بانك تهواني ، ولكن عفواً إذا انطلق لساني في شكوى الغرام ، فإنما أنا قادمة لأجلك وساعية في خلاصك فاسمع ما أقول لك ، ثم مسحت مدامعها وشددت صوتها وقالت : ان أول مرة رأيتك فيها يا سيدي كنت في النافذة عند أختي وكنت أنت في نافذتك ولكنك لم تكلمني ولم تنظر الي ، وأظن انك لم تشعر بوجودي أيضاً ، ولكن ذلك لم يمنعني عن غرامك عند أول نظرة اليك ، وعند اول خفوق من فؤادي ، عند تلك النظرة فأحببتك ، ولكن لا تسل كيف أي بكل ما يمكن للقلب أن يحب ومن تلك اللحظة أخذ الحب فؤادي وعقلي وكل حياتي بأسرها ، لأنك تعلم ان امرأة مثلي مارست أصناف الرجال ولعبت بقلوب الفتيان واستهوت نفس العاشقين لا يدخل الحب قلبها إلا اغتصاباً ولكنها متى أحبت فهي مجنونة هواها لا تحسب فيه للعواقب حساباً .

ثم عادت فركعت بين يديه وهو يبسم لها تبسم الظافر على المرأة المفتخر بامتلاك فؤادها وقال : مسكينة أنت .

ـ قف لا تشفق علي لأنني لا استحق منك شفقة ولا رحمة بل احتقاراً وكرهاً .

ـ إذا كان الأمر كذلك فأنا أسامحك وأعفو عنك .

ـ إسمع فليس ذاك كل الأمر فلقد مر علي يوم مشؤوم أخبرتني فيه اختي انك عازم على الزواج .

فاضطرب الفتى لهذه العبارة وقال : هو ؟ إذن أنت التي كتبت ا

فقاطعته وقالت : لا لست وحدي بل أنا وهو ؟

ـ من هو ؟

ـ هو الوحش الضاري السير فيليام ..

ـ انني لا أعرف هذا الرجل ..

ـ ستعرف من هو فإنني يوم علمت انك عازم على الاقتران كنت في بيت أختي ، وكنت انت في نافذتك فتطارحنا السلام وخرجت انت وكانت مركبتي لدى البـــاب فركبتها وانطلقت في اثرك حتى وصلت إلى منزل عروسك ، فنزلت انا وسألت عنها فقيل انها تدعى هرمين وان اباها يدعى بيرابو فعدت الى منزلي حزينة كئيبة تتنازعني الأفكار من كل جـــانب ، ولكن فكر حرمانك من عروسك لم يكن قد خطر لي بعد ، فقضيت ليـلي مسهدة الجفن على فراشي واسمك يتردد بين شفتي حتى الصباح ، فدخل علي رجل ، بـــل شيطان بصورة انسان يقال له السير فيليام .

فقال فرناند منذهلا : ولكني لا أعرف هذا الرجل .

ـ اما هو فقال لي انك تحبين فرناند وانا احب ابنة بيرابو .

فارتعش فرناند لهذا الخبر ، وعادت باكارا وقالت : وإذا بوالد هرمين تقدم الي من وراء فيليام وهو يقول لي انه مغرم بأختي ، ثم دخل فيليام معي في حديث طويل كله دهاء وخداع ، لم اذكر منه سوى انه لعب بعقلي واستولى على فكري ، وبعث أختي سريز لوالد خطيبتك على ان يمنعك من زواج ابنته .

وهنا أخذت باكارا في البكاء الشديد ، وأخذ فرناند يدها وقال : لا بأس أنا أسامحك .

— قف لا تسامحني الآن فإنني لم اقل لك كل شيء ، اما السير فيليام فانه بعد ان اتم اتفاقنا على هذه الصفقة الخاسرة أملى علي رسالة اليك أشكو لك فيها غرامي ، كأنك عشيقي من زمن مديد وجعلني اهزأ بالفتاة التي ستصير عروسك واذكرك بأنك وعدتني بانك لا تسلوني ولو تزوجت

وقاطعها فرناند وقد أخذ يستنير من الأمر وقال اكتبت كل هذا .

نعم . ودفعت الرسالة إلى بيرابو ، وقد احتال فألقاها في ارض بيته يوم كنت تأكل عنده ، بحيث وجدتها هرمين بعد ذهابك وقرأت ما فيها

فجمد فرناند كأنه اصيب بصاعقة وادرك السبب الذي دعى هرمين إلى النفور منه ، ولكنه بقي جاهلاً امر السرقة وتدبيرها وعادت باكارا إلى حديثها والآن وقد عزمت على انقاذك وان اتهم هذين الشقيين مكانك .

ولكن اذكري ان احدهما والد هرمين .

أحنت رأسها وجرت على خدها دمعتان فطرتها يد الغيرة من اعماق قلبها وقالت : نعم . انك تهواها ، ولكن ما يهمني ذلك فأنا سأسعى في انقاذك ، وتلافي ما بدر من اساءتي اليك ، وإذا اصبحت سعيداً بعد ذلك بمن تهواها خففت عني وقر العذاب

وتذكر فرناند عند ذاك زيارة الكونت ارمان وقوله له : يجب ان نبحث عن باكارا ، فاضطربت افكاره وقال : لقد اتاني رجل الآن ووعدني بانقاذي ايضاً وهو يريد ان يراك وقد كان معه ليون خطيب اختك ، ثم خرجا قبل دخولك بقليل وهو يدعى الكونت ارمان دي كركاز ومنزله في شارع كاترين ، إذهبي اليه وانظري ماذا يريد .

فأخذت باكارا رأس السجين بين يديها وقبلته في جبينه قبلة عاشق مفارق وقالت لا بد من تبرئتك ولو آل الأمر إلى اتهام نفسي مكانك وويل لك يا

سير فيليام وكن على حذر ، ثم خرجت بعزة وكبرياء كأن عرامها الصحيح قد جعلها عند نفسها من اطهر النساء ، وعادت إلى مدير الشرطة وزادته إيضاحاً في الأمر ووعدته بأنها لا تخرج من باريس وانها مستعدة لاجابة الحكومة عند استدعائها ، ثم ذهبت إلى منزل الكونت ارمان فدخلت عليه وهو يقول لليون : لا يمكن ان تنحل هذه الدسيسة إلا إذا قابلنا باكارا .

ولما رآها ليون داخلة وثب اليها وهو يقول اين سريز وماذا فعلت بها ؟

فاصفرت الفتاة وقالت : اليست في منزلها

- لا .. لقد فقدت منذ ثلاثة ايام .

- ويل لهم لقد خطفوها !

- ومن هم !

- السير فيليام وبيرابو .

ولما لفظت إسم فيليام نظر ارمان إلى بستيان وقال : ارأيت انني عرفته وهو اندريا بعينه .

ثم سكت ليون واخذ بيد باكارا وقال تكلمي ولا تخافي .. نحن من اصدقائك ..

وقصت عليه القصة التي حكتها لفرناند ، فارتجف الكونت من وهل ما سمع وقال قد وضح الأمر الآن ، فان يد اندريا في كل هذه الأمور ولا اقدر عليها منه وهو قد عرف ان بنت بيرابو هي ابنة كرماروت، وقد اتفق مع بيرابو على هذا الأمر وكلاهما مشتركان في هذه السرقة التي اتهم بها فرناند

ثم صرف باكارا وهو يقول والغيظ يخنقه : احذر أيها الأخ العزيز فقد فتحت بيننا حرباً لا هدنة فيها ولا شفقة .

* * *

وقد كشف ارمان تقريباً الحجاب عن هذه المكيدة وثبت لديه ان بيرابو شريكه فيها فأخذ يتراوح بين رأيين اما ان يشكوهما إلى الشرع ، واما يحتال لبلوغ مآربه من انقاذ فرناند وحنة وسريز ، أما الرأي الأول فقد خشي أن يفشل فيه إذ ليس لديه من الشهود غير باكارا وفوق ذلك فان السير فيليام غائب عن باريس وان اشهار جريمة بيرابو يمس بكرامة هرمين ، أما الرأي الثاني فهو شديد الخطر غير مضمون النجاح غير انه رأى ان يسير إذا فشل فيه عاد الى الأول ، وعلى هذا أمر باكارا ان لا تخرج من المنزل وأوصى ليون أن يأتي اليه في كل يوم وان يدخل من باب سري في الحديقة وأخذ يسعى في التفتيش على حنة وسريز ، وأول ما شرع به انه أحاط برجال المنزل الذي ذهبت اليه سريز في شارع الحية وهو المنزل الذي دهمها فيه بيرابو واختطفها منه كولار فامر ان يراقبوا جميع من يدخلون اليه ومن يخرجون منه .

أما فاني فأنهم انتبهوا اليها في الصباح وهي في آخر رمق من الحيـاة فحلوا قيودها وعلموا منها كيف كان هرب باكارا فاطلقوا سراحها وذهبت تواً إلى منزل السير فيليام لتخبره بما جرى وكان قد سافر فاخبرت كولار الذي جمد لهذا النبأ كمن اصيب بالصاعقة وقال في نفسه ، إذا اجتمعت باكارا بليون فقد ضاعت كل امالنا وذهبت امانينا ادراج الرياح وقد عزم في البدء أن يكتب الى السير فيليام يستقدمه ولكنه رأى ان رجوعه يؤخر عقـــد الزواج وكسب الملايين فعدل عن ذلك وقرر الاسراع في قتل ليون وذهب يبحث عنه في المحل فلم يجده فيه واخـــبره رئيسه بما حل به بعد فقد خطيبته من اليأس فتركه وانصرف يبحث عنه في جميع الانحاء حتى لقيه في الساعة الخامسة خارجاً من منزل امه فدنا وسلم عليه وقال له بصوته الكئيب ، كيف انت أيها الصديق

- اني أكاد أجن من اليأس

- اني أعرف كل شيء ايها الصديق وشهد الله اننا في هذا المصاب سواء أنت تعلم حبي لك .

فاختلج ليون وقال . أنت تعرف كل شيء ؟

– نعم أعرف ايها الصديق أن سريز رحلت عنك

– قل انها قد اختطفت

- لا بل قل انها قد سافرت ، فان الصبايا يختطفون في بلدة مثل با ريس ،

أجابه ليون بصوت خشن قائلا ان سريز ابنة شريفة .

– لا أنكر ذلك ولكن ..

- ولكن ماذا ؟

فاجابه بلهجة حزن ، ولكني أعرف ما أقول .

فامسكه ليون بذراعيه وهزه بعنف وهو يقول : انسيت انها ستكون عروسي ؟

- وان تكن قد اختطفت .

– نعم ، اني سأنتقم لها ، بل سينتقم لها عني الكونت

ارتعش كولار وقال : عن أي كونت تعني ؟

– الكونت ارمان دي كركاز ، فقد عرفنا مرتكب هذا الجرم .

- كيف عرفتموه . ومن هو ؟

– هو ذاك الانكليزي المحتال ، اريد به السير فيليام

بذل كولار معظم ما لديه من القوة حتى تمكن من اخفـــاء انفعاله وقال في نفسه ، قد غلبنا وذهبت الملايين ، ثم رجع اليه سكونه وقال لليون : اني كنت قادماً عندما لقيتك من المعمل الذي تشتغل فيه ، أحببت ان اراك كي احادثك بشأن سريز .

– أتعلم شيئاً عنها ؟

- نعم . ولأجل هذا أتيتك ولكن المقام لا يسمح لي بمثل هذه الابحاث فاذهب معي الى قهوة قريبة أظهر لك ما تود معرفته في هذا الشأن ، ثم ذهبا وجلسا حول منضدة معتزلة .

فقال كولار اني صديقك ولا أحب لك الزلل والخطأ

– أي زلل وأي خطأ ؟

– اني أعلم ما لا تعلمه . .

فصرخ به ليون كفاك ألغازاً وقل لي ما تعلمه من شأن سريز

– لا أعلم شيئاً ولكني رأيتها أمس في بوجيفاك .

قال ليون وقد ظهرت عليه ملامح السرور انك رأيتها أمس في بوجيفاك قل مع من كانت وكيف رأيتها ؟

– رأيتها في مركبة مقفلة .

فارتاع ليون وجعل العرق ينصب من جبينه وقال : قل مع من رأيتها ؟

فظاهر من كولار انه يتردد ، فهزه ليون وصاح به يقول انك ستقتلني بهذا التردد فبالله الا ما قلت لي مع من رأيتها .

– رأيتها مع شاب أسمر اللون وعليه ملامح الأغنياء

قال ليون بلهجة الحزين : ان هذا محال ألم تكن تستغيث ؟

فقال كولار : مسكين أنت يا ليون انك لا تعرف أخلاق النساء ، فاني رأيتها على أتم السكون بل رأيته يحدثها وهي تبتسم له ابتسام الرضى والحب

فهاج ليون لما سمع ، وقال انك تكذب وانت منخدع فليست سريز التي رأيتها ؟

– انها هي بعينها فلم أخدع ولا أنا كاذب

– إلى أين كانت تسير ؟

– في طريق الوادي ، فلم أعلم بعد ذلك شيئاً لأني لم اتبعها .

فقال بلهجة الانتقام : كولار انك ستذهب معي إلى بوجيفاك حيث نبحث سوية عن سريز وسنبيت هناك اذا لم نتوفق للقائها اذا الظلام قد أقبل .

فتظاهر كولار انه يفتكر ثم قال : نعم سأذهب معك وسنجدها بأذن الله غير اني لا استطيع مبارحة باريس قبل ساعة فانتظرني ريثما أعود ، ثم ودعه

وانصرف ، وارتأى ليون بعد ذهابه ان يخبر الكونت ارمان كي لا يفوته شيء من امر هذه المكيدة، فكتب له رسالة اوقفه فيها على ما دار بينه وبين كولار وكيف انه سيذهب معه بعد ساعة إلى بوجيفال ثم ختمها وخرج ليبحث عمن يوصلها اليه، ولقي اتفاقاً صديقه المخلص كينيون واطلعه على جلية الامر وكلفه ان يوصل الرسالة الى الكونت

وقال له كينيون : اني ناصح لك ان لا تسير مع هذا الرجل ولا تثق به، فإنه يضمر لك كيداً وقد حذرتك منه مراراً

– انك مخطىء في رأيك به فهو لي ولا بد من الذهاب إلى بوجيفال .

– انت بعد ذلك وشأنك ، لقد بذلت لك ما يجب علي من النصح ولم يبق علي سوى ان التمس منك امراً واحداً ..

– ماذا ؟

– هو ان لا تخبر صديقك كولار بهذه الرسالة التي سأذهب بها إلى الكونت.

– اعدك باني احدثه بشأنها .

ثم افترقا فرجع ليون الى القهوة وذهب كينيون الى منزل ارمان فأعطاه الرسالة واخبره عن سوء ظنه بكولار وانه يكيد لليون .

قال أرمان إذن هلم معي إلى حيث ليون واننا سنسير بإثرهما الى بوجيفال متنكرين ، أما كولار فإنه ترك ليون وذهب تواً إلى نيكولو وأمره أن يسير مع رفيق له إلى بوجيفال ، وأوقفه على المكيدة ثم عاد إلى ليون ووجده بانتظاره وركب واياه مركبة وسارا .

ولم يكن ليون يفكر سوى بأمر واحد وهو ان يجد سريز وينتقم من خاطفها ، وكان يهيج هياج المجانين ويتهدد السماء بيديه ، ثم يعود إلى السكون وتهدأ عاصفة غضبه ، ويضع رأسه بين يديه ويفكر تفكير الحزن .

وقد رأى ليون ان الليل قد جن فنظر إلى كولار وقال : ان الظلام قد ادلهم والأفق مربد بالضباب فكيف نبحث عنها في الليل الدامس قال كولار .

إن الظلام افضل من النور وفي مثل هذه الشؤون اؤثر ان نصل ليلاً فنبيت في فندق بوجيفال وهو فندق يقدم اليه اكثر خدم الأغنياء في تلك الجهـات ، فربما علمنا منهم ما يدلنا على مكان سريز وقنع ليون بهذا الجواب وعاد إلى تأملاته .

وما زالت المركبة تسير حتى وصلت إلى مارلي واوقفها كولار باشارة وقال لليون : ان الطريق إلى الفندق لا تسير فيها مركبات ولنـذهب على الأقدام ونزل الاثنان ومشيا .

وكان هذا الفندق الذي تكلم عنه كولار واقعاً على ضفة النهر بالقرب من طاحونة كبيرة تديرها مدام فيبار التي طردها اندريا امـام سريز كما يذكر القراء ، ولم يكن معها غير صبي يبلغ الثالثة عشرة من سنه يدعى روكامبول وهو غاية في المكر والدهاء .

فلما وصل ليون وكولار وجدا العجوز والصبي يلعبان بالنرد ، وحياهمـا كولار تحية صديق ، ثم تبادل إشارة خفية فقـال كولار اننا نريد المبيت الليلة في هذا الفندق فهل لديك غرفة موافقة لنا .

– نعم .. وأمرت روكامبول ان ينير لهما الغرفة الصفراء .

وصعد الصبي وصعدا بأثره فأنار لهما الغرفة وسألاه ان يحضر لهما زجـاجة خمر ، ولما عاد بها قال كولار لليون دعني أسأله عـاي ان اعلم منه شيئاً . ثم أشار بعينيه إشارة سرية اتصدقني في الحديث يا روكامبول .

– اني لا اكتمك امراً يا سيدي كولار وانا لا اعرف الكذب قل ما تشاء.

– ماذا حدث عندكم في هذا الأسبوع ؟

– لم يحدث شيء جديد .

– ألم يجيء من باريس الى هذه الضواحي أحد من الأغنياء

– نعم ، قد جاء منذ حين شاب قيل انه انكليزي واسع الثروة.

فارتعش ليون وقال : هـذا السير فيليام الذي طالما حدثتنا باكارا عن

مكره .

قال كولار : ألا تعلم اين يسكن هذا الانكليزي

- كلا !.

- اهو متزوج ام اعزب ؟

- لا أعلم شيئاً من ذلك .

- أتقدر ان تصفه لي .

- نعم لقد رأيته مرة وهو يناهز الثلاثين من العمر اسمر اللون خفيف شعر الشاربين .

قال كولار : كفى هذا بعينه

ثم سمع روكامبول ان العجوز تناديه فهرول مسرعاً اليها .

وقال لليون : أوعيت كلام الصبي فإنه لا يعلم شيئاً من امر سريز كما يظهر .

- انه يعلم كل شيء ولكنه لا يريد ان يقول .

ثم سمع كولار وقع اقدام على السلم ، فأشار الى ليون انه يلزم مكانه وفتح الباب واطل منه ورأى روكامبول ووراءه نيكولو ورفيقه وتبادل معهما اشارة وعاد إلى ليون فدار بينهما الحديث الآتي وهما يشربان الزجاجة وقال كولار اتعلم يا ليون ان هذا الفندق كثير الخطر ، وقد يقتل فيه المرء من يريد قتله ولا يعلم بجريمته احد .

فنظر اليه ليون باندهاش فابتسم كولار ابتسام الأبالسة وقال نعم . إن القتل في هذا المكان لا يكون إلا خنقاً ، وتلقى الجثة تحت حجر الطحن ، ثم تدفعها المياه ولا يعلم بعد ذلك اكان موت صاحب الجثة قتلاً ام اتفاقاً .

وارتاع ليون وقال · ايوجد هنا قتلة ؟

- إذا اقتضى الحال ..

فنظر اليه ليون وهو يحسبه سكران وقال : كيف اذا اقتضى الحال .

- إذا كان يوجد من تثقل علي حياته فاذا قتلته فاني لا احسب قتله ذنباً

كبيراً ، ولنفرض انك أنت الذي حياته تثقل علي ..

فصاح ليون مستنكراً : أنا !

— لنفرض انك انت كذلك ، وانك صديق رجل يثقل علي أيضاً نظير الكونت ارمان دي كركاز مثلاً ، واني لذلك احتلت عليك وجئت بك إلى هذا المكان ؟

- انك لتخيفني يا كولار بهذا المزاح .

— لا بأس ولنفرض ايضاً، ثم نقر بيده على الحائط وقال : تعالوا يا اصحابي لقد وقع الطير في الشرك . ولم يكد يتم كلامه حتى دخل نيكولو وفاتح الأقفال فأدرك ليون سر الأمر بما رأى عليهما من هيئة الغدر ووثب من مكانه وتناول سكيناً كانت أمامه وقال لكولار : أتريد أن تقتلني ؟

— نعم لأنك تثقل علي !

فرجع ليون حتى لصق بالحائط ورفع سكينه وقال : تقدموا الآن .

فتناول نيكولو زجاجة الخمر الفارغة وضربه في رأسه فانكسرت وسالت دماؤه وسقط على الأرض صريعاً ، وهجم عليه الثلاثة وتناول كولار منديلاً كبيراً ووضعه في عنق ليون الجريح وهم بخنقه وإذا بدوي رصاص ونور قد سطع وسقط كولار مصاباً برصاصة في صدره .

وكان مطلق الرصاصة الكونت أرمان نفسه ، فإنه لما أخبره كيليون بذهاب ليون إلى بوجيفال مع كولار داخله ريب في أمر هذا الرجل وسار بمركبته في أثرهما ، كما يعلم القراء حتى أدركهما على الطريق ، وتمكن من رؤية كولار في المركبة وتذكر انه رآه مرة حين جاء لاستدعائه إلى منزل البارون كرماروت صاحب الملايين ، فزادت شبهته فيه وعلم انه كان ملازماً للبارون وقد وقف على سر الملايين ، وداخله الريب بأنه هو الذي اطلع اندريا على ذلك السر ، فاقتفى أثره حتى رآه صعد مع رفيقه إلى الفندق ثم رأى صاحبيه القاتلين قد تبعاه ، فأخذ كيليون الذي جاء معه وتوارى به وراء نافذة الغرفة

التي جرت بها الحادثة ، إلى ان جرى الأمر أمامه ، ورآهم يهمون بقتل ذاك المسكين فأطلق تلك الرصاصة من النافذة ، كانت السبب في خلاصه ، ثم وثب إلى الغرفة والغدارة في يده ، وعرفه نيكولو في الحال فخرج برفيقه مسرعاً وتركا صاحبهما ميتاً وهربا فرا على صاحبة الفندق وأخبراها بالأمر فتظاهرت بأنها أغمي عليها من الخوف .

وصعد روكامبول وهو يصيح : إلى القاتل إلى القاتل.

وبادره كيليون وتهدده بالقتل إذا لم يسكت فسكت مكرهاً

وتقدم أرمان إلى كولار ورآه لا يزال حياً وهو ينظر اليه ويقول : لقد ظفرت بي هذه المرة ولكن رئيسي سينتقم لي .

– ويحك . أتموت كذا بغير إقرار ولا ندم

– هيهات أن تعرف مني شيئاً !

– ولكن بالله أخبرني أين حنة وأين سريز ؟

– تريد أن تعرف ذلك ، إذن فاعلم ان حنة قد اصبحت معشوقة السير فيليام وغير هذا لا أقول شيئاً .

ثم أطبق عينيه على أثر هذه الكذبة الشنعاء ومات والدم يتدفق من فمه فتقدم الكونت إلى الصبي روكامبول وقال له :أتعرف أنت شيئاً من أمر هؤلاء اللصوص ؟

ونظر اليه الغلام نظرة الشجاع الباسل وقال : نعم أعرف كل شيء .

فصاح أرمان صيحة الفرح : إذن اخبرني أين حنة وسريز

ورفع كيليون سكينه على صدر الولد وقال : تكلم أو تقتل

– لا أقول شيئاً فاقتلوني إذا شئتم !

وقال الكونت : دعه قد يتكلم ..

ثم التفت إلى الصبي وقال له : أتريد اجرتك ؟

– نعم وإلا إقتلوني لأن الحياة بغير مال لا خير فيها !.

— كم تريد ؟

— عشرة دنانير أولاً .

فرمى له الكونت كيس دراهمه وقال · خذ ولكن تكلم ..

— ان كولار قد كذب عليك .. إن الفتاة التي تبحث عنها ليست عشيقة السير فيليام ، ولم ترد أن تستسلم له ..

— وأين هي ؟

— على عشرة دقائق من هنا محبوسة في بيت وأنا أدلك عليه .

· هلم بنا .

وتقدم الفتى أمامهم ثم التفت إلى الكونت وقال : أظن ان هـــذا الخبر يساوي أكثر من عشرة دنانير !

— إذا وجدت حقه سأعطيك خمسين .

— إذا كان ذلك فنعم وكرامة ..

ثم خرج أمامهم حتى مر بالعجوز وهي تتظاهر بالإغماء فدنا منها بحجة انه يريد إيقاظها وهمس في أذنها أن أهربي في الحال فاني سأغشهم ولا أدعهم يعلمون شيئاً ، ثم مر يقودهم وهو يقول : إن الفتاتين في وسط النهر . وسار بهم على جسر هناك حتى إذا توسط الماء نظر فرأى كينيون إلى جانبه فدفعه بكلتا يديه فسقط في النهر والتفت الى الكونت وقال السلام عليك يا كونت فانك لا تعرف من أمر حنة شيئاً ثم وثب وثبة سابح ماهر وغاب في النهر تحت الظلام قبل أن يفيق الكونت من انذهاله ، فعاد ارمان حزيناً إلى الفندق فوجده خالياً من صاحبته ، فأخذ ليون الجريح وترك جثة كولار غارقة بدمائها في تلك الغرفة .

* * *

بينما كان ارمان مجداً في انقاذ ليون وهو يجد بالبحث عن حنة وسريز ،

كان أندريا يعمل على غزو قلب هرمين ، وقد تدرع إلى ذاك بجميع الوسائل بحيث أصبح جميع من يحيط بها من انصاره وقد ذهب من منزل مدام كرمارك على ما علمه القراء إلى صديقه البارون مادي وخف صديقه لاستقباله بغاية التودد ورأى على وجهه ملامح الحزن وسأله عن علة هذه الكآبة ، فقص عليه حديث غرامه بهرمين ، وان لا رجاء له من هذا الحب وتأثر البارون تأثراً شديداً وقال : طب نفساً فانك نبيل في قومك جميل الطلعة كثير المال فلا تيأس من حب هرمين وستكون امرأة لك في وقت قريب فانها أهل لمثلك وأنت كفؤ لها وهي نسيبتي وأنت صديقي، وسأخدمك في هذا الشأن كما أخدم نفسي . فشكره اندريا بلهجة الموجع القلب .

وفيا هما على العشاء وردت على البارون رسالة مدام كرمارك فسر بها وقال : قد وجدت طريقة حسنة لأعرفك بهرمين ، ذلك اني سأدعو أسرتها غداً إلى الصيد وستكون معنا ، ثم قام إلى منضدة وكتب إلى مدام كرمارك رسالة يدعوها بها مع بيرابو وامرأته وابنته إلى الصيد غداً في وادي سيبرس ثم بعث بها اليها مع رسولها .

وقد رقد أندريا تلك الليلة وقلبه يطفح بالأمل .

وعاد الرسول إلى مدام كرمارك ولما أطلعت على الرسالة سرت بها غاية السرور وقالت لهرمين: ان البارون دي مادي يدعونا غداً إلى الصيد فهل تذهبين؟

قال بيرابو إننا نذهب من غير بد فلا أجد أجمل من الصيد في هذه الوديان

وكانت هرمين قد تعودت ركوب الخيل ولكنها لم تر في حياتها صيد الوحوش البرية فسرت بذلك ووعدت بالذهاب .

وقالت مدام كرمارك : يظهر من هذه الرسالة ان السير فيليام سيكون من المدعوين . واختلج قلب هرمين ولم تجب بشيء ، بل تركتهم وانصرفت إلى غرفتها وهي تفكر . وكانت لا تزال تحب فرناند ، ولكن حبها له كان حباً بغير أمل كما يحبون الأموات ، وقد علمت انه غير أهل لها فكانت تجتهد أن

تنساه وكان قلبها يحدثها بأنه سيكون للسير فيليام شأن في حياتها وكانت تفكر به وترتعش وهي لم تره غير مرتين وتأملت تلك الليلة وهي تحلم به أحلاماً مزعجة .

ولما طلع الصباح تأهبوا للرحيل، وامتطت فرساً كريماً وسارت مع امهـا وبيرابو وخادم ، وفيما هم على بعد مرحلة من الوادي سمعوا صوت النفير وعواء الكلاب فقال لهم الخادم أسرعوا واتبعوني ، إنهم يحصرون الوحش وقد دنا أجل صيده .

وكانت الساعة العاشرة من الصباح والشمس تتوقد في قبة الفلك فترقـص أشعتها الذهبية على الغصون ، وتقع من خلال الأوراق على الأرض كالدنانير ولم يكد الخادم يسير أمامهم حتى دفعوا الجياد وانطلقت بهم مسرعة تخترق تلك السهول، تمرق مروق السهم في الفضاء حتى بلغوا الوادي ، وعلا نباح الكلاب وأول ما رأته هرمين ذلك الوحش البري الذي يطاردونـه وهو يزأر زئـير السباع وعيناه متقدتان بشرر الغيظ والرعب ، وكان يعدو على غير هدى بـين الصخور ، ثم رأت بعده الكلاب تهاجمه من كل صوب وتسد عليه سبل الفرار ورأت بعد ذلك على بعد يسير فارساً راكباً على فرس أسود كالليل يقفز به من فوق الصخور وسيماء الشجاعة والاقدام تلوح على ذاك الفارس الذي ظهر انه في عنفوان الشباب ، ثم تبين لها ان ذاك الفارس هو السير فيليام ، فخفق قلبهـا خفوقاً لا يوصف ، ثم رأته قد ترجل عن جواده وتقـــدم من الوحش بقلب جسور ثابت وضرب الكلاب بالسوط ففرقها عنه ثم هاجم الوحش مهاجمـة مستبسل يرى الموت سهلاً في رضى من يهواها .

ونظرت هرمين إلى ذاك الرجل الذي يخاطر بحياته أمامها في سبيل ضربة تستحسنها ، ورأته قد التحم مع الوحش في عراك عنيف حتى لم تعد تميز بينهما، ثم نظرت فرأته قد طعن الوحش بخنجره طعنة شديدة غرق فيها إلى اليـد ، وسقط ذلك الحيوان الهائل صريعاً ، وأثر ذلك المنظر بهرمين تأثيراً شديداً .

حتى سقطت على الأرض مغشياً عليها ، وتسارعوا اليها ونضحوا وجهها بالماء ، فاستفاقت ورجع الجميع إلى القصر وكلهم ينظر إلى أنـــدريا نظرة العجب والاكرام وهو يقول في نفسه : لقد استتب لي النصر ، وإذا لم أفز بقلبهـا بأقرب حين كنت أبلهاً لا أستحق هذه الملايين .

* * *

ولنعد الآن إلى حنة التي تركناها في تلك الغرفة وقد استفاقت وجعلت تقرأ الرسالة التي تحسبها من الكونت ارمان الذي كانت تحبه حباً شديداً وجعلها تغفر له اساءته في ذلك التصرف الغريب ، ولم يدخلهـا شيء من الريب ، بل انها كانت تشفق عليه وتخشى أن يصاب بمكروه من ذلك الخطر الذي كتب لها عنه وفيما هي على ذلك فتح الباب ودخلت فتاة وقالت ان سيدي الكونت قد أقامني في خدمتك ، وهمت حنة أن تسألها أين هي وكيف أتت إلى هذا المكان، ثم ذكرت الرسالة التي أوصيت بها أن تجتنب الأسئلة وسكتت وقالت الفتاة : لقد قدر سيدي الكونت ما ستلاقيه من الضجر في الاعتزال والوحدة فأرسل اليك صديقة تودين ان تكون معك !

– ومن هي هذه الصديقة وما اسمها ؟

– اسمها سريز .

ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت سريز وصاحت الفتاتان صيحة فرح وتعانقتا وأخذت كل من الفتاتين تسأل الأخرى عن السبب في وجودهمـا في هذا المكان ولكنهما لم تعلما شيئاً واتفقتا على أن تجتنبا البحث في هذا الشأن عملاً بما أوصاهما وانصرفتا عن كل ذلك الحديث إلى بث الهوى وشكوى الغرام .

وعند المساء دخل كولار فنظرت اليه حنة نظرة قلق فسكنت سريز روعها وقالت أنه خادم الكونت ، اما كولار فانه انحنى امام حنة وقال لها اني يا سيدتي آت من قبل الكونت بهذه الرسالة .فتلتها حنة وكل فحواها انه اضطر

إلى البعد عنها بضعة أيام لشاغل مهم وأنه سيعود اليها بأقرب حين ويقترن بها وأنه سيرسل لها في كل يوم رسالة مع كولار ويوصيها أن تثق به وقد حذرها بالختام من الخروج من المنزل غاية التحذير وبعد ان فرغت من تلاوتها قال لها كولار : إذا أحببت أن تجيبي على هذه الرسالة فأنا أوصل رسالتك إلى سيدي الكونت فاحمر وجه حنة وقالت له : نعم سأجيبه فانتظرني .

ثم قامت الى منضدة وكتبت له رسالة لم تذكر بها شيئاً من غرامها بل اظهرت له بها شدة استغرابها لسلوكه وانها لا تقدر ان تحكم بشيء على هذا السلوك المستغرب قبل ان تراه ويوضح لها سر الأمر ثم ختمتها بالدعاء له ورجائه بسرعة العودة وبعد ذلك أعطتها لكولار فأخذها وانصرف

وفي اليوم الثاني لم يعد كولار ولا وردت رسالة فقلقت لذلك وانتظرت الى الغد ، ثم مر عليها اربعة أيام ، ولم يعد كولار الذي كان قتل كا تقدم فاشتد قلق الفتاة وثبت لديها ان حبيبها قد أصيب بذاك الخطر الذي كتب لها عنه .

وفيا سريز تسكن روعها وتطيب قلبها دخلت خادمة غرفتها وأعطتها خمس رسائل ودهشت حنة وطار قلبها من الفرح ففتحت جميع تلك الرسائل وقرأتها واحدة فواحدة وكان بالرسالة الأخيرة إشارة إلى قرب من تحب ولم تتمالك نفسها من الفرح واكبت على عنق سريز وهي تقول والدمع يجول في عينيها : بشرى فهو حي لم يمت ، ثم أفاقت من ذلك السرور فسألت الخادمة عمن أتى بهذه الرسائل ؟

- روكامبول .

- من هو روكامبول ؟

- صبي نسيب لكولار

اما روكامبول فانه بعد ان وثب إلى النهر أسرع في السباحة الى أن بلغ الضفة فاختبأ كل ذلك الليل في احدى الحانات وقدقدم الى مدام فيبار فأخبرها بما صنع مع الكونت ايثاراً لخدمة السير فيليام الذي سيحسن اليه الجزاء متى

وقف على هذا الصنيع فأخبرته بحديث حنة وسريز مع السير فيليـام وشدة احتفاظه بهما ، فذهب روكامبول عند الصباح الى الخمارة فنقل جثة كولار الى القبور ، وأزال آثار الدماء ثم اقفل الفندق وكتب على الباب « اقفل الفندق لإفلاس صاحبه » ثم سار الى المنزل الذي فيه حنة ، واخبر جميع الخدم ان كولار سافر في شأن مهم ، وانه أنابه مكانه لحين رجوعه ، فأطاعه الجميع كما كانوا يطيعون كولار ، وبعد يومين أخبرته الخادمة ان حنة شديدة القلق لتأخر الرسائل عنها فأدرك روكامبول ان الرسائل التي كانت تأتي بها الى حنة فذهب حالاً الى باريس واخذ تلك الرسائل الخمس التي اعطاها للفتاة كما تقدم .

اما حنة فانها عندما علمت بقرب قدوم الكونت فرحت فرحاً لا يوصف ونامت تلك الليلة براحة وسكون وهي تحلم بأمانيها الزاهرة .

ولما طلع الصباح تزينت احسن زينة زادتها جمالاً على جمالها وفيما هي تنظر الى المرآة وتتبسم دخلت عليها الخادمة وقالت سيدتي قد جـاء الكونت . فصاحت حنة صيحة فرح وقد اضطرب فؤادها اضطراباً لا يوصف وسقطت على المقعد وهي قريبة من الاغماء .

* * *

أما أرمان فإنه بعد أن رأى ما رآه من مكر الصبي ولم يجد حيلة لانقـاذ كينيون ، عاد الى الفندق وهو يرجو أن يرى فيه المرأة فتدله على حنة وسريز فلم يجد غير جثة كولار سابحة بالدماء ، ففتش بالضواحي فلم يعثر على أحد فعاد واليأس ملء فؤاده الى باريس وعند وصوله لقيه بستيان وأعطاه تقريراً بعث به أحد رجاله السريين وهذا مآله :

« إن الرجل المعروف في باريس باسم السير فيليام لم يسافر ابداً الى الهافر بل ذهب الى بريطانيا الى صديق له يدعى البارون دي مادي » .

فلما انتهى من تلاوته تأمل هنيهة ثم قال لبستيان : لم يعد لدي أقـل ريب

بأن هذا الرجل هو أندريا بعينه ، وانه لم يسافر الى بريطانيا إلا ليجتمع فيها بهرمين ويغريها على الزواج به . فإذا لم تسرع لانقاذها فهو يبلغ مآربه لذلك يجب أن تسافر في الحال الى بريطانيا فتقف على مجرى الأحوال وتكتب لي كل يوم عما يكون

فسافر بستيان ، وكان الجميع يعرفونه في تلك الضواحي ، فعلم منه ما كان من أمر الصيد ، وكتب الى الكونت في اليوم الثاني من حضوره ما يأتي :

« لم أكد أصل حتى علمت عن أندريا ، أو عن السير فيليام إذا أردت ، ما تهتم معرفته : فهو ضيف البارون دي مادي وقد ذهب أمس الى الصيد بصحبة البارون وبيرابو وهرمين ، فقتل وحشاً هائلاً بطعنة خنجر وكان ذلك على مرآى من هرمين فأغمي عليها . وهو الآن في منزل مدام كرمارك جالس على المائدة الى جانب هرمين ، ويتحدثون هنا بأن زواجها سيكون وشيكاً » .

أما أندريا فانه قد فاز أتم الفوز ، وأنست به هرمين فمالت اليه بعض الميل .

وكان قد علم بوجود بستيان في كرلوفان فلم يعبأ بذلك ، ولكنه كان قلق البال لانقطاع أخبار كولار عنه .

وبينما هو عائد ذات ليلة من منزل كرمارك الى منزل البارون عند منتصف الليل وهو يسير على جواده في ذلك الممر الضيق الخط ، الذي سبق وصفه للقراء ، والبدر منير في قبة الفلك يملأ باشعته ذلك البحر الهائج وتلك الوديان الساكنة ، إذ رأى عن بعد رجلاً مقبلاً اليه يمشي الهوينا . ولما دنا منه انذعر كمن طلعت عليه أفعى إذ تبين له أنه بستيان ورآه مسلحاً وهو أعزل ، فتمالك روحه وحياه منذهلاً كأنه يستغرب وجوده في هذا المكان ثم دار بينهما الحديث الآتي .

فقال بستيان إني أعجب لما بدا منك من الانذهال لمرآي مع انك تعلم اني أتيت من باريس

- إني أعلم ذلك ، ولكني دهشت لوجودك في هذا المكان ، عند منتصف الليل .

- لأني كنت بانتظارك ، ان لدي ما أقوله لك .

- إني مصغ ، فقل ما تشاء .

- علمت انك تسعى للاقتران بهرمين ابنة بيرابو ، وانك لم تأت إلى هنا إلا لهذه الغاية .

- ذلك ممكن

- وقد علمت ان هذه الفتاة واسعة الثروة .

- كلا فإن مهرها لا يتجاوز الخمسين الف فرنك وصل اليها من امها ، وهو مهر لا يكاد يذكر .

- ربما ولكنها سترث ثروة طائلة ، لأن البارون كرماروت قد ترك لها بعد مماته اثني عشر مليوناً كما تعلم .

انها ثروة واسعة ولكني لا أعلم شيئاً من ذلك

- نعم وانك تعلم أيضاً ان الوصي على هذه الأموال هو الكونت أرمان دي كركاز .

فاضطرب اندريا وقال : قلت لي انك كنت بانتظاري ، فهل أنت تنتظرني للمباحثة في مثل هذه الشؤون ؟ وهل في مثل هذا المكان يتباحث الناس ؟

- سوف ترى أن هذا المكان يفضل على سواه ، فتفضل بالنزول عن جوادك واجلس معي على هذا الصخر ، لأني سأحدثك عن امرأة تعرفها ويهمك شأنها

- من هي هذه المرأة ؟

– إنك تعرفها يا سيدي حق المعرفة . وهـــل نسيت انك حبستها في مستشفى المجانين .

إصفر وجه أندريا وقال بمنتهى الاضطراب أخرجت من المستشفى ؟

فقال بستيان بصوت الهازىء أرأيت يا سيدي كيف خانك الجلد ؟ نعم إنها هربت من المستشفى وأتت الى الكونت أرمان .

فصاح أندريا صيحة يأس وعض على شفته من الغيظ حتى كاد يدميها

فقال له بستيان : أرأيت الآن أن ما أحدثك به شـــديد الأهمية جدير بالاصغاء ؟ فتفضل إذن بالنزول عن جوادك لنجول في هذا الحديث .

وحاول أندريا الامتناع فأخذ بستيان غدارة من جيبه وصوبها عليه وهـو يقول : تخير بين أن تنزل او تموت .

وارتاع أندريا ونزل عن الجواد حذر الموت وقد علم أنه مغلوب .

وأسرع بستيان الى امتطائه وصوب الغدارة على اندريا وقـال : انك اذا حاولت الفرار أقتلك بغير إشفاق فاصغ إلي الآن .

إن با كارا قد أفلتت من ذلك السجن الذي وضعتها فيه ، وحدثت الكونت أرمان بجميع ما كان من اتفاقكما مع بيرابو ، ومن الرسالة التي استكتبتها إياها إلى يوم سرقة المحفظة واتهـام فرناند وهو بريء والآن وقـد ثبت لنـا أن الفيكونت أندريا يحـاول الاقتران بهرمين ، طمعاً بما سـترثه من الملايين .

– إذن لا تزال تعتقد اني هو نفس أندريا ؟

- نعم . ولم يعد لك سوى سبيل للنجاة مما أنت فيه . ذلك أن تعدل عن الزواج بهرمين ، ثم تدلنا على المكان الذي خبأت فيه حنة وسريز وتغادر هذا البلد في الحال ، وفي مقابل ذلك فإني مكلف من قبل أخيك الكونت أرمان ، أن أنقدك خمسمائة الف فرنك وإلا فاني قاتلك لا محالة . وصوب عليه الغدارة مرة ثانية .

— إذا قتلتني فانك لا تعرف أمراً .
إذاً قل أين حنة وسريز ؟

فقال اندريا بصوت القانط المغلوب. إنهما في بوجيفال في منزل محاط بروضة واسعة قرب الوادي وهما في حراسة امرأة تدعى مدام فيبار

— إحذر من أن تحاول الهرب فاني أقتلك . وإنك ستبقى في هذا الأسر عندي إلى أن أخبر الكونت بما كان ، ويكتب لي انه وجـد الفتـاتين . وان كنت كاذباً فيما تقول فاني أقتلك بغير رحمة . والآن سر أمامي الى كارلوفان .

فمشى أندريا وهو لا ينبس بكلمة . وبعد أن هدأ روعه نظر يمنة ويسرة ورأى ذلك الممر ، وعلى يمينه البحر العجاج وعلى يساره ذلك الوادي العميق فقال في نفسه : إن عثرة واحدة من الحصان تكفي ان تلقي براكبه إلى هذه الأعماق . وكان معه خنجراً ففطن اليه وجعل ينظر الى الهوة وكان الجواد شديد القرب منها ، فتظاهر أنه عثر وسقط على الأرض فاستل خنجره بأسرع من لمح البصر وطعن الجواد في بطنه طعنة شديدة فصاح ذلك الجواد صيحة منكرة وهوى براكبه الى الوادي

فوقف اندريا يشاهد ذلك السقوط ساخراً وهو يقول حقاً ان هذا المكان يفضل سواه .

ورجع أندريا الى منزل البارون وبات تلك الليلة قرير العين . وفي اليوم التالي خلا بهرمين وبثها جواه بلهجة يأس وحزن عميق . فألفاهـا لا تزال معلقة بفرناند ولكنه أنس منها إشفاقاً عليه لما مثل أمامها من القنوط ، فأيقن من الفوز لعلمه بان الاشفاق هو أقرب الطرق المؤدية الى الحب . وكان يقول في هذا المعنى أن درجات الحب تتألف من ثلاث هي : عدم المبالاة ، والشفقة ، والحب وان بين هذه الدرجات مسافات تعد بالسنين وبالأيام . وقد يحتاج الى أعوام للوصول من عدم المبالاة الى الشفقة وأما من الشفقة الى

الحب فقد يصل المرء بايام قلائل وربما وصل بيوم او بساعة .

وفي اليوم الثاني بينا كانت مدام كرمارك جالسة في قاعة الاجتماع مع بيرابو وتريزا وهرمين دخل الخادم بجرائد باريس فأخذت واحدة منها وتصفحتها ثم وقع نظرها على أصل عنوانه (سرقة في الوزارة) فاسترعت سمع الحضور وقرأت بصوت مرتفع ما يأتي

« حدث في الأسبوع الغابر أن أحد عمال وزارة الخارجية قد اختلس ثلاثين الف فرنك »

واضطربت هرمين وتبسم بيرابو تبسم الأسف ، واندفعت مدام كرمارك في القراءة فقالت

« وكان ذلك ان رئيس هذا المستخدم اضطر الى الذهاب ، وأعطاه مفاتيح الصندوق . ولما عاد وجده قد اختلس ذلك المال وهرب . وقد قبضت الحكومة عليه بمنزل خليلته وزجته في السجن . أما هذا السارق فانه يدعى فرناند روشي » .

فصاحت هرمين صيحة منكرة وسقطت مغميـاً عليها بين يدي أمها . وعند ذلك فتح الباب ودخل اندريا فعلم ما حدث لأول نظرة ، وأسرع الى هرمين وأخذ زجاجة من جيبه ونضح وجهها بما فيها الى ان أفاقت وأخذ الجريدة وقرأ ذلك الفصل ، ثم القاها الى الأرض وهو يقول . اني أعلم هذا من قبل .

وبعد ذلك خلا بهرمين في حديقة المنزل ، وهي تكاد تجن من اليـأس فقال لها : ما يكون جزائي منك إذا انقذته من السجن وبرأت ساحته أمام الشرع ؟

– إني أحبك .

ثم القت بنظرها إلى الأرض وقالت : وإن لم أحبـك فإني أرضى بك بعلاً على الأقل .

ـ إذن سأنقذه .

ـ إفعل يا سيدي وهذه يدي لك منذ الآن

إني مسافر الساعة الى باريس .

ـ إرحل وعندما تعود أزف اليك وأكون امرأتك .

فوعدها ورحل في الحال الى بوجيفال . وكم بلغ من أسفــه عندما وصل وعلم من روكامبول ما مر من الحوادث ، وكيف كان قتل كولار لأنه كان معتمداً عليه في إنقاذ فرناند بأن يدعه يعترف أمام القضاة أنه هو الذي ارتكب جرم السرقة وليس فرناند ثم خطر له خاطر فقال لروكامبول : أين دفنت جثة كولار ؟

ـ قال انها لم تدفن وهي لا تزال في قبو الفندق .

ـ إصغ إلي . إني أجد على وجهك ملامح الذكاء ، وقد رأيت أنك تؤثر خدمتي بدليل خداعك للكونت ، فوجبت علي مكافأتك وسأعينك في خدمتي خلفاً لكولار . والآن اني أريد ان يظهر للشرع ان قاتل كولار هو نيكولو وليس أرمان .

ـ كيف يكون هذا ؟

ـ هو سهل هين ، ويقتضي أن تشهد مع مدام فيبار أمام القاضي ، أنه هو القاتل .

فنقده أندريا مبلغاً وافراً من المال وقال : أعطها هذه الدنانير فهي تطلق عقدة لسانها وعد إلي في الليل لنذهب سوية الى الفندق .

فذهب روكامبول ودخل اندريا الى غرفة حنة التي تركناها قد سقطت على المقعد عندما انبأت بقدوم أرمان ولما رأت اندريا داخلاً اليها وهي تنتظر ارمان صاحت صيحة شديدة ورجعت الى الوراء .

وكان يتوقع مثل ذلك فدعى بسريز ويجميع الخدم ، فساعدوه على اقناع الفتاة انه هو نفس الكونت أرمان دي كركاز وان الذي كانت تحبه باسم أرمان

لم يكن الا خادمه .

ثم تركها على أمل العودة اليها بعد أسبوع للاقتران بها فلبثت حنة حائرة ساهية وخيال ارمان ممثل أمام عينيها .

أما أندريا فانه كان يعلم ان لكولار خليلة في لوندرة فكتب اليها بتوقيع كولار هذه الرسالة :

« حبيبتي املي

« اني سأعود اليك بعد ثلاثة أيام من غير بد ، فقد توفقت بالحصول على مال كثير نقدر ان نعيش به سعيدين ، ان لدي الآن ثلاثين الف فرنك واليك بيان السبب في كسب هـذا المال ، انه من أغرب المضحكات . ذلك اني كنت أطوف يوماً بشارع سانت لويس ، ولما قربت من وزارة الخارجيـة دعتني فتاة كانت تسير مع أمها ، دفعت الي رسالة كي أوصلها الى صاحبها وقد نقدتني أجرتي . وقرأت على الغلاف هذا العنوان (فرناند روشي — في وزارة الخارجية) ، ففضيت الرسالة وقرأتهـا وعلمت أنها من خطيبته التي تدعى هرمين تخبره فيها انها فسخت عقد الخطبة ، وسرت بالرسـالة وأنا أضحك حتى بلغت الوزارة ، وسألت عن فرناند فأدخلوني اليه وكان وحده في غرفة متسعة وأمامه صندوق نقود مفتوح ، رأيت فيه محفظة فيها كثير من القراطيس المالية ، فحدثتني نفسي بسرقتها. وبعد أن أعطيته الرسالة وتلاها نظرت اليه واذا بوجهه قد أقتم بظلام اليأس وخرج من تلك الغرفة وهو يعدو كالمجانين دون ان ينظر الي ، فأسرعت الى المحفظة وأخذت ما فيها من المال ووضعتها في جيب سترته ثم خرجت أترقبه ، ورأيته بعد حين خارجاً من الوزارة وهو يحمل في سـترته تلك المحفظة دون ان يعـلم أنه سيكون له مع الوزارة شأن » .

وقد ظهر للقراء من هذه الرسالة ، اعـتراف كولار بأنه هو الجاني وان فرناند بريء . وقد قلد فيها اندريا خط كولار تقليـداً رائعاً لا يختلف

عن الحقيقة .

وبعد ان أتم كتابتها قدم اليه روكامبول وأخبره بقدوم مدام فيبار . ثم سار واياه الى الفندق وأخرجا جثة كولار من القبو ووضعاها في الغرفة التي قتل فيها ، وأخذ اندريا تلك الرسالة التي كتبها ، ووضعها بجيب كولار وقال لروكامبول اذهب الآن الى مدام فيبار وقل لها أن تسرع الى دائرة الشرطة وتخبر الرئيس بما كان من قتل كولار ، وان القاتل هو نيكولو وان ذينك اللصين كانا يأتيان بكثرة الى فندقها ، وانها سمعت كولار يقول في تلك الليلة التي قتل فيها لرفيقه انه سيسافر قريباً الى لوندرة ، وانها سمعت بعد ذلك دوي الغدارة فصعدت معك الى الغرفة ورأيتما كولار ميتاً وأنذركما هؤلاء بالقتل اذا بحتما .

فذهب روكامبول مسرعاً .

وعند الصباح ذهبت مدام فيبار الى رئيس الشرطة واخبرته بكل ما القاه اليها روكامبول فقبض على نيكولو ، وذهب رئيس الشرطة الى الفندق ونظر جثة كولار وفحص جيوبه ورأى بها ذلك الكتاب الذي كتبه اندريا فلما اطلع عليه سر سروراً مزيداً لبراءته فرناند التي لم يعد فيها ريب بعد تلك الرسالة، فأمر بدفن الجثة وعاد الى السجن وأطلق سراح فرناند ، الذي ذهب تواً الى منزل الكونت ارمان فوجد به ليون وباكارا وارمان الذي كان قلق البال على بستيان لأنه لم يكتب له منذ خمسة ايام ، فقص عليهم كيف كان انقاذه وكيف ان رئيس الشرطة اطلع على كتاب في جيب كولار القتيل يعترف به انه هو السارق ، فثبت لأرمان أن كل ذلك صنع اندريا وانه لم ينقذ فرناند الا ارضاء لهرمين ا.

وفيما هم يتباحثون في هذا الشأن فتح الباب ودخل خادم قصر الكونت في كارلوفان وعليه ملامح الكآبة فقص على الكونت حديث موت بستيان المفجع ، وانهم رأوا جثته على شاطىء البحر وكيف أنهم رأوا

جواده مطعوناً بخنجر .

فازبد وجه ارمان وكاد يتميز من الغضب وأمر باعداد المركبة وقال : هلم بنا الى بريطانيا .

بعد ان وثق أندريا من نجاة فرناند وأخبر هرمين وذويها بما كان من انقاذه وتبرئته ، فتنهدت هرمين تنهد القانط المستسلم الى القضاء وقالت : لقد وعدتك يا سيدي بالقران ولا أزال على وعدي .

وسر الجميع بذلك واتفقوا على ان يكون القران بعد يومين .

ولما دنا اليوم المعين احتفل في منزل مدام كرمارك بعقد الزواج بغاية الاحتفاء وكان الحضور كثيرين والمنزل يكاد يلتهب بالأنوار ولم يبق غير التوقيع على شروط الزواج ليفوز أندريا بتلك الملايين . فبينما المسجل يقرأ تلك الشروط دخل خادم وقال لسيدة المنزل : سيدتي ان على الباب الكونت ارمان دي كركاز مع رفاق له .

ثم دخل الكونت فانحنى أمام مدام كرمـــارك وقال : عفواً يا سيدتي اذ جسرت ودخلت اليكم بمثل هذه الساعة فاني لم أقدم على ذلك الا لسبب خطير. انني يا سيدتي حامل وصية البارون كرماروت الذي توفي منذ شهرين عن ثروة طائلة تبلغ اثني عشر مليوناً .

والتفت الى أندريا وقال : اليس كذلك ؟

فاصفر وجه أندريا وقال : لا أعرف هذا البارون ، ولا علم لي بشيء من أمر هذه الثروة .

ولم يجبه أرمان وعاد الى سيدة المنزل وقال : أتأذن لي سيدتي بابعاد المسجل ريثما أبين لكم حقيقة تجهلونها ؟

فذهب المسجل الى قاعة المدعوين ودنا أرمان من والدة هرمين وبيده ذلك النوط الذهبي الذي أعطاه إياه البارون كرماروت فقال لها : أتعرفين يا سيدتي هذا النوط ؟

فأخذته تريزا ولم تكد تراه حتى اختلج فؤادها وعادت اليها ذكرى تلك الليلة الهائلة فتورد خداهـا بحمرة الخجل ، وأرخت نظرهـا إلى الأرض ، وقالت نعم .

فقال لها أرمان بصوت منخفض : إن هذا الرجل قد تاب عن ذنبه وقـد عاقبه الله عقاباً شديداً وكلفني بعده أن أسأل له منك الصفح .

ثم عاد يخاطب بيرابو بصوت مرتفع فقال يجب يا سيدي ان تغير شروط الزواج فإن السيدة هرمين ليست بابنتك ، بل هي ابنة البارون كرماروت وهي صاحبة الملايين .

فصاح بيرابو صيحة منكرة ، ونظر إلى أندريا فرآه مضطرب كمن صعق أو كمن بـه جنة . أما هرمـين وأمها ، فكانتا ترتجفـان كورق الخريف يحركه الهواء .

ودنا أرمان من أندريا وحدق نظره وقال: إني لو تأخرت ساعة لكنت زوج هرمين وفزت بالملايين ..

فشمخ أندريا بانفه وأجاب لا علم لي بهذه الملايين وسيان عندي إن كانت عروسي غنية او فقيرة فان لدي من المال ما يكفيني ويكفيها .

ـ وأنا أعلم عكس ذلك فإنك كنت زعيم لصوص في لندرا وقد هربت منها الى باريس فصبغت شعرك وانتحلت اسماً غريباً ثم علمت من كولار بوصية البارون وان هرمين هي وريثته فنصبت المكايد السافلة للاقتران بها ولكني وقفت على جميع كيدك ورددته الى نحرك .

ثم نظر اليه نظرة احتقار وذهب الى الباب ونادى : فرناند فرناند ...

فارتعش أندريا وأمسكت هرمين بيد أمها حذراً من أن تقع ودخل فرناند ونظر إلى بيرابو نظرة منكرة ، ودخلت في أثره باكارا وهي بملابس الراهبات فركعت أمام هرمين فقال فرناند . لسنا الآن أمام الحاكم ولا بحضرة القضاة ، بل نحن بحضرة عائلة أنت رئيسها لسوء بختها وهي لا تخونك ، وأنا أسألك

الآن أن توضح له كيف كانت سرقة المحفظة ، وأن تعترف بأني لم أسرق المال.

ودنت باكارا وقالت : إني يا سيدي كنت امرأة خاطئة وأنا أجتهد الآن بالتكفير عن ذنوبي التي ارتكبتها عندما كنت أدعى باكارا .

ثم قصت على الجميع سابق حبها لفرناند وتلك الرسالة التي كتبتها باملاء السير فيليام وبالاتفاق مع بيرابو .

وقال أرمان لأريا : أرأيت أيها الشرير كيف انتصر الخير على الشر أسمعت يا أندريا ؟

ثم أشار بيده الى الباب وقال له بملء الاحتقار : أخرج من هنا . .

وأخذ بيد فرناند وضمها إلى يد هرمين وهو يقول إنك أهل لها وهي أهل لك فليبارككما الله .

فركع فرناند على قدميه ونظرت اليه باسمة ودموع الفرح في عينيها

أما أندريا فإنه خرج وعيناه تتوقدان بجمر الغضب ومر بارمان فقال: انك انتصرت أيها الأخ ولكن ساعتي لم تأت بعد وسوف ترى كيف أنتقم .

وقالت تريزا لزوجها : أؤمل يا سيدي ان لا تحضر زفاف هرمين وأرجو أن تذهب في الحال الى باريس .

فخرج بيرابو كما خرج أندريا واليأس ملء فؤاده

ونهضت باكارا وقالت ، وأنا لا أستحق أيضاً أن أحضر هذا الزفاف فأستودعكم الله وأدعو للعروسين بالرغد والهناء .

ثم حاولت الخروج فأوقفها أرمان وقال لها : تعالي واستندي علي ، فإنه مهما كانت ذنوب المحبين كثيرة وعظيمة فإن الله يغفرها لهم لأنهم كفروا عنها بما قاسوه من العذاب .

وقال أندريا لبيرابو وقد ركبا مركبة البريد عائدين الى بوجيفال تعال معي ان سريز ستكون لك وستكون لي جنة .

* * *

ويذكر القراء أننا تركنا حنة مشغولة البال من وداع أندريا لها وتظاهره بحبها وما القاه عليها من عبارات ذلك الغرام المصنع ، الذي يشبــه تجربة الشيطان للانسان . وقد كان مضى عليها الى ذلك اليوم ثمانيــة أيام من ذهاب أندريا عنها وهي لا يقر لها قرار من غريب ما سمعت ورأت . إنها أصبحت مخدوعة مأخوذة لا تدري إلى أي الرجلين تميل إلى الذي أحبته او إلى الذي قال لها أنا هو ، وبالتالي أتحب الجسم أم الأسم ؟ وهل تهوى الخادم الذي أنقذها أم الرجل الحقيقي الذي انتحل ذلك الخادم اسمه ؟ ثم تغالبها أفكارها ويقوى عليها جمال من تهواه فتقول لرفيقتها سريز : لا يمكن أن يكون ذلك الرجل خادماً ولا يمكن أن يخدعني قلبي .

فلما كانت في مساء ذلك اليوم سمعت مركبة دخلت الدار ودخل عليها الخادم وقال : قد أقبل مولاي الكونت دي كركاز .

ثم خرج ودخل أندريا مسرعاً اليها وركع أمامها وقبل يدها وقال : لقد سمح لي الدهر أن أراك أخيراً .

فنظرت اليه ورأت على وجهه ذلك الجمال الجهنمي الذي لا يمكن للشيطان أن يتزيا باحسن منه فخانتها قواها وصاحت صيحة منكرة وهي تحسب أنها في حلم لا في يقظة ، فأخذها بين يديه وهو يخاطبها : يا حنة ويا حبيبتي ويا حياتي ها قد حضرت اليك ولا فراق يفصل بيننا بعد فأنت ستصبحين عروسي .

فأطبقت الفتاة عينيها وهي ترتجف تحت عوامل وجد ونفور لا يمكن إيضاحها ثم تمثلت لها صورة ارمان فاضطربت في مكانها .

والتفت السير فيليام إلى سريز وكانت واقفة تنظر اليها وقال لها : إنك سترين حبيبك قريباً وغداً تزفين اليه

فسقطت الفتاة على كرسي من هذه المفاجأة فنهض اليها أندريا وسقاها بعض نقط من زجاجة كانت معه فانتعشت واستوت جالسة فقال لها : إذهبي الى الغرفة التي كنت فيها في وسط الحديقة وانتظري قليلاً ، فإن ليون

آت اليك .

ثم أوصلها الى الباب فانطلقت مسرعة مستبشرة بقرب اللقاء ، وخلا له الجو فعاد الى حنة وعيناه تبرقان بنار الانتقام وانطلقت سريز مسرعة الى تلك الغرفة المنفردة وهي لا ترى في طريقها أحد من الخدم كأن القصر أصبح خالياً لا أنيس به سواها ، حتى بلغت غرفتها فوجدت فيها مصباحاً منيراً ، ولكنها لم تسمع حساً ولا حركة فجلست على كرسيها . وإذا برجل قد ظهر بغتة فصاحت وهي لا تعي ليون ، ولكنها لم تلبث أن تأملته حتى صرخت من الرعب وعرفت ان الداخل عليها بيرابو ذلك الشيخ القبيح المكروه ، فأقفل الباب وراءه وتقدم اليها قائلاً · ما أسعدني بلقاك أيتها الحبيبة .

فنهضت سريز من مكانها مذعورة وهربت من وجهه الى آخر الغرفة فقال لها ضاحكاً : ما هذا الذي تفعلينه أتهربين من وجه من يهواك ؟

ثم أقبل عليها فهربت من وجهه ووقعت وراء منضدة تحول بينها وبينه ، فقال لها هازئاً كفى مداعبة وجنوناً يا حبيبة قلبي فانك لا تلبثين ان تتعي ويكون لي ما أريد .

فصاحت الفتاة مستغيثة : ليون . ليون .

فأجابها الشيخ: لقد ضحكوا عليك فان ليون لا يأتي وأنا الذي أتيت مكانه وها نحن الآن وحدنا والباب مقفل فلا أمل لك بالنجاة مني

فعادت الفتاة تصيح مستغيثة وتهرب من وجهه وهو يتبعهـــا حتى تعبت واستولى على جسمها خدر شديد فخانتها قواها وأظلم النور في عينيها وقد أثر فيها الشراب الذي سقاها إياه اندريا تأثيره المطلوب ، فسقطت على الأرض لا قوة بها ولا حراك فهجم عليها الشيخ كما يهجم النمر على فريسته الساقطة ، وإذ بصوت أوقفه مكانه والتفت فرأى رجلين لدى الباب ثم رأى أحدهما قد هجم عليه وضربه والقاه على الأرض ووضع ركبته على صدره وقال : ويل لك أيها الشيخ الأحمق ، لقد أتيتك في أواني .

وكان ذلك الفتى ليون ورلاند و لذي معه أرمان دي كركاز وفتحت سريز عينيها وقالت : أنقذني فقد كدت أموت .

ثم أدارت عينيها في الغرفة وأبصرت ارمان وقـــالت له والشرب يحبس لسانها : حنة .. في البيت .. أسرع أنقذها .

وكان السبب في قدومهما أنهما بينا كانا عائدين الى باريس كان أندريا قد وصل الى مجلس الفتاتين وصرف من فيه من الخدم وخاطب روكامبول : قـــد انتهت حراستك ، فـاذهب الان وأنـا ذاهب في رحلة ، وسـأدعوك متى احتجت اليك .

ثم وعده بمكافأة حسنة ولكنه لم يدفع له شيئاً ، ورأى الغلام لوائح الكدر على وجهه فعلم بفراسته إنه لم ينجح في مسعاه وان آماله قد خابت أو كادت تخيب فانطلق عائداً الى باريس . وفيما هو في وسط الطريق قابله ارمان وليون وهما عائدان الى باريس كما أسلفنا ، فعرفـــاه في الحال انه الغلام الذي خدعها ورمى رفيقها في النهر ، فانقض عليه ليون واحتمله بين يديه الى غابة هناك وجرد خنجره على صدره وتهدده بالموت إذا صاح والتفت الى ارمان وسأله : ماذا تصنع به الان ؟

– نستنطقه عن محل الفتاتين

ثم وضع الخنجر على صدره وقال له . تكلم أو تقتل .

وكان الغلام قد قدر في فكره ان اندريا قد أحبط مسعاه ، وأن لا أمـل بنيل مكافأة منه وان الكونت أغنى منه وأصدق في وعده فرأى أن يبوح في الأمر ، بعد ان يستوثق من نيل المكافأة اللازمة عليه ، فأجابه : مـــاذا تريد مني ؟

فسأله الكونت أن تخبرنا اين حنة وسريز ؟

– لا أدري إلا إذا أعطيتاني ما أريد .

- وما تريد ؟

— الف دينار .
— هي لك فتكلم .

فأخبرهما بجلية الأمر وأن الفتاتين على خطر إذا لم يسرعا لإنقاذهما في تلك الساعة . وأقسم له الكونت ان يعطيه ما طلبه ، فسار الفتى بين أيديهما الى بوجيفال حتى أوصلهما الى غرفة سريز حيث رأياهما داخلين على غرفة ذلك الشيخ الفاسد وحيث قالت سريز لأرمان : اسرع وأنقذ حنة .

وأخذ الغلام بيد أرمان وقال له : تعال يا مولاي فأنا أدلك على مكانها ثم سار به مسرعاً الى غرفتها فسمع صوت أندريا يخاطبها . أحبك يا حنة وستكونين لي .

— أما انا فلا أحبك .

ثم استنار فكرها بغتة وقالت : إنك لست الكونت فان الرجل الشريف لا يفعل هذا .

ورأى اندريا أن لا اللين يفيد معها فانتفض في مكانه وتطاير بريق الغضب من عينيه وقال : نعم اني لست الكونت بل انا أندريا المغضوب عليه وأخو الذي تحبينه وأكرهه كما يكره الملاك الشيطان ولا بد من أخذك بالرغم عنه .

ثم هجم عليها وطوقها بذراعيه وقبل شفتيها تلك القبلة الفاسدة التي يرتعش لها جسم كل امرأة شريفة وقال لها إنك في قبضة يدي وهيهات لأرمان ان ينقذك مني

ولم يتم كلامه حتى سقط الباب مكسوراً ودخل ارمان كالصاعقة وقال: بل يخلصها منك بالرغم عنك فاركع واستغفر الله فقد قربت ساعة مماتك .

فاصفر وجه اندريا وخانته شجاعته لدى الموت فسقط راكعاً على ركبتيه ، والتفت أرمان الى حبيبته وسألها إن هذا الرجل قد أهانك فهو يستحق الموت ولكنه أخي من أمي فماذا تريدين أن أصنع به ؟

— أعف عنه بالله .

فرفع أرمان غدارته من جبهة أندريا وقال له : إني أعفو عنك الآن باسم تلك الوالدة وباسم مرتا التي كنت السبب في هلاكها وباسم هذه الفتاة الطاهرة التي دنسها بشفتيك فاذهب ملعوناً من الله والناس وعسى ان الله يشفق عليك يوماً أنت يا من لم يشفق على أحد .

وبعد ثمانية أيام من هذه الحادثة أقيمت صلاة حافلة في كنيسة باريس إقترن بها الكونت أرمان بحنة وفرناند بهرمين وليون بسريز وكان الى جانبهم على هيكل الكنيسة إمرأة لابسة السواد تصلي وتبكي وهو بأثواب الراهبات ، وقد أصبحت تدعى الأخت لويزا ، وكانت من قبل تدعى باكارا .

انتهت رواية « الارث الخفي »

ويليها الجزء الثاني من روكامبول « التوبة الكاذبة »

الجزء الثاني

التوبة الكاذبة

التوبة الكاذبة

- ١ -

في يوم صفت سماؤه واعتل هواؤه كانت مركبة تسير سيراً حثيثاً عائدة إلى باريس من الضواحي ، وهي جميلة الرونق تدل ظواهرها على أنها مركبة رجل من النبلاء ، وقد جلس في مؤخرها خادمان مرتديان أجمل الملابس التي يرتدي بها خدمة الأغنياء ، وكان في هذه المركبة رجل يناهز الأربعين من العمر وامرأة لا تزال في عهد الشباب ونضارة الصبى وبينهما طفل صغير تقف عند رؤيته الأبصار معجبة بجماله البديع .

وكان الأب والأم يعبثان بشعر هذا الطفل الجميل وهما ينظران اليه نظرات حنو لا يفهم سره غير الآباء والأمهات .

وكان هذا الرجل الكونت أرمان دي كركاز والمرأة قرينته والطفل طفلهما ولد على أثر زواجهما الذي عرفه القراء في القسم الأول من هذه الرواية وكانت المركبة تسير بهما في طريق ضيق وهما يتجاذبان أطراف الحديث ودلائل البشر والسعادة تلوح بين ثنايا وجهيهما فتعرب عما يختلج بنفسيهما من الحب والحنان .

وكان أرمان ينظر إلى ولده ثم ينظر إلى إمرأته ويقول : ما أهنأ الحب وما أجمل ثمرة الزواج ، لقد جعلتني سعيداً في الأرض حتى بت غير طامع

بسعادة السماء !

وكانت حنة تسمع قوله ويغلبها الحنو ولا تجيبه بغير الدموع .

ثم جعل الزوجان يذكران ما لقياه من الهناء في إيطاليا، وكانت حنة تحن إلى هذه البلاد وتذكرها بالشوق والارتياح وقال لها أرمان العلك تؤثرينها على باريس ؟

– اني أفضل كل بلد مهما صغرت في عيون الناس على تلك العاصمة السوداء لقد لقينا بها من الأحداث السيئة ما يدفعني عند ذكرها إلى الحزن والاكتئاب

فاضطرب ارمان وقال : لقد شغلت فؤادي ايتها الحبيبة وما أخالك إلا تعسة في سكنى باريس ، لقد سمعتك مرة تذكرينها بخوف وتذكرين معها أخي أندريا العلك تخافينه الى الآن ؟

– اني لا اكتمك أيها الحبيب ، لقد كنت أخافه خوفاً شديداً لما عرفت به من الميل إلى الانتقام وقدرته على الشر ، أما الآن فقد زالت هـذه الأوهام بتقادم الأيام عليها ، وأنا لا أخاف باريس ولكني أفضل البعد عن الناس ، لأن العالم بأسره قد جمع فيك ومتى كنت وأياك فردين أكون مع العالم أجمع .

فابتسم أرمان وهو يعلم ان امرأته قد أرادت ان تتنصل بهذا الكلام العذب من مخاوفها فقال لها : ليطمئن قلبك أيتها الحبيبة فإن أخي فارقنا فراقاً لا لقاء بعده ، ثم سكت هنيهة سكوت المتأمل وقال : انني في اليوم الثاني من زواجنا أرسلت مع ليون رولاند مئتي الف فرنك هبة الى هذا الأخ الجبار ، وتعهد لي في مقابل ذلك تعهداً كتابياً أن يبرح فرنسا إلى اميركا حيث يجد مجالاً متسعاً للتوبة أو للنسيان أو الندم ولا أعلم ما من امره بعد ذلك ، غير اني وثقت انه سافر إلى اميركا كما علمت من تقارير البوليس السري الذي لا تخفاه خافية .

وقبل أن يتم أرمان حديثه سمع سائق المركبة يصيح منذعراً ويقول : احذر ثم أوقف المركبة مضطراً بعد أن كرر الانذار مراراً .

فاضطرب الزوجان وسأل أرمان السائق عما أصابه ، فأجابه وقد سكن روعه لزوال الخطر : لقيت رجلاً منطرحاً على الطريق فما استطعت اجتنابه لضيق الطريق ولم يسمع صوت تحذيري ويجتنب الخطر

– انه سكران ولا ريب . ثم نادى واحداً من الخادمين اللذين كانا في مؤخر المركبة وقال له : اذهب وانظر في شأن هذا الرجل .

ثم لم يتمالك أن ذهب في أثره وخرج من المركبة وتبعته امرأته حتى أشرفا على الرجل الممدد على الطريق وإذا به رجل حافي القدمين ممزق الملابس وعلائم الشقاء بادية على وجهه الضئيل وهو في حالة تقرب من الاغماء .

فأشفقت حنة عليه وقالت : يا له من بائس مسكين لقد قتله الجوع .

ونادى أرمان أحد خدمه قائلاً أسرع بزجاجة الشراب .

ثم أخذها من الخادم وجعل يسقي بيده من شرابها المنعش ذاك الرجل المسكين غير أنه لم يلبث أن حدق به حتى اضطرب قائلاً . ما هذا الشبه الغريب أنه لا يفرق عن أخي بشيء ودنت منه حنة ايضاً ورجعت إلى الوراء مذعورة وقالت هو هو بعينه ولا مجال للريب .

وأقام أرمان هنيهة وهو مكب عليه ينشقه الروائح المنعشة حتى استفاق من اغمائه فجعل يقول بصوت متقطع كصوت الحالم ؟ لقد عضني الجوع . أين أنا . كيف سقطت في الأرض .

ثم جعل يقلب طرفه بين الحاضرين حتى استقر على ارمان فحدق به تحديق المنذهل ، ثم ظهرت عليه دلائل الخوف والذعر حين تبينه ، فأجفل وحاول التخلص من أيديه ولكن رجليه لم تقويا على حمله فسقط ثانية على الأرض .

ولما رآه ارمان على هذه الحال جال الدمع في عينيه من الحنو وصاح به ألست أندريا ...

فاجابه الشحاذ بصوت مختنق . . من هو أندريا ... انه مات ولا أعرفه وأنا ادعى جيروم الشحاذ ، وقد نطق بهذه الكلمات بصوت يتجلج وحاول

الافلات ثانيــة من أيدي الخادم فخانته قواه وسقط أرضاً مغمياً عليه وقــد صبغت هيئته باصفرار الموت .

فنسى ارمان جميع ما ارتكبه اخوه من الذنوب ولم يذكر غير شيء واحد وهو ان هذا الرجل البائس اخوه وسرت هذه العاطفة الشريفة نفسها إلى قلب امرأته فامرت وأمر الخادمين ان يحملاه إلى المركبة فلما نقلاه اليها أمر السائق أن يذهب مسرعاً إلى باريس .

ولم يفق اندريا من اغمائه الطويل إلا وهو مسجى فوق سرير في غرفــة أخيه وحوله الطبيب وجميع من في المنزل فدنا ارمان منه وقال له : طب نفساً إنك الآن عندي أي في بيتك وبيت اخيك فنظر اليه أندريا نظرة المتذعر ثم قال له كلا لست بأخيك ، بل أنا رجل متشرد لا مأوى له ولا زاد بل أنا رجل شقي ينتقم مني الله بعدل لفرط ما أسأت إلى الله وإلى الناس بل أنا ذلك المذنب الأثيم التائه في بوادي الندامة يلتمس الغفران ويقتله تقريع ضميره مراراً كل يوم .

وصاح ارمان صيحـــة فرح وقال وافرحتاه انك رجعت عن غرورك وثبت الى رشدك فاسرع الى احضان اخيك وأعلم ان أمنا واحدة وقد حملتنا في بطن واحد .

فقال اندريا بصوت أجش : أنسيت الذي قتل هذه الأم ... ثم تنهد تنهد القانط وسأله . ألا تعدني يا أخي باطلاق سراحي حين أؤوب الى العافية فاسير في طريقي . ان قطعة من الخبز وكأساً من المـــاء يكفيان ، ولا يحتاج جيروم الشحاذ الى أكثر من هذا .

وأشفق ارمان عليه وقال : ما اصابك وما هذا الشقاء الذي بلغت اليه ؟

– انه شقاء اختيار لا شقاء اضطرار لقد مثلت لي ذنوبي بشكل رائع هائل فندمت ولم أجد بداً من التكفير عن تلك الذنوب وذلك انك اعطيتني حين مبارحتي باريس مائتي الف فرنك فما انفقت منها فلساً ولا تزال وديعــة في

مصارف نيويورك ليوزع رباها بأمري على المستشفيات لأني لست في حاجة الى شيء . وقد حتمت على نفسي أن أطوف الأرض وأمر بالناس متذللا مستجدياً فلا آكل غير فضلات خبز المحسنين ولا أبيت إلا على الطرق فافترش الأرض والتحف السماء وعسى ان يغفر الله لي بعد هذا التكفير إنه لغفور رحيم .

فبرقت اسرة ارمان من الفرح باهتداء اخيه وقال له . لقد كفى ما كفرت به وأنا اضمن لك عفو الله وأغفر لك جميع ما أسأت به إلي ، ثم طوقه بذراعيه وقال له : كلا انك تعيش في منزلي كما يعيش الاخوان ، ابق ايها الأخ الحبيب بيننا ، إنك ستكون سعيداً مع اخيك وأمرأة اخيك وابن اخيك .

- ٢ -

مضى على ذلك شهران تمافى في خلالها اندريا وكان لا يزال مقيماً في منزل أخيه ولكنه كان يتقشف تقشف الزاهدين امام اخيه ويجلد نفسه بالسياط لا يطالع غير الكتب المقدسة ويشتغل النهار كله في محل تجاري فيعطي جميع ما يكسبه لإمرأة أخيه كي توزعه على الفقراء ولا ينام في الليالي الباردة إلا على الأرض وهو يجري جميع ذلك دون ان يدع أحداً في المنزل يقف على ما يصنع بنفسه لشدة مبالغته بالتكتم في الظاهر غير ان اخاه ارمان كان يراقبه مراقبة شديدة فيقف على جميع ما يصنعه ويخبر امرأته بما يراه فكانت تعجب بندامته اعجاباً شديداً حتى باتت تحسبه من الأبرار الصالحين وتشفق عليه اشفاق أخيه وطالما طلبت الى زوجها ان يلح عليه ويكرهه على تغيير خطته والاشفاق على نفسه فكان يظهر لها عجزه عن ارجاعه حتى وثق الزوجان ان حياته لا تطول .

وفيما هما يتباحثان ليلة في شأنه قال ارمان لامرأته لقد خطر لي رأي

أرجو أن أتمكن به من انقاذ حياة هذا الأخ التائب .

وما عسى ان يكون هذا الرأي ؟

– تعلمين اني حين سفري وإياك إلى إيطاليا عهدت إلى أصدقائنـــا فرناند روشي وليون رولاند والأخت لويزا ان ينوبوا عني باغاثة البـــائسين ودفع نكبات الفقر عن اولئك العمال والعاملات الذين تصدهم المروءة عن الالتماس وارتكاب المحرمات ولا يجدون من رواتبهم القليلة مـــا يردون مكائد الدهر ويدفعون به غدر الزمان ، أولئك هم الفقراء والفقيرات ، وليس الفقـــير ابن السبيل الملتمس ما بأيدي الناس .

– أعلم جميع هذا ..

– ولقد وفى اولئك الأصدقاء بجميع ما عهدت به اليهم فوقوا كثيرات من البنات غوائل السقوط وانقذوا كثيراً من الفتيان منغالب اليأس فجرى ذلك مشروع الخير في مجراه ولكن مشروع العدالة لم ينفذ بعد .

– ماذا تريد بهذا القول ؟

– اصغي اليّ ، لقد التقى منذ عشرة أعوام رجلان في مرتفع يشرف على باريس فأشار أحد الرجلين بأصبعه الى تلك العاصمة وجعل يقول

« يا مدينة باريس العظمى ، ويا ملكة العواصم بك اجتمع النعيم والهناء ، وبساحتك استقر البؤس والشقاء،يا بابل القديمة ان الذنوب فيك تحتك بالفضائل وأصوات الضحك تقترن بأنات البكاء ، وأغاني الحب تمتزج بدموع اليـأس ، والقاتل السفاك يمشي على الأرض التي يمشي عليها الورع الزاهد ، وقد عجزت شريعتك عن معاقبة المجرمين وعجز أولو البر فيك عنإغاثة البائسين فما عوقب مسيء ، ولا كوفىء محسن، ومن لك برجل مومسر شريف يغل يد الظالم ويجبر قلب البائس ويرثي لدمع الأرملة ويحن لشقاء اليتيم » .

ثم أشار الآخر باصبعه الى العاصمة قائلاً :

« يا ساحة الملذات ونعيم الدنيا وقطب الأماني ، لقد وصفت بجمال نسائك ،

واشتهرت بالبدائع ، فمن لي بالذهب الكثير استغوي بها الفتيات الطاهرات ، واشاري به النفوس الشريفة فاصرفها الى الغواية واستخدمها فيما أريده من التمتع بملاذ الشباب » .

إن هذا الرجل ، بل هذا الداهية الذي كان يتفوه بهذا الكلام كان أخي أندريا الذي بات اليوم من المساكين . وكان ذلك الرجل المشفق الذي كان يتمنى الثروة لإنفاقها في سبيل إغاثة الملهوف زوجك أرمان وقد ظفر كلانا بما كان يرجوه ويتمناه أما وقد تاب أخي توبة لا رجوع بعدها الى المعاصي فقد رأيت ان أستخدمه لردع شرور الفاسقين فإنه إذا كان قد رجع عن الغي والضلال والمنكرات فإنه أعلم باصحاب الآثام وأبصر بطرق منع الشرور ومثل هذا الرجل الحاذق الذي يعد من النوابغ اذا جرد قريحته لمقاومة الشر يدفع كثيراً من البلاء عن أخيه الانسان .

ثم انك تعلمين اني معين بوليساً سرياً لهذا الغرض ، فإذا عينت أخي رئيساً لهذا البوليس السري يبلغ بحسن إدارته أقصى درجات الكمال .

فاستصوبت حنة هذا الرأي وقالت : لا أظن ان أخاك يأبى قبول هذه المهمة فانه اذا كان يزهد للاستغفار فإن دفاعه عن الأبرياء ومقاومته للشر تدنيه أكثر من التقشف .

وفيما هما يتباحثان إذ دخل خادم الكونت وأعطاه غلافاً ضخماً يتضمن كتاباً مسهباً ففضه ارمان وجعل يقرأ ما فيه كما يأتي :

« إن بوليس سيدي الكونت السري أخذ الآن بالبحث عن جمعية سرية عقدت حديثاً في باريس ، وقد ظهر ان هذه الشركة متشعبة في جميع العاصمة ، ولم نقف بعد على شيء من طرقها في الاجراء ولا عرفنا رئيسها وأعضائها . غير أنه تبين لنا ان الغرض من هذه الشركة ان يتحصل أعضاؤها على جميع الوسائل السرية المشوشة لنظام العائلات فيستخدمونها للانذار والتوصل لما يريدونه من الأغراض وقد بذلنا الجهد للوقوف على أسرارها فلم نظفر بعد بشيء

ولكننا لا تفتر لنا همة عن اقتفاء أثرها » .

ولما فرغ ارمان من تلاوة هذا الكتاب أخبر امرأته بمضمونه وقال : إن الله أرسل لنا أندريا لمقاومة هؤلاء اللصوص .

ثم دعا خادمه وأمره ان يذهب ويدعو له أخاه أندريا .

إن من عرف الفيكونت أندريا أي السير فيليام أي أخو أرمان دي كركاز أي ابن الكونت دي فيليبون على ما مثل في رواية الارث الخفي السابقة ينكره متى رآه الآن ، وقد امتقع لونه وهزل جسمه ، وهو بملابس تدل على الزهد ، فإذا مشى أرخى نظره الى الأرض ، واذا تكلم نطق بصوت ضعيف ، وإذا نظر الى محدثه نظر اليــه نظرة الضعيف للقوي ، وقد ذهب رواءه القــديم وخمدت جذوة نظراته الجهنمية .

وكان لا يجسر ان يطيل النظر الى امرأة أخيه كأن مرور أربعة أعوام لم يمح آثار ذنوبه وإساءته اليها فلما قدم الى أخيه وقف أمامه وأمام امرأته وقفة الذليل وقال : ها قد أتيت فماذا تحتاج مني ؟

– إني دعوتك لأني محتاج اليك

فبرقت عين اندريا باشعة الفرح وأضاف : حبذا الموت في خدمتك .

– إني لا أطلب اليك ان تموت بل أن تحيا .

وقالت إمرأة أخيه : أي ان تعيش كما يعيش الناس .

ثم أخذت يده بين يديها وضغطت عليها بحنو وإشفاق فاحمر وجـــه اندريا وحاول ان يجذب يده وهو يخاطبها : لست أهل يا سيدتي لحنوك فما أنا غــير أثيم شريد .

فتنهدت حنة ورفعت عينيها الى السماء وهي تضيف : لا شك إنه من الأبرار .

وأضاف أرمان : إنك تعلم ايها الأخ العزيز إني موقف نفسي ومالي لعمــل الخير وأنا أرجو مساعدتك لي في هذه المهمات

فارتعش أندريا وأجاب أيبقى الخير خيراً إذا تدنس بيدي الأثيمة ؟

فرد أرمان : إني لا أطلب اليك ان تعمل الخير ، بل ان تساعدني على مقاومة الشر .

ثم دفع اليه التقرير الذي ورده من البوليس السري .

وبعد ان قرأه أندريا ، وهو يظهر العجب والدهشة أضاف أرمان : إنك قد شقيت في توبتك وندمك شقاء عظيماً كان شفيعاً لك الى عفو الله والآن فعد الى ما كنت عليه من النشاط والذكاء والجرأة النادرة كي تستطيع أن تقاوم أولئك اللصوص .

وأطرق أندريا هنيهة ثم أجاب . سأكون ذلك الرجل .

فسر الكونت غاية السرور وقال الآن قد وثقت من كشف الستر عن هذه الجمعية الهائلة .

وفيما هم على ذلك فتح الباب ودخلت منـــه امرأة لابسة ملابس سوداء كما تلبس الراهبات ، ولم تكن هذه المرأة بل تلك الفتــاة غير التي عرفها قراء روايتنا السابقة باسم باكارا ، وقد مات كل شيء من تلك الفتاة التي كانت من أشد بنات الهوى غدراً ، ولم يبق فيها حياً غير جمــالها النادر الذي لا يقيدها بشيء ، وقد استبدلت اسمها القديم باسم الأخت لويزا على اننــا نستسمح القراء ونبقي لها اسمها فتبــدو لهم بذلك الحال الغريب الذي كانت تسعى ان تخفيه بالملابس الضخمة ولكن الوردة لا يستر جمالها ما يحيط بها من الشوك غير ان هذه الفتاة التي عرفت أسرار الهوى ثم تابت بعد ان حبسها أندريا في مستشفى المجانين لم تبق من مظاهر التجمل غير ذلك الشعر المنسدل على كتفيها كالأراقم السوداء

ولما دخلت باكارا هشت اليها مدام دي كركاز ومدت لها يدها للسلام ، فظهرت على وجهها علائم الخجل ، كما بدت هذه العلائم على وجه اندريا . فقام أرمان وأمسك بيدي باكارا وأخيه وخاطبهما قائلاً : لقد كنتما شيطانين

على الأرض تتعاونان على الشر ، فأصبحتما بعد توبتكما ملاكين ، فتعاونا الآن على الخير .

ثم وضع يد باكارا بيد أخيه . فنظرت باكارا الى أنـدريا وهي تقول في نفسها لقد خدع أرمان وخدعت إمرأة أرمان ، فإن مثل هذا القلب لا تصل اليه التوبة .

- ٣ -

بينما هذه الحوادث تجري في بيت ارمان كانت حادثة أخرى تجري بعد ساعة في شارع آخر .

وكان الليل حالك الأديم والضباب كثيفاً ، حتى ان المار بذلك الشارع لم يكن يستطيع ان يهتدي لسبيله على كثرة أنوار الغاز لشدة عصف الهـواء الذي كان يهب على تلك الأنوار فيقبض السلتها من حين الى آخر . وكان في عطفة من ذلك الشارع بيت كبير حسن الظاهر ، فلمـا انتصف الليل كثر طرق باب هذا البيت ودخل اليه خمسة رجال الواحد بعد الاخر ، فكان الداخل منهم يدخل من الباب العام فيسير عدة خطوات في دهليز طويل حتى يبلغ الى باب سري في حائط الدهليز فيطرقه ثلاث مرات متوازنة فيجيبـه صوت من الداخل قائلاً : أين تذهب العلك أتيت لتسرق خمري ؟

فيجيبه الطارق من الخارج : كلا ، فإن الحب صالح (وهي جملة مصطلح عليها بينهم)

فيفتح الباب عند ذلك ، ويدخل الزائر ويجد بصيصاً من النور ينبعث من مصباح ضعيف ويرى أمامه سلماً طويلة ، ولكنها غير ذاهبة صعداً كالسلالم المألوفة ، بل أنها كانت تخترق جوف الأرض فينزل منها الزائر حتى يصل

الى غرفة متسعة رصفت بها براميل الخمر بعضها فوق بعض ، وفي صدر هذه الغرفة منضدة حولها خمسة كراسي مصفوفة ويرى جالساً على المنضدة شاباً جميل الطلعة ، لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة ، وأشعة الذكاء تتوقد من عينيه ، فيحيى هذا الغلام تحية المرؤوس ، ثم يجلس في مكانه من القاعة .

وكان عدد الحضور خمسة ما عدا الرئيس فكان أحدهم حسن الملابس وفي عروة ثوبه إشارة تدل على انه من أصحاب الوسامات والثاني يناهز الثلاثين والثالث شيخ عجوز تبدو عليه مظاهر القوة والرابع غلام يبلغ سن الرئيس والخامس شاب تدل هيئته على انه من خدم البيوت الكبيرة .

ولما تكامل عدد المدعوين نظر اليهم الرئيس وحدثهم قائلاً إن جمعيتنا أيها السادة يطلق عليها عنوان الجمعية السرية وأعضاؤها أربعة وعشرون عضواً ليس بينهم من يعرف الاخر على ان لكل منهم الحق بالوقوف على نظام هذه الجمعية وأخص بنوده ان يطيع الأعضاء طاعة عمياء لا حد لها رئيسنا الذي لا يعرفه أحد سواي لأني الوسيط بينه وبينكم .

فانحنى الأعضاء عند ذكر الرئيس إشارة الاحترام .

وأضاف : وقد صدر أمر الرئيس ان تجتمعوا أنتم الذين دعوتكم دون سواكم كي يعرف بعضكم بعضاً لأنكم ستشتركون بعمل واحد نؤمل ان يعود علينا بالخير العميم ولا أعلم شيئاً من ذلك فإن مهمتي بينكم ان أنقل اليكم أوامر الرئيس السري كما أتلقاها منه .

ثم التفت الى أحد الأعضاء فناداه بلقب ماحور وقال: إنك تزور كثيراً من الأسرات النبيلة

فأجاب الماجور ، أجل .

فجعل الرئيس الصغير يقلب أوراق كتاب كتب عليها رموز إصطلاحية ، الى ان عثر بما يبحث عنه فسأله : الك معرفة بالمركيزة فان هوب ؟ وهل

أنت مدعو الى الحفلة الراقصة التي ستحييها ليلة الأربعاء القادمة ؟
- أجل .
- اليست هذه المركيزة أسبانية أميركية تزوجت بهولاندي وعمرها الان ٣٠ عاماً ؟
- أجل .
- أهي غنية كما يقولون ؟
- إنهم يقدرون دخلها السنوي بمليون فرنك
- أصحيح ما يروى عنها انها تحب الفنون الجميلة وانها كانت تتعلم صناعة النقش منذ عهد قريب ؟
فنهض أحد الحاضرين وقال ذلك لا ريب فيه فاني كنت أستاذها
وأضاف الرئيس أصحيح ان زوجها يغار عليها غيرة شديدة وانه لا يتجاوز الأربعين من العمر ؟
- إنه بات بغيرته مضرب المثل ولكنها غيرة في غير موضعها لأن المركيزة معروفة بالطهارة والعفاف .
فأومأ الرئيس بيده الى أحد أعضاء الجمعية وأضاف انك ستصحب معك ليلة الرقص المسيو شاروبيم وتعرفه بالمركيز
وكان شاروبيم هذا في مقتبل الشباب وله جمال عجيب لقب من أجله باسماء الملائكة ثم عرف به الماجور وبعد ذلك قال له اليس للمركيزة علاقة مودة مع امرأة تبلغ الخامسة والثلاثين ؟
- أجل ، وهي أرملة تدعى مدام ملاميس ، لقيتها مراراً كثيرة عند المركيزة
- ألم تكن متهمة بواجباتها الزوجية في حياة زوجها ؟
- هي تهمة يدري بها الأكثرون .
ولكن المركيزة لا تعلم شيئاً من حياتها السابقة ، وتحسبها من أفضل

النساء ، وكذلك الدوق مايلي الشيخ فإنه يهواها ويحاول أن يتزوجها فيحرم حفيده الكونت مايلي من إرثه العظيم وقد أوشك ان يسقط هذا الكونت في مهاوي الإفلاس .

– بل سقط ولم يبق له من ماله غير الندم على ما فات .

فالتفت الرئيس الى أحد أعضاء الشركة وقال له : إن هذه الأرملة التي نذكرها محتاجة الى رجل يدير منزلها ويكون لها وكيلا في أعمالها فاذهب اليها واعرض عليها خدمتك .

فأحنى الرجل رأسه إشارة الامتثال ، فقال له الرئيس : إنك كنت بالأمس مستخدماً في قصر الدوق مايلي الشيخ وطردت منه ؟

- بل إني دعوته الى طردي امتثالاً لأوامركم .

– هو ذاك ولكنك نسيت أن ترد الدوق مفتاحاً كان ائتمنك عليه وهو مفتاح حديقة بيت الأرملة ، ولا بد ان تكون قد عرفت عوائد الدوق وكيف ينفق وقته في مدة خدمتك له

– أجل لقد خبرته خبرة تامة شأني في معرفة جميع من أخدمهم .

فأبدى الرئيس علامة الرضى وقال له إنك تذهب في الغد الى صانع أقفال فتصنع مفتاحاً آخر مثل المفتاح القديم وترده الى الدوق وتبقي المفتاح الاخر معك فتدفعه الى هذا .

وأشار بيده الى أحد أعضاء الجمعية .

ولما فرغ من ذلك قال للحضور : إنكم الان قد عرفتم بعضكم بعضاً فانصرفوا الى شؤونكم وستردكم التعليمات الى منازلكم .

ثم فض الجلسة وتفرق الحاضرون فلم يبق في الغرفة الا الرئيس الصغير ، وعند ذلك سمع طرقاً على باب سري فدنا من الباب وأجاب أدخل ايها السيد فقد انصرف الجميع .

ففتح الباب وظهر منه أندريا وهو يقول بلهجة الساخر : لقد أعجبني منك

يا روكامبول انك ترأس الجلسات كما يرأسها القضاة .

أما روكامبول الذي يظهر الان بمظاهر السيـــادة فما هو إلا روكامبول الذي عرفه القراء في آخر رواية الارث الخفي ، أي ابن الأرملة فيبار الذي أطلع أرمان على دسيسة اندريا حينما كان يريد اغتصاب عروسه ، وقد سافر بعد هذه الحوادث مع اندريا الى نيويورك فتبناه اندريا وأحسن اليه لما توسم فيه من الذكاء ، ثم جعل يدربه ويعلمه اسرار مهنته الى ان نبغ فيها ولما رجع من نيويورك الى باريس صحبه معه وجعل يشاركه في كل إثم وزور حتى الف أخيراً هذه العصابة التي تقدم ذكرها فعينه رئيساً بالظاهر عليها وبقي هو الرئيس الحقيقي .

فلما دخل اندريا عليه حاول ان يخبره بما كان من امر العصابة فقاطعه : لا حاجة لي بذلك فقد سمعت كل شيء بل اني في حاجة الى الطعام فأعد لي أفخره لأني لم أبتلع شيء منذ الصباح .

— إذن لندخل الى البيت حيث تجد فيه جميع ما تشتهيه .

ثم دخل الاثنان يتأبط كل منهم ذراع الاخر واندريا يقول : سترى ايها الأخ العزيز كيف يكون الانتقام

— ٤ —

ولما بلغا الى داخل البيت الذي كانا يجوزان اليه من ابواب سرية دخلا الى غرفة الطعام وجلسا حول المائدة يأكلان ويتحدثان وقد افتتح الحديث اندريا فسأله كيف حال الصندوق ؟

فأجابه روكامبـــول : أي صندوق تعني ؟ أصندوق الشركة أم صندوقي الخاص ؟

- بل صندوقك فاني أعلم ميزانية الشركة

- لقد ذهب معظم مالي بما أخسره في المقامرة فقد خسرت امس مائة جنيه وأنت الذي أمرتني أن أخسر

- هو ذاك .. فإنه يجب على المرء ان يزرع كي يجني ، ومن يحسن الزرع يحسن الحصاد .

- وإني أنفق كثيراً على هذه الخليلة التي لا أعلم كيف أرضيها وهي كالحوت لا يرويه شيء يلتهمه .

- إنك ستطلق سبيلها في القريب العاجل ، فلم يعد لي بها حـــاجة وقد أدركت منها ما اريد .

فأجابه روكامبول وقد جمعت نفقاتها ونفقــات المنزل وخسائر القمار فبلغت ٤٠ الف فرنك في هــذا الشهر ، ولا يمضي على ذلك زمن يسير حتى تفرغ جيوبي .

- لا بأس فسأملأها إذا كنت تحسن الطاعة والسلوك .

فنفر روكامبول وقال : لعــل مولاي يشكو مني قصــوراً في طاعتي وامتثالي ؟

- كلا ، ولكننا مقدمون على أمر خطير يجب فيه الطاعة العمياء .

- أيطلعني سيدي على حقيقة ما ينويه .

- نعم ، فإن لي بك ملء الثقة وما أتيت اليك في هذه الليلة المدلهمة إلا لهذا الغرض ، ولا بد لي قبل إطلاعك على ما أريد من مقدمة صغيرة ، وهي أن الطاعة والحب والاخلاص ومعرفة الواجبات كلها كلمات لا معنى لها في قاموسنا ، ومن كان مثلنا لا يدفعه الى الاخلاص غير الفائدة والصالح .وهذا هو خير تعريف لما يدعوه الناس بالصداقة ، ودليل ذلك انك لو عثرت على رجل أشد مني في مواقف الذكاء وأفادك أكثر مما أفيدك لتخليت عني ونقضت عهدك او تكون من زمرة الجهال ولكنك لا تجد الآن فأنا أطلعك على شيء من

مقاصدي دون ان أخشى منك نقض عهد .

فأعجب روكامبول بكلامه ، وأجاب : إني طوع لارادتك ، فمر بما تشاء .

- لنبدأ من الأمور بأهمها . فقل كيف رأيت روايتي المضحكة في دخولي الى بيت أخي ؟

- هي خير ما رأيته على مراسح التمثيل ، فقد أتقنت تمثيلك والاغماء على قارعة الطريق ، حتى لقد خدعت به انا على ما أعرفه من حقيقته ، ولو لم أكن انا ذلك السائق الذي كان في مركبة أخيك لداستك المركبة ، ثم ان توبتك وندمك وجميع ما تبديه من مظاهر الصلاح لا يقوى على بعضه اشهر الممثلين ولكني لا أظنك تستطيع ان تعيش طويلاً على هذا التقشف والزهد .

- إني أعيش دهراً عيشة الأذلاء كي أروي غلي من الانتقام وان الانتقام أعرج بطيء السير ولكنه يصل .

ثم أخذ اندريا يتأمل هنيهة وهو يعد أصابعه فقال : نبدأ بالكونت ارمان لأنه أعظم أعدائي .

- وأنا أبدأ بخنجري فإنه افضل سلاحي .

- كلا لم يحن الوقت بعد . ثم أتليه بامرأته حنة فإنها لم تحبني بعد ولكنها ستحبني ثم أتليها بباكارا فانها ستبكي بكاء شديداً حين أقبض عليها وتندم الندم العظيم لافلاتها من مستشفى المجانين .

فقاطعه روكامبول . ولكنها في جمالها وذكائها ، وخير لك ان تكون صديقتك

- لدي افضل منها وهي ستكون لك بدلاً من خليلتك ، اذا أحسنت السلوك .

ثم عاد الى حسابه وأضاف : وبعد باكارا يأتي فرناند روشي ، فقد اتهمناه

بالسرقة فلم نفلح ، ولا نفوز الآن ايضاً بمثل هذه التهم ، فانه من كبار الأغنياء . ولكننا سنمثله للقضاء قاتلاً سفاكاً ، والثروة لا تعصم الأغنياء من جريمة القتل .

– وما عساك تصنع بامرأته هرمين ؟

فأجابه أندريا ببرود : إن هذه المرأة قد تنــازلت الى حبها ، فرفضت حبي . ولذلك سأسحق كبرياءها بقدمي وأرمي فؤادها بهوى يحط مقامها ويصم حياتها الحاضرة والمستقبلة بوصمة عار لا تمحى ، فأجعل عرضها مضغة الأفواه وأزج بها الى الحضيض . ثم أضاف وبعد ذلك يأتي دور ليون رولاند ، فلقد قتل هذا الأبله كولار رئيس عصابتي السابق ، ودم رجالي لا يذهب هدراً .

– وماذا تصنع بامرأته سريز ؟

– الحق اني لا أريــد بهذه المرأة شراً . ولكن والد هرمين لا يزال مفتوناً بها حتى لقد جن في هواها ، وقد وعدته وعوداً احب ان أنقضها .

– أهذا كل ما تبغيه من الانتقام ؟

– أجل .

– وحنة امرأة أخيك ؟

– إني لا أكرهها بل أحبها .

وكأن هذه الكلمة التي خرجت من فمهذا الرجل الهائل كانت قضاء مبرماً على أرمان دي كركاز وحكماً بموته لا يدفع .

فسأله روكامبول : لقد أخبرتني باسماء الذين تريد الانتقام منهم ولكنك لم تقل لي شيئاً عن طريقة الانتقام .

فابتسم اندريا ابتسام الأبالسة وقال إن من يريد الانتقام لا يكشف طرق الانتقام بل يبقيها مكتومة في صدره .

فغير روكامبول مجرى الحديث وقال إذن فقد عولت على ان تستمر على

زهدك الحاضر .

— أجل .

— أفي مثل هذا الشتاء القارص تنام بغرفة لا نار فيها ؟

- إن في قلبي من نار الانتقام ما يكفيني للاصطلاء .

—.أتشتغل جميع ساعات النهار في ضبط الحسابات ومسك الدفاتر في مخزن حقير.

- كلا فان أخي العزيز قد كفاني مؤونة هذا العمل الشاق فجعلني رئيساً لبوليسه السري .

ثم أخبره بجميع ما كان بينه وبين ارمان . وكيف انه سيضل هـذا البوليس فلا يدعه يقف على شيء من أسرار جمعيتهم السرية. ولما انتهى من حديثه سأله روكامبول :

- لقد كتمت عني طريقة انتقامك . أفتكتم عني أيضاً هذا السر الذي الفنا من أجله هذه الجمعية ؟

— نعم أخبرك بما يجب ان تعلمه ، أي بالمقدمات التي لا بد من إيقافك عليها فاسمع :

إن هذا المركيز الذي يدعى فان هوب والذي يقدرون ثروته بالملايين لو لم يتزوج لكانت ثروته تقدر بأضعاف ما هي عليه الآن ، وذلك أنه كان لهذا المركيز عم فقير فبرح وطنه الهولندي في صبـــاه وسافر الى الهند فدرت له أخلاف الثروة وتزوج بامرأة هندية فولدت له بنتاً ترك لها مهراً يبلغ عشرين مليوناً ، وقد ذهب المركيز فان هوب منذ عشرة أعوام لزيارة عمه في الهند فأقام عنده زمناً طويلاً وأحبته ابنة عمه حباً شديداً ، وقد جاهرت به لأبيها وأخبرته انها لا تتزوج سوى ابن أخيه . فرضي الأب بهـذا الزواج وتوافق عليه العاشقان .

وكان المركيز قبل الخطبة عازماً على الطواف حول الأرض فأجل الزواج الى

انتهاء الطواف وودع الخطيبة ورحل .

وقد بدأت رحلته من جزائر الأنتيل ، حتى إذا بلغ إلى هافانا رأى فيها فتاة شغفت لبه وملكت قياده ، فنسي ابنة عمه وحنث بوعوده واقترن بتلك الفتاة .

فقال روكامبول : يا له من أبله أيترك عشرين مليوناً كي يمتثل لصوت فؤاده الضعيف ؟

— ولكن امرأته غنية أيضاً . وهو يحبها حباً بلغ به حد العبادة ، غير أن هذا المركيز لم يفطن لتلك الجذوة التي أشعلها في قلب ابنة عمه فقد كانت تحبه حباً لا يحيط به وصف ولا تزال ، وقد مضى على زواجه ثمانية أعوام ، وهي تحبه ذلك الحب الشديد ولكنه حب مقرون بالانتقام .

— إذن تكرهه ؟

— كلا بل انها تعبده ، ولكنها تريد الانتقام من خصيمتها فيه ، ومن كان له عشرون مليوناً فلا يصعب عليه مثل هذا الانتقام .

— هذا ميسور . وأنا أتعهد لها بقتل إمرأة المركيز إن أعطتني مئة الف فرنك .

فقال أندريا ببرود : إنها ستعطيني خمسة ملايين .

فدهش روكامبول وقال : متى وعدتك ؟

— منذ عام .

— أتعدك بهذه الثروة الطائلة منذ عام وتصبر عليها الى الآن ؟

فضحك اندريا ضحك الساخر وقال : إنك لا تزال على سابق عهدي فيك فإنك تستطيع ان تكون يداً عاملة منفذة ، ولكنك لا تقدر ان تكون الرأس المدبر .

— كيف ذلك ؟

— لأن الهندية لا تريد الاقتصار على قتل المركيزة بل انها تريد ايضاً الزواج

بالمركيز ، وإذا كان هذا المركيز يحب امرأته هذا الحب ، فهو لا يتزوج سواها ، إذا فجع بها بعد عهد قريب ، بل قد يقتل نفسه بعد قتلها ، فنخسر الملايين ولذلك يجب ان يكره المركيز امرأته قبل ان تموت أو تقتل ولا يجب أن يحب غير ابنة عمه الهندية . ولا نقبض الملايين الخمسة إلا بهذا الشرط

فقال روكامبول : لقد بدأت ان افهم ، ولكنه عمل شاق يحتاج إلى الدهاء الكثير .

– وليس الجزاء بيسير .

– وأين رأيت هذه الهندية ؟

– رأيتها في نيويورك . فاسمع حكايتها فانها لا تخلو من الفكاهة .

٥ -

قبل أن نرجع من نيويورك ، وذلك منذ بضعة أشهر ، بينما كنت راجعاً الى المنزل في المساء رأيت مركبة يسوقها أربعة جياد تسير سير الهويناء ، وفي صدرها صبية تدل هيئتها على انها بين الخامسة والعشرين او الثلاثين من العمر فاستوقف نظري ما رأيته بهذه الصبية من عينين متوقدتين كأنهما تخرج منهما شهب النار ووجه متجهم بالسويداء ، وملامح تدل بجملتها على الاسترسال بالملاذ . غير ان تجهمها على صباها وظواهر غناها كان يشير على ان في حياتها سراً من الأسرار ، فوقفت أنظر اليها نظرة الفاحص ، وأنا أبعد عنها عدة أمتار ونظرت إلي وحدقت بي ، ثم برقت أسرة وجهها كأنها تقول : هذا هو الرجل الذي أبحث عنه . ثم أمرت السائق بالوقوف فوقف ، أما انا فاني دنوت من المركبة وجعلت انظر اليها نظرات تخترق النفس، ثم قلت لها : ماذا تبتغين؟

قالت بصوت أجش ، تبدو من نبراته علائم الظمأ الى الانتقام أريد رجلاً قوياً .

- إنك نكبت نكبة غرام فغدوت كاللبوة فقدت أشبالها

- هو ذاك فاني أحب وأكره لحد الموت .

- إذ الانتقام يقتضي له المال الكثير .

فقالت ببرود : أيكفي ٢٠ مليوناً ؟

فلم أنبس بعد ذلك بحرف وصعدت الى المركبة فجلست بالقرب منها فسارت بنا المركبة سيراً حثيثاً حتى بلغنا الى قصرها ، فنزلت وأخذت يدها ودخلنا الى إحدى قاعات المنزل فأقفلت الباب وأجلستني أمامها ثم قالت إني لم أرك غير الآن ولا أعلم من أنت ولا من اي بلاد أتيت ولكني قرأت في عينيك ما دلني على انك ذلك الرجل الذي أبحث منه من دهر طويل يكون عوني في ما أبغيه من الانتقام .

- لقد صدق نظرك فأنا هو ذلك الرجل

- إني أهوى ابن عمي وأريد ان أتزوج به .

- إذن فلا بد من قتل امرأته .

- أصبت وليس أسهل من قتلها فان لدي كثيراً من الخدم إذا امرت احدهم بقتلها لا يعود الا مخضباً بدمائها ولكنها اذا ماتت مثل هذه الميتة زاد شغفه بها ولا أنال منه شيئاً .

- إذن كم تعطي الرجل الذي يزيل جميع هذه الموانع ويجعل ابن عمك يهيم بك .

- اعطيه كل ما يريد فاطلب ما تشاء .

- أطلب خمسة ملايين .

- أتموت امرأته موتاً فظيعاً وينساها زوجها ؟

- اجل .

— ومن يقتلها ؟

— زوجها !

فصاحت صيحة فرح وقالت : لك ما طلبت من الملايين .

— إذن إطمئني فسيقتلها بيده ويلعنها بعد قتلها ويعود اليك بعد شهرين من رمله فيجثو مستغفراً على قدميك .

فنهضت الى منضدة عليها أدوات الكتابة وأخذت ورقة فكتبت عليها حوالة على احد مصارف باريس بخمسمائة الف فرنك فدفعته الي وهي تقول : خذ هذا المبلغ لنفقاتك الأولية .

ثم كتبت لي تعهداً بالملايين الخمسة اقبضها حين انتهاء العمل فأخذت الحوالة والتعهد وقلت : إني مسافر غداً الى باريس فاصبري وكوني على ثقة مني فاذا ورد اليك كتاب من بوجيفـــال قرب باريس دون توقيع ادعوك فيه للحضور فاحضري في الحال .

ثم تركتها ومضيت وبعد يومين سافرت الى باريس .

فقال له روكامبول : ألم ترها بعد ذلك ؟

— نعم فقد رأيتها امس وهي تتنظر في باريس منذ يومين .

ثم تبسم ابتساماً علم روكامبول من خلاله ان المركيزة فان هوب حكم عليها بالموت وبيعت حياتها بخمسة ملايين فرنك .

وبعد ذلك قال له روكامبول : بقي ان اسألك سؤالاً آخر وهو ما شأن الأرملة مالاسيس معنا ؟

— إنها عماد روايتنا ، فانها بالظاهر لا علاقة لها مع المركيزة فان هوب ولكنها في الحقيقة يدها العاملة . وذلك ان زوج المركيزة صديق للدوق دي مايلي ، عشيق الأرملة ، وسيتزوجها اذا ترك وشأنه ، ويحرم حفيده من إرثه .

— أيهمك هذا الحفيد ؟

- ولكنه يدفع على الأقل خمسمائة الف فرنك إذا مات الدوق قبل أن يحرمه من الأرث .

. ولكن ملايين الهندية أعظم من آلافه وخير لنا لو تجردنا لها .

- هو ما تقول ولكن لدينا أسباباً كثيرة تقضي علينا بالتجرد للأمرين وذلك لأن المركيز وامرأته لا يعرفـــان حقيقة علائق الدوق الشيخ مع الأرملة ولكنهما يعلمان فقط انه هائم بها وان المركيزة تحب الأرملة حب الأخاء وتحسب أنها من أعف النساء فهي تتمنى أن تراها زوجة الدوق ، غير ان هناك أمراً آخر وهو ان المركيز شديد الغيرة على زوجته وقد اتفق مرة أن حفيد الدوق الشيخ طمع بحب المركيزة ولم يفز بشيء ، فبـــات المركيز يكرهه أشد الكره ، ولذلك فإنه يتمنى أيضاً أن يتزوج الدوق بالأرملة كي ينتقم بحرمان حفيده من الارث .

وبهت روكامبول . أهذا كل ما تريد أن تقوله فإني لم أفهم شيئاً من هـــذه الألغاز ولم أر شيئاً من التحام المسألتين ..

- ستنجلي لك هذه الألغاز في المستقبل القريب ولكنها منحصرة بكلمتين وهما : ان سقوط امرأتين متفقين أهون من سقوط امرأة واحـــدة وذلك إذا أصيبت هـــذه الأرملة بسهام الغرام وهي تكاد تبلغ سن الكهولة حيث يبلغ الغرام فيه إلى أقصى الحدود فانها تعترف بهذا الحب لصديقتها المركيزة ، ومتى أحبت المركيزة شاروبيم الجميل وهو من أعضاء جمعيتنا تقتدي بالأرملة وتبوح لها بهواها .

- إن هذا لا ريب فيه ولكن ..

فقطب أندريا حاجبيه قائلاً : كفى .. لا أزيد حرفاً على ما قلت ..

ثم قام يريد الذهاب . فسأله روكامبول : بقيت مسألة مالية أرجو أن توضح لي أمرها .

- قل !

- اننا اتفقنا أن نقتسم ما نكسبه بجمعيتنا السرية فيكون النصف لك والربع لي والربع الباقي لبقية الأعضاء فهل تكون قسمة ملايين الهندية على هذه القاعدة ؟

- بالتقريب فاني سأعطيك مليوناً والأعضاء مليوناً وأبقي لنفسي ثلاثة ملايين !.

فأحنى روكامبول رأسه دون أن يجيب ، فأدرك أندريا استياءه وقال بلهجة المؤنب . أنسيت أني سأتزوج بامرأة أخي وان هذا الزواج يقتضي له كثير من النفقات ؟

فابتسم روكامبول وقال له وقد رآه يهم بالذهاب : متى أراك ؟

- بعد ثلاثة أيام !

- ومتى استبدل الحلة القديمة بالجديدة ؟

- متى عرفت أن تصبر !

ثم ودعه وخرج فركب مركبة وسارت تقطع به شوارع باريس في تلك الليلة المدلهمة حتى وصلت إلى عطفة شارع مونمارتر فاستوقفها ونزل ثم أطلق سراحها ومشى قليلاً إلى أن وصل إلى بيت مرتفع ونظر إلى نافذة الدور الأخير فرأى نوراً ضعيفاً ينبعث منها فقال : أنها لا تزال تنتظرني .

ثم تقدم الى الباب وصعد الى الدور الأول حتى بلغ إلى آخر بيت فيه ولما طرقه سمع صوت فتاة من الداخل تقول : من الطارق ؟

- هو الذي تنتظرينه ففتحت له الباب ودخل .

* * *

٦

وكانت الغرفة التي دخل اليها حقيرة الأثاث ، تدل على ان صاحبتها حديثة العهد في مهنة الغواية ، فسرح أندريا نظره فيها ثم نظر مبتسماً إلى تلك الفتاة التي كانت تنتظره فيها ، وهي فتاة في مقتبل الشباب تناهز العشرين من العمر وتجول بين عينيها ملامح الذكاء على جمال بارع وعينين تعرفان مصارع القلوب.

وحكاية هذه الفتاة أنها خرجت من المدرسة وهي في الخامسة عشرة من سنيها فزوجها أهلها على الكره منها بشيخ عجوز واقامت معه على أحر من نار الغضى ثلاثة أعوام ثم افلتت من قيده كما يفلت العصفور من القفص وانطلقت في سبيل الغي والضلال حتى أدركت أسرار هذه المهنة الشائنة .

وقد التقى بها اندريا وهو يبحث عن امرأة يستخدمها في سبيل مكائده ، وهي تبحث عن رجل يحقق اطماعها الواسعة ، فتعارفا وتواعدا على أن يزورها في منتصف الليل ، دون أن يطلعها على شيء من مقاصده ، ولما حان الموعد أقبل اليها كما قدمناه ، وجلس أمامها قرب نار خفيفة وجعل يفحص سماتها فحص المدقق الخبير ، وهو معجب بجمالها النادر ، وبما كان يتوسم فيها من مخائل الذكاء . وبعد وقت قصير قال : لقد آن لي أن أطلعك على مقاصدي ، إعلمي قبل كل شيء أني واقف على أسرار حياتك ، عالم بجميع ما تعانيه من الشقاء ، فهل تريدين الخروج من هذا الشقاء واستبدال هذه الغرفة الحقيرة بقصر جميل في أشهر شوارع باريس ؟

فبرقت أسرة عينيها وحسبت انه فتن بجمالها وقالت : ومن يأبى سكنى القصور ؟

- هو قصر بديع في شارع مونسي تكتنفه حديقة غناء كان من قبل لفتاة مومس كان يلقبها عشاقها باسم باكارا ، باتت تدعى الآن الأخت لويزا

فضحكت ضحك الساخر وقالت لقد عرفت من صواحبي شيئاً من تاريخ

هـذه النائبة البلهاء ، وما فعلت بقصرها العلها تريد بيعه الآن ؟

- كلا !. فإنه لي بل لك إذا كنت ترغبين ، وقد اشتريته بما فيه من الأثاث منذ ثلاثة أشهر بمائة الف فرنك ، وعينت فيه الخدم والخادمات ، وأرسلت اليه الخيل والمركبات ..

فقاطعته تقول بصوت الوجل المضطرب : أتهديني كل هذا كما تقول ؟

- هو لك إذا كنت توافقينني فيما أريد .

وضربت الأرض برجلها وقد نفذ صبرها ثم قالت بلهجة المتهكم : مـــاذا تبتغي مني .. الملك عاشق لي !

فابتسم اندريا قائلاً : لو أردت هذا الغرام لما حالت دونه مظاهري .

- إنك تجاوزت عهد الشباب وبلغت الخمسين

- كلا . إني لم أبلغ الثلاثـين ، ولو أردت الغرام كما قلت لعرفت طريق قلبك بالرغم من هذه المظاهر .

ولكنك تجهل طريقك من هذا القصر .

- بل بغير هذا القصر ..

- ربما . قد تكون منزلتك فوق منزلة البشر

- لنعد الآن إلى حديثنا فقد قلت لك أني سأعطيك القصر وأعـين لك الخدم والخادمات وأهبك الخيل والمركبات وأزيدك الف فرنك أدفعها لك في كل شهر لنفقاتك الخاصة ، ولكني سأعتمد عليك مقابل ذلك في كثير من الأمور الخطيرة

- إذن أنت تريد المضاربة بجمالي .

هو ذاك فإني أطلب اليك غواية شاب تبلغ ثروته اثني عشر مليوناً غير ان غوايته ليست بالأمر اليسير لأنه متزوج ويحب امرأته حب العشاق .

فقالت بلهجة الواثق كن مطمئناً سأنزع هذا الحب من قلبه

- إذن أمهلك ثلاثة أشهر . اسلبي أمواله وانهبي فؤاده كما تشائين على ان

تؤديه الي خاملاً مجهولاً ، وهذا كل ما ابتغيه

— والملايين ؟

— هذا أمر خاص بي وسنتفق عليها في غير هذا المقام لأني لا أكترث بهـا الآن !

— ألا تخبرني عن اسم هذا الرجل ؟

— نعم .. فهو فرناند روشي .

ثم نهض فودعها قائلاً إلى الغد .

فشيعته إلى الباب وهي منذهلة لا تصدق ما سمعته وقبل أن يخرج سألهـا عن اسمها فقالت : حنة !

— انه اسم مبتذل لا يخلق بمن ستمثل مثل دورك فغيريه .

— أي اسم تختاره لي ؟

فنظر إلى عينيها الزرقاويين نظر المبهت من جمالها وقال : اني استبـدل اسمك بلقب ينطبق على صفاء عينيك فأدعوك الفيروزة .

فضحكت وقالت : ليكن ما تريد .

ثم تركها أندريا وذهب مسرعاً إلى بيت أخيه فرأى النور مضيئاً في غرفة الكونت وقرع الباب ودخل ، فانذهل الكونت لما رآه وقال : أين كنت !

فأجاب أندريا : كنت في باريس ، أم تجعلني رئيساً لبوليسك السري ؟

— وماذا علمت ؟

— لقد وقفت على اسرار الجمعية السرية ولكني لا أطلعـك على شيء الآن فنم مطمئناً واعلم ان أعضاؤها لا يزالون ضعفاء،وسأبدد شملهم قبل ان يشتدوا.

ثم ودعه وخرج إلى غرفته فأوصد بابها من الداخل وأخذ من خزانتـــه كتاباً خطياً ضخماً مكتوب عليه من الخارج بحروف كبيرة هـذا العنوان : « تاريخ حياتي الثانية » ، وكان يكتب فيه كل يوم بضعة أسطر ففتحه وهو يقول انه رأي مبتدع سيكون له شأن خطير في تحقيق ما أبتغيه ، ولقد

أحسنت بما كتبته في صدره من الاشارة الى أنه كتاب خاص لا يحق لأحد أن يطالع فيه ، ثم كتب في إحدى صفحاته ما يأتي :

« ٣ دسمبر »

« لله ما أشد شقائي وما أعظم ما قاسيت في هذا المساء ، لقد تمثلت لي حنة ، امرأة أخي بشكل آلهة الجمال تلك التي أحبها حباً ليس بعده حب.. رباه عفوك وتب عليّ ، لقد تقطع قلبي اليوم حين رأيت زوجها يقبلها امامي واسبل علي ستر رحمتك فإني أحبها منـذ اختطفتها وجعلت بيني وبينهـا هوة عظيمة بهذا العمل الفظيع » .

ثم أطبق الكتاب وابتسم ابتسام الأبالسة وهو يقول : انهـا متى وقفت على هذه السطور ، وعلمت حبي الصحيح فلا تمانع عن الزواج بي بعد قتـل زوجها .

٧

عرف القراء مما قدمناه عن باكارا كيف استحالت هذه الفتاة أو توبتهـا لقد كانت تبالغ بالزهد حتى باتت تشبه النساك الزاهدين ، واقفة حياتهـا على خدمة البائسين ، والقاء البذور الصالحة في نفوس الفتيـات ، ومساعدة أرمان دي كركاز في ما كان ينفقه في سبيل الخير ، فاشتهرت بهذه المعيشة الصالحة وأصبحت ملجأ المعوز اليتيم ، وكان الفقراء يتوافدون الى منزلهـا أفواجاً ، والرجال الأغنياء يأتونها من كل فج يلتمسون منها توزيع حسناتهم على الفقراء البائسين .

على انها مع شدة زهدها وانقلابها كانت لا تزال حريصة على بعض من آثار خلاعتها السابقة ، فقد كان لها في منزلها الرحيب غرفة خاصة لا يدخلها

أحد من الخدم ، ولا يلجها سواها ، وفي هذه الغرفة جميع ما كان لديهـا من أدوات التبرج والتزين ، ولعلها أبقتها كي تذكر برؤيتها أويقاتها الهائلة فتكون خير دافع لها الى الاسترسال في التوبة .

وكان في صدر الغرفة صورة كبيرة تمثل فرناند روشي وهو نائم على سرير إشارة إلى الليلة التي حمل فيها إلى منزلهـا كما عرف القراء في القسم الأول من هذه الرواية ، وفي جدار آخر صورتها وهي مجردة خنجراً تريد قتل خادمتها فاني إشارة إلى خادمتها السابقة في مستشفى المجانين. وكانت في كل ليلة تدخل إلى هذه الغرفة وتنظر إلى صورتها ، فتبدو عليها علائم الاشمئزاز والنفور ، وتنظر إلى صورة فرناند حبيبها القديم فتنطبع على محياها الجميل دلائل الخشوع وتنطلق عيناها بالدموع فتركع امام الرسم وتصلي .

ثم تخرج من الغرفة فتنفي هذه الذكرى من مخيلتها ولا تفتكر إلا بمشاريع الاحسان والترقي إلى الله بما تصنعه من الخير ولا يزال هذا دأبهـا منذ بدأت توبتها إلى هذا العهد من سياق الحديث .

ولقد تقدم لنا القول ان نساء الخير كن يأتينها ليعهدن اليها توزيع حسناتهن السرية، فاتفق انه بعد يومين مضيا على اجتماع اندريا بالفتاة التي نعتها بالفيروزة قدمت المركيزة فان هرب إلى منزل باكارا وطلبت أن تراها ، فـأجفلت باكارا حين علمت بقدوم المركيزة وكأنها خجلت من نفسهـا أن ترى أعظم نبيلة بين عقائل باريس تنسى حياتها السابقة وتزورها في منزلها فقابلتهـا مطرقة باستحياء

أما زيارة المركيزة فلم تكن إلا لأنها وردت اليها رسالة من عائلة فقيرة تلتمس منها الاحسان ، وجاءت إلى منزل تلك العابدة كي تعهد اليهـا إيصال إحسانها إلى تلك العائلة

ويسمح لنا القارئ ان نسدل الحجا ـ على تلك المقابلة الأولى بين هـاتين المرأتين اللتين سيؤلف بينهما الشقاء فيما سيجيء من فصول هـذه الرواية غير

أننا نقول ان هـذه الليلة كانت موعد الليلة الراقصة التي تحييهـا المركيزة في قصرها وهي الحفلة التي سيقدم فيها شاروبيم الجميل أحد أعضاء اللجنة السرية للمركيزة كما تقدم في فصل سابق .

- ٨ -

بعد ساعتين من زيارة المركيزة كان رجلان يسيران إلى منزلها لحضور الليلة الراقصة وهما شاروبيم والماجور العضوان العاملان في الجمعية السرية ، وكان شاروبيم يقول لرفيقه الذي كان يريد تقديمه للمركيزة : إني لم أعلم المراد من تقديمي لهذه المركيزة ، فهل تعلم أنت شيئاً من ذلك ؟

– ألا تعرف رئيسنا ؟

– لا فإني أتلقى أوامره بواسطة روكامبول ؟

– ألا ترى اننا نركب متن الطيش والغرور حين نقبل أن نقاد كالعميان ؟

فقال له الماجور : وأي ضرر علينا من ذلك لاسيما أنت فإن غاية ما يطلب اليك ان تحمل المركيزة على حبك ، وما أنت بصديق لزوجها فترتكب خيانة وغاية ما تلقاه من الخطر في تمثيل دورك هذا انك تضطر إلى مبارزة المركيز فهل تخاف هذه المبارزة ؟

– إذا كان هذا كل الخطر فإني أسير كما تريد بل كما يريد رئيسنا .

وانطلق الاثنان حتى بلغا الى بيت المركيزة فدخلا اليه .

ولم يكن قد تكامل عدد المدعوين وكان المركيز وصديقه الدوق مـابلي والشيخ يتخطران في قاعة الاستقبال ذهاباً وإياباً ، ولما دخل الماجور وشاروبيم قدمه بيده للمركيز ، فسلم عليه المركيز ولكنه ما لبث ان رأى جماله النـادر حتى هلع قلبه ، فانحنى أمامه الاثنان ثم انصرف الى المركيزة وكانت جالسة

في زاوية من القاعة العمومية ، وامامها حفيد الدوق مايلي والأرملة مالاسيس صديقتها وهي تروي لها أحاديث مضحكة كان يعاونها فيها حفيد الدوق فقدم الماجور رفيقه شاروبيم الى المركيزة كما قدمه للمركيز .

وبينما كانت المركيزة معجبة بشاروبيم تحادثه بارتياح وتنظر اليه نظرة الاستحسان إذ دنا رجل عليه ملامح الانكليز فوضع يده على كتف الكونت مايلي حفيد الدوق وأشار اليه ان يتبعه ، فتبعه الكونت منذهلاً لأنه لم يكن يعرفه من قبل .

أما الانكليزي فلم يكن إلا اندريا وقد تلبس بملابس الانكليز وقلد لهجتهم وسائر حركاتهم بحيث لم يعد يفرق عنهم في شيء وقد دعا نفسه السير ارثير وتعرف على المركيز بواسطة احد اصحابه فدعاه الى ليلته الراقصة .

وسار اندريا والكونت حتى بلغا إلى قاعة مشرفة على القاعة العمومية ، فجلسا إلى منضدة وافتتح اندريا الحديث فقال : أسألك المعذرة ايها الكونت فإني ما دعوتك الا لمباحثتك بأمر هام .

- قل ما تشا. فإني مصغ اليك

فأشار اندريا الى الأرملة وقال . ما رأيك بهذه المرأة .

فالتفت الكونت ورأى الأرملة فأجفل مضطرباً وقال : لا رأي لي فيها !

فابتسم اندريا ابتساماً معنوياً وقال انها حسناء .

فقال الكونت : انها تبلغ الأربعين

- كلا .. إنها لا تتجاوز الخامسة والثلاثون ولكنها لم تبلغ بعد العشرين في عين جدك الدوق

واصفر وجه الكونت وجعل ينظر إلى أندريا نظر المستطلع فـــاستطرد أندريا الحديث قائلا : إن هذه الارملة التي كانت زوجة عطار ستغدو زوجـة دوق وتحمل اسم اسرتك بعد شهر ، وأنا أعلم انك تتوقع ذلك منـذ عهد بعيد غير اني أرجوك ان لا تنظر اني هذه النظرات وأن تصغي إلى النهـــاية

لأني لك من المخلصين .

واستبشر الكونت خيراً بحديثه وقال قل إني مصغ اليك

— انك وريث الدوق الوحيد وهو ذو ثروة واسعة ، فإذا تزوج هـذه الأرملة انتهت الثروة اليها غير اني أعرف رجلاً يستطيع منع هذا الزواج وإبقاء الثروة لوريثها الشرعي ؟

فاصفر وجه الكونت وقال : من هذا الرجل ؟

— هو أنا يا سيدي .

وعند ذلك دخل أحد الخدم وصاح معلنـــاً قدوم فرناند وامرأته حسب عادة الافرنج في الحفلات الكبيرة .

— ٩ —

واختلج فؤاد اندريا عندما نظر فرناند وهرمين ، غير انه ما لبث أن عاد إلى رشده دون أن ينتبه اليه الكونت ، أما الكونت فإنه اندهش لما قاله له أندريا وقال له : انت تستطيع إبقاء ارثي ؟

— نعم إذا وافقتني فيما أريد .

— لا بد ان يكون لك شروط فاقترح ما تشاء

وابتسم اندريا وقال له أخبرك قبل كل شيء اني لا أريد منك درهماً من مالك على انك لو طلب اليك أن تدفع مليوناً مقابل حصولك على ارث الدوق أما كنت تدفع المليون ؟

— أدفعه بملء الرضى ؟

إذاً . إطمئن فإني لا أسألك مالاً كما قلت ، واعلم ان هذا الدوق الذي سترثه رجل شيخ وقد تمكن الغرام من قلبه الضعيف حتى أصبح كل

حياته ، وإذا فقد تلك الأرملة التي كوته بهواها ، فهو مائت لا محالة ، ولكن هذه الأرملة على ما كانت عليه من الخفة والطيش كانت شديدة الحرص على كتمان غوايتها السابقة ، حتى انه لم يبق أثر من آثارها يستند عليه في سبيل ارجاع الدوق عنها ، ثم ان العاشق قد أعياه حبها فهو لا يحفل بمثل هذه البراهين ولذلك فإنه يجب ان يعلم بالبرهان ما طالما علمه بالخبر وليس لدي شيء من هذه البراهين الحسية .

فاضطرب الكونت وقال : على ما عولت إذن ؟

- على أن أوجد هذا البرهان .

- إنك لا تريد مالاً جزاء عن هذا الصنيع فلا بد أن يكون لك مطلب آخر

هو ذاك فليس في هذا العالم شيء مجاني وليس لي مطلب غير الانتقام من امرأة اساءت إلي

- عجباً أتصنع جميع ما أنت عازم على صنعه من أجل الانتقام من امرأة ؟

- اني انكليزي .

وجم الكونت كأن هذا الجواب قد افحمه ثم قال له : كيف تريد أن تنتقم فاني سأكون يدك في هذا الأنتقام كما أرى .

- هو ما رأيت .. والذي أطلبه اليك هو أن تحتال على تلك المرأة حتى تحبك .

- لا أحب إلي من ذلك ولكن هذه المرأة قد تكون فاضلة طاهرة بحيث لا يمكن جذب فؤادها بالزمن القصير .

- اني أمهلك قدر ما تشاء .

- واذا تزوج الدوق قبل انتهاء المهلة ألا يفسد كل شرط .

فحدق به اندريا تحديق المستطلع ثم قال له : ان بين جنبيك قلباً شريفاً فاذا أقسمت بشرفك أن تفي بعهودي كما أفي بعهودك أنلتك مأربك قبل أن

تنيلني مأربي .

ــ أقسم لك بما تشاء غير أن هناك أمراً قد يحول بين قلبها وقلبي وهو انها قد لا تحبني مهما بذلت في مرضاتها من الجهد .

ــ عدني انك تبذل جهدك هذا وتخضع لما أرشدك به فاذا فعلت جميع ذلك دون ان تنجح فاني لا أطالبك بشيء

فأقسم له الكونت على الوفاء وقال له : بقي ان تذكر لي اسم هذه المرأة .

فقال اندريا بصوت منخفض: لم يحن الوقت بعد غير انه قد يحدث في هذه الليلة براز بين رجلين يكون احدهما زوج المرأة وتكون أنت أحد الشاهدين ومتى عرفت المرأه وربما تعرفها فيهذه الليلة تبتديء معها بتمثيل دورك والآن فاني استودعك الله الى أن نلتقي فكن حريصاً على كتمان هذا السر أشد الكتمان لأن أقل هفوة تبدر منك قد تهدم جميع ما تبنيه

ثم حياه وانصرف فاختلط بين اللاعبين في قاعة اللعب ودخل الكونت إلى قاعة الرقص .

ودارت الخاصرة على أنغام الموسيقى إلى أن وهت قوى الراقصين فذهب النساء الى المقصف مع بعض الرجال ودخل بعض الرجال الى قاعة اللعب حتى غصت بهم وكان بعضهم يلعبون لعبة الباكاراء على منضدة كبيرة كان حواليها كثير من الناس بينهم اندريا متنكر باسم انكليزي وروكامبول متنكر باسم كونت ، فدخل فرناند روشي والورق بيد روكامبول فقامره فرناند فخسر ، ثم الثانية والثالثة والرابعة وروكامبول يربح منه دائماً ، ثم أظهر روكامبول كأنه قد طمع بالربح الزائد فعرض جميع ما لديه من النقود للمراهنة فاجفل الحاضرون لجسامة المبلغ ولبثوا هنيهة يترددون إلى أن دفعت الجسارة فرناند روشي فاخرج من جيبه جميع ما كان معه من الاوراق المالية وقال لروكامبول: أنا أراهنك ، وهذا المال .

فنظر اليه روكامبول ثم أعطى الذي بيده الى جاره وقال له ببرود : أني

تنازلت عن حقي بالورق .

فاحمر وجه فرناند من الغضب وقال لروكامبول: ماذا تريد بذلك يا سيدي؟

– لا أريد شيئاً سوى اني تنازلت عن الورق وذلك من حقوقي بنظام اللعب؟

– ولكنك قد بسطت اموالك على المنضدة وجعلت تطلب منذ حين من يراهنك عليها فكيف تمتنع حين تقدمت لمراهنتك ؟

– ذلك لأني وجدت الانسحاب أفضل .

ثم ترك المنضدة وانصرف فساد السكون بين الحضور لهذه الاهانة الظاهرة وبات كلانا يخشى عقباها ، أما اندريا فانه نظر إلى الكونت مايلي الذي كان جالساً بالقرب منه ، نظرة خفية فهم منها أن فرناند هو زوج المرأة التي طلب اليه إغواؤها فهمس في اذن أندريا وسأله قائلاً : من هو هـذا الشاب الذي ترك الورق ؟

– الفيكونت دي كمبول ..

– والآخر؟

– فرناند روشي زوج المرأة التي أخبرتك عنها والتي رقصت وإياها منـذ حين أفهمت الآن ؟

فأجاب الكونت وهو يضطرب : نعم .. لقد فهمت كل شيء .

– ١٠ –

أما فرناند فإنه غادر غرفة اللعب وذهب يبحث عن روكامبول فلقيه في إحدى الغرف وهو بمعزل عن الناس ، فبدأ معه بطلب الاعتذار عن إهانته ، فأبى روكامبول ، وما زالا يتدرجان من العتب إلى الملامة إلى الاحتجاج حتى انتهى بهما الأمر إلى المبارزة ، فرفع اليه فرناند رقعة الزيارة المكتوب فيهـا

اسمه وعنوانه وقال له : إلى الغد .

فأبى روكامبول أن يؤجل المبارزة إلى اليوم التالي مدعياً انه سيسافر إلى إيطاليا في الصباح وقال له : نتبارز الآن !

ووافقه فرناند وانطلق إلى القاعة العمومية يبحث فيهـا عن شاهد له ، وكانت هذه أول مرة يزور فيها قصر المركيز فان هوب ، ولم يلق بين المدعوين أحداً من أصدقائه المخلصين وفيما هو يبحث إذ لقي الماجور ، وهو أحد أعضاء الجمعية السرية كما تقدم فاستأنس بلباسه العسكري والتمس منه أن يكون شاهداً له في مبارزته بعد أن قص عليه حكاية الخصام ، فقبل الماجور راضياً وجعل الاثنان ينتظران عودة روكامبول الذي كان يبحث أيضاً عن شاهد له بين جمهور المدعوين .

أما روكامبول فإنه كان يبحث عن أندريا المتنكر في تلك الحفلة باسم السير أرثير ، وقد لقيه في إحدى الغرف المعتزلة وهو جالس يحـادث بيرابو والد هرمين وعاشق سريز باهتمام ، ونظر اليه روكامبول نظرة ممنوية أجابه أندريا بمثلها ، فوقف معتزلاً عنهما يتوقع تتمة الحديث .

وقد عرف القراء من القسم الأول من هذه الرواية حكاية بيرابو والد هرمين وكيف انه يهوى سريز وقد كاد يفتك بها بمساعي أندريا لو لم ينقذها ارمان وورولاند ، غير أن حب الشيوخ لا يزول من نفوسهم مهما تعـاقبت عليه الأيام وحالت في سبيله العقبات

وحكاية هذا الرجل انه بعد أن فشل في اغتصاب سريز خرج مع أندريا ثم انقطعت أخباره ، ولم يعلم منها شيء . وبعد أن مضى على اختفـائه سنة كاملة ورد إلى صهره فرناند روشي كتاب من أحد مستشفيات المجاذيب أخـبر فيه أن حماه يقيم في هذا المستشفى خارج باريس منذ عهـد طويل لاصابته بالجنون ، وان الداء قد خفت وطأته في هذه الأيام فتمكنوا من معرفة اسمه ، وأرسل فرناند في الحال من أتى به إلى باريس وأقام في منزله مع ابنته فزالت

عنه أعراض الجنون، ولم تكن تعود اليه إلا حين تذكر أمامه كلمة سريز ، ولكن جنونه كان لطيفاً هادئاً يميل به إلى الهزل المقبول والنكات المضحكة بحيث لم يكن يمنعه عن زيارة الأسرات

وقد لقيه أندريا في تلك الليلة فعرفه بنفسه ، لأنه لم يستطع أن يعرفه لتخفيه ، وعاد معه إلى حديث سريز ومشروع انتقاله الجديد ، وزخرف له القول حتى أقنعه ان سريز باتت في قبضته ، فطار فؤاد بيرابو من الفرح ، وقبض على أندريا بيد من حديد ، وبات طوعاً له في كل ما يريد ، وكان آخر ما ختم به الحديث معه انه سيعرفه بالكونت مايلي ، وطلب اليه أن يعرفه بابنته هرمين ، فرضي بذلك هذا الشيخ شاكراً وهو مستعد لتضحية كل عزيز في سبيل تحقيق أمنيتــه بسريز ، وعنـد ذلك أخذه اندريا وسار به إلى الكونت مايلي حفيد الدوق ، وعرف كل منهما بالآخر وأخبر الكونت سراً ان بيرابو قدمه إلى ابنته هرمين ثم غادرهمـا وعاد إلى روكامبول وأخبره بجميع ما صنع ، وانه ترك فرناند يبحث عن شاهد قال : أنا شاهدك فامض بنا واحذر أن تنسى ما علمتك إياه ولا تصمه إلا في المكان الذي أخبرتك عنه دون أن تقتله ، فإني أريد أن أبلغ منه الآن ما هو أشد من القتل .

سيكون ما تريد .. وذهب الاثنان لمقابلة فرناند ولقياه في انتظارهما!

وقد كان فرناند بعد أن لقي شاهده أخبر امرأته انه ذاهب لمشروع خيري لا سبيل إلى تأجيله ، وطلب اليها أن تعود مع أبيها عند انتهاء الحفلة ولما عاد روكامبول بشاهده خرج الجميع من القصر دون أن ينتبه لهم أحد

أما الكونت مايلي فإنه تعرف على هرمين ورقص معها تلك الليلة ، وفيما هو ينتقل من مكان آخر في تلك الغرفة الواسعة لقي الأرملة مالاسيس وهي تتأهب للخروج مع الدوق ، فابتسمت له مكرمة وقالت : لقـد رأيتك مع الشيخ بيرابو فهل راقت لك عشرته وهل هو مجنون كما يقولون .

– كلا .. بل انه قد يكون أوفر منك عقلاً .
أصحيح ما تقول ؟
– نعم .. وفوق ذلك فإنه يقص حكايات غريبة
– قل لي شيئاً منها .
– إنها حكايات طويلة ما شاقني منها غير حكاية واحدة ، وهي قصة شيخ شريف يحاول أن يتزوج بامرأة خادعة وان يحرم أسرتـه من ارثه ، ثم انحنى أمامها وابتسم لها ابتسام الهازيء وانصرف .

فاصفر وجه الأرملة من الغضب والحقد ثم التفتت فرأت الدوق قادماً اليها فنظرت إلى حفيده الكونت وضحكت ضحك الواثقة من الفوز وهي تقول : الأيام بيننا يا كونت وسترى لمن يكون الارث .

– ١١ –

ثم خرجت شامخة الأنف وقد تأبطت ذراع عاشقها الدوق حتى بلغت الى موقف مركبتها فصعدت اليها وقالت للدوق بلهجة حنان شغفت لبه ألا تصعد معي !

فتلجلج لسانه من الفرح قائلاً : وأية ساعة أبرك عندي من ساعة أكون فيها بقربك .

ثم صعد فجلس بجانبها وأمر السائق أن يسير الى منزلها فقالت : اني أرى المنزل قريباً في هذه الليلة فلنذهب إلى الشان اليزه .

فأخذ الدوق يدها وقبلها قائلاً : ان اشارتك أمر لا مرد منه .

وسارت المركبة الهوينا والعاشقان راجيان الى أن افتتحت الأرملة الحديث فقالت : اني أغتنم فرصة هذه الخلوة كي أخبرك بأمر قد تدهش له لعدم توقعك

اياه ، ذلك لأني سأسافر سفراً قد يطول الى عدة أعوام

فأجفل الدوق وجمد الدم في عروقه فلم ينبس ببنت شفة ، فعادت الأرملة الى تتمة حديثها فقالت : وسأسافر صباح غد .

وعند ذلك حلت عقدة لسان الدوق فسألها بلهجة المأخوذ : أحقيقة ما تقولين ولماذا تسافرين والى أين ؟

– اني أسافر لأسباب أعلمها ولا أستطيع التصريح بها .

– اذن تريدين قتلي !

وقد تبينت الأرملة لهجة الصدق من قولها فأيقنت انه قد جن في هواها فقالت : كيف أريد قتلك .. العلك جننت ؟

– إذا لم أكن قد جننت فإني على وشك الجنون فبالله أيتها الحبيبة قولي لي الحقيقة وكفاك مزاحاً .

– لم أكذبك يا سيدي الدوق فإني مسافرة في صباح الغد .

فأجاب بلهجة القانط ولماذا تسافرين ؟

كي ينساني الناس في باريس

– كيف ذلك وممن تطلبين أن ينساك ؟

فأجابته ببرود : اني أطلب ذلك منك قبل كل الناس .

فزاد ذهول الشيخ الدوق ولم يرد جواباً ، أما الأرملة فإنها عادت الى حديثها وما زالت تستطرد من حديث الى آخر ، حتى ذكرته بما وعده إياها بالزواج ، وكيف انها باتت من اتعس النساء لاعتمادها على هذه الوعود

فقال لها : اني لن أحنث بوعدي ولا أزال طوعاً لك فيما تريدين .

– لقد فات الأوان فلقد علمت اليوم حقيقة مقامي حين كنا في قصر المركيزة وعلمت حقيقة موقفي من حفيدك الوقح .

– وما شأن حفيدي ؟

فتظاهرت بالبكاء وهي تقول : انه قال لي الليلة كلمات مرة شائنة لا

أجسر على اعادة قولها فلم أجد بعد ذلك بدأً من الرحيل .

وكانت تمثل دورها تمثيلاً غريباً حتى طار فؤاد هـذا الشيخ المسكين وقال لها وقد جحظت عيناه من القنوط : سأري هذا الوقح كيف يجب عليه ان يحترم الدوقة مابلي .

فلما سمعته الأرملة يدعوها بامرأته تظاهرت بالتأثر الشديد فصاحت صيحة شديدة وسقطت مغمياً عليها فوق صدر الدوق .

أما الدوق فانه أمر السائق ان يسير في الحال الى قصره ، وكان قريباً من الطريق التي كانت تسير المركبة فيها . فسارت تقطع الأرض نهباً حتى وصلت الى القصر ، فأخرج الأرملة من المركبة وامر الخدم فحملوها الى غرفتـــه ووضعوهـا فوق سريره ، وهي لا تزال متظـاهرة بالاغماء . فجعـل الدوق يعالجها بالمنعشات وهي تنظر الى ملامحه من خلال أهدابها الطويلة ، الى ان خطر لها ان تستفيق بعـد ان قطعت فؤاد عاشقها ، فـأجالت نظرها في ما حولها وعلمت انها في غير منزلها فقالت له . بربك أين انا ؟ وكيف اتيت بي الى هذا المنزل ؟

– إطمئني فأنت في منزلي

فسترت وجهها بيديها وقالت : رباه ! وماذا عسى ان يقول الناس ؟

– إنك في منزلي اي في منزلك إذ لا يمر ثلاثة أسابيع حتى تصبحي زوجتي اي الدوقة مابلي .

فصاحت الأرملة صيحة إنكار دون ان يغمى عليها ، لأنها رأت أن الاغماء لم يعد يفيدها وقالت لقد هتكت شرفي بما فعلت وانك لن تدخلني الى منزلك كعروسة بعد ان حملتني كخليلة على مرأى من الخدم .

ثم وثبت الى الأرض غضبى وقالت بلهجة المتهكم . لقد أصاب حفيدك حين قال انك تسرق إرثه لتهبه الى خليلتك .

ثم أخذت قبعتها دون ان تلبسهـــا وخرجت وهي تقول : الوداع ايها

الدوق وداعاً أبدياً ، واعلم انك هتكت شرفي . ولكني أعفو عنك ، وليسامحك الله

ثم خرجت مسرعة دون ان تدع له وقتاً لإمساكها ، وانصرفت عائدة الى منزلها والفرح ملء قلبها ، لوثوقها من ان الدوق لا بد ان يسرع اليها ويدركها قبل ان تسافر لأنه كان لديه مفتاح خاص لحديقة منزلها ، يجيء كل ليلة من هذه الحديقة ، فيدخل الى غرفتها دون ان يعلم به أحد من الخدم

فلما وصلت الى المنزل أمرت خادمتها ان تعد لها امتعة السفر ، حتى إذا أقبل الدوق علم صدق عزمها . فلما أتمت المعدات أطلقت سراح الخادمة وجلست في سريرها تضرب اخماساً لأسداس وتتوقع من دقيقة الى اخرى قدوم الدوق ، ولبثت على ذلك الى ان أشرق الفجر ، فسمعت وقع اقدام على السلم المؤدية الى غرفتها ، فاختلج فؤادها واسرعت الى صندوق السفر ترتب الثياب فيه ، ثم سمعت صرير المفتاح في القفل ، ثم فتح الباب فأجفلت إجفال الظباء ورجعت متذعرة الى الوراء ، ذلك لأن هذا الرجل الذي دخل غرفة نومها في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل وفتح الباب بمفتاح خاص لم يكن الدوق بل كان رجلاً ما عرفته من قبل

- ١٢ -

ولنعد الآن الى فرناند وخصمه ، فإنه بعد ان لقي فرناند شاهده وهو الماجور ، ولقي روكامبول شاهده وهو أندريا ، خرج الأربعة خلسة من قصر المركيز دون ان يشعر بهم أحد . حتى اذا بلغوا الى قارعة الطريق قال روكامبول لفرناند : إن مخازن الأسلحة مقفلة الآن ، غير ان منزلي قريب

فإذا شئت مررنا به فأخذنا سيفين ، وإلا فإننا نوقظ أحد أصحاب هذه المخازن .

فقال فرناند : لا حاجة الى ذلك ، فان سيفيك يغنياننا عن إيقاظ الناس في هذه الساعة المتأخرة من الليل .

فشكره روكامبول وسار الأربعة الى منزله فأخذوا منه سيفين متساويين في الطول ، ثم انطلقوا الى محل قريب مقفر . ولما أيقنوا بخلائه أخذ الشاهدين السيفين وفحصاهما فحصاً مدققاً ثم أعطيا سيفاً لكل من الخصمين وأوقفاهما في موقف القتال .

وكان أندريا تمكن في خلال مسيرهما ان يخلو بروكامبول فقال له : أعلمت أيها الحبيب أن تصيبه كما علمتك .

– أجل حفظت كل شي .

– إذن فاحذر ان تقتله فاني لا أريد ان يموت الآن والا تدع حسامك يدخل في كتفه الا بقدر ما علمتك .

– كن مطمئناً فلا يكون الا ما تريد

وأمر الشاهدان الخصمين ان يقتتلا فانقض كل منهما على الآخر انقضاض الصاعقة ، ولبثا مدة طويلة بين هجوم ودفاع الى ان فاجأ روكامبول خصمه فرناند بضربة وقعت في كتفه ، فاختلج لها فرناند وانصب الدم من كتفه بغزارة ثم اصفر وجهه ووهت رجلاه ، فسقط على الأرض لا يعي لفرط ما نزف من دمائه وعند ذلك أسرع الشاهدان اليه فأوقفا المبارزة وانصرفا الى العناية بالجريح ، وعند ذلك دنا اندريا من روكامبول وقال له همساً : لقد أحسنت ولكن احذر من ان تكون قد قتلته

- ١٣ -

وقد رأى الماجور ان فرناند قد سقط على الأرض ، ولم يكن واقفاً على شيء من اسرار اندريا بشأنه ، فأسرع لمساعدته كما تقضيه الواجبات . غير أن روكامبول حال بينه وبين فرناند ، فانحنى عليه وقال له : ان مهمتك قد انتهت ايها الماجور فارجع الى منزل المركيز او الى منزلك كما تشاء ، ودعني أعتني بهذا الجريح

فأيقن الماجور ان فرناند قضي عليه بحكم صادر من الجمعية السرية وأخذ سيكارة من جيبه فأشعلها من مصباح المركبة وانطلق مطرق الرأس يفكر في أمر هذه الجمعية وما يحيط بها من الأسرار .

وعند ذلك انحنى اندريا على فرناند وكشف عن جرحه فوجده بالغاً ، غير انه ليس بخطير . فأمر روكامبول ان يحضر له ضمادة من المركبة فامتثل وضمد له جرحه ، ثم حملاه برفق الى المركبة ، فجلس أندريا بقربه وأمر روكامبول ان يسوق المركبة الى منزل الفيروزة اي منزل با كارا القديم

فسارت المركبة الهوينا رفقاً بالجريح ، الى ان بلغت ذلك المنزل ففتحا بابه وحملا فرناند ، وهو لم يستفق بعد من إغمائه لفرط ما نزف من دمائه . فاستقبلتهم الفيروزة وقد باتت في قصرها الجديد شبيهة بالملكات فتبسم لها اندريا معجباً بجمالها وقال : هوذا الطير فهل أعددت القفص .

- كن مطمئن البال فلا يفلت منه إلا متى اردت له إطلاق السراح .

- أعلمت ما يطلب منك ؟

- طب نفساً ، فسأمثل دوري خير تمثيل .

وأين الطبيب ؟

ها هو بالباب ، وقد أمرت جميع الخدم بالنوم طوعاً لأمرك .

- أحسنت . والآن فلننظر في هذا الجريح .

فأقبل الطبيب يفحص جرحه ، وهو من صنائع أندريا ، فقال له . أيطول زمن شفائه ؟

– سبعة او ثمانية أيام ، إلا اذا اردت ان يطول .

– كلا فاعتن به خير عناية وامتثل لأوامر صاحبة المنزل .

ثم قال لروكامبول : نذهب الآن الى قصر المركيز فلم يعد لنا عمل هنا .

وقبل ان يذهب همس في اذن الفيروزة يقول : اني أنتظر منك رسالتين كل يوم .

ثم ودعها وانصرف مع روكامبول .

وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل ، فذهب الى قصر المركيز فان هوب وانخرطا في سلك الراقصين دون ان يشعر بهما أحد . ثم اختليا في زاوية القاعة وجعلا يراقبان الراقصين فوجدا الكونت مايلي حفيد الدوق يراقص هرمين زوجة فرناند ورأيا شاروبيم أحد أعضاء جمعيتهما السرية يراقص المركيزة فان هوب وهي تبتسم له بلطف ودلال .

فقال اندريا السب ترى المركيزة كيف تبتسم معجبة بجمال شاروبيم ؟

– أجل .

– فقد ذكرتني ابتسامتها تبسم اولاد شارل الأول للمان فأس الجلاد وهم لا يعلمون انه سيقطع رأس أبيهم بعد حين وهكذا المركيزة غير انها تبتسم للخنجر وليس للفأس .

ومن عسى ان يكون الخنجر المه شاروبيم ؟

– كلا ولكنه سيضع هذا الخنجر بيد المركيز المفتون بزوجته .

ثم تبسم تبسماً تضطرب له الجريمة نفسها وترتعش لرؤيته الشياطين .

ولنعــد الان الى فرناند روشي . فلقد غادرناه مغمياً عليــه في منزل تلك الفتاة التي استخدمها اندريا لغوايته ، فلما أفاق من اغمائه نظر الى ما حوله نظرة المنذهل إذ رأى نفسه في مكان لم يعرفه وفي غرفة مزدانة بأفخر الرياش غير انه لم ير بين أثاثها شيئاً كان يعهده من قبل ، فعلم انه في غير منزله ، ولم يذكر ما هو فيه الى ان تحرك في فراشه فشعر بألم شديد أعاد اليه رشده وذكره أمر المبارزة وكيف ان خصمه أصابه بكتفه فعلم انه اغمي عليه لما نزف من دمائه وان شاهده او خصمه حمله الى هذا المكان الغريب .

وفيما هو يفكر مهموم حائر فتح باب الغرفة التي هو فيها وولج منها رجل بملابس سوداء فمشى الى سرير الجريح مشياً خفيفاً حتى وصل اليه ، فأخذ يده دون ان ينبس بكلمة وجس نبضه وهو يقول : إني أراك محموماً يا سيدي وهو دليل حسن .

ثم حل ضماد جرحه وطهره فعلم فرناند انه طبيب وقال له أترى جرحي بالغاً خطراً ؟

– إنه بالغ ، ولكني ارجو ان لا يكون خطر فيه ، وفي كل حال فإنك لا تستطيع الخروج قبل اسبوع .

فلم يحفل فرناند بهذا القول لانشغاله بمعرفة المكان الذي هو فيه فقال للطبيب: أين انا أفي المستشفى ؟

- كلا يا سيدي .

– إذن اني في منزل شاهدي او خصمي ؟

فتكلف الطبيب هيأة البساطة وقال : لا أعلم شيئاً من هذا يا سيدي ، وجل ما أعرفه اني دعيت لمعالجتك منذ ساعتين ، فلم أر في هــذا المنزل غير فتاة

– صفها لي لعلها امرأتي .

– فتاة تناهز العشرين جميلة شقراء ربعة القوام ، وقد رأيتها منحنية فوق سريرك تستعين بخادمتها على تنظيف جرحك .

– ألم تر رجالاً في البيت ؟

– كلا .

فاضطرب فرناند وقال إذن اين انا وما هذا السر ؟ فإن الفتاة التي وصفتها لي ليست امرأتي .

وطال الحديث بينهما دون ان يتمكن فرنانـد من الوقوف على شيء وبقي مسجى فوق سريره وهو غائص في بحار التأملات

وفيما هو سارح في عالم الخيال ، فتح الباب ودخلت منه إمرأة تتهادى في مشيتها ، وقد برزت في حلة من الجمال تدهش لها العيون ، الى أن استقرت أمام سرير فرناند فنظرت اليه نظرة المشفق وقالت له بصوت رخيم : كيف أنت ؟

فتلجلج فرناند وقد دهش بجمالها ولم يدر كيف يجيب ، ثم حاول أن يتكلم فوضعت بنانها المترف الناعم فوق فمها الصغير وهي تقول اسكت فان الكلام يؤذيك .

وعند ذلك اقترب منها الطبيب وقال لها بلهجة الاحترام : سيدتي إن حالته الصحية متحسنة ، ولم يعد لبقائي حاجة . على اني سأرجع بعد ساعتين .

فأطلقت الفتاة سراحه وخرجت معه ، غير انها لم تصل الى الباب حتى سمعت فرناند يناديها ، فرجعت اليه وهي تبتسم له الطف ابتسام ، فقال فرناند إنك أمرتني بالسكوت ، ولكني أستحلفك بالله أن تجيبي على سؤال واحد

فقالت له مبتسمة : سل ما تشاء .

– إن لي امرأة أحبها وتحبني وهي لا بد ان تكون في أسوأ حال لغيابي .
– طب نفساً ، فلقد علمت امرأتك انك ستغيب عنها بضعة أيام ، لأشغال خطيرة .

ثم نظرت اليه نظرة دلال تسبي فؤاد العابد وقالت وأنا أسألك سؤال واحد ارجو ان تجيبني عليه .
– مري يا سيدتي بما تشائين .
– هو ان تعلم انك بمنزل امرأة أنقذت حياتك من الخطر وهي لا تسألك مقابل ذلك غير السكوت .
ثم غادرته مبتسمة وانصرفت .

فعاد فرناند الى هواجسه ثم اشتدت عليه الحمى وعقبها الهذيان ، فأصبح يخلط بين زوجته والفيروزة وخصمه في المبارزة ، الى ان نام فتمثلت له هذه الفتاة في منامه باجمل مثال ، ولما أفاق من رقاده وجدها واقفة أمام سريره وعيناها شاخصتان اليه يجول فيهما الدمع الكاذب كأنها كانت شفقة لما كانت تسمعه من هذيانه . فلما رأته صحا مدت يدها الى يده تجسها فأخذ فرناند يدها وقد أثر به حنوها وأدناها من فمه فقبلها قبلة حارة تدل على امتنانه ثم لم يلبث ان عادت اليه الحمى وجعل يذكر زوجته فاغتنمت الفيروزة فرصة عودة الحمى اليه وقالت له . لقد خدعتك حين قلت لك اني أخبرت زوجتك خشية عليك من التأثير . أما وقد زال ما كنت أتوقعه من الخطر ، فإنك تستطيع الان ان تكتب ما تشاء الى السيدة هرمين ، مدام روشي .
فدهش فرناند وقال : أتعلمين اسمي ؟
– لو لم اكن اعرفك لما كنت الان عندي .
لقد أصبت .
ثم عاد لى ذكر زوجته فقال اني لا استطيع الكتابة .

- لا بأس فإني اكتب عنك وفي كل حال فإنك تستطيع التوقيع .

ثم تركته وقامت الى المنضدة وكتبت كتاباً الى هرمين قالت فيه بلسان زوجها انه تبارز مع شاب من أجل فتاة فأصيب بجرح غير خطير ، وانه مقيم في منزل تلك الفتاة وان الطبيب امره ان لا يخرج قبل ثمانية أيام ، وقد كلف تلك الفتاة ان تكتب اليها بيدها البيضاء يطمئنها عنه الى غير ذلك من هذه الجمل التي تثير الغيرة في قلوب الزوجـــات . وجعلت كلما كتبت سطر الى فرناند وتكلمه حتى علمت ان الحمى قد تمكنت منه وان لم يعد يستطيع القراءة ، فأتت اليه وقرأت امامه هذا الكتاب الذي كتبته ولكنها كانت تقرأ غير ما كتبت ثم اعطته القلم كي يوقع عليه اسمه تحت هذا الكتاب وخبأته في درج في غرفـــة اخرى . وعادت الى الجريح فاستمرت جالسة الى ان فارقته الحمى وثاب الى رشده ، فرأى الفتاة امامه وهي تنظر اليه نظرة الملائكة ، فأخذ يدها وقبلها قبلة اشتياق وهو يقول في نفسه : ايمكن للرجل ان يحب امرأتين ؟

اما هي فإنها افلتت منه إفلات الظبي ، وقد عبق وجهها بالاحمرار ، ثم عادت اليه وحدثته كما تحدث الأخت اخاها قائلة : ارجوك ان تنام وتستريح وان لا تتحرك حركة عنيفة ، وسيعودك الطبيب بعد قليل ، اما انا فسأعود اليك بعد حين .

وبعد ذلك خرجت الى غرفتها فاتزيت بزي بسيط كما تلبس البنات العاملات وخرجت من منزلها وركبت مركبة وقالت للسائق : سر بي الى شارع سانت انطوان وقف بي في اول عطفة شارع .

ولا بد لنا هنا من ايضاح خطة اندريا الهائلة ، فإنه كان يقسمها بين الفائدة والانتقام أما الفائدة فهي ما كان يرجو ان يكسبه من الهندية وهو خمسة ملايين بعد ان يدع المركيز فان هوب يثق من بغي زوجته ويقتلها بيده ، ثم يتزوج بعد ذلك بابنة عمه الهندية ، فكان يستخدم شاروبيم الجميل لإغواء المركيزة ، ويستخدم الأرملة صديقة المركيزة لهذه الغواية ، ثم انه كان يطمع بفائدة أخرى ينالها من أموال فرناند روشي الذي سلط عليه الفيروزة وعلمها طرق إغوائه وابتزاز أمواله .

أما انتقامه فانه كان يحاول ان ينتقم من جميع أعدائه القدماء ، مبتدئاً بأخيه الكونت ارمان فإنه قد تلبس أمامه بلباس التوبـــة الكاذبة ، وظهر أمام زوجته بمظاهر الأبرار . وكان يكتب كل يوم بضعة سطور في مذكراته اليومية تشير الى ما يقاسيه من حبه لامرأة أخيه ، وما يكابده من العناء في سبيل قمع نفسه عن هذا الجور ذاكراً ذنوبه السابقة بالندم الشديد ثم يضع هذه المذكرات بحيث تقف عليها امرأة أخيه حتى اذا قرأتها في غرفته أشفقت عليه وبين الشفقة والحب مسافة قصيرة .

وكان يريد بذلك انه متى تمكن من خدعة أخيه وحمله على الوثوق به دفع روكامبول الى قتله بمبارزة فيغدو أندريا بعد قتل أخيه قيماً على ولده وزوجاً لامرأته فيجري على ما جرى عليه أبوه قبله .

ثم أنه كان يحاول الانتقام من باكارا لأنه علم انها غير منخدعة بتوبته ، وخشي ان تتصدى له في سبيل انتقامه ، وتحول بينه وبين أغراضـــه فقرر قتلها أما فرناند فإنه كان يريد ان ينتقم منه بتجريده من أمواله ، وبقتله بيد صديقه ليون رولاند ، وذلك انه جعل الفيروزة تسطو على الاثنين وترمي في شرك غرامها الفؤادين ، فتظهر أمام فرناند بالمظهر الذي عرفناه وتتمثل

أمام ليون بزي عاملة فقيرة تلتمس العمل في معمل لانقاذ أبيها من الشقاء ، ولهذا فانها عندما خرجت من لدن فرناند غيرت ملابسهـــا ولبست ملابس العاملات وانطلقت الى غرفة حقيرة أقامت فيها رجلاً أعمى كانت تقول لليون أنه أبوها وكان يريد اندريا بهذا الحب المزدوج ان يلقي التحاسد بين العاشقين دون أن يعرف احدهما الآخر ثم يحمل ليون على قتل فرناند في ظلام ليل دامس كما سيجيء بيانه بالتفصيل .

وكان آخر ما في كنانته الجهنمية من السهام انه كان يريد ان ينتقم من هرمين زوجة فرناند فيهتك عرضها ويجعلها مضغة بالأفواه ، ولهذا فقط سلط عليهـــا الكونت مايلي حفيد الدوق ووعده بمنع زواج الدوق بالأرملة ، وإبقاء أمواله العظيمة له إذا تمكن من إغوائها وتمثيلها للعيون على ما يريد مما يخالف الشرف وواجبات الزواج . هذه هي مقاصد هذا الرجل الهائل التي يدور عليها محور هذه القصة .

* * *

ولنعد الآن الى الفيروزة فانها خرجت بلباس العاملات الى الغرفة التي أقامت فيها أباها الكاذب كما قدمناه ، فأتى ليون الى تلك الغرفة كي يساعد ذلك الأعمى المنكود فتلبست أمامه بلباس الفتيات الطاهرات وأثارت في فؤاده مكامن غرام جديد .

ثم فارقها على ان يعود الى أبيها في اليوم التالي كي ينظر الى أمره ، وفي نفسه الضعيفة من غرامها القوي أشياء . فلم يكد يخرج من تلك الغرفـــة حتى خرجت في أثره ، فركبت مركبة وأسرعت بالرجوع الى منزلها الذي تركت فيه فرناند ، وهي تقول في نفسها : لقد وقع ليون ، فلننظر في ملايين فرناند .

فلما بلغت الى المنزل غيرت ملابسهـا ، ودخلت الى غرفـة فرناند ، فألفته جازعاً لفراقها ، وقد ظهر الحب بين ثنايا وجهه ، فابتسمت له وقالت : كيف أنت ؟

- بخير لولا ما كنت أشكوه من الوحدة

- هو حق ما تقول فان المريض أشبه بالمسجون

فحاول ان يجيبها ولكنها وضعت إصبعها فوق شفتيها القرمزيتين وقالت وهي تبتسم له دعني أتم حديثي .

ثم أضافت : إن السجين ينتظر كل يوم بذاهب الصبر ان يأتي اليـــه حارسه بالزاد ، وكذلك المريض فانه يتوقع كل ساعة ، متى كان منفرداً ، ان يأتي اليه بمرضه . فيلتهي الأمر بالسجين ان يحب الحارس ، وبالمريض ان يحب الممرض .

فقاطعها فرناند وقال : يا سيـدتي ، إن ضجري من وحـدتي لم يكن لذلك السبب .

- لا ريب عندي فيما تقول فإنك تنتظر أنباء زوجتك .

فاختلج فرناند واضطرب وجعل يفتكر بهرمين ، غير ان الفيروزة نظرت اليه نظرات ملؤها الحب والحنو خلبت لبه ونسي هرمين .

ودام بهما الحال على ذلك ثمانية أيام وهي في كل يوم تجذب قطعة من فؤاده وتسترق بقية عقله حتى أصبح لا عقل له ولا قلب .

فلما كان اليوم الثامن ، وقد شفي جرحه واصبح قادراً على الذهـاب ، دخلت الى غرفته وجلست بقربه وقالت : إنك تعلم بأني لا استطيع ان أخبرك باسمي ولا اسم الشارع الذي انا فيـه ، وقد آن زمن رجوعـك الى منزلك لتعافيك ولكني لا أطلق سراحك قبـل ان تقسم لي أنك تمتثل لما أريد .

- اني اقسم لك بما تشائين .

– إنك لا تخرج من هنا إلا بعد ان أعصب عينيك فتخرج بك مركبة الى ان تبلغ الى مكان معين وعند ذلك تزيح العصابة عن عينيك وتقرأ هذا الكتاب الذي أعطيك اياه الآن فتعلم ما اريد منك

فحار فرناند بين هذه الألغاز وقال لكن ما تريدين فمتى أذهب ؟

– الآن .

ثم أخذت منديلا فعصبت به عينيه وقادته بيدها حتى وصلت به الى الباب الخارجي ، وكانت مركبتها تنتظر قرب الباب فأصعدته اليها وودعته وهي تقول : كن وفياً بالقسم .

وسارت المركبة تقطع به الأرض نهباً ، فاجتازت جميع شوارع باريس حتى انتهت الى شارع غير مطروق ، فأوقفها السائق وقال لفرناند: هنا أمرتني سيدتي ان أقف .

فنزع فرناند العصابة عن عينيه ، ونزل من المركبة وانطلق مسرعاً الى زاوية مقفرة بالشارع ثم فض غلاف الكتاب ، وقد سأم صبراً وقرأ ما يأتي :

« أيها الصديق

« إنك أوشكت ان تشفى أتم الشفاء ، بحيث أصبحت قادراً على الرجوع الى زوجتك التي تحبك وتنتظر عودتك بذاهب الصبر ، فأودعك وداعاً لا لقاء بعده . واسألك ان لا تعود بعد ذلك الى مبارزة أحد ، فإذا جال يوماً ذكري في خاطرك فقل ان الحياة تكتنفها الأسرار ، ولا تبحث عني لأنك لا تراني وذلك لأني مقيدة . وبحثك عني يعرضك لأخطار شديدة ثم لأنك مقترن بامرأة تهواها وتهواك ... الوداع ... ولا تفتكر بي إلا كما تفتكر في حادثة جرت لك في حلم . واعلم ان الأحلام خير أوقات الحياة » .

فاضطرب فرناند عند الفراغ من تلاوة الكتاب وقال : إني سأجدها ولو ذهبت الى أقصى مكان في الأرض .

- ١٦ -

في اليوم التالي لحل فرناند الى منزل الفيروزة ، كان اندريا عند منتصف الليل في منزل روكامبول ، وقد جلس هذان الاثنان حول منضدة . فكان أندريا يتمشى ويأكل أفخر المآكل نافضاً عنه غبار الزهد في منزل اخيه ، وكان روكامبول يتلو عليه تقارير أعضاء الجمعية السرية ، مبتدئاً بتقرير شاروبيم .

وكانت خلاصة تقرير شاروبيم انه راقص المركيزة فان هوب ، فظهرت عليها ملامح الاضطراب ، وانه بسط مقدمة غرامه فتكلفت عدم المبالاة وانه لقيها في اليوم الثاني في أحد المتنزهات ، فاحمر وجهها حين سلم عليها وبرحت المتنزه دون سائر المتنزهين ، كأنها تحاول الفرار منه الى غير ذلك من هذه المقدمات .

فقال اندريا : إنه لم يصنع بعد شيئاً يذكر ، ولكن اضطرابها واحمرار وجهها حين لقياه ، خير دليل على انها خطت الخطوة الأولى في سبيل غرامه .

ثم قال : ما لديك غير هذا التقرير ؟

ففتح روكامبول محفظة كبيرة وأخرج منها ملفاً مكتوباً عليه « الأرملة ملاسيس » ففتحه وقرأ فيه ما معناه ان هذه الأرملة عادت الى منزلها عند منتصف الليل وبينا هي مقيمة في غرفتها سمعت وقع أقدام ، فحسبت ان القادم هو الدوق إذ لا يزورها احد في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل غير

ان القادم لم يكن الدوق بل كان ارثير كامبي احد أعضاء جمعيتنا فأجفلت حين مرآه وحاولت ان تصيح غير انه اقفل الباب بهدوء وجلس بقربها فلم يعلم ما دار بينهما ولكنه لم يخرج من منزلها إلا عند بزوغ الفجر .

وكان هذا التقرير ان هذه الأرملة تخرج كل يوم في الساعة الثانية بعد الظهر فلا تعود إلا في الساعة الرابعة . وان الدوق زارهـا في صباح اليـوم التالي للحفلة فوجدها منشغلة باعداد معـدات السفر ، ودار بينهما حديث طويل ، فكان الدوق يلتمس منها وهو راكع أمامها ان ترجع عن السفر . وما زال بها حتى أقنعها على البقاء على شرط ان يتزوج بها قريباً وان يسافرا على اثر الزواج الى إيطاليا وان لا يزورها ولا يحاول ان يراها قبل ان توزع رقاع الدعوة لحضور حفلة الزواج .

فقال أندريا: إن مسألة هذه الأرملة تسير سيراً حثيثاً خلافاً لمسألة المركيزة والكونت مايلي ولكن النصر مضمون لمن يتمكن ان يصبر . ثم قال له : ألم يردك شيء عن الفيروزة ؟

ـ أجل .

وأخرج ملفاً مكتوباً عليه ليون رولاند، فكان خلاصة ما فيه ان الفيروزة تأتي كل يوم بملابس العاملات في الساعة الثانية بعد الظهر الى الغرفة التي يقيم فيها الأعمى الكاذب وان ليون يأتي كل يوم متعللاً بعيادة هذا الأب ويحادث الفتاة ملياً ، فإذا ذهب الى معمله ذهبت هي في أثره الى منزلها . وقد بدأ ليون يفتتن بها فانه حين يأتي يسأل خادمة البيت اذا كان والد الفتاة فيه فاذا أجابت بالايجاب اضطرب واصفر وجهه .

فتبسم أندريا وقال : وقع الطير في القفص .

ثم أخذ من جيبه كتاباً من الفيروزة وقرأ ما يأتي : .

« أظن ان زمن عذابي مرير قد دنا ، فإن زوجها الأبله سقط في الفخ وهو في كل ساعة يراني يحـاول ان يجثو أمامي ويكاشفني بحبه ، فيمنعـه

حضور أبي ، ولكني أقرأ صورة الهيام بين عينيه ، وعندي ان دور هذا الأب قد انتهى ، ويجدر إرساله بالظاهر الى إحدى المستشفيات كي يخلو الجو لليون ويكاشفني بما يريد إني أنتظرك في الموعد المعين كي أتلقى أوامرك الجديدة وأعلم ما ينبغي ان أعمل » .

فأعاد أندريا الرسالة ثم أدناها من الشمعة وأشعلها ، ونظر الى روكامبول فقال : لننظر الآن في أمر هذه الملايين . فإن هذه المركيزة فاضلة محققة لزوجها ولكنها بدأت ان تحب شاروبيم بالسر ، فينبغي علينا ان نساعده كي نحملها على الاباحة بهذ الحب

— أتظن ذلك سهلاً ميسوراً ؟

— ليس هو بالشيء السهل ، غير ان كل شيء ممكن في الوجود فاعلم الآن انهم سيمثلون رواية بعد غد في الاوبرا وستحضرها المركيزة دون ريب فتقيم في لوج خاص بها .

— أجل

— فاذهب غداً الى شاروبيم وأخبره بأنك ستبارزه وتجرحه جرحاً بسيطاً في يده لا ينال منه أدنى مشقة ، ولكنه يؤثر تأثير إشفاق على المركيزة .

فدهش روكامبول وقال : وكيف ذلك ؟

— ذلك انك تستأجر في الأوبرا اللوج الملاصق للوج المركيزة وتقيم شاروبيم فيه ، ثم تزوره في لوجه وتخاصمه بصوت مرتفع يبلغ الى مسامع المركيزة ، لتلاصق اللوجين خصاماً يدعو الى المبارزة بينكما ، وتعين موعد المبارزة ، وتذكر نمرة منزل شاروبيم ، واسم الشارع المقيم فيه بحيث لا يفوت المركيزة حرف من جميع هذه التفاصيل .

قال روكامبول : فهمت كل شيء .

— بقي أمر واحد وهو انك تدع شاروبيم يستأجر غداً المنزل الكائن تحت

منزل الأرملة ملاسيس صديقة المركيزة وهو معد للايجار وكائن ببينار نمرة ٤٠ ، فإن نوافذ منزل الأرملة تطل على هذا المنزل والمركيزة تزور صديقتها في أكثر الأيام .

- كفى .. قد فهمت كل شيء ..

وعند ذلك تركه اندريا وانصرف إلى منزل الفيروزة فلقيها تنتظره فقال لها : إذهبي غداً إلى غرفة أبيك وخذيه إلى مستشفى ديبوا وانتظري تعليماتي الجديدة ..

فبرقت أسرة الفيروزة وقالت : وفرناند ؟

- صبراً ، فإن ملايينه تستحق شيئاً من الصبر .

- ١٧ -

بينما كانت المركيزة في اليوم التالي تتأهب للذهاب إلى الأوبرا وزوجها واقف أمامها ينظر اليها نظرة العاشق المفتون ، إذ دخل أحد الخدم وأخبرهما بقدوم الماجور غاردن (وهو أحد أعضاء الجمعية السرية وصديق المركيز) ، فأمره المركيز بادخاله وقد سر لحضوره ، لأنه كان مولعاً بلعب الشطرنج وهو يبحث منذ حين في ضميره عن صديق ينوب عنه بمرافقة امرأته الى الأوبرا ، لأنه كان يؤثر الشطرنج على حضور الملاعب ، ولما دخل الماجور طلب اليه أن يصحب امرأته إلى الأوبرا بدلاً منه ، على ما عرف به من الغيرة عليها ، وذلك لأن هذا الماجور قد تجاوز عهد الشباب بمراحل ، وهو صديق البيت منذ عهد بعيد ، فقبل شاكراً وهو لم يأت إلا لهذا الغرض مدفوعاً من روكامبول ، أما المركيز فإنه ودعهما واعداً امرأته أن يوافيها إلى الملعب عند تمثيل الفصل الأخير من الرواية ومضى ، فذهب الماجور والمركيزة في أثره

إلى الأوبرا ودخلا إلى اللوج الخاص بالمركيزة ووجدا القاعة غاصة بالناس .

وفيما هما يجيلان النظر بالحضور إذ دخل شاب إلى لوج مقابل للوجها وجعل ينظر إلى الناس بنظارته وهو يبسم تارة ويتجهم أخرى حتى وقع نظره على لوج المركيزه فانحنى أمامه مسلماً فنبهها الماجور اليه وقال : أتعرفين هـذا الشاب ؟

– نعم . لقد قدموه الي في الليلة الراقصة وهو أسوجي كما قيل لي .

– نعم .. غير انه مولود في فرنسا وهو من أسرة نبيلة ، عـاقل وافر الذكاء ، غير انه على فرط ذكائه حاد المزاج شديد النزوع إلى الخصام كثير المبارزات ، يمرس باطلاق الرصاص ولا يخطىء مرماه ، وندر ان سلم مبارزه من الموت .

فأجفلت تنظر الى اللوجات القريبة منها فرأت شاروبيم باللوج الملاصق ثم رأت روكامبول ينظر اليه نظرات الحقد فوجف قلبهـا وخشيت أن يكون بين الاثنين ما يدعو إلى المبارزة .

ولما انتهى الفصل الأول من الرواية سمعت طرقاً على باب لوج شاروبيم ، ففتح وسمعت الحديث الآتي :

قال الداخل وهو روكامبول : هل أنا بحضرة الكونت أومسكار دي فرني (وهو إسم شاروبيم) .

وقال شاروبيم : هو أنا .

– أتأذن لي بخلوة معك لشأن خطير ؟

– ليكن ما تريد ..

– إني أدعى الفيكونت دي كامبل .

– قد تشرفت بمعرفته في منزل المركيزة فان هوب منذ ثمانية أيام .

واختلج فؤاد المركيزة وأسندت رأسها إلى جدار اللوج وهو من الخشب الرفيع كي لا تفوتها كلمة من هذا الحديث .

فقال روكامبول اني أقمت ثمانية أيام أبحث عن اسمك ومنزلك ولم أعلمهما إلا الآن حين أخبرني باسمك أحد الأصدقاء .

- إني مستعد لإرضائك يا سيدي في كل ما تريد فقد عرفت اسمي ، واما منزلي فهو في شارع بيبينار نمرة أربعين ، غير اني أعجب لما أراه من انشغالك بي والبحث عني .

- ذلك لأني لقيتك في منزل المركيزة فأحببت ان أعرف اسمك .

- العلك مكلف بقضاء مهمة سرية ؟

- كلا يا سيدي فإني لا أهتم إلا بأشغالي الخاصة ، واذا أذنت لي أوضحت لك ما أريد .

- قل ما تشاء فإني مصغ اليك .

- تذكر إننا كنا نقامر في منزل المركيزة في تلك الليلة الراقصة وكنا على طاولة واحدة .

- أذكر ذلك ولا انساه .

- وكنت من الرابحين في تلك الليلة ، وكان الورق بيدي فدفعته الى سواي وقمت فخاصمني أحد اللاعبين وبالاختصار فإني تركت الحفلة لمبارزة خصمي فبارزته بسرعة زائدة وتغلبت عليه ثم عدت حالاً إلى الحفلة كي ارصد حسابي مع بقية اللاعبين الذين سمعت منهم حين ذهابي كلمات مرة اضطررت إلى الصبر عليها لانشغالي بمبارزة ذلك الخصم ، وكنت أنت من الذين قالوا عني اني قد اتخذت المقامرة مهنة لي ، ولكني عندما رجعت لم أجدك بين الراقصين واللاعبين ، أما وقد رأيتك الآن فقد جئت أسألك أن تعتذر الي عما قلت .

- يسوءني أن لا أعتذر اليك فقد تعودت ان لا اندم عما أفعل ولا أرجع في شيء مما أقول .

- إذن أفلا تسحب كلامك ؟

- كلا !

ـ لم يبق لي إلا أن أسألك عن المكان الذي تريد فيـه أن أرسل اليك شهودي .

ـ لقد قلت لك اني اقيم في منزل في شارع ببينار نمرة ٤٠ .

ـ بقي أن التمس منك امراً واحداً وهو أن تكون المبارزة هذه الليلة لأني مضطر إلى السفر في الصباح .

ـ ليكن ما تريد لأني أجد الأمر سهلاً .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك اني رأيت في هذا اللوج المجاور لنا، وهو الذي تقيم فيه المركيزة فان هوب ، الماجور غاردن وهو من اصدقـائي وسأسأله أن يكون شاهدي فانتظرنا عند منتصف شارع ريشليو مع شهودك .

ثم ودعه روكامبول وخرج وقد اضطرب فؤاد المركيزة إذ لم يفتها سماع حرف من هذا الحديث وجعلت تمعن الفكرة في ايجاد وسيلة لمنع هذه المبارزة فأغلق في وجهها كل باب الا اذا تداخلت بين المتبارزين وفي ذلك أعظم مساس بشرفها إذ لا وصلة قربى بينها وبين المتبارزين تشفع بالوساطـة ، وبينا هي تفكر مهمومة والماجور متشاغـل عنها بالنظر إلى الحضور إذ سمعت صوت شاروبيم يخاطب صديقاً له فمادت وسمعته يقول لصديقه ما يأتي : اني أعترف لك بأمر لم يدعني إلى إفشائه غير مـــا أنا فيه من الخطر وذلك اني سأبارز رجلاً شديداً وخير ما أرجوه ان يكون الظافر فأبلغ من الموت ما طالما تمنيته .

- أراك مللت من الحياة وأنت لم تتجاوز بعد عهد الشباب .

فتنهد شاروبيم وقال بئس الشباب إذا كان رائده الخيبـــة وكانت حلاوته مراراً وعذاباً ،واعلم أيها الصديق اني أحب امرأة حباً مبرحاً ولكنها لا تعلم شيئاً من حبي لها ولا أحب أن تعلم سر غرامي إلا بعـــد أن أموت وأزج في ظلمات الأبد .

ـ ويحك ما هذا القنوط المهلك جننت ؟

- لم أجن إلا بهواها ، وخلاصة امري اني سئمت الحياة لأني أحب حباً لا رجاء فيه ولا أمل لي بمكاشفتها به في الحياة ، فأنا أرجو أن تعلمه بعد موتي وأن تكون رسولي بهذا البلاغ .

- كيف ذلك ؟

- ذلك اني سأدفع اليك رسالة مختومة أكتب فوق غلافها عنوان من أحب واضع هذا الغلاف ضمن غلاف آخر لا كتابة عليه فإذا قتلت في المبارزة تمزق الغلاف الأبيض وتضع الرسالة في صندوق البريد ، واذا سلمت من الموت وهو ما لا أرجوه تعيد الي الرسالة كي أدفن سرهـا بصدري الى أن ييسر الله لي موتاً آخر .

فبهت صديق شاروبيم ثم قال : أهذا كل ما تريد ؟

- نعم وقد بقي علي أن استحلفك بانفاذ هذه المهمة . فأقسم له صديقه على تنفيذها وغادره وانصرف .

أما المركيزة فقد هلع قلبها من الخوف وأيقنت أن هذا الرجـل قد خلب قلبه حبها ، وانه سيبحث عن الموت بحث الراغب فيه لمـا تولاه من القنوط فحارت في امرها ، غير انها فطنت لأمر أملت أن يكون فيه نجاة شاروبيم وهو انها سمعته يقول أنه سينتدب الماجور ليكون أحد شاهديه فقالت في نفسها . انه لا بد أن يأتي الآن لاخبار الماجور امامي فإذا سمعت الحديث تداخلت في الأمر ولا تلحقني وصمة هذه المداخلة لأني ما سعيت اليها .

غير أن فأل المركيزة قد ساء فإن شاروبيم لم يتزحزح من لوجه بل نزع ورقة من دفتر جيبه وكتب عليها للماجور يرجوه ان يكون شاهده في المبارزة المتقدم ذكرها وارسلها اليه مع إحدى خادمات المرسح فأعطته إياها أمام المركيزة وهي تقول انها من شاروبيم ، فعلمت المركيزة مضمونها وحاولت أن تدع الماجور يطلعها على كنهها فلم تنجح لشدة مبالغته بالكتمان ومـا زالت تستنبط الحيل لحمله على الاقرار وهو يصرفها عن مرادها الى ان قدم زوجهـا

المركيز فاستأذن الماجور وانصرف ذاهباً للقاء شاروبيم ، أما المركيزة فإنهـا عادت مع زوجها بعد انتها الرواية إلى القصر وباتت من اشفاقها وخوفهـــا بليلة المين .

ولم تستيقظ من رقادها الا في الساعة الحادية عشر من الصباح وهي مختلة مشردة الفكر لا تعلم ما تعمل لتطمئن على شاروبيم وفيا هي والهة حائرة إذ دخلت عليها وصيفتها تحمل اليها كتاباً من صديقتها الأرملة تدعوهـــا فيه إلى زيارتها لشأن خطير ، وكانت تعلم انها تقيم في منزل مجاور لشاروبيم ، فطار فؤادها سروراً وأسرعت فركبت مركبتها وانطلقت الى منزل تلك الأرملة.

ولما خلت بها اخبرتها الأرملة على سبيل الاتفاق ان شاباً منزله تحت منزلها أتي به أمس محمولاً على الأكف لاصابته بجرح بالغ على أثر مبارزة .

فصاحت المركيزة صيحة رعب وسقطت مغمياً عليها فأسرعت الأرملـة بقرع الجرس ، وعند ذلك دخل الخادم وهو من صنائع اندريا فلـــا رأى المركيزة مغمياً عليها نظر الى الأرملة متبسماً وقال : وقع الطير في الشرك

— أوشك أن يقع فإنه بداء يتلقط الحب .

وكانت هذه الأرملة في عداد الذين وقعوا في فخاخ أندريا فبـــاتت يده العاملة في غواية المركيزة لطمعها بزواج الدوق الشيخ وكان خادمها يحمل اليها أندريا فتصنع بها مكرهة مضطرة لأنه كان لديه أدلة تثبت حبهـا لأحد أعضاء الجمعية السرية ، ورسائل اليه بخطها اذا وقعت بأيدي الدوق نفر منها وقذف بها الى الحضيض فلما صحت المركيزة من اغمائها هشت لها الأرملـة وأظهرت لها انها واقفة على سر غرامها وقالت خففي عنك أيتها الحبيبة فإن جرحه لا خطر فيه وهو سيبرأ في زمن قريب

فظهرت علائم السرور بين ثنايا وجهها ثم تجهم جبينها وعبق خداهـــا بحمرة الخجل حين علمت انها باحت بشيء من سرها وارخت عينيها الى الأرض كالمذنب النادم وهي تقول رباه ماذا صنعت ؟

فأخذت الأرملة يدها بين يديها وقالت . لقد كنت لي صديقة أفلا تريدين ان اكون لك أختاً ؟

ثم جعلت تهوّن عليها الخطوب وتستدرجها الى الإباحة بغرامها حتى بلغت منها ما تريد وبعد حين خرجت المركيزة عائدة إلى قصرها وقد فتحت لها الأرملة هوة الشقاء .

- ١٨ -

بينما كان ليون رولاند يسهر الليل مفكراً حائراً بأمر تلك الفتاة التي خلبت لبه ، والكونت دي مايلي يحاول أن يجذب قلب هرمين وقد بات مستودع سرها ، إذ كان يتزلف اليها بلباس الأخاء وهي تثق بوداده الكاذب وتخبره بما اقترفه زوجها ، فيعدها خيراً ، ويذكر لها من أحوال الفيروزة ما يضرم نار الحقد في قلبها ، وقد اتفق وإياها على أن لا تخبر زوجها حين يعود اليها بشيء مما تعلمه عن هذه البغي إلى أن يجد وسيلة لإبعادها .

فوثقت بوعوده وجعلت تتغذى بقرب ولدها عن بعد هذا الزوج ، وبينما كانت الأرملة تفتح هوة الضلال كي تزج بها صديقتها وبينا كان أندريا يراقب جميع هذه الحوادث ويعمل على إغواء امرأة أخيه المحسن اليه ، وبينا كانت جميع هذه الدسائس التي استنبطتها قريحة السير فيليام تسير على ما يريد كان فرناند روشي ينزل من مركبته بعد ان أزاح العصابة عن عينيه ووقف في عطفة الشارع يتلو كتاب الفيروزة .

فلما أتم تلاوة الكتاب اصفر وجهه وقال : لا بد لي أن أراها ولو سافرت إلى أقصى المعمورة .

ثم مشى مشية المفكر المهموم إلى أن وصل إلى منزله ودخل اليه دون

أن يدري أين هو حتى انتبه وهو في الحديقة إلى صوت ولده يناديه من النافذة بصوت الجـــذل المندهش فوجف فؤاده وسرت إلى نفسه عواطف الحنو ، فأسرع إلى لقاء هذا الولد فبلغ اليه وهو في حجر أمه واندفع يعانق الاثنــين ويقبلهما قبلات صادقة أنسته حب الفيروزة الكاذب إلى حين .

وكان بينه وبين امرأته حديث طويل فأخبرها بحديث مبارزته واعتقاله كما شاء ، وتظاهرت بتصديقه كي لا يعود إلى الجفاء وبات تلك الليلة في منزله وهو على أحر من الجمر ، وكان إذا تمثلت له الفيروزة تشاغل عنها بداعبة طفله إخفاء لبوادر غرامه الشديد

ولما كان الصباح ركب فرساً عربياً أصيلاً وخرج إلى النزهة في الغابات كما تعود فاطمأنت هرمين لما رأته من ظواهر حبه القديم ولم تعد تخطر لها خيانته في بال فلما حان وقت الغذاء لم يرجع فانتظرته إلى العشاء فلم يعــد وانتصف الليل فلم يحضر فعادت اليها هواجسها وأقامت في نافذة غرفتها منتظرة دون أن يكتحل جفنها بالرقاد حتى طلع النهار فرأت باب الحديقة قد فتح ودخل منه ذلك الفرس الذي كان يمتطيه فرناند دون فارسه ، وكان يقوده أحــد الخدم ، فهلع قلبها ونادت الخادم وسألته عن زوجها فقال أنه دفع إلي الفرس كي أرجعه إلى المنزل وكان ذلك مساء أمس خارج باريس .

قالت : كيف أعطاك الحصان ولماذا ؟

. انه كان يطارد مركبة فيها فتاة حسناء عليها ملابس السفر فلما أدرك المركبة استوقفها فوقفت وتباحث مع الفتاة بحثاً طويلاً تبينت من اشارته انه يدعوها إلى الرجوع إلى باريس وكأنه قد أقنعها فنظر إلى الشارع فرآني واقفاً أنظر اليهما فكتب نمرتي في دفتره ثم قال :

– خذ هذا الجواد وانتظرني في غابة بولونيا إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل إذا لم أعد اليك أرجعه في الصباح الى منزلي ثم دلني على المنزل ودفع لي اجرتي وعاد الى المركبة فركب بجانب الفتاة ، وعاد كلاهما إلى باريس .

دقت هرمين يدأ بيد وقد أيقنت أن زوجها قد علق بتلك البغي والحال خرجت من المنزل فركبت مركبة وأمرت السائق ان يسير بهـــا الى منزل الكونت دي مابلي كي تستشيره في امرها فقد باتت تثق به وثوق الأخ بأخيها.

وحكاية فرناند انه خرج للتنزه صباحاً في غابات بولونيا كما تقدم ، وفيما هو يسير الهوينا إذ ابصر مركبة تسير على مسافة بعيدة عنه مسير المستعجل المسافر لأمر خطير تجرها اربعة جيـاد دفعه الفضول إلى تعقب هذه المركبة لا سيما بعد ان رأى فيها فتاة وأمتعة سفر وما زال يتعقبها حتى اوشك أن يدنو منها فعلم ان تلك الفتـاة لم تكن الا الفيروزة وذكر ما كتبته اليه عن عزمها على مغادرة باريس .

وكان في مؤخر المركبة خادمة غرفة الفيروزة فتظاهرت انهـا تلتفت الى ورائها اتفاقاً حتى إذا رأت فرناند يسير بأثر المركبة أظهرت الانذهال وقالت لمولاتها كلمة لم يسمعها فرناند لبعده عنها ولكنه علم انها أخبرتها بأمره وذلك لأن الفيروزة أمرت السائق بالاسراع فضرب الجياد بسوطه الطويل فاندفعت تنهب الأرض وتسبق الرياح .

وحسب فرناند انها تريد الفرار منه فلكز بطن جواده وأطلقه في أثرها وما زال يطاردها حتى ادركها بعد ان خرجت من ابواب باريس وسار جواده بجانب مركبتها .

نظرت اليه وصاحت صيحة انذهال ثم قالت : كيف أنت هنـــا وما أتيت تعمل ؟

فتلعثم لسانه ولم يدر ماذا يجيب ، ولكنها أجابتها عيناه بلغة تفصح أكثر من أبلغ الكلام عن مراد القلوب ، فابتسمت له وقالت : الى اين انت ذاهب ؟

– لا أعلم .

– ومن أين أتيت ؟

– من باريس . وقد سكن اضطراب فرناند وقال : وأنت الى أين تذهبين؟

ـ اني مغادرة باريس كما ترى .

ـ أيطول غيابك عنها ؟

فأرخت عينيها وقالت بصوت يتهدج : سأغيب عاماً على الأقل .

فاضطرب فرناند وقال كلا ان هذا محال .

ـ كيف تراه محالاً وأنت تراني مسافرة على الطريق ... ثم أشارت اليه مسلمة بيدها وهي تقول اني ذاهبة الى فلورنسا لأقضي فيها بقيــة الشتاء ، فاستودعك الله واذكر كتابي .

غير ان فرناند قد عزم عزماً اكيداً فاستوقف السائق وقال لها : سيدتي قلت لك ان سفرك محال لأنك لا تستطيعين السفر الآن .

فقطبت حاجبيها وقالت : من يمنعني عن السفر ؟

ـ أنا وذلك لأني أقفو أثرك حين خروجك من باريس لأني أود محادثتك في شأن خطير فان ابيت على ذلك فاني ألقي نفسي بين دواليب مركبتك .

قالت وهي تبتسم تبسم الرضى . اني لا أريد لك الموت ، ماذا تريد .

ثم اوقفت المركبة ونزلت منها ونزل فرناند عن جواده فتأبط ذراعها وسار واياها الى فندق قريب وهو يقول . اننا سنتغدى في هذا الفندق ونتباحث فيه فاما تعودين الى باريس او تسافرين بعد الغداء .

وذهب بها إلى الفندق فدار بينهما حديث طويل أسفر عن رضى تلك الفتاة بالرجوع مع فرناند إلى باريس بعد أن تعاقدا على الحب واستوثقت منه بأشد المواثيق ، وفي المساء عاد إلى باريس فذهبا الى منزلهـا ، وكان فرناند لا يزال يرافق المركبة فأمرت خادمها عند الصباح بارجاعه إلى منزله بعد أن علمته ما يقول كما علمناه حين سألته هرمين .

ولنعد الآن إلى باكارا التي ستمثل أعظم دور في هذه الرواية العجيبة ، فنقول أنها بعد أن تابت إلى الله توبة صادقة أو غرامها بفرناند ، جعلت قصاراها إغاثة المعوزين ودفع نكبات الدهر عن البائسين بالانفاق عليهم من مالها الخاص ومستعينة بأموال الكونت دي كركاز وكانت صارفة معظم اهتمامها إلى انقاذ البنات الفقيرات من وهدة البغي الذي يدفعهن إلى هاوية الجوع وما يلقينه من المسكنة والمذلة

وقد اتفق لها في تلك الليلة التي وقع فيها فرناند بشرك الفيروزة انها أنقذت ثلاث أخوات اسرائيليات من السقوط في هذه الهاوية فجعلت الكبرى وصيفة لإحدى ربات القصور ، وأدخلت الثانية في أحد معامل الخياطة ، وعادت بالصغرى إلى منزلها وهي تؤمل متى طالت صحبتها لها أن تجعلها تعتنق الديانة المسيحية لفرط تعصبها بدينها بعد أن تابت تلك التوبة الصادقة .

وكانت الفتاة الاسرائيلية بارعة الجمال وقد بالغت باكارا بملاطفتها حتى استأنست بها وتعلق بها فؤادها ، فلما عادت بها إلى المنزل خصصت لها غرفة فيه ، وأوصت بها الخدم خير وصاية ، وفيما هي تلقي عليها الارشاد وتبث فيها روح الفضيلة كي تستأصل من نفسها ما خلفته دواعي الشقاء من مبادىء البغي والفساد إذ دخلت عليها الخادمة تخبرها بقدوم اختها سريز . وكانت لا تزورها إلا في النادر لانصرافها عن الزيارات .

وفرحت بقدومها فرحاً شديداً غير انها ما أوشكت أن تراها حتى تراجعت منذهلة لما رأته من شحوبها ونحولها ثم أكبت على عنقها تقبلها باكية وهي تقول: أختاه ماذا أصابك ؟

ولم يكن نحول سريز إلا لما لقيته من انشغال زوجها بحب سواها وهيامه

بالفيروزة ، وهو يحسبها إحدى العاملات فشكت لأختها جميع ما تلقاه من انحراف ليون عنها وقالت : أنه لولا ولده لما قدم الى البيت وأنه لا يأتي من محل عمله إلا حين الحاجة الشديدة لافتتانه بمن يهواها ، وأنه لا يعاملها إلا بالنفور ، وإذا عاتبته ابتدرها بالقول الغليظ والسخط والحدة إلى غير ذلك مما يفسد عيش الزوجين ، وآخر ما قالته أنها باتت تخشى عليه أن يصاب بالجنون فإنه حين يبيت في المنزل يلبث طول ليله سهران يجول في ردحة البيت لا يكلم أحداً ولا يريد أن يكلمه أحد .

فسمعت باكارا جميع قول أختها وهي آسفة متوجعة ثم سألتها أتعرفين هذه الفتاة التي يهواها ؟

- كلا !.

- أتتهمين أحداً باغرائه على هذه الخيانة .

- كلا .

وجعلت تبكي وهي متكأة على صدر أختها بكاء الأطفال وفيما هي تعزيها وتعدها الوعود الجميلة إذ دخلت الخادمة تقول : سيدتي أن الفيكونت أندريا يطلب مقابلتك .

فأجفلت سريز عند سماع اسمه ونظرت الى اختها نظرة الخائف الوجل ثم قالت قلبي يحدثني بأنه لم يسلبني قلب زوجي سوى هذا التائب .

فاضطربت باكارا وقالت : وأنا أرى ما ترينه فإن توبته كاذبة وستفضحها الأيام فاذهبي الآن كي أرى ما يريد واطمئني فإن نفور زوجك لا يطول .

وذهبت سريز فدخل في أثر ذهابها أندريا فسلم على باكارا ووقف وعيناه مطرقتان الى الأرض ، الى ان أمرته بالجلوس فجلس بازائها وجعل كل منهما ينظر الى الآخر نظر من يفحص خصمه قبل القتال كي يعلم مبلغ قوته واذا كان كفؤاً له

وساد السكوت بينهما هنيهة الى أن افتتحت باكارا الحديث فقالت : هل

اكتشفت شيئاً من أمور الجمعية السرية ؟

فأجابها نعم ، وأخص ما علمته ان معظم اعضائها من النساء ، وانها ترتكب من المنكرات الفظيعة ما لا يخطر في بال وان رئيستها امرأة .

فدهشت باكارا وقالت : من هي هذه المرأة ؟

فقال اندريا . اصغي الي ودعيني الآن أخبرك بما أتيت من أجله ، فإن رجلاً ينبغي علي وعليك ان نحبه بقدر ما اسأنا اليه في خطر شديد .

فاختلج فؤاد باكارا وقالت : من عسى ان يكون هذا الرجل العله فرناند ؟

فأطرق اطراق الأسف والحزن وقال : هو يا سيدتي بعينه .

فجزعت باكارا وصاحت رباه مـــاذا أصابه أهو مريض ؟ قل أي خطر تعني .

— كلا ما هو بمريض ولكنه وقع في شرك تلك الجمعية الهـائلة فسلطت عليه امرأة أحبها حباً مبرحاً .

وكأن الصاعقة قد انقضت على باكارا فقد تأججت في فؤادها براكين الغيرة وهاجت مكامن حبها القديم حتى أوشكت أن يغمى عليها ، وذلك انها كانت لا تزال تهوى فرناند ، ولكنها شغلت عن هواه بعد زواجه بتوبتها الصادقة ، فلما رأته قد نقض عهد الزوجية ثار حبها القـديم ، حتى أوشكت أن تنقض عهد التوبة .

وكأن اندريا قد علم ما يجول في خاطرها فعاد الى ذكر عشيقها فقال بلهجة الأسف : انه يحب فتاة بغياً يلقبها الشبان بالفيروزة لصفاء عينيها وهي تقيم في منزلك القديم في شارع مونسي .

فصاحت باكارا صيحة منكرة وقد جحظت مقلتاها واصفر وجههـــا ، فتكلف أندريا هيئة الحزن وجعل يقص عليها حوادث عشق فرناند كما أراد مبتدئاً بجرحه على أثر المبارزة ، وحمله الى منزل تلك العشيقة ثم اظهر لهـا كتابين بخط الفيروزة أحدهما الى هرمين والآخر الى رئيسة العصابة ، فلـــما

قابلت باكارا بين الخطين ورأت انها واحد أيقنت بصدق اكتشافه ، ولكن قلبها كان يحدثها انه خائن وان توبته ومظاهر نسكه خداع وتضليـل ، وان يده هي التي ضربت هرمين واختها سريز بغية الانتقام ولكنها لم تظهر شيئاً من ذلك بل تظاهرت بتصديقه لما يقول وجعلت تراقب بعينيها النقادتين جميع سكناته وحركاته .

وبعد أن انتهيا من حديث العصابة قال لها : ان أخي الكونت ارمان يدعوك في الساعة العاشرة من هذه الليلة لنجتمع في منزله للمباحثة في هـــذا الشأن الخطير ، فوعدته بالذهاب ، ونهض اندريا يحاول الانصراف وفـيما هو يسلم عليها دخلت الفتاة اليهودية التي تقدم ذكرها ووقفت بازاء باكارا فنظر اليها اندريا نظرة فضحت سره لفرط اعجابه بجمالها ولم يدر في خاطره ان باكارا تراقبه فقبل يدها وانصرف وفي نفسه من تلك الفتاة اليهودية أشياء .

أما باكارا فرجعت بعد أن شيعته الى الخارج وهي تقول : لقد كنت مشككة بك ، أما الآن فقد اصبح الظن حقيقة لا ريب فيه وقـد ثبت لي انك من الخائنين .

وسمعتها الفتاة تقول هذا القول فقالت : لقد صدقت يا اماه فإنه نظر الي نظرة جف لها قلبي واذكرتـني نظرات ذلك الشيخ الذي كان يزور امي في تلك الليلة ، فلم تنتبه باكارا لكلامها ودخلت الى مخدعها فكتبت الى ارمان دي كركاز تسأله ان يقابلها في الساعة الثامنة بدلاً من العاشرة والتمست منه ان تكون هذه المقابلة سرية لا يعلم بها احد ثم ختمت الكتاب وارسلته مع خادمها الى الكونت فذهب به وعاد بعد حين يحمل جواب الكونت بالايجاب.

فلما حان الموعد ارخت على وجهها نقاباً كثيفاً وذهبت الى الكونت فألفته ينتظرها في قاعة منزله في الحديقة ودار بينهما حديث طويل عن اندريا فأظهرت له جميع ما يخامرها من الريبة بأخيه ، الا ان الكونت كان يناقضها في جميع ما تقول لأنه كان يرى بعينيه كل ليلة ما يعانيه اخوه من العذاب وكان يراقبه

في بعض الليالي من قفل الباب فيراه يجلد نفسه حتى تنتهك قواه ويقرأ أسفار الشهداء حتى تغمض عيناه فينام على الأرض دون غطاء بعد ان يغير نظام الفراش كي يظن الخدم انه نام عليه ولا يفطنون الى انه نام على الأرض .

فلما يئست باكارا من إقناعه قالت : لا بأس من ان تبقى على اعتقادك فيه ولكني سأراقبه في الليل والنهار وأصرف كيده عنك باذن الله ولا التمس منك غير أمر واحد .

– ما هو ؟

– هو أن تكتم ريبتي هذه عنه وعن زوجتك وعن جميع أعوانك .

– سأفعل ما تريدين .

– أتقسم لي على الكتمان ؟

– أقسم لك وأبر باليمين .

فودعته باكارا وانصرفت وهي تقول في نفسها : لقد انتصرت على هذا الشيطان المريد وأنا بغي مومس وسأنتصر عليه الآن وانا تائبة مؤمنة ليس لي نصير عليه غير الله وكفى بالله نصيراً .

– ٢٠ –

بينا كانت باكارا عائدة الى منزلها ، وهي تدعو الله في ضميرها كي ينصرها على أندريا ، كان اندريا جالساً قرب منضدة في منزل روكامبول ، وهو يتداول مع تلميذه بشأن العصابة ، وقد أخبره بجميع ما فعل وبزيارته لباكارا وإطلاعها على حب فرناند . فأجفل روكامبول ثم سكن روعه ووقف أمام رئيسه وقفة الاحترام وقال : أتأذن لي ان أسألك عما أشكل علي فهمه من أعمالك ؟

فابتسم له اندريا وقال : قل ما تشاء .

ـ إنك ! تكتبت الفيروزة رسالتين، واتفقت مع الكونت مابلي والأرملة مالاسيس فكأنك قد أخبرتهم بأسرار جمعيتنا وأخبرتها بحقيقة فرناند ، فأي قصد تريد من إظهار هذه الحقيقة التي يجب ان تبالغ في كتمانها ، اليس في ما فعلت خطر علينا ؟

فقال اندريا ببرود : أي خطر تعني ؟

ـ أولاً إنك قلت الحقيقة بتمامها ومهدت لأخيك الكونت السبيل الذي نسعى اليه .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ثم انك أوقفت الفيروزة على بعض سرنا ، وهي إنما ينبغي ان تكون آلة صماء في أيدينا .

فقاطعه اندريا وقال : كفى ! إنك لا تزال جاهلاً لدقائق أسرار الصناعة فاسمع إلي الآن لتعلم حقيقة هذه الخطة التي أشكلت عليك فإن هذه الجمعية السرية مؤلفة من رئيس وهو أنا ، ونائب وهو أنت ، وأعضاء يعدون بمثابة الآلات العاملة كالفيروزة والأرملة والماجور والكونت وغيرهم ، ولكل جمعية سرية في الأرض من الماسونية الى جمعيتنا سر دقيق يكون خاصاً بالرئيس المدبر وقد يطلع هذا الرئيس نائبه على نصف هذا السر ويوقف الأعضاء على ربعه ، ولكن السر بجملته يبقى مكتوماً في صدره . أما الفيروزة والأرملة والكونت دي مابلي فانهم لا يعلمون شيئاً من أسرارنا ، فان هذا الكونت يعتقـــد بخداعه لحرمين وإغوائها انه ينتقم لرجـــل شريف ، وهو لم يخابر بذلك غير السير أرثير الانكليزي ، واين له ان يعلم انني والانكليزي واحد . وفوق ذلك فانه رجل نبيل وقد أقسم بشرفه أن لا يبوح باسم السير أرثير ، وأما الأرملة فانها لا تعرف أحداً منا غير خادمها فانتير ، وبيدنا من رسائلها ما يجعلها أطوع لنا من ظلها ، لا سيا وهي لا تزال طامعة بزواج الدوق ، ولا

تجهل ان رسالة واحدة من هذه الرسائل يقف عليها الدوق تحبط جميع أمانيها ، وفوق ذلك فهي لا تعلم شيئاً من أسرارنا ، ولو علمتها وأرادت ان تبوح بها فإنها لا تستطيع ان تتهم أحداً غير ذلك الخادم ولا خطر علينا من اتهامه . وأما الفيروزة فإنها لا تعلم من أسرارنا سوى اننا نريد استخدامها في سلب أموال فرناند وهي التي ستتولى سلبه بإرشادنا فهي شريكة لنا ومثل هذه البغي الفقيرة لا تخوننا وهي تطمع بتلك الملايين

بقي علي ان أجيبك على اعتراضك الثاني ، وهو كيف اني أطلعت ارمان وباكارا على الحقيقة ، وذلك لأنه سيعتمد علي بعد هذا لا سيا اذ حقق ما أخبرته به ووجده صحيحاً لا ريب فيه ، فنأمن بوليسه السري ، لأني أديره كيف أشاء ، وأنا لم أخبره بعد إلا بحب فرناند لتلك الفتاة ، وهو امر لا بد من ان يظهر . وأما باكارا فلأنها ستخدمنا بعد ذلك أجل خدمة دون أن تريد

فبهت روكامبول وقال : كيف ذلك ؟

– ذلك ان باكارا سيكون اول ما تجريه انها تقابل الفيروزة وتحاول إرجاعها عن فرناند ، وقد علمتها ما تقول . ثم تذهب الى فرناند وتحذره من تلك الفتاة مظهرة له انها لا تريد غير الاحتيال على سلب أمواله ، فيزيد فرناند حباً بخليلته ، لأنه يرى انها لم تقبل منه هدية الى الآن ، وانها غير طامعة بشيء من ماله . فيعلم ان باكارا قد غارت منها وانها تتهم تلك الفتاة .

فلما أتم أندريا كلامه قال لروكامبول : أفهمت الآن ؟

– نعم قد فهمت كل شيء .

– إذن فاصغ إلي الآن لتعلم ما يجب ان تعمله في الغد ، ذلك انه يجب ان تمتطي حصاناً وتذهب عليه الى الشانزليزة في الساعة الثانية بعد الظهر ، فتجول حول المتنزه . وبينا انت سائر الهوينا تمر بك مركبة فيها رجل

وامرأة هما الفيروزة وفرنـــاند فتدنو بجوادك من المركبة فتنظر الى المرأة نظرة احتقار وتحيي فرناند تحية احترام ، ثم تقول له : أعرفتني يا سيدي ؟ فيجيبك هو لا ريب بالايجاب ، لأنه لم ينس مبارزتك بعد ، وعند ذلك تقول له : إنني عندما بارزتك يا سيدي ، وجرحت بعد منتصف الليل أغمي عليك فارتأيت بالاتفاق مع الشهود عدم حملك الى منزلك كي لا تصـاب زوجتك بسوء عندما تراك على تلك الحال ، ورأينا ان نحملك الى منزل تلك الفتـــاة المجاور لمحل الحادثة .

أما هذه الفتاة التي حملتك الى منزلها ، وهنا تشير اليها باحتقار ، فقـد كانت عشيقة لي وقد خدعت بها وارتكبت خطأ حبها ، فاشتريت لهـــا ذلك المنزل الذي تقيم فيه وفرشته لها باحسن الرياش كما رأيت حين كنت فيه ، وجعلت لها المركبات والخيول المطهمة الى غير ذلك مما يفعله كل شاب يعتز مثلي بجمال هذه الخطايا وزخارف أقوالهن الكاذبة . وقد سافرت على أثر مبارزتي وحملتك الى منزلها . فلما عدت اليوم من سفري علمت انك خلفتني في قلبها وفي منزلها ، وان لك وحدك الحق في الركوب معها في هذه المركبة التي اشتريتها بأموالي .

فأجفل روكامبول وقـــال : العلك تريد بذلك ان فرناند يتحمس فيدفع لي ثمن المنزل والفرش والمركبات والجوهرات ، وجميع ما تقتنيه تلك الفتاة

فأجابه اندريا بلهجة الساخر . لقد علمت بعض الشيء فان الفيروزة ستغادر هذا القصر بعد هذه الحادثة كما علمتها ، فتستأجر غرفة حقيرة تقيم فيها وهو ما يرضاه فرناند . ولكنه يثق بعد ذلك من حبهـــا ويكرهها على قبول جميع ما تحتاج اليه من قصر جديد ومجوهرات ومركبات جديـدة إلى غير ذلك مما سيكلفه نصف مليون على الأقل .

— وهذا المال ؟

نعطي الفيروزة ٥٠ الف فرنك منه ، ويدخل الباقي لصندوق الشركة تحت الحساب ... ولنعد الآن الى فرناند فان حديثك معه على ما تقدم لا بد أن يدعو الى مبارزة بينكم ، ولكن الفيروزة تصلح بينكما لأنه سيكون لها أطوع من بنانها .

فـأظهر روكامبول إشـارة الامتثال ، وقـال . أهذا كل مـا تريد مني ؟

— كلا . بل بقي لي حاجتان : إحداهما ان توصل كتابي هذا ، وأعطاه رسالة ضخمة ، الى أدايي ناتها الهندية وتحمل إلي جوابها . والثانية أن تذهب غداً الى معلم السلاح المعروف في شارع رشـوات نمرة ٤١ وتطلب اليه ان يعلمك ضربة السيف المعروفة باسم « مائة ريال » فانها سميت بهـذا الاسم لأن أجرة تعليمها مائة ريال .

— وما الفائدة من تعليمها ؟

— إنك متى أتقنتها تستطيع ان تطعن خصمك طعنة تقتله قتلاً بطيئاً بحيث يستطيع ان يكتب وصيته قبل ان يفاجئه الموت .

فذعر روكامبول وقال أتقضي علي ان اقتل أحداً ؟

— أجل .

— متى ؟

— ربما كان ذلك بعد خمسة عشر يوماً .

— من هو هذا الرجل المنكود ؟

هو الذي سأتزوج أرملته .

فأحنى روكامبول رأسه وهو يقول : مسكين ارمان دي كركاز .

أما اندريا فلم يحفل بكلامه ولكنه قام فودعه على ان يراه بعد يومين ، وذهب ليجتمع مع أخيه وباكارا في الساعة العاشرة . غير انه بينما كان ذاهباً الى منزل أرمان وهو يعد له وسائل الموت كانت باكارا عائدة من ذلك المنزل وهي تعد لصاحبه وسائل الحياة .

لم تبسط في ما تقدم من فصول هذا القسم غير مقدمات تلك المكائد الهائلة التي أسس أركانها اندريا ونحن آخذون الان ببسط نتائج تلك المقدمات وسرد حوادثها العجيبة فنقول :

في اليوم الثاني لاجتماع اندريا بروكامبول ، كان فرنـــاند روشي في منزل الفيروزة وقد جلس اليها يعرب عن غرام فؤاده ، وهي تظهر له حباً اكيداً خالصاً من شوائب الغايات فتلفق له من حوادث ماضيها قصصاً تلبسها حلة الازدراء ، مبينة له فضائل الحب الصحيح وكيف انه إذا دخل الى القلوب الأثيمة طهرها من الآثام الى غير ذلك مما كانت تجعله مقدمة لما ستنصبه له من حبائل دهائها ، وكانت تقف معه موقف المشفق الحنون فتذكر له واجباته الزوجية وتلتمس منه ان يسلوها ويعود الى زوجته ، فكان يصغي اليها إصغاء المفتون بجمالها وقد شغل فؤاده هواها فأعماه عن دهائها بحيث بات يحمل نصحها على محامل الاخلاص الصحيح فتبدو لعينيه بمثال الفضيلة والكمال ويقاطعها كلما ألحت عليه بالقبل الحارة .

فما زالا على ذلك الى الساعة الثانية وهو الموعد الذي عينه اندريا لروكامبول فاقترحت عليه ان يخرجا للنزهة فركبا مركبـة وانطلقت بهما حسب أمرها الى الشانزليزة .

وبينما كانت المركبة تسير بهما الهوينا وهما يتناجيان مناجاة الأطيار إذ بصر بها فرآها قد امتقع وجهها وجعلت تضطرب كالريشة تقاذفها الهواء . فأجفل فرناند لمنظرها وقال : ماذا أصابك ؟

فلم تجبه ولكنها نظرت نظرة الى الطريق ثم غطت وجهها بيديها . فنظر فرناند الى حيث تطلعت فرأى روكامبول ممتطياً جواده وهو يسير بازاء المركبة ويبتسم للفتاة إبتسام الاحتقار ولكنه حين رأى فرناند ينظر اليه رفع قبعته

وحياه باحترام ثم هنأه بسلامته من الجرح واندفع في محادثته على ما علمه اندريا وذكرناه في الفصل المتقدم .

وكان يتكلم والفيروزة مطرقة الرأس تتنهد وفرناند مصغ اليه أتم الاصغاء فلما فرغ من حديثه قال فرناند ببرود : طب نفساً ايها الصديق فسترجع اليك جميع أموالك .

فقال له روكامبول بازدراء : لا حاجة لذلك ، فإني أهب هـذه الفتاة تلك الأموال .

فأجابه بعظمة : كلا فانها لا تقبل شيئاً دون اذني .

فنظرت عند ذلك الفيروزة نظرة احتقار الى روكامبول وقالت : كلا لا أقبل شيئاً .

فانحنى روكامبول امام فرناند وقال : ولكني أؤمل ان نلتقي بعد أن اغتصبت مني تلك الفتاة . فـان لدينا حساباً آخر نرصـده ، وهو ليس حساب المال .

– هو ذاك فنوفيك غداً حساب المال ونرى حسابك الآخر بعد الغد .

– حبذا ذاك يا سيدي لو لم أكن مضطراً الى السفر بعد الغد فلنرجىء هذا الحساب الأخير إلى الأسبوع القادم .

– ليكن ما تريد وسأرسل لك شهودي بعد ثمانية ايام .

ثم أمر السائق بالعودة الى المنزل فعادت بهما وفرناند يتميز من الغيظ حتى إذا بلغا اليه أخذت الفيروزة بالبكاء ثم تظاهرت بالغشيان فلما أفاقت من الغشيان وقفت أمامه موقف التائب النادم وقالت : دعني وشأني ايها الحبيب وعد الى زوجتك فقد بدأت أكون شؤماً عليك .

- ٢٢

وطال حديث العاشقين فكانت تسأله وتلح عليه ان يسلوها وهو لا يزداد بها إلا تعلقاً وهياماً ويدفع البرهـان ، إلى ان تظاهرت بأن حبه قـد تغلب عليها فقالت : إني أرضى ان أعيش وإياك ، إذا قبلت شروطي .

فطار فؤاده فرحاً وقال : سلي ما تشائين فإني أقبل كل شرط .

فتنهدت طويلاً وقالت : إصغ إلي يا فرنـــاند ، إني قد شغفت بحبك وأحببتك حباً أكيداً صالحاً ، فصغرت في عين نفسي وتمثل ماضي أيامي الأثيمة بشكل رائع مخيف سئمت لأجله الحياة ، ولكني قبل ان ألقي تلك النفس الى هاوية الغواية ، كنت فتاة طاهرة شريفة . فان اهلي زوجوني بالرغم عني بشيخ عجوز حملني لسوء طباعه على الفرار منه ، وأنفق جميع مهري على السكر والمجون ، بحيث لم يبق لي من ذلك المهر سوى عشرة آلاف فرنك ولا تزال هذه الأموال لدي احترس عليها لأنها وصلت إلي من أشرف مورد وقد زادت من رباها الى الآن الفي فرنك .

فقال فرناند وهو لم يدرك قصدها : ما تريدين من هذا القول ؟

قالت أريد ان أعيش من ربا هذا المال ، ومن شغل يدي كما تشتغل العاملات .

فـأجفل فرناند وقـال : أنت تعيشين هـذه العيشة التعيسـة وأنا أغنى الأغنياء ؟

– نعم ولا أكون منكودة بل اكون من أسعد النساء . ويكفيني من نعيم الحياة ان فرناند يحبني وانا أحبه .

فحاول فرناند الاعتراض ، ولكنها أسكتته بما اتخذته من مظاهر الحب وقالت : هذا هو شرطي الذي وعدت ان تقبله مني كيف كان فاعلم الآن

انك مخير بين الرفض والقبول واني لا أرجع عن هذا الغرام .

فأطرق فرناند إطراق المتأمل وجعل ينكت الأرض بعصاه فقالت على ماذا عولت ؟

— لا يسعني إلا الامتثال لما تريدين .

— أتخضع لي في كل ما أريد ؟

— أجل .

— إذن قم الآن واذهب الى زوجتك فإنك لم ترها منذ يومين ولا تعد إلي إلا في صباح الغد .

فحاول فرناند ان يعترض ولكنها ضربت بيديها مغضبة على منضدة وقالت: لقد وعدتني ألا تخالفني فيما أريد .

فامتثل فرناند وخرج مطأطأ الرأس ، والحب ملء فؤاده ، فوقفت ترمقه من النافـذة حتى إذا رأته يسـير في الشارع سير المخبول قهقهت ضـاحكة وقالت : لقد بلغت من قلبه ما رجوت وسأبلغ من ماله ما أريد ، فما أجهل الرجال !..

ثم غيرت ملابسها فانزيت بزي العاملات وانصرفت الى غرفتها الحقيرة لتمثل دورها الثاني مع ليون رولاند

وكان ليون قد فتن بها حتى لم يعد يطيق صبراً على فراقها وقد أرسـل أباها إلى المستشفى كي يخلو له الجو معها ، وهو يعتقد انها عاملة وان ذلك الأعمى أبوها ، وكانت الفيروزة قد مدت له حبل هواها ، حتى حسب انها باتت رهن حبه وطوع إشارته فلما رأى اندريا ان خدعته قد نجحت وان الهوى قد برح بذلك العامل المسكين ، أمر الفيروزة ان تقاطعه وتهرب منه على ما علمها . فذهبت إلى غرفتها وكتبت اليه كتاباً تخبره فيها انها لم تعـد تحتمل الاقامة معه لأن شكوى زوجته قد بلغت إلى قلبها ، فهي تودعه وداعاً أبدياً ، وتبرح تلك الغرفة الى غيرها في شارع لا تسميه ، حذراً من

أن يتبعها .

فلما انتهت من الكتاب نادت البوابة ، وكانت مدام فيبار التي عرفها القراء في القسم الأول من هذه الرواية ، فأعطتها الكتاب وقالت لها أن تعطيه ليون حين حضوره ثم أخبرتها ان تقول له انها رأتها في مركبة بديعة مع شاب عليه مظاهر النعمة وانصرفت عائدة الى منزلها كي تهتم بأمر فرناند تاركة أمر النظر في إتمام مسألة ليون لرئيسها السير فيليام

- ٢٣ -

بينما كانت الفيروزة تبرح غرفها الصغيرة وهي بملابس العاملات الى منزلها في شارع مونسي كانت باكارا تطرق باب ذلك المنزل ، اي منزلها القديم ، ففتح لها الخادم وسألها ماذا تريدين ؟

– أريد ان أرى سيدتك .

– إنها لم تعد بعد .

فدخلت باكارا بعظمة وهي تقول : لا بأس فاذهب بي الى قاعة الاستقبال لأني اريد ان أنتظرها فيها .

فامتثل الخادم وذهب بها الى القاعة فلما وصلت اليها صرفته في شأنه وجلست تنتظر ولم يطل جلوسها حتى عادت الفيروزة الى منزلها ثم دخلت إلى القاعة لترى الزائرة وهي تعلم انها باكارا .

وكانت الفيروزة لا تزال بملابس العاملات وعلى رأسها قبعة بيضاء فحسبت باكارا انها إحدى خادمات القصر وقالت ألم تحضر سيدتك بعد ؟

– نعم يا سيدتي قد حضرت .

– إذن فاخبريها إني أنتظرها .

فذهبت الفيروزة وأغلقت الباب ثم قالت : عفوك يا سيدتي فاني لبست هذه الملابس لبعض الأغراض ، وأنا هي السيدة التي تريدين أن تريها والتي يلقبونها بالفيروزة .

فنظرت اليها باكارا عند ذلك نظرة الفاحص الخبير وقالت : أحقيقة أنت هي ؟

– نعم يا سيدتي اني مستعدة لخدمتك ، وإن اكن لم أتشرف قبل الآن بمعرفتك .

– إن لي إسماً آخر غير الذي قرأته على رقعة زيارتي ولا بد ان تكوني قد سمعت بهذا الاسم فإنه باكارا .

فأظهرت الفيروزة عند ذلك حركة عجيبة جمعت بين الاعجاب والانذهال والاحترام فقالت : أنت هي باكارا ؟

– كلا ، ولكني كنت أدعى بهذا الاسم حين كنت تائهة في بوادي الغي والضلال . أما اليوم فقد تبت توبة صادقة عما اقترفته من الآثام وصرت أدعى مدام شارمت كما ترينه على رقعة زيارتي .

فأحنت الفيروزة رأسها وقالت نعم لقد علمت بتوبتك ايضاً ولكني كنت أذكرك كل يوم بما أجده في هذا المنزل الذي كنت تقيمين فيه قبلي وكل ما فيه يدل على سلامة الذوق وحسن الاختيار .

– كيف علمت اني كنت أقيم في هذا المنزل ؟

– علمته من سائق مركبتك الذي كان في خدمتي .

– ألم يخبرك عني سوى هذا ؟

فتلبست الفيروزة بملابس السذاجة وقالت إنه كان يخبرني بكل ما يعلمه من أمرك ومعاملتك لعشاقك فكنت اجعلك مثالاً لي لخداع اولئك الأغرار ، حتى اني كنت اقلدك في كل شأن ، لما بلغت من الشهرة ، بل اني أبقيت جميع ما في هذا المنزل على حالته القديمة كي لا أخرج عن تقليدك

في شيء .

فابتسمت لها باكارا وقالت: ألم يخبرك هذا السائق ايضاً كيف اني خرجت من منزلي هذا ؟

– نعم فلقد قال لي انــك انت التي كان يترامى الأمراء على أقــدامك ويموتون لكلمة تخرج من فمك بل كنت تفتخرين بأن قلبك لا يعرف الهوى ولكن نفذت أشعة الغرام الى هـــذا القلب وأحببت ذلك الحب الذي كنت تجهلينه فتخليت عن كل هوى واعتزلت الناس وجميع ما كان يحيط بك من السعادة من اجل هذا الحبيب اليس ذلك أكيداً ؟

– إذ، اذا لم يصدق كله فقد صدق بعضه والان أتمي حديثك ألم يخبرك هذا السائق شيئاً عن الذي كنت أحبه ؟

نعم ، ولكني اسألك الصفح يا سيدتي فإني أخاف اذا قلت ان يكون هذا السائق كاذباً فيا أقول او اكون قد فتحت منك جرحاً قديماً قد اندمل بتقادم الأيام .

– لا بأس قولي ما تعلمين

– أخبرني هذا السائق ان ذلك الحبيب الذي خرجت لأجله من نعيمك كما خرجت حواء من الفردوس لم يكن غير لص .

فلم تضطرب باكارا بل قالت لها : أصدقتيه فيا يقول ؟

– بل قال لي ايضاً ان الجنود قبضوا عليـــه في منزلك وأخرجوه منه وانت مغمى عليك ، فلما عاد اليك رشادك وعلمت بمــا كان خرجت من ذلك المنزل تائهة والهة لا تلوين على أحد فلم يعلم ما كان من أمرك .

– أهذا كل ما علمته ؟

– نعم ولكني قلت في نفسي إنك لا بد ان تكوني قد أفرغت جهدك في سبيل إنقاذه .

– لقد أصبت في ما ظننته ولكن انقذته براءته لأنه لم يكن سارقاً .

فتظاهرت الفيروزة بالسرور وقالت : إذن انت سعيدة وإياه ؟
– كلا لأنه كان يحب سواي .

فانذهلت الفيروزة وقالت اتراه تخلى عنك ؟
– بل أنا تخليت عنه ، فقولي لي ألم تعلمي اسمه من ذلك السائق ؟
– كلا ، لقد اخبرني عن صفاته ولم يذكر لي اسمه لأنه كان يجهله .
فحدقت بها باكارا وقالت أصحيح ما تقولين ؟

فتنهدت الفيروزة وقالت هي الحقيقة بعينها ومن ولج الحب الصحيح في قلبه بعد الكذب عن لسانه .
– ألعلك أحببت هذا الحب ؟

فوضعت يدها على قلبها وقالت : إصغي لي يا سيدتي لقد كنت منذ أسبوعين انظر اليك بعين الخيال ، وأعجب بك اشد الاعجاب . أما وقد رأيتك حقيقة ورأيت علائم الصلاح بادية بين ثنايا وجهك فقد تبدل ذلك الاعجاب بالاحترام وأحببت ان أطلعك على حقيقة ما أعانيه كي يكون لي من كلامك الصالح بعض العزاء .

واعلمي يا سيدتي اني لا أزال أجهل القصد من زيارتك ولكن مهما يكن هذا القصد فهو نبيل لا يمنعني عن ان أبوح لك بسري فقد تسدين إلي نصيحة تخرجني من هذا الموقف الحرج الذي أنا فيه .

فتظاهرت باكارا بالاشفاق عليها وقالت : قولي ما تشائين فلعلي أفيدك في ما تؤملين .

– إن هذا المنزل الذي ترينني فيه هو لرجل كان يحبني فاشتراه لي ووهبني أثاثه . واتفق منذ اسبوعين ان كان عازماً على السفر الى لندرا فخرج في الليلة التي كان عازماً في صباحها على السفر وجلست أنتظره على هذا الكرسي إلى ان دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، فسمعت طرقاً شديداً على الباب الخارجي ثم سمعت ان باب الحديقة قد فتح ، فأسرعت كي

أرى من القادم ، فرأيت عشيقي ومعه رجلان يحملان رجلاً سالت دماؤه وهو مغمى عليه ، فعلمت أنه تبارز مع عشيقي فجرحه وحمله إلى منزلي كي يتعالج فيه .

ثم سكتت كأنها تخاف ان تتم حديثها ، ولكن باكارا شجعتها على إتمامه فاندفعت في حديثها ، وذكرت لها كيف ان فرناند أقام عندها ثمانية أيام وكيف أنها أحبته وأشفقت عليه لأنه متزوج فأخرجتــه من منزلها معصوب العينين كي لا يهتدي إذا أراد الرجوع اليه ثم أخبرتها عن سفرها في اليوم التالي ، وكيف ان فرناند لقيها خارج باريس وحملها على الرجوع الى غير ذلك مما علمه القراء . فلما أتمت حديثها قالت لها باكارا : والآن على ماذا عولت ؟

ـ عزمت على ان أرجع عن هذا العيش الذميم فأهجر هذا القصر واستأجر غرفة حقيرة فأعيش من عمل يدي شأن العاملات الشريفات .

فقالت لها باكارا وهي مندهلة مما تسمع : أتفعلين ذلك ؟

ـ أجل أفعله ما زال يحبني ولا أريد منه سوى حبه فلا يقال اني أحببته لابتزاز أمواله

فما كادت باكارا تسمع هذا القول حتى وقفت مغضبة ، وقد اتقدت عيناها بشرر الغيظ ، ثم دنت من الفيروزة فهزت كتفيها هزاً عنيفاً وقالت : إنك داهية شديدة الذكاء إلا انك تكلمين باكارا واني طالما مثلت قبلك مثل هذه الادوار على هذه المراسح .

وكان قد تمكن الحقد من باكارا بحيث لم يكن يعوزهـا سوى الخنجر لقتل مزاحمتها على فرناند أما الفيروزة فانها لبثت في مكانها دون أن تظهر شيئاً من ملامح الخوف ، ولكنها نظرت الى باكارا نظرة المنذهـل وقالت : لقد رابني انقلابك يا سيدتي فإما ان تكوني قد جننت او انك تهوين الذي يهواني وأهواه .

— نعم فلقد صدقت في قولك الأخير .

ثم عادت فجلست على كرسيها متكلفة هيئة الوداعة والسكون وقالت : إصغي إلي الان كما أصغيت اليك واعلمي ان هذا الرجل الذي تزعمين انك تحبينه ، أحببته أنا منذ أربعة أعوام . ولم أغير طريقة حياتي إلا من أجل هذا الغرام ولا أنكر انك قد تكونين أحببته حباً أكيداً ، فاذا كان ذلك فبرهني على هذا الحب الأكيد كما برهنت عليه انا من قبل .

فأظهرت الفيروزة الانذهال وقالت : ألا تكفي ملابسي هذه للدلالة على صدق هذا الحب ؟

— كلا ليس هذا ببرهان .

فأسرعت الفيروزة الى خزانة في الغرفة المجاورة ثم عادت تحمل غلافاً كبيراً ففتحته وجعلت تنثر ما فيه من الأوراق

فقالت باكارا : ما هذا ؟

- أنظري !.

ثم التقطت ورقة من الأرض وقالت : هذا عقد بيع تام الشروط للمنزل الذي أنا فيه ، وهو الذي وهبني إياه عشيقي الفيكونت دي كامبل .

ثم أخذت ورقة ثانية وقالت هذه أسهم مالية قيمتها ١٦٠ الف فرنك أعطاني إياها الفيكونت ؟ وهذه أوراق اخرى تبلغ فائدتها ستة آلاف فرنك في العام .

- ماذا تقصدين ؟

— إقرأي هذه الغلاف اليس مكتوباً عليه إسم الفيكونت ؟

— أجل .

— إذن فاقرأي هذا الكتاب الذي كتبته اليه ، ووضعت في طيه هذه الأوراق .

فأخذت باكارا الكتاب وقرأت ما يأتي :

« سيدي الفيكونت

« أرجو عفوك فلقد خدعتك حين تظاهرت بحبك ولم أكن احب سوى اموالك ، ولقد كرهت هذه الأموال بعد مقابلتنا بالأمس فأنا ارجعهـا اليك الان مع حجة المنزل الذي يعود اليك فاحضر لاستلامه متى شئت » .

(الفيروزة)

فلما أتمت باكارا تلاوة الكتاب قالت الفيروزة: ألديك شك بعد ذلك بصدق حبي لفرناند ؟

– نعم . ولو كان فرناند فقيراً كما كان عندما أحببته انا لعـددت ردك الأموال الى الفيكونت خير برهان ، إلا ان فرنـاند واسع الثروة وهو قد يعوض عليك أضعاف ما بذلته .

– إن هذا قد يكون ولكني لا أحبه لماله وهوذا برهان آخر .

ثم دفعت اليها كتاباً كانت مزمعة أن ترسله الى فرناند ، كتبت فيـه ما يأتي :

« صديقي المحبوب

« إذا كنت قد رضيت بشروطي التي عرضتها عليـك اليوم ورضيت ان تحبني فقيرة معدمة لا مال لي سوى الغرام الصادق فلا تزورني في منزلي بل في شارع بلانش نمرة ١٧ » .

(الفيروزة)

فما كادت باكارا تتم تلاوة الكتاب حتى نظرت اليها نظرة ملؤها الوعيد ثم انقضت عليها انقضاض الصاعقة وقبضت بيديها على عنقهـا وضغطت عليها ضغطاً شديداً حتى أوشكت أن تخنقها. فصاحت الفيروزة صياح المختنق ، أما باكارا فإنها خففت ضغطها وقالت لها: إن حياتك بين يدي فاصدقي القول والا فانك مائتة لا محالة .

فقالت الفيروزة وقد اعترت وجهها صفرة الموت ، ماذا تريدين ؟
- قولي الحقيقة أتحبين فرناند ؟
- لا أحبه حباً بل أعبده عبادة
– إذن فإني أمهلك دقيقة واحدة لتختاري فيها بين رجوعك عن حبه وبين الموت !

فقالت الفيروزة بعظمة دهشت لها باكارا . لا حاجة إلى المهلة فقد اخترت الموت فإذا شئت فاقتليني ولكن لتعلمي انه يحبني فوق ما أحبه وانه ينتقم لي.

فوقع هذا الكلام وقعاً شديداً على باكارا فـــأنت أنين المتوجع وأفلتت فريستها لأنه خطر لها أن فرناند يموت بعدها إذا قتلتها لفرط حبه لها ولكنها أرادت أن تجرب معها تجربة أخرى فقالت : لا تخافي الآن فـإني لا أقتلك لأنك تحبين فرناند ولكني أقتلك دون إشفاق إذا لم تطيعيني مدة ساعة .

– ماذا تريدين أن أصنع ؟
- إقرعي الجرس ومري السائق أن يهيء المركبة ..

فامتثلت الفيروزة طائعة وهي تجهل ما تريد . أما باكارا فانها أخذت الأوراق التي نثرتها الفيروزة من الغلاف وفيها حجة المنزل والكتابان اللذان قرأتها والقتها جميعاً في النار ، ثم نادت الخادمة وأمرتها أن تحضر لمولاتهـــا قبعة ورداء ، ولما عادت بها ذهبت بالفيروزة إلى خارج المنزل وركبت وإياها المركبة التي أمرت باعدادها وأوعزت إلى السائق أن يسير إلى شارع بيسي ، أي إلى المنزل الذي تقيم فيه باكارا ولما وصلتا اليه دخلتا فذهبت باكارا إلى خزانتها فأخرجت منها أوراقاً مالية تبلغ قيمتها ١٦٠ الف فرنك وفيما هي تقفل الخزانة أقبلت اليها الفتاة اليهودية فقبلتها ونادت الخادمة وقالت لهـا : إني سأغيب يومين عن المنزل فاحرصي على هذه الفتاة كل الحرص ولا تحرميها شيئاً مما تطلبه . ثم ذهبت مع الفيروزة وأمرت سائق المركبة أن يسير بها إلى المسجل . فأجفلت الفيروزة وقالت : ما حاجتنا بالذهاب إلى المسجل ؟

– اننا نذهب اليه للسجل عنده عقد بيع منزلك .

– ولكنه للفيكونت وليس لي ..

فقالت باكارا : لا بأس ولا فرق لدى الفيكونت بين أن يسترجع أمواله ذهباً أو عقاراً.

– ومن يشتري هذا المنزل ؟

– أنا التي سأشتريه ، فإني ما تبت إلى الله ورجعت عن حياتي السابقة إلا لحبي لفرناند ولاعتقادي انه يحب امرأته الشرعية ، فضحيت ما ضحيت في سبيل حبه غير نادمة على شيء . أما الآن وقد نسي حبه لزوجته فلم أجد بدأ من نسيان توبتي لأنه إذا كان يريد أن يحب فتاة مثلك فأنا أولى بهذا الحب .

فبهتت الفيروزة وقالت إذن عزمت على ان تعودي إلى حياتك السابقة؟

هو ذاك فان كل فتاة تزج بنفسها إلى هاوية الغواية فقد قدر عليها ان لا تخرج منها إلا الى حين كما يخرج الغواص رأسه من الماء ليتنفس الهواء وأنت فانك قد تصبحين شريفة طاهرة ما زال فرناند يحبك وما دمت تهوينه غير أن هذا الحب لا يلبث ان يزول حتى تعودي إلى حياتك السابقة ولقبك القديم وهو الفيروزة كما عدت أنا إلى لقبي وهو باكارا .

ولما وصلت إلى هذا الحد من الحديث وقفت المركبة عند باب المسجل فدخلتا اليه وبعد أن كتب لهما عقد البيع عادتا إلى المنزل فأمرت باكارا الفيروزة ان تكتب للفيكونت انها مرسلة اليه أمواله وثمن المنزل ففعلت ، وأخذت باكارا كتابها ووضعته ضمن غلاف ووضعت في طيه ثمن البيت أوراقاً مالية ثم ختمته وأمرت الخادم ان يحمله في الحال الى الفيكونت ، وبعد ذلك نظرت الى الفيروزة وقالت لها : هوذا المنزل قد عاد إلي بجميع أثاثه ، فهل لك حاجة فيه بعد ؟

– أريد ان اكتب لفرناند .

كلا .. إني اريد ان يأتي الى هذا المنزل فيراني فيه بدلاً منك .

– اني أقبل بذلك بشرط ان تخبريه أين اقيم

– أقسم لك اني أخبره ، إطمأني .

وعند ذلك دخل الخادم وهو يقول : هوذا الحال الذي امرتني باحضاره .

– ليدخل

دخل الحال وامرته الفيروزة ان يحمل صندوق امتعتها ثم ودعت باكارا وداع الفائز المنتصر وانصرفت ، فاستوقفتها باكارا وهي خارجة وقالت : اصغي إلي واسمعي مني هذه الكلمة الأخيرة وهي انك اذا عبثت بفرناند وسلبته درهماً واحداً فاني لا أعفو عنك بل اني أبحث عن خنجر خبأته وأغمده في صدرك .

فخرجت الفيروزة دون ان تجيب بحرف على هذا الانذار ولحقت بالحال فلما أدركته خارج الباب قال لها : الحق انها قوية فقد كادت تخنقق بيديها .

– كيف علمت هذا ؟

– ذلك لأني حضرت المعركة وكنت مختبئاً في الغرفة المجاورة سمعت ورأيت كل شيء وانا الذي لبست ثياب السائق وذهبت بك الى منزلها ثم الى المسجل .

فعلمت الفيروزة من صوته انه اندريا واندهلت لاقدامه الغريب ، فقال لها: ان هذه المرأة شؤم علي وفي وسعها ان تلقي بي الى الحضيض اذا علمت بأني أنا الذي ادبر هذه المكيدة وهي قالت لك انها تغمد خنجرها في صدرك اذا سلبت فرناند ، أما انا فاقول لك اني أشويك على النار الحامية إذا خطرت لك خيانتي .

وبينما هما يذهبان كانت باكارا جاثية تصلي وقد أنهت صلاتها بقولها : رباه عفوك إني لم أعد الى حياتي السابقة إلا لكي أنقذ فرناند بل انقذهم جميعاً .

ولنعد الآن الى روكامبول فانه بعد ان ترك فرناند والفيروزة على ما تقدم برح الشاتز اليزه وذهب الى معلم السيف ليدرس عليه الأمثولة التي أمره اندريا بتعلمها وبعد ذلك ذهب الى منزل الهندية يحمل اليها كتاب اندريا فلما قابلها دفع الكتاب اليها نظرت الى عنوانه انه من السير فيليام، اتقدت عيناها وفضت الغلاف فقرأت الكتاب مسرعة كأنها تريد أن تلتهم سطوره .

ولم يعلم ماذا دار بين هذه النمرة الهنـــدية وبين هذا الاسد الباريسي من الحديث غير انهما بعد ان تباحثا مباحثة طويلة غادرها فركب مركبة وذهب الى قصر المركيز فان هوب فدخل وسأل عن المركيز فقيل له انه لم يعد ولكنه علم ان المركيزة في المنزل ، أمر الخادم ان يخبرها بقدومه وتبعه الى قاعة الاستقبال ، فقام ينتظر فيها وبعد حين أقبلت المركيزة فحيته مبتسمة ولكنها لم تتمالك من إظهار انقباضها لأنها ذكرت حين رأته انه عدو شاروبيم ولكنها لم تجد بدأ من مجاملتـــه ومحادثته وما زالت واياه يتباحثان في الأحاديث المألوفة حتى أتى المركيز فذهب بروكامبول الى غرفة اشغاله كي يخبره بالسبب الذي أتى من أجله .

ولما اختليا ولم يكن روكامبول قد زار المركيز غير مرة واحدة فعرفه بنفسه وقال له عفوك يا سيدي فاني ما أتيت إلا لشأن خطير قد يثقل عليك ولكني لا أجد بدأ من اخبارك به ثم اني لا أجد بدأ من اطلاعك على ما أتيت لأجله من أن أخبرك بشيء من تاريخ حياتي لشدة علاقته بهـذا الشأن .

فأظهر المركيز الانذهال وقال : قل ما تشاء فاني مصغ اليك .

فقال روكامبول : كنت يا سيدي منذ عام في مدينة نيويورك وليس لي

من العمر غير أربعة وعشرين عاماً فكان لي من الجرأة والاقدام والمطامع ما ينطبق على هذه السن ، وقد لقيت في هذه المدينة العظمى فتاة غريبة العادات والأخلاق بارعة الجمال ، وهي تسمى باسم أسرتك لأنها تدعى مسز دابي ناتها فان هوب .

فدهش المركيز وقال : إنها ابنة عمي وقد مات أبوها في الهند فكيف هي في نيويورك ؟

– لقد كانت فيها أما الآن فهي هنا في باريس .

– العلك قادم من قبلها .

– نعم هي التي أرسلتني اليك ولكنك وعدتني يا سيدي ان تسمع حديثي .

- نعم وها أنا مصغ اليك .

فقال روكامبول : اني عندما لقيتها في نيورك بذلت جهدي مع كثيرين غيري من أعيان تلك العاصمة للتعرف بهذه الهندية فكنت الفائز دون سواي وبلغ من جسارتي اني كاشفتها بغرامي ، فكانت تصغي الي وتبتسم ابتساماً حزيناً لا يظهر الا على شفتي من لقي عناء شديداً في جهاد الحياة وقالت لي : ان القلب الكريم لا يحب غير مرة واحدة وقد أحببت هذا الحب . فاضطرب المركيز عند سماع هذا القول ، غير ان روكامبول تظاهر انه لم ينتبه اليه واندفع في حديثه فقال : ولكني لم أقتنع بجوابها وترددت عليها كثيراً وكل يوم ا كاشفها بهذا الغرام ، فلم تكن تحتفل بي الى أن مدت لي يدها يوماً وهي تقول أتريد أن تكون صديقاً لي ؟ فقبلت تلك اليد وقلت لها : سأكون ما تشائين فدعيني أرجو على الأقل ، فهزت رأسها وقالت: لك ترجو رجاء باطلاً فلقد مات الحب في قلبي

ثم نظر روكامبول الى المركيز وقال له . أسألك العفو يا سيدي فاني لم أذكر لك جميع هذه التفاصيل الا لغرض واحد وهو أن أظهر لك ان ابنة عمك كانت تحب حباً قديماً برح بها والقى في قلبها اليأس .

وكانت تدعوني دائماً الى زيارتها فما زلت اختلف اليهـــا ستة اشهر حتى شعرت بأني أصبحت عاشقاً مفتوناً بها ولكنها لم تشأ ان تقف معي الا موقف الصديق ، ثم طرأ علي من الشؤون ما دعاني الى الرجوع الى باريس فمدت اليها منذ عام ، وكأن ملاذ هذه العاصمة وزخارف الحياة فيهـــا شغتني من ذلك الغرام فنسيت كل ما مضى ، الا اني اصبحت اليوم واذا بكتاب ورد الي من ابنة عمك تقول فيه هذا القول المتقطع ثم أطلعه على كتاب بخط الهندية يتضمن ما يأتي :

(أنا في باريس .. أسرع الي فلم يبق لي من الحياة الا ساعات معدودة واني اعتمد على صداقتك)

فقرأه المركيز وعرف انه خط ابنة عمه وصاح منذعراً : بربك قـــل لي ماذا اصابها ، أهي ميتة أم لا تزال في قيد الحياة ؟

– كلا .. فانها لم تمت بعد فاصغ الي ، اني عندما قرأت هـــذا الكتاب أصابني من الاضطراب ما اصابك فأسرعت اليها فوجدتها جالسة على مقعـد شرقي وهي تبتسم حسب عادتها وليس بين ثنايا وجهها ما يدل على ما جاء في كتابها فدهشت وحسبت انها ارادت المزاح

وكأنها علمت ما كان يجول في نفسي فمدت الي يدها وقالت : إنك تراني في أتم عافية الا انه لا يمر بي ثمانية ايام حتى افارق هذه الحياة .

فذعرت وقلت : كيف ذلك ؟

فأجلستني بقربها وقالت ، اتعلم ايها الصديق السبب الذي رفضت من أجله هواك وقنعت بصداقتك ؟ ذلك انه ليس لي الآن من العمر الا ثلاثين عامـــاً ولكنني أحببت وانا في الخامسة عشرة من عمري حباً بلغت به حد القنوط ولم أكن أنظر وأنا في الهند إلا لهذه العاصمة الفرنسية التي دفنت بها قلبي .

فدهشت لقولها وقلت العل هذا الرجل الباريسي قد جن فتعامى عن هواك

– كلا .. ولكنه أحب سواي . ثم تبسمت وقالت : أتعلم أيضاً لمـاذا

أتيت إلى باريس ، اني أتيتها ورجائي أن أراه مطلق القيـاد أو أراه مطلق القلب ولكني علمت واأسفاه أنه لا يزال يهواها ، وعلمت اني لم يعد لي رجاء في الحياة

فما تمالكت أن أخذت يدها وجعلت اغسلها بدموعي وأقول :

أتموتين هكذا في صباك   حلوة يفتن الجماد هواك

بالله سيدتي الا ما رجعت عن هذا القصد السيء واشغلي نفسك عن ذلك الحب القديم .

— لقد فات الأوان وقضي الأمر ، ثم أخذت زجاجة صغيرة فارغة كانت على منضدة أمامها قائلة : لقد شربت عند الصباح ما كان في هذه الزجاجة وهو سم زعاف .

فوقف المركيز وهو لا يملك نفسه من الاضطراب فأجلسه روكامبول وقال له : اصغ يا سيدي لتتمة الحديث : فلقد قالت لي ، ان هذا السم بطيء التأثير لا يحدث آلاماً ولكنه يقتل بعد ثمانية أيام ، وليس لهذا السم الا دواء واحد ولكنه لا يوجد في القارة الأوروبية لعدم وجود هذا السم فيها ، فهو لا يوجد الا في الهند وعلى ذلك فقد اصبح موتي محتما لأنه لا يمكن احضار الدواء من الهند في هذا الزمن الوجيز . وقد دعوتك الي كي اودعك وداعاً أبدياً ثم لأعهد اليك بقضاء مهمة ارجو ان لا يثقل قضاؤها عليك .

فقلت وانا أجهش للبكاء: مري سيدتي بما تشائين . قالت : اريد ان أبعث بك الى الرجل الذي احببته وأنا اموت من اجله كي تلتمس منه ان يحضر الي فاني أحب ان اتزود منه بنظرة قبل الموت

فاصفر المركيز اصفرار الأموات وقال له : وبعد ذلك .

— لا حاجة الى ان أقول لك شيئاً بعد ذلك فان الرجل التي احبته واقدمت على الموت من أجله هو انت .

فوقف المركيز عند سماع كلمة روكامبول الأخيرة ، ولكن رجليه وهنا حتى أوشك ان يسقط فأسند يده على الكرسي كي لا يقع .

- ٢٥ -

وكان بين الرجلين سكوت طويل خشي روكامبول على اثره أن يصاب المركيز بموت فجائي فتخسر الجمعية السرية املها الوحيد ، وهو الملايين الخمسة التي وعدت الهندية بدفعها لأندريا ، ولكنه لم يلبث هنيهة حتى تبـدل خوفـه بالاندهال فانه رأى المركيز زال عنه التجهم وعاد الى السكينة فقـــال لروكامبول : الم تخبرك ابنة عمي باسم السم الذي شربته ؟

- نعم . ولكني لا اذكر بالتدقيق لغرابته فقد قالت انه خلاصة عصير ورق شجر يدعى « مالسانيليه » ينبت في جزائر الأنتيل وانـه ممزوج بورق شجر يدعى « ليلياس » .

فافتكر المركيز هنيهة ثم قال ببرود لقد صدقت ابنة عمي فلا يوجـد لهذا السم الا دواء واحد ، ولا يوجد هذا الدواء الا في الهند ، ثم جعل يقص على روكامبول تأثير هذا السم الى ان قال عن دوائه ، حجر أزرق نادر الوجود لا يوجد الا في احشاء الأفاعي التي لها ثلاثة رؤوس تبـدو منها بشكل قسم مثلث الزوايا وهي سوداء الظهر وبطنها ذو لون اصفر براق كلون الذهب فلا يوجد الا في نواحي لاهور وفيرابور على ان هذا الحجر الغريب لا يوجد في احشاء جميع هذه الأفاعي ، بل انه شديد الندور فيها ، حتى انـه لا يكاد يوجد غير حجر واحد بين احشاء عشر حيات ، ولهذا فقد غلا ثمن هذا الحجر حتى انه يبتغ في بلاده الفي جنيه ، ولا يوجد منه الا لدى بعض الأفراد ، فاذا شرب احد الناس مثل هذا السم الذي شربته ابنة عمي فانه لا علاج له

الا هذا الحجر ، وذلك انه يوضع في قدح ماء فتنحل اجزاؤه في الماء ويصبح ازرق بلون الحجر المذاب فيه فاذا شرب المسموم المزيج شفي للحال ولكن لشفائه شرطاً وهو ان هذا الدواء لا يؤثر الا بعد ان يمر بالمسموم سبعة ايام والا فلا يكون له شيء من التأثير .

فقاطعه روكامبول وقد اضطرب لما رآه من بروده وقال له : تسمح لي يا سيدي ان اظهر انذهالي مما اراه منك .

- لماذا ؟

- لأني اخبرك ان ابنة عمك قد تجرعت السم وانها ارادت الموت من اجلك ، وان كنت بريئاً من انتحارها وانك تعلم انه لا يوجد للسم الذي شربته الا دواء واحد وان هذا الدواء لا يوجد منه في هذه البلاد وانك تعلم جميع هذا يا سيدي ، وبدلاً ان تيأس لنكد هذه الفتاة ويضيع رشدك لمصابها اراك تحدثني بتاريخ هذا السم وترياقه دون ان يبدو منك شيء من الاكتراث

فابتسم المركيز وقال : ان كلمة واحدة تبطل عجبك وهي ان المركيزة مخطئة بزعمها ان الحجر لا يوجد منه في باريس ، ثم مد يده اليسرى وقال لمحادثه ، انظر الى هذا الخاتم الثمين الذي البسه في خنصري والى هذا الحجر فيه الذي يشبه الفيروز .

فنظر اليه روكامبول وقال : ما هذا الحجر الأزرق ؟

- هو ترياق ذلك السم وقد اشتريته حين كنت في الهند وذلك منذ اثني عشر عاماً ولم يخطر لي في بال انني سأشفي بذوبه ابنة عمي .

ثم نهض فنهض معه روكامبول وخرج الاثنان الى منزل الهندية وفيما هما على الطريق قال له المركيز : اني لا اجد بداً من اخبارك ببعض امري كي تعلم اني لست بخائن ولكني شقي تعس ذلك اني سافرت منذ ثلاثة عشر عاماً اريد الطواف حول الأرض فبدأت طوافي بالذهاب الى هافانا الاسبانية وتعرفت فيها بعيلة اقمت معها ستة شهور وهي عيلة امرأتي المركيزة ، ثم برحت هافانا

الى الهند بعد ان احببت التي غدت اليوم امرأتي وعاهدتها على الزواج ، فلما وصلت الى الهند نزلت في منزل عمي والد دابي ذاتها فأحبتني هذه الفتاة حباً غريباً ورضيت بي زوجاً لها الا اني كنت منشغل القلب مرتبط العهد فرجعت الى هافانا وتزوجت التي كنت احبها وصحبتها الى اوروبا ، وعشت معها الآن بأحسن عيش وانا احسباني قد برحت من بال ابنة عمي الى ان اخبرتني اليوم بأمرها وانا لم اسمع بذكرها منذ ذلك العهد افلا تحسبني شقياً بعد هذا ؟

فتلبس روكامبول بلباس الكآبة وقال الحق انك جدير بالاشفاق فانك السبب في موت الفتاة ولكنك بريء من انتحارها

فقال المركيز : انها لا تموت ما زلت احمل الدواء بيدي .

– بل انها ستموت يا سيدي لأنك سترى انها لا تريد هذا الدواء .

– ولكني اكرهها على شربه .

– انك لا تستطيع انقاذها الا اذا احببتها

فتنهد المركيز وقال ايمكن للقلب ان يعلق باثنين وانا لا ازال احب امرأتي كما كنت احبها يوم الزفاف ولكني سأنقذ ابنة عمي لأني سأحبها كما يحب الأخ اخته .

وعند ذلك وصلت المركبة الى منزل الهندية فدخل الاثنان وجعلا ينتظران قدوم صاحبة المنزل في قاعة الاستقبال فما طال انتظارهما حتى أقبلت تتهادى وقد استبدلت ملابسها الهندية بملابس باريسية وتأنقت بالتجمل على جمالها فباتت فتنة العيون بحيث ذهل المركيز حين رآها وهو يحسب انه يرى فتاة همجية من فتيات الهند أما هي فأنها سلمت على زائريها ثم قالت لأبن عمها باللغة الانكليزية لجهلها الفرنسوية : أني ألتمس منك خلوة اطلعك فيها على بعض الشؤون السرية ، ثم اعتذرت من روكامبول وتأبطت ذراع المركيز فدخلت وأياه إلى قاعة اخرى وبعد ان أوصدت بابها جلست على مقعد شرقي وأجلسته بقربها وقالت :

إني أشكرك يا ابن عمي العزيز لأسراعك بتلبيـــة دعوتي وأرجو ان لا تقاطعني فيما أقول وأن تصغي إلي أتم الإصغاء فاسمع : انك حين جئت إلى الهند ونزلت في منزل أبي منذ اثني عشر عاماً كنت عند ذلك في حداثة عمري لا أدرك شيئاً من اسرار القلوب وأمور الحياة وكنت أنت جميل الوجه غض الصبى وقد طالما سمعت أبي يقول لي انك ستتزوجين ابن عمك حتى أفضى بي الأمر إلى حبك .

وقد أحببتك وأنا لا أعلم انك كنت مقيد القلب واللسان فلما سافرت من عندنا جعلت أتوقع عودتك كل يوم وأعد الساعات والأيام إلى أن جعلت أعد الأعوام دون أن تعود ، ثم علمت السبب في جفائك الطويل وعلمت انـــك تزوجت سواي ولو لم يحل البحر خصماً بيني وبين تلك المرأة في ذلك اليوم الذي علمت فيه هذا المصاب لهجمت عليها هجوم العقبان الكاسرة وأغمدت خنجراً في صدرها

اضطرب المركيز وقد رأى الانتقام يتقد في عينيها ولكنها لم تقل هذا القول حتى عادت إلى الابتسام وقالت : لا تخشى على امرأتك ، فقد أصبحت اليوم غير ما كنت فيه أمس وصرت متمدنة بعد طول اختلاطي بالمتمدنين أما الدم الهندي الذي يثور في عروقي ثورة البراكين وذلك الانتقـــام الذي كنت استحل معه قتل النفوس فقد صرفته لنفسي فلا يتنـــاول شره إلاي غير اني أحببت ان اتزود منك بنظرة اخيرة قبل الموت كي اقول لك انك ممثل في فؤادي منذ نظرتك النظرة الأولى ولم تبرح منه إلى الآن واني احببتك اثني عشر عاماً كنت تنام ملء جفنيك ولم اكن أبيت ليلة من حبك إلا بليلة الملسوع .

ولم يكن مثل حبي لك إلا مثل تلك الأمراض الوبيلة التي لا ينجح فيهــــا دواء ولا سبيل في شفائهــا الى حيلة طبيب وقد أتى ذلك اليوم الذي طفح فيه كأس قنوطي فرزحت تحت حملي الثقيل وكرهت الحياة. ولم يكن هذا اليوم

غير يوم امس . ثم أخرجت من صدرها زجاجة صغيرة فيها بقية من سائل أحمر وقالت له : لقد شربت السم النقيع وسأموت بعد ثمانية ايام .

فاصفر وجه المركيز حين نظر الى الزجاجة وعلم انه ذات السم الذي وصفه له روكامبول ، فقال لأبنة عمه بلهجة حنان صادقة . كلا أيتها الحبيبة انك لا تموتين وانا أحمل هذا الحجر وهو دواء السم الذي شربتيه ، ثم أخذ يدها بين يديه وقال لها اذكري ان ابوينا كانا أخوين متحابين فلما لا نقتدي بهما بهذا الحب .

فصاحت صيحة فرح ولكن المركيز لم يمهلها ان تتكلم حتى أتم جملته فقال . ألسنا أبناء هذين الأخوين ألا يجب علي ان أحبك كما أحب اختي ؟

فاصفر وجه الهندية وانطفأ ذلك النور الذي اتقد في عينيها وقالت : انك قد جننت دون شك أتعرض حب الأخاء على فتاة تنتحر ليأسها من الغرام ؟ ألق بهذا الخاتم حيث شئت فانه لا ينقذني من الموت لأني غير طامعة بالحياة .

فركع المركيز امامها وقال لها : بربك أرجعي عن هذا القصد السيء واذكري ما بيننا من صلة النسب .

– اني ذكرت هذا النسب وجعلتك وريثي الوحيد بحيث تزيد ثروتك ٤٠ مليوناً بعد ثمانية أيام .

– بالله لا تعيدي هذا القول فإني لا أريد ملايينك بل حياتك .

ووقفت الهندية عند ذلك قائلة : أنظر الي ألا تجدني حسناء ؟

– بل إنك بارعة الجمال .

– ألست أجمل من امرأتك ؟

فأطرق برأسه إلى الأرض وقال : نعم ..

– أكنت تحبني لو لم تكن موجودة ؟

– بحب شغف !

فأنت أنين المتوجع قائلة : وإذا ماتت ؟

فقال المركيز بصوت يتهدج : إن المرء قد يحب الأموات وقد البث على حب امرأتي حتى بعد الموت .

فاصفر وجه الهندية من الغيرة ثم خطر لها خاطر ظهر من بريق عينيها فقالت إذا طلبت اليك حلف يمين غليظة قد أوافق على الحياة بعدها أتقسم لي هذه اليمين أنا التي أموت من أجلك ؟

– أقسم لك بما تريدين كي تبقي في قيد الحياة .

– اني سأطلعك على أمر هائل يضطرب له قلبك وعقلك أتقسم لي أن تطيعني طاعة عمياء إلى أن أظهر لك البرهان الجلي عما سأخبرك به

– اني اقسم بتربة أبي ان أطيعك فيما تريدين

. إذن فإني أسألك الآن سؤالاً ؟.

– سلي !.

– ألم تقل انه إذا لم تكن امرأتك موجودة فإنك تحبني ؟

– نعم ولا أزال أعيد ما أقول ..

– وإذا كانت تلك المرأة خائنة لعهدك .

فصاح المركيز صيحة غضب وقال : احذري من ان تشتميها .

– ولكني أقول الحقيقة ، وهي انك ستحبني متى عرفت هذه الحقيقة .

فلم يجب المركيز بحرف ولكنه قام إلى منضدة لقي عليها خنجراً فأخذ الخنجر وهو يقول انك أخطأت بشرب السم لأنك لا تموتين بالسم بل بهذا الخنجر .

– ٢٦

كل من عرف هذا المركيز وخبر اخلاقه وعلم ما فطر عليه من الدعة

والسكون ورقة الطبع ينكره أشد الانكار وقد رآه يزبد؟ ازباد الجمال وقد اصفر وجهه ورجفت شفتاه وبرقت عيناه بريق الخنجر المطرب في يده

وقد أشهر هذا الخنجر وحاول أن يغمده في صدر تلك الفتاة التي جسرت على تدنيس سمعة امرأته وإتهامه بأقبح العيوب ، ولكنه رأى ابنة عمه واقفة أمامه تستقبل الموت بابتسام وهي تقول : إذا أبيت أن تنتظر البرهان فاغمد هذا الخنجر في صدري .

وكأن المركيز قد ذكر اليمين التي حلفها ، أو هاله ابتسام ابنة عمه للموت وذكرها للبرهان ، فرمى الخنجر إلى الأرض وقال وهو يوشك أن يتميز من الغيظ : إذن هاتي برهانك واعلمي انه إذا كان كلامك حقاً فلست أنت التي تموتين بل هي ، وليست هي التي تكون امرأتي بل أنت .

— أحق ما تقول ؟

— نعم ، فامرعي بالبرهان .

— إذن فاصغ اليّ .. انك تعلم ان حياتي بيدك الآن واني لم يبق لي في هذه الحياة غير سبعة أيام ، فإذا لم تجد منذ اليوم إلى اليوم السابع ، رجلاً جاثياً أمام امرأتك يغازلها في منزل غير منزلك فابق هذا الخاتم في يدك ودعني أموت

- أتبرهنين لي أيضاً على انها خائنة ؟

نعم . على شرط ان تطيعني كا أقسمت .

— اني لا أرجع بقسمي ..

- إذن فاذكر انك رجل وانه ينبغي على الرجل العاقل عند المصيبة أن يدفن حزنه في أعماق قلبه وان يكتم ما يجول في ضميره ولا يظهر سره بين ثنايا وجهه حتى يعثر على البرهان الذي يخرجه من موقفه .. كي لا يفسح لعدوه مجال الحذر ويصبح مضغة في الأفواه فإذا عرفت هذا فاذهب الآن إلى منزلك وكن مع امرأتك على ما عودتها دون أن تبدر منك بادرة تدل على

الريبة إلى أن أسلمك هذين المذنبين

فوقع هذا الكلام وقع الصاعقة على رأس المركيز لأن ابنة عمه كانت تتكلم بلهجة الواثقة المطمئنة وقال : ألا تذكرين لي إسم هذا الرجل ؟

— كلا .. لم يحن الوقت بعد ولكني أرد اليك هذا الخنجر الذي كنت تحاول قتلي فيه كي تغمده في صدر من خانتك لا في صدري .

ثم أخذت الخنجر عن الأرض واعطته أياه وهي تقول: إذهب بسلام وكن حكيما واعمل بما أوصيتك .

فأخذ الخنجر من يدها وقال سأطيعك فيما تريدين ، ولكن اعلمي أن هذا الخنجر لا بد له أن يدفن في قلب واحدة منكما ، فإما أن يغمد في صدر النامة الكاذبة ، أو يخترق قلب الخادعة الخائنة .

ثم انصرف يمشي لاضطرابه مشية السكران . فشيعته ابنة عمه إلى الباب وبقيت تودعه بالنظر إلى أن غاب عن عينيها فعادت إلى روكامبول الذي كان ينتظر في القاعة على أحر من جمر الغضا فقال لها : أمضى ؟

— نعم . لقد ذهب واليأس ملء فؤاده وهو واثق من خيـــانة امرأته ، ولكنه يطلب البرهان .

فأجابها روكامبول ببرود : أنه سيرى خيانة امرأته بالعين .

- أواثق أنت مما تقول . لأن بهذا البرهان تتعلق حياتي .

- اني واثق ملء الثقة فإن ثروتنا متوقفة أيضاً عليه .

- ولكنك تجهل أمراً وهو إذا وجد امرأته بريئة فإني مائتة لا محالة .

- كيف ذلك ؟

— أولاً انه يقتلني .

- وإذا منعناه عن قتلك فكيف تموتين وأنت لم تشربي السم به ؟

— ذلك لأني سأشربه ..

— وأية فائدة من شربه ..

- إن الحجر الأزرق الذي يشفي شارب السم يقتل مذوبه من لم يشربه فإذا أراد أن يشفيني بعد سبعة أيام وسقاني محلول الحجر الذي في يده ولم أكن قد شربت السم فاني أموت ، وإذا كنت قد شربته فاني اشفي وفي كل حال ، لقد عولت متى يئست من الزواج به على الموت .

- اطمئني فإنك ستتزوجين به .

فأخرجت الهندية عند ذلك زجاجة السم من صدرها وشربت ما فيها دفعة واحدة ، ثم وضعتها بسكينة على المنضدة وقالت : لا يحييني الآن إلا حجره الأزرق .

فقال روكامبول وقد كان يثق ثقة عمياء بقريحة استاذه قلت لك اطمئني فستكوني زوجة المركيز

- ٢٧ -

ولنعد الآن إلى با كارا ، فإنها بعد أن اشترت من الفيروزة منزلها القديم واطلقت سراحها بقيت وحدها في المنزل ، كان أول ما فعلته أنها طردت جميع من كان فيه من الخدم ، ولكنها أبقت خادمة غرفة الفيروزة وهي تؤمل أن تعلم منها شيئاً من أسرار سيدتها ، الا ان اندريا كان يتوقع حدوث جميع ما مر من الحوادث ، فأحضر للفيروزة خادمة جديدة ، فلما سألتها با كارا عن سيدتها القديمة أخبرتها جميع ما حدث بالأمس بينها وبين فرناند ، وكيف انها لبست بعد ذهابه لباس العاملات وعزمت على مبارحة القصر والاقامة في غرفة صغيرة تعيش فيها من كسب أيديها ، فلم تستفد منها با كارا شيئاً ولكنها أبقتها في عملها وقالت لها . سيحضر غداً فرناند فمتى حضر ادخليه إلى قاعة الاستقبال ولا تذكري له شيئاً من أمري .

فامتثلت الخادمة .. وأقامت باكارا طول ليلها ساهرة وهي تعمل الفكرة في طريقة تنقذ بها فرناند وترد قلبه إلى زوجته وولده

ولما كانت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي أقبل فرناند حسب اتفاقه مع الفيروزة ، وفيما هو منتظر إذ فتح الباب ودخلت منه باكارا وهي بالملابس التي كانت تلبسها في عهد غوايتها السابقة ، فما صدق نظره حين رآها إلى ان أقبلت اليه تبتسم ومدت له يدها للسلام فتلعثم لسان فرناند وقال : من أرى هنا الست مدام شارمت ؟

– لقد خدعتك عيناك فاني كنت بالأمس مدام شارمت ، أما اليوم فاني باكارا . ثم قدمت كرسياً لفرناند وقالت له : اشكرك لأنك أول قادم يهنئني بالعودة الى حياتي السابقة ، وقد تفاءلت خيراً بقدومك.

فبهت فرناند وقال : ماذا أسمع العلك جنلت ؟

فابتسمت باكارا وقالت . ألمثل هذا اتيتني في هذه الساعة المتقدمة من الصباح؟

فزاد انذهال فرناند ولم يعلم كيف يجيب ، فقالت : ما هذا السكوت .. العلك لم تكن تتوقع ان تراني هنا وانت آت لترى الفيروزة ؟

فاضطرب فرناند وقال ربما ..

– لقد ساء فألك فان الفيروزة قد باعتني هذا المنزل وبرحته منذ أمس . ألا تذكر هذا المنزل حين كان لي من قبل وكنت فيه ؟

قال فرناند : كفى مزاحاً وأوضحي لي هذه الألغاز ..

– اني لا أمزح . ولا ألغاز ، فان المنزل قد اشتريته والفيروزة برحته .

فزاد انذهال فرناند وقال انت التي كنت مثال الفضيلة والطهارة أربعة أعوام لا يذكرك الناس إلا بالخير والثناء أتستطيعين العودة إلى حياتك السابقة

فقهقهت باكارا ضاحكة : لا تكثر المواعظ والنصح فقد تجد اولى مني بها بل اصغ لهذا الحديث الذي اقصه عليك ، فقد كان في سالف الزمن امرأة مكروهة ينظر اليها الناس نظرات الاحتقار لاسترسالها للغي والضلال ،

واتفق يوماً انها رأت في السماء الزرقاء نجمة تضيء وكانت هذه النجمة نجمة الحب . وكان الرجل الذي أحبته موظفاً فقيراً ولكنه كان يحب فتاة طاهرة نقية ويرجو الاقتران بها ..

فقاطعها فرناند وقال : كفى لقد علمت من تعنين .

إذا كنت عرفته فسأقص الغرض من سرد الحكاية فاعلم ان هذه المرأة ارتكبت جريمة من اجل من تحب ثم ندمت على ما فعلت فانقذت من تحبه وسهلت له طرق الاقتران بالفتاة التي كان يحبها ، ولما رأته سعيداً بالقرب منها تابت إلى الله عن حياتها السابقة توبة صادقة وخلعت عنها اسم باكارا فاستبدلته باسم مدام شارمت .

فقال لها فرناند : أرأيت كيف انك تمزحين فانك ما تزالين مدام شارمت

– لقد خدعت ايها الحبيب فان الحب قد ردني عن حياتي السابقة وهذا الحب قد أعادني اليها ، ولا تعجب لما اقول فاني لما رأيت من قبل خصيمتي فيك كانت فتاة طاهرة رجعت القهقرى ولبست حلة الفضيلة ولم تكن في الحقيقة غير حلة اليأس اما وقد باتت تلك الخصيمة من بنات الهوى وهي لا توازيني في شيء بل هي فتاة ساقطة لا أدب لها ولا شرف ..

فصرخ بها فرناند يقول : كفى فانك تهينين التي احبها .

أما باكارا فانها لما سمعت اقراره وجف فؤادها فوضعت يدها على جبهتها ولبثت صامتة وهي أشبه بالأموات الا ان فرناند لم يكترث لما حل بها فقال: إذا كان هذا المنزل منزلك كما تقولين فهل لك ان تخبريني أين ذهبت صاحبته القديمة ؟

فقالت باكارا بعظمة : معاذ الله ان اكتم عنك محلها فانها تقيم في شارع بلانتين نمرة ١٧ ، ثم صرفته باشارة من يدها فانحنى مسلماً ومضى .

فلما أصبحت وحدها وجعلت الدموع تسيل من عينيها وهي تقول : رباه اني اردت اقناعه بالحجة والبرهان فتغلبت عواطف قلبي على عقلي .

بعد ذلك بساعتين وقفت مركبة باكارا أمام منزل أختها مريز فخرجت منها ودخلت إلى المنزل فوجدت أختها على أسوأ حال وقد قرح البكاء جفنيها وبعد حديث طويل علمت منها ان زوجها ليون وقع في شرك إحدى العاملات وانها كتبت اليه بالأمس كتاباً قاطعته فيه فتمكن منه القنوط حتى عول على الانتحار ، ثم أخبرتها انه أراد ان يلقي بنفسه من النافذة وهو يحسبهـا نائمة فوثبت اليه ولم تتمكن من ارجاعه عن قصده إلا بعـد ان ذكرت له ولده الصغير ، فحن فؤاده وذهب إلى الطفل النائم وجعل يقبله وهـو يبكي بكاء الأطفال ، ثم خرج من المنزل بعد ان عاهدها على أن لا يقدم على الانتحار .

فعجبت باكارا واشفقت على أختها ثم سألتها : كيف علمت بهذا الكتاب الذي ورد اليه؟

- رأيته في جيبه ..

فسألتها احضاره . وكان هذا الكتاب الرسالة التي كتبتها الفـيروزة في غرفتها عند مدام فيبار ، ولما وقفت عليها باكارا وتأملت بخطـه صاحت صيحة منكرة وقالت : الخط واحد والمرأتان واحدة فما هذا السر ؟

ثم افتكرت هنيهة وعادت إلى اختها فقبلتها وهي تقول : اطمئني أيتهـا الأخت العزيزة فإن ليون سيعود إلى حبك ويرجع عن هـذه الداهية في أقرب حين .

وحاولت مريز أن تعلم من أختها شيئاً عما ذكرته من اتفاق الخطـين والمرأتين ، ولكن باكارا لم تجبها بشيء بل اقتصرت على تطمينهـا وخرجت فركبت مركبتها وذهبت الى منزلها الذي كانت تقيم فيه باسم مـدام شامت فسألت الخادمة إذا كان قد زارها أحد في مدة غيابها فأجابت لقـد أتى الفيكونت أندريا أمس مرتين وقد أتى اليوم أيضاً منذ ساعة وترك لك هذه

الرسالة ، ففضتها باكارا وقرأت ما يأتي :

« سيدتي

« لدي كثير من الشؤون الخطيرة الخاصة بالجمعية السرية يجب اطلاعك عليها وأن اراك في القريب العاجل .

الامضاء

أخوك بالتوبة - اندريا »

فمزقت الرسالة والقتها في النار وقالت للخادمة : إذا جاء يسأل عني فقولي له اني لست بالمنزل . ثم دعت جميع الخدم وقالت لهم : اني قد أبيع هذا المنزل وقد أبقيه ، وأغيب عنه عدة أيام فإذا أبقيته فانكم تبقون في خدمتي وإذا بعته اطلقت سبيلكم وكافأتكم خير مكافأة .

فأسرعت الفتاة اليهودية اليها بعد خروج الخدم وقالت لها : وأنا مـاذا تصنعين بي ؟

- انك ستكونين معي حيث أكون .

فأظهرت لها فرحاً عظيماً وجعلت تبكي فسألتهـا باكارا عن السبب في بكائها فقالت لها : ذلك لأني خفت خوفاً شديداً من الرجـل الذي زارك أمس واليوم وترك لك الرسالة .

- لماذا خفت منه ؟

- لأنه كان ينظر الي نظرات ذلك الرجل الذي كان ينومني تنويمـاً مغنطيسياً كل ليلة بالرغم عني .

فعجبت باكارا لأمرها وسألتها . من هو هذا الرجل ؟

فحكت لها اليهودية حكايتها وخلاصتها ان أحد المشتغلين بصناعة التنويم كان يعطي أمها كل يوم عشرة فرنكات كي تأذن له بتنويم ابنتها .

فزاد عجب باكارا وسألتها : أكنت تنامين ؟

- لم أكن أريد النوم ولكنه كان يحدق بي تحديقاً شديداً فأنام مكرهـة

وحين أصحو من الرقاد الكاذب كانت امي تقبلني ضاحكة وهي تقول :انك قابلة للتنويم وستكفينا شر الفقر .

وكانت باكارا مصغية لحديث الفتاة أتم الاصغاء ثم غاصت في تأملاتهـــا وذكرت انها كانت تستخدم هذا النوم في أيامها السابقة لتعلم حقيقة أميـال عشاقها ثم ذكرت ان الذين كانوا ينامون هذا النوم كانوا يخطئون في معرفة خفايا القلوب مرات ولكنهم كانوا مصيبون في بعض الأحيان ، وعند ذلك برقت أسرتها بأشعة الأمل وقالت في نفسها سوف أرى فقد أقف على اسرار اندريا بتنويم هذه الفتاة .

- ٣٩ -

ثم عادت الى الفتاة الاسرائيلية وبعد سكوت قليـل دار بينهما الحديث الآتي فقالت باكارا

– إذن فإن هذا الرجل كان ينومك ؟

– نعم يا سيدتي .

– أكنت تخافين ؟

– خوفاً شديداً ..

– ولو خطر لي أن أنومك ألا تخافين ايضاً ؟

- كلا .. بل أنام بملء السرور لأني أحبك ولا أخافك .

– إذن فاجلسي أمامي .

فامتثلت الفتاة وذهبت باكارا وأوصدت الباب والنوافذ ثم عـــادت وجلست أمام الفتاة وحدقت بها تحديقاً طويلاً وهي تقول لهـــا . نامي .. فكانت الفتاة تنظر اليها وهي لا تستطيع ان تقاوم نظراتها ، ومـــا زالت

تحدق بها وهي تأمرها بالنوم حتى تثاقلت عيناها ثم أطبقت جفنيهـا وسقط رأسها على جانب الكرسي فشمرت باكارا بسرور عظيم وقالت للفتاة النائمة: أنائمة أنت ؟ فأجابتها وهي مغمضة العينين قائلة : نعم .

ودار بينهما عند ذلك الحديث التالي ، فسألتها باكارا :

– أي نوم تنامين ؟

– النوم الذي أمرتني ان أنامه .

– انظري الي وقولي لي ماذا ترين وبأي شيء افتكر ؟

– إنك تفتكرين به .

– بمن ؟

– بذلك الرجل الذي اتى وكان ينظر الي ..

– أترين هذا الرجل ؟

– نعم .. نعم .. اني أراه !

– أين هو ؟

– لا أعلم .. اني لا أراه جيداً .. اصبري .. انه يسير في شارع كبير عريض ، ثم مدت يدها مشيرة الى الغرب ،

– أترين كنيسة في هذا الشارع ؟

– نعم .

– أين يذهب هذا الرجل ؟

– انه يمشي مسرعاً .. انه يسرع جداً .. هوذا مركبة .

– أصعد إلى المركبة ؟

– كلا بل انه صادفها .

ثم كأن هذه الفتاة النائمة قد انصرفت أفكارها الى المركبة ومن كان بها فأخذت تقول

ما أجمل هذه المرأة .

ـ أية امرأة تعنين ؟
ـ إنها امرأة جميلة لم أرها من قبل .
ـ إذن فلماذا انصرف فكرك اليها ؟
ـ لأنها آتية إلى هنا .
ـ إلى هنا . إلى منزلي .
ـ نعم وهي جميلة جداً ولكنها شديدة الحزن .
ـ ولماذا هي حزينة ؟
فوضعت الاسرائيلية يدها على قلبها وقالت : لأنها تشكو .
ـ ألم تعرفيها ؟
ـ كلا ولكنها قد أتت من قبل إلى منزلك .
ـ أكانت تزورني دائماً ؟
ـ كلا .. فإنها لم تزرك غير مرة واحدة .
ـ وهي آتية الى منزلي كما تقولين

ـ نعم فإنني أراها قادمة وهذه مركبتها الجميلة قد مرت فوق الجسر .. انها تجاوزته .. مرت بالشارع الجديد الموصل إلى منزلك . انها دنت من المنزل وأنا أراها الآن جلياً . ما أسرع هذه الجياد وما أجمل هذه المركبة . هـا هي قد قربت من الباب . وقفت امام باب منزلك .

فدهشت باكارا دهشة عظيمة لأنها سمعت صوت مركبة وقفت على باب منزلها ، وبعد هنيهة دخلت الخادمة تحمل بيدها بطاقة المركيزة فان هوب فقالت لها : إذهبي بها إلى قاعة الاستقبال وقولي لها اني قادمة في الحال .
ثم عادت إلى الفتاة فسألتها :
ـ من يوجد عندي في قاعة الاستقبال ؟
ـ هي . هي التي رأيتها في المركبة .
ماذا ترين بها ؟

– انقباضاً شديداً .

– أتعلمين أسباب حزنها ؟

– نعم فانها تحب .

– انظري اليها وانبئيني عن أحوالها .

فلم تجب الفتاة في البدء ولكنها ما لبثت ان تراجعت مذعورة الى الوراء وقالت : هذا هو ؟

– من هو ؟

– الرجل الذي يزورك وينظر الي نظرات تخيفني .

فعلمت باكارا انها تقصد اندريا فقالت لها : اين ترينه ؟

– انه يصعد سلم منزل في الشارع مع رجل في مقتبل الشباب.

– بماذا يتحدثان ؟

– بها .. بتلك المرأة الحزينة التي اتت اليك .

فعلمت باكارا ان أفكار الفتاة لم تنصرف الى اندريا إلا لعلاقته بالمركيزة فقالت لها ، ماذا يقولان عنها ؟

– لا أعلم . لا افهم شيئاً .. ولكنهما يريدان قتلها .

فاضطربت باكارا وقالت : لماذا ؟ انظري جيداً في نفسيهما

– لا أعلم . اني لم اعد ارى شيئاً ، ثم سقط رأسها على كتفيها واستغرقت في سبات نوم عميق . وكانت باكارا تعلم ان التنويم المغناطيسي لا يصلح ان يسمى علماً صحيحاً يبسط اسرار المستقبل ويكشف خفايا القلوب ولكنه قد يدل بعض الدلالة على تلك الأسرار ويصدق في بعض الأمور كما اتفق صدق الفتاة حين اشارت الى قدوم المركيزة فانقطعت عن سؤال الفتاة وتركتها نائمة في الغرفة ثم ذهبت لاستقبال زائرتها فوجدتها حزينة منقبضة الصدر كما قالت لها اليهودية .

وكانت المركيزة قد زارت باكارا كي تسألها عن تلك الفتاة التي كلفتها

بارسال إحسانها اليها والسؤال عنها ، وأخبرتها باكارا انهـــا أتمت المهمة التي انتدبتها لها وذكرت لها عن أخلاق الفتاة ما رغبها باستخدامها في منزلهـــا وطلبت أن تراها فلم يسع باكارا إلا الامتثال وذهبت معها إلى حيث تقيم تلك الفتاة البائسة لتختبرها بنفسها

وبينا كانتا ذاهبتين بالمركبة مر بهما فارس كان يمتطي جواداً كريماً ولما رأى المركيزة رفع قبعته وحياها بمنتهى الاحترام ، فردت المركيزة تحيته وقد عبق وجهها ، ثم اصفرت وبرقت عينها بريقاً يدل على كره الفارس ، فلم يغب عن باكارا شيء من اضطرابها وخطر في بالها ما قالته لها الفتاة الاسرائيلية عن حزن المركيزة وحبها فحسبت أنها مولعة بهذا الفارس الذي حياها فطبع رسمه في ذاكرتها .

وبعد ذلك بساعة عادت باكارا بعد ان قضت مهمة المركيزة وفيا هي عائدة رأت ذلك الفارس نفسه يسير بجواده الهوينا فخطر لها أن تعرف اسمه وللحال نادت السائق وأمرته أن يقفو أثره على مسافة بعيدة فامتثل وما زال يسير متعقباً الفارس حتى بلغ إلى منزله وأسرع أحد الخدم فأخذ الجواد ودخل سيده إلى المنزل .

أما باكارا فإنها نادت حمالاً كان واقفاً على قارعة الطريق فسألته : أتعرف هذا الرجل الذي كان يمتطي جواداً ودخل إلى المنزل ؟

فقال لها نعم اني أعرفه فهو الكونت دي كامبول ، وقد أخبرني خادمه انه تبارز منذ ثلاثة أيام مع رجل فجرحه .

وعادت باكارا وقد كادت تشرف على هذا الخطر الذي كان ينذر المركيزة بحيث تكفيها كلمة واحدة لاماطة الحجاب عن هذا السر الخطير .

- ٣٠

وفي اليوم التالي أظهرت باكارا لجميع عارفيها انها عادت إلى حياتها السابقة وعادت عن توبتها وذلك انها خرجت مع صديقة قديمة لها من بنـــات الهوى الشهيرات ، وتزينت بزيها وانطلقت تجول في المتنزهات المألوفة ، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عرف جميع أهل المجون بهـذا الانقلاب الغريب أما باكارا فانها عادت إلى منزلها واليأس ملء قلبها لأنها خشيت أن لا تفوز بما تسعى اليه من الخير فتخسر سمعتها الصالحة وتسقط إلى الحضيض ، ولما دخلت إلى غرفتها أخبرتها الخادمة ان الفيكونت أندريا ينتظرها في القاعة . فاضطرب فؤادهـا عند ذكره وقالت لها : دعيه ينتظر ثم أحضرت الفتاة الاسرائيلية فنومتهـا حتى إذا نامت دار بينهما الحديث الآتي فسألتها باكارا .

– ألستطيعين أن تنظري ما وراء هذا الجدار ؟

فقالت الفتاة النائمة : نعم !.

– إذن فانظري إلى قاعة الاستقبال واخبريني من تجدين فيها .

فأجفلت الفتاة وهي مغمضة العينين وقالت . هو .. هو !

– من هو ؟

– الرجل الذي ينظر إلي ويخيفني .

– أتقدرين أن تنظري إلى نفس هذا الرجل وتعلمي ما يجول فيها ..

– لا أجد غير الظلام ولكنه يفتكر بأمور سافلة .

– أيكرهني ؟

– كما يكره الموت .

أيكره سواي أيضاً ؟

– نعم. نعم أجدرجلا عاليالقامة أسمر اللون يكرهه أكثر مايكرهك فعلمت باكارا ان هذا الرجل هو أخوه الكونت دي كركاز فسألتهـــا :

أيفتكر بي الآن ؟

- كلا .

- ألعله يفتكر بالرجل الأسمر ؟

- كلا.

- إذن بمن يفتكر ؟

فاضطربت الفتاة اضطراباً شديداً وقالت : انه يفتكر بي أنا .

- ٣١ -

وكان اندريا قد هاله انقلاب با كارا الفجائي وأمعن الفكرة في هذا الانقلاب فلم يهتد إلى سبب ، ولم يعلم مرادها منه ، وقد بقي طول ليلته مفكراً مهموماً تتردد في مخيلته ثلاث مسائل . أصدقت با كارا توبته ، وهل توبتها صادقة وقد رجعت عنها بالظاهر كي تنقذ فرناند من مخالب الفيروزة أم أنها عادت حقيقة إلى حياتها السابقة لما رأته من خيانة فرناند لامرأته .

وقد كان يرجح هذا الفكر الأخير لاعتقاده ان الغيرة حملتها على نقض توبتها ولكنه بقي مشككاً في أمرها وقال في نفسه : انني سأزورها فإذا كانت تريد حقيقة إنقاذ فرناند فلا بد لها أن تطلعني على قصدها كي أشاركها في انقاذه فإني أنا الذي أخبرها بهذا السر وإذا كتمت عني ما تبذله من المساعي لا يبقى لدي ريب باحتراسها مني وعدم وثوقها من توبتي

ولكنه لم يطمئن له خاطر لأنه كان يخشاها لما عرفه من شدة دهائها وبقي يمعن الفكرة إلى الصباح ، فلم يغمض له جفن حتى استقر على رأي وهو الحكم بالموت على با كارا وذلك لاعتقاده انها إذا عرفت بمقاصده فلا بد من موتها وإذا كانت تعتقد بصدق توبته فلا بد من موتها أيضاً كي لا تزاحمه بغيرتها .

وقد تركناه في منزل با كارا الجديد ، وانما قدم اليها لسببين أحدهما بغية

الوقوف على أسرارها، والآخر رجاؤه أن يرى تلك الفتاة اليهودية التي عزم على اختطافها لما لقي من حبها فإن هذا الرجل الذي جردته أميـاله الشريرة من عواطف الانسانية لم يلبث أن رأى تلك الفتاة حتى شغف بها شغفـاً لم يكن يخطر له في بال ، وكان إذا رآها يضطرب وتبدو علائم غرامه الفاسد بين ثنايا وجهه وبمثل هذا الاضطراب تمكنت باكارا من الشك والريبة باخلاصه في توبته

وأما باكارا فإنها لما علمت من اليهودية حين نومتها ما أرادت أن تعلمـــه تركتها وأقبلت الى قاعة الاستقبال التي كان ينتظرها اندريا فيهـا فتظاهرت بالاندهاش حين رؤياه ، ثم اعتذرت اليه لتأخرها عن الحضور .

وذهل اندريا لما رآه من مظاهر انقلابها ولباسها الجديد . أما هي فإنها دنت منه وقالت له : انك يا سيدي الفيكونت كنت في مقدمة المذنبين ثم اصبحت على أتم الصلاح فلا بد لك من أن تشفق على خاطئة مثلي إذا كان قد دعاهـا الحب إلى التوبة فقد حملها هذا الحب نفسه على نقدها وذلك اني حين علمت أن فرناند مولع ببغي مثلي خلعت ثوب التوبة وعدت الى البغى ، أي اني كنت مدام شارمت فأصبحت باكارا، والآن وقد بات يفصل بيني وبينك هوة عميقة وانك ستشفق علي دون ريب لصلاحك ولكنك لاتراني بعد الآن أليس كذلك؟

ثم تراجعت عنه والتفتت الى صديقة لها كانت أتت لزيارتها فقالت لهـا : أتذهبين معي الى الغرفة ؟

فلبس اندريا قبعتـــه وخرج مطرق الرأس وهو يقول بصوت مرتفع كي تسمعه . ليأخـــذ الله بيدك ويرشدك إلى محجة الصواب ثم خرج من المنزل وذهب إلى الفيروزة وهو مقتنع بأن باكارا واثقة من توبته أشد الوثوق .

وبعد حين خرجت باكارا مع صديقتها القديمة فركبتا مركبة ذهبت بهما الى غابة بولونيا ، وكان من يعرفها من المتنزهين ينظر اليها وهو منذهل مما يراه من رجوعها إلى سبل الفساد بعد أن اشتهرت بتوبتها منذ أربعة أعوام .

وكان بين المتنزهين رجل يقال له البارون دي مينيرف يصحب في مركبته

شاباً روسياً يدعى الكونت أرتوف ، فلما رأى باكارا مع إحدى بنات الهوى لم يتمالك عن اظهار دهشته ولفظ اسمها ، فقال له الروسي : من هي باكارا ولماذا اندهلت حين رأيتها ؟

– عجباً ألم تسمع بهذه الفتاة ؟

– كلا .. فإني ما برحت بطرسبرج إلا منذ بضعة أسابيع

– ألم تسمع بها في تلك العاصمة فان اسمها قد اشتهر في جميع العواصم ، ثم سأله وقد تنبه إلى حداثة سنه : كم عمرك ؟

– عشرون عاماً ..

– لقد كنت صبياً في عهد هذه الفاتنة فانها اشد امثالها خطراً وهي زكية اللسان رشيقة التدابير حتى أن رجال المراسح يختلفون اليهـــا كي يسرقوا من الفاظها ما يدمجونه في سلك رواياتهم . ولقد فتن بها كثير من الأمراء وأعاظم الرجال فان أحد كبار الموسيقيين بلغ به هواها الى الجنون ولا يزال مجنوناً إلى الآن ، والبارون ... باع ما لديه لارضائها ثم انتحر بعد إفلاسه والبرنس لي.. قتل نفسه في سبيلها .

فارتعد الكونت وقال : ما هذه المرأة العليا دون قلب ؟

– هو ذاك ايها الصبي فاذا أحببت أن أعرفك بها فأسرع بجوادك كي ندركها فامتثل الروسي وسار الاثنان يعدو بهما الجوادان حتى وقفت المركبة في ظل شجرة باسقة فدنا البارون مع رفيقه من المركبة وقال انها باكارا ولم أخطىء

فالتفتت باكارا ولما رأت البارون قالت . هي بعينها وقد انبعثت ولكن بعثها سر من الاسرار .

- ولكنك ستبوحين لي بهذا السر في غير هذا المكان . ثم اشار الى رفيقه وقال لها : اني اقدم لك صديقي الكونت ارتوف وهو شاب روسي لا يعلم عدد ما لديه من القرى وقد أنفق عمره وهو يحصي عدد الفلاحين في اراضيه ولم يبلغ الى المجموع بعد .

فأحنت باكارا رأسها وحيته باحترام فقال لها البارون . هوذا رجل لا يتيسر لك أن تلقيه في مهاوي الافلاس .

فقالت له ضاحكة : إذن سيكون شاذاً عن القاعدة . وفي كل حال فسترى فاني سأحتفل بتدشين منزلي القديم وعيشي الجديد بعد يوم ، وأنا أبدأ بدعوتكما كي تكونا في مقدمة المدعوين

فحياها البارون والكونت ، وانصرفا الى النادي الذي يجتمعان مع أصحابهما فيه .

- ٣٢ -

وكان في ذلك النادي كثيرون من أصدقائهم وبينهم روكامبول باسم الكونت كامبول وشاروبيم باسم البارون دي فرني وغيرهما . فلما دخلا الى النادي وجدا أعضاؤه ، وكلهم في مقتبل الشباب ، يتحدثون بشأن باكارا ورجوعها عن توبتها وهم بين مصدق ومشكك . فكان أحدهم يقول إني رأيتها اليوم في غابات بولونيا مع إحدى بنات الهوى ، فيناقضه آخر ويقول أن ذلك وقد شبهت لك ، ثم يقول آخر قد تكون صحبت تلك المرأة لغرض من الأغراض .

وما زالوا بين مصدق ومكذب إلى أن دخل البارون دي مينرف والكونت أرتوف الروسي فلما سمعهم البارون يتجادلون ، وكان روكامبول من فريق المنكرين قال له : إنك مخطىء في اعتقادك ، فقد رأيت باكارا بعيني وكلمتها .

فظن روكامبول ان لأندريا يداً في رجوعها إلى حياتها السابقة . وسكت عن الاعتراض ، فقال معظم الحاضرين : ولكن كيف رجعت عن توبتها ؟ وهل

هي غنية ؟

- لا أعلم . ولكنها إذا لم تكن غنية فسيكون لها من أموال صديقي الكونت ما تشاء

وأشار الى الكونت الروسي فقال الكونت : قد تنال مني ما تريد ولكني لم أقرر شيئاً بعد بشأنها .

فقال له شاروبيم : حسناً فعلت .

- لماذا ؟

- لا بد لي قبل ذلك أن أخبرك بشيء من أحوالي وماضي حياتي ومهنتي . فاعلم اني أسباني الأصل ، أميركي المولد ، باريسي الموطن . غير أن نسبي يتصل بالدون جيان ومهنتي غواية النساء ، كما كان يصنع جدي الذي أنتسب اليه .

فضحك الحاضرون لمزاحه . أما شاروبيم فإنه عاد الى حديثه فقال: ولقد خدعت كثيراً من النساء ولكني لاأزال طامحاً إلى غواية اثنتين إحداهما كليوباترا ملكة مصر .

فضحك الجميع ضحكاً شديداً ، ثم طلبوا اليه أن يخبرهم باسم الثانية ، فقال : هي باكارا المعروفة بأنها دون قلب . إلا انه كان يفصلني عن كليوباترا ما بيني وبينها من الأدهار، وكان يفصلني عن باكارا عيشتها الطاهرة وتوبتها التي لم يكن يشك أحد بصدقها أما وقد عادت إلى العيش القديم فلا يفصلني عنها شيء بعد الآن .

فقال له البارون صديق الروسي . إنك ستضيع وقتك عبثاً ، فإن باكارا لا تحب سوى الذهب ومهما بلغ من جمالك فإنك لا تبلغ شيئاً من قلبها ولو تلبست بلباس جدك الدون جيان لأنها دون قلب ومن كان مفلساً فان الملوك أنفسهم لا تستطيع نيل حق منه

- ولكني سأعرف أين أجد منها حقوقي

فانبرى له عند ذلك الكونت الروسي وقال له : أتأذن لي بكلمة ؟
– بل بعشرين
– إنك تدعي إنك قادر على غواية باكارا .
– لا أدعي ذلك ادعاء بل أعتقده اعتقاداً .
– الملك واسع الثروة ؟
– كلا ، فان إيرادي لا يتجاوز ثلاثين الف فرنك في العام .

– أما أنا فان إيرادي يبلغ عشرين مليوناً وربما تجاوز هذا القدر وقد عزمت على ان تكون لي .
– إذن فستفعل فعلي .
– نعم ، فهل لك ان تعقد رهاناً بسيطاً .
– أجل ، بملء الرضى .

– إني أمهلك خمسة عشر يوماً ، فاذا ظفرت بفؤادها وحملتها على حبك فاني أدفع لك خمسمائة الف فرنك في هذا المكان الذي نحن فيه .
– أقبل
فصاح الجميع قائلين وإذا خسر الرهان ؟
فأجاب الروسي ببرود : إنه ليس بغني أراهنه على المال ولكنه إذا لم يفز بحمل باكارا على حبه بعد هذا الأجل المعين فاني أقتله .

فأجفل الحاضرون ، وقد رأوا من ملامح الكونت الروسي أن وجهه يحتدم من الغضب ، وانه لم يمزح فيما يقول ، وقالوا لشاروبيم ماذا تقول في هذا الاقتراح ؟
– إنه شرط صعب يقتضي له الامعان والتفكير .
وقال البارون دي ميتوف : بل ان تنفيذه محال .
فقال الروسي . لماذا ؟
– لأننا في فرنسا، وهي بلاد لا تؤذن شرائعها لأحد ببيع النفوس وشرائها

فاذا قبل شاروبيم ان تقتله فان الشريعة الفرنسية لا تقبل .

– إني درست شرائع بلادكم ، وأنا أعلم منها ما تعلمون . إلا اني أجد لهذه العقدة حلاً بسيطاً يتيسر فيه بيع النفوس، وذلك انه إذا خسر خصمي الرهان تبارزت وإياه بالمسدسات ، إلا ان مسدسه يكون خالياً من الرصاص ومسدسي محشو فيموت في عين الحكومة موت المبارز ، وفي عين الحقيقة موت الخاسر في وجميعكم من أهل النبل والشرف فاذا قتلته على هذا الشكل فانكم تكتمون دون ريب حقيقة السبب في قتله .

وصاح الجميع : كلا إن هذا محال !

– إذن فليرجع عن قصده .

فقال شاروبيم : كلا ، إني لا أرجع عنه .

– إذن إنك تقبل شرطي الا إذا كنت تخشى الفشل بالرهان .

– أقبل بشرطك .

وأقبل الجميع على شاروبيم يسألونه التروي والامعان ، ولكنه بقي مصراً على ما قال الى ان رأى روكامبول انه قد استفحل ، وان هزله قد انقلب الى جد فتقدم من الكونت الرومي وقال له: إن المسيو شاروبيم نسي حين راهنك يا سيدي على حياته ، انه مقيد بتعهد لا يستطيع الافلات منه . ورجائي أن لا تعتبر هذا الرهان جدياً إلا بعد أن أخلو هنيهة معه ، وأخابره بشأن خاص .

– ليكن ما تريد .

فأخذ روكامبول شاروبيم ودخل به الى إحدى غرف النادي وقال له : ويحك ماذا فعلت ؟ أتخاطر بحياتك من أجل مبلغ من المال ستربح ضعفه دون عناء ؟ وبعد فكيف تخاطر بحياتك وهي ليست لك !

فدهش شاروبيم وقال إذا لم تكن حياتي لي فلمن تكون ؟

– إنها لنا ، أي للجمعية فاذا لم يأذن لك الرئيس بعقد هذا الرهان فلا

حق لك بعقده .

– ولو رفض هذا الرئيس وأبيت الامتثال ، فماذا يكون ؟

– يكون انك لا تنال الموت من مسدس روسي بل من خنجر فرنسي ولا أعلم من يقتلك ولكنك إذا أبيت الامتثال فانك مائت لا محالة .

– ومتى يصدر أمر الرئيس ؟

– في الغد .

– إذن أنتظر الغد .

وعاد به روكامبول الى القاعة وقال للروسي : لقد قضي الأمر يا سيدي .

– كيف ؟ أبالرفض أم بالقبول ؟

– لا هذا ولا ذاك . ولكنه سيتمعن في هذا الشأن الى الغد .

– إني أمهله الى الغد بشرط ان يحق لي زيارة باكارا في المساء .

– يحق لك ذلك .

فأخذ الروسي يد صديقه البارون ثم حيا الحاضرين وانصرف .

وبعد ذلك خرج روكامبول وشاروبيم ثم افترقا على ان يحمل اليه روكامبول جواب الرئيس في الغد ، فذهب روكامبول الى منزله فوجد أندريا ينتظره فيه فسر روكامبول لرؤياه وقال له : لدي أمور خيرة يجب إطلاعك عليها .

– ما هي ؟

– أولاً ان باكارا خلعت ثوب التوبة وعادت الى حياتها القديمة .

– عرفت ذلك فما لديك ايضاً ؟

– شاروبيم يريد ان يراهن على حياته ، وقد أوقفت هذا الرهان إلى أن أستشيرك .

ثم أخبره بجميع ما حدث . فقطب أندريا جبينه ثم خاض في تأملات عميقة الى ان استقر على رأي فقال : ليعقد هذا الرهان فلا ضرر فيه علينا .

فدهش روكامبول وقال : كيف ذلك ؟

– ذلك انه قبل ان تحضر كنت أفكر في طريقة لقتل باكارا فلما أخبرتني بهذا الرهان وجدت الطريقة .

ثم أمره أن يخبر شاروبيم ان الرئيس يأذن لهبقبول الرهان وانصرف تاركاً روكامبول في أشد الانذهال لما يحيط به من الأسرار

- ٣٣ -

كانت باكارا جالسة في غرفة منزلها الجديـــد ، وبينا هي مستغرقة في خلواتها تسأل الله الغفران عن هذه الحياة الجديدة التي لم تكن تريد بها سوى إنقاذ فرناند وجميع أشخاص هذه الرواية من مخالب أندريا ، إذ سمعت صوت جسم ثقيل قد سقط في الحديقة ، فأسرعت الى النافذة وأطلت منها فرأت رجلاً قد تسلق الجدران والقى بنفسه منه الى الحديقة ، ثم جعل يمشي الىالمنزل فصعد السلم وهي تراه دون ان يراها الى ان بلغ الغرفة التي هي فيها وقرع بابها بلطف ففتحت باكارا الباب دون ان تتهيبودخل منه هذا الرجل ورفع قبعته مسلماً عليها باحترام عظيم .

فاندهشت باكارا حينا رأته ولكنها قابلته بابتسام ورحبت به ترحيبـاً لطيفاً حل عقدة لسانه وجعل يعتذر اليها عن قدومـــه وتسلقه جدار منزلها بأعذار تظاهرت بقبولها .

وكان هذا الرجل الكونت الروسي وقد أتى ليغزو قلب باكارا متسلحاً بملايينه . فلما استقر به المقام جلست باكارا بقربه وخاطبته : كذلك اعتذاراً واصغ لي فاني أعـلم بشيء من مقاصدك ، وأحب ان اوقفـك على شيء من أمري فاسمع .

إنك لقيتني اليوم وهي اول مرة رأيتني فيها فرقت في عينيك ، ودفعتك

ثروتك وشهرتي السابقة الى غزو فؤاد لم يتمكن أحد من الاستيلاء عليه ، كما أخبرك صديقك البارون دون ريب ، وهو لا بد أن يكون أخبرك بكثير من الأمور الشائعة عني .

فأراد الكونت أن يجيب ولكنها منعته عن الكلام باشارة واستطردت حديثها قائلة : إنك لا تزال أيها الكونت في مقتبل الشباب فتياً لا يتجاوز عمرك العشرين ، وهو العمر الذي لا يقف بصاحبه عند حد . أما أنا فقد بلغت السابعة والعشرين ولكني جربت شوطاً بعيداً في مضمار اللهو والغرور ، حتى كأني قد بلغت ضعف عمري وقلبت جميع صفحات الحياة في حين انك لم تقرأ بعد الصفحة الأولى من كتابها ، ولهذا فقد حق لي أن أكلمك بلهجة السيادة إذا أذنت .

– تكلمي يا سيدتي كيف تشائين فانك السيدة الآمرة كيف كنت .

– إني بالأمس كنت أجهل كل شيء عنك حتى اسمك . أما اليوم فاني أعرف ما يجول في خاطرك ، فاصغ الي ولا تشك بما أقول ولا تبتسم هذا الابتسام الدال على الريبة ، فلقد دلوك علي امس وقالوا لك هوذا امرأة حسناء لا رحمة عندها ولا قلب لها ، وما أحبت في حياتها سوى المال فقلت لهم اني في شرخ الشباب وثروتي لا عد لها وسأجد بين جنبي هذه الحسناء قلباً يحب اليس كذلك يا سيدي ؟

فانحنى باسماً وقال : هو ما تقولين .

– إلا أني اقسم لك بأنك خدعت لانخداعهم ، فاني لا أستطيع ان أحبك ولا طمع لي بمالك ، وإذا أردت ان تتبين الصدق في قولي فانظر إلي فاني لا أنظر اليك نظرات الأمس ، بل أقف في موقف طبيعي تبدو فيه حقائق النفس بما ينبعث من خفاياها من العيون ، فتعلم اني على غير ما يظنه بي أولئك الأغرار .

ونظر اليها الكونت فرأى علائم الحزن الشديد بادية بين ثناياها ، وعلم

أن لها سراً تخفيه ، ولكنه لم يتمالك عن ان يظهر حبه فابتسمت له ابتسام الأم لطفلها وقالت له إنك لا تزال فتى ومن كان له سنك فان قلبه يكون طاهراً لم تدنسه عوادي الأيام بعد ، فينطبع عليه كل قول شريف ويصادف القول الصالح خير هوى في ذلك الفؤاد . انظر إلي تجد امرأة مسكينة تمثل دوراً فوق طاقتها ، بل تجد إمرأة صالحة تجل نفسها التائبة عن الانغماس في حمأة الآثام وهي تسألك الغوث باخلاص دفعها اليه ما رأته يتقد بعينيك من أشعة الصدق وما يجول بين ثناياك من علائم النبل والطهارة والشرف .

وكان الكونت ينظر اليها وهو منذهل مما رأى وسمع فتبين الصدق من لهجتها ورأى دمعة قد سقطت على وجنتها ، فعلم أن النـــاس قد خدعوا بها وانها ليست دون قلب كما يشيعون عنها ، بل علم انها ارفع مما مثلهـا له رفاقه وان لديها حزناً عظيماً تكتمه عن جميع الناس وتستره بمظاهر الخلاعة والمجون . ثم حسب انه أساء اليها بتجرأه على زيارتها فقال لها لقد أصبت يا سيدتي حين دعوتني فتى ، فاني لولا حداثتي وطيش صباي لما تجاسرت على الاساءة اليك ، ولكني أعتذر تائباً عن هذا الذنب .

فقاطعته با كارا قائلة قل أتريد أن تقسم يميناً ؟

- أقسم لك بما تشائين .

– أتقسم لي بشرفك وبشرف الأمة الروسية التي تنتسب اليها انك لا تذكر حرفاً أمام أحد من الناس عما دار بيني وبينك من الحديث ؟

– أحلف حلفة وفي صادق .

فنظرت اليه با كارا بامعان نظرة الفاحص المتردد في أمره ثم قالت له : إني أفضلك على سواك وأجعلك مستودع سري مع اني لم أعرفك قبل الآن ، وذلك لما توسمته فيك من دلائل الخير والشرف ولحاجتي الى معين ، فاعلم الآن أن لي سراً من الأسرار الخطيرة لا يمكن الاباحة به لأحد من الناس إلا أن قلبي يحدثني انك ستكون لي خير صديق .

- إني الآن ذلك الصديق .

سوف ترى سأسألك قضاء أمر دون ان أكلفك شيئاً من المال فلقد كنت من قبل كما قيل لك لا أعبد سوى المال ، أما المرأة التي تراها أمامك الان فانها لم يعد لها مطمع في مال او جمال وإذا قدر لها أن تحب فإنها تعيش من كسب أيديها كي تكفر عن هذا الحب .

فقاطعها الكونت وقال : كفى يا سيدتي ولا تذكري المال فإنه من سفاسف الأمور لدي وأخبريني بهذه المهمة .

- إنك أتيت طامعاً بحبي وقد قلت لك إني لا أستطيع أن أحبك ولا أن أدعك تحبني لسبب قد تعلمه في مستقبل الأيام ، وغاية ما أسألك إياه أن تكون لي صديقاً مخلصاً وان تطيعني طاعة الاخلاص إذا اقتضت الحال .

- سأكون لك أطوع من البنان .

- إذن فستكون أمام أصحابك وفي عيون العام أجمع عشيقي وأتظاهر أنا بحبك بحيث تكون السيد المطلق في هذا المنزل .

فدهش الكونت وقال : ما هذه الألغاز ؟

- هو سر خفي لا أستطيع ان أبوح به لأحد واعلم أيها الصديق إني لا أستطيع ان أحب أحداً وان قلبي لا يسعه إلا ان يتجرد لحب الله واني سأمضي الآن خاشية باكية مصلية ، الى ان أنفق النهار متظاهرة بالخلاعة والمجون والاسترسال ظاهراً في الغي والضلال ، فلا تسألني ان أبوح بسري ولكني إذا بحت به يوماً فلا يعلمه سواك .

وأنا أعلم ان أمري يشكل عليك ، فان المرأة إما ان تكون شريفة طاهرة وإما ان تكون على عكس ذلك غير انه لا بد لي من الجمع بين الطهارة الباطنة والغواية الظاهرة لهذا السر الغريب ، الذي لا بد لك أن تعلمه ، كما يحدثني قلبي ، فإذا شئت ان تكون صديقي وعضدي ، جعلت اعتمادي بعد الله عليك .

فتأثر الكونت من كلامها وقال : إني اوقف لك يا سيدتي قلباً لا ينبض فيه سوى الاخلاص وقد أحسنت في اعتمادك علي ، فإني إذا كنت لا أزال فتيـــاً فاني سأكون رجلاً عند الاقتضاء يحق الاعتماد عليه عند المهات وسأكون لك خير صديق لا يطلب اليك سوى الصداقة .

ثم ركع أمامها وقبل يدها باحترام فقبلت باكارا جبينـــه وأنهضته وهي تقول : إنك شريف ونبيل ويكفيني عزاء انك عرفتني دون سواك .

– إني منذ الآن عبد لك تدفعين بي إلى حيث تشائين وباشارة منـــك ألقي بنفسي إلى غمرات الموت .

ثم استأذنته هنيهة وخرجت إلى إحدى الغرف وعادت تحمل أوراقاً مالية قيمتها مائة الف فرنك ، فدفعتها اليه فدهش الكونت وقال : لم هذا المال ؟

– هو المال الذي ستنفقه علي . ألم نتفق على ان تكون عشيقي في عيون الناس ؟ وإذا كنت عشيقي فلا بد لك من ان تشتري لي أمامهم كل يوم ما يروق في عينك من النفائس .

– ذلك لا ريب فيه ولكن الملك نسيت اني أثرى الأثرياء وان إيرادي يعد بالملايين .

– كلا بل أنت نسيت اني صديقتك في الحقيقـــة لا عشيقتك . فكيف أستطيع قبول شيء منك ؟ وانا قد رضيت ان يحتقرني الناس مكتفية بأن تحترمني أنت .

فوجم الكونت وأخذ المال ثم خطر في باله الرهان الذي عقده مع شاروبيم ولم يجد بدأ بعد ما عرف من فضائل باكارا ما عرف من أن يطلعها على كل شيء فقص عليها بلهجة النادم جميع ما دار بينـه وبين شاروبيم في النادي فأصغت اليه باكارا بانتباه شديد .

ولما فرغ من حكايته نظر إلى وجهها فرآه قد امتقع فقال لها : الملك تعرفين هذا الرجل ؟

ـ كلا ، إنني لم أره في حياتي .

ـ إذن لماذا اصفر وجهك ؟

أجابته باكارا بصوت منخفض : ذلك لأني بدأت أظن أن الله قد أرسلك إلي فاقبل الرهان .

فاندهش الكونت وقال : كيف يسعني قبوله بعد أن علمت أن هذا الشاب لا يمكن له ان يستغويك ، وبالتالي اكون كأني قد حكمت عليه بالقتل وهو بريء .

فقالت له باكارا ، بصوت أجش وكيف علمت ان هذا الرجل لا يستحق الموت ؟

وقد قالت هذا القول بلهجة الواثقة من وجوب موته ، كالقاضي يحكم على الجاني وهو مطمئن الضمير بعد ثبوت الجناية . فطأطأ الكونت رأسه وقد علم أنها تكتم سراً هائلاً .

ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فقالت له باكارا لقد دنا موعد الفراق أيها الصديق فعد لي في ظهر الغد للغداء وأحضر بمركبتك وخدمك كي يقفوا بها على الباب فيعلم الناس انك في منزلي .

ثم مدت له يدها فقبلها وخرج وهو يقول :ما هذا السر العجيب في القلوب اني دخلت إلى منزلها وانا أعتبرها اعتبار بنات الهوى فما خرجت من عندها إلا وأنا أحترمها احتراماً لا مزيد فيه ، حتى لقد القي بنفسي الى الموت من أجلها فما هذا التأثير الملي أحبها ؟

أما باكارا فانها دخلت بعد ذهابه الى الغرفة التي كانت تنام فيها الفتاة اليهودية فألفتها لا تزال مستيقظة وكانت باكارا قد بدات تعتقد بصدق أقوالها في نومها ولكنها لم تكن قد علمت منها الى الآن سوى ان أندريا يكرهها ويكره أخاه وفرناند وليون وانه يحاول قتل المركيزة فان هوب بواسطة حبها لرجل جميل هو شاروبيم. وقد بقي عليها ان تعلم كيف يدبر أندريا هذه المكيدة

الهائلة ومن هم أعوانه فيها فأجلست الفتاة بازائها وجعلت تطيل التحديق بعينيها وهي تقول لها : إني آمرك أن تنامي ، حتى نامت نومها المغناطيسي

- ٣٤ -

ولنعد الان إلى شاروبيم فانه بعد ان غادر روكامبول جعل يفكر وهو سائر الى منزله تفكير النادم لدخوله في هذه الجمعية السرية وما وراءها من الأخطار والقيود الى ان بلغ منزله فدخل الى غرفته وحاول ان ينام ولكنه أطل من النافذة فرأى مصباحاً قد وضع خاصة في نافذة الأرملة ملاسيس وهي علامة متفق عليها بينها وبينه . فعلم أنها تنتظره ، وللحال خرج من منزله وصعد اليها فجعلت تؤنبه تأنيباً شديداً لخروجه من منزله وقد قالت له . إن المركيز كانت مشفقة عليه أشد الاشفاق فكانت تزورها كل يوم كي تطمئن عليه ولكنها حين علمت أنه لم يقم في الفراش غير اسبوع وانه خرج من المنزل أمس انقطعت عن زيارتها لاطمئنانها .

فعض شاروبيم شفته من الغيظ وقال : متى تزورك ؟

– إنها لا تزورني إلا بعد ثمانية أيام كما أخبرتني ، وذلك إما لاطمئنانها عليك او لأنها تريد ان تنساك وعلى كل حال فانك قد ارتكبت خطأ عظيماً بخروجك من المنزل ، فقد كان يجب ان تبقى متمارضاً فيه كي يزيد حنوها عليك ويكثر ترددها علي والان فماذا تريد أن أعمل ؟

فوجم شاروبيم هنيهة ثم افتكر بروكامبول فقال غداً سأخبرك .

– بل اكتب لي لأني أخشى ان يزورني الدوق فجأة ويجدك عندي وهو شيخ غيور فتفسد علي أمري .

فوعدها بالكتابة اليها وانصرف الى منزله وهو لا يعلم أيفتكر بالمركيزة أم

بباكارا ولكنه جعل يفتكر فلا يجد غير المصاعب والأخطار .

وفي اليوم التالي وردته رسالة روكامبول وهي تتضمن إذن رئيس الجمعية له بالمراهنة على باكارا فذهب الى النادي الذي جرى فيه حديث الرهان وأخبر جميع أصحابه انه عزم على قبول الرهان ، وفيما هو يفتخر سلفاً بالفوز سمع البارون دي ميترف يقول لأحد أصحابه : إنصحه كي لا يقبل الرهان .

فالتفت شاروبيم وقال : لماذا ؟

فقال له البارون : ذلك لأن الكونت ارتوف قد سبقك الى باكارا وهذا كتاب منه يدعوني الى الغذاء معه عندها

ثم أعطاه الكتاب فقرأه الى آخره ورده اليه وهو يبتسم ابتسام الهازىء فقال له البارون : ألا تزال على عزمك ؟

– بل زدت إصراراً وسوف ترى لمن يكون النصر .

ثم برح النادي وذهب للقاء روكامبول حسب الاتفاق فأخبره بما دار بينه وبين الأرملة وكيف ان المركيزة انقطعت عن زيارة الأمة بحيث لم يعد أمل باغوائها إلا إذا تمكن من الاختلاء بها فقال له روكامبول : ونحن لم يعد لنا من الوقت سوى سبعة أيام ، فاذا لم نفز بعدها خسرنا كل شيء . أما هذه الخلوة فسنعدها لك .

– متى ؟

– في هذه الليلة عند الأرملة ملاسيس .

– أيجب ان أكتب اليها ؟

– لا حاجة الى ذلك فانا أعددنا كل شيء إلا انه يجب ان تكون في منزلك في الساعة الثامنة .

وقبل ان يفترقا أخبره شاروبيم بما جرى له في النادي بشأن الرهان وكيف أنه أخبر أصحابه بقبول هذا الرهان فقال روكامبول في نفسه · إن أندريا يرى هذا الرهان مفيداً ولكني أراه ضرباً من الجنون ثم قال لشاروبيم لقد

أحسنت في قبولك إذ لا بد لك من الفوز .

وفيما هما يتكلمان مرت بهما مركبة الكونت الروسي وباكارا فقال له روكامبول : هذه فرصة مناسبة لإخبار الكونت بقبولك فاذهب اليه لأن مركبته قد وقفت .

وكانت باكارا قد اتفقت مع الكونت على ان تطمع شاروبيم بها لأغراض لها ستظهر في سياق الكلام ، فلما قابلها شاروبيم هشت له وأكرمته . فأخبر الكونت انه قبل برهانه . أما باكارا فانها لم تظهر شيئاً من الاستياء بل انها قالت لشاروبيم حين انصرافه : إنكما الان بمثابة الخصمين إذا تبارزا وجب ان يكونا متكافئين بالسلاح ، ولهذا فاني آذن لك كما أذنت للكونت ان تجيء الى منزلي متى أردت كي لا يمتاز عنك في شيء .

فشكرها شاروبيم ثم قبل يدها وانصرف .

أما باكارا فانها أتمت نزهتها مع الكونت ، وعند عودتها طلبت اليه ان يذهب بها الى منزله فامتثل دون ان يعرف ما تريد حتى إذا بلغا اليه جعلت تفحص غرفة ثم صعدت معه الى السطح فجعلت تنظر الى المنازل المجاورة الى ان وقع نظرها على منزل تحيط به حديقة كبيرة فسألته : لمن هذا المنزل ؟

– انه لخصمي شاروبيم .

فأطرقت باكارا هنيهة إطراق المتأمل ثم نظرت الى الكونت وقالت : إني أسألك ان تتخلى لي عن منزلك هذه الليلة دون ان تسألني عن السبب .

فامتثل الكونت وهو لا يفقه شيئاً من هذه الأسرار .

ولما نزلا عن السطح دخلت الى غرفة الكتابة وكتبت الى خادمتها ما يأتي :

« البسي الفتاة اليهودية ملابسها في الساعة الثامنة من هذا المساء واحضري بها الى منزل الكونت أرتوف في شارع بوبينار حيث أنتظرها فيه » .

(باكارا)

يذكر القراء ان روكامبول وعد شاروبيم أن يعد له خلوة مع المركيزة ، ففي مساء ذلك اليوم ورد الى المركيزة كتاب من وكيل منزل صديقتها الأرملة يخبرها فيه ان سيدته أصيبت بمرض فجائي باتت بعده في خطر الموت السريع وأنه قد تجاسر على ان يكتب اليها لأن سيدته قد فقدت رشدها ولم تعد تعي على شيء ، فأسرعت المركيزة لزيارة صديقتها فرأتها على ما وصفها الخادم بحالة تقرب من الاحتضار ولقيت الطبيب بقربها ينظر اليها نظر القانط .

وكان الطبيب ووكيل المنزل والأرملة وخادمتها من صنائع أندريا وكل واحد يمثل الدور الذي أمر بتمثيله، غير ان الأرملة أتقنت تمثيل الاحتضار حتى كانت دموع المركيزة تسيل إشفاقاً عليها .

ولفق لها الطبيب ما شاء عن هذا المرض الفجائي إلى أن أخبرها بيأسه من شفائها ولكنه بقي له أمل وحيد بتغيير قد يحدث لها في الليل فإذا لم يحدث لها شيء من ذلك فلا رجاء بحياتها غير انه يجب السهر عليها ، فهاجت المروءة بصدر المركيزة وقالت : أنا أسهر على هذه الصديقة فعسى ان ينقذها الله مما هي فيه ثم دعت فانتر وهو وكيل المنزل فأعطته رسالة الى زوجها المركيز أخبرته فيها بمصاب صديقتها وانها اضطرت إلى البقاء عندها هذه الليلة وطلبت اليه أن يحضر اليها في الصباح كي يعود بها ، فأخذ الرسالة وانصرف ثم خرج في أثره الطبيب بعد أن وصف لها دواء تستعمله متى عاد اليها رشادها .

وجلست المركيزة بازاء سرير هذه الصديقة الكاذبة تنتابها الهواجس والأفكار وكانت نوافذ الغرفة مقفلة بأمر الطبيب ، فبينا المركيزة تجيل نظرها ، رأت نور مصباح يضيء في إحدى غرف المنزل المجاور فعلمت ان النور في منزل شاروبيم وانه لا بد أن يكون فيه فجعل فؤادها يضطرب اضطراب ذلك النور . ثم انطفأ النور وساد السكوت .

وبعد هنيهة سمعت وقع أقدام ووجف فؤادها وحدثها قلبها ان القادم هو

شاروبيم فما طال انتظارها حتى صدق ظنها ورأت شاروبيم داخلاً وقبعته بيده فأظهر الانذهال حين رآها ، ثم دنا منها فحياها باحترام وقال : إني عدت الآن الى منزلي يا سيدتي فاخبروني ان مدام ملاسيس في خطر شديد فلم يسعني إلا الاسراع للاطمئنان عنها وكنت أرجو أن أرى خادمتها غير اني رأيت الأبواب مفتوحة ولم أر أحداً فتقدمت حتى بلغت غرفتها وأنا لا أعلم شيئاً حتى الآن فاصفر وجه المركيزة وأوشك لسانها أن ينعقد مما تولاها من الاضطراب غير انها تغلبت على عواطفها وقالت : أشكرك يا سيدي لاهتمامك بأمر صديقتي وهي الآن نائمة كما ترى وأرجو أن يكون نومها دليل خير .

فانحنى شاروبيم شاكراً ثم قال إذا كان الأمر كذلك فاذني لي يا سيدتي بالانصراف .

وقد قال هذا القول وهو يؤمل أن تستوقفه غير أن المركيزة لم تحقق أمانيه بل انها ردت له التحية بأحسن منها فمشى شاروبيم مشية القلق المضطرب حتى إذا وصل إلى الباب خطر له أن يعود فأقفل الباب وعاد الى المركيزة وهي تكاد تسقط من الاضطراب وقال لها :عفوك يا سيدتي فإني لا أستطيع الذهاب قبل أن أبوح لك بخطأ ارتكبته .

فاجفلت المركيزة وسألته : أي خطأ ؟

فقال شاروبيم بصوت تكلف فيه لهجة الاضطراب : خطأ كذبي عليك الآن ، نعم يا سيدتي فلقد كذبت عليك ثم سكت وجعل ينظر اليها كي يعلم ما يكون من تأثيرها فرآها قد سقطت على كرسيها كأن رجليها لم تقويا على حملها غير انها ما لبثت ان استقرت على الكرسي حتى هبت لها قوة من لدن السماء فتمكنت من اخفاء اضطرابها واجابته بسكينة : لا أعلم يا سيدي أي كذب تعني فتفضل بالجلوس وقل ما تشاء فإني مصغية اليك .

فلبث شاروبيم واقفاً وقد تلبس بلباس الحزن والسويداء وقال : اني عدت إلى منزلي وعرفت بمرض جارتي الآن كما قلت لك غير اني ما أتيت لمنزلها بغية

السؤال عنها ، بل لدافع أشد وهو اني علمت يا سيدتي من بواب المنزل انمدام ملاسيس مريضة وانك عندها

فحاولت المركيزة أن تعترضه وتوقفه عند حده فقال لها شاروبيم بصوت الملتمس : بالله يا سيدتي ألا ما أصغيت لي الى النهاية ، فإن اختلائي بك بعد الآن محال وإذا لم أخبرك بأحزاني ، وأبوح لك بما أقدمت عليه من الجرأة فلا أستطيعه بعد لأني سأودع باريس بل أوروبا بأسرها وداعاً أبدياً بعدثمانية أيام.

فوجف فؤاد المركيزة وقالت أتسافر ؟

– نعم ، ولا أحمل في قلبي غير حب واحد قد تزول حياتي ولا يزول ، وان تلك السيدة التي أحببتها لا يفصل بيني وبينها غير تلك الهوة العميقة وهي طهارتها وفضيلتها لأنها غير مطلقة القياد .

ثم دنا خطوة منها فركع أمامها وقال سيدتي اني لن أراك بعد الآن وقد ينقضي العمر ولا يـذكر اسمي أمامك غير انك إذا خطر لك في ساعـات خلوتك خاطر حزن فاذكري بين هـذه الأحزان. ذلك الرجل التعس الجاثي أمامك لا يسألك غير أن تأذني له بلثم أطراف ثوبك .

وكان شاروبيم يرجو ان تنهضه بعد هذا الاعتراف غير انها سمعت حديثه إلى النهاية دون ان تخونها عواطفها وهي تجد منه أشد الوجد غير ان اللهالذي يصون الطاهرات ارسل اليها روحه الأمين فصانهـا من مواقف الزلل فنهض شاروبيم وانحنى مسلماً ثم خرج يمشي مشياً بطيئاً إلى ان توارى عنها فتنهد تنهد من سلم من خطر شديد وسرت لتصامها عن صوت قلبها وانصرافها الى سماع صوت الواجب الشريف ولبثت جديرة بأن تحمل اسم زوجها . أما الأرملة فإنها لم يفتها حرف من ذلك الحديث ولكنها كانت متظاهرة بالنوم .

ولنعد الآن إلى باكارا فانها بينما كان شاروبيم حاول إغواء المركيزة كانت باكارا في منزل صديقها الكونت الروسي وقد ارسلت اليه خادمتها الفتـاة اليهودية فلما وصلت استأذنت من الكونت وخلت مع الفتاة فأنامتهـا النوم

المغنطيسي ثم أدارت وجهها إلى جهة منزل شاروبيم وقالت للنائمة : أريد ان أعرف ما يفعل هذا الرجل الآن .

ثم خرجت بها بعد أن أيقظتها الى حيث كان ينتظرها الكونت فقالت له. اني عائدة الآن الى المنزل لأن شاروبيم سيزورني فعد الي في الغد .

فانذهل الكونت وقال : كيف عرفت انه يزورك .

- سيزورني بعد ساعة ثم قالت له باسمة : لقد عرفت ذلك لأني اشتغل بالكهانة والسحر .

- ٣٦ -

ولما وصلت باكارا الى منزلها وجدت به رسالة من شاروبيم يخبرها فيها انه سيزورها بعد ساعة ويذكرها بالرهان فلما اطلعت عليها زادت ثقتها بالتنويم المغنطيسي وعلمت ان اليهودية تصدق حين تنويمها بأكثر ما تقول فنومتها ايضاً وعلمت منها ما تريد ان تعلمه بشأن زيارة شاروبيم ثم خرجت إلى قاعة الاستقبال تنتظره فيها إلى أن حضر في الوقت المعين فمدت له يدها وقالت باسمة : أهلاً بالرجل الهائل

وكان شاروبيم قد سر بهذا الاستقبال فقال لها اني قد استحق ان القب بهذا اللقب غير اني .

فقاطعته باكارا وقالت : دعني أباحثك بأمر خاص قبل ان تخوض في أبحاثك وأعلم اني قد افرغت جهدي كي أقنع الكونت أرتوف بالرجوع عن الرهان فلم أنجح .

فقال لها شاروبيم منكراً عليها هذا الجهد : لماذا أردت أن تقنعيه ؟

- لأنه قد حمله على محمل الجد .

— واذا حل هذا الحمل ؟

— انك لا تعرف هذا الروسي فانه إذا كان مجداً فيه لا تكون عاقبته محمودة

. ان ذلك سيان عندي .

لا تقل سيان فلقد كنت جميلة ولا أزال وقد اشتهرت بعدم الاكتراث فأنت الآن تخاطر لاغواء امرأة بحبك وهي امرأة لا قلب لها كما يقولون فاذا كنت حقيقة كما يقولون فلا بد لك أن تخسر الرهان وبالتالي فلا بد للكونت من قتلك .

— انه يقتلني ولا حرج عليه فان ذلك لا ريب فيه إنه حقه .

— ولكن اذا كنت الفـائز ؟ ثم حدقت به تحديق الساخر فلم يسعه إلا الاطراق بنظره استحياء الى الأرض فأتمت حديثهـــا وهي تقول . ألست يا سيدي قد أردت ان تراهن على حبي بالمال ؟

وكأن هذا الكلام قد انقض على شاروبيم انقضاض الصاعقة فاجفل منه اجفالاً شديداً وعلم انه ارتكب بهذا الرهان ما لا يرتكبه الاشراف .

فعادت باكارا إلى هزئها السابق ثم قالت . انك قد جريت في هذا الرهان شوطاً بعيداً وسلكت فيه مسلكاً لا يسلكه العقال ألم يقل لك الناس أني فتاة دون قلب ؟

— نعم ، ولكن من كان مثلي لا يصدق هذه الأقوال .

— ربما تكون قد أصبت غير انه كان يجب عليك في كل حال ان تستشيرني قبل ان تعقد هذا الرهان الشائن غير انك قلت في نفسك أني قد اشتهرت بجمالي وعرفت طرق القلوب من النساء فلا بد لي من الفوز ، ثم جعلت تفتخر برهانك في النوادي وأنت لو أجريت فيه على مناهج العقل لأمكن لك أن تعرف طريق قلبي انك ... ثم توقفت عن الكلام تنظر اليه ..

— إذن أنت تعتبرين انني سأكون الخاسر في هذا الرهان ؟

— هذا ما اراه إلا إذا ... ثم قطعت كلامها أيضاً لتسمع ما يقول .

– أرى انك تقترحين شروطاً ، إقترحي ما تشائين ؟

– أريد ان اقتنع بها قبل كل شيء انك لا تحبني وتريد اغوائي من أجل كسب المال فقط .

– ألعلك تشكين بهذا وما حاجتي بالمال وأنت أعظم جواهر الأرض ؟

– إذا كان ذلك فارجع إذن عن هذا الرهان اذا أردت ان احبك

– اني لا أريد غير هذا الحب . ثم عض شفته من الغيظ وهو يخشى ان تكون قد علمت ما يجول بنفسه .

– إذن اصغ لي وبعد ذلك أنت مخير بين ان تزورني أم تنقطع عن زيارتي أما الذي اقترحه عليك فهو ان تكتب الآن الى الكونت تخبره برجوعك عن الرهان .

– واذا كتبت هذا الكتاب ؟

– اني أغفر لك .

فاطرق شاروبيم هنيهة اطراق المفكر المهموم ثم استقر رأيه على الخضوع فقال : ليكن ما تشائين .

– اذن قم الى هذه المنضدة وأكتب ما أمليه عليك ؟

فقام شاروبيم وهو يضطرب وأخذ القلم بيده فأملت عليه ما يلي .

« سيدي الكونت

« أرجو ان تتناسى ما أخطأت به اليك وان تعتبر رهاننا لغواً غير معمول به » . .

فتوقف شاروبيم عن اتمام الكتابة وقال : ان هذا اعتذار محض لا أكتبه لأني لم أخطيء .

– بل تكتب كلما أمليه عليك متى علمت ان خضوعك يرضيني ، وانه لا يكون وراءه غير الحب ، فامتثل شاروبيم مكرهاً مضطراً ، وأتم الرسالة على مثال ما تقدم حتى إذا فرغ منها أخذتها منه وهي تقول باسمة : بقي عليك

ان تقبل يدي وتأخذ قبعتك وتنصرف بسلام .

فاجفل شاربيم وقال : الى أين أذهب ؟

– ان الليل قد انتصف فاذا اردت ان تحب فابدأ بالخضوع .

– متى أعد ؟

– بعد غد .

فقبل يدها وانصرف وهو يفكر بالكتاب الذي كتبه الى الكونت وخسارة ما يرجو ان يكسبه من المال غير انه خطر له خاطر أخرجه من هذا الموقف فانطلق مسرعاً إلى النادي حيث رأى الكونت فيه فخلا به وقال له :خرجت الآن من عند باكارا فأكرهتني بدلالها على أن أكتب اليك كتاباً أنقض فيه الرهان لأنها لا تحب أن يراهن عليها .

– لقد أصابت .

– فكتبت اليك الكتاب مكرهاً ولكني أسرعت اليك كي أنقض بكلامي ذلك الكتاب فيبقى الرهان معقوداً بيننا .

– ليكن ما تريد .

– إذن أرجوك أن تحسب الكتاب لغواً متى وصل اليك على شرط واحد وهو أن تقسم لي بشرفك أن لا تخبر باكارا بحرف مما دار بيننا كي لا تعلم أمر عودنا إلى الرهان . فأقسم له الكونت على الكتمان ثم افترقا .

وفي اليوم التالي ذهب الكونت الروسي إلى باكارا فاستقبلته وقالت له: اني سأخبرك بأمر تظن انه لا يعلمه سواك .

فقال لها الكونت أي أمر تعنين؟

– ما قاله شاربيم لك أمس عند منتصف الليل .

فذهل الكونت وقال : كيف عرفت ذلك ؟

– بل عرفت ما دار بينكما من الحديث، ألم يقل لك أنه لا يرجع عن رهان وينقض بالقول ما كتبه بالقلم ؟

فذكر الكونت اليمين التي حلفها،وقال كلا .. إنه لم يقل لي شيئاً من هذا

فأجابته با كارا بلهجة الحنو : إنك شريف وكل شريف يبر بيمينه غير اني قلت لك اني ساحرة أخرق حجب الغيب وقدعلمت جميع ما قاله لك شاروبيم ولكن هذا الرجل لا يعلم انه حكم على نفسه بالموت ، ثم سكتت هنيهة وقالت: إن هذا الرجل لو لم يكن غير نذل خسيس يفتخر باغواء النساء لكنت اكتفي بطرده من هذا المنزل ، غير أن شره لا يقتصر عند هذا الحد فهو رجـل مجرم سفاك ، رضي أن يكون آلة صماء بيد رجل داهية لا يعرف اسمه وهو يشاركه بجريمة هائلة يضيع عندها كل رحمة واشفاق .

فحاول الكونت أن يسألها غير أنها قاطعته وقالت : لا تسلني شيئاً فإن ما أقوله لك سر خفي لا يسعني إظهاره الآن ولكني أريد أن القي عليـك هذا السؤال : وهو اني إذا كشفت لك يوماً بالبرهان الجلي مكائد هذا القاتـل السفاك ثم دفعته اليك وقلت لك انه قد خسر الرهان فحق لك قتله أتقتله ؟

– أقسم لك اني اقتله دون شك فإنه يستحق الموت مرتين .

– ٣٧ –

تركنا الفيروزة تعبث بفرناند وليون كما يشاء السير فيليام وهي قد غادرت زوج سريز هائماً مفتوناً لا يستقر على حال من يأسه ويبحث عنها في كل مكان ولا يجدها ، وتركت فرناند متولهاً بحبها وهو يحسبها هائمة وانها من فضليـات النساء لايثارها الفقر على الغنى ورفضها ما كان لها من النعمة غـير ان فرناند لم يكن يطيق أن يراها تقيم في غرفة حقيرة فما زال بها حتى اقنعها على سكنى القصور ، فاشترى لها قصراً بديعاً وفرشه بأجل الأثاث وأحضر لها المركبات وأصائل الجياد بحيث تكلف عليها نصف مليون أول دفعة من ثمن هــذا

الحب الشائن .

غير أن اندريا لم يكن غرضه الاقتصار على كسب مال فرناند بل انه كان يريد سلب ماله وشرفه وحياته ، وقد بدأ بسلب المال والشرف فبقي عليه سلب الحياة . وكان قد هاج مكامن الغرام في صدر ليون وفرناند وجعلهما يحبان إمرأة واحدة ابتغاء إثارة الغيرة في قلب ليون وحمله على قتل مزاحمه ، ولهذا دفع الفيروزة إلى مقاطعة ليون والاحتجاب عنه حتى أوشك أن يجن من يأسه وجعل يبحث عنها كل يوم في جميع انحاء باريس وهو لا يهتدي اليها لفرط مبالغتها في الاحتجاب ، فلما رأى أندريا أن وقت الانتقام قد دنا أمرها أن تمر بمعمل هذا الرجل كي يراها ، ثم علمها ماذا تصنع حين اجتماعه بها . فلبست أفخر ما لديها من الثياب وركبت خير المركبات التي اشتراها لها فرناند ، وأمرت السائق أن يسير الهوينا في الشارع الذي يوجد فيه معمل ليون ، فامتثل السائق ولما مرت المركبة بباب المعمل نظرت ليون جالساً على كرسي ، مطرق بنظره إلى الأرض ، فمرت دون أن ينتبه اليها فاستمرت في مسيرها ، ثم عادت فالفته واقفاً على الباب ينظر إلى المارين نظرات القلق المضطرب .

وقد استلفت نظره صوت المركبة فنظر اليها وهي لا تزال بعيدة عنه عدة أمتار فاستوقف بصره حسن رونقها ، ولباس سائقها وجمال جيادها فأطال النظر بها حتى مرت به ، ورأى الفيروزة تنظر اليه دون اكتراث كأنها ما عرفته من قبل ، ثم ذكر انها كانت عاملة فقيرة ورأى ظواهر نعمتها فجن من الغيرة ، وعلم انها لم تصده إلا لانشغالها بسواه من الأغنياء فأسرع يعدو وراء مركبتها ، حتى عثر بمركبة معدة للأجرة ، فركب فيها ووعد السائق بجزاء حسن إذا أدرك مركبة الفيروزة .

فاندفعت المركبة في أثرها حتى أدركتها حين دخلت إلى حديقة النصر ،

فاستوقفها ليون وأطلق سراحها ، ثم ذهب الى القصر الذي أقفل بابه بعـــد دخول الفيروزة فطرقه بكلتا يديه وهو يود لو تمكن من كسره فخرج اليـــه البواب وقال له : ماذا تريد ؟

– أريد أن أرى سيدتك في الحال ..

– لا بأس في ذلك غير ان سيدتي لا تستقبل إلا من تعرفه .

فذكر له ليون اسمه فاستوقفه البواب وذهب إلى الفيروزة يخبرها بأمره ثم عاد اليه فقال ، إن سيدتي لا تعرفك ولكنها تستقبلك لتعلم ما تريد .

وطاش رأس ليون وقال في نفسه : إما أن أكون منخدعاً وإما أن تكون قد انكرتني . ولكنه تبع الخادم حتى أوصله إلى غرفة الاستقبـال وتركه فيها وانصرف . فجلس ليون يفكر تفكير المهموم ؛ ثم نظر إلى ما يحيط به من مظاهر الثروة ، وذكر ان الفتاة قالت حين عرض عليها اسمه ،انها لا تعرفه فخشي أن يكون منخدعاً وان تكون تلك الفتاة قد تمثلت له بالتي يحبهـــا وحاول أن يخرج من القاعة ويفر ، الا أنه ما لبث أن نهض عن كرسيه حتى فتح الباب ودخلت الفيروزة ، فصاح صيحة الفرح المستبشر قائلا : هي .. هي بعينها . ثم أسرع اليها .

ولكنها تراجعت عنه ونظرت اليه نظرة انكار وهي تقول : أأنت ليون رولاند الذي طلب أن يراني ؟

فانقض هذا الكلام عليه انقضاض الصاعقة وسقط على كرسي وقد عقد لسانه عن الكلام

وقالت له يظهر انك قد غلطت بي يا سيدي !

– كلا .. يستحيل أن يخلق الله فتاتين تتشابها الى هذا الحـــد ، وأنت أوجيني ابنة جارين التي طالما أظهرت لي حبها وأظهرت لها حبي .

فاظهرت الفيروزة عدم الاكتراث ثم قالت أعيد عليك القول يا سيدي انك مخطىء فاني لا أدعى الآنسة أوجيني بل أدعى مدام دولار .

فجثا ليون على ركبتيه وقال لها : بالله كفى فاني أبحث عنك منذ ثمانية أيام ولا تخدعيني الى هذا الحد . إني لا أعلم ما أصبحت عليه الآن ولكني أعلم انك إبنة غارين التي كان أبوها عاملاً عندي وإني أحببتك ولا أزال مفتوناً بك بعد احتجابك وجعلت أعدو في أثر مركبته كالمجانين حتى عرفت منزلك ووصلت اليك فلا تقطعي قلبي بهذا الانكار .

وكانت الفيروزة تصغي اليه صامتة ، حتى إذا فرغ من حديثه قالت له باشفاق : انظر إلي جيداً تعلم انك مخطىء .

- كلا ، إن الله لا يخلق مثلك لأنك تكفيه لفتنة عباده .

فهزت الفيروزة رأسها وقالت : قل لي شيئاً عن تلك الفتاة التي تحبها .

- إنها ابنة أحد عمالي وهي فتاة عاملة .

- إذا كان ذلك فانظر بما يحيط بك من النعمة أيمكن ان يكون للعاملات مثل هذا الرياش ؟

فأطرق ليون برأسه لأن البرهان قد غلبه ، فلم يعلم ماذا يقول وأن أنين المتوجع فقالت له : خفض عليك واصغ إلي فاني سأزيل هذا الاعتقاد الراسخ في ذهنك ولنفرض الآن اني انا هي تلك الفتاة العاملة التي تحبها والتي احتجبت عنك كما تقول .

فصاح ليون : نعم أنت هي .

فأجابته باسمة لنفرض اني انا تلك الفتاة واني كنت عاملة فقيرة حين كنت تحبني فلا بد لي إذن ان أكون من بنات الجن وإلا فكيف تتبدل حالي من الفقر المدقع الى أقصى درجات الغنى في مدة ثمانية أيام .. وإذا كنت لا تزال بعد هذا على اعتقادك فلندخل في باب الافتراض فإنه باب واسع ولنفرض أولاً أن والدي غارين كما تقول كان له أخ ، وان هذا الأخ قد سافر الى البلاد الأمريكية ثم عاد في هذه الأيام وهو من أصحاب الملايين ، فأقام إبنة اخيه في هذا القصر .

فهز ليون رأسه وقال هذا مستحيل

– إذن لنفرض افتراضاً ثانياً وهو ان هذه الفتاة العاملة حين احتجبت عنك لقيت غنياً هندياً أو أميراً روسياً فأحبها وخرجت منك اليه .

فعضت الغيرة قلب هذا المسكين ووثب عن كرسيه يصيح: هو ذاك أرأيت الآن كيف اني لم أخطىء ؟

– لا تنس يا سيدي اني افترض افتراضاً. ثم انه إذا كانت تروتي قد تغيرت بثمانية أيام فان آثار العمل لا تزول من يدي في هذا الزمان الوجيز ، أنظر الى يدي أترى عليها آثار الاشتغال بالصناعة ؟

وأطرق بنظره الى الأرض دون أن يجيب فقالت الفيروزة . لنفترض ايضاً فرضاً ثالثاً وهو ان ابنة غارين لم تكن ابنة غارين ولم تكن عاملة حين عرفتها بل كانت على ما أنا عليه الآن .

– كلا ، ان هذا محال

- إذن ، إختر ما تشاء بين ان أكون ابنة غارين العاملة أو مدام دلاكور التي تراها الآن

فغطى ليون عينيه بيديه وقال : رباه ! أحقيقة ما أراه أو حلم من الأحلام ؟

– إسمع بقية الافتراض . ان هذه الفتاة كانت من أشد بنات الهوى دلالاً ولكنها كانت تحب الحوادث والأسرار والغرائب . وقد اتفق انها رأتك يوماً فشغفت بك وذلك لأن الحب كثير العجائب ، فقد يحب المرء بنظرة واحدة ، فتزيت بزي عاملة فقيرة حتى يحبها هذا العامل الفقير لأنها لو بدت له بمظاهر ترفها لأحجم عنها ثم لما عاشرته علمت انه رجل مجتهد شريف وان له امرأة تحبه وطفلاً صغيراً

فصرخ ليون بسرور كاد يقتله : إذن انت هي ولا سبيل بعد للانكار .

فابتسمت الفيروزة وأجابته : ربما

فحاول ليون ان يركع أيضاً أمامها ولكنها نظرت اليه نظرة اضطرب لها ولبث في مكانه فأتمت حديثها تقول :

— إن ما تريده المرأة يريده الله ، وهو مثل صادق ولهذا فان تلك الفتاة تزيت بزي العاملة كي تحملك على حبها ففازت بك وبلغت منك ما تريد . إلا أنه لنكد الناس ان لكل شيء نهاية ، وعلى هذا فإن الحب مهما اشتد فانه يزول عند حدوث طارىء . وقد كان هذا الطارىء ان تلك الفتاة ذكرت انها تسيء الى رجل شريف ، وانها من بنات الهوى الشهيرات وانها تلقب بالفيروزة ولكنها كانت تحب هذا العامل حباً شديداً . فآثرت ان تعيش تعسة منكودة بالبعد عنه وقاطعته كي لا تسيء اليه بحمله على الافتتان بها ، لأنها تحبه حباً أكيداً ، ولكنه متزوج وله طفل صغير أولى بحبه منها ، فإذا جفته فقد ينساها بتقادم الأيام ، دون أن تغادر في فؤاده أثراً من الاحتقار .

وكانت تقول هذا القول وهي تتظاهر بالتأثر الشديد حتى ان ليون نظر اليها فرأى دمعة قد سقطت على وجهها ، ولم يستطع ان يضبط نفسه بل أكب عليها يقبلها وهو يقول باكياً أنت هي ... لا تنكري بالله وكفاني ما صبرت

فجعلت تبكي لبكائه وتقول : أنا ، أجل أنا هي..أنا التي أحببتك وخدعتك ولا تريد ان تراك ... إذهب عني فقد عرفت الآن من انا وعرفت انك لا تستطيع أن تحبني

— كيف أستطيع فراقك ؟

- كيف تحبني وأنا امرأة ساقطة . أوثر ان يقتلني الغرام على ان تحتقرني . فانساني ولا تفتكر بغير امرأتك وولدك فاني مسافرة الى البلاد الأمريكية .

— إني أسافر معك ولو ذهبت الى أقصى المعمورة .

ـ كلا بل أسافر وحدي لأنك مقيد بحب سواي .

فركع ليون أمامها وقال إني لا أحبك حباً بل أعبدك عبادة وسأكون لك أتبع من ظلك وأطوع من بنانك .

ـ لا ريب عنـدي في حبـك . ولكني أخشى ان تحتقرني لأني مـن بنات الهوى .

ـ أقسم لك بكل عزيز في الأرض ومقـدس في السماء إني أنسى الماضي وأحترمك اجلّ احترام .

ـ إذن فلنهرب ولندع هذه العاصمة السوداء التي لا يلقى فيها المرء سوى الخجل والذنوب إلى بلاد نجني فيها ثمرات الحب دون رقيب .

فجن هذا المنكود من فرحه وقال . لنسافر حيث تشائين . .

ولكنه ما لبث أن تفوه بهذا القول حتى مرت بخاطره امرأته سريز وتمثلت له حاملة على ذراعها طفله الصغير وهو يبتسم له ابتسام الملائكة الأطهار فتنبهت منه عواطف الأب وأجفل وهو يقول : ولدي أ..

فتراجعت الفيروزة إلى الوراء وقد اصفر وجهها وقالت أرأيت كيف انه يجب ان نفترق فراقاً أبدياً لأن لك إمرأة وولداً ؟

ثم تركته مسرعة فبرحت القاعة وأقفلت بابها فبقي المسكين وحده وهو لا يعلم ما يعمل . ولكنه لم يطل انتظاره حتى فتح الباب ودخل خادم يحمل اليه ففتحه وتلا فيه ما يأتي :

« وان لك امرأة وولداً ، سوى انك إذا كنت تحبني كما أحبك ، فلا ينبغي ان تحب إمرأتك ، بل خذ ولدك ولنهرب بـه ، فإني سأحبه كما تحبه أمه ، وسأكون له خير أم . فاختر بين أن تدعني أسافر وحـدي ، فلا تراني إلى الأبد . وبين أن تسـافر معي . فإذا شئت السفر ، أحضر ولدك غداً ، بل هذه الليـلة إذا أردت ، ولا تكتب لي لأني لا أرجع عن هذا العزم » .

فلما أتم ليون قراءة الرسالة وضعها في جيبه وخرج من هذا المنزل الجهنمي بحالة تحمل على الاشفاق .

- ٣٨ -

وكانت الرسالة من إملاء أندريا ، وذلك انه كان مقيماً في غرفة مجاورة للقاعة يسمع جميع الحديث . ولما غادرت الفيروزة ليون وحده دخلت الى الغرفة المقيم فيها أندريا ، فأمرها ان تكتب الرسالة المتقدمة . ولما ذهب ليون أملى عليها رسالة لفرناند تخبره فيها انها ستغيب عنه يومين بشأن خاص ، ثم قال لها : إنك تجدين في صباح الغد مركبة على باب المنزل ، وسائقهـا من أعواني فاعتمدي عليه . واذا حضر ليون مع ولده ولا بـد له ان يحضر ، إركبي معه هذه المركبة ودعي السائق يسير حيث يشاء واذا سألك ليون أين تذهبين فقولي سوف تعرف متى بلغنا المحطة الأولى ، وهناك يخبرك السائق بما يجب أن تفعليه .

— سأمتثل لجميع ما تريد دون أن أعلم شيئاً من هذه الأسرار التي تحيط بي . فاني أغوي فرناند لابتزاز أمواله ، وأغوي هذا العامل المسكين لأنك تريد أن أغويه . ولكن ما عسى أن يكون بعد فراره من إمرأته وما عساي أصنع بهذا الطفل ؟

— أما المرأة فانها تدبر نفسها كما تشاء ، وأما الطفل فاني سأضعه في إحد ملاجىء اللقطاء .

ووجمت الفيروزة وهي لا تعلم ما الذي يدعوه الى هذا الانتقام أما أندريا فانه ذهب من عندها الى الكونت مايلي حفيد الدوق الذي عاهده على إغواء هرمين زوجة فرناند فوجده نادماً على ما فعل وقد سرت اليه روح شريفة أرجعته

عما كان عازماً عليه من الاغواء السافل . ورجع أندريا من عنده وهو موجس شراً من نقض الكونت لعهده وإفلات هرمين من انتقامه وقد تشاءم بهذا النقض وعده دليلاً على بدء حبوط أمانيه .

أما ليون رولاند فانه أخذ الرسالة وانطلق بها الى معمله ، وأخذ يقرأهـا ويعيد قراءتها مرات كثيرة فتتنازعه العوامل المتناقضة . وبينا هو يميل الى اختطاف ابنه واللحاق بالفيروزة تتمثل له امرأته سريز صائحة نادبة فراق زوجها وولدها ، فيجفل قلبه من الفيروزة ويذكر واجباته الزوجية ثم يذكر الفيروزة ويتمثل له جمالها النادر والفاظها الرخيمة ، ويجن غراماً بها وغيرة عليها ، وينسى كل واجب لدى هذا الغرام . واستمر على هذه الهواجس ساعات طويلة يمشي في معمله ذهاباً وإياباً وهو ضائع الرشد مبلبل الحواس حتى تغلبت عليه عواطف الأبوة والمروءة فدعك الرسالة بيديه والقاها مغضباً في أرض المعمل ثم برحه دون أن يقفل بابه وصعد منه الى منزله .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، وجميع من في المنزل نيام . ولما خلا بغرفته هاله ما يحيط به من السكوت وعادت اليـــه هواجسه السابقة ، وذكر الفيروزة وكيف انها ستسافر ولا يعود يراها ، فهاجت به مكامن ذلك الغرام الفاسد وعزم عزماً أكيداً على اختطاف ابنـــه غير مكترث بتلك الوالدة المسكينة وقام الى غرفتها يمشي على رؤوس أصابعه ودنا من سرير الطفل الذي كان بجانب سريرها ، وأخذه من السرير واحتمله بين يديه ثم حاول الخروج به

وكأن الله أبى أن يلقى عليه تبعة هذه الجريمة فانه عثر وهو يمشي بكرسي فسقط الكرسي واستيقظت سريز لصوته ورأت ولدها بين يديه ويحاول الخروج به فصاحت صيحة أم توجس خطراً على ولدها .

أما ليون فانه أرجع الطفل الى مهده وخرج من المنزل دون ان يصغي لنداء إمرأته قائلاً : إحتقريني ما شاء الاحتقار ، فما انا إلا نذل أثيم .

ثم برح المنزل هائماً على وجهه لا يعرف اين يستقر حتى قاده يأسه الى نهر السين وذكر ولده ثم ذكر الفيروزة وعزم ان يلقي بنفسه في مياه النهر ولكنه شعر بيد قوية قبضت عليه وأرجعته الى الوراء والتفت فرأى رجلاً شديداً عرف أنه خادم الفيروزة وانتهره وقال له : ما تريد مني ؟

- أريد أن أمنعك عن الانتحار

— لماذا ؟

— لأن سيدتي تموت لموتك وهي تنتظرك الآن ولا يمنعها عن السفر إلا حضورك ، فاذهب معي .

وكأن ذكرى الفيروزة هاجت فيه حب الحياة وردت اليه بعض صوابه ، وذكر ماسيلقاه بقربها من النعيم وانطلق يجري مع الخادم مطرق الرأس لايفتكر إلا بما سيلقاه .

أما سريز فانها لما سمعت من زوجها ما سمعت وانه قد خرج من المنزل خروج المجانين خرجت في أثره راجية ان تدركه على باب الطريق ، ونزلت الى السلم وعندما بلغت الى منتصفه رأت باب المعمل مفتوحاً ، وقد كان نسي ليون ان يقفله لذهوله فحسبت أنه فيه ودخلت اليه تبحث عنه ولم تجده ولكنها لم تكن تشكك انه فيه ، وأوقدت شمعة وجعلت تطوف في الغرفة مفتشة حتى بلغت الى غرفته الخصوصية ولم تجد أحد . وبينما هي تجيل نظرها إذ رأت ورقة مدعوكة وملقاة على الأرض وهي الرسالة التي أرسلتها الفيروزة الى ليون تغريه بها على اختطاف ابنه والفرار معها . وأخذت سريز الرسالة وما لبثت أن قرأتها وعرفت ما فيها حتى عرفت قصد زوجها من حمل الطفل وصاحت صيحة منكرة وسقطت مغمياً عليها

وعند الصباح أقبل العمال يشتغلون ورأوا إمرأة سيدهم لا تزال مغمياً عليها وعالجوها حتى صحت من اغمائها وحملوها الى المنزل . وقد اتفق ان باكارا جاءت لزيارتها في تلك الساعة لانشغال بالها عليها ولما علمت ما كان من أمر

زوجها وقرأت رسالة الفيرورة وعلمت ان ليون قد رحل هاجت هياج اللبوة فقدت أشبالها وقالت : إن الفيروزة لا تموت إلا من يدي .

- ٣٩ -

ولنعد الآن الى السير فيليام او السير أرثير او أندريا ، فان هذا الرجل الهائل عندما برح منزل الكونت مابلي كما قدمناه ، ذهب تواً إلى روكامبول الذي كان ينتظره في منزله لتلقي أوامره . وأخبره روكامبول بجميع ما كان بين شاروبيم والمركيزة ، وأظهر له ريبه من الفوز لما لقيه من عـــدم اكتراث المركيزة . فهزأ به اندريا وقال إنها اذا كانت غير مكترثة به كما توهمت لما سمعت جميع حديثه ولأوقفته عند اول كلمة قالها ، ولكنــك لا تزال غراً جاهلاً حديث العهد بهذه المهنة

— كيف نرجو الفوز ولم يعد لنا من الوقت سوى ستة ايام ، لأن الهندية شربت السم امس وإذا ماتت قبل فوزنا باغواء المركيزة فكيف تظفر بالملايين وإذا كانت لم تظهر إشارة حب لشاروبيم الى الآن فكيف نرجو أن نغويها وفوق ذلك ان شاروبيم أخبرها انه راحـــل عن هذه الديار فكيف يتيسر له لقاؤها بعد هذا القول ؟

— أما إغواء المركيزة فلا نريد به سوى الظاهر ، وسيان تهتكت بحبه ام اقتصرت على ما هي عليه الآن من الرضى عنه والرأفة به ، وان الغرض الذي نسعى اليه وهو ان يباغت المركيز شاروبيم والمركيزة في غرفة واحدة واما اجتماع شاروبيم بها فهو امر ميسور لدي

— اين يجتمعان ؟

— في منزل الأرملة وقد أوقفت المركيز على ما ينبغي بحيث يكفيه ان يرى

امرأته مع شارويم لاثبات خيانتها . فاطمئن واستعد للسفر .

ثم أخبره بجميع ما كان من امر ليون ، وأمره ان يتزيا بزي سائق مركبة كي يسوق المركبة التي تسافر بليون والفيروزة وأخبره بجميع ما ينبغي عليه ان يفعله .

وبعد ساعتين كانت المركبة واقفة على باب منزل الفيروزة وروكامبول ينتظر فيها بزي سائق .. ثم أقبل مع الخادم كما تقدم ، ولما رأته الفيروزة أسرعت اليه وتأبطت ذراعه وسارت به الى المركبة واندفع معها يقدم رجلا ويؤخر اخرى . وكأنها خشيت منه عاقبة هذا التردد فجعلت تغازله وتكشف له من كوامن حبها ما أنساه امرأته وولده ، فصعد معها الى المركبة وسارت بهما تنهب الأرض حتى خرجت من باريس واجتازت مسافة مسير ساعة في طريق نورمانديا .

إلا ان ليون ما لبث ان عادت اليه هواجسه ، وذكر امرأته وولده ، وعلم انه يأتي أمراً جنونياً لا يقدم عليه العاقلون ثم تمثل له ولده وهو يناديه ويتبسم له ابتسام الملائكة فاتحاً ذراعيه لضمه . فثارت في فؤاده عواطف الأب وأفلت يده من يد الفيروزة وصاح بغتة بالسائق يقول قف فلا طاقة لي بارتكاب هذه الخيانة .

فخطر للفيروزة خاطر سريع وقالت له : ليكن ما تشاء . أتريد العودة الى باريس ؟

- أجل .

– إذن نفترق الى الأبد .

واختلج ليون وجعل الواجب الشريف والحب الفاسد يتجاذبان فؤاده الضعيف ولكن الواجب قد انتصر فصاح أيضاً بالسائق وقال : قف ، فإني لا أريد ان أفارق ولدي .

فنادت الفيروزة السائق وأمرته ان يقف ثم قالت لليون : يعز علي أن

أفارقك إلا اني لا أستطيع ان أدعك في هذه البراري المقفرة فاننا نبعد خمس مراحل عن باريس .

- لا بأس ، إني أعود ماشياً على الأقدام .

- كلا بل ترجع بك المركبة .

ثم أمرت السائق أن يرجع بها الى باريس

وكان روكامبول قد سمع جميع الحديث فقال لها : ان الخيل قد تعبت يا سيدتي ولا طاقة لها بالرجوع وقد دنونا من محطة قريبة فإذا شئت وصلنا اليها واستبدلنا الجياد ثم نعود .

- إذن فأسرع الى هذه المحطة .

فدفع روكامبول الجياد وليون مطرق بعينيه الى الأرض لا يجسر ان ينظر بها الى الفيروزة حتى وقفت المركبة أمام فندق منفرد . فنــادى روكامبول أصحابه وللحال فتح الباب وخرج منه فانتير وهو الخادم الذي وضعه أندريا في منزل الأرملة مالاسيس وقد تزيا بزي أصحاب الفنادق فقال له روكامبول : أسرع وأعد لي جوادين قويين أعود بهما الى باريس .

ثم أومأ اليه بخفة ، فعلم فانتير المراد ، وقال : لا سبيل للحصول عليهما قبل ساعتين .

وكان ليون والفيروزة يسمعان الحديث فتظاهرت الفيروزة بالسرور وطوقت ليون بذراعيها وهي تقول اني سأتزود منك ساعتين .

فأطرق ليون ، وقد أخذت تلك العواطف الفاسدة تتغلب على فؤاده ، فمسكت الفيروزة بيده وصعدت به الى الدور الأول يتقدمهما صاحب الفندق، وهو خادم الأرملة ، وأعد لهما غرفة خاصة وأمرته الفيروزة أن يحضر لهما ما يأكلان ويشربان . فخرج مسرعاً وعاد يحمــل طعاماً بارداً وزجاجة مختومة من الخمر ، فوضع الطعام على مائدة وأخذ يفض ختم الزجاجة ، وهو يشير بطرف خفي الى الفيروزة ، فعلمت ان في الزجاجة مخدراً أخبرها عنه

روكامبول .

وهذا المخدر الغريب في بابه ، أحضره معه اندريا حين كان في البلاد الأميركية ، وهو مسحوق نبات يمزج بالشراب فلا يغير طعمه ولونه ورائحته ، فإذا شربه المرء تخدرت حواسه جميعها ما عدا حاسة السمع ، بحيث يسمع جميع ما يقال أمامه دون ان يرى او يستطيع حراكاً مدة يوم كامل .

فلما أتم الخادم فتح الزجاجة ، وضعها على المائدة وخرج . فأخذتها الفيروزة وصبت منها في كأسين وجعلت تنادم ليون وتشاغله عن امرأته وولده بأطيب الحديث وتذكر له ما ستلقاه من لواعج الوجد بعد فراقه ، ثم سقته ما بالكأس فشربه جرعة واحدة ، وأدنت كأسها من فمها ثم أرجعته نافرة منه ورمته مدعية انها وجدت فيه ذبابة واستدعت صاحب الفندق فأمرته ان يحضر لها زجاجة غيرها ، فلما أحضرها جعلت تشاركه بشربها لخلوها من المخدرات .

وما مضى على ذلك هنيهة حتى أحس ليون بفتور في جميع أعضائه ثم تثاقلت عيناه فجعل يتثاءب تثاؤباً شديداً ، وهي تتظاهر بالانذهال من نعاسه حتى أطبق جفنيه وسقط لا يعي فأسرعت الى نداء صاحب الفندق وأحد خدامه ، وقالت لهما وهي تعلم تأثير المخدر وانه يسمع جميع ما تقول إحملا الزوج العزيز الى سرير ، واحذرا من ان تزعجاه فانه منذ يومين لم ينم .

فحملاه ووضعاه على السرير . فأخذت كرسياً وجلست بإزائه وجعلت تناغيه بالطف الأصوات وتودعه بأرق العبارات كأنها تحاول ان تسافر وتتركه نائماً كي تهرب فكان يسمع كل ما تقول لكنه لا يستطيع ان يبدي حركة لتأثير هذا المخدر القوي .

وفيما هما على ذلك إذ سمع من خارج الغرفة صوت رجل شديد يسأل

صاحب الفندق بلهجة السيادة ، فيقول : ألم تمر بك مركبات في هذه الليلة ؟

- نعم ، لقد مرت بنا مركبتان إحداهما لرجل إنكليزي ، وقد استراح هنيهة وسافر ، والثانية لرجل وسيدة وهما باتنان عندنا في هذه الليلة .

فصاح هذا الرجل صيحة فرح ، ثم استتلاها بالشتائم والسباب وقال: إن جهنم قد بعثت بي الى هذا المكان لأعاقب الخائنين

أما الفيروزة فإنها أجفلت حين سماعها هذا الصوت وقالت يا ويلتاه إنه يطاردني فما عساه به وبي يصنع .

وكان ليون رولاند سامعاً فخاف خوف الفتاة وأفظع اذ لا يطيق الدفاع وهو كما علمت لا صاحياً ولا يهجع .

أما صاحب الصوت فانه استدل من صاحب الفندق على الغرفة التي يقيم الرجل والمرأة ، فركض اليها مسرعاً ورفس بابها برجله فانكسر الباب ، وخرج منه دوي شديد ، ودخل الرجل حتى اذا رأى الفيروزة هجم عليها وقبض على شعرها وهو يقول : أين المفر الآن وانت في يدي ؟

فركعت الفيروزة وقالت . رحماك ! أشفق علي .

— لا رحمة ولا إشفاق ، فلا بد من قتلك وقتل هذا الرجل الذي تخونيني من أجله

— رحماك وإذا لم ترد الابقاء علي فابق عليه .

— كلا . بل تموتين وإياه .

ثم هجم كأنه يريد قتل ليون وهو يقول : سيسيل دمه على يديك ثم تموتين بعده شر موت .

غير ان الفيروزة حالت بينه وبين ليون كأنها تريد الدفاع عنه او الموت قبله وجعلت تستعطفه وتتملقه ، فلا يزيد إلا عتواً . كل ذلك وليون سامع جميع الحديث ولا يستطيع ان يبدي حراكاً كالنائم يصاب بالكابوس ولكنه كان

ينتظر الموت في كل لحظة .

وكان هذا الرجل قد لان فؤاده لاستعطاف الفيروزة ، لا سيا حين قالت له : إني أتبعك حيث تشاء وأحبك حباً أكيداً اذا أبقيت على هذا الرجل إذ لا ذنب له .

- أتقسمين على ذلك ؟

- أقسم لك بإله السماء والأرض اني أكون لك أتبع من ظلك وأطوع من بنانك بشرط ان لا تتعرض له بأذى .

إذن هيا بنا نعود الى منزلك في باريس والويل لك اذا خطرت لك الخيانة في بال أو حنثت باليمين .

ثم أخذها بيدها ، وخرجا من تلك الغرفة الى قاعة الفندق ، في الدور الأول .

- ٤٠ -

ولم يكن هذا الرجل سوى روكامبول ، وقد اتفق مع الفيروزة على تمثيل هذه الرواية التي وضعها أندريا . فلما باتا وحدهما في القاعة ، قال لها روكامبول : الحق انك لو كنت ممثلة على المسارح ، لكنت الآن من أشهر الممثلات .

فسرت الفيروزة من هذا الثناء وقالت : الآن ألا تخبرني بحقيقة هذا الدور الذي مثلناه ، فإني لا أفهم منه شيئاً ، بل كنت فيه شبيهاً بالآلة الصماء .

- ولكني لا أستطيع ان أخبرك شيئاً ، لأني أنا نفسي مثلك بدير نا رئيسنا الحاضر .

– وما لديك من الأوامر الان ؟

– يلبغي ان تذهبي في الحال الى باريس وتقيمين في منزلك بانتظار الرئيس.

– ألا تعود معي ؟

لا . فإن مهمتي لم تنته بعد .

وعند ذلك خرج فأعد المركبة وعاد فأخذها اليها ، وسارت بها تنهب الأرض عائدة الى باريس . فلما بلغت الى منزلها علمت ان فرناند قد زارها مبكراً وانه خرج من منزلها منذ ربع ساعة فقط . ثم أعطاها أحد الخدم رسالة من أندريا يأمرها فيها ان لا تخرج من المنزل وان تنام الى ان يأتي عند الغروب فيوقظها ويباحثها بشؤون خطيرة . فنامت وقد أنهكها التعب الى ان حان الأجل المضروب ففتحت عينيها ورأت أمامها أندريا وهو يقول كفاك نوماً وهيا بنا نتحادث .

فجلست في سريرها ودار بينهما الحديث الآتي فقال أندريا :

– أيعجبك هذا القصر الذي أنت فيه ؟

– كل العجب .

– وثلاثمائة الف فرنك تضاف اليه .

– إن هذا لقليل فان فرناند يعطيني أكثر من هذا .

– انك منخدعة ولو كانت ذاكرتك جيدة لعلمت ان فرناند لم يكن له اتصال بك لولاي .

– هذا لا ريب فيه ولكن ..

– بل ان هذا يدل على ان فرناند لا يستطيع ان يفيدك بشيء إلا إذا أردتِ .

– كيف ذلك اليس له الحق ان يصنع ما يريد ؟

– كلا .

– إذن تريد ان تقول انك الوصي عليه ولكن هذا ليس أكيد ولو شئت

أن أنهب جميع أموال فرناند لقدرت

فقال لها أندريا بصوت الهازيء المستخف : لقد كنت أحسب ان لك عقلا راجحاً وانك تعلمين بأني اشتغل لنفسي لا لسواي .

فعضت على شفتها من الغيظ وقالت : لقد نسيت انك تريد سمسرة .

— نعم وان سمسرتي تبلغ مليونين .

فوثبت الفيروزة من مكانها قائلة : لا شك إنك مجنون فإن من يطمع بالكثير فاته القليل وما دام فرناند يحبني فهو يصنع دون ذلك ما أريد .

فقال أندريا دون أن يبدو عليه شيء من علامات التأثر : إنك منخدعة فإن كلمة واحدة تصدر مني إلى فرناند تكفي لهجرانه لك إلى الأبد فإن لدي إحدى رسائلك إلى ليون رولاند .

فاصفر وجه الفتاة من الغيظ ثم قالت ولكني أقر له بكل شيء وهو يحبني ولا بد له من الصفح عني .

فأخرج أندريا خنجراً وقال لها بأتم السكينة بقي هذا الخنجر فإنه يفعل دون ذلك أشد مما تفعله الرسالة .

فمدت الفيروزة يدها إلى الحائط تحاول أن تضغط على زر كان فيه قصد منادات الخدم ، ولكن أندريا عرف قصدها فقهقه ضاحكاً وقال : فاتك أيتها الحسناء ان جميع من في القصر من أعواني ، وإني إذا أردت قتلك فهم يساعدونني على اخفاء آثارك .

فسقطت يد الفيروزة عن الزر وتنهدت تنهداً عميقاً فقال لها أندريا :اصغي الي وخففي من مطامعك وانظري إلى ماضيك منذ عهد قريب تجدي انك كنت في أشد حالة من الفقر ، ثم انظري الى حاضرك تجدي انني قد وهبتك قصراً يبلغ ثمنه مع رياشه نحو المليونين وفوق ذلك فاني سأهبك أيضاً ثلاثمائة الف فرنك أفلا يكفيك جميع هذا أم أنت تؤثرين العودة إلى حالتك السابقة ؟

فأطرقت الفيروزة إطراق الواجم المقنع . ثم قالت . املي علي شروطك

فاني راضية بما تريد .

فجلس أندريا بازائها وقال : إذن فقد رضيت .

فأنّت قائلة : ولكن هذين المليونين سيطول العهد بالحصول عليها .

— كلا بل أنا سنقبضهاغداً إذا أحسنت الطاعة .

— أراك شديد القناعة فإن فرناند وافر الثروة فكيف تقنع منه بالمليونين ؟

- انك منخدعة بثروته كسائر الناس فإنه عندما تزوج بهرمين كان فقيراً لا يملك شروى نقير وكان مهرها اثني عشر مليوناً الا انها حين عقد الزواج لم تخصه إلا بثلاثة ملايين وقد انفق منها على القصر ورياشه نحو مليون ولم يبق له الا مليونين

بقي أن أعلم كيف تحصل على هذين المليونين .

— ان ذلك سهل ميسور وهو اني سأعطيك خمس حوالات قيمتها ٥٠ الف فرنك تسأليه أن يوقع عليها بالقبول وهو سيقبلها دون ريب لأنها مبلغ زهيد.

- وأين المليونان إذن ؟

فأسرج أندريا الحوالات مكتوبة من جيبه وقال : أنظري إلى هذا الحبر فإنه إذا مسح عن الورق زالت جميع آثاره ، وإذا وقع فرناند على الحوالات بالحبر العادي مسحت عنها الكتابة السابقةويبقى الامضاء اكتب فوقه ما أريد

فبهتت الفيروزة لكلامه ثم أخذت الحوالات وجعلت تقلب نظرها فيها فرأت أنها بعيدة الآجال فقالت : إن فرناند لا يلبث أن تعرض عليه الحوالة الأولى حتى يفطن للتزوير ويبعث بي وبك إلى أعماق السجون

- لقد أصبت ولكن ليس فرناند الذي سيدفع هذه الحوالات بل امرأتـه ستدفعها بعد موته حرصاً على اسمه .

فأجفلت الفيروزة وقالت : العلك عزمت على قتله ؟

نعم !

- كلا .. اني أوافقك على كل شيء وأشاركك في كل جريمة ، أمـا جريمة

القتل فان يدي لا تنغمس فيها .

واخرج أندريا الخنجر من جيبه ثانية ووضعه على منضدة أمامه وهو يقول لا شك انك بلهاء فانك تدافعين عن حياة الآخرين وأنت أولى بالدفـــاع عن حياتك .

وهاله بريق الخنجر وانقادت صاغرة اليه ودار بينهما حـــديث طويل لا ندري خلاصته الا ان نتائجه ستظهر قريباً .

ولما فرغا من هذا الحديث أمرها ان تكتب رسالة إلى فرناند تدعوه بها إلى العشاء معها ، ففعلت وخرج أندريا على ان يعود حين يجيء فرناند فيختبيء في إحدى الغرف

أما الفيروزة فانها أوقدت المصابيح بجميع المنزل كأنما هي تعد ليلة راقصة ثم جعلت تنتظر قدوم فرناند، وفي الساعة التاسعة أقبل هذا المفتون فاختلقت له حديثاً ملفقاً عن السبب الذي دعاها إلى الغياب وجلست وإياه على المائدة تسقيه من خمرها ومن عينيها كؤوساً أضاعت رشاده وجعلته آلة في يديها حتى سألها عن السبب في هذا الانقلاب الشديد ، فأخبرته بأن لها عماً مديناً وأنها تشفق عليه وعلى شرفه وسوى ذلك إلى أن سألها عن مبلغ دينه .

ــ خمسون الف فرنك .

وضحك فرناند ضحك الهازىء وقال : أتحزنين لهذا المبلغ الزهيد وأنا صاحب الملايين ؟

ثم هزته أريحية الحب ونشأة المدام وقام إلى منضدة يريد أن يكتب حوالة على صرافه بالقيمة فمنعته الفيروزة وقالت : ليس هـــذا الذي أريد بل اني أسألك التوقيع على خمس حوالات يبلغ مجموعها هذه القيمة .

ولم يخطر الشر لفرناند في بال وقال هات الحوالات .

ودخلت الفيروزة إلى الغرفة المجاورة حيث كان مختفياً أندريا وقالت له : لقد وقع الطير في الشرك فهات الأوراق فاخرج اندريا من محفظتــه الحوالات

التي تقدم ذكرها وأعطاها أياها فذهبت بها الى فرناند حيث وقع عليها جميعها كما تريد وهو لا يعي من شدة سكره ما يفعله فحملتهـا وذهبت بها الى اندريا فاخذها والفرح ملء فؤاده واعادها الى المحفظة وهو يقول : عودي الى فرناند وتأهبي فان رجل الخنجر سيأتي قريباً .

وكانت الفيروزة قد ذكرت موقفها الهائل وتمثلت لها تلك المعركة العظيمة التي ستجري بين العاشقين فقالت : رباه ماذا افعل وما يكون من أمري في هذه المعركة ؟

فقال لها اندريا : انك تختبئين بعد ان تطفئي المصباح .

– ولكنه يقتلني بعد ذلك .

– لا تخشي ، فاننا سنجيء لانقاذك .

– وما يكون من نتائج هذا القتل ؟

– ان البوليس يقبض عليك ويسألك عما جرى في المنزل فتقولين ان لي عاشقين دفعت باحدهما الغيرة إلى قتل مزاحمه فيطلقون سراحك وتعودين آمنة الى ما كنت عليه ، فخرجت الفيروزة مطرقة الرأس وهي خائفة أشد الخوف وعادت الى فرناند . أما اندريا فانه ما لبث بعد ان خرجت الفيروزة وساد السكون في تلك الغرفة المختبىء بها حتى سمع صوت تنفس انسان من ورائه فالتفت منذعراً فرأى على نور النار الضعيفة في المستوقد خيال انسان ورأى في إحدى يدي ذلك الخيال سلاحاً يلمع فوجف فؤاده وقال في نفسه : ألعله قدم أحد لنصرة فرناند ؟

- ٤١ -

ولنعد الآن إلى روكامبول فلقد تركناه في الفنـدق بعد رجوع الفيروزة ينتظر ان يصحو ليون من رقاده، أما المنكود فانه كان على ما وصفناه صاحياً

في زي نائم من تأثير المخدر الذي شربه وقد لقي اهوالاً شديدة في رقاده فانه كان يسمع ما دار بين الفيروزة وعشيقها وينتظر الموت في كل لحظة فلما ذهب بها ما لبث ان اطمئن على نفسه لسلامته من الموت حتى عادت الى فؤاده لواعج الغيرة تعضه بأنيابها المسنونة وهو لايستطيع ان يبدي حراكاً ثم شعر من نفسه ان نومه قد طال وفيا هو ذلك إذ فتح صاحب الفندق غرفته وقال : انه لا يزال نائماً ألعله سينام نوماً الى الأبد ؟ فسمعه ليون وخشي اذا طال نومه ان يدفنوه حياً ، ثم جعل يذكر جميع الحوادث التي كان يقرأها في الجرائد عن دفن الأحياء لحسبانهم في عداد الأموات فينخلع قلبه من الخوف .

وما زال على هذه المخاوف المقلقة الى ان اذنت الشمس بالمغيب ففتح عينيه وجعل ينظر نظرات الرعب الى ما حوله ثم جعل يحرك يديه ورجليه كأنه غير مصدق بصحوه وعوده الى الرشاد واستوى جالساً في سريره فجعل يستعرض في سره ما مر به من الحوادث وهو يحسب انه كان بالكابوس الذي يعرض لبعض النائمين المزعجين في النوم .

ثم انه اراد ان يتحقق جميع ذلك فنادى صاحب الفندق حتى اذا صعد اليه كان اول سؤال ألقاه عليه قوله : أين هي ؟

– من هي ؟

– السيدة التي كانت معي .

فأجابه بصوت المتهكم أنها يا سيدي أتت معك ولكنها عادت مع سواك الى باريس .

فصاح ليون صيحة منكرة إذ ثبت لديه انه لم يكن حالماً وان جميع ما مر به كان حقيقة ثابتة لا ريب فيها فوثب من سريره الى الأرض وخرج من الغرفة خروج المجانين حتى اذا بلغ الى باب الفندق العمومي سمع صوت رجل يناديه فالتفت فرأى روكامبول بزي سائق وهو جالس الى مائدة عليها أكل وشراب فقال : ماذا تريد ؟

– اني عائد الى باريس ، فاذا شئت صحبتك معي اليها .

– إذن أسرع بإعداد المركبة .

– ألا تشرب كأساً ؟

– ويحك كيف يخطر لي الشراب وأنا على هذه الحال .

– رويدك يا سيدي واجلس معي قليلاً الى أن أفرغ من الطعام ، وإذا شاركتني بهذه الزجاجة قصصت عليك أمر الفتاة التي أتيت بها ثم ذهبت مع سواك واطلعك على سرها .

– أنت تعرف سرها ؟

– نعم ، ولكني لا اطلعك عليه الا على شرط الشرب معي

– رضيت فقل ما تعلم .

فصب له روكامبول كأساً فشربه جرعة واحدة وهو يذوب تلهفاً للاطلاع على هذا السر . وصب له روكامبول كأساً فشربه جرعة ثانية وقال : أبداً فأقول لك اني كنت في خدمة هذه الفتاة التي تعشقها وهي فتاة مخلصة النية لطيفة الشعور الا ان عشيقها الذي استردها منك اليوم لا رحمة في فؤاده ولا إشفاق عنده فإنه يعاملها شر معاملة ويضربها الضرب المبرح حتى أنها باتت تؤثر الموت على صحبته .

فسخط وأخذ مدية كانت على المائدة فقبض عليها وضرب بها المائدة كأنه يضرب ذلك الرجل وهو يقول : لا بد من قتله .

وصب له روكامبول كأساً ثالثة وجعل يفضح أعمال هذا العشيق ويذكر له عيوباً لا تحتملها النفوس ثم يذكر في مقابل ذلك ما تقاسيه الفيروزة من العناء والمتاعب وأنها لا يتسنى لها الراحة مما هي فيه إلا إذا مات هذا الجاني ، وكان كلما ذكر له نادرة سقـاه كأساً فزاده تحمساً ، إلى ان اشتد سكر ليون وعاهده روكامبول على أن يوصله الى مزاحمه ، وعاهد نفسه على ان يقتله شر قتلة .

ولما رأى روكامبول ان المدامة قد نهبت من عقل هـذا الصانع المنكرد بقدر ما يريد قام عن المائدة وأعد المركبة ودعاه للسفر فأسرع ليون اليها وهو يتهادى في مشيته من الشرب وقد جحظت عيناه من الغضب وسارت بهما الى منزل الفيروزة حتى بلغت اليه والفيروزة عند ذلك مع فرناند بعد أن أخذت منه الحوالات المزورة على ما تقدم

أما ليون فانه صعد مشهراً بيده الخنجر وهو هائج هياج المجانين وكان روكامبول يتقدمه كي يرشده إلى الغرفة التي يقيم فيها فرناند ، ولما قرب أن يدنو منها أشار له عنها بيده وخرج مهرولاً وهو يقول في نفسه لقد فعلت ما وجب عليّ ولتفعل الفيروزة ما يجب .

وأسرع ليون إلى الباب يريد اقتحامه إذا لم يكن مفتوحاً فتصدى له أحد الخدم وحاول منعه عن التقدم فضربه ليون بيده ضربة سقط في اثرهـا على الأرض وأسرع الى الباب فوجده مقفلاً ولكنه رأى النور من ثقبه فطرقه فلم يفتح له بل سمع أنه أقفل مرة ثانية ، وجعل يطرق الباب مغضبـاً وهو يقول : افتحي اني لا أريد بك شراً بل أريد قتل الظـــالم . افتحي أو اقتحم البا . .

أما فرناند فانه دهش لهذا الحادث الذي لم يكن يخطر له في بال ثم رأى من انذار هذا الطارق واصفرار الفيروزة واضطرابها مـــا زاد في هواجسه ، فسألها من هذا وماذا يريد ؟

– ألا تسمع أنه يريد قتلك ؟ ثم تظاهرت بمظاهر القدامه وقالت : انـه عشيق قديم لي نسيت أن أخبرك عن أمره فاهرب بالله انه شديد الغيرة

وكان فرناند قد شرب حتى سكر فهاجت غيرته ايضاً وأخذ سكيناً عن المائدة وهو يقول : ليدخل ولنرى من يقتل الآخر .

فما أوشكت الفيروزة أن تستعطفه حتى كسر الباب ودخل منه ليون وأسرعت الفيروزة إلى الشمعة التي كانت تنير الغرفة فألقتها على الأرض بحيث

انطفئت وساد الظلام قبل أن يرى احدهما الآخر ، ثم هربت إلى غرفة ثانية ولكنها لم تكد تخرج وتسود الظلمة في تلك الغرفة حتى فتح باب آخر وظهر منه نور عظيم شق حجاب الظلام وأظهر للعاشقين موقفها الهائل الشديد .

- ٤٢ -

تقدم لنا القول أنه حين أعطت الفيروزة الحوالات لأندريا وخرجت من الغرفة التي كان فيها للاجتماع مع فرناند رأى اندريا على نور النار المشبوبة في المستوقد شبح انسان ولما رآه جعل يحدق به ويتراجع على بسالته منذعراً الى الوراء حتى لم يعد يطيق الرجوع لبلوغه الى الحائط وعند ذلك تقدم منـــه الخيال حتى بلغ اليه ، وشمر اندريا بأنفاسه تهب على وجهه فانذعر وقـال من أنت وماذا تريد ؟

أما الخيال فإنه لم يجبه بحرف بل انه قبض على عنقه باحدى يديه ووضع على جبهته باليد الثانية معدناً بارداً علم اندريا في الحال انه حديد مسدس ثم سمع صوتاً نسائياً يقول : يجب ان تعطيني الحوالات وإلا فأنت مائت لامحالة .

فاضطرب أندريا لأنه علم ان هذا الصوت صوت باكارا وانه إذا لم يرجع اليها الحوالات قتلته دون شك، فمد يده الى جيبه واخرج الحوالات دون تردد الا أن باكارا لم تمسها بيدها بل بقيت قابضة على عنقه وقالت له : الق هذه الحوالات في النار ، ولم يسعه الا الامتثال والقاها وهو يكاد يذوب إشفاقاً على زوال مطامعه .

وكانت باكارا متشحة برداء طويل لا يخفي منظرها عمن يعرفها ، الا أن أندريا كان متنكراً تنكراً عظيماً بحيث يستحيل على باكارا أن تعرفه ولكن باكارا أرادت أن تتبين وجهه فقالت ببرود : اذا أحببت الحياة فينبغي عليك

أن تطيعني .

فقال بلهجة الانكليز   اني أطيعك في جميع ما تريدين .

ـ خذ هذه الشمعة واشعلها من نار المستوقد .

فامتثل أندريا ، وقالت له : اشعل الثانية فإن امثالنـــا يجب أن يعرف بعضهم بعضاً .

وامتثل ايضاً وأنار الشمعة الأخرى وصوبت اليه مسدسها وقالت : ان من كان لصاً أثيماً مثلك يسرق مليونين وثلاثمائة الف فرنك باقبح الحيل لا بد له أن يحمل خنجراً في جيبه فاسرع يا حضرة الميلورد والقي خنجرك الى الأرض وأنا قلت لك ميلورد لأنك قد تقمصت فصرت انكليزياً

ولما رأت أنه يتردد صوبت اليه المسدس أيضاً وقـــالت : إذ تأخرت دقيقة واحدة فإنك مائت . وقد صوبته الى الرأس فعـلم أندريا أن لا حيلة معها ففك أزرار ثوبه وأخذ الخنجر وقدمه لها وهو يؤمل انها متى مدت يدها لاستلامه انقض عليها وجردها من سلاحها فكان له الفوز . غير انه ساء فأله فان با كارا كانت أشد منه دهاء ، وكأنها قد أدركت قصده فقالت: كلا بل القه الى الأرض .

فألقاه مكرهاً وهو يرجو ايضاً ان تنحني لأخذه غير انها وضعت رجلهـا عليه وجعلت تتفرس به وهي تقول بنفسها : أظن ان هذا الرجل هو اندريا بعينه ولكنه قد غير هيئته تغييراً شديداً بحيث لا أستطيع الحكم عليه إلا من عينيه فإنهما هما هما لم تتغيرا

ولما فرغت من تمعنهـا تراجعت الى الوراء وهي لا تزال مصوبة المسدس وقرعت على باب الغرفة مرتين ففتح الباب ودخل منه رجلاً حسبه اندريا في بادىء الأمر أحد خدام الفيروزة ، ولكنـــه لم يكن الا الكونت أرتوف الروسي صديق با كارا ، وقد دخل مسلحاً بمسدس ايضاً فأومأت بيدها الى أندريا ، وقالت للكونت : اني أعهد اليك مراقبة هذا الرجل ، وحذار

من ان يفر

– كوني مطمئنة فان قبضتي شديدة ومسدسي لا يخطىء

ثم أخذت شمعداناً فيه كثير من الشموع وأشعلتها جميعاً ، ودخلت بها الى الغرفة التي كان فيها فرناند وليون بوشكان ان يقتتلا ، على ما عرفه القراء ، فلما دخلت وهي تحمل هذه الأنوار ورأتها الفيروزة فعلمت انها با كارا صاحت صيحة رعب ووقفت في مكانها لا تعلم من الذعر كيف تفر .

وكان المنظر هائلاً يستوقف الأبصار فان ليون كان يحمل بيده الخنجر وهو كالهائم على وجهه لا يعرف أين يغمده ويبحث بين الظلمات عن صدر فرناند وهو لا يعرفه ، وفرناند اصفر الوجه لا يزال يتمايل من السكر واقفاً في مكانه ينتظر ان يقتله هذا العدو اللدود وهو لا يعرف من هو ولما تبدد الظلام بنور با كارا ورأى كل منهما الآخر صاح صيحة انكار ورمى ليون الخنجر من يده الى الأرض ، ثم ما لبث أن رأى با كارا حتى أطرق بنظره اطراق الخجل النادم وكذلك فرناند فإن با كارا حلت فيهما حلول القضاء ولم تكن الا رسول السلام .

وبعد أن صبرت عليهما هنيهة وهي تبتسم لهما ابتسام المؤنب الظافر وضعت مصابيحها على المائدة ثم التقطت لونجر ليون ودنت من الفيروزة وهي توشك أن تسقط على الأرض من الرعب وقبضت عليها بيد من حديد وقالت لها وهي مصوبة الخنجر الى صدرها : اختاري الآن بين أن تموتي أو أن تبوحي بكل شيء .

وجعل ليون وفرناند ينظر كل منهما الى الآخر نظر الوجل والانـذهال وهما لا يدركان شيئاً من هذه الأسرار ، وضغطت با كارا على الفيروزة وسألتها : أيتها الأفعى اعترفي لليون بأنك تريدين وضع ابنه بين اللقطاء وان كل ما جرى أمس لم يكن الا رواية تمثيلية وانك كنت السلاح القاتل بل انت التي كنت تدفعينه الى قتل فرناند ، اعترفي أو تموتي .

ثم ادنت الخنجر من عنقها ووخزتها به وخزاً خفيفاً ولما شعرت بالألم ورأت انها لا نجاة لها الا بالصدق قالت : رحماك اني اعترف بكل شيء وان كل ما قلتيه حق لا ريب فيه

فصاح ليون صيحة منكرة وكاد يمزقها بيديه ، أمـا باكارا فإنها أدنت الخنجر ايضاً من عنق الفيروزة وقالت لها . اعترفي الآن ايضاً أمام فرناند انك دعوتيه الى التوقيع على حوالات تبلغ قيمتها مليوني فرنك لا خمسين الفـاً كما أوهمتيه ثم انك لم تقصري على ذلك بل انك اردت قتله وبعت حياته بثلاثمائة الف فرنك .. اعترفي في الحال أو استعدي للموت .

ولم تعد الفيروزة تملك نفسها من الرعب وقالت : نعم كل ما تقولينه حق.

-- والآن قولي للاثنين انك سحقت قلبيهما وعبثت بشرفيهما وانك لولاي لكنت قتلت الاثنين قولي لهما إذا كنت تؤثرين الحياة عن ذلك الشيطان المريد الذي كان يدفعك الى هذه الآثام فإنك لم تكوني الا آلة بين يديه .

ثم ضغطت عليها ضغطة اضاعت صوابها ووخزتها بالخنجر تريد حملها على الاقرار فتراءى للفيروزة أن ما بنته من صروح الآمال قد تهدم بلحظة واحدة وانها سقطت الى الحضيض وستعود الى حالتها الأولى من الفقر المدقع ثم هالها هذا الموقف الشديد من ذلك الخنجر البراق الذي كان يخز عنقها من حين الى آخر فقضي على عقلها وأجابت باكارا بضحك عصبي شديد تبين منه انهـا قد جنت لهول ما لقيت فرفستها باكارا برجلها وقالت : لم يعد لنا بك مآرب بعد أن ضاع صوابك .

ثم التفتت الى فرناند وليون وقالت لهما : اتبعاني الى هذه الغرفة المجاورة كي أريكما ذلك الرجل الجهنمي الذي يطاردكما منذ أمد بعيد ويحـاول سلب شرفكما وحياتكما وأقوالكما . اتبعاني فإنه في هذه الغرفة .

ثم مشت أمامهما حتى بلغت الى باب الغرفة التي يقيم فيهـا اندريا والكونت الرومي وفتحت بابها بعنف ولكنها لم تكد تفتح الباب حتى خرج

دوي مسدس شديد اضطربت له جوانب المنزل وتبعه صوت سقوط جسم على الأرض ، فارتجفت باكارا مذعورة وقالت : هوذا العدل قد نفذ فان الكونت قد قتل أندريا رسول إبليس على الأرض .

- ٤٣ -

إلا ان باكارا أخطأت بحسن ظنها بالعدالة . فان هذا الرجل الأثيم لم يقتل بل انه فر من القضاء قبل ان يضربه الضربة القاضية . واليك تفصيل الحديث :

إن أندريا والكونت أرتوف لم يفتهما شيء مما جرى داخل الغرفة التي كانت فيها باكارا وقد سمعا كل شيء فكان اندريا ينظر تارة الى باب الغرفة التي يحميها الكونت ارتوف وينظر طوراً الى نافذة مفتوحة تشرف على الحديقة فخطر له ان يلقي بنفسه من هذه النافذة ، ولكنه لم يكن يستطيع إلى ذلك سبيلاً لفرط عناية الكونت بمراقبته وما زال على هذه الحال الى ان فتحت باكارا الباب بذلك العنف الذي قدمناه ، فالتفت الكونت منشغلاً بما سمع عن أندريا ، فهب اندريا الى النافذة بأسرع من لمح البصر والقى بنفسه منها الى أرض الحديقة فجن الكونت أرتوف من يأسه وأطلق عليه نار مسدسه دون أن يعلم اذا كان أصابه او أخطأه .

وسمع سقوط جسمه على الأرض ثم تلاه سكوت حسب بعده ان الرصاصة قد أصابته وانه قد سقط قتيلاً .

أما باكارا فانها ذعرت ذعراً شديداً ، وصاحت صيحة القانط : العله نجا ؟

فقال لها الكونت : إذا كان قد نجا من الرصاص فهو قد قتل أثر سقوطه ،

لأني لا أسمع له حساً

وعند ذلك أقبل الجميع على النافذة علهم يرون شيئاً من آثاره ، فسمعوا صوت مشي أقدامه وعلموا انه فر ، فتراجعوا جميعهم الى القاعة فأخرجت باكارا من صدرها رسائل الفيروزة الى ليون وأطلعت عليها فرناند وهي تقول: أتعرف هذا الخط ؟

فتبينه فرناند وقرأ جميع تلك الرسائل ، وعلم انه كان آلة بيد تلك الفتاة وانه مدين بشرفه وحياته وأمواله لباكارا، وكذلك ليون فإنها لم يعد يعوزهما برهان على الجريمة . فجعلت عند ذلك باكارا تؤنبهما تأنيباً لطيفاً وتذكر كلا منهما بواجباته الزوجية الى غير ذلك من ضروب النصح ، وهما يكادان يذوبان من الخجل والامتنان . فصرفتهما الى منزلها وهي تقول لها . عودا الى ما كنتما فيه من الرغد والهناء وكونا مطمئنين مع نسائكما وبنيكما فان الذي سيسهر على هنائكما ليس له بنون ، وليس في قلبه حب ولا يخطو خطوة إلا في سبيل خيركما .

فذهب الزوجان الى منزليهما وقد نسيا ذلك الحب الشائن القديم وحملت الفيروزة الى مستشفى المجانين وعادت باكارا مع الكونت ارتوف الى منزلها وهي مشتتة البال قانطة الفؤاد لإفلات أندريا من قبضتها .

أما أندريا فانه عندما القى بنفسه من النافذة سقط على ارض كثيرة العشب فلم يصب بأذى ونهض فهرول مسرعاً الى باب الحديقة فألفاه مقفلاً ، فالتفت الى نوافذ المنزل ليرى من حركة أنواره إذا كانوا يطاردونه ، فرأى ان الأنوار لا تزال في قاعة الاستقبال وعلم انهم تيقنوا من فراره وقنطوا من لحاقه فتسلق جدار الحديقة وسقط منه الى الشارع ثم مشى قليلاً حتى لقي مركبة فركب فيها وذهب الى روكامبول .

وكانت علائم القنوط بادية في وجهه ، فلما رآه روكامبول ذعر وقال له : ماذا دهاك ؟

- لقد فشلت وانا قادم فاراً من الموت ولم يكن بيني وبينه إلا لحظة .

ثم أخبره بجميع ما كان من خسارته للمليونين بعد ان وصلا الى يـــده ، وكيف ان فرناند قد نجا من الموت ، وليــون سلم من تبعة القتــل ، إلى غير ذلك ممــا عرفه القراء فأجفل روكامبــول وقال له : العل باكارا قــد عرفت من أنت ؟

- لا أعلم . فإن هذه المرأة أصبحت لدي سراً من الأسرار والذي أراه أن جميع مساعينا ستخفق بسببها اذا لم تسرع الى إهلاكها فإنها تتصدى لنا في كل سبيل وما راعني غير إنقاذها لفرناند .

فهز روكامبول رأسه وقــال : أراك تأسف لنجاة فرناند فـوق أسفك لفقد ملايينه .

- هو الحق ما تقول ، إني أكرهه كرهاً شديداً لا أحفل بعده بالملايين .

- إنك رئيس جمعيتنا فلا حق لي ان أعترضك في أمر ، ولكني لا اجد بدأ من القول انك قد تماديت في الرغبة بالانتقام حتى إنك بت تؤثره على مصلحتنا ولا أنكر ان الانتقام مسرة الآلهة ، غير أن الآلهة من أهل الخلود ولديهم فسحة من الأجل يستطيعون معها بلوغ الانتقام وغيره من أغراض النفوس ، خلافاً للانسان ، فان مجال العمر لديه أقصر من ان يصرفه لغرض واحد ولقد خلقت كونتاً وربيت في أكتاف النعمة فلم تمد تكاثرث للمال ، أما أنا فلا أكتمك ان اسمي ولقبي عارية وإني لا أخدمك وأعرض نفسي للأخطار إلا كي أظفر بغنم أعيش بعده آمنـــاً شر الفقر ونكد الأيام . ولكننا لا نــكاد نظفر بغنيمة حتى يعرض لنا انتقامك فنخيب فيها ، مثال ذلك ما جرى مع فرناند ، فإنك لو لم تدخل ليون في روايته وتشركه في حب الفيروزة لما تنبهت لنا باكارا .

وكان اندريا يصغي اليه حتى أتم حديثه فقال له ببرود : لقد طالما قلت لك إنك لا تزال صبياً لا تدرك شيئاً من خفايا الصناعة ولا تصلح إلا ان تكون

آلة صماء .

فكبر هذا القول على روكامبول وقال كيف ذلك ؟

إنك لو تدبرت الأمر لعلمت ان جميع مـــا دبرته من المكائد لم يكن الغرض منه إلا المال اولاً ثم الانتقام ثانياً . أضرب لك مثالاً على ذلك نفس حادثة فرناند ، فإننا لا نستطيع سلبه المليونين إلا بتزوير الحوالات المزورة التي لا يمكن قبضها وهو في قيد الحياة لئلا يفتضح أمرهـــا . وإذا كنت أنا وأنت لا نجرأ على قتله فلم أجد بداً من إغواء مزاحم له في غرامه على هذا القتل أفأكون مخطئاً إذا وضعت الخنجر بيد ليون وجمعت بين المال والانتقام ؟ ثم انك لو تمعنت قليلاً لوجدت اننا نمثل الآن ثلاثة أدوار يبدو لك من بعضها ظواهر الانتقام المحض ، أما الغرض منها في الحقيقة فهو المال . أما الأول فهو دور فرناند ، وقد مضى البرهان عليه . وأما الثاني فهو دور الفتاة الهندية وهو مالي بحت . وأما الثالث فهو دور أخي أرمان فإني لا أريد قتله والزواج بأرملته لمجرد الانتقام والشغف بامرأته ، بل لأستـــأثر بملايينه من بعده . والآن فإني أرجو ان تكتفي بما ذكرته لك من الأدلة ، ولنعد إلى حديث الأشغال .

فأطرق روكامبول واجماً وقال : ليكن ما تريد .

– لنبدأ ببا كارا فإني أصبحت أخافها وأرى انه لم يعد بد من قتلها .

– لنقتلها ولكن كيف تريد ان يكون هذا القتل بالخنجر أم بالخنق ؟

– لا هذا ولا ذاك إذ لا سبيل لنا اليها ، فان جميع خدمها مخلصون لها . وفوق ذلك فان قتلها وقتل المركيزة ينبه أنظار الشرع الينا ، بل إننا نقتلها بالسم الذي أحضرناه من البلاد الأميركية ، وهو سم غريب لا نعلم من خواصه سوى انه يميت كسواه من السموم ، ولكنه يقتل بالشم وباللمس وبالذوق ، ومن غرائب أمره انه إذا شربه المرء أو شمه او لمسه تحدث له على الفور نشأة كنشأة السكر وينطلق لسانه بمكنونات فؤاده ، فلا يكتم سراً من أسراره ثم

يفاجئه الموت العاجل دون ان تبدو عليه آثار التسمم .

- إنه فكر حسن ، ولكن كيف السبيل الى تسميم باكارا به ، وليس لنا اتصال بها ؟

- بواسطة شاروبيم ، ألم تقل لي انه يذهب اليها في كل ليلة ؟

- هو ذاك ، إن شاروبيم لا يروق له قتلها لأنه يخسر الرهان بموتها وما يطمع به من كسب الرهان .

- لكننا نضع في يده هذا السم دون ان يعلم ما يحمل وذلك انك تلبس في يديك قفازين من الجلد الثخين وتضع على وجهك حجاباً من زجاج كي لا تلمس السم ولا تشمه ، ثم تأخذ قطرة من هذا السم وتضعها في زجاجة من العطر الفاخر . وبعد أن تختمها تدفعها الى شاروبيم وتقول له : خذ هذه الزجاجة واهدها الى باكارا فانها اذا تنشقت رائحتها المنعشة هاجت فيها عواطف الحنان وبلغت من حبها لك ما تريد فان لهذا العطر خاصة في إثارة العواطف النفسانية يدفعها الى الحنو .

فأظهر روكامبول سروره وقال : إنها خير طريقة للانتقام من باكارا والاطلاع على أسرارها .

- سأرسل لك السم بعد ساعة والآن فاصغ إلي كي أخبرك بما يجب صنعه بشأن الهندية .

وخلا به فاختط له خطة هائلة سنقف على تفاصيلها في ما سيجيء .

- ٤٤ -

وفي اليوم التالي بينا كان شاروبيم مقيماً في منزله ، وردت عليه رسالة مكتوبة بخط نسائي فما شكك انها من باكارا ، وفتحها فاذا هي تدعوه الى

الحضور الى منزلها عند منتصف الليل غير انها لم توقع على الرسالة فلم يكترث لذلك وجعل يبني صروح الآمال ويعلل نفسه بكسب الرهان وقبض النصف مليون وفيما هو على ذلك إذ دخل عليه روكامبول وقال : أبشر فسنظفر بالخمسة ملايين وتأخذ النصيب الأوفر .

– كيف ذلك ؟

– إجلس على مائدة الكتابة واكتب ما أمليه عليك الى المركيزة.

فلم يسع شاروبيم الا الامتثال ، فأخذ القلم بيده ، وأملى عليه روكامبول ما يأتي :

« سيدتي

« أعلم إني لا أخطر لك في بال ، ولكني أجسر على الكتابة اليك لأن ما التمسه منك يتعلق عليه نعيمي وحياتي فلا أخالك ترفضين طلبي ، وقد جبلت على اللطف ومكارم الأخلاق ، وأشبهت الملائكة في كل شيء . على اني أكتب اليك هذه السطور بيد ترتجف لأني تجرأت على الكتابة اليك ، كما تجرأت على ان أرفع عيني الى وجهك المشرق بنور الفضيلة والشرف .

« ولقد قلت ان هذا الكتاب تتعلق عليه حياتي ونعيمي على اني لا أريد بها نعيمي وحياتي خاصة ، فقد سئمت الحياة ويئست من كل نعيم بعد ان عولت على ان أهيم على وجهي ، ولكني أريد بهما حياة ونعيم من لا نصير لها في هذا العالم إلاي .

« وأنا مسافر غداً الى الهند سفرة لا أوبة بعدها ورجائي ان تمني علي بمقابلة أخبرك فيها بشأن هذه الأم المنكودة وعسى ألا أخيب » .

ولما فرغ شاروبيم من الكتابة قال : أتظن أن هذا الكتاب يقنعها ويحملها على مقابلتي ؟

– ذلك لا ريب فيه .

– وماذا تريد ان أحدثها عن أمي وانا لا أم لي ؟

– لا يجب ان تحدثها عنها بشيء ، فان هذه المقابلة ستكون في منزل الأرملة مالاسيس وهي تكون غائبة عن المنزل . فمتى قدمت المركيزة تجثو أمامها وتكلمها بلهجة محب سعيد في غرامها منذ عهد بعيد ، وقد بلغ في حبها أقصى ما يرجو ، الى غير ذلك من الأقوال الدالة على تمكن الحب بينكما .

فاعترض عليه شاروبيم وقال : كيف أستطيع ان اذكر أمامها مثل هذه الأقوال فانها توقفني بنظرة عند حدي ؟

– إنها لا تجد وقتاً فسيحاً فانك عند اول جملة تقولها تخرج رصاصة من مسدس المركيز فتخرق صدرها .

فأجفل شاروبيم وقال : العلك تطمئني بذلك ؟

– لا تخش فان رصاصة المركيز لا تخطىء وهو من مشاهير الرماة .

– ولكنه إذا قتلها فلا بد له من قتلي بعدها .

– كلا ، فلقد أقسم ان لا يقتل سوى امرأته وان لا يتعرض بسوء لسواها إذ انه يرى ان الذنب في تلك الجرائم لا يجب ان تلقى تبعته إلا على المرأة فانها لو أرادت صيانة نفسها لما تجرأ الرجل عليها .

فطاب خاطر شاروبيم واطمأن ثم جعلا ينتقلان بالحديث الى ان دفعه روكامبول الى الحديث عن باكارا ، فأخبره عن الرسالة التي وردت اليه وأطلعه عليها فقال له روكامبول . لا شك انها منها وإن تكن خالية من توقيعها وهو ما يدل على انها تحبك حباً أكيداً

– لم يعد لدي ريب بحبها بعد ان أكرهتني على الرجوع عن الرهان ، فانها أرادت بذلك ان تستبقيني لحبها لي وان تستبقي الكونت الروسي لطمعها بأمواله وهي لا تعلم اني جددت الرهان بالسر ، إلا ان الذي يسوءني منها انها لا تزال واقفة معي في مواقف المتردد .

– أأنت واثق من انها تهواك ؟

لا ريب عندي ، ولكني أخشى ان يطول ترددها فينقضي الأجل

المفروض بيني وبين الكونت وأخسر الرهان ، وليس بعد خسارته كما تعلم ، سوى الموت .

فأخرج روكامبول زجاجة العطر المسموم من جيبه وقال : إني سأخدمك أجل خدمة ، فانظر الى هذه الزجاجة العطرية فان من يفض ختمها ويشم رائحة عطرها تهيج منه مكامن الغرام ويندفع في القول الى ان يبوح بجميع ما في فؤاده من الأسرار . فخذها اليها فانها من العطور الشهيرة وستقبلها منك راضية شاكرة ، وقبل ان تدفعها اليها أخبر الكونت انك واثق من كسب الرهان ، فاتفق معه على ان يسمع حديثكما في غرفة مجاورة ، حتى إذا خلوت بها وهو مختبيء بجواركما أعطيتها الزجاجة ، فتفضها وتشمها وعند ذلك تبوح لك بغرامها وسائر مكنونات صدرها فتبلغ منها ومن الكونت ما تريد . إنما يجب عليك ان تحذر من ان تشم ذلك العطر لئلا تحدث لك نشأته فتبوح بأسرارنا .

فسر شاروبيم سروراً عظيماً لهذه الهدية النفيسة وأخذ الزجاجة من روكامبول شاكراً ثم خرج الاثنان يتنزهان في غابات بولونيا .

- ٤٥ -

ولما كان المساء ، ذهب شاروبيم الى النادي الذي يقيم فيه الكونت الروسي ، فخلا به وقال له : أتذكر ، يا سيدي الكونت ، الرهان المعقود بيننا ؟

— أذكره ولا أنساه .

- إنما أردت تذكيرك به لاعتقادي اني كسبته .

فقال له الكونت بسكينة : إني أهنئك بفوزك ، ولكني لا أقنع

إلا بالبرهان .

- إذا كنت تعرف خط باكارا فاقرأ هذا الكتاب .

ثم أعطاه الرسالة التي وردت اليه في الصباح ، فأخذها الكونت وتلاها ثم ردها اليه وهو يقول : إنك مخطىء فليس الخط خطها .

- ربما كنت مخطئاً ولكن الرسالة اذا لم تكن من خطها فهي من إملائها . وفي كل حال فقد كسبت الرهان

فقال الكونت ان هذا البرهان غير كاف ولا يسعني الاقتناع إلا حين أسمعها تقول لك : أحبك .

فذكر شاروبيم ما أوصاه به روكامبول ، وقال له : إن هذا سهل ميسور وذلك انك تزورها في هذه الليلة ثم توهمها انك انصرفت ، وتعود فتختبىء في الغرفة المجاورة للقاعة أو المجاورة للغرفة التي تكون فيها ، وليس ذلك عليك بعزيز فانك قادر على شراء الخدم بالمال ، فاذا قبلت بهذا الشرط فاحضر الليلة .

- رضيت وموعدنا هذه الليلة .

- لا تنس ان تصحب معك المال

فأجابه باسماً وسأصحب المسدس أيضاً

فانحنى شاروبيم مسلماً وقال : لقد أصبت فلا نعلم لمن يكون النصر .

ثم افترقا فدخل شاروبيم الى قاعة اللعب ، وذهب الكونت الى باكارا ثم اجتمع شاروبيم بروكامبول ، وأخبره بما جرى بينه وبين الكونت الروسي . وعند منتصف الليل ، وقد دنا موعد اجتماعه بباكارا برح النادي وذهب اليها .

وكانت باكارا قبل ذلك بساعة مختلية مع الكونت ارتوف ، فكانت تقول له إني لم أكن أثق بالتنويم المغناطيسي فبات لي الآن به ثقة شديدة ، وذلك لأني قد وقفت به على أسرار غريبة بفضل تلك الفتاة اليهودية التي القتها

الصدفة بين يدي . فإني علمت منها منذ خمسة ايام ان شاروبيم قد ذهب اليك وفارضك بأمر تجديد الرهان ، ولولاها ما تمكنت من إنقاذ ليون وفرناند ، الذي طالما أحببته . ولا بد ان تكون قد علمت الآن لماذا حكمت على شاروبيم منذ اول يوم لقيته فيه بأنه رجل خائن لا يستأهل الاشفاق . والآن فاني غير مستائة من هذا الرجل لأنه قد راهن علي فان ماضي حياتي يستوجب مثل هذه الاهانة إلا انني علمت من هذا التنويم انه يطارد امرأة شريفة وانه لا بد له من إعدامها إذا لم أتداركه ، إلا اني لا أعلم شيئاً من قصده وهو ما أذوب تلهفاً لمعرفته ولا بد من معرفته مهما كلفني الأمر .

– إطمئني فسنقف على حقيقة هذا السر .

– إن ذلك لا يتيسر لنا إلا اذا حملناه على شراء حياته .

. هو الحق ما تقولين و سنرى في شأنه لكني التمس منك إجابتي الى سؤال وهو ان تخبريني عن الرجل الذي نجا من قبضتنا امس .

فتنهدت باكارا وقالت إنه رسول جهنم على الأرض ، وعنـــدي انه هو الذي يدير جميع هذه الفتن والدسائس . ولكني لم أجد سبيلاً إلى إظهاره فانه يبالغ في الخفاء والتنكر الى حد يستحيل معه على الأبالسة نفسها أن تعرفه . وإنما كتمت أمره لأني لو بحت بسره لما صدقني اخوه ولا أحد من الناس فقد اشتهر بتوبته الكاذبة ، وبالغ بالمظاهرة في التزهـد والتقشف ، حتى بات يحسبه الجميع انه مثال التقوى والصلاح ، وما هو بالحقيقة غـير شيطان بزي إنسان .

ثم جعلت تقص عليه جميع ما مر بنا من أحاديث أندريا في روايتنا الأولى الى ان أتت على ذكر جميع مكائده فذعر الكونت وقال : أأنت واثقة من ان أسيرنا بالأمس كان هو بعينه ؟

– كل الثقة ، فانه يتنكر على جميع الناس دوني لأني أعرفه من عينيه ولو بقي في قبضتنا أمس لذهبت به مكبلاً الى أخيه ، وجعلته يعترف أمامه

بتوبته الكاذبة .

- لا تيأسي من الظفر به ، فان الأيام بيننا ولا بد لنا من القبض عليه متلبساً بجناية من الجنايات ، فنحمله على الاعتراف بجرائمه كرهاً ، ونريح أخاه من مكره .

وفيما هما على ذلك إذ دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، وكان الكونت قد أخبرها بما دار بينه وبين شاروبيم ، فدفعته الى الغرفة المجاورة وقد سمعت وقع أقدام شاروبيم على السلم وقالت : هوذا قد أتى . فاختبىء الى أن ترى ما يكون؟

وبعد لحظة طرق الباب ودخل شاروبيم فتظاهرت باكارا بالاندهال لرؤياه وقالت باسمة . كيف تزورني دون اذني ؟

فاختلج فؤاد شاروبيم وخطر في باله ذلك الكتاب وقد خشي ان يكون الكونت قد زوره ليعبث به ويظفر بالرهان دونه . ولكنه تجلد ودنا باسماً من باكارا فقبل يدها وهو يقول العلي عصيت أوامرك ؟

- نعم ، ألم أقل لك أول امس اني لا أريد ان تزورني قبل ثلاثة أيام فكيف زرتني قبل انقضاء هذا الأجل ؟

فجلس شاروبيم أمامها وقال : ما أجملك بهذا التصنع والتكلف ؟

- أأنا أتكلف ؟

- نعم اليس هذا الكتاب منك ؟

فأخذت باكارا الرسالة وقالت له بمنتهى السذاجة : ومن كتب اليك هذا الكتاب ؟

- أنت .

- كلا ، فاني لم أخط حرفاً منه .

- ولكنك أمليته

فلم ترد وابتسمت فكان ابتسامها نصف إقرار . فتنهد شاروبيم تنهد الفرح

ووثق في الحال من كسب الرهان . وعند ذلك خطرت في باله زجاجة العطر التي أعطاه إياها روكامبول فأخرجها من جيبه وقال أسألك ان تأذني لي بتقديم هذه الهدية العطرية فانها من خير العطور النادرة .

فأخذتها باكارا وجعلت تقلبها بين يديها على نور المصباح ثم قالت له : ما عسى ان يكون هذا العطر ؟

– هو عطر هندي ذو رائحة عجيبة يندر وجود مثلها في هذه البلاد .

فداخل الريب باكارا في أمر هذا العطر وخشيت ان يكون منوماً بل انها تمادت في ظنونها وحسبته سماً زعافاً ، لأن خيال أندريا قد تمثل لها في تلك الساعة . ولكنها كتمت ما أوجسته ، ثم نهضت كأنها تحاول فتحها وجعلت تبحث عن آلة تفتحها بها ، فلم تجد فقالت : أتأذن لي هنيهة ريثما أفتحها وأعود اليك .

ثم خرجت بها إلى حيث يختبىء الكونت فأومأت اليه بيدها ان يتبعها وذهبت به الى الغرفة التي كانت فيها الفتـــاة اليهودية . فأجلستها أمامها ونومتها التنويم المغناطيسي ثم قالت لها : إني آمرك ان تري من يوجد عندي في القاعة .

فقالت الفتاة لفورها : يوجد فيها رجل ينتظرك

– من هو هذا الرجل ؟

– هو الذي يقيم في المنزل المجاور لمنزل الأرملة .

فعلمت باكارا انها تريد بهشاروبيم وعرضت عليها زجاجة العطر وقالت لها . من أعطاني هذه الزجاجة ؟

– هو .

– ما يوجد فيها ؟

فضغطت الفتاة على الزجاجة بيدها ثم أدنتها من جبهتها ولبثت هنيهة تتأمل ثم ردتها مذعورة وهي تقول : إن فيها سماً قاتلاً

- أيقتل في الحال ؟

- كلا ، بل ان من يشربه او يشمه يصيبه ما يصيب السكارى فيبتدىء بإباحة جميع أسراره ثم يحمل يهذو هذياناً شديداً ثم يموت شر ميتة بعد عذاب شديد .

فاكتفت باكارا بما سمعته ثم أيقظتها وقالت لها : إذهبي فنامي نومك الطبيعي .

وخرجت مع الكونت الى الغرفة التي كان مختبئاً فيها وقالت له إبق فيها على حذر وأنا داخلة الى هذا القاتل .

ودخلت الى شاروبيم ولكنها خبأت الزجاجة في صدرها وجلست أمامه على كرسي وقالت له : إذن فقد خدعت وسقطت في الفخ .

وكانت تقول له هذا القول بلهجة المتهكم ، وقد هرب الابتسام من شفتيها فاختلج فؤاد شاروبيم وسألها : أي فخ تعني ؟

- أريد به الرسالة التي قادتك الى هنا إلا اذا كانت من مخترعاتك .

- ألست أنت اذن التي كتبتيها ؟

فقهقهت ضاحكة وقالت لقد بلغت البلاهة منكم معشر الرجال انكم تحسبون ان نظرة واحدة منكم تكفي لافتتان النساء بكم .

- ولكنك ألم تأذني لي بزيارتك ؟

- أتريد ان أكلمك بحرية وجلاء ؟

- لا أحب لدي من هذا .

- إذن فاسمع .. أتعلم لماذا قبلتك في منزلي بدلاً من ان أطردك كما تستحق لتجرأك ومراهنتك علي كما يتراهنون على الجياد ؟ ذلك لانني كنت أعرف عنادك وثقتك من نفسك ، فعلمت انك مائت لا محالة فاذا أصررت على الرهان وأردت إنقاذك من الموت .. أنظر إلي أترى بين ملامحي ما يدل على الشر والتلذذ بقتل الناس ؟ . إن باكارا لا تطيق ان يقتتل رجلان من

أجلها ، ولهذا فقد أذنت لك ان تزورني وبالغت في ملاطفتك كي أحملك على الرجوع عن هذا الرهان الشائن الخطر ، فان الكونت ارتوف يقتلك دون إشفاق لو تم عقد هذا الرهان وكان الفائز فيه ، بل كان ينوب في قتلك عن العدالة ، فانك تجرأت على إهانة إمرأة ليس لها أخ ولا أب ولا زوج يحميها .

فطاش رأس شاروبيم مما سمع وقال : إذن فأنت لا تحبينني ؟

فضحكت ضحك الهازىء وقالت لا شك إنك مجنون .

ثم دفعت يده التي كان يقدمها لها بأشد احتقار . وعند ذلك فتح باب الغرفة المجاورة وطلع منه الكونت ارتوف طلوع القضاة ، فكان كالصاعقة انقضت على رأس شاروبيم فصاح صيحة القانط وجعل يتراجع منذعراً لمرآه حتى استند الى الجدار .

وكان بيد الكونت مسدس فمشى به الى شاروبيم وقال له . اني يا سيدي قد أحضرت معي المال كما طلبت وأحضرت معه هذا المسدس فاستعد للموت حسب الاتفاق فانك لم تفز بقلب باكارا .

- ٤٦ -

قبل هذه الحادثة بساعة كان روكامبول في منزل دايي ناتها الهندية ، فلما رأته أقبل فرحت وقالت : لقد طال غيابكم حتى حسبت أنكم تخليتم عني وغادرتموني أموت بالسم الذي تجرعته ، فانك تعلم انه لا يشفيني منه غير خاتم المركيز .

— إطمئني فسيكون هذا الخاتم لك غداً فاننا اذا لم نشفق على صباك أشفقنا على الملايين التي سنقبضها منك .

فاطمأن قلبها وقالت كيف يكون قتل المركيزة ؟

ـ ستعلمين ذلك متى تم القتل وأصبحت زوجة لابن عمك والآن تفضلي بالجلوس إلى هذه المنضدة كي أملي عليك رسالة إلى ابن عمك المركيز وامتثلت له وأملى عليها ما يأتي :

« أحضر الي أيها الصديق في الساعة السابعة من المساء لأخبرك بالأسف الشديد كيف اني وفيت بوعدي ولأطلعك على الحقيقة التي تعلم منها صدق أقوالي السابقة بالبرهان وتعلم أين تجد الخائنين »

ثم وقعت على الرسالة ودفعتها الى روكامبول فقبل يدها وطمنها وانصرف وذهب تواً إلى منزل الأرملة ملاسيس واستقبله الخادم فانتير وهو من أعضاء العصابة وأدخله إلى الأرملة

ولم تكن الأرملة تعرفه من قبل ولكنها رأته مرة عند المركيزة في حفلة راقصة فأشارت اليه بالجلوس وهي تظهر استغرابها من هذه الزيارة . فأدرك روكامبول ذلك منها وقال لها : لا تعجبي لزيارتي في هذه الساعة المتأخرة بل اعلمي أن خادمك فانتير من رجالي وفي هذه الاشارة كفاية .

ـ نعم لقد خطر لي هذا الخاطر حين رأيتك .

ـ إذن فاعلمي اني أتيت الآن أسألك قضاء مهمة سيكون جزاؤك عن قضائها زواجك بالدوق .

فاختلجت الأرملة وعلمت ان المهمة خطيرة تعادل الجزاء ثم قالت اني مصغية اليك يا سيدي فقل ما تريد .

ـ أريد أن أملي عليك رسالة للمركيزة فان هوب .

واستعدت الأرملة للكتابة وأملى عليها روكامبول ما يأتي :

« صديقتي العزيزة

« ان شاروبيم يلح بأن يراك في هذا المساء فاحضري الى منزلي في الساعة الثامنة لتعزية هذا العاشق الغيور الذي يتكلم منذ حين إلا بأحاديث السيوف

والمسدسات ولا يزال مصراً على قتل زوجك

فوقفت الأرملة عن الكتابة وقالت ما هذا الذي تمليه علي .

- اكتبي وستعلمين كل شيء .

فامتثلت وعادت إلى الكتابة فأملى عليها روكامبول ما يأتي :

« في الساعة السابعة أبرح المنزل وأطلق سراح فانتير كي يخلو لكما الجو فاحضري في الساعة الثامنة حسب العادة حيث تستقبلك خادمتي فاني وهي تخبر بقدومك الأميركي الجميل » .

فلما انتهت الأرملة من كتابة هذه الرسالة قال لها روكامبول :وقعي عليها.

فكتبت اسمها في ذيلها وهي لا تفهم شيئاً من هذه الألغـــار ، فأخذها روكامبول ووضعها في جيبه ثم قال لها لقد كان يسعك أن ترفضي مطالبنـــا الآن لأن رفضك لها لم يكن يكلفني غير إبطال زواجك بالدوق ، أما الآن وقد أصبحت لنا فلا بد لك من طاعتنا في جميع ما نريد فإن عصياننـــا لا يتوقف عليه ابطال زواجك فقط بل حياتك .

واجفلت منذعرة قائلة : حياتي ؟

–نعم .. فإن المرء لا يعلم متى تأتي ساعته فقد تكونين خارجة في مركبتك فتنكسر وتدوسك دواليبها ، وقد تكونين مارة على الطريق فيدهسك أحـد الفرسان وسوى ذلك من أسباب الموت التي لا تخطر للمرء في بال ولكنها قـد يتفق حدوثها لكل انسان .

وجعل العرق البارد يتصبب من جبهة الأرملة دون أن تجيب بحرف الى أن قال لها روكامبول : لقد انقضى كل شيء وأظن انك تخلصين في طاعتنا.

– نعم ، سأطيعكم فيما تريدون .

وعند ذلك دار بينهما الحديث الآتي وقال روكامبول : أتحبـــين المركيزة حباً شديداً ؟

– نعم ، لقد كانت من خير صديقاتي قبل اليوم وقد جعلتموها من أعدائي .

- حسناً فعلنا وذلك لخيرك ؟

فانذهلت وقالت : كيف ذلك ؟

- ذلك لأنك إذا فقدتيها يكون حزنك عليها ضعيفاً .

- كيف أفقدها العلها مسافرة؟

- نعم . ولكن سفرها في طريق الموت

وأجفلت الأرملة وقالت : رباه ماذا أسمع .

- لا بأس عليك واجلسي الآن لنتحدث فقد يزول عنك الرعب ..

ولا نعلم ما دار بينهما الا انها عندما فارقها روكامبول شيعته بمظاهر الرضى وهي تقول : إلى اللقاء غداً في الساعة السادسة ثم دخلت إلى غرفتها ولبست ثيابها وركبت مركبة وذهبت مسرعة إلى منزل المركيزة .

وكانت المركيزة وحدها في المنزل وذهلت لزيارة الأرملة ولاسيا حين رأت آثار الاضطراب بادية في وجهها الا ان الأرملة أدركت منها ذلك الاستغراب وقالت : اني ما أتيت في هذه الساعة المتأخرة إلا لفرط تأثري مما شاهدت فاني لا أطيق النظر الى الدموع .

- ومن الذي بكى أمامك ايتها الدوق؟

- انه عاشق لا ريب فيه ولكنه لا يبكي فإن الشيوخ تنضب الدموع من عيونهم ولا يبكي الا الشبان .

- إذن فمن هذا الشاب ؟

- اصغي الي أيتها الصديقة فاني اتيت لالتمس منك إجراء عمل خيري .

- قولي ما تشائين لقد شغلت بالي .

- ان هذا الشاب الذي تكلمت عنه سيبرح فرنسا غداً ويفارقها فراقاً أبدياً بل فراق رجل قنط من الحياة وأراد ان ينسى أحزانه وأشجانه في البلاد النائية فأتى وانطرح على أقدامي .

واختلج فؤاد المركيزة وعلمت انها تريد شاروبيم ولكنها لبثت صامتـــة

فقالت الأرملة : انك قد علمت لا شك من هو الشاب الجسور والجبان في وقت واحد وهو رجل يحبك حباً شديداً منذ عهد بعيد ولكنه ما زال يكتم هذا الحب في صدره حتى كاد يفتك به وقد تجرأ أخيراً فباح لك بشيء من هذا الحب فانذهلت المركيزة وقالت لها : أتعرفين هذا ؟

- نعم فلقد باح لي بكل شيء

فأطرقت المركيزة برأسها الى الأرض وعادت الأرملة فقالت : ان هذا الرجل التعس بل هذا الرجل القانط قد بعثني اليك الآن وغادرته يبكي بكاء الأطفال .

نظرت اليها المركيزة نظرة المستغرب وقالت: لا شك ان دموعه قد أثرت عليك تأثيراً شديداً حتى انك أتيت إلي بمثل هذه المهمة فلقد نسيت كما يظهر ان لي زوجاً وان كل نظرة او كلمة من رجل آخر تكون اهانة لهذا الزوج .

فاستدركت الأرملة وقالت لقد أسأت بي ظنك أيتها الصديقة فأني ما أتيت اليك من أجله بل من أجل امه ثم أخرجت من جيبها الكتاب الذي أملاه روكامبول على شاروبيم كما يذكر القراء وقالت لها اقرأي .

قرأته المركيزة وكانت تظهر ملامح التأثر بين وجهها حين تلاوته فلما أتمت قراءته قالت : ليكن ما تريدين وسأذهب غداً الى لقائه في منزلك ، فقبلتها الأرملة شاكرة وأقامت عندها هنيهة ثم انصرفت فلقيها روكامبول واخبرته ان المركيزة ستحضر في الأجل المضروب .

وفي اليوم الثاني وردت رسالة الهندية الى المركيز وهي الرسالة التي أملاها عليها روكامبول ومآلها انها تدعو المركيز اليها لاطلاعه على البرهان فعادت اليه الهواجس وحاول مراراً ان يدخل الى امرأته فيحملها بالكره على الاقرار غير انه ذكر اليمين التي أقسمها لابنة عمه وهي ان لا يبوح لامرأته بشيء فرجع عن غيه وكانت الغيرة تنهشه وتعض فؤاده بأنيابها حتى لم يعد يطق صبراً على احتمال حالته الشديدة .

وقد خطر له انه اذا ثبتت الجريمة على امرأته وقتلها يقتل نفسه أيضاً ثم تذكر انه اقسم لأبنة عمه انه يتزوجها بعد قتل امرأته ولكنه قال في نفسه ، ان الموت يحل من كل عهد فعزم على الانتحار الأكيد ودخل الى غرفته فكتب وصيته موصياً بجميع امواله للفقراء ، ثم ختمها ووضعها في درج ونادى أقدم الخدم عنده وقال له : يوجد في هذا الدرج أوراق مالية قيمتها ٥٠ الف فرنك وكتاب مختوم فاذا غبت عن باريس او اذا مت فانك تأخذ المال لك وتأخذ الكتاب الى المسجل ولكني اسألك ان تكتم السر فاننا لا نعلم ما يكون .

ثم أعطاه مفتاح الدرج وانصرف ذاهباً الى ابنة عمه الهندية كي يسمع منها ذلك البرهان .

وكان روكامبول وفانتير خادم الأرملة عند الهندية حين قدوم المركيز فلما علمت الهندية بقدومه قالت لروكامبول : هوذا المركيز قد قدم فهل نحن متأهبون لكل شيء ؟

ـ نعم ، استقبلي المركيز وأنا ذاهب فلا أعود اليك إلا في الساعة العاشرة وسيبقى خادم الأرملة عندك كي يدل المركيز على المنزل ، ثم تركها وانصرف فأمرت الهندية خادم الأرملة ان يدخل المركيز الى قاعة الاستقبال فامتثل .

ولما دخل المركيز ذهل لمرآى ابنة عمه ولشحوب وجهها وكأنها علمت سبب انذهاله فقالت باسمة : ان ما تراه من الشحوب في وجهي هو من آثار السم فمد المركيز يده وأراها الخاتم في أصبعه وقال : اذا كنت قد قلت الحقيقة فان شفاءك بهذا الخاتم .

ـ اني أؤيد قولي بالبرهان

فاقترب المركيز وقال : هاتي برهانك ان كنت صادقة !

ـ أتعرف ذلك الشاب الجميل الذي يلقب بشاروبيم لفرط جماله ؟

فاجفل المركيز وتذكر انه رآه مرة يلاطف امرأته في قصره وقال : نعم أعرفه .

- انه هو الذي أعنيه وان امرأتك لم تخنك إلا من أجل هواه .
واشتد غضب المركيز وقال : البرهان البرهان .
- انه يقيم في منزل مجاور لمنزل الأرملة ملاسيس صديقة امرأتك الحميمة ، وقد جرح مرة في مبارزة وكانت إمرأتك تزوره في كل يوم .
واعاد المركيز قوله بصوت يتهدج من الغضب : البرهان . البرهان .
- أصبر ستعلم كل شيء فإن هذه الأرملة واقفة على سر العاشقين وان المركيزة كانت تحسب انها في مأمن من انتشار هذا السر واصبر أيضاً فسأعطيك برهاناً آخر . ثم قرعت بجرس كان على الطاولة ، فدخل فانتير في الحال .
وقالت الهندية للمركيز حين دخوله : هوذا خادم الأرملة .
ونظر المركيز اليه نظرة احتقار وقال لابنة عمه . ما حاجتي بهذا الرجل ؟
- انه الرجل الذي يخبرك بأنه رأى امرأتك عند الأرملة وانها كانت تجتمع في منزلها بشاروبيم ..
فزاد احتقار المركيز وقال ليس هذا بالبرهان ولا أتدانى لسماع شهادة خادم يتهم امرأتي .
وابتسمت عند ذلك الهندية ابتساماً هائلا وأخرجت من صدرها رسالة ، وهي الرسالة التي أملاها روكامبول على الأرملة وخلاصتها ان الأرملة تدعو المركيزة إلى الاسراع للقاء شاروبيم الذي تهواه قبل أن تحمله الغيرة على الفتك بزوجها .
ولما قرأها المركيز قالت له الهندية أتشكك بعد ذلك فيما أقول ؟
- نعم .. لا اقتنع إلا إذا رأيت الاثنين مجتمعين .
- إذاً اتبع هذا الرجل إلى منزل الأرملة الآن تجد شاروبيم جاثياً أمام امرأتك وقد خلا المنزل ولم يبق فيه سواهما .
- إذن لقد دنا زمن العقاب والانتقام .
وصاحت الهندية عند ذلك متألمة من تأثير السم وقالت : اسرع أيها الحبيب

إني سأموت .

فقام المركيز وأخرج الخاتم من أصبعه ودفعه اليها وهو يقول : إنك اذا كنت صادقة فهذا الخاتم ينقذك من الموت ، واذا كنت كاذبة فإني أعود اليك حيث تموتين بالخنجر لا بالسم . ثم أمر الخادم أن يسير أمامه وقال استغفر ربك على الطريق فإنك إذا كنت كاذباً قتلتك على الأثر .

وخرج الاثنان وركبا مركبة وسارت بهما حتى بلغت منزل الأرملة وقاده الخادم الى غرفة الأرملة وخبأه فيها ولما خرج فانتير من الغرفة لقيته الخادمة فاني على بابها وقالت له على مسمع من المركيز وهي تتجاهل انه موجود في الغرفة أبق هنا إلى أن أعود فاني ذاهبة لإخبار شاروبيم بأن المركيزة آتية .

فاضطرب وزالت كل ريبة لديه من كذب ابنة عمه وعزم على قتل امرأته وعشيقها .

أما فانتير فإنه خرج مسرعاً وهو يقول في نفسه لقد قمت بواجباتي فليقتلها كما يشاء ، وبينما هو خارج لقي مركبة قد وقفت على الباب كأنها تنتظر أن تعود بصاحبتها ميتة خارجة من عالم الأحياء.

- ٤٧ -

ولنعد الآن الى شاروبيم ، لقد تركناه في موقف تهلع له قلوب الجبابرة من الخوف وقد صوب الكونت مسدسه على رأسه وقال له :لقد خسرت الرهان ولا بد لك من الموت ، فجعل شاروبيم يرتجف من الخوف وينظر اليه نظرة المتوسل فقال الكونت : اني أمهلك ثلاث دقائق كي تستغفر الله وتستعد للموت .

وكان شاروبيم قد عاد اليه صوابه في هذه المهلة فقال: لا أنكر اني خسرت الرهان ولكن لا بد لي من ملاحظة أبديها وهي أنه بدلاً من ان تقتلني وتعرض

نفسك لمعاقبة القوانين الفرنسية ، اقتلني تحت ظاهر المبارزة وامـام شاهدين كما اتفقنا من قبل فتبلغ غرضك من قتلي دون أن يعاقبك الشرع ، وذلك أننـا نتبارز بغدارتين أحدهما محشوة وتكون لك والأخرى فارغة وتكون لي.

- أية فائدة لك من ذلك إذا كنت مقتولاً في الحالتين ؟ أما أنا فإني أرضى أن أكون مسؤولاً لدى الشرع .

- ان فائدتي اني أريد أن أموت موت الأشراف في ساحة مبـارزة لا مقتولاً قتل المجرمين .

ولم يجبه لكن باكارا ضحكت ضحكاً عاليـاً ثم قالت : اتتكلم عن الأشراف وأنت لا صلة بينك وبين الشرف .

فنظر اليها نظرة منكرة وقد علم انها هي التي قضت عليه بالموت وليس الكونت ، اما باكارا فلم تحفل به وقالت :ان الشريف لا يبارز سوى الشريف وقد راهنك الكونت حين كان منخدعاً بك منذ أيام ، أما الآن فهو يعلم انك عضو عامل في عصابة لصوص . ثم التفتت الى الكونت قائلة : أيهـا الصديق أقتل هذا الأثيم فإن قتله قد يسر المركيزة فان هوب .

ولما سمع شاروبيم إسم المركيزة علم أن باكارا واقفة على كل الدسيسة وصاح قائلاً : رحماك انني التمس العفو .

أما الكونت فإنه أخرج مسدسه من جيبه وقال : لقد انتهى زمن المهـلة اركع واستعد للموت .

فركع شاروبيم أمام قدمي الكونت وقـال وقد اصطكت أسنانه من الخوف :رحماك يا سيدي الكونت واعف عني فما أنا الا خائن أثيم وانني أستحق ان تحتقرني وتدوسني بقدميك فاحتقرني كما تشاءواصفح عن دمي فانني أفارق هذه البلاد فراق الأبد . ثم جعل يبكي وينظر نظر المستعطف المتوسل الى الكونت والى باكارا، فدنت باكارا عند ذلك منه وقالت : قل أتريد أنتعيش؟

– انني أصنع لك جميع ما تريدين اذا أبقيت على حياتي .

- إذن فإنك تستطيع أن تشتري حياتك بشرطين أحدهما أن تقول لنا أية علاقة لك بالمركيزة فان هوب .

فقال شارويم بفرح : نعم .. نعم اني أقول كل شيء على شرط أن تحميني منهم فإنهم يقتلونني دون ريب .

– من هم الذين يقتلونك ؟

– أعضاء الجمعية السرية ؟

فقالت باكارا : أعلم قبل كل شيء اني واقفة على جميع أسراركم فلا تكتم شيئاً ، وإذا أردت أن تعيش أحيك من هذه العصابة

- نعم يا سيدتي اني أقول كل شيء ، ثم اندفع في القول فباح بجميع ما عرفناه من علائق هذه الجمعية ومحل اجتماع أعضائها وأسماء أولئك الأعضاء وشدة خضوعهم لرئيس مجهول لا يعلم اسمه سوى روكامبول ثم باح لها بجميع ما عهد اليه أن يصنعه مع المركيزة فان هوب والفخ الذي نصب لها وحديث ملايين الهندية إلى غير ذلك مع جميع ما كان يعرفه .

ولما فرغ من كلامه قالت له باكارا : اني أعرف جميع ما ذكرت ولم يبق علي سوى معرفة اسم الرئيس ، ولا يمكن العفو عنك إلا إذا بحت بهذا الاسم

فاستخرط شارويم بالبكاء وقال : اني أقسم بالله العظيم اني لا أعرف اسم الرئيس ، وان الفيكونت دي روكامبول هو الذي يعرف كل شيء .

– حسناً .. سنرى إذا كنت كاذباً .

ونهض شارويم وهو يحسب انه قد نجا فقالت له باكارا : انك لم تنج بعد فإنك لم تنفذ إلا الشرط الأول وقد بقي الشرط الثاني .

- اني مستعد لتنفيذ جميع ما تريدين .

فأخرجت باكارا زجاجة العطر من صدرها وقالت له : ماذا يوجد في هذه الزجاجة ؟

وكان شارويم يعلم من أمرها غير ما لقنه إياه روكامبول فقال لها : إنها

تتضمن عطراً هندياً يهيج الأعصاب .

– أليس فيها سم ؟

– كلا .

– إذن أجربها بك ..

فقبل شاروبيم وهو لا يخطر له في بال أن اندريا قد ملأها من السم النقيع بغية قتل باكارا .

وأعطته باكارا الزجاجة وقالت : فض ختمها وتنشق منهـــا إذا كنت صادقاً ، فإن هياج الأعصاب لا يضر .

وامتثل شاروبيم وفتح الزجاجة ثم جعل يتنشق رائحتها وهو لا يعلم أنه يتنشق الموت ، ولما فرغ من ذلك قـــالت له باكارا : اجلس الآن هنا تحت حراسة الكونت إلى أن أصدر لك أمراً جديداً فإني لا أستطيع إطلاق سراحك لأني أخشى بعد أن بحت بأسرار العصابة بأن تخبرها بمـــا أكرهت على فعله .

ثم خرجت وهي تقول للكونت . احرص عليه أشد الحرص وبرحت منزلها وركبت مركبة وقالت للسائق : اذهب بي إلى قصر المركيزة فان هوب .

وكان الليل قد انتصف فلما بلغت إلى القصر طلبت مقابلة المركيزة .

فقال لها أحد الخدم إنها نائمة يا سيدتي .

– لا بأس أيقظوها فاني قدمت اليها لأمر خطير .

ولم يجد بداً من الامتثال وبعد هنيهة أمرت المركيزة بادخالها اليها .

ودار بينهما حديث طويل أطلعتها باكارا على جميع الدسيسة وعلى جميع ما صنعت لانقاذها إلى آخر ما تعلمه من أسرار هذه المكيدة الهائلة .

. واضطربت المركيزة وقالت لا بدأن يكون المركيز بأشد حالات القنوط

– لا بأس لأنه سيفرح غداً فاني قد ملكت جميع أعضاء هذه العصابة ولم يبق سوى واحد .

ثم مرت يدها على جبهتها كأنها ذكرت امراً وقالت لهـــا : يجب عليك طاعتي في كل شيء إذا أردت السلامة لك ولزوجك ومعاقبة أولئك الأشرار وأول ما ابدأ به هو اني اسألك أن تعطيني ذلك الخاتم الذي يلبسه زوجك كل يوم وهو الخاتم ذو الفص الأزرق.

– لماذا ؟

– انه سر لا أستطيع أن أبوح به الآن .

– انه يخلعه عادة كل ليلة قبل النوم ولكني إذا أخذته فلا بد له من طلبه في الصباح .

– أليس له بين الخواتم الكثيرة خاتم يشبه هذا الخاتم .

– نعم .. اصبري إلى أن أبحث .

ثم تركتها وذهبت تبحث في صندوق الجوهرات الى أن عثرت بخاتم يشبهه أتم الشبه ، فدخلت الى غرفة ملابس المركيز دون أن يشعر بها وأخذت ذلك الخاتم ووضعت مكانه الخاتم الذي يشبهه ثم عادت به إلى باكارا فأعطتها إياه .

فقالت لها باكارا بقي أمر واحد يا سيدتي وهو انه لا بد لك الآن من مغادرة هذا المنزل والذهاب معي إلى منزلي إلى أن اكشف تلك الأسرار في الغد.

ودهشت المركيزة وقالت : كيف أبرح منزلي في منتصف الليل وماذا عسى أن يقول المركيز ؟

– ليقل ما شاء فان حياتك في خطر وذلك أن الهندية لا بـــد أن تقول للمركيز بأنك ستقابلين شاروبيم في الساعة الثامنة من مساء الغد .

– ولكني لا أذهب الى هذا اللقاء المشؤوم .

– لقد أصبت ولكنك لم تعرفي بعد أخلاق الرجال فقد تهيج الغيرة في صدر زوجك فيقتلك قبل أن يقف على البرهان ثم يقتل نفسه كي يستريح .

وارتعدت المركيزة وقالت اذن اني أذهب معك حيث تشائين .

ثم خرجتا وذهبتا الى منزل باكارا دون أن يشعر بها أحـــد غير وصيفة

المركيزة، غير أن المركيزة كانت تثق بهذه الوصيفة فأمرتها أن لا تذكر أمام المركيز شيئاً من زيارة باكارا وأمرت الخادم مثل هذا الأمر قبل انصرافها

وبينما كانت باكارا عند المركيزة ، كان السم قد أثر بشاروبيم فجعل يبوح للكونت أرتوف بجميع أسرار حياته وهو يضحك ويتعب شأن السكارى ودام على ذلك مدة ساعة الى أن باح بجميع مكنونات فؤاده ثم استحال هذا الزهو والسرور الى انقباض شديد عقبه نزاع اليم وصراخ شديد ، لما طال به الأمر حتى سقط صريعاً على الأرض. فعلم الكونت ان الفتاة اليهودية قد صدقت بجميع ما قالت وان الزجاجة لم يكن عطرها غير سم هائل .

فلما عادت باكارا والمركيزة وعلمتا من الكونت ان شاروبيم قد مات من السم قالت باكارا للمركيزة إننا قد صفحنا عن حياته ولكن الله اراد أن يرميه بالفخ الذي كان يريد لي الموت فيه فلنستغفر الله .

ثم ركعتا بالقرب منه وجعلتا تصليان عن نفس هذا الأثيم المنكود

- ٤٨ -

تركنا المركيز فان هوب في الغرفة التي خبأه فيها فانتير خادم الأرملة ، فأقام فيها متربصاً وبيده المسدس لقتل امرأته التي كان هائماً بحبها منذ اثني عشر عاماً ، فكان يحس بالعرق البارد ينصب من جبينه حين يسمع أقل حركة بالقرب منه .

وقد خطر له لفرط ما أصابه من العذاب ، أن يقتل نفسه . ولكنه تراجع عن هذا القصد لاعتقاده انه يخدم امرأته وعشيقها أجلّ خدمة بانتحاره ، إذ تتزوج به بعد موته فهاجت بصدره الغيرة حتى عول على قتل الاثنين .

ودقت الساعة الثامنة ، وهو الأجـل المضروب ، ولم تحضر حتى فرغ صبره ، وعزم على الخروج من مخبأه فسمع ان الباب قد فتح ، ونظر من ثقب باب الغرفـة التي هو فيها ، فرأى امرأة علـم من ملابسها أنهـا خادمة المنزل .

وكانت هذه الخادمة فاني . وقد أدخلها أندريا في خدمة الأرمـلة لأنها كانت منخرطة في سلك العصابة . فجلست تلك الخادمة على كرسي بالقرب من باب الغرفة المختبىء فيها المركيز وجعلت تناجي نفسها بصوت يسمعه المركيز وبلهجة المتأففة المغضبة فتقول اف لهذه الخدمة ما أتعبها وما أكثر مشاقها . فإنه اذا كانت هذه الأرملة تمتهن شر المهن فاني أمتهن ايضاً أشدها تعباً ، وذلك لأني اضطر ان أنتظر على الباب ساعة كل ليلة . وماذا علي الآن إذا ذهبت فان هذه المركيزة قد تعرف ان تدخل وحدها فقد كاد يقتلني البرد .

فأجفل المركيز وعض شفتيه من الغيظ ، لأنه علم أن سر امرأته بات مضغة في فم خادم وخادمة فذهب من فؤاده كل حنو لامرأتـه وعزم على قتلها بفظاعة منكرة وفيا هو على ذلك فتح الباب ودخلت امرأة فقالت : هوذا المركيزة .

ولكنها ما لبثت أن رأتها حتى تراجعت منذعرة الى الوراء ، وكادت تسقط من الخوف .

ونظر المركيز من ثقب الباب وهو يحسب ان الداخـلة كانت المركيزة ، فرأى انها إمرأة حسناء ولكنها غير امرأته . أمـا تلك المرأة فانها كانت باكارا ، فلما دخلت الى الغرفة خلعت رداءها الذي كانت متشحـة به ، وتقدمت من فاني وهي خادمتها القديمة التي خدعتها في المستشفى كما يذكر القراء في الرواية السـابقة ، فقبضت على خناقها وضغطت حتى كادت تخنقها فصاحت صيحة شديدة من الألم فأفلتتها باكارا وقالت لها . إذا أردت النجاة

من الموت فاجلسي أمامي نتحدث

فجلست فاني وهي تضطرب من الخوف وقالت لها ماذا تريدين ؟

– أريد ان أحادثك فقولي ماذا تعملين هنا ؟

- إني أنتظر سيدتي .

- كذبت فان سيدتك قد خرجت من المنزل وهي لا تعود اليه إلا في منتصف الليل .

فعلمت فاني انها واقفة على شيء من السر ، فقالت بل إني أنتظر صديقة لسيدتي .

وقد دار بينهما الحديث الآتي فقالت باكارا :

– ومن هي هذه الصديقة ؟

فترددت فاني عن الجواب ، فأخذت باكارا خنجراً من صدرها وجردته من غمده ثم أدنته من الشمعة الموقدة حتى ظهر بريقه وقالت لها : أتعرفين هذا الخنجر ؟

وحاولت فاني ان تهرب ولكن باكارا قبضت عليها بيد من حديد وأجلستها في مكانها مكرهة ثم قالت قولي من هي هذه الصديقة ؟

– المركيزة فان هوب

– إنتبهي جيداً الى ما ستجيبينني اليه فإني سأسألك كما يسأل القاضي المجرمين وحذار ان تكذبي بحرف .

فعلمت فاني انها تقتلها دون شك فقالت سليني ما تشائين فإني اجيب .

– لقد قلت ان المركيزة فان هوب هي صديقة لسيدتك .

– نعم .

– وهي ستجيء في هذا المساء ؟

– نعم وقد كان حقها ان تحضر الآن

ماذا تأتي لتعمل في هذا المنزل إذا كانت سيدته غائبة عنه ؟

– إنها تأتي اليه لتجتمع فيه بشاب

– من هو هذا الشاب ؟

– هو شاروبيم

– لماذا تريد الاجتماع به ؟

– لأن المركيزة قد وصل اليها كتاب منه وقد أوصلت الأرملة مالاسيس هذا الكتاب اليها أمس .

– ماذا يتضمن هذا الكتاب ؟

– لا أعلم حقيقة فحواه غير ان الذي علمته ان شاروبيم يريد أن يهاجر فرنسا بحيث لا يعود اليها ، وهو يلتمس من المركيزة أن تقابله بحضور الأرملة.

فهزت باكارا الخنجر بيدها وقالت : أتحب المركيزة شاروبيم ؟

فأيقنت فاني من دلائل إنذارها انها واقفة على كل شيء وإنها إذا كذبت أقل كذبة تقتلها دون شك فأجابتها : كلا إنها لا تحبه .

– إذن فما الغرض من قدومها الى هذا المنزل ؟ ثم قالت لها : إحذري من الكذب فليس في هذا المنزل من يشاهدني . بحيث انك اذا كذبت أقتلك دون إشفاق .

– إذن فاعلمي الحقيقة وهي ان سيدتي الأرملة تخدع المركيزة لخدمة شاروبيم ولشاروبيم فائدة من إغواء المركيزة . غير انه لما كانت المركيزة امرأة شريفة فقد حسبوا ...

– من هم الذين حسبوا ؟

– مدام ملاسيس وخادمها فانتير وآخرون .

– قلت لك لا تكتمي أمراً فلا وقت لنا للتردد

ثم هزتها بيدها وأشهرت عليها الخنجر ، فارتاعت فاني وباحت لباكارا بجميع أسرار الدسيسة . إلى ان انتهت من كلامها فأشارت بيدها إلى

الغرفة المختبىء فيها المركيز ، وقالت لها : إن زوجها مختبىء الآن في هذه الغرفة .

وعند ذلك فتح باب الغرفة وبرز منه المركيز وهو أصفر الوجه والدموع تجول في عينيه فتقدمت منه باكارا وقالت له : إن الله يا سيدي أبى ان يعين أهل الشر والفساد ولقد سمعت كل شيء كما ظهر لي فما أنت في حاجة بعد إلى برهان على طهارة إمرأتك وعفافها ، على انك إذا أردت ايضاً برهاناً آخر إتبعني الى حيث انا ذاهبة .

- ٤٩ -

بينما كانت هذه الرواية تمثل في منزل الأرملة كانت رواية أخرى أبلغ منها في التأثر تمثل في منزل الهندية. وذلك انه عندما برح المركيز وفانتير منزلها شعرت الهندية بألم السم فأخذت الخاتم الذي أعطاها إياه المركيز ووضعته في كأس من الماء حتى إذا انحل الفص الذي فيه شربت مزيج الماء وشفيت من أعراض السم .

وقد وضعت الخاتم في الكأس وتشاغلت عنه عشر دقائق الى ان يتم انحلاله ثم عادت ونظرت الى الكأس فرأت ان ماءها لم يتغير ، وان فص الخاتم لا يزال على حاله فخافت وخشيت أن يكون الحجر قد فقد تأثيره لانتقاله من بلاده الى بلاد غريبة أو لتقادم عهده . ولكنها لبثت تنتظره وهي محدقة بماء الكأس حتى مرت بها ساعة وهي في هذا الموقف الشديد دون ان يتغير الماء ، فأدركت انها مائتة لا محالة ونسيت المركيز وغرامها القديم لتعلقها بأهداب الحياة ، ومثل الموت لديها بأقبح الصور ، فصاحت صيحة شديدة وسقطت على مقعد بالقرب منها وقد وهت رجلاها لفرط ما

أصابها من اليأس .

وعند ذلك فتح باب الغرفة التي كانت فيها ودخل منه رجل تصحبه إمرأة مقنعة بقناع كثيف .

وكان هذا الرجل الكونت ارتوف والتي تصحبه المركيزة ، فدهشت الهندية لمرآها أما الكونت فإنه مشى الى المنضدة التي كان عليها الكأس ونظر الى الخاتم فيها ثم التفت الى الهندية وقال لها اليس هذا الخاتم الذي وضعته في الكأس هو الذي تركه لك المركيز ؟

– نعم .

– اليس محاول حجره يشفي من السم الذي شربته ؟

– نعم .

- لقد أخطئت يا سيدتي . فان حجر هذا الخاتم لا تذيبه المياه ولا يشفي السموم فانه جوهرة من الجواهر العادية أعطاك إياها المركيز وهو يحسبه انه ذلك الخاتم الذي أحضره من الهند غير انه أبدل بشبيهه وإذا أردت زيادة في البيان والتفصيل فسلي هذه السيدة تخبرك بكل شيء .

فرفعت المركيزة عند ذلك البرقع عن وجهها وكانت الهندية قد رأتها مرة حين قدومها الى باريس فطبعت صورتها في مخيلتها .

ولا يسع الكاتب وصف ما لقيته هذه الهندية من التأثير حين رأت عدوتها اللدودة . فانها نسيت موقفها الهائل وإنه لم يعد لها نجاة من الموت لاستبدال الخاتم بسواه ، ولم تذكر غير أمر واحد وهو ان هذه المركيزة التي كانت تحسبها في عداد الأموات لا تزال حية ، وانها أتت اليها كي ترى نزعها الأخير وان الدسيسة لم تفلح ، وانها وقعت هي في الشرك الذي نصبته لسواها . فاتقدت عيناها ، وخرج منها شرر الانتقام ، فقالت لعدوتها . إذن لا تزالي حية ؟

فأجابتها المركيزة بلطف . إن الله قد أنقذني وقد أتيت اليك كي أغفر لك

يا سيدتي وأصفح عما أسأت به إلي .

فاضطربت الهندية وقالت : أنت تغفرين لي ؟ إني أؤثر كل الموت على هذا الغفران . ولا شك ان زوجك قد غفر لك جريمتك ، أما أنا فاني أموت ولا أصفح عنك

ثم نظرت الى ما حولها تلتمس خنجراً او آلة قاتلة فلم تجد فأطبقت يدها منذعرة وهجمت عليها تريد تمزيقها بأسنانها ، ولكنها لم تستطع ان تبلغ اليها وهوت من تأثير السم وخرج الزبد من شدقيها .

فدنت منها المركيزة وقالت لها بلهجة حنو : إنك في حالة نزاع أتموتين هكذا دون أن تستغفري الله ؟

فاشتد هياج الهندية وقالت : إني لا أعتقـــد إلا بسيفا إله جهنم ولا التمس منه الا ان يرسل ناره على رأسك ويحيط بك بأبالسته .

فلم تغضب المركيزة لكلامها وقالت لها : انك يا سيدتي في حالة شديدة ولا تؤاخذين فيما تقولين ولكنك اذا كنت تحبين الحياة فقولي كلمة واحدة . قولي انك رجعت عن بغضي والحقد علي فتحيين .

فأجابتها بالشتائم والسباب وقالت : قبحت حياة تكون من عندك .

إلا ان المركيزة لبثت على سكونها ووداعتهـــا فأخرجت من جيبها خاتم المركيز الأصلي المحتوي على ترياق السم وقالت : هوذا شفاؤك في يدي وقد أتيت لأنقذك من الموت .

وكأن هذه الكلمات قد جذبت اليها آمال الحياة ، فحدقت بالمركيزة تحديقاً طويلاً ثم ضحكت ضحكاً عالياً مؤثراً وقالت إذن فإن الترياق معك وحياتي بين يديك .

- نعم وأنا ما أتيت إلا لإنقاذك .

- لقد ذهبت مساعيك عبثاً فانصرفي في شأنك.. اني أؤثر الموت على حياة تدب إلي منك لأني أكرهك وأنفر منك نفور الظلمة من النور.

ثم أنت أنين الموجع فخرج أنينها من صدرها كزئير السباع .

وعند ذلك فتح الباب ودخلت منه باكارا والمركيز ، فلما رأت الهندية ابن عمها قالت له : ألعلك خفت واضطربت يداك .. فرجعت عن قتل هذه الأثيمة ؟

فصاح بها المركيز : أسكتي أيتها الخائنة ، فإنها من الملائكة الأطهار وما أنت إلا رسول جهنم على الأرض .

ثم رجع الى امرأته ، فركع أمامها وقال : إن هذه المرأة قد نمت بك ، ووشت عليك أقبح وشاية ، فاغفري لي إساءة ظني واغفري لها فانها ستموت .

فأكبت المركيزة عليه تعانقه باكية وهي تقول : لقد ظهرت براءتي وعلمت الآن اني جديرة بحمل اسمك الشريف وقد صفحت عن هذه المسيئة الي واليك فاصفح عنها انت ايضاً وانقذها من الموت .

فنهض المركيز وقال : ليكن ما تريدين

ثم أخذ منها الخاتم والقاه في كأس ماء وقال لابنة عمه : هوذا الترياق في الماء فاذا أردت الحياة فالتمسي العفو من تلك المرأة الشريفة التي أردت تدنيسها بوشاياتك .

– كلا ، لا أطلب عفواً ولا أريد مرحمة فالموت خير من الحياة .

ثم جعلت تتقلب على مقعدها وتئن من آلامها أنيناً موجعاً ، والجميع ينظرون اليها مشفقين معجبين من هذا الحقد الدفين . الى ان زادت آلامها عن حد احتمالها وجعلت تصيح صياحاً منكراً وتتلوى تلوي الأفعوان فعاد اليها رشدها وتمثلت لها لذة الحياة وضاق صبرها عن احتمال آلامها فقالت : هات الكأس ... أسقني الترياق

فأسرع المركيز اليها بالكأس وقال : هوذا الكأس . بقي ان تسأليها العفو .

فامتثلت صاغرة والتمست منها العفو ، ثم مدت يدها تريد أخذ الكأس ، فأسرعت باكارا واختطفته من يده وقالت : اذا كانت هذه الفتاة تريد الحياة فلتقل لنا أسماء شركائها بالجريمة الذين أرادت ان تدفع لهم الملايين الخمسة .

فقالت الهندية بصوت خافت من النزع : انهما إثنان .

فقالت باكارا : اذكري اسميهما .

— إن أحدهما يدعى الكونت روكامبول .

فاضطرب المركيز وذكر روكامبول وقال : ان هذا سيموت من يدي .

فقالت باكارا : اذكري اسم الآخر .. اسم الزعيم .

فقالت الهندية ، وقد أطبقت عينيها وخفت صوتها : عرفته .. في نيويورك .

— اذكري اسمه .

وكانت ترجو ان تذكر أمام جميع الحاضرين اسم السير فيليام فيفتضح أمره أمام الشهود وتبلغ منه في إقناع أخيه ما تريد .

ففتحت الهندية فمها لتنطق باسمه ، غير ان صوتها اختنق . فمدت يدها الى الكأس دون ان تستطيع الكلام . فعادت باكارا الى الالحاح بذكر اسمه ومنعت عنها الكأس . فحاولت الهندية ان تذكر الاسم غير ان قواها خانتها فصرخت صرخة منكرة وانقلبت مائتة دون أن تتمكن من الاباحة باسم أندريا ، كأن إله الشر لا يزال باسطاً حمايته عليه .

— ٥٠ —

وبينما كانت الهندية يقطع السم أحشاءها وقد عقدت آمالاً خائبة على خاتم

المركيز ، كان أندريا ملتفاً برداله وواقفاً في زاوية بالقرب من منزل الأرملة متربص ، فخرج الخادم فانتير ومر بالقرب منه دون أن يراه . فعلم اندريا ان المركيز مختبيء بالغرفة وجعل ينظر متوقعاً من حين الى حين أن يسمع دوي مسدس هذا الزوج الغيور .

فمرت الساعة الثامنة والنصف ثم التاسعة دون أن يسمع هـــذا الصوت الذي يكسبه خمسة ملايين . فخطر السوء في باله ، وأول ما تبادر الى ذهنـه باكارا فصبر عدة دقائق أيضاً ثم عول على الدخول الى المنزل ، وذلك بعد ان خرجت منه باكارا والمركيز بزمن وجيز فدخل ولم يجد أحداً ، فجعـــل يجتاز من غرفة الى غرفة حتى بلغ الغرفة التي فيها فاني ، فوجد تلك الخادمـة القديمة في خدمته جالسة على كرسي وهي قد وضعت رأسها بين يديهاوأطرقت إطراق من أصيب بخطب جليل ، ثم رأى خنجراً على مائدة بقربها فوجف فؤاده وأيقن أنه من آثار باكارا فأخذه ودنا من الخادمة فلما رأته فاني حسبت أنه آت لقتلها فانطرحت على قدميه تستجير منه به . أما أندريا فانه قبض على شعرها ووضع الخنجر على عنقها وقال : قولي أين شاروبيم ؟

– إنه لم يحضر .

– وباكارا ؟

– إنها ذهبت مع المركيز .

– إلى أين ؟

– إلى منزل الهندية .

فعلم أندريا انه فقد كل رجاء وان هذه الخادمة قد خانته فطعنها بخنجره طعنةبلغت الى قلبها ثم غادرها مخضبة بدمهاوانطلق وهو يقول: إذا نجوا جميعهم من قبضتي فإن ارمان لا ينجو .

ومشى مشي المفكر المهموم ولكنه بدلاً من ان يفر من أعدائه ذهب للقائهم فتزيا بزي لوبته وانطلق الى منزل الهندية .

ويتذكر القراء ان روكامبول برح منزل الهندية على ان يرجع اليها بعد ساعة فذهب الى النادي وأقام فيه ساعة وهو يحلم بالملايين الى ان حان الموعد المعين فخرج مسروراً عائداً الى منزل الهندية وهو يغني في طريقه غير مكترث بشيء حتى بلغ الى المنزل فدخل دخول الآمن المطمئن ومشى الى الغرفة المقيمة فيها الهندية فدخل وهو لا يخطر له في بال انه يجد فيها هذا الخليط من أعدائه فلما تجاوز عتبة الباب ورأى الهندية ميتة والمركيز وامرأتـــه والكونت وباكارا يحيطون بها علم ان نجمه قد هوى فصاح صيحة المندهش وقالت باكارا : هوذا واحد منهما قد سقط في الشرك .

أما المركيز فإنه دنا منه وقال : اني لا يصدني شيء عن قتلك الآن ولكني لا أريد قتلك إلا بمبارزة فانزل معي الى الحديقة .

غير أنه قبل ان يثوب روكامبول الى رشاده من هول ما رآه وقبل ان يتمكن من إجابة المركيز فتح مصراعا الباب بشدة وانقض رجل منهما انقضاض الصاعقة على روكامبول فطعنه بخنجره في صدره طعنة قوية ألقته على الأرض يتخبط بدمائه وقال ايها اللص اني اطاردك منذ شهر وكل ما عثرت بك تنجو مني ، أما الآن فقد قضي عليك وقضي على هذه الجمعية السرية الهائلة من بعدك إذ لم يعد لها رئيس .

وكان هذا الرجل القاتل المتلبس بالتوبة والصلاح اندريا ذلك الرجل الزاهد الناسك رئيس بوليس أخيه ارمان فلم يبق ريب لدى الحاضرين بصلاحه وصعقت باكارا لخذلانها ولما رأته من جرأة هذا الرجل الذي يعرف أن يبلغ النصر من طرق الفشل والخذلان وقالت في نفسها : لقد انتصر الشر على الخير ايضاً . غير أن باكارا كانت تثق بالله وكان الله معها .

ندخل الآن في القسم الأخير من هذه الرواية الهائلة ولا بد لنا أن ندع بعض أشخاصها للاهتمام بأرمان دي كركاز فنقول :

بعد ثلاثة أشهر مضت على الحوادث المتقدمة كان رجل طريح الفراش في منزل صغير وأمامه إمرأة عجوز تنظر اليه بحنو ، فنظر اليها العليل وقال لها: بأي يوم نحن يا أماه ؟

– في الرابع عشر منه .

– أتعلمين اني طريح هذا الفراش منذ ثلاثة أشهر ؟

– نعم فإن نجاتك من الموت كانت من العجائب الخارقة .

– إن الأبالسة قد أخذت بيدي فإن ساعتي لم تحن بعد ولكني لا أجد بدأ من الخروج للتنزه فقد سئمت العيش في هذا الفراش .

– إن النزهة تفيدك يا بني ، ولكنك لا تستطيع الخروج قبل أن يحضر الرئيس .

– تبأ له من رئيس فلقد كاد يبعث بي الى الدنيا الآخرة ولكنه رجل نابغة وأنا أجد لذة في الامتثال له .

وكان هذا الشاب روكامبول بعينه وتلك العجوز التي يناديها بأمه لم تكن إلا مدام فيبار . وحكايته انه بعد ان طمنه اندريا تلك الطمنة الهائلة سقط على الأرض مغشياً عليه أمام الهندية المائتة ، ثم انصرف جميع من كان في غرفتها وهم الكونت الروسي وباكارا والمركيز والمركيزة واندريا كل في شأنه وخلا المكان للخدم فسرقوا كل ما عثروا عليه من أمتعة الهندية وحليها حتى أنهم جردوا روكامبول من ملابسه فسلبوها أيضاً وفروا بها .

وفي اليوم التالي اتصل الخبر برجال الحكومة ، فأقبلوا الى المنزل ورأوا الهندية مائتة والمنزل مسروقاً ، وروكامبول طريحاً بالقرب من الهندية وفيه

بقية رمق ، ففتشوا جيوبه علهم يجدون بها ما يدل على اسمه ، فلم يجدوا شيئاً فحملوه الى المستشفى وهم يؤملون ان يعلموا حقيقة الأمر بعد ان يعود الى رشده .

غير ان الحقيقة بقيت مكتومة عنهم . فإن روكامبول حين عاد الى رشده اتصل به هذيان الحمى ، فكان كلما أتاه رجال التحقيق يجدونه في هذيانه فلا يعلمون منه أمراً . ولم يكن هذيان روكامبول طبيعياً بل انه كان يتكلفه تكلفاً كي يتنصل من رجال البوليس وذلك لأنه عندما صحا من غشيانه جعل يتذكر ما مضى فذكر انه رأى الهندية مائتة وان أعدائه كانوا محيطين بها . وإن رجلاً هجم عليه وطعنه بخنجر ، ولكنه لا يعرف من هو هذا الرجل ولم يعلم شيئاً سوى ذلك من سر هذه الحكاية ، وما كان من تقول الناس عنه بها الى ان سمع ممرضتين في المستشفى يتباحثان بشأنه وهما تحسبان انه نائم ، فكانت إحداهما تقول للأخرى لا أخال رجال التحقيق يقفون على شيء من أمر هذا الجريح فإنه أصبح دائم الهذيان .

فأدرك روكامبول ان البوليس يترقب ان يصحو كي يستنطقه ويقف على الحقيقة منه فجعل عند ذلك يتكلف الهذيان تكلفاً حذراً من البوليس وهو يتوقع ان يأتيه الفرج من باب يجهله

وطال به العهد حتى يئس الأطباء من شفائه وقنط رجال البوليس من استنطاقه الى أن أتت يوماً إمرأة عجوز الى المستشفى ، وادعت ان الجريح ولدها فأدخلوها اليه ، وكانت هذه العجوز مدام فيبار . فلما دخلت اليه وضغطت على يده وقالت له وهي تعانقه باللغة المتعارفة بينهما : إحذر من ان تخالفني فيما أقول .

ففطن روكامبول للامر وجعل يكلمها بلهجة الولد وتكلمه بلهجة الأم .

واتصل الأمر بالبوليس فأقبل يسأل تلك الأم عن هذا الولد فلفقت لهم حديثاً طويلاً مآله ان ولدها كان خادماً في أحد القصور في الهند ثم اتصل

بفتاة هندية فشغفت به شغفاً شديداً ، وكانت تغار عليه غيرة عجيبة وتتهمه تهمات باطلة وتخاصمه في كل يوم ثم يصطلحان ، فما كان يسعه إلا الامتثال لها لفرط ثروتها إلى ان قالت : وكان آخر عهدي به انه كان مع هذه الهندية في باريس وقد قرأت في إحدى الجرائد ان فتاة هندية وجدت ميتة في منزلها ووجد شاب جريح أمامها فما زلت أبحث عنه حتى علمت انه في هذا المستشفى فأتيت اليه .

فصدقها رجال البوليس لما رأوه من انطباق قصتها على قضية الفتاة ثم حملته من المستشفى الى منزلها وأقامته فيه .

وقد عرف القراء من حديث روكامبول مع مدام فيبار انها كانت تنتظر قدوم اندريا فلم تزل بانتظاره حتى قدم اندريا الى منزلها وكانت المرة الأولى التي رآه بها روكامبول فدار بينهما عتاب طويل تتصل منه أندريا وكانت حجته في طعنته النجلاء أنه رآه محاطاً بأعدائه وانهم لا بد لهم من قتله فسبقهم اليه وهو يرجو بذلك أمرين أحدهما أن لا تكون الطعنة قاضية عليه وثانيهما انه اذا لم يكن له بد من الموت فخير لأندريا ان يموت من يده كي تنتفي عنه تهمة الاشتراك بالجريمة وكي يفيد الشركة في مماته كما كان يفيدها في حياته أما إذا قتله أعداؤه فانه لا يفيد ولا يستفيد .

فاقتنع روكامبول او تظاهر بالاقتناع ، فأطلق اندريا سراح مدام فيبار وأقام مع تلميذه يضع له خطة جديدة شراً من الأولى للفتك بأخيه الكونت أرمان دي كركاز ، فبدأ روكامبول يشكو من حرارة البيت المقيم فيه ، فقال له أندريا . يجب عليك الشكر ، فإن هذا البيت الحقير أخفاك عن عيون با كارا .

وكأن اسم هذه المرأة قد أثار العواصف في فؤاده ، فلمعت عينه بشعاع من الحقد وقال إنها قد انتصرت علي ولكننا لا نزال في بدء المعترك وحقيقة الغلبة لا تكون إلا لمن يفوز الفوز الأخير .

ـ لا شك عندي بفوزك إنما لا بد لك من الاعتراف بأننا فقدنا سبعة ملايين أي ملايين الهندية وفرناند

ـ نعم ولكننا سنغنم ضعفها .

ـ إن هذا محال وليس كسب الملايين بالأمر السهل الميسور .

فلم يتدان أندريا لجوابه بل قال : إنك كنت كونتاً أسوجياً ففقدته أتحب الآن ان تعود الى مثل هذه الألقاب ؟

فابتسم روكامبول وقال الحق اني تعودت على القاب الشرف فلم يعد لي لذة إلا بها .

ـ إذن فإني أمنحك لقب مركيز برازيلي وهو أفضل من لقبك القديم إذ لا بد لك من الترقي لإخلاصك فأنت تدعى منذ اليوم دون ايليجو والمركيز دي لوس مونتس وانك من أسرة عريقة في النسب مقيمة في البرازيل منذ مائة عام ثم انك أسباني الأصل وقد خسر أجدادك ثروتهم في اسبانيا ونال أبوك ثروة نادرة في البرازيل بتجارة المواشي وأنت آت الآن الى باريس لتنفق فيها شيئاً مما جمعه أبوك من الملايين .

ـ لقد رضيت ولكنك اذا منحتني اللقب فكيف لك ان تمنحني المال ونحن قد أنفقنا النصف مليون الذي قبضناه من الهندية .

ـ كن آمناً . إذا نفذت ثروتنا فإن ثروة أخي الكونت لم تنضب بعد .

كيف ذلك أتطلب اليه أن يمدك بالمال ؟

ـ كلا، ولكنه أعطاني أمس مائة الف فرنك كي أنفق منها في سبيل مقاومة الشرور ومساعدة البائسين .

فضحك روكامبول وقال من هم أولئك البائسون ؟

ـ نحن وهذا المال يكفينا ثلاثة أشهر اذ اننا ننفقه باقتصاد فلا نشتري المنازل والأثاث حسب عادتنا بل نستأجرها وبدلاً من ان نقيم في قصر خاص فإنك تقيم في فندق عظيم شأن كبار النزلاء وسأجد لك خادماً اسود يكون من

أتباعك أي اني سأصبغ فانتير فقد أخرجته من خدمة الأرملة ملاسيس ثم اني سأحصل على كتاب توصية بك لأخي العزيز الكونت أرمان كي تستطيع الدخول الى منزله متى شئت بما ينبغي لمقامك من الإكرام لأن جميع أعمالنا ستكون في منزله وسنخص عنايتنا به دون سواه .

وسر روكامبول بهذا المشروع الجديد وقال : لقد أحسنت غاية الاحسان بهذا التخصص .

- أتعلمت ضربة السيف التي أمرتك أن تتمرن عليها ؟

- أتم التمرين ..

- اذهب وتأهب للسفر في الساعة العاشرة الى الهافر وأقم فيها الى أن تصل اليك أوامري .

ثم أعطاه ما يلزمه من المال لهذا السفر فقبضه روكامبول وقال له : بقي أن تقول لي مقدار حصتي من الغنيمة متى قتلت أخاك الكونت ووصلت اليك أمواله؟

- اني أمنحك ايراداً سنوياً قدره ٤٠ الف فرنك وجواز سفر للبلاد الأميركية .

- كيف ذلك أتفارقني متى استغنيت عني ؟

- نعم لقد عولت متى ورثت أخي أن أرث منه كل ما لديه من المال وامرأة وولد حتى عزمت على أن أرث أيضاً طباعه فأصبح من رجال الخير ، ومتى أصبحت صالحاً فأية حاجة لي بلص مثلك ؟

فضحك الاثنان ثم افترقا فذهب اندريا الى منزل أخيه وتزيا روكامبول بزي فقراء العمال وسار الى الهافر كما أمره أندريا

بعد ثمانية أيام مرت على سفر روكامبول عاد الى باريس راكباً مركبة بديعة وقد غير ملامحه فأصبح لون وجهه كلون النحاس وكان جالساً وراء مركبته عبد أسود لم يكن الا فانتير ، فوقفت المركبة على باب أحسن فندق في باريس ، وأسرع فانتير ونادى الخدم باللغة الاسبانية ، وأمرهم أن يحملوا أمتعة سيده الى خير مكان من الفندق .

أما روكامبول فكان أول ما اهتم له انه نادى وكيل الفندق وطلب اليه أن يرسل رسالة أعطاه اياها الى الكونت أرمان دي كركاز وهذا نص الرسالة

« سيدي الكونت

«أسألك المعذرة للخطة التي سأسلكها بازائك لأني لا أعلم اذا كانت تنطبق على المصطلحات الفرنسية ، لقد أتيت من البرازيل الى باريس كي اقيم فيها بضعة اشهر واعطاني صرافي في ريو دي جانيرو حوالات على عميله في الهافر وهو المسيو اربان مورتونت ، فأخبرت هذا العميل اني لم أعرف أحداً في فرنسا فأعطاني كتاب توصية اليك .

« وقد وصلت يا سيدي الكونت الى باريس منذ ساعة فتجرأت على الكتابة اليك ملتمساً أن تؤذن لي بزيارتك كي أسلمك هذا الكتاب »

« المركيز دون اينيجو دي لوس مونتس »

فذهب الرجل بكتاب روكامبول الى ارمان وبعد ساعة أقبل أندريا موفداً من قبل أخيه للسلام على هذا المركيز والأتيان به اليه ثم أخذه وسار به الى قصر ارمان .

ولما كانا على الطريق جعل أندريا يتأمل تلميذه ويعجب بحسن اتقانه

التقليد فقال له كأنك قدخلقت أميراً فانك لا تفرق في ملامحك عن الأمراء.

فأجابه روكامبول : ذلك لأني تخرجت في مدرستك .

— ومما يسرني منك انك أتقنت تقليد أهل البراريل بحيث تجوز الحيلة على ارمان اذ لا يوجد اقل شبه بينك الآن وبينك حين كنت تدعى الكونت كامبول .

— نعم الا اني اخشى ان تعرفني با كارا اذا رأتني .

— لا خوف علينا منها بعد الآن وقد باتت تعد في مصاف القديسين .

— أواثق أنت من ذلك ، ثم اذا كنت واثقاً فهل غفرت لها .

فضحك اندريا ضحك الساخر وقال : كيف اغفر لمن خسرت بسببها سبعة ملايين ، واثني عشر مليوناً أخرى

— اذن فما اعددت لها من العقاب ؟

— اعددت لها عقاباً لا يخطر في بال انسان وسأخبرك عن جميع ذلك متى حان وقت الانتقام ، اما الآن فلا استطيع التفكير الا بأرمان فهل انت واثق من نفسك انك اتقنت ضربة السيف التي امرتك بتعلمها .

— كل الثقة ولكني معجب لأمر وهو انك تعرفني بأخيك وتصادقني معه ثم تأمرني بقتله فلماذا هذه الصداقة اذا كان لا بد بعدها من القتل ؟

ولم يتدان أندريا الى مجاوبته على ما سأل بل قال : اعلم يا حضرة المركيز انك شاب جميل ويجول في عروقك الدم الاسباني اي انك كثير الشهوات ، ثم ان امرأة ارمان دي كركاز شقراء جميلة ، ولا بد اذن للمركيز دي انجـو من ان يحب الكونتس دي كركار ، ثم يجب على هذا المركيز ان يكون نذلاً خسيساً جسوراً مقداماً لا يحفل بفضائل النساء ولا يكاترث لشرف الأرواح ، ويتحتم عليه ان يظهر غرامه لتلك الحسناء .

فأجفل روكامبول وقال : ماذا اسمع وكيف تغريني على حب الكونتس امرأة اخيك وأنت مشغوف بها كما تقول ؟

فتنهد اندريا وقال انك لا تزال غراً أبله ، افلا تعلم ان القصد من ذلك ان اتداخل في الأمر وابارزك فأكون قد دافعت عن شرف امرأة اخي بدمي فيجعل صنمي لدى اخي ولدي امرأته وابلغ منها بعض ما اريد .

فقال روكامبول وكيف اذن تريد ان اقتل اخاك ؟

- انه لا يعلم بأني بارزتك من اجل امرأته الا بعد حين وعندما يعلم ذلك فهو لا يقابلك الا بالحسام . .

وأطرق روكامبول رأسه الى الأرض وقال : لقد اصبت فاني قصير النظر في الأمور والحق انك من النوابغ .

وعند ذلك وصلا الى قصر ارمان فنزلا من المركبة ودخلا اليه .

- ٥٣ -

ولنعد الآن الى باكارا والكونت ارتوف فنقول انه بعد حـــادثة الهندية خلت باكارا بالكونت في منزلها وقالت له : انك تعلم الآن حقيقة ما كنت اسعى اليه ، فلقد اخبرتك كل شيء ولذلك بقيت وحدك غير واثق من توبـــة اندريا دون الجميع .

– ذلك لأنهم لم يروا ما رأيت ولم يعلموا ما علمت من امره .

- نعم فان جرأة هذا الرجل لا تقف عند حـــد وبعد ان قبضت على رفيقه وأوشكت ان اظفر به واحمله على الاقرار باسم رئيسه الأثيم خرج اليه فقتله كي يأمن اقراره ويظهر للحاضرين بمظاهر الصلاح . اما سمعته حين اقبل يعاتبني بعد تلك الطعنة لأني اردت مطاردة الجمعية السرية وحدي دون ان اعتمد عليه ؟

فقال الكونت : اننا اخطأنا منذ البدء فقد كان يجب علي ان اقتله حين

ظفرنا به المرة الأولى .

– نعم .. كنا منعناه عن ارتكاب آثام جديدة .

– أتحسبين أنه يعود إلى الشر بعدما لقيه من أخطاره ؟

– انه فطر عليه وان مر يوم لا يرتكب فيه إثماً لا يعده من أيامه . ثم أن هذا الرجل لا يكترث للمال ولكنه ظمآن للانتقام من أخيه .

– أتحسبين انه يقتله ؟

– يطمع بأكثر من حياته فانه يريد ثروته وامرأته وولده كما فعل أبوه من قبل بأبيه وفوق هذا فانه لا يطيب له خاطر الا بقتلي فقد كشفت دسائسه وحبطت مساعيه مرات كثيرة فهو لا يغفر لي .

– إذن يجب أن يموت .

فابتسمت باكارا وقالت . انك رجل شريف غير انه لا سبيل لنا الى قتله الآن وأخص ما يجب أن أسعى اليه أن ادعه يثق بي ويحسبني واثقة من إخلاصه في توبته وهو ما سأظفر به بعد ساعة

– كيف ذلك ؟

– ذلك انه سيزورني الآن كما أخبرني في رسالة بعثها الي ولا أعلم القصد من هذه الزيارة سوى اني أظن انه يريد سبر غوري للوقوف على حقيقة ظني به وسيلقي كفؤاً له في السياسة فاني سأدعه يخرج مقتنعاً بوثوقي من توبتـه وهو سيحضر قريباً فاختبىء في هذه الغرفة المجاورة حيث تسمع كل ما يدور بيننا من الحديث

ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت الخادمة تخبرها بقدوم أندريا فأمرتها بادخاله وأسرع الكونت الى الاختباء

ودخل أندريا وكان بملابس التوبـة فجلس بالقرب من باكارا ودار بينهما الحديث الآتي فقال أندريا :

– اني أتيت يا سيدتي لاباحثك في أمور خطيرة .

– قل ما تشاء يا سيدي فاني مصغية اليك

– لا بد لي قبل أن أذكر شيئاً من سابق احوالي وأحوالك فلقد كنت من بنات الهوى ثم ارتجعت عن هذا العيش الذميم وعشت عيشة صلاح ، ولقد كنت أشر منك فاني كنت لصاً قاتلاً سفاكاً الا اني عدت أيضاً بالهام من الله مثلك الى التوبة ، ولكني رأيت بين الناس من لم يثق بتوبتي ومنهم أنت ، وذلك انه بينما عهد الي أخي ارمان مطاردة تلك الجمعية السرية الهائلة رأيت من ملامح وجهك ما استدللت منه انك غير واثقة بصدق توبتي .

فأطرقت باكارا بعينيها إلى الأرض إطراق النادم وقـالت : انني اعترف بصحة ما تقول .

- ولقد أثرت بي شكوكك الا انني حسبتها عقاباً لي من الله وعلمت انـه جل جلاله لم يغفر لي بعد ومن يعلم فلقد يكون جال في ظنك ايضاً انني واحد من رجال تلك العصابة الشريرة .

هو ما تقول يا سيدي الفيكونت فلقد ظننت هذا الظن .

ولهذا فلقد طاردت رجال العصابة كما كنت أطاردهم دون انتشركيني بشيء والغريب اننا وصلنا إلى غـــاية واحدة دون أن أعرف الطريق التي سلكت فيها .

– أتريد يا سيدي ان اعترف لك بكل شيء ؟

- تكلمي .

- انك قتلت أمس بخنجرك ذلك الرجل في منزل الهندية فكان خير برهان للحاضرين على صدق توبتك الا انني لا أزال على ريب منك والتمس منك ان تزيل مني هذا الريب ببرهان دامغ فانه يثقل علي .

– ان ظنونك هي يد الله التي تعاقبني على آثامي السابقة فأنا لا أحـاول اقناعك بل انحني صاغراً امام هذه اليد المنتقمة ولا أهرب من عقاب الله .

فتظاهرت باكارا بالتأثر الشديد وقالت رباه ، ماذا أسمع فانك إذا كنت

صادقاً فيما تقول فان الندم على سوء ظني بك سيقتلني لا محالة .

ففرح اندريا فرحاً شديداً دون أن يظهر عليه شيء من آثاره وقال لها إذا حلفتك يميناً أتبرين باليمين ؟

— اني أبر بيميني ولو حلفتها للص اثيم .

إذن فاقسمي لي انك لا تبوحين بالسر الذي سأئتمنك عليه .

. أقسم لك اني لا أبوح بسرك .

— اذن فابحثي في أعماق قلبك الذي نفذت اليه مدة اشعة الغرام الصحيح تعلمين حقيقة السبب في توبتي .

— ماذا اسمع الملك أصبحت من العاشقين ؟

نعم فاني بعد ان فقدت جميع آمالي السابقة شعرت ان قلبي الحجري يحب واني أحب تلك المرأة التي أردت تدنيسها حب احترام لا حد له

ثم أطرق برأسه وقال : هذه المرأة هي امرأة اخي ارمان .

فصاحت باكارا صيحة الندم وقالت : اسألك العفو فلقد زالت الان ظنوني .

ثم ركعت امامه تستغفره عما اساءت اليه من قبل ، ونظر اليها اندريا فرأى دمعة تسيل على خدها فلم يشكك بحسن اعتقادها فتكلف هيئة المنقبض الحزين وقال : لقد علمت الان متاعب هذا الوحش الضاري الذي كاد يفترس الفتاة الوحيدة التي احبها ومقدار ندامته بعد التوبة .

فتنهدت باكارا ومدت يدها اليه وهي تقول : نعم لقد عرفت كل شيء وبقي أن اظهر لك برهاني ايضاً عن ثقتي بتوبتك .

ثم أخرجت مسدساً من جيبها وقالت : انك عندما ارسلت لي كتابك في هذا الصباح تخبرني فيـــه انك تريد زيارتي كنت لا أزال مشككة بك وحسبت انك تريد قتلي فتسلحت بهذا السلاح للدفاع عن نفسي والآن فاني ادفعه اليك دلالة على ثقتي بتوبتك وحسن ظني بك .

فركع اندريا بدوره امامها وشكرها شكراً بالغاً ، ثم بكى أمامها وأسال من عينيه نفس الدمع الكاذب الذي اسالته باكارا من قبل .

ولم يكن حائراً بين الداهيتين غير الكونت ارتوف فانه لم يكن يعلم أيهما أشد في هذه الحرب الشديدة التي كان سلاحها السياسة ولم يعلم أيهما أقنع الآخر أما باكارا فانهـا انهضت اندريا وقالت له : لنبحث الآن بالأمور الجدية فقد وثق كلانا بالآخر ، ولنعد إلى ذكر الحادثة فاذك طعنت الرجل الذي كان يدعى الكونت كامبول بخنجرك ولكنه لم يمت بل نقل الى المستشفى .

- اني أعرف ذلك ولكن حياته وعقله في خطر .

- هو ذاك ولكنه في عنفوان الشباب فقد يتغلب صباه ويشفى مما هو فيه وعندي ان لهذا الأثيم شريكاً بل شركاء في آثامه وانه يجب ان نحمله على الاقرار باسماء شركائه .

- اني أرى رأيك ولا بد لي من مطاردته أين ذهب فان بوليسي رابض على ابواب المستشفى وجواسيسي في داخله يقيدون عليه كل كلمة يقولها فلا تخفى خافية من أمره .

- وأنا سأفعل فعلك .

ثم اتفق الاثنان على ذلك وافترقا فخرج اندريا وهو يعتقد انه خدع باكارا او انه بات في مأمن منها لوثوقها من توبته .

ولما اجتمع الكونت بباكارا قال : لقد عجبت بجميع ما فعلته انما اشكل عليّ أمر لم أعلم قصدك منه .

- ما هو ؟

- كيف خابرته بشأن الجريح وكيف عهدت اليـه مراقبته ونحن نسعى للقبض عليه وابعاده عنه لأنه شريكه ؟

- أني خابرته بشأنه كي تزيد ثقته بي وعهدت اليه مراقبته كي يعودا إلى الاجتماع وكيد المكائد فيتيسر القبض عليهما متلبسين بالخيانـة لا سيا وهو قد

بات لا يخشاني الآن ويحسب ان الجو قد خلا له ، ثم أشركته في البحث عنه كي يتردد على دائماً وهو لا بد فاعل لانه قد توله بحب الفتاة اليهودية التي هي عندي وهي التي تجره إلى افتضاح أمره ولا استطيع ان ازيدك الآن شيئاً على ما قلت على أني أقول لك ان هذا الأثيم لا يفلت هذه المرة من قبضتي .

فاطرق الكونت مسلماً بما تقوله دون ان يجيب .

- ٥٤ -

وكان الكونت أرمان مقيماً في منزله الصيفي خارج باريس وهو منزل جميل تكتنفه الأشجار واقع في قرية صغيرة بمعزل عن المنازل فكان يزوره روكامبول في مصيفه ثلاث مرات في الأسبوع ولقد أعجب الكونت بذكائه وما كان يتكلفه من البساطة في أقواله غاية الأعجاب خلافاً لامرأته فانها كانت تنفر من هذا المركيز الجديد وتوجس منه شراً ولكنها كانت تكتم مخاوفها عن زوجها .

وكان لأندريا غرفة خاصة في هذا المنزل ولكنه كان يبيت اكثر لياليه في باريس ، واتفق ان ارمان اضطر ليلة الى المبيت باريس لدعوة وردت اليه من أحد المحتاجين اليه ولم تكن هذه الدعوة إلا من ابتكار اندريا فكلف الكونت أخاه التائب أن يبيت في المصيف كي لا تبقى امرأته وحدها فامتثل وكان عندها في المساء .

وتمشيا سوية ثم سهرا الى الساعة العاشرة ودخل كل الى غرفته فاخذت زوجة ارمان كتاباً وجعلت تقرأ فيه ، وانسل اندريا من غرفته فخرج من المنزل وجعل يمشي على تلك الرمال حتى أبصر عن بعد شبحاً ماثلاً فقال في نفسه : لا شك انه روكامبول وانه مقيم في المكان الذي عينته له فلما وصل اليه رآه انه هو بعينه فسر به وقال له : يعجبني انك حريص على الأوقات .

– نعم فهل أنت مستعد ؟

أتم الاستعداد فهل حفظت ما علمتك اياه ؟

– طب نفساً فسأقول لها جميع ما علمتني أن أقوله ..

– إذن اتبعني !

ورجع الاثنان إلى منزل الكونت أرمان فسر أندريا حين رأى النور لا يزال في غرفة امرأة أخيه وان باب مشرف الغرفة المطل على الحديقة لا يزال مفتوحاً لاشتداد الحر في تلك الليلة .

وكان في تلك الحديقة شجرة باسقة تتصل أغصانها بذلك المشرف فدله أندريا عليها وقال له : إن طريقك من هذه الشجرة ، والآن فاصبر هنيهة إلى أن أعود إلى غرفتي وبعد ذلك اصنع كما علمتك ..

وتركه أندريا ودخل إلى المنزل فصعد إلى غرفته دون أن يشعر به أحد أما روكامبول فإنه صبر خمس دقائق ثم تسلق هذه الشجرة حتى دنا من مشرف الغرفة ودخل منه إلى الغرفة التي تقيم فيها حنة .

وكانت حنة جالسة على كرسي طويل وبيدها كتاب تطالع فيه وهي تنقطع عن القراءة من حين إلى حين مفتكرة بزوجها أرمان ولما رأت هذا الرجل قد هبط عليها من الشجرة جمد الدم في عروقها من الرعب ثم تبينت انه هو المركيز اينجو فحاولت أن تستغيث ولكن الخوف عقد لسانها فلم تنبس بحرف ولبثت جامدة في مكانها دون عراك .

أما هذا اللص فلم يتأثر لهذا الموقف بل انه انحنى أمامها مسلماً وقال لها : اني التمس عفوك يا سيدتي واعتذر عن دخولي اليك كما دخلت ثم أسألك أن تأذني لي باظهار السبب في هذه الخطة الغريبة التي سلكتها .

فحسبت انه صادق في اعتذاره وانه لا بد من سبب خطير دفعه إلى فعل ما فعل ، الا أنها لم تطمئن لكلامه ولبثت في مكانها لا تستطيع أن تفر ولا ان تستغيث ، ووضع روكامبول يده إلى صدره وقال : سيدتي اني رجل نبيل أعلم

بما يجب على مثلي من الاحترام لمثلك فلا تحكمي عليّ قبل أن تسمعي ما أقول واعلمي اني لم ادخل إلى منزلك في منتصف الليل دخول اللصوص إلا لسبب خطير ودافع عظيم لا يغلب وأنا أجثو أمامك واستحلفك باقدس الأسماء واحبها اليك أن تتمهلي في أمري فلا تطرديني من حضرتك ولاتنادي أحداً من أتباعك قبل أن تسمعي كلامي .

وكان يتكلم بلهجة المستعطف المتوسل وبلهجة احترام شديد انست منه حنة شيئاً من الاطمئنان فحلت عقدة لسانها وقالت له تكلم .

فقال روكامبول : ان الذي سأقوله لك يا سيدتي هو سر دقيق لا يمكن لأحد أن يطلع عليه الآن وقد تعذرعلي الحضور مع زوجك الكونت وخشيت إذ لم أطرق باب منزلك فيهذه الساعة المتأخرة أن يسوء ظن من في المنزل لاسيما ان زوجك غائب عنه . ثم وضع يده على قلبه وقال : ان هذا السر في هذا القلب وقد اوشك ان ينفجر منه إذ لم يعد له طاقة على احتماله .

وكأن حنة قد علمت ما يريد أن يقول فارتجفت اعضاؤها وقالت لهبعظمة وكبرياء : ماذا تريد بهذا القول ؟

ولم يكترث لها روكامبول بل ركع أمامها وقال سيدتي ، اصغي الي ..

أما هي فلم تجد قوة للاستغاثة لما داخلها من الرعب ووقفت جامدة دون حراك كالواقف في ساحة قضاء ينتظر تلاوة الحكم عليه بالاعدام .

فقال روكامبول ، دون أن يغير شيئاً فيلهجة احترامه : اني خلقت ياسيدتي في بلاد حارة المناخ ونشأت بين قوم كنت كالملك عليهم وكانوا كالعبيد لي فنشأ بي حب الأثرة وعدم المبالاة بالصعاب لأني لم الق في حياتي من يعترضني فيما اريد وقد أتيت حديثاً إلى باريس كي ابحث عن شريكة لي تشركني في هذا الملك الذي لا حد لسلطانه وهذه الشهرة التي لا حد لاتساعها .

وحسبت حنة ان هذا الشاب يحاول الزواج حقيقة وان يتلمس مساعدتها في طلب تلك الزوجة التي اختارها فقال روكامبول: ولقد وجدت الآن هذه المرأة

وأنا أعبدها كما يعبد المؤمن ربه ، غير ان مصطلحات الناس قد وضعت بيني وبينها هوة عميقة بحيث يتعذر اجتيازها ولكني ياسيدتي في مقتبل الشباب وقد تعودت أن لا أحتفل بالمصائب فلا عبرة عندي بالمستحيل ثم ان هذه المرأة التي تحول بيني وبينها الشرائع والعادات قد أقسمت على أن تكون لي وعلى أن أذهب بها فأعيش تحت سماء بلادي الصافية الزرقاء وان أضع لها صولجـان الملك على عبيدي وأعيش مدى العمر عبداً لها

ولم يبق ريب لدى حنة في قحته وجرأته عليها ، فأوقفته عن تتمة حديثه باشارة وقالت : أمثل هذه الأقوال الفاسدة قد أتيت الي ؟

— قد تكون فاسدة يا سيدتي ولكنها صادقة صادرة عن قلب تنبض فيه عروق الاخلاص والحب الصحيح .

— ولكنك قد نسيت من أنا ، وغفلت عن ان زوجي الكونت ارمان دي كركاز قد فتح لك أبواب منزله .

— كلا ، واأسفاه فإني لم أنس شيئاً من ذلك ..

ثم ركع أمامها وقال : والآن يا سيدتي فلا بـد أن تكوني عرفت تلك السيدة التي أبذل الحياة في سبيل رضاها وأعبدها عبـادة الالهة . ان تلك السيدة التي أقسمت على أن أفوز بحبها وأحكها في قلبي هي أنت .

ونهض بعد هذا القول ومشى خطوة اليها يريد تقبيل يدها فارتجفت حنة منذعرة وصاحت بصوت خنقه الخوف : الي الي ..

ولم تكد تتم استغاثتها حتى فتح الباب بعنف وأسرع رجل منـه الى روكامبول فصفعه صفعة شديدة على خده وهو يقول : تباً لك من نزل أثيم !

وكان هذا الرجل الذي أرسلته العناية لاغاثة حنة ، بل الذي أرسل نفسه لنصرتها هو اندريا وقد احمرت حدقتاه من الغضب ونفض غبار الزهد والمسكنة عن وجهه ، فظهر بمظاهر الأبطال الأشداء حتى حسبت حنة انها ترى زوجها أرمان فاطمأن فؤادها وقالت : الف شكر لأنك انقذتني .

أما أندريا فلم يكاترث لهذا الشكر وقال لها : قبل كل شيء يجب أن يبقى سر هذه الاهانة مكتوماً بيننا .

ثم التفت الى المركيز ، أي الى روكامبول وقال : إنك نذل أثيم .

فلم يجب روكامبول بشيء ولكنه تظاهر بالخوف الشديد ، فأخرج أندريا مسدسه من جيبه وقال له ببرود : إختر الآن بين أن تموت موت اللصوص أو بين ان تصغي إلي .

فخضع روكامبول للقوة وقال : بل إني أصغي فقل ما تشاء .

- إن هذه السيدة التي تجاسرت على إهانتها هي إمرأة أخي أريد بذلك انه لم يعد بد لأحدنا من الموت .

فانحنى روكامبول إشارة إلى الامتثال ، ثم تابع أندريا : بقي ان مبارزتنا لا يجب أن يعلم سببها أحد . وإن حياتك الآن بين يدي ، فانا لا أبقي عليك إلا اذا أقسمت لي بشرفك أن لا تبوح بسر سبب المبارزة لأحد من الناس .

- أقسم لك بشرفي على الكتمان .

- ثم ان المبارزة لا يجب أن تكون إلا بعد غد ، كي لا يسيء أخي ظنه بك . فإنه يعلم إني أبيت الليلة هنا ، وأخشى إذا تبارزنا غداً أن يعلم شيئاً من السر .

- ليكن ما تريد .

– والآن .. فاخرج كما دخلت ، وانزل من هـذه الشجرة دون أن يشعر بك أحد

فامتثل روكامبول وخرج دون ان ينظر الى حنة . ولما خلت حنـة باندريا شكرته شكراً جزيلاً فقـال لها : لا سبيل الى الشكر فقد دافعت عن شرفي بدفاعي عن شرفك والان فنامي مطمئنة إذ لا خوف عليك وانا في جوارك .

– إني داخلة ولكني التمس منك كما تلتمس الأخت من أخيها ، أن لا تبارز هذا الرجل .

– حبذا ذاك إرضاء لك ولكن المبارزة لا بد منها .

– كلا ، فإني لا أطيق أن تخاطر بحياتك . فاذا أصررت على هذه المبارزة فإني أخبر أرمان بحقيقة أسبابها لأني لم أتقيد بيمين على الكتمان .

– إذن فانك تعرضين زوجك لأخطارها ، لأنه إذا علم بجسارة المركيز فلا يقعد ساعة عن مبارزته . واعلمي الان اني لا احب إهراق الدماء ، ولا أميل الى المبارزات التي تحرمها الأديان ، غير انه قد يعترض المرء من الحوادث ما يكرهه على الخضوع لتلك الشريعة الساميـة التي يسمونها الشرف . ولو أخلاق الرجال كما عرفتها لما سألتني الرجوع عن المبارزة فإن هذا المركيز إذا لم يعاقب على جرأته فإنه يجعل اسمك مضغة في الأفواه ، ويتحدث بما جرى في جميع النوادي .

فذعرت حنة وقالت : يا للخيانة !

فضغط أندريا على يدها وقال لها : أتريدين أن يبارزه ارمان ، ذلك الرجل الشريف الذي إن أصيب بمكروه ولا سمح الله يقع هذا المكروه بكثير من العائلات التي تعيش من بره ، أما أنا فأية فائدة من حياتي بعد ان تدنست بالآثام وأصبحت فرداً لا عائلة لي .

فقالت له حنة ما هذا القول؟اليس لك في هذا المنزل أخ وأخت يحبانك؟

فوضع أندريا يده على جبينه ثم قال : إنك نبيلة وانه نبيل ، ولكني كيف أستطيع أن أنسى ذنوبي الماضية . وإذا بارزت هذا الرجل ، فإما أن أقتله فأعاقبه على جرأته أو يقتلني فأموت من أجلك ، ويكون قتلي خير كفارة عن ذنوبي .

وقبل أن تجيب قال لها إصغي ألا تسمعين صوت مركبة ؟

- نعم

- إنها مركبة ارمان دون شك ، فأسرعي الى غرفتك إذ لا يجب أن يرانا سوية ، ولكني أسألك قبل الافتراق ، أن تتعهدي بكتمان ما جرى في هذه الليلة .

- سأكتم كل شيء

- وأن تأذني بالمبارزة .

- إن الأمر شديد .

- ولكنه واجب .

- ألأذن فاذهب وسأدعو لك الله وعسى ألا أخيب .

وافترق الاثنان فذهب كل الى غرفته . إلا ان المركبة لم تكن مركبة أرمان كا وهم أندريا لأن أرمان لم يعد إلا في الساعة الخامسة من الصباح .

ونام أندريا نوم المطمئن الواثق من فوزه في الدسيسة ، لا سيا بعدما رآه من إشفاق حنة عليه . وفي اليوم التالي برح القرية الى باريس ، فكان اول مـــا أجراه أنه غير هيئته وذهب الى الفندق الذي يقيم فيه روكامبول ، فلقيه في انتظاره ولكنه كان مقطب الجبين عابس الوجه ، فضحك أندريا وقال : الملك غاضباً لصفعة أمس ؟

- وإذا دققت في حسابي فإني أضيف اليها ضربة الخنجر .

وقد قال بلهجة جد خشي أندريا عواقبها فقال له : الملك تمزح ؟

- كلا ، فلقد دنا الزمن الذي ينبغي أن أقر فيه معك على حال .

- ماذا تريد بذلك ؟ الملك تنوه عن حصتك من الغنيمة ؟

- هو ذاك فإني أريد أن يكون بيدي ما استند عليه بعد الفوز في الحصول على الايراد الذي وعدتني به وهو الخمسون الف فرنك

- إن طلبك حق وعدل . غير انه كيف يمكن أن أدفع لك قبل أن أقبض .

- لقد فكرت بذلك ، فرأيت حل المشكلة سهل ميسور . وذلك أن تكتب لي صكاً عليك بقيمة مليون فرنك ، وتوقع عليه باسمك الحقيقي وهو أندريا ، وصي ابن المرحوم الكونت أرمان دي كركاز ، ثم تجمل التاريخ عن السنة القادمة .

لقد أصبت فان الأمر سهل .

- إذن أتكتب لي هذا الصك ؟

- نعم ، ومتى أردت .

إني أريده الان .

فأجابه أندريا : كلا ، بل أكتبه لك بعد غد ، لأن من ينتظر قبض مليون فلا بد ان يكون حكيماً وأنا في حاجة الان الى حكمتك .

فامتثل روكامبول وقال : ليكن ما تريد ، فسأنتظر الى بعد غد .

- ٥٦ -

ورجع أندريا الى الكونت فأخبره باضطراره الى مبارزة المركيز لسبب خطير ، وان المركيز قد أهانه إهانة لا سبيل بعد الى المسالة ولا تغتسل إلا بالدماء . ثم طلب اليه ان يكون شاهده ، وان يجد له الشاهد الاخر . فبذل الكونت جهده كي يقف منه على السبب ، غير ان اندريا كان مصراً على الكتمان

فعلم الكونت ان هذا الزاهد الورع لم يقدم على المبارزة وقتل الأرواح ومخالفة الشرائع الدينية إلا لأمر خطير وانهذا المركيز قد أهانه إهانة لا تغتفر فرضي أن يكون شاهده وذهب الى صديقه فرناند روشي يلتمس منه ان يكون الشاهد الثاني فوجده في منزله ووجد عنده باكارا .

وكانت هرمين زوجة فرناند قد أحبت باكارا حباً شديداً ، بعدما علمت أنها أنقذت زوجها من القتل والخراب ، فأصبحت تثق بها ثقة غريبة وتعهد اليها بتوزيع حسناتها على البائسين . وقد دعتها اليها في ذلك اليوم لمثل هذه الأعراض . فلما دخل أرمان طلب الى فرناند ان يختلي به لشأن هام ودخل وإياه الى غرفة مجاورة للقاعة التي كانوا فيها ، فأوجست باكارا خيفة من هذه الخلوة وأظهرت مخاوفها لهرمين ، ثم استأذنت منها ان تقف على باب الغرفة فتسمع ما يقوله ارمان ووقفت مصغية على الباب فعلمت أن اندريا يريد مبارزة المركيز وان ارمان وفرناند سيكونان شاهديه . فدهشت لما سمعت وأخبرت هرمين بما سمعته بعد ان طلبت اليها ان تكتم ذلك . ثم ودعتها وذهبت الى الكونت الروسي فأخذته وذهبت به الى منزلها ، فدعت الفتاة اليهودية ونومتها وسألتها عن المبارزة وعن اندريا والمركيز ، فكانت تجيب بكلام متقطع محصله ان هذا المركيز أشقر اللون وليس هو أسمر كما يبدو من وجهه ولكنه متنكر لأنه لا يريد قتل اندريا بل قتل أرمان .

فأجفلت باكارا وقالت للكونت لا شك ان هذا المركيز هو روكامبول ، فاننا فقدنا أثره منذ خمسة عشر يوماً ولكنه اذا كان كما أظن لما الذي يحمله على المبارزة مع اندريا الا اذا صدقت الفتاة وكان يريد قتل ارمان

فقال لها الروسي ان هذ محال فإن الشهود يقفون في معزل عن المتبارزين فاذا أصاب احدهم رصاص المبارز فلا يحمل على محامل الخطأ بل على سوء القصد وفوق ذلك فانه اذا كان اندريا يريد قتل أخيه فلا يقتله على هذا الشكل العامي المبتذل بعد صبره الطويل ، ولا بد ان يكيد له مكيدة لا

دخل له فيها بالظاهر .

- ربما كنت مصيباً فان كلام الفتاة كان مبهماً غير جلي وفي كل حال فاني احب ان احضر وإياك هذه المبارزة .

— ذلك مستحيل اذا لا يحضرها غير الشهود .

— نعم ويحضرها خدامهم .

— ماذا تريدين بذلك ؟

— عرفنا شاهدي اندريا فهل تعرف شاهدي المركز

— علمت اليوم ان أحدهما صديقي البارون دي ميترف وهو الذي عرفني بك اذا كنت تذكرين .

فصفقت باكارا بيديها من السرور وقالت: لقد بلغنا المراد اذا ان هذا الصديق لا يخالفك في مراد فاتفق معه على ان تكون أنت سائق المركبة وأنا خادمها ومتى تنكرنا فلا يعرفنا أحد .

سأفعل ما تريدين وسأذهب اليه الان .

وفي اليوم التالي اجتمع الخصمان والشهود في إحدى غابات باريس فصعد الكونت الروسي مع باكارا الى شجرة عالية كي لا يفوتهما شيء من المبارزة فلما نظرت باكارا الى روكامبول عرفته من عينيه .

وأخذ الشهود غدارتين فحشوهما وفيما هم يشتغلون بحشوها انفرد اندريا بأخيه وقال له : اني قد أكون في عداد الأموات بعد عشر دقائق فهل لك ان تجيبني الى طلبي الأخير .

وكان أرمان يحبه حباً شديداً فأوشك ان يضمه الى صدره من الحنو والجزع عليه ولكنه تجلد وقال : العلك تشك باجابتي ؟

- أتقسم لي على تنفيذ ارادتي ؟

— أقسم بأقدس ايمان .

- ان ارادتي الأخيرة ايها الأخ العزيز هي أن تذهب بامرأتك وولدك بعد

قتلي الى قصرك في كارلوفان فتقيم فيه شهرين لا تعود في خلالهما الى باريس ولا أستطيع الان ان أظهر لك مرادي بهذا الطلب ، ولكني كتبته وهو في طي هذا الغلاف. فاذا قتلت فلا يحق لك فتحه الا في كارلوفان واذا لم أقتل أرجعته لي دون أن تعلم ما فيه .

ثم أخرج غلافاً ضخماً من جيبه وأعطاه اياه وعاد الى ساحة المبارزة .

وعند ذلك أعطى الشهود كلا من الخصمين غدارة وأوقفوهما في موقفهمابعد انخطا المسافة بينهماثم صفق فرناند بيديهثلاثاً اشارة الى بدء المبارزة فاندفع الاثنان وجعل كل منها يزحف الى الاخر زحفاً بطيئاً الى ان بدأ روكامبول فأطلق الرصاصة الأولى على خصمه فأخطأه ثمأطلق الثانية فوقعت على الأرض دون ان تصيب واحدة منها أندريا .

ولم يكن لكل واحد منهما حق بأن يطلق أكثر من ثلاث طلقات فأيقن الحاضرون أن أجل المركيز قد دنا وباتوا يتوقعون له الموت في كل لحظة . أما اندريا فإنه مشى الى خصمه أي شريكه مشياً بطيئاً حتى بلغ اليه فوضع غدارته في صدره وقال : ان حياتك الان بين يدي وأنا أهبك اياها على شرط.

فقال له روكامبول مغضباً . انه يحق لك قتلي فاقتلني لأني لا اعتذر ولا التمس الغفران

– اني لا أسألك الاعتذار ولكني اشترط عليك شرطاً تستطيع قبوله .

– ما هو ؟

- هو أن تقسم بشرفك على أن لا تذكر السبب في مبارزتنا مدى الحياة وان لا تعود إلى مثل هذا السبب .

– قد رضيت وأنا أقسم لك بشرفي على ذلك .

فأطلق أندريا غدارته في الفضاء ثم قال : لقد انقضى كل خلاف بيننـا وأنا اعتبر الآن حضرة المركيز من الأشراف .

فسر الجميع لما أظهره أندريا من مكارم الأخلاق .

وخلا أرمان بأخيه قائلاً كيف عفوت عنه بعد المقدرة ؟
- ليغفر عني الله

أما با كارا فإنها عادت مع الكونت الى منزلها وهي تعلم ان المبارزة خدعة وان هذين اللصين متفقان على امر خطير ولكنها لم تستطع أن تدرك شيئاً من هذه الألغاز فقررت أن تنصب فخاً تقتنص به روكامبول كي تحمله على الاقرار.

وكان في باريس امرأة شهيرة بالجمال وهي من بنات الهوى وكانت من خير صديقات با كارا أيام غوايتها فدعتها اليها واتفقت معها أمام الكونت الرومي على أن تعطيها مائة الف فرنك على أن تساعدها في ما تريده من هذا المركيز وقبلت الفتاة واتفقت معها با كارا على أن تحيي ليلة راقصة يكون فيها المركيز أي روكامبول من جملة المدعوين اليها بواسطة أحد أصدقائه ثم اخبرتها ان هذا الرجل متنكر، ولكن يمكن معرفته من اثر جرح كبير في صدره فاذا تمكنت من الكشف عن صدره وتحقيق هذا الأثر، ونقدتها مائة الف فرنك فرضيت الفتاة شاكرة وخرجت تسعى في إعداد الحفلة، وخرج الكونت في أثرها الى صديقه البارون منيرف وقد كان شاهد روكامبول في المبارزة والتمس منه أن يدعو المركيز الى تلك الحفلة الراقصة .

* * *

ولنعد الآن إلى أندريا فإنه ركب مركبة أخيه وعادا الى المصيف فبرحا باريس، وفيما هما على الطريق طلب اليه أندريا ان يرجع اليه الغلاف

فقال له ارمان : إذن فلا سبيل للاطلاع على ما فيه ؟

- كلا يا أخي وستقف على جميع ذلك في مستقبل قريب، والآن فإني أسألك أن تفي بوعدك لي وتسافر مع امرأتك وولدك وأنا معكم إلى كارلوفان.

- سأفي بوعدي ونسافر صباح الغد

ولما وصلا الى المنزل سرت حنة بسلامة أندريا سروراً عظيماً كاد يفضح

سرها ، وأخبرها أرمان بما اقترحه عليه من السفر في الغد . فعلمت انه يريد ابعادها عن المركيز ، ووافقت راضية على هذا السفر .

وبعد الغد رجع أندريا إلى باريس وهو واثق من نجـاح مقاصده ، فتنكر بزي الانكليز وذهب إلى الفندق الذي يقيم فيه روكامبول فوجده ينتظره فيه ودار بينهما الحديث الآتي فقال أندريا :

– ألعلك خفت في الصباح ؟

– الحق اني خفت بعض الخوف ..

– اصغ الي لقد خطر لي اني لما كنت واقفاً وحدي على جميع أسرارك فقد أردت ان تتخلص مني لأنك قد خطر لك خاطر الاستقلال

– وأنا أقول الحق ايضاً انه خطر لي هذا الخاطر وما أرجعني عنه سوى حبي لك .

– بل حاجتك الي فانك لا تستطيع الاستغناء عني ولاسيا في هذه الأيام ، وإذا أردت فأنا أعترف لك ايضاً بأنه قد خطر لي ان اقتلك ..

– كيف خطر لك هذا الخاطر ؟

– لأني لا أزال أشعر بـــألم خنجرك في صدري ، وأنت تعلم اني احسن الرماية فلو أردت قتلك لما أخطأت المرمى .

– ولكن كيف تعيش دوني أيها التعيس ؟

– هو السبب الوحيد الذي ارجعني عن قتلك .

– إذن فنحن أكفاء ... كلانا لا يستغني عن الاخر فلنبحث الان بأمورنا الخطيرة فاني مسافر غداً إلى كارلوفان لاتفقد ذاك القصر لأني أريد ان اقيم فيه بعد زواجي بالكونتس حنة دي كركاز .

– وأنا ما ينبغي أن أفعل ؟

– تقيم في باريس ثلاثة أيام ثم تسافر منها الى سانت مـــالو حيث تنتظر فيها تعليماتي .

– وماذا أفعل في هذه الأيام الثلاثة ؟

– تتمرن على ضربة السيف التي أمرتك ان تتعلمها ثم تهتم بأمر باكارا .

– الملك دبرت المكيدة ؟

– مكيدة هائلة فاسمع انك تبدأ قبل كل شيء باختطاف الفتاة اليهودية التي عندها .

– وأين اضعها متى اختطفتها ؟

– أصغ إلي اني لقيت في الهافر حديثاً رجلاً من لندرا كان منخرطاً في سلك عصابتي حين كنت فيها وقد نجح بأعماله بعدما فارقته حتى أصبح الآن صاحب سفينة تجارية وهو ربانهـا وقد خطر لي أن ارسل باكارا على سفينته هذه إلى جزائر المركيز وهناك يلقيها الربان بين تلك القبائل المتوحشة التي تتباهى باكل لحوم البشر فيجعلها زعيم تلك القبيلة وليمة في أحد الأعياد .

– انه انتقام جميل ولكن كيف السبيل إلى تنفيذه ؟

– ينفذه جون ايرد ربان السفينـــة فأنه سيشحن بضاعة من الهافر الى استراليـا وهو خاضع لي مع بحارته وانه الآن في باريس فقد قدم اليها أول أمس وقد لقيته امس واتفقت معه على أن يحمل باكارا إلى تلك الجزائر فقبل ، وهو أما ان يلقيها في إحدى صحارى تلك البلاد أو يبيعها بيع السلع إلى زعيم تلك القبيلة .

– كل ذلك حسن معقول ، ولكن كيف السبيـل إلى تسليم باكارا الى ربان السفينة ؟

– أن ذلك سيكون عملك في مدة هذه الثلاثة أيام فتبدأ اولاً باختطاف اليهودية وتودعها عند مدام فيبار بعد أن توصيها بالاحتفاظ عليها والعنـاية بها وعندما تصبح في قبضتها ترسل رسالة دون توقيع الى باكارا تخبرها فيها أن أحد العبيد قد اختطف الفتاة وانه ذهب بها إلى الهافر ثم تكتب في الرسالة أن هذا العبد سافر على سفينة انكليزية اسمها فولر وهي ذاهبـة إلى اوسيانيكا ،

فلما تقف باكارا على هذه الرسالة تسرع بالسفر إلى الهافر فتعلم هنــاك أن هذه السفينة قد برحت ميناء الهافر إلى سانت مالو ، فتذهب اليها وتجد السفينة فيها ، وعندئذ فلا بد من النزول الى السفينة لترى فتاتها فيفعل الربان الباقي

– كن واثقاً من الفوز وسافر فسأصنع جميع ما تريد ، ولكن بقي سؤال أحب ان اسألك اياه وهو لماذا اردت ان ترسل باكارا الى سانت مالو وأنت قادر على انزالها إلى السفينة من الهافر ؟

– ذلك لأن سانت مالو لا تبعد غير غلوة عن قصر أخي الذي سأكون فيه بعد غد ومتى وصلت السفينة اليها أكون فيها إذ لا بد لباكارا ان تعرف من هو المنتقم .

– لله درك ما أشدك في الانتقام .

– نعم فان الانتقام مسرة الآلهة ، والآن فاسمع انك ستختطف الفتاة من منزل باكارا وتودعها عند مدام فيبار ، وبعد ثلاثة ايام تحضر الى سانت مالو مع ربان السفينة وفانتير وهناك أهيء لك اسباب مقابلة ثانية مع امرأة أخي حيث يباغتكما أرمان .

– كفى فقد عرفت كل شيء .

– بقي دور واحد وهو انه يجب ان تعرف جون إيرد ربان السفينة ، وبعد ذلك اذهب اليه غداً عنــد الصباح واذكر له اسم السير فيليام علامة للتعارف ثم دله على الفندق النازل فيه .

وفيما هو يتأهب للذهاب إذ وردت على روكامبول دعوة البارون دي منيرف الى الليلة الراقصة التي اعدتها باكارا لاقتناص روكامبول ، عرضها على اندريا مستأذناً اياه بالذهاب اليها .

– لا بأس من ذهابك ، بل يجب ان يعرفك كبار القوم كي لا يبقى لأحد مظنة فيك وانصرف في شأنك .

بينما كان اندريا وروكامبول في اختلائهما ، كانت مدام الفونس وهي تلك الفتاة الحسناء التي استحضرتها باكارا لاعداد الليلة الراقصة في منزلها قد قدمت الى باكارا وقالت لها ان الحفلة أعدت ووزعت أوراق الدعوة وقد اتيت الآن كي تخبريني بما ينبغي ان أفعل .

فلقنت لها باكارا حديثاً طويلاً خلاصته أن هذا المركيز متنكر وانه حين كان في شكله القديم كان من ألد اعداء الكونت الروسي وانه لص سفاك وانه لم يتنكر إلا بغية قتل الكونت وقتلي ؟

– وماذا تريدين أن أصنع به ؟

إننا لا نزال في ريبة من أمره ولا نستطيع معرفته إلا إذا تمكنا من الكشف على صدره فإذا كان صدره سليماً لا أثر فيه للجراح كنا مخطئين بسوء ظننا به ، وإذا كان في صدره أثر جرح حديث كان هو ذاك اللص السفاك ، فبتنا منه على حذر وقبضت المائة الف فرنك التي وعدك بهـا الكونت في كل حال .

– سأفعل ما ترين ، وغداً يرد اليك مني كتاب ثم ودعتها وذهبت فلبثت باكارا في منزلها وهي واثقة من الظفر وحمل هذا الشقي على الإقرار .

- ٥٧ -

وفي اليوم التالي أرسلت مدام الفونس إلى باكارا تقول فيها أن المركيز ، أي روكامبول تمادى في السكر تلك الليلة وهو لا يزال نائماً عندها ، وأنهـا كشفت عن صدره فرأت أثر جرح كبير في الجهة اليمنى من صدره وأن هـذا الجرح حديث ، ثم اغتنمت فرصة سكره فوضعت على منديلها مادة روحيـة دلكت به يده فظهر ان لون بشرته ناصع البياض ، وأن لونه الأسمر لم يكن غير دهان ثم ختمت كتابها عما يجب أن تصنعه .

ولما وقفت باكارا على هذه الرسالة فرحت فرحاً لا يوصف لصدق ظنونها وخرجت مسرعة إلى الكونت أرتوف فأطلعته على الرسالة وقالت له : يجب الإسراع قبل فوات الأوان .

- ماذا تريدين أن نفعل ؟

- نبدأ وندعو الينا مدام الفونس .

فوافقها الكونت ودعوها فلما أتت قصت عليها جميع ما كتبته بالتفصيل. فقالت لها باكارا : والآن ألا يزال في منزلك ؟

- قد ذهب منه منذ ساعة ولكنه عاهدني على الرجوع في هذه الليلة .

- هل بعت منزلك خارج باريس .

- كلا .. فهو لا يزال لي .

- إذن .. إكتبي لهذا المركيز كي يوافيك اليه في هذه الليلة واخبريه انك ما فعلت ذلك إلا لخوفك من عشيقك لشدة غيرته عليك

وامتثلت مدام الفونس وكتبت الرسالة بشكل لا يوجس منه روكامبول أقل ريب ، ثم ختمتها وأرسلتها اليه فقالت لها باكارا : إذهبي الآن إلى منزلك خارج باريس وسأوافيك اليه بعد ساعة مع الكونت فأتنكر أنا بصفة الخادمات ويتنكر الكونت بزي سائقي المركبات ومتى اجتمعنا أخبرك بما يجب أن نصنع .

* * *

ولنعد الآن إلى روكامبول فإنه بعدما افترق عنه أندريا ذهب لمقابلة الربان فقيل له أنه لم يعد فأقام ينتظره مدة طويلة حتى عاد فتعارفا وجعل الربان يعتـذر عن تأخره عن الموعد المعين ، وأفتتح اعتذاره بقوله انه يوجد اثنان أخلص لهما أشد الاخلاص وهما السير فيليام والرجل الذي أعاقني عن موافاتك اليوم ، أما هذا الرجل فإن قصتي معه غريبة تشبه الحكايات الموضوعة فاصغ

الي أقصها عليك .

وأصغى اليه روكامبول وهو يرجو أن يستفيد من حكايته فقال الربان : كنت في السنة الماضية في أمستردام وقد شحنت سفينتي بضائع إلى الهند وكان معي في السفينة فتاة بورتوغالية أحببتها وأحبتني حباً ليس بعده حب ولما كنا في أمستردام أنزلتها الى المدينة وأقمتها في أجمل فندق إلى أن يتم شحن السفينة.

وفيما أنا في ليلة جالس على ظهر السفينة اذ استوقف نظري شبوب نار هائلة في الشارع الذي كانت فيه الفتاة، ونظرت بالنظارة المكبرة فرأيت النار تشب في نفس الفندق الذي نزلت فيه حبيبتي وعند ذلك أسرعت مهرولاً كالمجانين إلى البر ، ولما بلغت الفندق رأيت النار قد شبت في جميع أطرافه ونظرت تلك الفتاة تصيح وهي واقفة على الشرفة ، صياح اليأس ولا سبيل إلى انقاذها فهلع قلبي لصراخها ، ونظرت حولي عساي أجد منفذاً اليها ، ورأيت سلماً خشبية نصبت على الجدار المحترق ، ورجلاً في مقتبل الشباب تسلق تلك السلم غير مكترث الموت حتى بلغ إلى الشرفة ، فاحتمل الصبية وعاد بها وخشب السلم يلتهب تحت قدميه حتى وصل بها الأرض ، وقد أغمي عليها من الرعب ، فأكبر الناس بسالته وجعلوا يهتفون له معجبين بهذه المروءة، أما أنا فإني اقتحمت الجمع حتى وصلت اليه فجعلت أقبل يده شاكراً ودموع الفرح تنهل من عيني وكانت المرة الأولى التي خرجت فيها الدموع من عيني كما كانت أول مرة دخل فيها الحب إلى قلبي ، وحتمت على نفسي أن أسفك دمي في خدمة هذا الرجل وأن أكون له عبداً ما حييت ، ولهذا لو سألني السير فيليام أن أتخلى له عن سفينتي وجميع أموالي لفعلت ، ولكنه سألني هذا الكونت أن أقتل السير فيليام لما تأخرت

فأجفل روكامبول وقال له : من هذا الكونت ؟

ـ هو شاب غني روسي يدعى الكونت أرتوف .

فوقع هذا الاسم على روكامبول وقع الصاعقة وقال في نفسه : قدر لأندريا

أن يفشل حين الانتصار وأن تأتيه الخيبة والعثرات من حيث لا يدري ولكنه كظم ما به وسأله : كيف لقيت الكونت ؟

– لقيته اليوم اتفاقاً قبل أن أجيء اليك .

فقال في نفسه : قبح من اتفاق فما فسد أعمالنا غير الصدفة فإنه إذا رأى هذا الربان بشأن اختطاف الفتاة اليهودية الى أن استقرا على أمر واتفقا على أن يتقابلا في المساء .

وعاد روكامبول الى الفندق فدعى اليه فانتير واخبره بما عزموا عليه من اختطاف اليهودية ، ثم أمره أن يذهب إلى مدام فيبار ويخبرها ، ثم يبحث وإياها عن أنجع الطرق لاختطافها ، وأن يأخذ التعليمات اللازمة عن منزل باكارا وعن طريقة البلوغ إلى الفتاة

وذهب فانتير وعاد اليه في المساء واخبره ان مدام فيبار ذهبت الى المنزل بصفة متسولة ، وعلمت جميع غرفه ومنافذه حتى أنها طبعت أقفال أبوابه بالشمع كي تصنع مفاتيح لها وتدخل المنزل دون أن يشعر بها أحد ، وفوق ذلك فقد علمت أن باكارا لا تعود الى المنزل قبل انتصاف الليل وأنه لا يوجد فيه سوى اليهودية والخادمة والخادم كهل ، فسر روكامبول وأمر فانتير ان يذهب إلى صانع الأقفال ليصنع المفاتيح ، ثم يذهب إلى مدام فيبار ويأمرها أن تراقب في الغد باكارا كي تعلم متى تخرج منه .

وبعد ذلك ذهب روكامبول لمقابلة ربان السفينة ، وقد خطر له حين ذهابه هذا الخاطر وهو انه إذا شاركنا الربان في اختطاف الفتاة عرف البيت وقد يتفق أن يرى فيه الكونت وباكارا ، وفوق ذلك فإن من العار على من بلغ هذا المبلغ في مهنتنا أن يحتاج إلى ثلاثة أشخاص لاختطاف صغيرة ، ثم اننا إذا استغنينا عن مساعدة الربان في اختطاف الفتاة فإننا لا نستغني عنه في ايصال باكارا إلى القبائل المتوحشة ، ولما كانت باكارا لا تفارق هذا الكونت الروسي فقد وجب قتل الكونت في الحال .

ولما فرغ من الخطة وصل إلى المكان الذي ينتظره فيـه الربان واخبره ان اختطاف الصبية اصبح ميسوراً لأنها تخرج وحدها من المنزل ، ووافقه عـلى مقابلته في الغد ، ثم رجع الى الفندق ولقي فانتير وساومه على الكونت بعشرة آلاف فرنك يدفع نصفها مقدماً والنصف الآخر بعد القتـــل ووضعا الخطة اللازمة لليهودية .

- ٥٨ -

في الساعة التاسعة من تلك الليلة قدم الى منزل باكارا روكامبول وفانتير وهو في صباغه الأسود ومدام فيبار . وكان فانتير قد أحضر مفاتيح المنزل ، فأخذها روكامبول وجعل يفتح الأبواب ، ودخل الثلاثة دخـول اللصوص ، تتقدمهم مدام فيبار ، لأنها كانت عارفة بخفايا المنزل ، ولما بلغوا الى صحن الدار وقفوا يتشاورون فقال روكامبول : أين غرفة الخادم ؟

فقالت مدام فيبار : انها في الطابق العلوي .

لا خوف علينا منه وأين غرفة الخادمة .

- هي أمامك .

— إذن لندخل اليها أولاً إذ لا خوف علينا إلا منها .

ثم دخل الثلاثة الى غرفة هذه المسكينة ، فاستيقظت مذعورة وحاولت أن تصيح ، واطبق عليها روكامبول أطباق القضاء وتعاونوا جميعهم على ربط فمها بمنديل وقيدوا رجليها ويديها ، ثم ربطوها الى سريرها كي لا تستطيع أن تزحف الى الخارج ، ودخل الثلاثة الى غرفة اليهودية فانتبهت أيضاً من رقادها وهبت من سريرها واجفة الفؤاد من الذعر ، فبادرتها العجوز قبل أن تصيح وأسرعت الى ربط فمها ، ثم تراجع الثلاثة بأمر روكامبول الذي قال : كيف

السبيل الى الذهاب بها فاننا إذا وضعناها في مركبة فلا نأمن السائق ان ينم بنا ، وإذا حملناها فلا نمشي بها خطوات حتى تنتبه الينا الشرطة

فقالت العجوز : لا دواء الا الارهاب . ثم أخذت خنجر فانتير ودنت من الصبية ففكت رباط فمها ووضعت الخنجر على عنقها وهي تقول انا لا نريد بك شراً ويجب ان تتبعيني الى منزلي وإذا فهت بكلمة واحدة على الطريق فان هذا العبد يقتلك بهذا الخنجر .

ثم أعطت الخنجر لفانتير فأخذه ووقف أمام الفتاة فقالت لها العجوز البسي ثيابك في الحال .

وجعلت تلبس ثيابها ورجلاها تضطربان من الخوف حتى أتمت لباسها ، فتأبط روكامبول ذراعها وخرج بها الى الطريق ، فمشى فانتير وراءهما ومشت العجوز امامها وقادتهما في طريق لا ينتابه الناس ، سيما في الليالي الممطرة وما زالوا يسيرون حتى بلغوا منزل العجوز ، فسلمها روكامبول الفتاة وعاد مطمئناً آمناً لمقابلة الربان فألفاه ينتظره في المكان المعين فأخبره باختطاف الفتاة ووعده على ان يقابله في سفينته يوم تصير فيها باكارا .

ثم ذهب إلى الفندق فلقي فانتير ينتظره فيه فقال له كيف حال الفتاة؟

– أنها على أسوأ حال من النكد والخوف ولكن مدام فيبار باذلة جهدها في ملاطفتها .

فقال روكامبول : انها ستأنس بها فقد تعودت هذه مؤانسة الفتاة وأنت مذ فرغت مهمتك من اختطافها لم يبق عليك غير قتل الكونت

– وانت بقي عليك دفع الثمن .

– هاك نصفه وسأدفع لك النصف الآخر بعد القتل حسب الاتفاق فقبض المال وانطلق يكمن الكونت .

أما روكامبول فانه لما فرغ من جميع هذه المشاغل ذكر الرسالة التي أرسلتها اليه مدام الفونس تدعوه فيها إلى موافاتها في منزلها خارج باريس فجعل يتردد

في الذهاب اليها فتتمثل له بجمالها النادر وذكر انها تخدع حبيبها من أجله وانها أظهرت له من اللطف والأيناس في الليلة الراقصة ما يزال مؤثراً فيه ثم رأى انه لم يعد لديه عمل يعمله فحن إلى لقائها وبرح الفندق فركب مركبة وأمر سائقها أن ينطلق به اليها .

وبعد ساعة كانت تسير به المركبة سيراً حثيثاً حتى وصلت إلى المنزل المطلوب فاطلق روكامبول سراحها وهو غير حاسب لشيء وطرق الباب الداخلي ففتحت له صبية بملابس الخادمات وأوصلته إلى القاعة التي كانت تقيم فيها مدام الفونس ثم تركته ومضت في شأنها دون أن يتمكن روكامبول من النظر إلى وجهها .

فلما دخل إلى القاعة رأى مدام الفونس متكأة على مقعد طويل فابتسمت له وشكرته لقدومه اليها في هذه الليلة المطرة وجعلت تنادمه وينادمها حيناً الى أن قطعت عليه الحديث وهي تتفرس في وجهه وقالت له : ما هذا الشبه الغريب ؟

فاضطرب روكامبول وقال : أي شبه تعنين ؟

فلم تجبه ولكنها جعلت تحدق به هنيهة وقالت : لولا لحيتك وشعرك الأسود ... ثم توقفت عن الكلام وعادت إلى التحديق به .

فسئم روكامبول وقال : أي شبه تعنين يا سيدتي ؟

– انك على سمرة وجهك وسواد شعرك تشبه شبهاً عجيباً رجلاً أبيض البشرة أشقر الشعر .

فزاد اضطراب روكامبول وقال من هو هذا الرجل ؟

– رجل اسوجي يدعى الكونت دي كامبول .

فقال دون اكتراث : اني لا أعرفه .

– انه برح باريس منذ ثلاثة اسابيع وقد ظهر انه كان من الأشقياء ، وان له حديثاً غريباً تعرفه خادمتي ولكنه كان متصلاً شروره واثامه بكثير من

الأميرات النبيلة فقد كان يزور قصر المركيز فان هوب .

وكانت هذه المرأة تقص عليه هذه الأقوال كأنها تقولها اتفاقاً ، غير أن روكامبول شغل باله لحديثها وقال في نفسه ، ما عساها تريد من هذا الحديث فعادت المرأة إلى حديثها وقالت : وقد أصيب هذا الكونت بضربة خنجر كادت تؤدي بحياته قبل احتجابه وقد كانت الطعنة هنا في هذا المكان من الصدر واشارت بيدها الى أثر الجرح في صدره .

فاجفل روكامبول وقال لماذا تقصين علي سيرة هذا الرجل ؟

-- لأنه يشبهك .

- كيف يشبهني اذا كان أبيض اللون وأنا احمره واذا كان شعره أشقر كما تقولين وشعري حالك السواد ؟

- لكن خادمتي تقول غير ذلك وسترى !

ثم قرعت بجرس امامها ففتح البـــاب ودخلت منه باكارا المتنكرة بزي الخادمات فدنت منه وقالت له بلهجة الساخر ، على الكونت دي كامبول السلام ؟

فوجف فؤاد روكامبول لأنه علم انها باكارا وقال في نفسه : لقد وقعت في الشرك ولكنه اطمأن حين أفتكر انه مسلح وانه لا يرى أمامه إلا امرأتين غير أن هذا الاطمئنان لم يطل فانه بينما كان ينظر مذعراً الى باكارا رأى ان باباً آخر قد فتح ودخـــل منه الكونت أرتوف الروسي وهو حامل بيديه غدارتين ، فعلم روكامبول انه لم يعد له نجاة من قبضة باكارا ، ولكنه قال في نفسه : إذا قتلت فسينتقم لي فانتير بقتل الكونت. وينتقم لي اندريا بارسال باكارا الى القبائل المتوحشة فكان ذلك اكبر عزاء له في الساعة الهائلة .

وكان روكامبول ثابت العزيمة شديد الجرأة إذا أصر على انكار أمره فلم يحفل بالوعيـــد ولو رأى الموت نصب عينيه غير انه كان وافر الحكمة شديد الدهاء ، فقال في نفسه بسرعة التصور انه لم يعد لي سبيل إلى انكار نفسي بعد

أن عرفوني ولا أري سبيلاً للنجاة إلا بالاقرار فأنا أعترف لهما بكل شيء دون حديث قتل الكونت وارسال باكارا على سفينة جون ايرد إذ لا يعلمان شيئاً من ذلك ، إذا قتل الكونت وسافرت باكارا فلا يخشى شيء من اقراري وعند ذلك دار بينهم الحديث الآتي .

فقالت باكارا كفاك يا حضرة الكونت تنكراً فقد عرفناك وأجبنا على ما نسألك عنه إذ لا فائدة من ضياع الوقت .

– ليكن ما تريدين .. فسلي ما تريدين ..

– أتذكر ان آخر مرة تشرفنا فيها بلقائك كانت في منزل دابي فاتها الهنـدية ؟

– أذكر ذلك ولا أنساه فأني كنت عشيق تلك الهندية وقد لقيتها ميتـة وأصبت بطعنة خنجر .

– كذبت فانك لم تكن عشيق تلك الفتاة ولم تكن عشيقتك .

– كيف تعرفين ذلك ؟

– أعرفه كما أعرف انك لست بابن تلك العجوز التي أخرجتك من المستشفى .

– ذلك أكيد .

– ولست ايضاً الكونت دي كامبل فان الأشراف لا يغـيرون اسمائهم ويشتركون مع اللصوص ولا ينخرطون في سلك تلك العصابة السرية التي كان يرأسها السير فيليام .

– إذا كنت تعرفين ذلك فماذا تريدين ان تعرفي مني ؟

– ستعرف ما أريده منك ، ولكن عليك أن تعلم قبل كل شيء انك في قبضة يدنا وان هذا المنزل معتزل عن الناس وان الليل قد انتصف فـاذا استغثت فلا يجيبك إلا الصدى .

– إذن فأنتم تريدون قتلي .

– ربما قتلناك إذا امتنعت عن الاقرار .

بماذا ينبغي أن أقر .

– بحقيقة ما تعلمه عن السير فيليام فاذا سلمتنا هذا الرجل فقد نعفو عنك إذ أن حبل حياتك معقود بإقرارك .

– ماذا تريدين ان أقول عن الفيكونت أندريا الذي تدعونه السير فيليام، فان طعنه إياي بالخنجر أعظم برهان على اني ليس لي أقل اتصال به .

فالتفتت با كارا عند ذلك إلى الكونت ارقوف قائلة : ان هـذا الرجل لا يريد أن يقر فاقتل دون تأخير .

– ليكن ما تريدين .

ثم فتح زناد الغدارة وصوبها الى رأس روكامبول فهلع قلبه وقـال : قف سأقول كل شيء .

– إذن أسرع بالقول .

– سليني أجيبك ..

– أ كان السير فيليام شريكك ؟

– نعم ..

– أتقر هذا الاقرار أمام أخيه الكونت دي كركاز .

– غير ان الكونت قد سافر إلى كارلوفان مع أخيه .

– إذن فاكتب اقرارك كما أمليه عليك .

فلم يسع روكامبول الا الامتثال وجلس قرب المائدة فأملت عليه ما يأتي:

« هذه آخر ساعة من ساعات حياتي ومن كان في هذا الموقف فلا يستطيع الكذب والبهتان ، ثم ان الكونت أرتوف واقف فوق رأسي وغدارته مصوبة إلى قلبي وهو يطلب ان أعترف بذنوبي وأبوح باسم الرجـل الذي يقودني منذ عهد بعيد في طريق الآثام فأنا أعترف الآن ان هذا الرجل الذي يتلبس بلباس التائبين وحشو قلبه المكر والدهاء . ان هذا الرجل الذي كان رئيسي وكنت يده العاملة حين حاول أن يحمل ليون رولاند على قتل فرناند روشي بواسطة

الفيروزة ، وحمل المركيزة فان هوب على قتل إمرأته . إن هذا الرجل الأثيم الذي دفعني في سبل الجرائم والذنوب هو الفيكونت أندريا شقيق الكونت أرمان دي كركاز » .

ثم أمرته أن يوقع على الرسالة فوقع عليها وأخذتها باكارا وقالت للكونت : انه إذا أطلع عليها أرمان لا بد أن يفتح عينيه ويعلم حقيقة امر أخيه .

- ربما ومع ذلك فسأقول أنا كل شيء .

فقالت له باكارا : لقد خدعت فإنك لا تستطيع أن تقول شيئاً .

واستنكر روكامبول قائلاً : لماذا ؟

- لأنك ستموت ..

-فاصفر وجهه وعلم انه كتب لنفسه الموت إنما كتبه بهذا الاقرار .

فقالت له باكارا : لقد أسأت إلى نفسك فيا كتبته إذ لولا كتابتك لما كنا نجد بدأ منك لإقرارك أمام الكونت أرمان،أما الآن فان خطك يكفي ولابد لك من الموت .

فقال لها روكامبول بصوت المتهكم : إنك تتعجلين يا سيدتي بقتلي .

- ألعل لديك ما تقوله ؟

- لدي سر يسوى أكثر من حياتي .

- قل وساري .

- اني أعتبر هذا السر عظيماً ولهذا فقد قلت انه يساوي اكثر من حياتي وأنا الآن أريد بيعه لكما .

- إننا نشتريه بحياتك إذا كان خطيراً كما تقول .

- ذلك لا يكفيني فان أردتم قتلي فاقتلوني ولكنكم لا تعلمون شيئاً .

- إذن سنقتلك

- غير أنكم ستندمون الندم الشديد لرفضكم ما طلبته حين ترون انالصاعقة قد انقضت على رجل تحبونه وكنتم قادرين على انقاذه .

وارتعشت باكارا وخشيت أن يكون ذلك الرجل فرناند وعـــادت إلى مسالمته وقالت:

— ما زلت سائراً في سبيل الموت فقل عن الثمن الذي تريـده لإفشـاء هذا السر.

— مائة الف فرنك ومتى علمتم السر فانـكم أرأف من أن تقتلوني.

— أهذه كلمتك الأخيرة ؟

— نعم !.

— إذن فأنت تريد أن تموت ؟

— اني أفضل الف موت على أن أبيـع سراً دون ثمن..

— وإذا لم يكن سرك مساوياً لهذا الثمن ؟

— إنه يساوي أكثر من المبلغ الذي عينته.

— قبلت فقل الآن إذا كان لك ورثاء لأدفع لهم المال..

واضطرب روكامبول ولم يعد يشكك بموته وقـال: إنكم لم تفو بعهودكم فاني لم أطلعكم على السر كي أورث الناس من بعدي.

وصوب الكونت الغدارة إلى صدره قائلاً: لم يبق لك في هذه الحياة سوى دقيقتين فاذكر اسم الذي تريد أن يقبض المال.

وبينما كان روكامبول ينظر اليه وقد جمدت عيناه من الرعب إذ فتح باب ودخل منه رجلان عظيما الجثة هائلا المنظر ووقفا موقف الخدم أمام الكونت ينتظران أمره، ولم يعد يشكك بدنو الأجل.

- ٥٩ -

كان هذان الرجلان اللذان دخلا من خدم الكونت قد أحضرهما معه من

روما للمحافظة عليه ، وهما من أشد خدامه خضوعاً له وقد رآهما روكامبول يحملان كيساً عظيماً حين دخولها ، فخطر له ان الكونت يريد ان يقتله حسب النمط الشرقي فيضعه في الكيس ويلقيه من نافذة المنزل إلى النهر الذي كانت تتكسر أمواجه على جدرانه .

وقال له الكونت وهو ينظر إلى الكيس : قلت لك انه لم يعد لك سوى دقيقتين في الحياة فاذكر لي إسم وريثك كي أدفع له المال .

فنظر اليه روكامبول نظرة الخائف القانط دون أن يجيب ، وعند ذلك تقدمت باكارا من الكونت وسارت به الى آخر الغرفة وسألته : لا تقتل هذا الرجل فقد يحمله الخوف على الإقرار بأسرار أخرى .

- انك أعطيتني في هذا الصباح سلطاناً مطلقاً ودعيني أفعل ما أشاء واخرجي الآن مع هذه المرأة التي سيغمى عليها ودعيني أفعل ما يجب .

لا تقتله لأني لا أريد .

— اذهبي لأنه ينظر اليك

فخرجت باكارا مؤملة بشفقة الكونت لأنها لم تطق ان تكون السبب في قتل هذا الشاب .

أما الكونت فانه رجع إلى الخادمين وأشار لهما إشارة خاصة فحل أحدهما قيود الكيس ودنا الثاني من روكامبول وقبض عليه بيد من حديد وعاد الكونت وقال لروكامبول : قل لمن تريد أن أدفع المال .

وقد خطر لروكامبول خاطر غريب يخطر لهؤلاء اللصوص عندالشدة ونظر الى الكونت أرتوف وقال له ألعلك تريد قتلي غرقاً ؟

-- إن نهر المارن بعيد الغور ولا بد أن تكون قتلت في حياتك الأثيمة بعض الأبرياء مثل هذه القتلة فاذكر اسم وريثك .

فقال روكامبول : اني لا أتدانى إلى طلب العفو منك ولا أريد أن يكون وريثي غير الصدفة .

ـ ماذا تريد بالصدفة ؟

انك ستلقي بي إلى المياه أليس كذلك ؟

ـ نعم . وستلقى اليها حياً ضمن هذا الكيس، بعد أن تسد عليك منافذه

ـ ميتة شرقية ولكن نهر المارن ليس له عمق البوسفور ، أريد بذلك أن جثتي قد يعثر بها أحد الصيادين ؟

ـ وبعد ذلك ..

ـ ومتى عثر الصياد بجثتي فهو لا بد أن يبحث في جيوبي فيرى فيها الحوالة التي أعطيتني أياها على بنك روتشيلد فيقبضها ويكون وريثي .

ـ انه فكر حسن وليكن ما تريد ، ثم جعل يحادث الخادمين باللغـــة الروسية ، ونسي روكامبول المال وجعل يفتكر بذلك الخاطر الذي خطر له وأمل فيه النجاة ولم يعد يخشى إلا أمر واحد وهو أن يقيدوه قبل وضعـه في الكيس .

ولما فرغ الكونت من حديثه مع الخادمين نظر إلى روكامبول قائلاً . يعجبني منك ما تظهره من عدم الاكثرات للموت مما يدل على بسالتك ومن له مثل هذا الصبر على الخطوب فلا بد من مراعاته بعض المراعاة في مثل هذه المواقف .

فقال له بلهجة الساخر : أشكرك لكرم أخلاقك .

فقال الكونت : جرت العادة باغراق المجرمين أن يقيدوا أيديهم وأرسلهم ومنهم من يدعونهم مطلقي الأيدي ، إذ طلبوا ذلك وأريد مراعاتهم فمن أي فريق أنت ؟

ـ من الفريق الثاني ..

ـ إذن تدخل الكيس من تلقاء نفسك دون أن يمسكه أحد.

وتمكن روكامبول من اخفاء فرحه وقال : نعم

وعند ذلك كلم الكونت الخادمين باللغة الروسية فتركا الكيس في الارض وابتعدا عنه .

وحاول روكامبول أن يزج نفسه فيه فسأله الكونت : ألا تؤمن بالله ألا تصلي قبل الموت ؟

— نعم . لقد أصبت ثم ركع وجعل يتمتم هنيهة ونهض فسلم سلام الأبطال القدماء ودخل في الكيس وأشار الكونت الى الخادمين وربطوا الكيس من فوق رأسه رباطاً وثيقاًوذهب أحدهما إلىالنافذة المطلة على النهر وفتحمصراعيها وحمل الثاني روكامبول ضمن الكيس والقاه من النافذة، فشق عباب الماء وكان له دوي شديد

أما الكونت فانه أمر الخادم أنيقفل النافذة فأقفلها ثم امره أن يفتحالباب ففتحه ودخلت منه باكارا ولما علمت انه القاه فيالنهر قالت له بصوت المؤنب أعصيتني وقتلته ؟

— نعم . فاذا كان قد مات فلقد عاش بموته كثيرون .

- ٦٠ -

بعد ذلك بساعة خرجت باكارا من منزل مدام الفونس يصحبها الكونت أرتوف وكانت نفسها منقبضة لقتل روكامبول فقد كانت تحب ان يبقي عليه الكونت بعد اقراره لاعتقادها انه لم يكن غير آلة بيد اندريا ، ومـا زالت تسير بها المركبة حتى بلغت الى منزلها فاستوقفتها وودعت الكونت ارتوف وحاولت الدخول اليه ، فوجدت الباب مفتوحاً خلافاً للعادة فأوجست شراً ودخلت الى الفسحة الخارجية ، ورأت ان باب المنزل الداخلي مفتوح أيضاً ونادت الخادمة فلم تجب فأعادت النداء دون أن تسمع من مجيب ، وعند ذلك وقفت تصغي وقد ساد السكون بعد انتصاف الليل ، فسمعت أنيناً صادراً من غرفة تلك الخادمة ، فعلمت انه قد فاجأها مصاب ، ولم تجزع لفتح الأبواب وما سمعته من الأنين بل انها دخلت الى المنزل ببسالة تندر في الرجال حتى

بلغت الى غرفة الخادمة فسمعت ذلك الأنين ونادتها فلم تجب ، وحاولت أن تفتح الباب فوجدته مقفلاً فرفسته فبرجلها فتح ، وأنارت الغرفة فوجدت تلك المسكينة مقيدة اليدين والرجلين مكمومة الفم على ما تركها روكامبول ، فأسرعت الى حل رباطها وسألتها مذعورة : ماذا حدث .

– لقد اختطفوا الفتاة يا سيدتي بعد أن تركوني كما رأيت

من هم الذين اختطفوها ؟

– ثلاثة وهم امرأة عجوز وشاب وعبد أسود .

فصاحت باكارا صيحة منكرة : ان هذا العبد خادم المركيز وشريك روكامبول وقد أصبت فإن هذا الشقي مات دون ان يعترف بكل شيء .

إلا ان باكارا كانت منخدعة فان روكامبول لم يمت بل انه أفلت من كفنه واليك البيان :

انه بينما كان الكونت ارتوف يلح عليه بذكر اسم وارثه ليدفع له المائة الف فرنك ، وبينما باكارا تلتمس من الكونت ان يبقي عليه كان روكامبول يقول في نفسه ان لدي خنجراً خبأته تحت صدرتي وان الكيس الذي سيضعوني فيه متسع بحيث لا يعيق يدي عن الحركة ، ثم انهم سيلقونني في نهر المارن من موضع مرتفع ، ولكن هذا النهر بعيد الغور ، فسأصل الى غوره حياً وعند ذلك أشق الكيس بخنجري واصعد منه إلى سطح الماء فأنجو .

فلما دخل إلى الكيس وجعل الخادمان يربطـــان فم ذلك الكيس أدخل روكامبول يده من تحت صدرته وقبض على قبضة الخنجر ثم لبث واقفاً دون حراك حتى اذا القوه في الماء أخرج الخنجر قبل أن يبلغ اليها فوصل الى منتهى عمق النهر بعشر ثوان ومزق الكيس وهو من المشمع بخنجره ، فأخرج منه يديه ورجليه دفعة واحدة وحين اصبح حراً ضرب الأرض برجليه وذهب صعداً حتى بلغ الى سطح المياه فتنفس الهواء وغاص مسرعاً حذراً من ان يروه من النافذة ولكن الظلام كان مشتد الحلك وقد اقفلت النوافذ حين القائه منها .

وكان روكامبول من الماهرين في السبـــاحة لأنه ربي بين الأنهار ، فما زال يسبح غائصاً تحت الماء وكلما انقطع نفسه صعد متنفساً حتى بلغ الى الشاطىء فصعد اليه وهو لا يصدق بالنجاة وجعل يبتعد عن هذا المنزل وهو يلتفت في كل حين حذراً من أن يتبعه أحد الى أن وصل الى صخر مرتفع ، فاختبأ وراءه وجلس يراقب المنزل الذي كان فيه . وأقام ساعة مبتـــل الثياب وأعضاؤه ترتجف من البرد حتى رأى ان الأنوار قد انطفأت . ثم لم يمض على ذلك هنيهة حتى سمع مركبة خرجت من ردهة المنزل فعلم أن من فيه قـــد رجعوا الى باريس . وجعل يركض مقاومة لتأثير البرد الى جهـة خمارة كان رآها حين قدومه الى المنزل حتى وصل اليها وهو لا يزال بملابسه المركيزية الدالة على السعة والثروة فاحتفل به صاحب الحانة ، إذ لم يتعود ان يتشرف بزيارة مثل هؤلاء النبلاء . فأخرج روكامبول ديناراً من جيبه ودفعه اليه ، فأمر أن يعد له ناراً للتدفئة وان يحضر له شيئاً من الشراب ، ثم طلب اليه أن يعطيه ما لديه من الثياب فأعطاه ثوباً من ثيابه فخلع المبتل بعد أن أخذ منه الحوالة ولبس ثوب الحانة . وقد أخبره انه سقط في النهر اتفاقاً .

ثم تركه وجعل يمشي الى ان لقي مركبة فركبها وذهب الى مدام فيبار ، فأيقظها ورأى اليهودية قائمة عندها.فأخبرها بجميع ما حدث له. وكان الصباح طلع فأمرها ان تذهب وتتردد حول منزل الكونت ارتوف كي تعلم اذا كان قتله فانتير ، وأن تكتم حديثه أمام أعوانه لأنه عزم على الا يعود الى فندقه بل يسافر رأساً الى لقاء أنديا . فذهبت العجوز بعد ان أقفلت الباب وراءها حذراً من فرار الصبية ونام روكامبول في سريرها .

وفي الساعة التاسعـة أقبلت العجوز فأيقظته وقـالت له : أظن أن الكونت قد قتل .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لأني رأيت فانتير والانكليزي الربان خارجين من الفندق الذي كنت

فيه في الساعة الثامنة وعليها ملامح السرور .

فطرب روكامبول وأجاب فلأذهب للقاء السير فيليام ، إذ لم يبق لي ما أعمله في باريس .

ونهض فخرج من منزل العجوز ، وذهب تواً الى بنك روتشيلد ، فقبض المائة الف فرنك حوالة على بنك لندرا ، وذهب الى حيث ينتظره أندريا

أما أندريا فكان مقيماً مع أخيه في كارلوفان يدهشه بظواهر قداسته ويظهر له كل يوم آية جديدة من آيات توبته . وكان أرمان يذوب تشوقاً الى معرفة سر مبارزة أخيه مع المركيز . وفي كل يوم كان يسأله عن هذا السر فيماطله إلى ان أخبره أخيراً أن المركيز قد تجرأ على امرأته ودخل ليلا الى منزلها الى آخر ما يعرفه القراء من هذا الحديث ، فغضب أرمان غضباً شديداً وأقسم انه لا بد له من قتل هذا الرجل السافل الذي يتجرأ على أطهر امرأة فطيب أندريا خاطره وغادره وهو فرح القلب كي يقابل روكامبول ويعلمه كيف يقابل امرأة أخيه مرة ثانية .

وكان اتفاقه مع روكامبول ان يقابله في سانت مالو ، فلما بلغ اليها وجده ينتظره في المكان المعين فسر به اندريا وأثنى عليه فقال له روكامبول . أتعلم من أين أنا آت ؟

– ألست قادماً من باريس ؟

– كلا ، بل أتيت من دار الأبدية .

فضحك أندريا وقال : لا أظنك أتيت ، إذ لا أجد في وجهك أثراً من آثار الأبالسة .

– ربما كان ذلك لأني لقيتك فأزالت بركات قدسك من وجهي تلك الآثار . ولكني ما أتيت إلا من قعر نهر المارن .

– العلك غرقت فيه ؟

– لا بل أغرقوني

ثم قص عليه جميع ما جرى له بالتفصيل فاصفر وجه اندريا الى أن أخبره بما علمه من العجوز عن قتل الكونت أرتوف فطاب خاطره ولم يعد يخشى لقاءه مع جون ايرد فقال له : يجب السرعة الآن ، فاذا كان الكونت قد قتل فإن جون ايرد سيقضي على با كارا فلا يبقى علينا غير قتل ارمان .

ثم جعل يعلمه كيف يصل الى مقابلة امرأته حنة ، فدله على المنزل وأرشده الى مدخل الغرفة التي تقيم عادة فيها ، وهي غرفة مجاورة لغرفة يشتغل فيها زوجها بحيث لو نادته باخفض صوت لسمع نداءها وقال : إذا احتجت الى أن تكلمها كما كلمتها المرة السابقة . ولكنك لا تحتاج الى الكلام ، فإنها ستصيح حين تراك فيسرع اليك زوجها ، وهو رجل شريف ويثق بأنك شريف أيضاً ، فيبارزك وتطعنه بالسيف تلك الطعنة الايطالية التي تعلمتها . فاذهب الآن على بركات الأبالسة .

– إني لا أؤمن ان يقبض علي خدام الكونت حين يرون اني قتلت سيدهم ويسلموني الشرطة .

– وماذ عليك منهم فانك قتلت خصمك بالمبارزة وهي غير ممنوعة .

– وماذا أصنع بعد قتله ؟

– إنك تذهب الى سانت مالو حيث توافيني فيها .

– أين ؟

– في سفينة الربان الانكليزي إذ لا بد لي من وداع با كارا .

ثم أطلعه على رسالة وردت اليه من المافر من جون ايرد يخبره فيها بالفوز ، وانه سيسافر بباكارا الى جزائر المركيز .

وافترق الاثنان فذهب اندريا الى سانت مالو ، وذهب روكامبول الى قصر كارلوفان .

وكان الظلام قد خيم والخدم في القصر يتأهبون لاعداد العشاء ، وحنة جالسة في غرفتها تتلهى بالتطريز وتنتظر قدوم زوجها اليها كي يذهب بها الى

المائدة . وبينما هي على هذه الحال ، إذ طرق باب غرفتها فحسبت ان الطارق أرمان وقالت له : أدخل .

ولما فتح الباب ورأت ان الداخل لم يكن زوجها بل كان المركيز صاحت صيحة ذعر وصرخت تقول : إلي يا ارمان !!..

فركع روكامبول أمامها وقال لها : لماذا تخافي أيتها الحبيبة وأنا موقف حياتي في سبيل رضاك ؟

ولكن لم يكد يتم حديثه حتى انقض عليه رجل انقضاض الصاعقة وهو يزبد من الغضب إزباد الجمال وكان هذا الرجل أرمان .

أما روكامبول فقد كان يتوقع هذه المباغتة ، فمد يده الى جيبه وقبض فيها على غدارته للدفاع. ولم يكن في يد أرمان سلاح ولكنه كان قوي العصب والعضل ، وقد زاده الغضب قوة وبأساً فقبض على كتف روكامبول بيد من حديد وأنهضه بعد أن كان راكعاً وكان الغضب قد أضاع صوابه فقبض على عنقه يريد خنقه فجعل روكامبول يصيح بملء صوته إلي . إلى القاتل ... الى السفاك ..

فلما سمع الكونت كلمة السفاك عاد اليه رشده ، ورفع يده عن عنقه وتراجع عنه خطوة الى الوراء وهو ينظر اليه بعينين تتقدان من شرر الغيظ ، وقال له : لقد أصبت ، فإنك وإن كنت قد دخلت الى منزلي دخول اللصوص ، فإني لا أقتلك دون ان يكون لك سلاح تدافع به عن نفسك .

ثم هجم عليه وصفعه باحدى يديه على وجهه وأخذ باليد الأخرى سيفين كانا معلقين على الجدار .

وعند ذلك تراكض الخدم مسرعين الى الغرفة ، فأمر الكونت بعضهم أن يعتني بامرأته التي أغمي عليها ، وأمر الآخرين أن يذهبوا بالأنوار الى الحديقة . وخرج يتبعه روكامبول الى الحديقة التي جعلاها ساحة لهذا العراك . وهناك قال للخدم : انه إذا قتلني هذا الرجل ، فلا يقبض

أحد عليه .

ثم أخذ الاثنان يتقارعان بسيفهما لا يحضر مبارزتهما غير الخدم

- ٦١ -

وبينما كان الكونت وروكامبول يتبارزان ، كان أندريا يسير آمناً مطمئناً الى سانت مالو وهو يلتفت من حين الى حين الى قصر كارلوفان فيخفي البعد أنواره حتى احتجبت تلك الأنوار عن عينيه فقال في نفسه : هوذا قد أطفأ آخر نور من عائلة كركاز . وابتسم ابتسام الأبالسة وهو يقول : لقد ظفرت بعد صبري الطويل

ثم نظر الى جهة البحر فرأى أن سهماً نارياً عقبه أسهم جعلت تشق كبد السماء فانتعش جسمه من الفرح وقال . هوذا الربان قد ظفر بباكارا وحبسها بالسفينة ، وهذه الأسهم هي الاشارة المصطلح عليها بيننا .

وانطلق مسرعاً الى الميناء وعزم على ان يذهب الى السفينة في اول قارب يصادفه . ولما مشى قليلاً سمع صوت رجل يناديه ، ونظر اليه مندهلاً فاذا هو جون ايرد ربان السفينة فحياه الربان باحترام وقال له : قد أتيت لأذهب بك الى السفينة فانهم ينتظرون فيها .

ففرح اندريا وقال : أوقع الطير في الشرك ؟

ــ نعم بحسن تدبيرك .

ــ كيف رأيت جمال باكارا ؟

ــ إنها تستحق ان تكون ملكة لتلك القبائل المتوحشة الذاهبة اليها .

ــ بل إني أؤثر ان يمزقوها حية ويولموا عليها الولائم .

ــ ربما كان هذا نصيبها أفلا تزورها وتودعها بكلمة ؟

— إني ما اتيت إلا لهذا . إمض بنا .

ثم ركب الاثنان قارب السفينة وجرى بهما حتى بلغ الى السفينة فصعد اليها فقاده الربان الى قاعة فيها وقال له فسأرسل اليك باكارا .

ولم يمض هنيهة حتى دخلت باكارا وقالت له أهذا أنت يا سيدي الفيكونت ؟

فضحك أندريا ضحكاً عالياً وقال لها لست بسيدك الفيكونت بل أنا السير فيليام الذي عرفته من قبل .

فنظرت اليه باكارا باحتقار وقالت له : إني أعرف ان تلك التوبة لم تكن غير كاذبة وان نار انتقامك كانت كامنة تحت رماد الغش والتدليس ثم اني أعلم ان هذا الرجل بل هذا الوحش الضاري الذي أحبطت جميع مساعيه الشريرة وأمانيه الأثيمة يكرهني الى ان يتمنى لي الموت .

— لقد أصبت ايها العزيزة فان جميع الذي لفظت به حق لا ريب فيه .

— واني أعلم ايضاً انه اختطف تلك الفتاة التي كنت أربيها في منزلي وكان يحبها حب الفجار الفاسقين .

— إنها جميلة هذه الفتاة وان مدام فيبار ستربيها في باريس بدلاً منك .

فقال له ربان السفينة الذي كان يسمع الحديث : لقد أخطأت يا حضرة السير فيليام لأن الفتاة ليست في باريس بل هي في سفينتي .

ونظرت باكارا الى اندريا فرأته يصفر ويضطرب فقالت له بلهجة الهازيء: لقد صدق المثل القائل ان لكل صارم نبوة، فلقد كنت رجلاً لا يحتفل بالنظام الإنساني ولا يكترث الشرائع المقدسة ولا قيمة لديه لحياة الناس بل كنت تمشي الى غايتك لا تلوي عنها مشي الظل الزاحف . فما كنت تجد في سبيلك حجر عثرة تصدك عن قصدك غير ان الله نظر الى شرك وأراد ان يوقفك عند حد في أثامك فوضع نصب عينيك هذه الفتاة التي كان يضطرب لها فؤادك على خلوه من عواطف الانسان .

فضحك اندريا ايضاً وقال للربان : إذا كانت الفتاة هنا فلماذا لا تحضرها لي لنسمع حديثها بدلاً من حديث هذه المرأة .

فأجاب : ها انا ذاهب لاحضارها .

ولما خلا اندريا بباكارا قال لها: لقد خسرت بسألة فرناند خمسة ملايين ولو لم أتمكن من الفرار لكنت قتلتك .

— كان ينبغي ان تقتل .

— ربما ولكني لم أجد بدأ من مكافأتك ، فلقد أعددت لك جزاءاً غريباً أتعلمين ما هو ؟

وردت باكارا دون اكتراث . كلا فما هو ؟

— إنك الآن في سفينة تدعى فولر ، ربانها من رجالي وستسير هذه السفينة اليوم الى اوسيانيكا . أما جزاؤك فهو اني أمرت هذا الربان ان يلقي بك في إحدى جزر القبائل المتوحشة حيث يصنعون كل يوم وليمة على قطعة من جسدك الترف الناعم .

ثم قهقه ضاحكاً وهو يحسب ان باكارا ستصيح صياح الرعب وتسقط متوسلة على قدميه . غير انها كانت تسمع حديثه متبسمة ، ولما فرغ منه قالت له: لقد أخطأت يا حضرة المنتقم فلست انا التي سأذهب الى هذه القبائل المتوحشة بل انت .

وحين انتهت الى هذه الكلمة أزيح الستار عن باب الغرفة وولج منه رجل وقال له : لقد كنت تحسبني ميتاً فيما أظن .

ورجع اندريا منذعراً الى الوراء لأن هذا الرجل كان الكونت ارتوف .

٦٢

ولنظهر الآن السبب في قدوم الكونت ارتوف فنقـــول انه حين القى روكامبول في البحر عاد مع باكارا ومدام الفونس الى باريس ، فأوصل باكارا الى منزلها وذهب بمدام الفونس الى منزله كي يدفع لها المائة الف فرنك حسب الاتفاق .

وقد تقدم لنا القول ان فانتير كان قبض من روكامبول نصف اجرته عن قتل الكونت ارتوف وتعهد ان يقتله في تلك الليلة فتربص له على باب النادي الذي كان يسهر فيه الى الساعة الحادية عشر ، فلم يخرج ثم رأى سائق مركبته يعود بها في طريق منزله دون ان يكون فيها الكونت ، فحسب انه يريد أن يسهر في منزل باكارا . وفي الحال ركض حتى أدرك المركبـة فتعلق بها ثم دخل تحتها مستنداً على قاعدة الدواليب . ولما بلغت المنزل فتح البواب الباب الخارجي ودخلت الى الردهة ودخل فانتير فيها فأقام مختبئاً بين دواليبها ساعة حذراً من ان يعود السائق لغرض من الأغراض ، وبعد ذلك طلع من مخبأه ، وكان يعرف منزل الكونت لصداقته مع الخدم ، فانسل دون ان يشعر بـــه أحد من الخدم لأنهم كانوا نياماً ، وفتح الباب بمفتاح خاص ثم ولج إلى غرفـة مجاورة للغرفة التي ينام فيها الكونت وتربص مختبئاً فيها .

ولبث في مكانه حتى عاد الكونت مع مدام الفونس ودخل الى غرفتـــه وسمع فانتير صوتها ونظر من ثقب الباب فرأى مدام الفونس وعلم انها المرأة التي ذهب اليها روكامبول ، فعجب لهذا الاتفاق وأنصت لحديثهما كي لا تفوته كلمة منه فرأى ان هذه المرأة جلست على مقعد جلوس المضطرب وقالت : أمر فظيع هائل

فقال لها الكونت : لا أنكر ما تقولين . ولكنه كان واجباً لا بد منه فقد رأيت بعينيك وسمعت باذنيك فعلمت ما أعلمه من آثام هذا الرجل .

ـ وأنا لا أنكر ايضاً انه أثيم ولكن أكان يجب قتله لهذه الآثام ؟

فاضطرب فانتير في مكنه وقال : عن أي رجل يتكلمان العله روكامبول؟

ثم سمع الكونت يقول معترضاً : كيف لا يجب قتله ولو أبقينا هذا المركيز الكاذب أما كان قتل الكونت ارمان ؟

فجعل العرق البارد ينصب من جبينه وقد أيقن أن روكامبول مات وأنه لم يعد له رجاء بقبض المال منه .

أما مدام الفونس فإنها أعيت عن الجواب ، ولكنها لبثت مستنكرة القتل فقال لها الكونت إنك ستكتمين هذا السر في كل حال .

- لا بد لي من كتمانه لأني شريكة لكما بقتل هذا المسكين .

- بقي أن أدفع لك المائة الف فرنك التي وعدتك بها .

ثم ذهب الى خزانته ففتحها وأخرج منها أوراقاً بهذه القيمة وهو يقول : ليس لدي اليوم غير هذه القيمة فخذيها .

ـ كلا ، فان هذا المال ثمن دم ذلك المسكين وهو يورثني الشقاء .

وألح عليها فأبت فقال لها: إذن خذيها وضعيها في صندوق الصدقات المعلق على باب كنيسة نوتردام ، وهذه مركبتي انها توصلك الى الكنيســة ثم تذهب بك الى منزلك .

ـ أحسنت فان التبرع بهذا المال على الفقراء سيكون كفارة عن ذنوبي .

وأخذت المال وودعته وانصرفت .

وبينما كان الكونت ينزع ثيابه لينام كان فانتير يقول في نفسه : إن روكامبول مات بعد ان أباح بأسرار السير فيليام، ولا بد ان يكون الكونت وباكارا قد اتخذا الوسائل اللازمة لانقاذ ارمان دي كركاز من مخالب أخيه فاذا قتلت هذا الكونت فلا أستفيد من قتله شيئاً لا سيما وانه لم يبق في خزانته شيء من المال وخير لي ان اتفق مع هذا الكونت فقد يعرض علي ما خسرته بموت روكامبول .

وعند ذلك فتح باب الغرفة المختبىء فيها ، ودخـــل وبيده الغدارة على الكونت . وكان الكونت قد خلع ثيابه وصعد الى سريره وأخذ يقرأ في كتاب ، فلما رأى هذا الأسود داخلاً اليه وبيده غـدارة يصوبها اليه ذعر لمنظره غير أنه تجلد ولم يظهر شيئاً من دلائل الخوف بل قال له بسكينة : من أنت وماذا تريد ؟

فوضع فـانتير الغدارة على المستوقـد ، ودنا من سرير الكونت ، ووقف بازائه وقال :

– إنك يا سيدي الكونت رجل شريف لا تخل بوعد ولو صدر هذا الوعد منك الى لص .

– ذلك لا ريب فيه ولكن من أنت وماذا تريد ؟

– أنا لص وقد أوشكت ان اكون قاتلاً . أما ما أريده فلا انطق به إلا اذا تعهدت لي ان تسمعني دون أن تنادي خدمك فيطردوني .

– قل وانا أتعهد لك بسماع جميع حديثك

– إني دخلت منزلك يا سيدي الكونت دخـول اللصوص ولكني لم أكن أبغي سرقة مالك بل ما هو أعز من المال .

– العلك كنت تريد قتلي ؟

– نعم وقد كنت مدفوعاً الى قتلك باجرة معينة قدرها عشرة آلاف فرنك قبضت نصفها مقدماً

وابتسم الكونت وقال: احب ان أعرف اسم هذا الرجل الذي يقدر حياتي بهذه القيمة .

– إنها قيمة زهيدة يا سيدي الكونت ولكنك من الأغنياء .

وابتسم الكونت ايضاً وقال : لقد علمت الآن السبب في عفوك عني ، فلقد قلت في نفسك ان الكونت غني وقد يمنحني ضعف هذه القيمة فاذا كان ذلك فاني أمنحك عشرين الف فرنك فاذهب بسلام .

– أشكرك يا سيدي جزيل الشكر إلا إني لم أتشرف بالمثول أمامك لهذا السبب وحده .

- لأي سبب ؟

– إنك يا سيدي تراني أسود اللون غـــير اني إذا اغتسلت بالماء السخن ودهنت جسمي ببعض المواد صار اكثر بياضاً من جسمك .

– ماذا أسمع الست إذن عبداً أسود ؟

– كلا يا سيدي ولكن دخولي في خدمة المركيز دون اينجو اضطرني الى ان أصبغ جسمي بلون اسود .

– أنت كنت في خدمة هذا الرجل ؟

– نعم .

– وهو الذي دفع لك خمسة آلاف لتقتلني ؟

– نعم .

– لقد أحسنت اذن برجوعك عن قتـلي لأنك لو قتلتني لخسرت الخمسـة آلاف الأخرى .

– لقد عرفت يا سيدي لأني سمعت ما كنت تحدث به تلك السيدة .

– إذن أخبرني الآن بماذا تريد ؟

– إنك وعدتني أولاً بأن تمنحني عشرين الف فرنك ، ثم تسمع جميع حديثي .

– سأفي بالشرطين

– إذن ، اعلم ان لهذا المركيز الذي قتلته اسماً ثانياً .

– عرفت ذلك .

إنما بقي امر ثان لم تعلمه وهو انه لدي سر هائل يختص بشخص تحبه فاذا وقفت عليك فانك تساومني بشراه

فاضطرب الكونت وقال : من هو هذا الذي احبه ؟

ـ أعيد عليك يا سيدي ما وعدتني به من إطلاق سراحي بعد الوقوف على أسراري ثم أذكرك اني رضيت بعشرين الف فرنك مقابل رجوعي عن قتلك إلا ان السر الذي سأطلعك عليه يساوي اكثر من هذا الثمن وسأذكر لك اسم الشخص كي تعلم خطورة هذا السر إنه باكارا .

وانذعر الكونت وقال : باكارا ... العلها مهددة بخطر ؟

ـ وبخطر عظيم .

ـ وهل تستطيع الإباحة به ؟

ـ دون شك

ـ إذن اذكر المبلغ الذي تريده وقل لي

ـ لا تظن يا سيدي اني أطمع بك . ولكن الخطر الذي يتهدد باكارا أشد من الموت . ومثل هذا السر لا يباح بأقل من مائة الف فرنك ، فهبني هذا المبلغ وأنا أعاهدك على ان أسلمك ايضاً هذا الرجل الذي تطارده دون أن تتمكن من القبض عليه ، والذي لم يكن روكامبول او المركيز سوى آلة في يده .

ـ العلك تعني السير فيليام ؟

ـ نعم .

فأشار الكونت الى منضدة وقال له: ادنها مني كي أكتب لك حوالة على بنك إذ ليس لدي شيء من المال

فامتثل فنتير وبينما هو يدني من المنضدة ، إذ فتح الباب بغتة ودخلت منه باكارا وهي منذعرة شاحبة اللون فقالت قبل ان ترى فانتير : إنهم دخلوا الى منزلي في الليل واختطفوا الفتاة .

ثم رأت فانتير فصاحت صيحة منكرة لأن الخادمة روت لها ان بين الذين اقتحموا المنزل كان يوجد رجل أسود

أما الكونت فانه وثب من سريره ولبس عباءة وأسرع الى باكارا ووضع

يدها بين يديه وقال لها : لا تخافي ان هذا الرجل . .

وقاطعه فانتير قائلاً إن هذا الرجل هو أحد الذين اختطفوا الفتاة . ثم قال لباكارا : لا تخشي يا سيدتي إن الفتاة ترد اليك سالمة في الغد

وعند ذلك قدم المنضدة حتى وضعها قرب الكونت ، فقال له : إعلم يا سيدي السفاك إنك لو عاهدت رجلاً من عوام الناس لحنث بعده معك ، إن هذه السيدة الآن بقربي ولا خوف عليها ، ولكني من النبلاء ولا يحنث النبيل بما يعد

فابتسم فانتير وقال ان وجود السيدة باكارا بقربك لا يبعد عنها الخطر الهائل الذي ينذرها اذا لم أتكلم واذكر اسم ذلك المنتقم .

فقالت باكارا : من هو هذا الرجل وما شأنه ؟

فروى لها الكونت بجميع ما كان بينه وبين فانتير فقال اني أعيد عليك ما قلت وهو اني اذا ذكرت لك اسم رجل لا يعلم بوجوده في باريس سواي ، تتلاشى عن السيدة كل المخاطر ، وتقبض على السير فيليام كما تشاء .

فأجابه الكونت بأن وضع ورقة وكتب عليها حوالة على بنك روتشيلد بمائة الف فرنك ودفعها اليه ، فوضعها فانتير في جيبه والتفت الى باكارا قائلاً : لا أعلم يا سيدتي ماذا فعلت مع السير فيليام فاستحقيت منه هذا الكره الوحشي واعلمي الآن انه لو لم يحسن إلي الكونت ارثوف ويعطيني من النقود ما يكفيني لأن أعيش عيشة صالحة الى نهاية أيامي لتمكن السير فيليام من ان ينفذ بك انتقامه الهائل، فان لديه الآن رجلاً يحكم على عصابة لصوص تمهد للسير فيليام ان يحملك على سفينة الى جزائر المركيز ويلقيك فيها بين مخالب قبائلها المتوحشة .

وان هذا اللص السفاك مدين لرجلين يخلص لهما إخلاصاً شديداً وأحد هذين الرجلين السير فيليام وهو يقتل نفسه من أجل السير فيليام ، ولكنه يقتل السير

فيليام من أجل ذلك الرجل الثاني .

فسأله الكونت منذهلاً من هو هذا الرجل ؟

– هو أنت يا سيدي .

فزاد عجبه وسأله : من هو هذا اللص وما اسمه ؟

– إنه رجل أنقذت حبيبته من النار .

فتذكر تلك الحادثة وسأله : أهو ربان إنكليزي ؟

– نعم ، وهو يدعى جون ابرد . فاذا أمرتني يا سيدي احضرته اليك من فندقه حالاً .

فنادى الكونت أحد الخدم قائلاً : خذ باحدى مركباتي هذا الرجل الى حيث يريد وارجع به إلي .

فذهب فانتير الى الفندق الذي يقيم فيه الربان وأيقظه من رقاده قائلاً. هل انت مستعد لاختطاف السيدة ؟

– نعم ، إني لا اعصى امراً للسير فيليام .

– ولكنك اذا عرفت من هي هذه السيدة فانك ترجع عن طاعته .

– من هي ؟

– هي حبيبة الكونت ارتوف .

فذعر الربان مما سمع واجاب : إذن لا بد لي من قتل السير فيليام لانـه اقترح علي مثل هذه الخيانة .

– ان الكونت يتوقع منك احسن من ذلك فهو يريد ان تذهب بالسير فيليام إلى هذه القبائل المتوحشة بدلاً من باكارا .

فأجاب الربان ببرودة الانكليز : ليكن ما يريد الكونت :

– اذن لنذهب اليه.

وذهب الاثنان إلى الفندق الذي يقيم فيه روكامبول ، وذلك لأنه خطر لفانتير ان يسرق جميع ما يجده لدى روكامبول بعد أن علم بقتله ، ولما خرجا

من هذا الفندق شاهدتهما مدام فيبار وعلى وجهيهما علائم السرور فأيقنت ان فانتير قتل الكونت أرتوف، واخبرت روكامبول بما تقدم ، وبعد هنيهة وصلا إلى الكونت أرتوف فأمرهما أن يختطفا الفتاة اليهودية من منزل العجوز ففعلا وعاد بها إلى باكارا ، وفي اليوم التالي ذهبوا جميعهم إلى باخرة الربان ما عدا فانتير فإنه أخذ الأموال التي منحه اياها الكونت وسافر بها إلى لندرا .

- ٦٣ -

لقد تركنا ارمان وروكامبول يتلاحمان على ضوء المشاعل التي كان ينيرها الخدم ، وكان روكامبول معتمداً في مبارزته على الضربة الايطالية التي تعلمها وهو واثق من التغلب على الكونت ، فكان يقاتله بسكينة وبرود خلافاً للكونت فانه كان هائجاً أشد الهياج ، فلما ضاق ذرع روكامبول ورأى ان خصمه خبير بفنون القتال وانه يوشك أن يتغلب عليه عمد إلى الضربة الايطالية إلا انه ما لبث أن بدأ بمقدماتها حتى علم الكونت قصده وصاح به خسئت ايها الغادر فإني تعلمت هذه الطعنة قبلك ، ثم انقض عليه انقضاض الصاعقة وضربه ضربة شديدة وقعت في أعلى صدره فصاح روكامبول صيحة ألم وسقط على الأرض .

وعند ذلك رمى أرمان سيفه الى الأرض وسكن ثائر غضبه فأسرع إلى خصمه فضمد له جرحه وأمر الخدم أن يحملوه إلى غرفة في فناء القصر ثم أمر أحدهم ان يسرع باحضار الطبيب وكأنه قد نسي جميع ما كان من خصمه فجلس بازاء سريره يعتني به ويعامله معاملة الصديق الرؤوف .

ولما حضر الطبيب كان روكامبول مغمياً عليه لفرط ما نزف من دمائه

فاستفاق من اغمائه وسمع الكونت يسأل الطبيب : ألعـــل الجــرح خطير ؟

– انه شديد الخطورة يا سيدي قد يفضي إلى الموت

ورأى الكونت ان روكامبول قـد فتح عينيـــه ، فأشار للطبيب بالصمت .

ودنا الطبيب وجس نبض روكامبول ثم أشار لأرمان أن يتبعــه فتبعه إلى نهاية الغرفة وجعل يحادثه بشأن الجريح .

أما روكامبول فانه اضطرب اضطراباً شديداً من الموت وذكر ان اندريا كان السبب في جميع ما أصابه من الشدائد وما يلقاه الآن من خطر الموت فحقد عليه وقال في نفسه : لا بد لي من الانتقام من هذا الرجل الذي لم يقتلني غير مبالغني بالاعتمادعليه ، فكان يتنازعه عاملان وهما الخوف من الموت وكره اندريا الذي جرعه هذا الكأس .

وفيما هو على هذه الحالة من الاضطراب دنا الكونت من سريره وقد فرغ من محادثة الطبيب وقال له كيف أنت الآن ؟

فأجابه روكامبول أود يا سيدي الكونت أن أخـلو بك ساعة فأبوح لك بسر خطير لا أحب أن ينزل معي الى القبر .

فأشار ارمان الى الطبيب فانصرف وقال لروكامبول : قل فاني مصغ اليك

– اني سمعت الطبيب يا سيدي يقول ان ساعاتي باتت معدودة فأردت أن تعرف من أنا وكيف اتصلت بك قبل أن أموت ، فـــاعلم يا سيدي اني لست المركيز دون أينجو ، وما أنا من أهل البرازيل .

فسأله ارمان منذهلا : اذن من أنت ؟

– إني الآلة المنفذة لأغراض رجل يدعونه الآن السير أرثير .

فاضطرب أرمان لأنه ذكر انه سمع هذا الاسم . وتابع روكامبول :وأنا

يا سيدي الذي تبارزت مع فرناند روشي وكان اسمي في ذلك الحين الكونت دي كامبول ، وحملت فرناند مع السير أرثير إلى منزل الفيروزة ، ثم قص عليه جميع ما جرى في منزل الفيروزة إلى أن أخبره كيف أن باكارا أحبطت جميع مساعي السير أرثير واضطرته إلى الفرار .

فاضطرب أرمان وقال له . من هو أرثير هذا وكيف لم يعلم بآثامه أخي؟

فابتسم روكامبول وقال له : اصغ لي يا سيدي فإن السير أرثير هذا كان له كثير من المشروعات الأثيمة وقد اشركني في جميع آثامـه فكان الرأس المرشد وكنت اليد العاملة . وقد خطر له يوماً أن يدع المركيز فان هوب يقتل امرأته كي يزوجه بابنة عمه الهندية .

– كيف ذلك ؟ أهي تلك المرأة التي وجدت ميتة في قصرها أمام عشيقها الذي قتلته .

لقد خدعتم ياسيدي فإن هذا العشيق الكاذب لم يكن إلا أنا ، ولم يكن الذي طعنني بالخنجر غير السير أرثير . ثم ذكر له تفاصيل جميـع هذه الحكاية وهو يذكر له أندريا باسم السير ارثير ، إلى ان تولد الشك في نفس ارمان فقال له وقد فرغ صبره : من هو ارثير هذا ومن أين أتى ؟

– سأشرح لك عنه ما تريد فامهلني الى ان أتم حديثي واعلم ان هذا السير عندما حبطت جميع أمانيه بقي له رجاء واحد وهو ان يتزوج السيدة حنة دي كركاز متى أصبحت ارملة ولهذا قد علمني هذه الطعنة الايطـالية وأمرني أن اقتلك .

وصاح ارمان صيحةَ رعب مما سمع ، وعاد روكامبول إلى حديثه فقال : واعلم يا سيدي اني ما تجاسرت على حب السيدة دي كركاز ولا رفعت اليهـا نظري مرة لحسابي الخاص .

فقال أرمان بصوت يضطرب : إذن ما هذه المبارزة مع أخي اندريا ؟

- أمعن بي النظر يا سيدي لعلك تعرفني، وسأعينك على معرفتي ، ألا تذكر تلك الليلة في بوجيفال حين وضعت خنجرك على عنقي وطلبت الي أن أرشدك إلى حيث تقيم حنة وسريز .

فذكر ارمان للحال تلك الليلة الهائلة وقال : لقد عرفتك فأنت روكامبول .

- نعم يا سيدي وأنا أيضاً ذلك الرجل الذي كان بين خدمك والذي كان يركب وراءك في المركبة حين لقيت أخاك أندريا منطرحاً على الطريق كأنه على وشك الموت ، أما السير أرثير فقد كان يدعى من قبل السير فيليام وأنت تعلم ان السير فيليام هو الفيكونت أندريا

وصاح أرمان صيحة منكرة وكاد يسقط من فرط تأثره .

فقال روكامبول : وهو يا سيدي الذي يعلمني الطعنة الايطالية منذ ثلاثة أشهر ، وهو الذي دلني منذ ساعتين على الطريق التي أصل بها الى غرفة امرأة اخيه .

فذكر أرمان جميع ما قالته له باكارا عن أندريا وقال : تباً له من خائن .

- أن ما قلته لك يا سيدي صحيح لا ريب فيه على إنك إذا كنت مرتاباً في صحة ما قلته فإن لدي برهاناً دامغاً ولكني لا أقوله لك مجاناً بل أبيعك إياه بيعاً ، ولا تحسب يا سيدي ان الندامة دعتني إلى الإباحة بأسرار اندريا بل هو الانتقام لأني ما أحببت أن أموت وحدي .

فقال ارمان : إذن قل برهانك .

- ان باكارا مهددة الآن بخطر هو شر من الموت فاذا بحت بهذا السر سلمت من الخطر وإلا فانها تقع في شرك السير فيليام .

- اسرع وقل ما تريد ثمن هذا السر

- أن تعدني أولاً انه إذا أخطأ الطبيب ولم أمت فلا تسلمني إلى الشرطة

- اقسم لك بشرفي على ان تخرج من منزلي حراً .

– ثانياً أن تعطيني يوم أخرج من منزلك مائة الف فرنك وجواز سفر الى انكلترا .

– سأعطيك ما طلبت فقل ..

فأخبره عند ذلك بجميع ما كاده أندريا لباكارا وأنها لا بد ان يكونا الآن في سفينة الربان الانكليزي .

فهلع فؤاد ارمان من الخوف على باكارا ونادى أحد الخدم وطلب اليه ان يسرج له جواداً في الحال ، وبعد عشر دقائق ركب جواده وسار ينهب به الأرض الى الميناء . فقال روكامبول في نفسه : مت أيها الشقي وعزائي اني لا أموت وحدي.

لنعد الان الى السفينة فلقد غادرنا اندريا منقلب السحنة منـذعر الفؤاد حين طلع عليه الكونت ارتوف وهو يحسب ان فانتير قد قتله كما اخـبره روكامبول ، فلما رآه ضاع صوابه وجعل يقلب طرفـه بين الكونت وباكارا وينظر اليهما نظرات اليأس لما كان يعلمه ان اجتماع هذا الكونت بالربان يقضي عليه فعلم للحال انه وقع في الشرك الذي نصبه وساد سكوت هائل بين الثلاثة فلم يتكلموا إلا بالنظر .

ولقد كان يجول في ذهن اندريا القاء نفسه الى البحر والفرار أو الهجوم بخنجره على باكارا أو الانتقام منها بالقتل ، الا انه لم يستطع تنفيذ شيء من ذلك لأن قوته قد تلاشت وفقد رشده شأن كبار المجرمين حين يباغتون بخطر لا يتوقعونه ، فبدأت باكارا الحديث فقالت بصوت هادىء ثابت خرج من فمها كالقضاء المبرم : لقد دنت ساعة العقاب يا حضرة الفيكونت أندريا ويا جناب السير فيليام .

فرفع اندريا رأسه وحاول ان يجيب فانقض عليه الكونت ارتوف انقضاض الصاعقة فقبض على عنقه بيد من حديـد ووضع خنجره على صدره ينـذره بالموت فجعل اندريا يصيح بصوت مختنق : الي . يا جون .. الي ايها البحارة ثم حاول ان يجرد خنجره فلم يخرج نصف نصاله حتى القــاه الكونت على الأرض ووضع ركبته فوق صدره ولم يعد يستطيع حراكاً .

وعند ذلك أتمت باكارا حديثها فقـــالت . لقد قلت لك يا حضرة الفيكونت ان حبك الفاسد لهذه الفتاة اليهودية كان السبب في سقوطك ، فلقد اشركت في اختطافها جون ايرد وروكامبول ، وعهد هذا الأخـــير

شريكك بالآثام الى فانتير ان يقتل الكونت ، ولكن فانتير خانكم جميعاً وكان ذلك بقضاء من الله كي تنقطع شرورك من الأرض .

فأن اندريا أنين الموجع السقيم وجعل الزبد يخرج من شدقيه فقالت باكارا : كان جون ابرد شقياً لصاً مثلك ولكنه كان له بين جنبيه قلب يعرف الامتنان وقد أحسن اليـه الكونت فاخلص له وانقلب من خدمة اللصوص إلى خدمة الاشراف ، أعلمت الآن كيف وقعت في الشرك ؟

وقال له الكونت : انك تستغيث فلا يغيثك أحد وتطلب الاشفاق عليك فلا تجد مشفقاً لأنك لم تشفق على أحد فاستسلم للموت فسينفذ فيك قضاء الله .

وعلم اندريا انه مقضي عليه فجعل يستعطف ويقول رحماكم

فقالت له باكارا وهي تبتسم ابتسام المتهكم : ألعلك كنت رحمتني لو وقعت في قبضتك .

فهاج الحقد بصدر اندريا حتى انساه موقفه الحاضر وقال : كلا .

— أما أنا فلو كنت اسأت إلي وحدي لكنت صفحت عنك ، غير أن الذين اسأت اليهم كثيرون .

فلمعت عيناه ببارق من الأمل وعاد إلى التوسل والاستعطاف .

غير أن أمله لم يطل فأن باكارا قالت : لست أنا التي أحكم عليك الآن بل الكونت ارتوف بل جميع اولئك الذين أسأت اليهم ، فانظر

وحين قالت هذا القول ازيح الستار عن باب الغرفة فارتعش أندريا حيث انه رأى على مقعد طويل المركيز فان هوب وعلى يمينه الكونت مايلي وعلى يساره فرناند روشي ووراءهما ليون ورولاند والفيروزة التي جنت وهي تضحك وتبكي في حين واحد وبالقرب منها الفتاة اليهودية .

فلما رأى اندريا هذا المنظر الهائل صاح يقول رحماكم !

نظرت باكارا اليه وقالت : هوذا الذين اسأت اليهم قد اصبحوا قضاتك

الآن . ثم نظرت اليهم جميعهم وقالت لهم من اراد منكم أن يعفو عن هذا الأثيم فليرفع يده ؟ فلم يرفع يده بينهم غير الفتاة اليهودية . فقالت باكارا : أنظر الى هذه الفتاة التي أردت أن تدنسها فانها وحدها التي صفحت عنك ولذلك فانك لا تموت ولكنك اذا سلمت من الموت فلا تسلم من العذاب .

وعند ذلك تولى الكلام عنها الكونت ارتوف فقال : نحن الان في البحر وصاحب هذه السفينة حاكم فيها تطيعه النوتية كما تطيع الجنود قوادها وانت أيها الخائن قد اخترعت لنفسك العقاب فستقذف بك هذه السفينة إلى أحد شواطىء جزيرة المركيز فتلقى من توحش قبائلها جزاء ما جنته يداك غير انه لما كنت قادراً على الشر بحيث يخشى لفرط دهائك أن تفلت من السفينة وتعود الى أوروبا ثم لما كان الأفعى ينزعون اسنانه حين يخشون نفث سمه القاتل فقد رأيت أن أنزع منك تلك القوة كي لا يكون لك بعد ذلك سبيل إلى الشر . ثم تكلم كلاماً باللغة الروسية فدخل الروسيان اللذان عرفهما القراء في حادثة روكامبول حين القياه في النهر وكان احدهما يحمل غدارة محشوة والاخر يحمل موسى فامرهما الكونت فقبضا على اندريا ثم تراجع فجلس على المقعد الذي كان يجلس عليه فرناند ورفاقه فقال الكونت انك كنت تغري النساء بجمالك وتغري رجالك فصاحة لسانك فسيشوه هذا الوجه ويقطع هذا اللسان كي تصبح عبرة لبني البشر .

وفيما هو يقول ذلك إذ دخل جون إيرد وقال اسرعوا فلقد اقبلوا !

فقال الكونت : من هم ؟

— لا أعلم إني رأيت أربعة رجال يسرعون إلى سفينتي بقارب .

قالت باكارا : لعله أرمان .

فهاج الحقد بصدر اندريا وقال : ان أرمان قد قتل .

فذعر الجميع لهذا النبأ ، ما خلا الكونت وباكارا فانهما كان يحسبان أن

روكامبول قد مات .

قال لها اندريا : انكما تحسبان روكامبول ميتاً وقد نجا من الكيس الذي القيتماه فيه في نهر المارن وقتل الكونت منذ ساعة وفر .

فذعرت باكارا وقالت : إذا كان ما تقوله صحيحاً فاستعد لأفظع موت ثم خرجت مسرعة الى ظهر السفينة ، فأخذت منظر الربان ونظرت به إلى القارب فرأت أرمان فيه على نور المشاعل : فرجعت مسرورة الفؤاد وقالت : كذبت ايها الخائن فهوذا أرمان قد اتى ولكنه اتى بعد فوات الأوان فلا تؤمل ان يشفع بك .

وعند ذلك أصدر الكونت اشارة إلى خادميه الروسيين فسقط الستار بين الحـــاضرين وبين اندريا ، إذ لا يجب على القضاة أن يحضروا تنفيذ العقاب .

ولم يكن يصعد الحاضرون إلى ظهر السفينة حتى رأوا ارمان مسرعاً اليها مع ثلاثة من خدامه ، وكلهم مسلحون ، ولكنه ما لبث أن رأى باكارا حتى تراجع منذهلاً إلى الوراء قائلاً : ماذا أرى ؟

– إن الله معنا يا سيدي الكونت فلنشكر الله

– واندريا الخائن اين هو ؟

– انه يلقى العقاب الذي يستحقه .

ثم أخذته بيده الى حيث كان الجالسون على المقعد فسمع أندريا يئن أنيناً يخرج من صدره كزئير الوحوش ، فتقطع قلبه من الاشفاق وذكر ان أماً واحدة حملتها فاسترسل إلى عواطف حنوه ونظر إلى باكارا قائلاً : انه أخي ...

ولم يكد يتم هذا القول حتى انقطع الأنين وخرج صوت غدارة يدوي في جوانب السفينة .

فسائلهم أرمان : ماذا أسمع العلهم قتلوه .

– كلا . تعال وانظر .

ثم أزاحت الستار فتراجع أرمان منذعراً لما رآه ..

ذلك أن أحد الخادمين قطع لسانه بموسى فجعل الدم يسيل من فمه فيخضب الأرض ، وأطلق الآخر غدارة محشوة بارود فسقط على وجهه فشوهته تشويهاً هائلاً وفقأت إحدي عينيه ...

وعند الفجر سارت السفينة باسيرها المشوه إلى القبائل المتوحشة .

* * *

أما أرمان فإنه عاد إلى منزله والحزن ملء فؤاده ، فأخبر روكامبول بما كان ، وقال له : انه مهما يكن من سابق شروك فــاني سأفي بوعدي لك

ومنحك المائة الف فرنك التي وعدتك بها ، فمتى خرجت من قصري معافى تقبضها من الوكيل .

ثم برح كارلوفان مع امرأته وولده وعاد إلى باريس .

وتمكن روكامبول في خلال معالجته من الولوج إلى غرفـة اندريا فسرق جميع أوراقه .

وبعد شهر تزوج الكونت أرتوف بباكارا وسافر بها الى روسيا .

وفي اليوم نفسه سافر روكامبول الى لندرا بأموال أرمـــان دي كركاز وأوراق استاذه أندريا .

انتهت رواية « التوبة الكاذبة »

ويليها الجزء الثالث من روكامبول « الغادة الاسبانية »


الجزء الثالث

الغـادة الاسبانية

الغادة الاسبانية

\- ١ -

كانت الباخرة الفرنسية مويت ، وهي من البواخر التجارية قـــادمة من لفربول إلى الهافر .

وكان النسيم بليلا والجو صافياً والبحر ساكناً هـدأت مياهه فباتت كمياه البحيرات ، فكان ربان تلك الباخرة يسير على ظهرها ذهاباً واياباً وهو ينظر الى مـــا يكشف الفضاء من الصفاء نظرة رضى ، اذ لم يكن يكدر ذلك الجو الرائق غير دخان سيكاره الكثيف ثم كأنه قد تعب من المسير فجلس على مقعد قرب أحد المسافرين وقال له . إذا لبث الطقس على ما هو عليه الآن فاننا نصل صباح الغد الى ميناء الهافر فأرى فرنسا بعد فراقي لها اربعة أعوام .

وكان لباس المسافر وجوده يدلان على انه من الانكليز ولهذا فقد كلمـه الربان بالانـكليزية ، غير ان المسافر جعل يحادثه بالفرنسية الفصحى فأجابه : اذن اتظن اننا نبلغ الهافر صباح الغد ؟

\- نعم .. إلا إذا ثارت عاصفة او فاجئتنا الأقدار بمصيبة لا نتوقعها .

ثم أخذ الربان منظاره وجعل يراقب فيه جهات الفضاء الأربع وقال : إن السماء صافية والمياه هادئة فسأعهد بقيادة السفينة الى الربان الثاني وأنام

الليلة مطمئن البال . وبعد هنيهة ودع المسافر وانطلق إلى غرفته فبقي المسافر وحده على المقعد فجعل ينظر الى مغيب الشمس حتى توارت في حجابها ثم أسند رأسه إلى يده وأخذ يناجي نفسه فيقول :

« ما لقلبي قد اضطرب لمغيب الشمس ، وما هذا التأثر الذي أجده حين أرى أشعة القمر الذهبية ترقص فوق هذه المياه وقد عهدت قلبي خلواً من الاحساس ، وما انا من عالم الخيال أو الشعراء . وبعد فما هذا التشوق للوطن وما هذا الارتياح الذي أشعر به حين قربي من هذا الوطن بعد طول الغربة فإني أحتقر من يشكو وحشة الاغتراب بالحنين الى الأوطان ، بيد اني أشعر بأن قلبي يخفق سروراً حين اعلم اننا سنبلغ غداً الى الهافر ، العلي أصبحت شريفاً لطول عشرتي للاشراف ، واصبحت ذا قلب يحن بعد اختلاطي مع ذوي العواطف .. كلا ولكن هذا القلب الصخري لا يخفق هذا الخفوق لقرب وصولنا من الهافر ، الا لأن هذا الميناء لا يبعد سوى خمس ساعات عن باريس . »

وقد ذكر باريس كما يذكر الطفل اسم امه ثم قال : ايتها العاصمة الجميلة انك بلد رجال الجرأة والاقدام فلا يفوز فيك غير رجال المطامع والنوابغ من اهل المكر والدهاء ، فلقد اقمت اربعة اعوام في بلد الضباب اي عاصمة الانجليز لا اغمض عيني الا على رجاء ان تتمثل لي بالحلم باريس تلك العاصمة الزهراء مرسح المطامع وميدان اصحاب العقول الراجحة .

ثم تنهد وقال : نعم اني اقمت في لندرا اربعة اعوام ، وقد حان لي الان ان اعود الى بلادي ، ولقد نسي سكانها اني كنت ادعى الفيكونت دي كامبول ، والمركيز دون اينجو ، ورئيس الجمعية السرية ، وتلميذ السير فيليام .

ثم نهض رو كامبول وكان هو بعينه ونزل الى غرفته في السفينة واخذ ملفاً من الأوراق وجعل يقلب فيها ويقول : اف للسير فيليام وللغته الهيروغليفية

ومن لي بحل رموزها، فلقد كان يكتب لشدة دهائه بلغتين فيطلعني على اسرار الواحدة ويكتم عني الأخرى . فلقد مضى بي أربعة أعوام اقرأ هذه الأوراق دون ان أتمكن من حل طلاسمها وكلما دنوت خطوة من أسرارها بعدت ميلاً . مثال ذلك اني اقرأ بهذه الأوراق التي سرقتها ما يأتي

« يوجد في باريس في قصر .. في شارع ... »

وقـد كتب اسم القصر والشارع باللغـة السرية التي لا أفهمها ، ثم أقرأ ما يأتي :

« إن هذا القصر يسكنه المركيز والمركيزة دي، وابنتهما ويبلغ المركيز من العمر ستين عاماً والمركيزة خمسين وابنتها ثمانية عشر . أما المركيز فهو غني يبلغ إيراده مليوناً في العام ، ولهذا المركيز ولد إذا كان لا يزال في قيد الحياة فإن عمره يبلغ الآن أربعة وعشرين عاماً . ولهذا الولد قصـة وهي انه عندما كان عمره عشر سنوات أدخل في سفينة إنكليزية من بواخر شركة الهند بصفة نوتي ولم يظهر شيء من أمره بعد ذلك بحيث لا يعلمون إذا كان ميتاً او هو في قيد الحياة ، فإن المركيزة تجهل مصيره ولا يعلم أين هـو سوى المركيز . ولا بد له من ان يدفن هذا السر معه ، فانه لم يفارق ولده في عهد الطفولة ويرسله نوتياً في البحار ويكتم أمره عن إمرأته إلا لسبب عظيم ، إلا ان أمه لا تزال ترجو ان تراه ، فإذا رجع هذا الولد فإنه يرث ثلاثة أرباع ثروة أبيه حسب نظام تلك العائلة ويبقى الربع لأخته وعلى ذلك فيمكن أن ... »

إلى هنـا انتهت الكتابة الواضحـة ، وقد كتبت تتمة الحديث باللغـة الهيروغليفية الخاصة بالسير فيليام ، فكأنه يقول لي : يوجد في لندرا في منزل مشرف على الشارع كنز مـدفون وأين لي ان أعرف هذا المنزل فـأجد ذاك الكنز !

ثم دفع هذه الأوراق مغضباً لابهامها وقال في نفسه : إن غاية ما أعرفه

أنه يوجد مركيزة ترجو ان يعود اليها ولدها ، وان ما يمكن الاستفادة به من ذلك ان أكون ذلك الولد ، فإننا بعمر واحد وقد غادرته طفلاً فهي لا تعرفه الآن . ولكن كيف أفعل هذا وأنا لا أعرف اسم المركيزة ولا اين تقيم ولو ذكر لي السير فيليام اسم الشارع على الأقل لهان الأمر ، ولكنه حمل سره معه الى جزائر المركيز .

ووالله اني أشفق على هذا الرجل وأحسده في حين واحد . أمـا إشفاقي عليه فلأنه مـا شرع في مكيدة إلا بناهـا على أمتن دعائم الحكمة وحسن التدبير ، ولكنه لم يفلح بأمر لما خص به من نكد الطالع . وأما حسدي له فلـا أوتيه من الدهاء وبعـد النظر في الأمور . ومن أين لي عقـل هذا النـابغة .

وما أوشك روكامبول ان يتم هـذه المناجاة ، حتى سمع صوت ضجيج وتهافت المسافرين الى ظهر السفينة وصوت الربان يصدر أوامره الشديدة الى البحارة . فقال في نفسه : ما هذا الانقلاب ؟ إني غادرت الربان منذ ساعة آمناً مطمئناً ، وهو الآن يضطرب وينادي البحـارة . فما معنى هذا الانقلاب ؟

ثم برح غرفته وصعد الى ظهر السفينة ، فوجده يلقي الأوامر والبحارة يطوون الشراع وعلائم الذعر بادية في وجوه المسافرين ، ومع ذلك فإن البحر كان لا يزال على سكونه والجو على صفائه فلم يفقهْ روكامبول معنى هذا الهياج ودنا من أول مسافر لقيه وكان يلبس لباس رجال البحرية وسأله : أتأذن لي يا سيدي ان أسألك عن السبب فيما أراه من ذعر المسافرين واهتمام البحارة بطي القلوع

فأجابه المسافر : ذلك لأن العاصفة ستفاجئنا .

- أين العواصف وأنا لا أجد سحابة في السماء ؟

- إنك لا تراها لأنك لست من رجال البحرية ، فخذ هذا المنظار وانظر الى

أسفل الجهة الغربية من الأفق .

وأخذ روكامبول المنظار ووجهه الى الجهة المشار اليهـا ، ورأى غمامة صغيرة تشبه الشراع فقال : ما عسى ان يكون وراء تلك الغمامة ؟

— ما وراءها سوى العاصفة ، فإنها ستتسع وتمتد حتى تعم بعد ساعة جميع هذا الفضاء فتنقض منها الصواعق وتزبد مياه هذا البحر الساكنة فترقص السفينة على أمواجها كما تضطرب أشعة القمر الآن فوقها بحيث لو أسفل شراع دون طي غرقت السفينة لا محالة .

وكان الرجل يتكلم بما يدل على خبرته في فن البحار فعجب روكامبول وسأله . أمثل هذه الغمامة الصغيرة تحدث هذه الأنواء العظيمة ؟

فابتسم المسافر وأجاب : إني بحري والبحارة يندر ان يخطئوا بما يبدو لهم من أدلة الأنواء .

— إذن فلا بد من العاصفة .

نعم وستكون شديدة هائلة .

أنحن في خطر أكيد ؟

— ربما ، إلا اذا أراد الله لنا السلامة ، فإنه يبدد هذه العواصف إلا اني أرى الخطر جليا وقد أكون مبالغـاً فيما قلت على ان الذي يحملني على الرجاء ما أراه من اهتمام الربان وحسن طاعة الملاحين ودربتهم . فاني اذا كنت الآن مسافراً فقد كنت بحاراً مثل هؤلاء وقد تعلمت هذا الفن في سفن شركة الهند .

فاضطرب روكامبول لما سمعه ، وتذكر اوراق السير فيليام الذي كان يقرأها منذ حين فقال للمسافر ، كي يجره الى الحديث : أعرفت مدينـة الهافر من قبل ؟

— كلا ، وانا ذاهب الى باريس لأرى فيها أماً واختاً لم أرهما منذ ثمانية عشر عاماً ، أي منذ سافرت بحاراً في سفن الهند ، ولم يكن لي في ذلك العهد من

العمر سوى عشرة أعوام .

فلما سمع روكامبول هذا الكلام نسي العاصفة وأخطار الغرق ، بل نسي الوجود وانصرف بجملته الى التأمل بهذا الشاب ، ولم يصب في حياته بما أصيب به من التأثر حين كشف له هذا البحار دون ان يعرف أسرار تلك الأوراق وتراءى له ان أبواب المستقبل قد فتحت أمامه وان الصدفة أقبلت تبتسم له أجمل ابتسام . ولكنه ضبط اضطرابه وقال له بلهجة سرور : إذن انت فرنسي ؟

وهز البحار رأسه وأجاب : إنك تعجب كيف أشتغل في سفن الهند وأنا فرنسي إلا ان لذلك سراً عائلياً لا يسعني إفشاؤه .

ثم أمسك منظاره من يد روكامبول وقال : أرجو ان تأذن لي يا سيدي بمبارحتك الآن ، لأني ذاهب الى غرفتي كي أجعل اوراقي في مأمن من المياه اذا نكبنا بغرق السفينة فاني قد وضعتها في حقيبة من الحديد الرقيق وسأتمنطق بها وان ألقيت نفسي الى الماء لا تبتل .

ولما انصرف خاض روكامبول في عباب تصوراته ، وقد جعل جل قصده التزلف الى هذا البحار بصداقة تحمله على الوثوق به والاباحة له بجميع سره . وقد سار في مجال هذا التصور الى مدى بعيد ، حتى انه خطر له أن يكون بدل هذا البحار عند أمه واخته ، ولكنه اضطرب حين بلغ الى هذا الحد من التصور وكأنه لم يجسر على تتمته . ثم اشتدت عزيمته حين تذكر السير فيليام الذي لم يكن يشفق على أحد وذكر ما كان يقوله له : (وهو ان الحياة معترك ولا بد للفوز في المعارك من القتل وان عزائنا على قتل الناس كثرة الناس في الأرض) .

ولبث واقفاً على ظهر السفينة غير مكترث لما يكتنفها من المخاطر وجعل يردد في تفكيره هذه الكلمات . (إنه فرنسي ... إشتغل في إحدى سفن شركة الهند .. ترك باريس منذ ثمانية عشر عاماً ... دخل الى السفن وهو

في العاشرة من عمره كي يتعلم فن البحارة) .

إن جميع ما سمعته من هذا الرجل ينطبق أشد الانطباق على ما قرأته في أوراق السير فيليام .

وفيما كان روكامبول غارقاً في لجج تصوراته ، كانت تلك الغمامة التي لم تكن ترى إلا بالمنظار تمتد وتتسع ، كما تنبأ به المسافر . حتى مـلأت ذلك الفضاء الوسيع وتوارى القمر في ضبـابها المتلبد ، ثم هبت الرياح فكانت خفيفة في بدء هبوبها ولكنها جعلت تزيد وتضعف تباعاً حتى أوشكت ان تكسر الصواري .

وكان صوت العاصفة يصل من بعيـد فيبلغ الى السفينة كزئير الأسود ، والناس قد هلعت قلوبهم ، وبات دوي أصواتهم يمتزج بين دوي الرعود وبين رجال يجارون الى الله بالدعاء ، ونسـاء تعول وتنتحب ، فيطبق صراخها الفضاء ، وبحارة يصيحون وهم يتسلقون الصواري ليطووا القلوع ، فتصدم زوابع الهواء .

وكان روكامبول واقفاً بين هذا الخليط مشتت البال ، منشغـلاً عن اضطراب الناس من حوله بما كان يجول في خاطره من امر هـذا المسافر . وبقي على هذا الذهول الى ان رده الى هداه المسافر نفسه فاحتك به قائلاً : أرأيت ما كان من أمر هذه الغمامة ؟

والتفت روكامبول ورآه بقربه وقد خلع ما كان عليه من الثياب فلم يبق سوى قميصه وبنطلونه ، وكانت حقيبة أوراقه مشدودة الى وسطه بمنطقة من جلد فقال له : إني أراك قد بالغت في الحذر ، لأني لا أجـد ما تجده من مخاطر الغرق .

ـ أراك نسيت اننا في بحر المانش وعلى عشر مراحل من الشواطىء وقد تدفع الرياح سفينتنا فتلتطم برصيف او بصخر فتتحطم ، ثم ألا ترى السرعة التي تسير بها السفينة من الشمال الى الجنوب مع ان القلوع مطوية ؟ إصغ الى

صوب الربان ، وهو قديم في هذه المهنة ، كيف أن أوامره التي يصدرها تدل على القنوط !.

ولم يكد هذا البحار يتم قوله ، حتى سمع الربان يقـــول · إقطعوا الصاري الأكبر !

وجعل البحارة يضربونه بالفؤوس حتى سقط ، وكان له دوي شديد. وفي الوقت نفسه صاح صيحة رعب : هوذا الأرض !

أما روكامبول فلم يبد عليه شيء من علائم الخوف

- ٢ -

ولكنه حين رأى ان الخطر محدق بالسفينة ، والخوف سـائد على جميع ركابها ، رأى ان من الحكمة أن يقتدي برفيقه المسافر ويتحذر فغادره وأسرع الى غرفته فخلع ما عليه من الثياب الخارجية وأخذ ما لديه من النقود وأوراق السير فيلبام ووضعها جميعها بمنطقة من الجلد لا ينفذ اليها الماء وشدها الى وسطه وصعد الى ظهر السفينة والتقى برفيقه ولازمه وهو يقول في نفسه : إما ان نغرق معاً او ننجو معاً

وكانت السفينة لا تستقر على حـــالة من القلق ، تتقاذفها الأمواج كما تشاء العواصف ومهاب رياحها فتندفع كالجواد المطلق الجامح لا يثنيه شيء عن اندفاعه ، فقال البحار وهو ينظر الى الجو المريد : لقد قضي الأمر .

وأجاب روكامبول : كيف ذلك ؟

– أنظر الى آخر الأفق في الجنوب ، ألا ترى غمامــة أقل سواداً من بقية الغمام ؟

– نعم .

- إن الأرض هناك وهي تبعد عنها ثلاث مراحل ، ولا بد لسفينتنا من الالتطام بها .

ولم يكد يتم حديثه حتى ارتجت السفينة ارتجاجاً عظيماً لاصطدامها بأحد الصخور العظيمة الناتئة ، فصاح الربان بالبحارة : أسرعوا الى إنزال القوارب .

إلا ان البحار لم ينتظر إنزالها بل اشار الى روكامبول ان يتبعه ، والقى بنفسه الى تلك اللجج الثائرة . واندفع روكامبول في اثره وجعل الاثنان يسبحان الى جهة البحر نحو ساعة حتى تعب روكامبول وتأخر عن رفيقه ، والتفت اليه وشجعه قائلاً : تجلد ، لقد بلغنا الى صخر قريب نستريح عليه .

فتشجع روكامبول وجعل يبذل ما بقي له من الجهد وهو يؤنب نفسه لتقصيره قائلاً : ما هذا الوهن ؟ أأجعل طعاماً للأسماك على بعد ميل من البر ؟ وأضعف عن اللحاق بهذا الرجل الذي سأكون بعده أغنى مركيز .

إلا ان جهده لم يطل فانه لم يسبح مسافة وجيزة حتى شعر بان قواه قد نهكت فصاح يستنجد برفيقه وجعل يغوص تحت الماء ويرتفع فوقها الى ان شعر بيد قبضت على شعره ثم أغمي عليه فلم يع على شيء .

وعندما صحا من اغمائه قلب نظراً حائراً فيما كان يراه حواليه ، فرأى ان أشعة الشمس قد بددت جيش الظلام ، وان العاصفة قد استبدلت بالسكينة ثم رأى انه لم يكن غريقاً في اعماق الأوقيانوس بل كان ممدداً على رمال بلغت اليها حرارة الشمس وجففت ثيابه المبتلة من الأمواج .

ونهض وجعل يمشي على تلك الرمال ، ورأى نفسه فوق صخر عظيم متسع يحيط به الماء من جميع جهاته . وذكر ان رفيقه اشار له الى هذا الصخر وانه قبض على شعره حين استنجد به ، ولم يعد يذكر شيئاً . ولكنه أيقن ان رفيقه البحار اي المركيز قد أنقذه ثم قال في نفسه حين لم يجده : العله

وضعني في هذه الجزيرة وأتم مسيره الى الميناء القريبة . فإذا كان ذلك فكيف أجده ؟

وكأن هذا الرجل الهائل نسي موقفه الشديد وانه في جزيرة صغيرة قد يموت بها جوعاً قبل ان يجد بها أحداً فلم يفتكر الا بإطماعه بالفتك بهذا الرجل الذي أنقذه من الموت .

وجعل يمشي في أرض هذه الجزيرة المقفرة مشي العاجز السقيم لفرط ما لقي من عناء السباحة ، ويتفقد هذه الجزيرة كي يعلم مقدار بعدها عن البر . وفيما هو يمشي إذ سمع عن بعد صوت انسان يستغيث فأسرع الى الجهة التي خرج منها الصوت حتى بلغ الى هوة عميقة سمع ان الصوت صادر منها وعلم انه صوت رفيقه البحار فدنا منها ورأى عمقها نحو ستة أمتار .

ولما رأى روكامبول يطل عليه صاح صيحة الفرح وقال : لقد خشيت ان أموت ولا تسمع ندائي .

- معاذ الله ان يحل بك مكروه فقد أنقذتني من الموت وسأنقذك منه .

ثم جعل روكامبول يتأمل بالحفرة وعمقها ويبحث بحث المدقق ، فعلم انه اذا لم ينجده منها فلا سبيل له الى الصعود وانه يموت فيها جوعاً دون شك فاتقدت عيناه ببارق الفرح الوحشي وقال في نفسه : ان الأقدار خادمة لي والصدفة من عبيدي .

أما المركيز فقد قص على روكامبول السبب في سقوطه فقال : إني بينما كنت متمدداً بالقرب منك أعالجك كي تستفيق من إغمائك شاهدت سفينة تسير في عرض البحر فوقفت وجعلت أركض الى الشاطىء وأنا أشير بيدي اليها وأنادي رجالها .

وبينا انا أركض غير منتبه وعيناي شاخصتان الى السفينة سقطت في هذه الحفرة ولو لم تسمع ندائي لهلكت من الجوع .

فأجاب روكامبول : طب نفساً أيها الأخ المشفق فقد وجدت أخاً مشفقاً مثلك

إلا انه كيف السبيل إلى إنقاذك فإني لا استطيع ان أنزل اليك وليس لدي حبل أرفعك به ؟

— إنك تجد على مسافة عشرين خطوة من هذه الحفرة قرب المكان الذي كنت نائماً فيه غدارتي وحقيبة أوراقي ومنطقة من جلد ، وهي طويلة كنت الف بها وسطي خمس مرات فاذهب وأت بها فانها كافية لانقاذي فاليك ترسل إلي أحد طرفيها لأتعلق به وتسحبني بالطرف الثاني

— ليطمئن بالك وها أنا ذاهب حالاً .

ثم ذهب روكامبول يمشي الهوينا وهو يخاطب نفسه : إن هذا الصخر مقفر قد لا يمر به الصيادون مرة في العام . واذا لم أنقذه من الحفرة فلا يجد من ينقذه ، وعلى ذلك فاذا أخذت أوراقه وسبحت الى هـــذا البر القريب أصبح مركيزاً غنياً لا ريب فيه . وبعد ، هل أنا رميتــه في الحفرة لأنقذه منها ؟. إن الصدفة قد عرضت لي فلأتمسك باهدابها لأنها لا تعرض في كل حين ، وفي كل حال فانه ان كان قد أحسن إلي في هذه الحياة وأنقذني من الموت وأعطاني لقبه وماله ، فسأنفعه في الآخرة لأن الله سيسجل اسمــه في دفاتر الشهداء .

وبعد ان قال هذا القول ذهب الى المكان الذي دله عليه فوجد الحقيبة والمنطقة والغدارة. فجلس على الرمال وبدأ يفتح الحقيبة وأخذ يفحص ما فيها من الأوراق مطمئناً فكانت اول ورقة عرضت عليه شهادة مركيز من شركة سفن الهند وهي مكتوبة باسم فريدريك البرت دي شمري ولد في باريس في ٢٥ يوليو سنة ١٨٠٠ وله من العمر ٢٨ عاماً .

فخاطب روكامبول نفسه : لقد علمت الآن اني صرت أدعى فريدريك دي شمري واني اشتغلت في سفن الهند . فلأنظر في بقية الأوراق .

ثم أخذ رسالة طويلة مكتوبة بخط رفيع متطاول فعلم انه خط امرأة . وكان عنوان هذا الكتاب (ولدي العزيز) والتوقيع عليه (المركيزة دي

شمري) . فقـال روكامبول : الحق يقال ان السير فيليـام قد خدمني في حياته وفي مماته . ولولا أوراقه لما غدوت الآن مركيزاً في مقـام النبلاء ثم قرأ تحت التوقيع (شارع فالو نمرة ١٧ في القصر) وبعد ذلك أخـذ في تلاوة هذه الرسالة وهذا نصها :

« أرسل هذا الكتاب الى وزارة البحرية الانـكليزية ورجائي أن يصل اليك ولو بعد حين ، وان تسرع بعد تلاوتـه الى أمك وأختك ، كما يرجو أبوك الذي ندم عند احتضاره لسوء ظنه وإني لم أعلم يا ولدي العزيز إلا الآن بذلك السر الذي دفع أباك الى الإسـاءة إلي وإبعادك عني ، واليـك الحديث :

« كان المركيز دي شمري يقيم منذ ١٦ عاماً بعيداً عني لا يكلمني ، وكان يرسل إلي راتباً في كل شهر أنفقه علي وعلى أختك . وقد طالما بكيت أمامه وتوسلت اليه ان يطلعني على سر هذا الجفاء ، فـلم أفز منه بمراد على اننا كنا في عيون الناس نتشارك بالسعادة والهناء ، وفي الحقيقة كنا من أشـد الناس نكداً حتى حسبنا ان أباك أصيب بضرب من الجنون . أما سر هذا الجفاء فهو ان أباك لم يكن منذ ثلاثين عاماً على شيء من الثروة سوى انه كان كولونيلاً في الجيش وكنت أنا فقيرة مثله ، فتزوج بي زواج غرام وكنت اول ثمرة من ثمرات هذا الزواج . وعنـدما بلغت الخامسة من عمرك ، تغـيرت حالة أبيك فجأة ، فإن ابن عمه كبير هذه الأسرة كان أغنى الأغنياء فقتل في مبارزة .

« وقبل ان يموت هذا المركيز ببضعة أعوام ، اضطر أبوك الى السفر في حملة الجزائر فأقامني عند قريبته المركيزة دي شمري في قصره خارج باريس ولما عاد أبوك اضطر الى الاستقالة بحيث بلغنا بعد استقالته الى أقصى درجات الفقر ، فخدم في إحدى المناجم بصفة كاتب . ولكن عهد شقائنا لم يطل فان

المركيز هكتور شمري جرح جرحاً خطيراً في مبارزة ضمان بعد ان كتب وصيته وقد اوصى بجميع ماله الى أبيك وحرم أختاً له وهي ابنة المركيز دي شمري من غير زوجها فحقدت هذه المركيز حقداً عظيماً علي ووشت بي وشاية هائلة لم أعلم بها إلا أمس .

« وحكاية هذه المركيزة انها ترملت وهي في عنفوان الشباب ، وكان ابنها هكتور لا يزال طفلاً فلم تستطع الزواج لأن زوجها اشترط عليها في وصيته ان لا تتزوج بعـده او هي تحرم من حق الارث ، إلا انها ارتكبت هفوة ولدت بعدها بنتاً وأخفتها في البدء عن العيون ، ثم جاءت بها إلى قصرها وكانت تقول إنها يتيمة وقريبة لها . أما أخيها المركيز فقد علم سرها ولهذا فإنه حرم اخته من الارث وأورث ماله لأبيك . ومن ذلك العهد بدأ انتقام تلك المرأة .

« وقد اتفق انه بعد قتل هذا المركيز بثلاثة أشهر ولدت أنا أختك وكان عمرك خمسة أعوام ايضاً ماتت هذه المركيزة فذهب أبوك اليها وحضر ساعة احتضارها فقالت له اقوالاً أملاها عليها الحقد الدفين وكانت علة شقائي أعواماً طوالاً لأنها كانت السبب في إبعادك عني » .

فقال روكامبول في نفسه ما هذا الكتاب ؟ إنه يشبه الحكايات الموضوعة فلأتم قراءة هذه الحكايات .

واندفع في قراءة تتمة الرسالة فقرأ ما يأتي

« إعلم يا ولدي العزيز ، انه بعد ان عاد أبوك من عند المركيزة بثمانية أيام خطفوك من منزلي وبقي سر اختطافك دهراً طويلاً مكتوماً عني حتى حسبتك في اعداد الأموات .

« وكان عمرك حين اختطافك عشرة أعوام وكنت تحب في ذلك العمر أن تنام في غرفة وحدك .

«وفي احد الأيام دخل الخادم الى غرفتك كي يوقظك ويمرنك على ركوب الخيل

كما كنت تحب فلم يجدك فيها وبحث عنك في الحديقة، وفي كل مكان من القصر دون ان يقف على أثرك .

« وكان أبوك غائباً عن باريس في تلك الليلة ، وأخبرت البوليس بامر اختطافك فذهبت أبحاثه عبثاً وكتبت الى أبيك اخبره بهذه المصيبة فوردني منه كتاب لم يظهر فيه شيئاً من عواطف الوالدين . على انه عاد من سفره بعد شهر فرأيت ان شعوره قد ابيضت ، وحسبت ان ذلك كان تأثير تلك المصيبة ولكنه منذ ذلك العهد لم يكلمني كلمة الا امام الناس ، ولم ينظر الى اختك نظرة حنو ولم يذكر اسمك مرة في خلال هذه المدة الطويلة التي بلغت ستة عشر عاماً .

« وفي أوائل العام الماضي لزم الفراش لانحراف ألم به ، ثم اشتدت وطأة علته فلم يكن يؤذن لي ولأختك أن ندخل الى غرفته الى ان وسطت في ذلك أحد القسيسين ، فأذن لي بالدخول اليه وهو في حالة الاحتضار وقال : لقد دنت ساعة الموت ولا أحب ان القى الله وفي قلبي أثر من الحقد ، ولذلك فإني أصفح عنك .

« فاضطربت حواسي وقلت له : إن الصفح يكون عن المجرمين ، فأي ذنب ارتكبته ؟

« وقد كانت لهجة الصدق ظاهرة من ملامحي فتأوه وقال رباه العل المركيزة كانت كاذبة غاشة ؟

« ثم أخذ رسالة من بين أوراقه كتبتها اليه المركيزة قبل وفاتها بيومين ودفعها إلي وهو يقول : إقرئي هذه الرسالة . فأخذت الرسالة بيد مرتجفة وقرأت فيها ما يأتي :

« يا ابن عمي العزيز

« إن ولدي العزيز هكتور قد جعلك وريثاً لجميع أمواله فحسبت لبساطة قلبك انه جعلك الوريث الوحيد دون اخته ودوني ، لأن هذا الارث من

حقك ، على انه لم يخصك بارثه لهذا السبب ، بـــل انه اراد ان يحرم اخته التي أربيها في منزلي بصفة قريبة ، وما هي في الحقيقة إلا ابنتي . ثم ان هناك سبباً ثان وهو انه كان يحب امرأتك ، وهو لم يدفع أمواله اليك بل لابنته التي تحسب انها ابنتك . اما وقد اعترفت لك بالحقيقة فأرجو أن تعتني بأمر ابنتي من بعدي ، فإنها باتت صبية ، وما تركته لها قد لا يكفيها » .

« المركيزة دي شمري »

« أعلمت الآن يا ولدي السبب الذي دعى اباك الى احتقاري ، فقد كان يحسبني من احط النساء العابثات بالواجبات ، ويحسب ان اختك عار عليه لاعتقاده انها بنت الجريمة وذلك لأني ولدتها في مـــنزل المركيزة التي ارادت لحقدها علي ان تدنس شرفي قبل موتها فلقيت اشد العذاب لجفاء ابيك في ذلك العهد الطويل .

« ولما قرأت هذه الرسالة الكاذبة جثوت راكعة امام سرير ابيك وسألت الله ان يلهمه الى سبيل السداد فيثق ببراءتي قبل ان يموت وقد اراد الله ان يجيب ندائي فان اباك ايقن مما رآه وسمعه مني بطهارتي فسألني الصفح بدلاً من ان يصفح عنيَ وفاضت روحه الكريمة وهو يباركني .

« وقد اخبرني قبل ان تحضره الوفاة انه هو الذي اختطفك وسوى ذلك من التفاصيل التي علمت منها محل وجودك ، فعد ايها الحبيب الى احضان امك لأنها تنتظرك بفارغ الصبر » .

إلى هنا انتهت رسالة المركيزة الى ولدها ، فتناولها روكامبول ووضعها مع اوراق الشهادة ، ثم بدأ يقرأ الاوراق الباقية في الحقيبة ورأى بينهـــا مذكرات كتبها البحار عما لا يزال عالقاً بذاكرته عن اختطافه وكيف ان اباه اخذه من الغرفة التي كان نائماً فيها وذهب به الى الهافر وهناك سلمه الى

ضابط إنكليزي في احدي السفن الى غير ذلك من المذكرات التي قرأهـــا روكامبول بإمعان شديد .

ولما اتم قراءتها جميعها قال : ان جميع هـــذه الأوراق تثبت ان هذا البحـــار هو ابن المركيز دي شمري ، ولكنه لا يستطيع الخروج من الحفرة الا بإذني ثم اني لا اجد فائدة من قتله فإن هذا السجن الذي هو فيه كاف لقتله .

وعند ذلك ارجع الأوراق الى الحقيبة وشدها بالمنطقة الى وسطه وذهب الى الشاطىء فرأى ان البحر عاد الى السكون ، وان ارض فرنسا لا تبعد عنه اكثر من ساعة فألقى نفسه في البحر وراح يسبح مجداً اليها .

٣

في الساعة الثالثة بعد ظهر احد ايام المرافع كان شـــارع سانت كاترين بباريس غاصاً بالناس ، الا ان اجتماعهم في ذلك الشارع لم يكن لفرجتهم على ملك المرفع ولا على الذين يمرون افواجاً وهم بملابس تستوقف الأبصار ، بل انهم كانوا محتشدين امام ملعب صغير يسمعون فتاة حسناء تدعوهم الى الدخول للفرجة على سلطان القبائل المتوحشة ، وتحكي لهم عنه حكاية عجيبة تدفعهم الى الدخول فيدخلون ويخرجون افواجاً .

وقد مرت في ذلك الحين مركبة تقل شاباً جميل الطلعة عليه ملامح النبل والذكاء فلما رأى الناس محتشدين على باب هذا الملعب أوقف المركبة حتى إذا سمع الفتاة تقص حكاية زعيم القبائل المتوحشة نزل من المركبة ودفع للفتاة ٢٠ فرنكاً دون أن يتدانى إلى إرجاع الباقي مما زاد عن أجرة الدخول فـأعجبت الفتاة بكرمه ، ودخل وهو غير مكترث لها إلى حيث كان هذا الزعيم فرأى

منظراً تتأثر له القلوب القاسية

ذلك انه رأى على منصة الخشب ، رجلا مشوه الخلقة تشويهاً عجيباً وقد وشم وجهه بنقوش مختلفة الألوان ، بين أزرق وأخضر وأحمر ، وفي خديه وسائر وجهه ندوب ، بل أخاديد توشك أن تبرز منها العظام ، وفي مكان عينيه حفرتان إحداهما عظيمة ذهبت بعينه بجملتها ، والثانية أصغر من اختها الا أنها أبقت على شيء من العين الأخرى ، وقد شقت انفه فعلقت فيه حلقة نحاسية عظيمة وهو فوق هذه النكبات أبكم لا يتكلم ، ولكن الذي يعرضه للفرجة كان يقول انه يفهم اللغة الانكليزية .

ومما زاد في منظره غرابة ذلك اللباس الذي كان يلبسه فقد كان يلبس ثوباً مرقعاً جمع بين معظم أصناف الأجواخ والأصواف على اختلاف أصنافها وألوانها ، ولبس في رأسه قبعة جعلت بشكل تاج وزينت بريش الطيور واذنابها وعلى الجملة انه كان لا يفرق عن الحيوان إلا بأنه لا ذنب له ولكن منظره كان يحمل على الاشفاق والذعر معاً ، فلا يراه المتفرجون حتى يتراجعوا عنه منذعرين ويخرجوا من ذلك الملعب مستعيذين .

ولما دخل الزائر الجديد جعل يتأمله ساعة ، وكلما زاد تفرساً به زاد ذهوله وبقي يتفرس به والمتوحش منشغل عنه بطعامه إلى أن تفرق الناس من حوله فنادى صاحبه وقال : لقد سمعتك تقول انه يفهم اللغة الانكليزية أحقيقة ما تقول ؟

- نعم يا سيدي وإذا شئت فامتحنه .

فدنا المتفرج من المتوحش وقال له بالانكليزية : على أية سفينة عدت إلى أوروبا : أعلى فيلتون أم برسفرانس أم فولر ؟

ولما سمع المتوحش اسم السفينة الأخيرة ارتعش وتزحزح لاضطرابه عن المنصة التي كان جالساً عليها ، فعلم المتفرج ما أراد ان يعلمه من هذا السؤال وخرج الى الفتاة وقال لها : ما يكون منك هذا الرجل الذي يعرض المتوحش

للفرجة ؟

فأطرقت عينيها وقالت : انه زوجها

فعلم المتفرج أنه خليلها فقال لها : أتريدين ان تكسبي مائتي فرنك ؟

ـ لا أحب الي من هذا الكسب ؟

ـ متى أراك وأين ؟

ـ تراني في هذا الملعب متى أقفلت أبوابه في الساعة الثانية .

فألقى اليها ديناراً وذهب .

وفي الساعة الثانية عاد اليها فرآها تنتظره في إحدى غرف الملعب وهي جالسة على كرسي وبالقرب منها المتوحش نائم على الأرض لا غطاء له سوى ثوبه الرقيق فسألها : أتعرفين اللغة الانكليزية ؟

ـ كلا !.

فدنا عند ذلك من المتوحش وايقظه وقال له بالانكليزية لا تخف فاني صديق لك ، ولا بد انك تذكر تلميذك القديم روكامبول.

فظهر على المتوحش من علائم السرور ما لا يحيط به وصف .

فقال له المركيز دي شمري أو روكامبول ، اني أبكيك منذ خمسة أعوام ويسوؤني أن القاك على هذه الحالة إلا اني اتعزى بأني سأخفف شقاءك .

ثم عاد إلى الفتاة وقال لها ألعلكم تكسبون من عرض هذا المتوحش كثيراً؟

ـ كلا .. بل ان إيرادنا منه لا يفي بنفقتنا عليه لاسيا في هذه العاصمة فان كل من رآه ينفر منه ولا يعود . ولم يعد لي طاقة بالانفاق عليه والانتقال به إلى بلدة أخرى .

ـ اني أكفيكم مؤونته بل اشتريه منكم إذا أردتم بيعه فاني أشفقت عليه وأحب أن أعالجه عله يطيب من هذه الندوب .

ففرحت الفتاة وباعته المتوحش بألف فرنك دفعها لها على الفور مع المائتي فرنك التي وعدها بها ثم البسه لباسه من ثياب الفتاة وخرج به فركب معه

المركبة التي كانت تنتظره على البـــاب وأمر السائق أن يسير الى شارع سيرسانس

- ٤ -

ولما خلا روكامبول بأندريا ، لأن هذا المتوحش لم يكن غير السير فيليام ، أي الفيكونت اندريا ، الذي تقدم ذكر عقابه في رواية التوبة الكاذبة ، وكان اجتماعها في أحد منازل روكامبول السرية ، فقال له روكامبول : لقد خلا لنا الجو الآن فاصغ الي كي أخبرك بانك إذا كنت وهبتني لقب مركيز مستعار فقد صيرت نفسي مركـــيزاً ثابتاً لا ريب فيه إذ اني ادعى الآن المركيز دي شمري .

ولهذه المركيزة الجديدة حديث طويل ، ولكن اعلم ان أخاك الكونت أرمان دي كركاز .

فاضطرب اندريا حين سماعه اسم أخيه ، ومر روكامبول لمـــا رآه من اضطرابه فقال له : يسرني ان أراك عائد من جزائر المركيز بحقدك القديم لأن ذلك يدلني على انك لا تزال السير فيليام ، فلا أعدم فوائد دهائك فاعلم أيها الصديق القديم انني عندما بارزت أخاك الكونت وكنت أرجو أن اظفر به بتلك الطعنة الايطالية ، رأيت انه يعلم دقائقها أكثر مني فانجلت المبارزة على ظفره بي فجرحني جرحاً بالغاً ، وكان من احسانه انه عالجني في قصره ، فاغتنمت تلك الفرصة وسرقت أوراقك من غرفتك في ذلك القصر وهي التي اعانتني على الدخول في سلك النبلاء وصيرتني كما تراني مركيزاً من أغنى الأغنياء.

ثم قص عليه جميع ما نعلمه من حديث السفينة والغرق وكيف ترك المركيز الحقيقي في الحفرة إلى ان قال وعدت سباحة إلى ان بلغت الشاطىء الفرنسي

وأموالي وأوراق المركيز معي ولما أعملت الفكرة وجدت أن هذه الأوراق بعد بُعد المركيز عن أمه وأخته ثمانية عشر عاماً ومشابهتي أياه بعض الشبه وكوننا في عمر واحد كل ذلك لا يكفي لاثبات مركيزيتي بل يجب ان اكون بحاراً ماهراً وان أعرف الهند وأخلاق قومها وعاداتهم وشيئاً من لغتهم إلى غير ذلك مما كان يعرفه المركيز فعدت في اليوم التالي الى لندرا وهناك اتفقت مع أحد التراجمة الذين يسافرون إلى الهند ، سافرت معهم اليها وأقمت فيها ستة أشهر وكنت في كل يوم اختلط مع البحارة والضباط حتى عرفت كل ما ينبغي عرفانه ، اطلقت سراح الترجمان وعدت إلى فرنسا فوجدت تلك الأم المسكينة قد ماتت قبل وصولي بيومين ولعلها ماتت من الفرح فقد كتبت اليها اخبرها بقدومي ورأيت شقيقتي وهي غضة الصبى بارعة الجمال فعانقتها عناق الأخ وعرفتني بخطيبها ثم دفعت إلي أموال أبي المركيز فصرت من ذلك العهد أدعى المركيز دي شمري .

أما هذا المنزل الذي أتيت بك اليه الآن فهو أحد منازلي السرية التي استخدمها لاغراضي وسأقيمك في منزلي الخاص كي تكون بقربي في كل حين غير انه لا بد لي من أن ادعو طبيباً ينظر في وجهك فعساه يتمكن من إزالة هذا الوشم الكريه .

وعند ذلك دعا خادمه وأمره أن يدعو له أحد الأطباء الأخصاء بهذه العاهات .

انطلق الخادم مسرعاً وذهب روكامبول الى المطبخ فاحضر لأندريا ما تيسر من الطعام ، جعل يزدرده بشراهة تدل على شدة جوعه الى أن حضر الطبيب فلفق له روكامبول حكاية خلاصتها ان هذا الرجل كان بحاراً تحت أمرته وكان له عدو شديد ، احتال عليه حتى تمكن من ابقائه على شاطىء إحدى الجزر المتوحشة ففعل به أهلها ما فعلوه ثم باعوه الى أحد البحارة فباعه الى أحد أصحاب الملاعب الى أن عثر به هذه الليلة فرفه واشتراه وقدم به كي يعالجه ،

ثم سأله إذا كان يمكن إزالة هذه الندوب والوشم من وجهه ، ففحصه الطبيب فحصاً مدققاً وقال لا ريب ان هذا الوشم من آثار تلك القبائل المتوحشة وأظن اني استطيع إزالته .

– والندوب ؟

– ان آثارها لا تزول .

وعيناه ؟

– ان احداهما طفئت فلا رجاء منها والثانية في أشد حالة من الخطر وفي كل حال سأعود غداً في الساعة العاشرة افحصه على نور النهار .

– حسناً وستراني بانتظارك ، فودعه الطبيب وانصرف .

عاد روكامبول الى اندريا وقال : اننـــا سنفرغ جهدنا بازالة هذه الآثار من وجهك فلا تطمع ان تعود الى سابق حالك فتغوي بجمالك الكونتس حنة دي كركاز امرأة أخيك ولكننا نحاول ان نخفف شيئاً من قبح هيئتك .

ارتعد أندريا عندما سمع اسم شقيقه وابتسم ابتساماً هائـــلا ، فقال روكامبول : طب نفساً سأصنع لك جميع ما أستطيعه ، والآن اسمح لي بفراقك ان للمركيز دي شمري اختاً وصهراً يسكن معها فلا بد له من العودة الى قصره فرأى على مائدته رسالة وردت اليه في المساء وهذا نصها :

« ان الدوق والدوقة دي سالاندريا يتشرفان بدعوة المركيز البرت دي شمري « الى طعام العشاء عندهما يوم الأربعاء » .

فقال روكامبول في نفسه : ان أعمالي مع هذه الأسرة جارية في أحسن مجري ، ثم نام نوم المطمئن الآمن من الحاضر والواثق بالمستقبل .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ذهب الى المنزل الذي أقام فيه اندريا فوجد الطبيب قد سبقه وفحصه الفحص الدقيق ، فقال روكامبول : ماذا شاهدت ؟

– اني أستطيع إزالة بعض الآثار من وجهه بحيث يظهر بعد ذلك كأنه قد

انفجر مرجل أمامه ، فأصابه رشاش مواده وشوهته ، الا أني أخشى أن يذهب ما بقي من بصره ويصبح أعمى بعد هذه المعالجة .

فتركه روكامبول ودخل إلى الغرفة المقيم فيها أندريا ووضع أمـــامه أدوات الكتابة وسأله . ألا تزال قادراً على الكتابة ؟

فأخذ أندريا القلم وكتب هذه الجملة اني شديد الظمأ للانتقام واذكر كل شيء ..

فأجاب روكامبول : إذن أغمض عينك وأكتب لأرى إذا كنت تستطيع الكتابة في الظلام ، إذ لا يمكن أن تحادثني إلا بالكتابة وقد نضطر إلى المحادثة في الليل .

فأطبق أندريا عينه الوحيدة وكتب : « إني إذا عميت أعرف أعـداني باللمس بل بالوحي » .

— إذن تمرن على الكتابة وأنت مغمض العين .

ثم تركه وعاد إلى الطبيب وقال : اشرع في معالجته فلا حاجة له بالبصر .

- ٥ -

بعد هذه الحوادث المتقدمة بشهر كان أندريا في قصر روكامبول الذي يقيم فيه مع شقيقته وصهره ، وقد وفى الطبيب بما تعهد به وأصلح وجه أندريا إلا أنه أعماه .

ودخل روكامبول اليه وجعل يعزيه لفقد بصره ، غير أن أندريا كان قد قنط من كل شيء فلم يعد له عزاء إلا بفوز تلميذه والانتقام له من أعدائه فقال له روكامبول : اني لا أعلم إذا كنت تفتكر كما أفتكر الا اني لو كنت في مقامك لكنت أقول في نفسي اني قد تمتعت بجميع ملاذ الدنيا ، وطالمـــا

انتصرت على الناس وفتكت بهم كما شاءت مطامعي الى أن ظفر بي أعدائي فشوهوا وجهي وقطعوا لساني واعموا عيني مما يحاو معه القنوط والموت غير اني لا أحب الموت قبل الانتقام من هؤلاء الأعداء .

فهز أندريا رأسه إشارة الى الموافقة على هذا الكلام ، فتابع روكامبول : اني سأنتقم لك من أعدائك وهم أعدائي ايضاً متى لاحت لنا فرصة الانتقام ، والآن فاني أصبحت بفضل اوراقك كما كنت أنت في اول عهدك ، أي رجلاً في مقتبل الشباب . وافر المطامع ، لا يروق لي غير المسابقة في حلبة هذه الحياة والبلوغ إلى أقصى ما توحيه الي الأماني فإذا أرشدتني بقياس ذكائك وأوضحت لي السبل بدهائك فزت بفوزي وسررت لسروري فأكون عزاء لك وسلوى عما أنت فيه .

فهز أندريارأسه أيضاً مرات كثيرة اشارة إلى المصادقة فقال له روكامبول: إنما يجب أن تعلم اني إذا كنت قد انقذتك من الملعب بصفتي روكامبول ، أي تلميذك القديم فقد أحسنت بعمل ما تدعوني اليه واجبات الإخلاص، فما اسأت أيضاً فيما صنعت بصفتي المركيز البرت دي شمري ، ولو كان رجل سواي فعل ما فعلت لقال في نفسه: اني قد اخطأت فيما صنعت ، اذ لا يجب أن يقف أحد على سري الهائل ، الا اني أرى سوى هذا الرأي ، وأقول ان السير فيليام رجل شديد الدهاء وافر الذكاء ، فإذا كان مرشدي في مـا أطمع بنيله من الآمال بلغت ما أريد ، وربما وصلت إلى منصب السفارة والوزارة ، بل ربما بلغت الى العرش ، فإن أطماعي لا تقف عند حد وذكاؤك لا ينتهي عند غاية .

فاختلج أندريا على كرسيه عند سماع هذه الكلمات وظهرت على وجهه علائم الرضى فتابع روكامبول : والآن أيها الصديق بل ايها الاستاذ المرشد اني سأقص عليك مشروعاتي وانت تشير عليّ ، ولا أخرج عن أرائك غير انه لا بد لي قبل الشروع بذلك أن أبدي لك فكراً جديداً ربما كان صواباً ، لقد كنا نجري في أعمالنا السابقة على قاعدة تبين لنا خطاؤها بعد الاختبار ، وهي

اننا كنا نستعين على الشر برجال الشر ، وعندي ان خير كفيل للفوز بصنع الشر أن نستعين على تنفيذه برجال الخير والصلاح فإن ذلك أضمن في الفوز وفي نيل الأغراض لبعد الشبهات .

فتهلل وجه السير فيليام وهز رأسه كأنه يقول أحسنت .

وتابع روكامبول: اني منتحل اسم المركيز دي شمري ، ومنذ أربعة اشهر تحيط بي شقيقتي وهي من النساء الأشراف ، وزوجها رجل شريف ومعظم أصحابي من نخبة الأسرات النبيلة ، وسأقص عليك علائقي مع هؤلاء الأشراف فتجد بعد ذلك سبيلاً إلى استخدامهم فيما نريد فإن الشر والمكائد لا يخطران لهم في بال وأبدأ بذكر قصتي فأقول :

« اني حين أتيت باريس ماتت أمي المركيزة فكان موتها من حسن حظي لأن الأم قد تعرف ابنها ولو غاب عنها عشرين عاماً ، وكانت شقيقتي مخطوبة ولما مضت ثلاثة أشهر على وفاة أمي تزوجت شقيقتي خطيبها وأقام الاثنان عندي إلى أن تنتهي مدة الحداد أما أنا فإني تصرفت تصرف النبلاء كأني خلقت مركيزاً من بطن امي ولا جرم لقد مثلت على مسرحك كثيراً من الأدوار وأصبحت علائقي كثيرة مع أشهر أسرات باريس وغيرها من الأسرات العريقة بالنسب كعائلة الدوق دي ساندريا الاسباني فإن هذا الدوق من عظماء الاسبان وليس له سوى فتاة في نضارة العمر وهي التي سترث أمواله التي لا تحصيها أقلام الحاسبين » .

« وقد كثر ترددي على هذا البيت ، وفي كل يوم القى دليلاً جديداً من الفتاة على ميلها لي ، حتى لقد بت أحسب انها تحبني ، وكذلك أمها الدوقة فإنها ترحب بي ترحيباً عظيماً كلما ذهبت اليهم ، ولم يبق علي سوى هذا الدوق » .

فهز اندريا رأسه بشكل خاص كأنه يقول سوف ترى في أمره . فقال : والآن فإن لدي مشروعين خطيرين قد يدعو فوزي بالواحد منهما الى فوزي

بالآخر . أحدهما مشروع زواجي بهذه الغادة الأسبانية النبيلة ، والثاني إن صهري الجديد ربما ورث في عهد قريب إرثاً عظيماً سنبحث فيه عند نيله فإن لي فيه مآرب .

ولنعد الآن قليلاً الى أعدائك بل أعدائي، فإننا بتنا واحد كا أرى ولنبدأ باخيك ارمان دي كركاز .

فظهرت على وجه اندريا علائم الحقد الهائل كأن إحسان أخيه وتقادم العهد على ما كان بينهما لم يطفىء ذلك الحقد الكامن في صدره كمون النار في الحجر ، فقال روكامبول اني وجدت ارمان لايزال من رجال الصلاح يقضي معظم وقته في صنع الخير ولا تزال امرأته تحبه ولا يزال ابنه بقربه

وبحثت أيضاً عن باكارا فعلمت انها قد تزوجت بالكونت ارتوف ولكن سبب هذا القران سر غامض لم يقف عليه احد .

ورأى روكامبول ان علائم الحقد والرعب قد ظهرت على وجه اندريا حين ظهر له اسم باكارا فقال له : ان حقدك على أخيك وسعيك للانتقام منه كان السبب في هلاكك مرتين فخير لك ان تتخلى عنه وتنصرف الى الانتقام من باكارا فإنها علة مصابك في حين ان أخاك لم يكن يريد لك إلا الخير ثم اني لا بد لي من مقاومة باكارا للانتقام منها ولخوفي من ان تحول دون ما أبتغيـــه من القران بالاسبانية فان هذه المرأة قد أحبطت جميع آمالي حينما كنت الفيكونت دي كامبول فأخشى ان تحول دون مقاصدي وتفسد عـلي أمري وأنا أدعى المركيز دي شمري .

وكان روكامبول يخشى باكارا وهو لا يعلم أنها في باريس، ولا يعلم كيف انها تستطيع أن تحبط مساعيه في قرانــه . وسنوضح كل ذلك في مكانه من هذه الرواية الهائلة .

ولا بد لنا قبل الخوض في حديث باكارا أن نذكر شيئاً من حكاية هذا الدوق الأسباني وفتاته لشدة علاقته بهذه الرواية فنقول :

كان هذا الدوق من عظماء الأسبان وأعظم أغنياء تلك البلاد ، ولم يكن له وريث غير فتاة بارعة في الأدب والجمال فكان يقدم بها كل عام وبامرأته الى باريس فيقيم فيها ستة أشهر ثم يعود الى بلاده .

وكان لهذا الدوق ابنا أخ أحدهما يدعى الدون بادرو والثاني يدعى الدون جوزيف ولما رأى انه لم يرزقه الله مولوداً ذكر يرث اسمه النبيل عزم على ان يزوج ابنته بابن اخيه الدوق كي ينحصر الارث بالعائلة .

وكان الدوق جوزيف يجيء معهم كل مرة الى باريس ، ويزورهم في كل يوم ، فكان الناس يتحدثون انه هو الذي سيتزوج الصبية . غير انه تعاقب على هذه الزيارات عامان فجعل الناس يقولون انه لا بد من حائل يحول دون هذا الزواج فتهافت الخطاب على قصر الدوق وكلهم من علية القوم وكبار النبلاء ولكن الفتاة كانت ترد جميع خطابها وتعتذر بانها لا تزال صغيرة ولا رغبة لها بالزواج .

وكان الحائل بينهما مرض أخيه الدون بادرو ، فإنه كان عليلاً منذ أربعة أعوام وقد أصيب بمرض غريب عضال عجز عنه الأطباء وقنط الدوق من سلامته . فانصرف باميااله الى ابن اخيه الدوق جوزيف وأراد ان يزوجه إبنته بعد وفاة أخيه لأنه كان يحبه . إلا ان الفتاة كانت تكرهه ، لأنها كانت تحب اخاه . وكان كرهها له ظاهراً لم يخف على عين روكامبول النقادة ، حتى انها كانت اذا التقت في منزلها بروكامبول والدون جوزيف تظهر ميلها الى روكامبول ، وتنفر من ابن عمها بقدر ما تسمح لها قيود المجاملة وروابط النسب ولولا حب أبيها له لما اقتصرت في النفور منه عند

هذا الحد .

فترجع لدى روكامبول انها تحبه وكان كلما حاول ان يكاشفها بغرامه يستشير أندريا فيقول له : إصبر فإن الثمرة لم تنضج بعد ، وإذا كانت تكره ابن عمها وتحبك كما تقول فلا بد ان يحملها كرهه وحبك الى ان تكون البادئة في بثك هواها وعند ذلك أجد لك حيلة لاقناع أبيها .

فيمتثل روكامبول ويقتصر على مناجاتها بلغة العيون ، وهي أنفذ رسول الى القلوب .

إلا ان نبوءة اندريا قد صدقت فانه لم يمض على ذلك اسبوع كان روكامبول لا ينقطع في خلاله عن زيارة الدوق ، حتى لقيه خـادم الفتاة يوماً وهو خارج من منزلها ودفع اليه رسالة ففضها روكامبول فاذا هي من ابنة الدوق تدعوه فيها الى التنكر عند منتصف الليل وموافـاتها الى حديقة القصر من باب سري أرسلت اليه مفاتيحه ، فأخذ روكامبول الرسالة وأسرع الى اندريا ، وهو يكاد يطير من الفرح وأخبره بشأنها . فقال له ، بعد ان تأمل مليـاً (وكان يخاطبه بالكتابة) : ليس هـذا اللقاء لقاء غرام ، فان مثل ابنـة الدوق لا تدعوك اليها عند انتصاف الليل الا لأمر خطير ، ومن هنا ستبدأ روايتك . فاحرص على ان تظهر أمامها بمظاهر كبار النبلاء ، واحذر من ان تبدر منك بادرة أو أن يدفعك غرور الصبى الى المجاهرة بمـا لا يستحب ، فان عظماء الأسبان شديدو التمسك بالشرف ، ولهم فيه كثير من التقاليد فلا يغفرون زلة

فاتعظ روكامبول بمواعظ استاذه وغادره الى النادي الذي يجتمع فيـه بأصحابه حتى ،اذا دنا الأجل المضروب ذهب الى منزله السري فتنكر وانطلق الى الحديقة ففتح بابها بمفتاحه وجعل يمشي تحت أشجارها مشية السارق حتى بصر بها جالسة تنتظره على مقعد من الرخام في ظل شجرة فتعارفا وجلس بالقرب منها وجعل يكلمها بملء الاحترام .

وبعد أن اعتذرت له بصوتها الرخيم عن الخطة التي سلكتها معه واجتماعها به في منتصف الليل في خلوة سرية قالت له : إني لم أفعل ما فعلت إلا لثقتي بنبلك وقد دعتني هذه الثقة الى أن أعتمد عليك في أمل جلل ، فهل تكون موضع ثقتي ؟

- بل سأكون من أخلص خدمك .

— إذن خذ هذه الأوراق فقد كتبت فيها تاريخ اسرتي وبعض حوادثها ، فمتى وقفت عليها وتمعنت بها تعد إلي لأخبرك بما أريد منك .

ثم أعطته الأوراق ، فتناولها روكامبــول قائلاً : ومتى تأمريني أن أعود اليك ؟

غداً في مثل هذه الساعة .

— أين نجتمع ؟

في هذا المكان .

وقبل روكامبول يدها ثم انحنى أمامها بمــلء الاحترام وخرج فانطلق مسرعاً إلى منزله السري فخلع ثياب التنكر وذهب الى قصره وصعد الى الغرفة التي ينام فيها اندريا فأيقظه وأخـبره بما كان وقال : إسمع كي أتـلو عليك هذه الأوراق .

وجعل يقرأ عليه جميع ما كتبته الغادة الاسبانية .

وكانت خلاصة هذه الأوراق ان الفتاة أظهرت فيها أخلاق أبيها وعزمه على أن تبقى القابه وأمواله منحصرة في أسرته ولهذا فقد أراد تزويجها بالدون بادرو شقيق الدون جوزيف . ثم ذكرت انها تهوى ابن عمها هذا وانه مريض منذ أربعة أعوام . وهنا أخذت تقص حكاية غريبة محصلها ان الدون جوزيف حسد أخاه الدون بادرو على خطبته لها وقرب تمتعه باموال أبيها ، فاتفق مع بدوية يهواها اسمها فاطمة دست السم لأخيه في الطعام ، فأصيب على أثره بهذا الداء العياء . وقد ذكرت كيف وقفت على الدسيســة فقالت : إنها كانت

جالسة في ليلة اشتد حرها تحت شجرة في حديقة قصر أبيها في اسبانيا وبينا هي تستنشــق النسيم من حفيف الأوراق إذ سمعت صوت الدون جوزيف وفاطمة يتحدثان في تلك الحديقة دون ان يرياها بشأن هـــذا السم وبدء أعراضه فكانت تقول له فاطمة : طب نفساً ، إن أخاك قد يعيش أربعة أعوام ولكنه يعيش عليلاً وتزداد علته في كل يوم الى ان يتلاشى . فارتاعت الفتاة مما سمعت وأسرعت الى ابن عمها إلا ان الدون جوزيف حين رآهــا وعلم انها سمعت حديثه مع فاطمة انفرد بها وقص عليها قصة أفظع من هذه وهي ان أباها الدوق قتل أخاه اي والد الدون جوزيف قتلا سريــاً وان أباها لا يريد ان يزوجها بابن اخيه الا ترضية له عما فعله بأبيه ثم قال لها: إنك اذا بحت بسري بحت أنا بسر أبيك فاختاري بين الفضيحتين .

ومما جاء في هذه الأوراق ان الدون بادرو حين رأى نفسه عليلاً وان الأطباء عجزوا عن شفائه التمس من عمه ان يزوج ابنته لأخيه الدون جوزيف فأجابه الدوق الى هذا الملتمس ، وكان بينه وبين ابنته نزاع شديد أسفر عن اضطرار الفتاة الى قبول الدون جوزيف زوجاً لها بعد وفاة اخيه وهي تعلل نفسها بأن تجد مخرجاً لها من هذا الزواج الشائن إلى ان علمت أخيراً بأن بادرو أصبح في حالة النزاع وانه لم يعد لها منــاص من الزواج بهذا القاتل ، فالتجأت إلى المركيز دي شمري وهي تؤمل ان يجد لها وسيلة تنقذها مما هي فيه .

هذا ملخص لأوراق الغادة الأسبانية . وكان روكامبول يتلوها معجباً بهذه الأسرار واندريا يصغي اليه اشد الاصغاء ، حتى اذا أتم تلاوتها سأله : ماذا ترى ؟

فكتب على اللوح الحجري يجيب : أرى أن يجب ان تقصر اهتمامك على اقتفاء أثر الدون جوزيف والتربص له في كل مكان حتى تقف على جميع أسراره فلا بد ان تكون حياته محاطة بالأسرار ، ومتى تمكنت من الوقوف على شيء منها

أسرع إلي وأخبرني .

– وماذا أجيب الفتاة بعد تلاوة الأوراق ؟

– إذهب اليها غداً في الوقت المعين وأظهر لها أنك أهل لكتمان سرها وجدير بإعانتها وانهج معها أحسن مناهج الاحترام .

فودعه روكامبول وولج الى غرفته ونام نوم المطمئن . وفي الليلة التالية ذهب في الأجل المضروب الى الحديقة فلقيها تنتظره فبدأ معها بخطاب طويل أظهر لها فيه تأثره من مصابها وإكراه أبيها لها على زواجها برجل سفاك قاتل ثم وعدها بأن ينقذها منه في أقرب حين فأجفلت الفتاة وقالت : الملك تريد قتله بالمبارزة ؟

فتنهد روكامبول وأجاب : أمجنون أنا فأقدم على قتله بمبارزة يتضح أمرها لجميع الناس فتقصيني عنك ؟

فتبسمت الفتاة وقالت : إني إذا كنت الآن باخلاصي أحسن فتاة فسأكون احسن امرأة إذا نجوت من هذا القاتل .

– إطمئني يا سيدتي فلا يمر اسبوعان حتى يلقى جزاءه وتصبحين حرة مطلقة من عهود أبيك .

وإنما توغل بهذا الوعد لشدة ركونه الى السير فيليام واعتماده على قريحته الجهنمية . ثم قبل يدها باحترام وودعها وانصرف .

٧

أما هذا الدون جوزيف فقد كان من دهاة الرجال وكان عاشقاً لامرأتين إحداهما فاطمة النورية وهي التي شاركته في تسميم شقيقه . وقد أتى بها من اسبانيا إلى باريس فأقامها في بيت محتجب في احد الشوارع الحقيرة و حصرها

فيه لغيرته عليها بل لحذره من ان تختلط بالناس فتفشي سره ، وكانت توافقه على هذا الاحتجاب لشدة شغفها به فانها لم يدفعها الى مشاركته بالجريمة غير الحب ، فكان يذهب اليها كل ليلة متنكراً في الساعة العاشرة فيقيم عندها الى منتصف الليل. وقد عين لخدمتها عبداً أسود وعجوزاً فكان هذان الخادمان رقيبين عليها .

أما المرأة الثانية فقد كانت من بنات الهوى ، وهي محظية لأحد الأغنياء الروسيين وقد اضطر هذا الفتى الى السفر ثلاثة أشهر وسمعت باسراف الدون جوزيف وفرط ثروته وشدة دهائه ، فأرادت ان تقتنصه بالخدعة واحتالت عليه حيلة غريبة ، وهي أنها كتبت اليه كتاباً دون توقيع قالت له فيه : إن امرأة شريفة مشغوفة به تريد ان تحاذر ايضاً من ان يعرف منزلها ، فإذا أحب أن يأتي اليها معصوب العينين فلينتظر في شارع عينته له الى ان يوافيه خادمها الذي يعرفه فيأتي به اليها .

فلما وقف الدون جوزيف على هذا الكتاب هاج به شوق غريب الى معرفة هذه المرأة فقبل بشروطها وذهب اليها معصوب العينين .

فلما تقابلا رأى من جمالها وأدبها ودلائل انشغافها به ما أدهشه . ثم زاد ميلاً اليها حين أخبرته أنها زوجة كونت روسي شديد الغيرة شرس الطباع ، وانه جاء بها من بلاده الى فرنسا ، وهي بها منذ زمن طويل دون ان تتمكن من معرفة أسرة من امرائها لفرط احتجابها وغيرة زوجها ثم لفقت له حديثاً طويلاً أخبرته فيه انها رأته في الأوبرا عدة مرات وانها علقت به وعرفت اسمه من وصيفتها فما زالت صابرة على هواه الى ان سافر زوجها حديثاً فكتبت اليه هذا الكتاب .

وكان من أمره أنه عشقها عشقاً مبرحاً نسي بعده حبه لفاطمة ، ولكنه لبث يزور فاطمة متنكراً كل ليلة ، ويزور عشيقتــه الأخرى معصوب العينين ، ويختلف الى ابنة عمه في النهار لوثوقه بأنها ستكون امرأته بعد موت

أخيه ، الذي كانت ترد الأخبار عنه في كل بريد مشيرة الى انه أصبح على وشك الموت

* * *

ولنعد الآن الى روكامبول ، فلقد تقدم لنا القول أن اندريا أشار عليـــه بمراقبة جوزيف فامتثل لنصيحتـــه وخرج في تلك الليلة الى منزله السري ، فتنكر وذهب الى منزل الدوق الأسباني فكمن له عند الباب في الزمن الذي يخرج فيه . ولم يطل انتظاره حتى رأى الدون جوزيف خارجاً من المنزل وهو يمشي مطرق الرأس . فاقتفى أثره وجعل يتبعه الى أن دخـــل الى منزل ، وكان هذا المنزل خاصاً بالدون جوزيف ، فصبر روكامبول وهو لا يعرف انه منزله نحو نصف ساعة الى ان رآه خرج منه وقد غير زيه فلبس ملابس العمال ووضع قبعة كبيرة على رأسه سترت بعض وجهـــه ، غير أنه لم يخف على روكامبول وقال في نفسه : لقد صدق أندريا ، فإن حياة هذا الرجل مكتنفة بالأسرار فلأتعقبه .

وما زالا يسيران وكلاهما متنكر بزي يستر حقيقته عن العيون حتى بلغ الدون جوزيف الى منزل في شارع حقير فأخذ مفتاحاً من جيبه وفتح به باب المنزل ثم ولج اليه من دهليز طويل فقال روكامبول لا شك ان له خليلة في هذا المنزل يغار عليها .

وأقام يتخطر ذهاباً وإياباً في ذلك الشارع وهو يراقب الباب الى ان عيل صبره وانتصف الليل. وعند ذلك سمع صرير المفتاح في قفل الباب فرأى الدون جوزيف خارجاً منه وسمع صوت فتاة تودعه الطف وداع .

فقال روكامبول في نفسه : إن الليل قد انتصف وهو عائد لا شك الى منزله فلأدعه يذهب في شأنه ولأفحص هذا البيت .

ثم دنا من المنزل فقرأ نمرته وجعـل يرود في أكنافه ، حتى علم جميع

ما ينبغي ان يعلمه ثم عاد الى اندريا وأخبره بكل شيء ، وتلقن منـــه التعليمات اللازمة .

- ٨ -

مضى على ذلك يومان ، لم تفتر فيهما همة روكامبول عن تعقب الدون جوزيف والوقوف على دخائل منزل فاطمة . وكانت تنتظر عشيقها الأسباني في كل ليلة .

ولقد يتبادر الى الذهن حين ذكر هـذه النورية انها كانت عجوز شمطاء ترجم بالغيب، وتكشف المخبئات ، شأن أمثالها من النوريات . غير أنها كانت فتاة باهرة الجمال غضة الصبى ، وكانت في بدء عهدها راقصة في المســارح . فطافت أوروبا ورقصت بمسارح العواصم الكبرى ، فكانت تحوم حولهـــا الأبصار إلى ان رآها الدون جوزيف فعلق بها وما زال بها حتى شغفت بهواه وتركت المسارح من أجله . فكانت ساكنة في اسبانيا وإذا قدم الى باريس قدمت معه اليها .

وكان الدون جوزيف قد تأخر تلك الليلة عن ميعـادها ، فلما جاءها استقبلته عاتبة غضبى لتأخره ، فأنكر عليها عتابها ودار بينهما الحديث الآتي فقالت النورية :

– لقد طال غيابك حتى حسبت انك غير عازم على الحضور .

– أسبق لي عهد ايتها الحبيبة بالتخلف عنك ؟

– ذلك أكيد ولكني لا أنكر عليك ما أشعر به من الغيرة .

– أتغارين علي وممن تغارين ؟

– أغار عليك من كل مجتمع تختلط به ولا أستطيع أن أكون معك بل أغار

من خدمك الذين يستطيعون ان يروك في كل حين بل أغار عليك منـــك ومن الهواء الذي تتنشقه بل . .

فقاطعها الدون جوزيف وقال ضاحكاً : ما هذا الجنون ؟

– هو جنون كما تقول ... ولكنك لو كنت مثلي سجيناً في هذا المنزل بل في القفص المذهب ، وقد حظر عليك الخروج منه ومنعت من الوقوف في المشرف ومن الاطلال من النـافذة ، وكنت أنا في مكانك أتنشق الهواء المطلق ، وأعاشر من اردت ، وأعرض جمالي على جميع الناس . أما كنت تغار علي ؟

– ربما ولكنك تعلمين اني لا أحب سواك في هذا الوجود .

فقالت له بصوت المتهكم : حتى خطيبتك ؟

فهز كتفيه وقال : العلك تعلمـين انها تكرهني وتحتقرني . ثم أتظنين بأنهـا تغفر لي قتل أخي خطيبهـا . واذا غفرت لي ، فهل أغفر لهـا ذلك الكره ؟

– إني أرجو على الأقل ان لا يحصل هذا الغفران .

– إطمئني أيتها الحبيبة . وثقي بأني لا أتزوجها إلا لطمعي بمركز أبيها إذ لا أحب سواك

– إني أصدقك في جميع ما تقول حين تكون بقربي ، وحين تنظر إلي عيناك الجميلتان . ولكنك حين تكون بعيداً عني فأخال ان النســاء الجميلات يحطن بك من كل جانب .. ولا أتمنى إلا ان يكون لهؤلاء النساء رأس واحد .

فقال الدون جوزيف باسماً : لماذا ؟

– لأقطع هذا الرأس .

– إذن فأنت تعيسة في باريس ؟

– نعم ، ولا سيا حينما أكون بعيدة عنك . فإني أذكر أيامي الماضيـة

وأسري الحاضر ، الى أن تجهش عيناي بالبكاء ولكني لا آسف لتلك الأيام الخوالي لأني احبك . ولا أطلب الخلاص من أسري لأنك بقربي غير أني لم أعد أطيق الاقامة في باريس ، لشدة ما ألاقيه من متاعب الوحدة والضجر . .

– صبراً أيتها الفتاة ، فإننا سنبرحها في القريب العاجل ، فتعودين الى ربوعك .

فسرت البدوية وقالت : أحق ما تقول . ؟.. ومتى نبرحها ؟.. والى أين نسافر ؟..

– إلى قاديكس

فأمعنت الفتاة وقالت : لقد علمت الآن السبب في رجوعك . اليس هو لأن أخاك الدون بادرو على فراش الموت ؟

فابتسم الدون جوزيف ابتساماً هائلاً دون أن يجيب فقالت له النورية: لو لم أحبك أبلغ حب لما ارتكبت معك جريمة تسميم أخيك

وفيما هي تكلمه نظرت الى منديل كان يعبث به بيده ، ورأت حرفين مكتوبين عليه . فأجفلت أيما إجفال واستحالت تلك الغزالة الأنيسة الى لبوة ثائرة . فاختطفت المنديل من يده ، وركضت الى المستوقد وأخذت خنجراً كان عليه ، فجردته من الغمد وهي تقول : أيها الخائن.. قل من أية إمرأة وصل اليك هذا المنديل ، او أشك هذا الخنجر بصدرك ؟

فاصفر وجه الأسباني وتلعثم لسانه ثم قال قولاً متقطعاً : إنه منديلي .

- كذبت ، فانه منديل امرأة وما هذان الحرفان المكتوبان فيه من حروف اسمك ؟

فتمالك روعه وقال ، صدقت ولكنك لو أمعنت النظر بهما لعلمت من هي صاحبة المنديل .

– قل من هي وإلا قتلتك ، فانك لم تعرف بعد من أنا .

فضحك الدون جوزيف ضحكاً عالياً وقال إنك مجنونة دون شك ألا ترين هذين الحرفين يوافقان الحرفين الأولين من اسم خطيبتي ؟

فأعادت فاطمة النظر اليها ثم سقط الخنجر من يدها وقالت : إنك فزت بإيجاد هذا البرهان والا فانك كنت في عداد الأموات .

– إن البرهان لم أتكلف إيجاده فان ما قلته هو الحق . وفوق ذلك فاني لا أخاف وعيدك .

- لقد أخطأت في عدم خوفك ، فانك تذكر دون شك حين أحببتك ورضيت ان أودع جميع ملاذ الحياة ، وأكون عبدة لك ، ذلك القسم الذي قسمته وهو اني متى رأيت دليلاً على خيانتك اقتلك دون إشفاق .

– أذكر .

– أتحسب اني أحنث بيميني ؟

– كلا .

– إنك مهما انغمست في الشر والخيانة ، لا بد ان تكون مؤمناً بالله ، فاذا كان ذلك فاقسم لي بهذا الإله الذي نعبـــده نحن البدويات ، إنك لم تخن عهدي .

– اقسم لك بالله اني ما خنتك ولا اخونك .

– ولكني رأيت في الليلة السابقة حلماً لا أزال موجسة شراً منه الى الآن وهو اني رأيتك في مرقص تخاصر امرأة وانك كنت تحب هذه المرأة وتهمس في أذنها أحاديث الغرام .

– وهل تصدقين الأحلام ؟

– وهل أنا إلا نورية ؟

– صدقت . فانكم السابقون في حلبة الأوهام ولكن هذه الفتاة التي تمثلت لك اني أخاصرها في الحلم لا يمكن ان تكون إلا أنت ؟

– كلا ، فانها كانت لابسة صليباً في عنقها ، وما أنا بمسيحية فألبس

صليباً !.

— إذن فان حلك كاذب لأني لا أحب سواك .

— يمكن ان يكون كلامك صادقاً .

فضاق صدره من كثرة غيرتها وقال : نعم فماذا تريدين بعد ذلك ؟

فاستاءت لجوابه وقالت : أريد ان تعلم ان الوثاق الذي بيننا لا يحل .

- ذلك لا ريب فانه وثاق الحب .

— كلا ، بل وثاق الجريمة . واصغ إلي الآن فانك كنت مطلقاً من هـــذا الوثاق الى اليوم الذي دفعني فيه هواك الى الاشتراك معك بقتل اخيك أما الآن وقد غمست يدي في دمه كي تحظى بخطيئته فلم يعد لك براح من يدي ، وأصبحت لي بجملتك كما أنا لك بجملتي وذلك الى آخر العمر فان قيود الجرائم لا تحل .

— ما دخل الجرائم الآن بيننا وما بالك لا تحدثيني باحاديث الغرام إذ هي ألذ للسمع من هذه الاحاديث وفوق ذلك فما أنا قتلت أخي ولا انت بل اخوتك الذين دسوا له السم في الدسم .

- صدقت فانهم اشرار يرتكبون كل ذنب من أجل المال ، ثم انهم لم يقتلوه من تلقاء أنفسهم ، بل كان ذلك بمالك وبواسطتي فنحن القاتلان ، واني اذا أمرتهم ان يقتلوك فلا يتأخرون ، وأقول ذلك تحذيراً لك من خيانتي .

فنهض الدون جوزيف وقال لا شك إنك جننت لعدم ثقتك بي وباليمين التي حلفتها .

ثم التف بردائه وقبل جبينها وخرج فخرجت معه وشيعته الى الباب فذهب وهو يقول في نفسه : إن هذه المرأة واقفة على سري وهي تنذرني في كل حين فلا بد إذن من قتلها .

أما فاطمة فانها وقفت هنيهة على الباب تشيعه بالنظر حتى بعد عنها فعادت

الى القاعة التي كانت فيها ولكنها ما لبثت ان دخلت اليهـــا حتى تراجعت مذعورة لانها رأت فيها رجلاً كأنه قد صعد اليها من جوف الارض لان المنزل ليس له غير باب واحد .

وكان هذا الرجل واقفاً وسط الغرفة وهو مشهر الخنجر الذي سقط من يد النورية فذعرت المرأة وقالت له : من أنت ؟

– صديق .

– وماذا تريد مني ؟

– أريد ان اكلمك عن الدون جوزيف .

ثم أشار اليها إشارة الآمر ان تقفل الباب . فامتثلت فاطمة لما تولاها من الرعب ، وأقفلت البـاب وعادت اليه وقالت : قل .. ماذا تريد مني ؟ إني مصغية .

ثم دار بينهما الحديث الآتي ، فقال الرجل الغريب :

– أتدعين فاطمة وأنت خليلة الدون جوزيف ؟

– نعم الملك تعرفه ؟

– إنني أعرف المرأة التي يحبها ويخونك من اجلها .

فاحتدمت فاطمة غيظاً وهاجت مكامن غيرتها فقالت له : انك كاذب فيما تقول .

– إصغي الآن فاني متى بحت لك باسرار تحسبين أنك واقفة عليها وحدك تثقي حينئذ باقوالي .

– قل فاني مصغية اليك .

– فاطمة ان للدون جوزيف أخاً يدعى بادرو .

فقالت وهي تضطرب : أتعرفه ايضاً ؟

– ربما وان هذا الاخ في حالة النزع الآن وسيموت قريباً اي انه سيموت مسموماً والناس يحسبون انه مصاب بمرض شديد .

فرفعت فاطمة عينيها الى هذا الرجل ونظرت اليه نظرة انذهال وهي تقول : أتعرف هذا السر ؟

– أعرف انك والدون جوزيف قتلتما الدون بادرو .

فركعت فاطمة أمامه وقالت : عفواً ومرحمة . كأن هذا الرجل قاضياً ، وكأنها في موقف قضاء .

فضحك الرجل ضحكاً عالياً ثم قال :

إن هذا الامر لا يعنيني وسيان عندي إذا عاش الدون بادروا او مات فلا تخافي .

– إذن فماذا تريد مني ؟

– أما كنت تقولين الآن للدون جوزيف ...

– وكيف عرفت أكنت معنا ؟

– لا تهتمي بذلك ويكفي اني عرفت والآن أما كنت تقولين له انك إذا خنتني أغمد خنجري في صدرك .

– نعم قلت هذا القول وأقسمت على قتله إذا خانني .

– إذن اذا كنت تبرين باليمين التي حلفتيها فـــاني أريك الدون جوزيف يخاصر المرأة التي يحبها .

فهاجت الغيرة في فؤادها وقالت : متى وفي اي مكان ؟

– بعد ثمانية ايام في حفلة راقصة .

– ماذا اسمع ؟ ان ما تقوله قد رأيته في الحلم. ومن عسى تكون ايها الرجل الملك شيطان ؟

فضحك وقال : ربما

– انت الشيطان نفسه .

– وماذا يفيدك ايتها الفتاة ان تعلمي إذا كنت الشيطان نفسه .

وكان يقول هذا القول وهو ينظر اليها نظرات غريبة ويضحك فخافت

الفتاة وحاولت الهرب .

فأسرع واجلسها على كرسيها وقال : لماذا تخافين مني وأنا صديق لك ؟

ـ أنت صديقي ؟

نعم ..

ـ ولكني لم أرك في حياتي .

ـ أما انا فقد عرفتك منذ عهد طويل وها انا اقص عليك امرك مع الدون جوزيف فإنك جئت إلى باريس منذ عام لأن الدون جوزيف كان فيها .

ـ هذا أكيد ..

ـ وكان هذا الاسباني يحبك في ذلك العهد ويغار عليك من العيون فأمرك أن تدخلي إلى باريس في ظلام الليل .

ـ وهذا أكيد ..

ـ وانك تقيمين في هذا المنزل مع امرأة عجوز كانت حاضنة لك ومع خادم أسود ، وقد كان الاثنان في خدمتك حينما كنت في اسبانيا وكانا يخدمانك في أغراضك الغرامية قبل ان تحبي الدون جوزيف .

ـ وهذا أيضاً اكيد .

ـ والآن فان الدون جوزيف قد اشتراهما بالمال فباتا أطوع له من البنان .

ـ وهل يخدعانني ؟

ـ ستعلمين ذلك فيما بعد ، والآن فاصغي الي ، انك منذ عام ، أي منـــذ دخولك الى هذا المنزل لم يدخل اليه الا الدون جوزيف وذلك لفرط انشغافك فيه ، اما حاضنتك فهي تشيع أمام جيران منزلك انك مصابة بداء السرطان وانك جئت الى باريس كي تتعالجي فيه وهم يحسبون انك طريحة الفراش منذ ذلك العهد الى الآن لأنهم لم يروك ، والآن فهل كفاك مـــا قلته لك وهل تثقين بكلامي .

ـ لا بد لي من هذه الثقة لأني اراك واقفاً على جميع أسراري .

وإذا ثبت لك ان الدون جوزيف يهوى سواك ويخونك أتصدقين ؟

ربما صدقتك ووثقت من اقوالك الا انه لا بد من البرهان في كل حال .

ـ سأقدم لك هذا البرهان بعد ثمانية أيام .

فأطرقت فاطمة برأسها الى الأرض ولم تجب ، فقال لها الرجل باحتقار : لقد أخطأ ظني بك فلقد كنت أحسب ان لك قلباً يتأثر ، ويلذ له الانتقام، ألم تقولي انك عازمة على قتل الدون جوزيف اذا أثبت لك خيانته فما بالك الآن ضعفت واصبحت على وشك الاغماء ؟

ـ انك منخدع بي ولا تعلم من انا .

فابتسم ابتسام الهازىء المستخف وقال : بل أعرفك حق العرفـان فإنك امرأة ضعيفة تقيد فؤادها بسلاسل الغرام .

ـ قلت لك ان فراستك قداخطأت بي فانك ترى بشرتي تشف عن العروق الزرقاء ، ولكن تحت هذه العروق اعصاب قدت من الفولاذ وان اليوم الذي تطعن يدي صدر الدون جوزيف بخنجر يخارق هذا الخنجر صدره النصاب .

ـ هذا الذي كنت اود ان اسمعه منك ..

ـ انما هات برهانك على خيانته وأنا اقتله لا محالة .

ـ لا اصدقك الا إذا اقسمت .

فرفعت النورية يدها باحترام ثم قالت اننا معشر النور لنا ديانة سرية لا تشبه الدين المسيحي ولا الاسلامي في شيء ، وقد تلقنت أسرار هذه الديانة التي يجهلها جميع الناس لحرص النور على كتمانها وانا أجلها كل الاجلال ولذلك فإن كل نوري يقسم بمعتقده السري ، وهو لا يحنث بيمينه ولو دفعه البر به إلى الموت، فأنا اقسم لك بمعتقد آبائي وبهذه الديانة السرية التي لا يحق لنا الاباحة بسرها الا لمن يعتقد بها اني اطعن الدون جوزيف بخنجري حين أراه مع غريمتي .

إذن فاني اثق بقولك بعد هذا اليمين .

– وانا انتظر البرهان

– سترينه غير انه يجب ان تعلمي ان الانتقام لا يفلح الا حين يسير مع صفة ينبغي ان تكون ملازمة له وهي الحكمة ، ثم انـه يجب ان يكون الانتقام مقرون بالكتمان .

– أعرف ذلك .

– وينبغي ان تكوني دائماً باسمة الثغر طلقة المحيا كي لا يداخله فيك اقل ريب واعلمي انه لم يرني احد دخلت اليك ولا يعرف احد الطريق التي سلكتها وسأعود اليك لأراك بعد ثلاثة ايام .

– أتعود الي بالبرهان ؟

– ربما . .

– إذن فسأتكل عليك .

– اصغي الي فاني لم أتم نصيحتي بعد واحذري من الحاضنة ومن هذا الخادم الأسود كما تحذرين من الموت .

لماذا ؟

– ستعلمين ذلك فيما بعد اذ لا استطيع ان اخبرك به اليوم ثم ذهب إلى المستوقد وكان عليه آنية صينية فرفعها وقال لها . اني سأضع لك في كل ليلة رسالة تحت هذه الانية في الوقت الذي تنتظرين فيه قـدوم الدون جوزيف فاقرإيها تجدي بها تعليماتي والان فاني منصرف ولا يجب ان تعرفي كيف اذهب وكيف أتيت . .

ثم اخذ من جيبه عصابة حمراء وقال لها : يجب ان اعصب عينيك .

وتعاظم ذهول النورية ولكنها لم يسعها الا الامتثال فقالت · افعل .

فعصب عينيها وقال لها :عدي على اصابعك الى المائة وخمسين ومتى اكملت عدها ارفعي العصابة .

وجعلت تعد على اصابعها الى ان اتمت العد فأزاحت العصابة فما رأت امامها احداً فرفعت يديها الى السماء وقالت : لا شك انه شيطان .

- ٩ -

في الساعة العاشرة من الليلة التالية ذكرت فاطمة وصية ذلك الرجل الذي باتت تعتقد انه الشيطان ورفعت الانية عن المستوقد ووجدت تحته رسالة وحقاً صغيراً فخفق فؤادها ولم يعد لديها شك انه الشيطان بعينه ثم فتحت الرسالة فرأت مكتوباً فيها ما يأتي :

« انك تجدين بجانب هذه الرسالة حقاً صغيراً فيه رشاش ابيض ، ذوبيه في كأس واشربيه واذا لم تفعلي حين اطلاعك على الرسالة وقبل مجيء الدون جوزيف فإنك مائتة لا محالة » .

ففتحت فاطمة الحق ووجدت فيه ذلك الرشاش ، فما ترددت عن شربه ولم يكن امتثالها حذراً من الموت كما جاء في الرسالة غير انها قالت في نفسها : ان هذا الرجل الذي تمثل لي لم يكن الا الشيطان بعينه وهو الذي ارسل لي هذا الرشاش لقصد أجهله ، ولكن لا شك عندي بأن الشيطان يحميني فإنه معبودنا نحن معاشر النور الذين لا نعبد سواه .

ولم تكد تشرب الرشاش مندفعة الى شربه باعتقادها انه مرسل اليها من معبودها حتى سمعت وقع اقدام الدون جوزيف فوجف فؤادها لأنها باتت واثقة من انه يخونها ، وخطر لها ان تفتك به ولكنها ذكرت وصية الذي تعتقده الشيطان فهدأت روعها واستقبلت عشيقها بمظاهر البشر والسرور .

أما الدون جوزيف فانه لم يستقر به المقام حتى اخرج من جيبه زجاجة وقال : لقد وردني اليوم هذا الشراب من اسبانيا وهو من افخر انواع الشراب.

ثم نادى الخادم وقال احضر كأسين فاني اريد ان اشاطرها الشراب .

* * *

ولنعد الآن خطوة الى الوراء لنبسط ما كان من الدون جوزيف بعد ان غادر فاطمة فانه خرج من عندها مغضباً عليها وقد عول على قتلها لأمرين : انه لم يعد يحبها بعد ان نشبت في فؤاده مخالب تلك المرأة التي كانت تدعي انها زوجة الكونت الروسي ، والثاني انه بات يخافها خوفاً شديداً ولا يجسر على تركها لأنها واقفة على جميع اسراره .

وكان لهذا الاسباني خادم بل مستشار يدعى زامبا ، وحكاية هذا الخادم انه حكم عليه بالاعدام في اسبانيا لجريمة ارتكبها ففر من القضاء والتجأ الى الدون جوزيف ، فأمنه وادخله في خدمته ، وعند ذلك تنكر هذا الخادم كي لا تعرفه الشرطة واصبح مقيداً بجريمته وبات اطوع للدون من بنانه .

وكان الدون جوزيف يثق به ثقة شديدة لوثوقه من انه لا يستطيع خيانته حذراً من ان يسلمه مولاه الى القضاء ، وكان يأتمنه على اسراره ويستخدمه في جميع اغراضه ، حتى اصبح مع مرور الأيام مستشاراً في السر ، وهو في الظاهر خادم غرفته ، وذلك لما لقيه من رجاحة عقله وحسن استنباطه وشدة مقدرته في المكر والدهاء .

ولما برح الدون جوزيف منزل فاطمة ذهب الى منزله فلقي فيه خادمه زامبا ينتظره وحكى له ما كان من امر فاطمة وتصميمه على قتلها فأشار عليه زامبا ان يقتلها بالسم واعطاه سماً قائلاً مزجه بذلك الشراب الذي حاول الدون جوزيف ان يشرب ويسقي فاطمة منه .

اما فاطمة فانها اخذت الزجاجة وفضت ختمها بيدها ثم صبت شرابها بالكأسين واخذت كأسها ، ولما ادنته من فمها داخلها الشك وقالت في نفسها

انه ربما كان يريد تسميمي ولكنها اطمأنت حين رأته قد شرب ما في الكأس وشربت كأسها .

واقام عندها يحدثها بأطيب الأحاديث وهي تجامله احسن مجاملة الى ان انتصف الليل فودعها وهو يقول : اياك والغيرة عليّ لأني لا احب سواك في هذا الوجود .

ثم خرج ولما صار في الطريق رثى لتلك الفتاة وقال: مسكينة انها ستموت في عنفوان الشباب ولكني لم اقتلها الا عملاً بناموس تنازع البقاء اذ لم يكن بد لأحدنا من الموت .

وكانت فاطمة قد خرجت معه حسب عادتها الى الباب الخارجي ولما عادت الى القاعة التي كان فيها ، تراجعت مذعورة لأنها رأت فيها ذلك الرجل الذي كانت تعتقد انه الشيطان وكان جالساً على المقعد ينتظر عودتها فمد يده دون ان يحفل باندعارها الى الزجاجة وقال لها : اشربت من هذا الشراب ؟

نعم !.

وكان معلقاً بالجدار قفص فيه ببغاء جميل فقام الى القفص واخرج منه الببغاء ثم اخذ قطعة سكر عن المائدة وصب فوقها بضع نقط من فضلة الكأس التي شربت منه فاطمة وقدمها للببغاء ، فأكلها وقالت له فاطمة وقد عجبت لصنعه : ماذا تفعل ؟

ولم يجبها ولكنه اشار بيده الى الببغاء فرأت انه جعل يصفق بجناحيه برهة ثم انقلب مائتاً لا حراك به .

وقال لها الرجل عند ذلك : ان هذا الشراب يقتل الانسان بليلة فان الدون جوزيف قد سقاك اقتل السموم ، وهو انما اراد قتلك كي يخلو له الجو مع التي يحبها .

فصاحت صيحة منكرة ثم قالت : لا بأس فاني سأحيى الى الغد واقتله .

— واية فائدة لك من قتله اذا كان قد شرب السم معك فلا بد له ان يموت

حين تموتين .

– لقد اصبت ولكن لماذا قتلني اذا كان يريد ان يموت هو ايضاً .. لقد طاش رأسي في بوادي هذه الأسرار

فضحك من اضطرابها وقال : ان كشف النقاب عن هذا السر سهل ميسور وهو انه شرب ضد السم الذي سقاك اياه قبل ان يشربه فشرب وهو آمن مطمئن .

– أواه ! لقد عرفت الآن كل شيء ولكنه لم يحسب حساب خنجري ، واذا لم يكن لي بد من الموت ..

فقاطعها وقال لقد اخطأت أيضاً ،فانك لا تموتين .

– كيف لا أموت وقد شربت هذا السم ورأيت فعله في الببغاء ؟

– ذلك لأنك شربت ضد السم وهو الرشاش الأبيض الذي وضعته تحت الآنية .

فركعت فاطمة وقد رسخ في ذهنها انه الشيطان وقالت له : لقد علمت انك أبي .

– كيف ذلك ؟

– ألست الشيطان .

فأدرك في الحال اعتقادها وقال : ربما .. وفي كل حال فأنت مدينة لي بحياتك وبانتقامك من هذا السفاك .

– سأقتله دون رحمة اذ قد ثبت لي الآن انه كان يريد قتلي فبرهن لي عن خيانته واذكر لي اسم تلك الخليلة التي يهواها لتعلم اني أبر بيميني .

– ستري هذا البرهان قريباً .

فقالت له بالحاح . متى .. فقد نفذ صبري عن قتل هذا الخائن .

– صبراً فان الساعة قد دنت واصغي الي ، فان هذا الخائن قد سقاك السم بيده ، وعلم انك مائتة في الغد ، ولكنه لم يخجل من ان يمد يده الى

وداعك ويقول لك الى الغد ، وهو يعلم انه سيراك جثة باردة فاذا رآك غداً حية ترزقين فلا بد له من ان يسعى في قتلك بطريقة أخرى واذا رأى ان السم لم ينجح فهو سيلجأ الى الخنجر ولكن لا تخشي فاني بقربك احميك انما يجب ان تتمي تمثيل دورك .

– كيف ذلك ؟

– ذلك ان تظهري له الحنو والانعطاف وتبالغي باظهار الغرام كما كنت تصنعين من قبل .

– ولكنه سيعلم اني شربت ضد السم .

– ذلك لا ريب فيه ، وهو سيتهم خادمه لأنه لا يعلم مقدرتي وسلطاني ، ولكنك ستزيلين شكه فتنامي غداً الى الساعة الثالثة بعد الظهر فاذا جاء الدون جوزيف اظهري له انك تشكين ألماً في الرأس وتثاقلاً في الأجفان ثم تقولين له انك شربت افيوناً وان ذلك من تأثير الأفيون ، فان الأفيون يكون ترياقاً لبعض السموم . والآن فاني ذاهب فاقتربي مني لأعصب عينيك ولا تنسي ان تبقي العصابة الى ان تعدي مائة وخمسين .

ثم عصب عينيها وقال لها : احذري من خادميك أشد الحذر

– ١٠ –

كان من عادة الدون جوزيف انه متى خرج من منزل فاطمة يعود الى منزله فيتنكر بزي جديد ثم يأخذ خادمه زامبا ويذهب الى شارع مقفر فيرى هناك رجلاً ينتظره بمركبة فيطلق سراح زامبا ويدنو من الرجل ، فيعصب عينيه ويسير به الى تلك المرأة التي كان يهواها وهي احدى بنات الهوى كما قدمناه غير انها كانت توهم الدون جوزيف انها امرأة كونت وانها تعصب

عينيه كي لا يعرف منزلها فلا يزورها إلا حين تدعوه اليها مغتنمة فرصة خلو المنزل .

وكان الدون جوزيف قد ولع بالفتاة واحبها حباً عظيماً ليس بعده حب لمشوق وقد علمت من سائق مركبتها ان الدون جوزيف كان يأتي الى الشارع المقفر مصحوباً بخادمه فأنكرت عليه صحبة الخادم حذراً من أن يقف على شيء من سرها ، وأكد لها انه واثق منه . واندفع مع تيار حبه فباح لها بسر هذا الخادم وكيف انه محكوم عليه بالاعدام في اسبانيا وقد هرب من الموت ولجأ اليه فدخل في خدمته بعد ان تنكر بحيث بات آمناً منه اشد الأمان .

ويذكر القراء ان روكامبول عندما اخبر استاذه اندريا بالكتاب الذي ارسلته اليه ابنة الدوق قال له : يجب ان تقتفي اثر الدون جوزيف وتترصده حتى تقف على جميع اسراره وانروكامبول تبعه مرة فعلم انه يذهب متنكراً الى فاطمة ثم تبعه في ليلة أخرى فرآه قد عاد الى منزله فتنكر بزي جديد وذهب الى ذلك الشارع المقفر الذي كان ينتظره فيه السائق ثم رأى ان السائق قد عصب عينيه وسار به في مركبته فركب مركبة وسار في أثره حتى عرف المنزل الذي دخل اليه وفي الليلة نفسها عرف صاحبة ذلك المنزل وعاد الى استاذه فأخبره بجميع ما رآه وتزود بتعليماته .

وفي اليوم التالي ذهب إلى تلك الفتاة وهو متنكر وأخبرها بما رآه ثم اتفق واياها على ان تخدمه في بلوغ أغراضه من الدون جوزيف وفي مقابل ذلك فانه يطلق لها السراح بسلبه على ما تشاء ويزيدها من عنده مبلغاً من ماله فرأت هذه المومس انه قد وقف على سرها وان شروطه موافقة لها فرضيت بها في الحال وأخبرته بجميع ما عرفت من اسرار الدون جوزيف وفي جملتها سر خادمه زامبا .

فعلمها روكامبول ما ينبغي أن تصنع ، ثم تركها ومضى إلى لقاء زامبا

فترصده أمام منزل سيده إلى أن خرج فناداه وقال له: أنت الذي يدعى زامبا؟

– نعم .

- أنت في خدمة الدون جوزيف ؟

– نعم .

– وهل أنت مخلص له ؟

– دون شك .

– إذن تعال معي إلى هذه القهوة القريبة فأني أحب أن احدثك بأمر خطير ، فامتثل له زامبا وسار الاثنان الى قهوة قريبة فجلسا بمكان منفرد منها ودار بينهما الحديث الآتي ، فقال روكامبول .

انك تدعى زامبا كما تقول واما الدون جوزيف فقد جعلك في خدمته كي تنجو من الاعدام .

فاختلج فؤاد زامبا ووهت رجلاه حتى أوشك ان يسقط على الأرض إذ لم يخطر في باله ان الدون جوزيف يبوح بسره لأحد ، فقال روكامبول :

انه لم يمض على فرارك غير ستة أعوام وهذه المدة غير كافية لانقاذك من حكم الاعدام أي ان كلمة واحدة تصدر مني الى بوليس باريس تدعه يقبض عليك ويسلمك مكتوف اليدين الى الحكومة الاسبانية فينفذ فيك الاعدام ومهما يكن من نفوذ مولاك فانه لا يستطيع انقاذك

– قل ما تريد مني ، وقد علم ان هذا الرجل لا يبيعه حياته بثمن بخس .

– يوجد اثنان بأيديهما حياتك او مماتك ، الأول هو الدون جوزيف

– والثاني ؟

– هو أنا، اعلم الآن ان الدون جوزيف لم يكتم سرك ودليل ذلك اني أعرفه فتهدد زامبا القضاء بقبضته وقال سأنتقم شر انتقام .

– إذن فان اخلاصك له لا يدوم .

– كيف تريد ان يدوم بعد هذه الخيانة ؟

– وإذ كنت تخلص له في الخدمة فما ذلك إلا من قبيل الخوف .
– هذا لا ريب فيه .
– واذا طلبت اليك ان تخونه .
– أنت ؟

فابتسم روكامبول وقال : نعم أنا ، اني أشد من الدون جوزيف وأريد أن اسحقه ولا أستطيع أن أصل الى هذه الغاية إلا اذا ساعدتني عليها ولا تحسب اني سأعتمد على هذا السر الذي أعلمه عنك فأبخسك حقك بل اني أدفع لك فوق ما تطمع به ، ولنبـــدأ الآن بالحساب ، فقل لي كم يبلغ كسبك من الدون جوزيف .

– الف ريال في العام
– وكم تسرق منه ؟
– عشرة آلاف فرنك على الأقل .
– وماذا تؤمل منه ؟
– إني أرجو متى تزوج الدوق أن أكون مدير منزله فأمر بامواله كما أشاء .
– ان أملك سيحبط لأن الدوق جوزيف لن يتزوج ابنة الدوق وإذا تزوجها فانه يقتل في ليلة الزفاف .

وبرقت عين زامبا وجعل يتأمل روكامبول تـأمل لص يختبر لصاً مثله ، وأدرك أن محدثه أشد منه دهاء ، غير أنه لم يخطر له أن الذي يريد قتل الدون جوزيف هو نفس ذاك الطامع بزواج ابنة الدوق بل أيقن أن هـذا الرجل يخلص اخلاصاً عظيماً لتلك المرأة البولونية التي يهواها الدون جوزيف ، وان الغيرة قد دفعته الى استخدامه .

وقال روكامبول : انه إذا بقي الدون جوزيف حياً فهو لا يعلم شيئاً من خيانتك ، وإذا مات تقبض من المال ما يعزيك عن فقده واعلم الآن انه متى أخبرتني بما يصنعه مولاك في شارع روشة كل ليلة انقدك عشرة آلاف فرنك ،

ومتى أصبح زواج الدون جوزيف بابنة الدوق مستحيلاً أدفع لك مائة الف فرنك وفي خلال ذاك فاني أدفع لك راتباً قدره الف فرنك في كل شهر .

ثم أخذ ورقة قيمتها الف فرنك وقال : هذه الورقة على الحساب .

وعند ذاك أخبره زامبا بحديث فاطمة فما أبقى على شيء من اسرار العاشقين وكان روكامبول يصغي اليه أشد الاصغاء، ولما فرغ من حديثه سأله عن المواعيد التي يذهب بها اليها ، وعن مداخل المنزل ، واخبره بكل شيء وزاد عليه انه يوجد في منزلها مدخل سري لا يعرفه غير زامبا والدون جوزيف ، وذاك لأن الدون جوزيف كان شديد الغيرة عليها حين قدمت إلى باريس ، ولم يكتف بالخادمين اللذين وضعهما في منزلها جواسيس عليها . بل انه بنى ذاك المنفذ إلى غرفة نومها ، وجعل بينه وبين الجدار محلاً سرياً يقف فيه فيسمع كل حديث يجري في الغرفة دون أن يراه أحد ، وإذا أراد الدخول إلى الغرفة ضغط على زر فينفتح باب يؤدي إلى الغرفة .

وقال له روكامبول . أريد أن تذهب بي إلى هذا المنفذ وتجعلني ذاك المكان السري .

— متى ؟

— غداً حين يكون الدون عند فاطمة .

وقد عرف القراء الآن كيف توصل روكامبول إلى الدخول إلى منزل فاطمة دون أن تراه ، ويسمع كل حديثها دون أن تراه ، وينقله اليهنا حتى باتت تعتقد أنه الشيطان الذي يحميها . أما عزم الدون جوزيف على تسميم فاطمة فقد عرفه روكامبول من زامبا وهو الذي أعطاه ذاك الرشاش وهو ضد السم وقد وجدته فاطمة تحت الآنية وشربته فأمنت الموت .

في اليوم التالي لتسميم فاطمة ذهب الدون جوزيف اليها ودخل إلى غرفتها حسب العادة قبل أن يرى الخادمة ، فأجفل حين رأى خليلته تستقبله باسمة ، وهو يحسب انه سيراها جثة باردة ، أما فاطمة فانها لم تظهر شيئاً من انفعالها

عملا بوصية شيطانها وجلست تنادمه وتمازحه غير ان الدون جوزيف كان يتكلف المباسطة لانشغاله بالسم ، وكيف أنه لم يقتلها على ثقة من تأثيره ونظر إلى وجهها ورأى عليه أثر الضنك وقال لها : ما بالك متعبة العلك لم تنامي ليلة أمس ؟

– كلا .. بل ذاك من كثرة النوم فإنك تعلم اني متعودة شرب الأفيون غير اني أفرطت أمس في شربه فطال نومي، ولما صحوت أصبت بصداع شديد.

وأقام عندها هنيهة وخرج وهو يحسب أن السم لم يؤثر بهـا لأنها شربت بعده ذاك الأفيون وعول على قتلها بطريقة أخرى .

ولما خرج من عندها ذهب إلى منزله فتنكر بزي جديد وانطلق إلى منزل البولونية حسب العادة فوجدها حردة غضبى ، وأجفل من غضبها لأنه كان يحبها حباً مبرحاً ، وما زال يلح عليها بالسؤال عن سبب غضبها حتى أخبرته بانها عالمة بحبه لفاطمة، وانه لا يطمئن لها خاطر بل لا تقبله في منزلها إلا متى عاد اليها بمنديل مصبوغ بدم الفتاة .

وكان روكامبول قد علمها أن تسأل هذا السؤال ، أمـا الدون جوزيف فلم يستاء لطلبها لأنه كان معول على قتل الفتاة ، ولكنه خرج من عندها مفكراً مهموماً إذ لم يهتد لطريقة تضمن له قتلها.

ولما بلغ إلى منزله وجد زامبا ينتظره فيه فأخبره بما كان من نجاة فاطمـة واقتراح البولونية ، وسأله رأيه بقتلها فأشار عليه باغراء خادمهـا الأسود على قتلها بالمال ، واعداده له ، فوافقه على هذا الرأي

وفي صباح اليوم التالي دعى اليه الخادم الأسود واتفق معـه على قتلها في المساء ، وانطلق زامبا إلى المكان الذي يجتمع فيـــه مع روكامبول واخبره بجميع ما كان

أما روكامبول فإنه سر من هذه الجريمة الجـديدة وقال في نفسه لقـد قبضت على الدون جوزيف وفزت بابنة الدوق

ثم ذهب إلى منزله وتنكر بالزي الذي كانت تراه فيه فاطمة وذهب اليهـا من المنفذ السري ؛ وبينا هي جالسة على مقعدها إذ التفتت فرأته وراءهـا دون أن تعلم ، فاستعاذت منه به وخرت له ساجدة لاعتقادها أنه معبودها

فقال قلت لك أن تحذري من خادمتك وخادمك والآن خذي هذه الحبة وتدبري في حيلة تستطيعين بها ان تدعي الخادمة تبتلعها عند المساء دون أن تعلم ثم احرصي أشد الحرص من الخادم أما أنا فسأعود اليك في المساء واعصبي عينيك حسب العادة لأني أريد الذهاب فعصبتها وعدت للمائة وخمسين ثم أزاحت العصابة فلم تجد ذاك الشيطان .

ولما توارت الشمس في حجابها أخذت تلك الحبة فوضعتها بتينة يابسة أخذتها من صحن كان أمامها فيه تين ونقل،ودعت خادمتها وجعلت تشاغلها بالحديث وهي تأكل ثم اعطتها التينة التي وضعت فيها الحبة ، فأخذتها الخادمة واكلتها وهي لا تحسب حساباً لما فيها .

وبعد ذلك بساعة عاد اليها روكامبول وعلم منها ان الخـادمة قد نامت من تأثير المخدر الذي شربته . وسألها : وأين الخادم ؟

– هو في المطبخ .

. حسناً فلنحمل هذه الخادمة إلى سريرك .

فانذهلت فاطمة وقالت . ما هذه الأسرار ؟

– ستعلمين كل شيء .

ثم ذهب واياها فحمل الخادمة ووضعها على سرير فاطمة في غرفتها واطفأ روكامبول المصباح وخرج بفاطمة إلى الغرفة المجاورة وقال لها : ان الدون جوزيف أغرى خادمك الأسود على قتلك بالخنجر ، والآن فإن هـذا الخادم سيدخل إلى غرفتك فيقتل الخادمة شريكته بالمؤامرة عليك وهو يحسب انه يقتلك ولا يدري ، وإنما اطفأت المصباح لأن السود يخافون ارتكاب الجريمة على النور ويؤثرون القتل في الظلمة فقفي بازائي واحبسي أنفـاسك إذا استطعت

وكانت النار موقدة في المستوقد فيخرج منها نور ضعيف ورأيا من نوره هذا العبد الأسود يدخل إلى غرفة سيدته وهو يخفف الوطىء حــذراً من إيقاظها وبيده خنجر عريض النصل ، فما زال يمشي وعليه ظواهر الخوف الى أن وصل إلى السرير وسمع غطيط الخادمة فما شكك انها فاطمة وطعنها بخنجره طعنة شديدة غرق في جنبها إلى النصاب واخترق قلبها فماتت دون أن تنتبه أو تصيح صيحة ألم لتأثير المخدر .

أما الخادم فإنه ترك الخنجر مشكوكاً بقلبها وأثار شمعة كي يتحقق قتلها ويسرق ما يخف حمله من غرفتها ولكنه ما لبث أن أثارها حتى شعر بيد قوية قبضت على عنقه وسمع صوت سيدته تقول له لم تقتلني أيهــا التعس بل إنك قتلت شريكتك بالجريمة .

ووضع روكامبول خنجره على عنقه وقال : إذا كنت تريد الحياة فقل الحقيقة .

فهلع فؤاده من الخوف وقال : رحماك فاني أقول كل شيء .

– من أمرك أن تقتل سيدتك ؟

– الدون جوزيف !

– اتثبت ذلك أمام القضاة إذا وعدتك بالإبقاء عليك ؟

– إني أقسم لك بأعظم الأقسام على الامتثال لما تريد .

والتفت روكامبول إلى فاطمة وقال لها : أسمعت

ثم عاد إلى الخادم وقال له : ألم يعطيك الدون جوزيف منديلاً .

– نعم .. وها هو .

ثم أخرجه من جيبه

فأخذه روكامبول وأراه لفاطمة وقال لها · اليس هذا المنديل شبيهاً بالذي كان معه وقال لك أنه منديل إبنة عمه ؟

فتأملته وهي تكاد تتميز من الغيظ وقالت : انه يشبهه أتم الشبه

ـ إذن فاعلمي انه منديل خليلته وليس منديل ابنة عمه كما قال .

ثم عاد الى الخادم فقال : لماذا أعطاك الدون جوزيف هذا المنديل ؟

ـ لأصبغه بدماء سيدتي وأحمله اليه .

ـ إذن اصبغ المنديل بدماء الخادمة ، وإذا أردت الحياة فاذهب به الآن إلى الدون جوزيف ولا تقل له كلمة عما جرى بل دعـــه يعتقد انك قتلت سيدتك ، وبعد أن تعطيه المنـــديل تهرب إلى حيث تشاء ، واعلم انك إذا خالفتني بشيء مما أمرك به فلا مناص لك من القضاء .

ـ سأفعل ما تريد يا مولاي .

أما روكامبول فانه تركه يغمس المنديل بدماء الخادمة وقـال لفاطمة : خذي الآن مجوهراتك وكل شيء ثمين لديك في هذا المنزل واتبعيني .

ـ الى اين ؟

ـ ستعلمين متى وصلت .

وبعد ذلك بعشر دقائق خرج روكامبول وفاطمة وتبعهما الخادم فسار إلى منزل الدون جوزيف ورأى زامبا ينتظره على الباب فقال : ما فعلت ؟

ـ قضي الأمر ثم أعطاه المنديل واركن إلى الفرار .

ـ ١١ ـ

بينما كان روكامبول يسير بفاطمة إلى حيث لا تدري وبينـما كان الخادم الأسود يذهب الى منزل الدون جوزيف ليعطيه المنديل المصبوغ بدمـــاء الخادمة كان الدون جوزيف ينتظر بذاهب الصبر قدوم زامبا اليه بهـــذا المنديل

وكان الخوف قد بلغ مبلغاً عظيماً من الدون جوزيف لأنه كان يعلم شدة غيرة فاطمة وبات يخشى ان تفاجئه ليلة اقترانه بابنة عمه وتدفعها الغيرة الى ان تبوح بسره أمام جميع الحضور وتقول هوذا قايين الذي قتل أخاه وانا كنت شريكة له بهذه الجريمة ، لأنه كان يعلم أنها لا تصبر على حبه وأنها جديرة بأن تقدم على اكثر من هذا الاقرار ، فقرر قتل فاطمة منذ خطر له هـــذا الخاطر المخيف .

ومما زاده إصراراً على قتلها ان البولونية التي يهواها طلبت اليه قتل فاطمة ثم أنها أرسلت اليه في اليوم التالي تقول فيها :

« ان المركبة ستنتظرك عند منتصف الليل حسب العـادة فاذا أعطيت سائقها المنديل مصبوغاً بدم.. فاصعد اليها واحضر الي والا فعد من حيث اتيت »

وبينما كان الدون جوزيف غارقاً في لجج هواجسه اذ دخل عليه زامبـــا فأعطاه المنديل وهو يقول : قضي الأمر وستحظى بلقاء امرأة الكونت .

ففرح الدون جوزيف فرحاً وحشياً ، وأخذ المنديـل بلهف وطواه مع الرســالة التي وردت اليه ، ووضعها بجيبــه . ثم ترك خادمــه وذهب الى لقاء السائس ، الذي كان ينتظره حسب الاتفــاق ، فقال له السائس : مـا لون منديلك ؟

– أحمر .

– إذن فاصعد .

ثم عصب عينيه حسب العادة وانطلق به الى منزل البولونية . فلما وصل اليها لم يجدها فيه بل وجد وصيفتها ، فدفعت اليه كتاباً من مولاتها كتبت اليه فيه ما يأتي :

« لا أعلم إذا كنت وفيت بوعدك فقدرت ان تأتي إلي في الموعد المعين . وفي كل حال فانه يستحيل علي ان أراك في هذه الليلة ، لأن زوجي الظالم قد عاد فارث لحالي ، واعلم بأن حبي لك يفوق كل حب . ثم إني لا أعلم اذا

كنت أستطيع ان أراك غداً ، ولكني أرجوك ان تبقى في منزلك ولا تخرج منه من الصباح الى الساعة الخامسة ، ولا تستقبل أحداً من زائريك وأطلق سراح جميع خدمك طول النهار ، لأني إذا رأيت أنــك وفيت بوعدك ، وأحضرت إلي ذلك المنديل فقد أزورك مبرقعة الوجه ، فتفتح لي باب منزلك بيدك . وإذا لم أحضر في النهار في الساعة الخامسة فاذهب حيث تشاء وعد في الساعة العاشرة فقد يمكن ان أزورك في الليل وفي كل حال أطلق سبيل خدامك في النهار والليل »

فاختلج فؤاد الدون جوزيف عند قراءة الكتاب وقبله مراراً ثم وضعه في جيبه ودفع المنديل الى الوصيفةورجع الى منزله فأخبر زامبا بما كان وأمره أن يطلق الخدم غداً وينطلق معهم .

ذاك ما كان من الدون جوزيف ، أما روكامبول فانه أخذ فاطمــة التي كانت تنقاد اليه انقيــاد الأطفال ، فركب معها مركبــة وعصب عينيها وعمــا على الطريق ، وذهب بها إلى منزله السري ولمــا دخــل بها إلى القاعة أزاح العصابــة عن عينيها وقال لها : أنظري الى ما حولك فإنك في حبس جميل .

- العل إقامتي تطول في هذا المكان ؟

وجعل روكامبول يحسب ويمد على أصابعه ثم قال : أربعة أيام

لماذا ؟

– كي تنتظري فيه ساعة الانتقام واحذري من ان تخرجي من المنزل أو تطــلي من النافذة ، وســأأمر خادمي ان يقتلــك ، إذا فعلت شيئاً من ذلك .

- سأفعل كما تريد ولا يصعب علي سجن أربعة أيام فقد تعودت الحبوس في عهد الدون جوزيف .

وتركها روكامبول ودخل الى غرفته ، وأقام فيهــا ربع ساعة ثم خرج

متنكراً بزي جديد . ولما رأته فاطمة أنكرته ولكنه تبسم لها وكلمها فعرفته من صوته وزادت وثوقاً من انه الشيطان بعينه ، فقبلت يده قبلة عبـادة وقبلها في جبينها قبلة حنو ، ثم حذرها ثانية من الاطلال من النافذة وخرج فنادى خادمه وأوصاه بالعناية بها والاحتراس عليها ، وان لا يجيبها بشيء إذا سألته عنه بل يقول أنه حديث العهد بخدمته ثم سأله إذا كان ذهب الى قصره وأحضر له رسائله فقال : نعم ولا يوجد غير رسالتين .

فأخذهما روكامبول وفض الأولى وكانت من ابنة الدوق فقرأ ما يأتي :

« سيدي المركيز

« إننا سنسافر بعد ثمانية أيام الى اسبانيا ، وربما حضرنا فيها مأتم ذلك المريض المنكود . ولما كان لا بد لنا من وداع معارفنا في باريس فقد قرر أبي أن يدعو جميع أصحابنا إلى مأدبة في يوم الأحد وأنت من جملة المدعوين فأرجوك أن تحضر لأني أحب ان أراك . »

فوضع روكامبول الرسالة في جيبه وقلبه مفعم فرحاً . ثم فتح الرسـالة الثانية فكانت من البولونية التي يهواهـا الدون جوزيف تخبره فيها بانها لم تستقبل الدون جوزيف في هذه الليلة كما أمرها وأنها تنتظره في الساعة الحادية عشرة حسب الاتفاق . فكشف روكامبول عن ساعته ورأى ان الوقت قد دنا فأسرع إلى لقائها فوجدها تنتظره فقال لها أسرعي وارسلي السائس الى لقاء الدون جوزيف

– لعله قتلها وعاد بالمنديل ؟

– إنه عاد بالمنديل مصبوغاً بدم كلب وهو يظن انه دم فاطمة ، وسأخبرك بكل شيء . اما الآن فاكتبي ما أمليه عليك .

ثم أملا عليها الرسالة التي أخذها الدون جوزيف من الوصيفة كما قدمناه وخلا بها فقال : لا بد لي الآن ان أطلعك على السر فاسمعي .

ولم يكن تلميذ السير فيليام من الذين يبوحون بأسرارهم لبنات الهوى ،

ولكنه بعد أن حملها بالمال والوعيد على ان توافقه بالمؤامرة على الدون جوزيف لفق لها حديثاً فقال إننا بعد ان بلغنا الى ما نحن عليه الآن لم يعد يخلق بأحدنا ان يكتم شيئاً عن الآخر ، فاعلمي إذن ان الذي يدفعني الى كيد الدون جوزيف هو انه سلبني مرة خليلة لي كنت أحبها فأغواها بالمال ، فأقسمت في البدء على أن أنتقم منه . ثم اني لما علمت انه عازم على الزواج بابنة عمه راهنت أحد الأغنياء بمائة الف فرنك على ان أبطل هذا الزواج ، واذا فزت وكسبت الرهان كان المبلغ لك وعشت به سعيدة مدى الحياة دون أن أكون خسرت شيئاً ثم انك تذكرين أني انا الذي علمتك كيف تحتالين عليه وتغرينه على قتل فاطمة

وقاطعته البولونية قائلة : ألعلها المرأة التي كنت تحبها ؟

– ربما . ولما عولت على الانتقام منه رشوت جميع خدامه وهم الآن خدامي بالباطن ، يطلعونني على أعماله . فلما أغرى الخادم الأسود أخبرني الخادم بالأمر وأمرته ان يقتل كلباً ويغمس المنديل بدمه ، ففعل وهو الذي ساعدني على اختطاف فاطمة .

فضحكت البولونية ضحكاً عالياً وقالت إنها خير خدعة . ولكنك لم تقل شيئاً عن غرضك من هذا الكتاب الذي أمليته علي للدون جوزيف .

– أردت به أن يبقى في منزله بانتظارك ولا يعلم شيئاً مما جرى في منزل خليلته ثم أردت ان يزيد ولوعه بك حين يضطر إلى انتظارك فما هاج الحب مثل حدوث المصاعب فيه .

– هو الحق ما تقول غير ان الدون جوزيف لا بد له أن يعلم ان خليلته لم تقتل وان الدم كان دم كلب .

– إنه سيعلم ذلك . أما أنت فيجب أن تبقي واثقة من قتل فاطمة .

– أأراه غداً ؟

– نعم وسأخبرك غداً بما يجب أن تفعليه .

– ولكني لا أعلم إلى الآن كيف يكون انتقامك ؟ وكيف تستطيع إبطال زواج الدون جوزيف ؟

– ذلك ان فاطمة أسيرة عندي الآن وقد وعدتها أن أريها الدون جوزيف يرقص معك في الليلة الراقصة التي سيحييها الجنرال الأسباني فإذا رأته فاطمة يخاصرك تنقض عليه بغدارتها .

فأجفلت البولونية وقالت : إن هذا الانتقام لا يوافقني لأني أخشى أن تدور الدائرة فيه علي .

– لا شك إنك بلهاء . إني لا أريد بالانتقام القتل ، بل أريد به الفضيحة ولذلك فإني سأحشو الغدارة بيدي ولا أضع فيها غير البارود .

فاطمأنت وقالت : إنها ستكون فضيحة هائلة .

– وأية فضيحة أبلغ من ان يوجد الرجل أمام خطيبته في محفـــل حافل بالسيدات النبيلات وهو محاط بخليلتين تتنازعان وتتخاصمان عليه والآن إني ذاهب وسأراك غداً كي أخبرك بما يجب ان تفعليه .

ثم تركها وذهب الى منزله ودخل إلى غرفة اندريا وأخبره بكل شيء وبعد أن تلقن تعليماته دخل إلى غرفته ونام .

وفي اليوم التالي ذهب في الساعة الخامسة الى قصر الدوق إجابة للدعوة ، ووجد هناك معظم نبلاء باريس . وكان فريق منهم ملتف حول ابنة الدوق وبينهم الدون جوزيف فدخل روكامبول وجلس بالقرب من ابنة الدوق مع الحاضرين . وكان الحضور يتحدثون بأحاديث مختلفة الى أن قطع الحديث أحدهم وقال : أعلمتم بالمقتل الفظيع الذي جرى أمس في الشـارع المجاور لهذا القصر ؟

فحدقت عيون الجميع بالمتكـلم وقالوا : كلا ، لا علم لنا بشيء !.. وأي مقتل تعني ؟

فأخرج المتكلم جريـدة من جيبه وقال : إسمعوا إني سـأتلو عليكم تلك

الحكاية الغريبة .

فنظر روكامبول نظرة سرية إلى ابنة الدوق وأشار اليها إشارة خفية كأنه يقول لها إصغي إلى الحديث .

واندفع الرجل يتلو حديث فاطمة والقتل الذي جرى أمس في منزلها ، وكانت هيئة الدون جوزيف تستلفت الانظار وكان كلما اندفع الرجل بالقراءة يشير روكامبول إشارة الى إبنة الدوق التي علمت ان للدون جوزيف علاقة عظيمة بالحادثة

وما زال الرجل يقرأ عليهم الى أن قال ولم تكن القتيلة تلك الفتاةالنورية المقيمة في ذلك المنزل ، بل كانت خادمتها . وقد وجدت مضرجة بدمائها على سرير مولاتها .

وعند ذلك اضطرب الدون جوزيف إضطراباً شديداً ، حتى أوشك أن يسقط لفرط ما ألم به من ذاك الخبر الذي انقض عليه انقضاض الصاعقة ، لأنه كان يحسب أن فاطمة قد زجت في هوة الأبـدية ، فإذا هي لا تزال حية تسعى .

وكان روكامبول قد تمكن في ذلك الوقت ، من الدنو من إبنة الدوق فقال لها همساً : إن القتيلة هي وصيفة فاطمة وإن القاتل هو العبد الأسود ، وإن المغري على القتل هو ابن عمك . وقد طعن الخادمة في الظلام وهو يحسب أنه يطعن فاطمة .

ثم اختلط المدعوون وتمكن روكامبول من الاختلاء مع إبنة الدوق هنيهة قال لها فيها إن الدون جوزيف قتل أخاه بالاشتراك مع فاطمة كي يصل اليك وأراد قتل فاطمة كي لا تحول بينه وبينك فإذا أردت أن أنقذك ينبغي عليك أن تطيعيني طاعة لا حد لها .

- إني أقسم لك أن أطيعك بكل شيء .

- إذن يجب أن تحضري الليلة الراقصة التي سيحييها الجنرال الاسباني

— إني مدعوة اليها وسأحضر .
— وتصحبين معك هذا الوحش المفترس الذي يسمونه الدون جوزيف
— سأفعل كل ما تريد .

وفي الساعة التاسعة تفرق المدعوون فخرج الدون جوزيف وهو ضائع الرشد واجف الفؤاد ، تتمثل له فاطمة وخناجرها وإخوتها بكل مخيل ، الى أن بلغ الى منزله ودخل الى غرفته وأول ما رآه على طاولته كان كتاباً عرف من عنوانه أنه من فاطمة . فأسرع الى فضه وقرأ فيه ما يأتي

« لا تضطرب ولا تخش تلك الفتاة التي أردت قتلها ، والتي أحبتك حباً لا يحيط به وصف . وإنك وإن كنت قد أسأت إلي إساتين بانشغالك عن حبي وبعزمك على قتلي ، ولكني أحبك ولن أحب سواك . وإذا كنت لا أنتقم منك فذلك لأن حبي القديم يشفع فيك . ثم إني أصفح عنك لأنك لم تعتمد قتلي إلا لخوفك من أن أقتلك ، وذلك لما بدا لك من غيرتي حين شهرت عليك خنجري .

« والان ، إني سأكتم عنك كيف تخلصت من الموت ، وسأحمل معي هذا السر لأنك لن تراني بعد في هذا العالم وعندما يصل اليك كتابي أكون برحت باريس وبعد ثلاثة أيام أكون قد غادرت فرنسا ولا أعود اليها ، فإذا أردت ان تبقى حياً وأن تعيش سعيداً فلا تبحث عني ولا تحاول أن تتعرف اين انا بل إقتدي بي لأني لا أبحث عنك وإذا بدر منك شيء مما حذرتك منه فإن خناجر إخوتي لا تزال مسنونة .

« الوداع وكن سعيداً مع التي أحللتها محلي من قلبك أما أنا فسأحاول ان أنساك واطمئن فإن السر الذي كان يوثقنا بقيوده لا يخرج من صدري ولا يعلم أحد اننا اشتركنا في تسميم اخيك الدون بادرو »

« الوداع الى الأبد » « فاطمة »

فقرأ الدون جوزيف هذا الكتاب مراراً وهو غير مصدق ان هذه الفتاة

التي كانت تغار عليه من النسيم تصفح عنه هذا الصفح ، الى ان وثق اخيراً من انها لا تزال تحبه ، وإن هذه الرسالة لم تكن خدعة . فطمأن باله ونظر عرضاً الى الساعة المعلقة امامه ، فرأى انها قد اوشكت ان تبلغ الحادية عشرة ، فخطرت له حبيبته البولونية وخشي ان تكون قد أتت في مـــدة غيابه . فأسرع وهو واجف القلب الى البواب ، وسأله اذا كانت قد أتت إمرأة مبرقعة .

لا .

ألم تر مركبة وقفت بقرب الباب ؟

وفيما هو يقول ذلك إذ سمع صوت مركبة قادمة فوقف ينتظرها الى ان دنت من المنزل فوقفت وخرجت منها فتاة مبرقعة علم الدون جوزيف انها صاحبته فطار لبه سروراً وصاح صيحة فرح . ثم تأبط ذراعها ودخل وإياها الى المنزل ، وقد نسي فاطمة وجميع حوادثها

ودار بينهما حديث طويل ، وأقامت عنده هنيهـة ثم خرجت بعد أن اتفقت معه على أن يحضر لها تذكرتين لحضور الحفلة الراقصة التي يحييهـــا الجنرال الاسباني لها ولوصيفتها ، لأن الدون جوزيف كان لا يزال يعتقد أنها إمرأة كونت رومي

- ١٢ -

في الليلة المعينة لتلك الحفلة الراقصة التي كان يحييهـا الجنرال الأسباني ، كان قصره غاصاً بالمدعوين وكانت الجموع تفد اليه من الرجال والنساء وجميعهم بملابس التنكر . غير انه لم يكن بد للداخل من تقديم ورقة الدعوة على الباب فما كان يقرأ من تولي استلامها غير أسماء الكونتسات والبارونات والدوقات

وأعظم نبلاء الباريسيين .

ولم يكن أحد يعرف الآخر بتلك الأزياء الغريبة إلا من كان منهم على اتفاق مع صديق او صديقة فيخبره عن الزي الذي سيتنكر به فيعرفه به

وكان روكامبول قد اتفق مع البولونية على اللباس الذي تلبسه ، وعلم من إبنة الدوق لباسها ولباس الدون جوزيف . فلما كانت الساعة العاشرة وقد تكامل عدد المدعوين ، جاء روكامبول مع فاطمة وكان متنكراً بزي إمرأة وهي متنكرة بزي غريب يستلفت الأنظار . فأدخلها إلى المرقص وأوقفها في مكان وقال لها . لا تبرحي هذا المكان حتى أعود اليك .

وذهب إلى البولونية وقال لها : هوذا الدون جوزيف وقد عرفتيه لا شك من لباسه الذي أخبرتك عنه .

– نعم .

– إذهبي اليه وخذيه إلى هذا الرواق وعاتبيه عتاباً غرامياً . فإذا رأيت هذه الفتاة ، وأشار إلى فاطمة ، مرت بكما فارفعي صوتك ودعي أحاديث عتابك تصل إلى مسامعها .

– أهذا كل شيء ؟

– نعم .

فتركته وانصرفت إلى الدون جوزيف .

أما روكامبول فإنه ذهب إلى فاطمة وقال لها أنظري إلى هذين المجتمعين في الرواق ، فإن أحدهما الدون جوزيف والثاني هي خليلته التي تخلى عنك من أجلها . فإذا أردت أن تشفي غليلك من الانتقام فأطيعيني في كل ما أريد

– إني لا أخالفك بشيء بعد ان علمت انك معبودي .

– إذن إذهبي ومري بالقرب منهما كي تسمعي باذنك ما يقولان وإياك ان تصنعي شيئاً قبل ان يصل اليك أمري .

فامتثلت فاطمة وذهبت تسمع ما يقوله العاشقان ولما دنت منهما رأتها البولونية تذكرت وصية روكامبول فجعلت تعاتب الدون جوزيف بصوت مرتفع عتاباً هاج كوامن الغيرة والحقد في صدر فاطمة حتى أوشكت ان تبطش به ولكنها ذكرت قول شيطانها فابتعدت عنهما وجعلت تنتظر روكامبول وهي تكاد تجن من القنوط

أما روكامبول فانه حين تركها ذهب إلى إبنة الدوق وقال لها : أنظري يا سيدتي إلى ابن عمك الدون جوزيف ، ألا ترينه يتكلم مع إمرأة في ذاك الزواق ؟

— نعم .

— إنها خليلته . ثم انظري إلى المرأة الثانية الواقفة بقربها ألا ترين علائم الجزع واليأس بادية عليها من حركاتها وتململها ؟

— نعم .

— إنها خليلته الثانية التي هجرها والتي أراد قتلها أي انها فاطمة ، وهي آتية للانتقام منه .

فتأففت إبنة الدوق واشمأزت من هذا الرجل السافل الذي يمد يده لقرانها وهو منغمس في الرذائل . فقال لها روكامبول : أستحلفك بالله يا سيدتي أن تدعي الاعتلال وتبرحي القصر ، لأنه ستحدث فيه أمور هائلة لا طاقة لك باحتمالها .

فارتعشت إبنة الدوق وقالت : ما عسى ان يجري العله يقتل ؟

— كلا بل ستضربه يد الله ضربة قاضية .

— رباه إني أغفر له فاصفح عنه أنت .

— لقد فات الأوان يا سيدتي وقضي القضاء المبرم

ونظر روكامبول إلى فاطمة فرأى انها تنظر اليه كأنها تقول له لم يعد لي طاقة على الصبر فقال لابنة الدوق : أستحلفك بالله يا سيدتي وبكل عزيز لديك

أن تعودي إلى منزلك في الحال .

– ليكن ما تريد وها أنا ذاهبة الى أمي فأعود بها في الحال .

فشكرها روكامبول وافترقا . فذهبت إبنة الدوق إلى أمها وشكت لها صداعاً مؤلماً أصابها ، وانها لم تعد تستطع البقاء فأخذتها أمهـا وخرجت بها عائدة إلى منزلها .

ولما رأى روكامبول إنها خرجت دعى اليه فاطمة وقال لها : ماذا سمعت من هذين العاشقين ؟

– سمعت ما كنت أوثر الف موت على سماعه ولو لم يصدر إلي امرك بالصبر لما صبرت لحظة على قتله فقد سئمت الحياة

– إن ساعته قد دنت فاتبعيني .

فتبعته فاطمة الى إحـدى الغرف ، فأخذ من جيبه زجـاجة فيها سائل أحمر وقال :

– إشربي ما في هذه الزجاجة فانها تشدد ساعدك .

– إن ما بقلبي من الانتقام يغنيني عن كل شدة ولكني أشربه لأني لا يخلق بي أن أخالف لك أمراً .

ثم أخذت الزجاجة فشربت ما فيها جرعة واحـدة والقتها على الأرض ، وعند ذلك أخذها روكامبول وسار بها يبحث عن الدون جوزيف حتى رآه في قاعة منزوياً مع البولونية ، وفي هذه القاعة بعض المدعوين فقال لها : إني أسلمك إياه الآن فافعلي به ما تشائين .

ثم تركها وهرول مسرعاً فبرح القصر عائـــداً إلى منزله وهو يقول في نفسه : لقد ساءني قتل هذه الفتاة ، فانها كانت تطيعني طاعة لا حد لها ، فجرعتها سماً يقتل شاربه بربع ساعة . ولا أنكر أنه عمل وحشي ، ولكن الحوادث قد قضت عليها لأنها إذا قبض عليها بعد قتل الدون جوزيف فقــد تقر أمام الحاكم بأنه قتل أخاه كي يتزوج بابنــة الدوق ، وهو إقرار شائن

لأمرتها يقصيني عنها أما إذا ماتت على أثر قتلها الدون جوزيف يموت هذا السر معها وأتزوج أنا إبنة الدوق

- ١٣ -

في اليوم التالي لهذه الحفلة الراقصة كان المركيز دي شمري أي روكامبول يتناول طعام الغداء في النادي الذي يجتمع فيه مع أصحابه ، وهو جالس على مائدة وعلى مائدة أخرى أربعة من أعضاء هذا النادي وقبل أن يتم طعامه دخل شاب جديد من أعضائه فجلس على مائدة روكامبول وقال له بصوت سمعه الجميع : الملك كنت امس في مرقص الجنرال الاسباني ؟

ــ نعم وأنت ؟

فقال له الشاب : كيف تسألني هذا السؤال ، ولا يبدو عليك شيء من أثر الاهتمام ؟

ــ لماذا تريد أن أهتم ؟

ــ كيف ذلك الملك لم تعلم بما جرى ؟

علمت أن الحفلة كانت حافلة .

ــ أهذا كل ما علمته ؟

وأن إمرأة الجنرال أزاحت البرقع هنيهة عن وجهها فكانت من أبدع ما تراه العيون .

ــ أبقيت في الحفلة إلى انتهائها ؟

ــ كلا بل إني بارحتها عند منتصف الليل .

لقد علمت إذن ...

ــ أما أنا فلم أعلم .

ـ أريد ان أقول إني علمت السبب في جهلك لما حدث .
ـ ماذا عسى ان يكون حدث؟ العل صاحبة الحفلة أغمي عليها أم ان زوجها غار من أحد الملتفين حولها فأظهر هذه الغيرة ؟
ـ بل حدث ما هو أبلغ من ذلك والحق ايها المركيز إني لا أرى أبسط منك ولا أكثر سلامة من قلبك .

فصاح الجميع وقد فرغ صبرهم : قل لنا ماذا حدث ؟
ـ حدث ان الدون جوزيف ابن اخ الدوق سالاندريا قد قتل امس في تلك الليلة الراقصة التي انقلبت إلى مأتم
فصاح الجميع منذعرين : كيف قتل ومن قتله ؟

ـ قتلته إمرأة . وتفصيل هذه الحكاية ان الدون جوزيف كان يهوى إمرأتين ، وكل منهما تغار من الأخرى عليه ، وقد اتفق ان الاثنتين كانتا في المرقص . فبينما كان الدون جوزيف يكلم إحداهما إذ دنت منه الأخرى وأزاحت البرقع عن وجهها وقالت له . أعرفتني أيها الخائن ؟ ثم استلت خنجراً وطعنته به في قلبه طعنة نجلاء خر على أثرها صريعاً على الأرض دون أن ينبس بكلمة . فأسرع الناس واحتاطوا بها من كل جانب ، وقد حسبوا في البدء انها مجنونة ، وبينما هم يسألونها أسئلة مختلفة إذ اصفر وجهها وصاحت صيحة عظيمة ثم سقطت على الأرض لا تعي .

فقال روكامبول : العلها أغمي عليها ؟
ـ كلا ، بل إنها ماتت مسمومة . فقد وجدت زجاجة فارغة فيها بقية من سائل أحمر ، حكم احد الاطباء الذين كانوا في الحفلة ، إنه سم نقيع قاتل .
فقال روكامبول ببرود : لقد عاقبت نفسها كي لا يعاقبها القضاء .
ـ ولكن الغريب في هذه الحادثة التي تشبه الروايات المحزنة انها ختمت بفصل مضحك .

فقال الجميع : كيف ذلك ؟

— إن الفتاة الاخرى التي كان يحدثها الدون جوزيف عندما رأت قتل حبيبها سقطت مغمياً عليها . فلما فرغ الناس من الاهتمام بالقاتلة عادوا اليها ونزعوا الحجاب عن وجهها ، فأجفل بعض من عرفها من الشبان وصار كل واحد منهم قول للآخر : البولونية .. البولونية . ولم يكن النساء يعرفنها وكن يعجبن لعجب الشبان حتى اخبرهن اوقحهم بانها اشهر بنات الهوى واتصل خبرها بالجنرال فغضب غضباً شديداً وقال لها : كيف تجاسرت على الدخول إلى منزلي وانت كما يقولون ؟

قالت : إنك انت الذي دعوتني اليه واخبرته ان الدون جوزيف احضر لها ورقة الدعوة .

فطردها من القصر . ثم حضر البوليس فحملت القتيلة الى دار الحكومة وحمل القتيل إلى قصره ، ثم تفرق الناس ونزل الستار على آخر فصل من هذه الرواية .

فعجب الجميع لهذا الاتفاق الغريب . اما روكامبول فانه نهض وقال : إذن لا بد لي من تعزية الدوق لوفاة ابن اخيه العزيز .

ثم تركهم يتحدثون بهذا الحديث وذهب الى قصر الدوق كي يعزيه على قتل ابن اخيه فأخبروه انه لا يقابل احداً ، فترك رقعة الزيارة وانطلق إلى استاذه السير فيليام .

– ١٤ –

عندما وصل روكامبول إلى منزله رأى صهره الفيكونت فابيان ، وهو زوج اخته المركيزة ، فقال له الفيكونت : أما علمت بما جرى في حفلة

الجنرال الاسباني ؟

– نعم وقد كنت في الحفلة .

– عجباً أتكون عارفاً مثل هذه الحوادث الخطيرة ثم تكتمها عني وانا إياك في منزل واحد ؟

– إنما كتمتهـا عنك لاني برحت الحفـلة قبل الحادثـة ، ولم أعلم بها إلا الآن !

– ان الدون جوزيف قتل قتلاً فظيعاً غير ان عزاؤك في موته انه خطيب إبنة الدوق . قل لي ألا تزال تحب تلك الفتاة ؟

فتظاهر روكامبول بالخجل وقال : إنكم تتهموني بحبهـا وانا لم يخطر لي حبها في بال .

– إني أعلم منك أكثر ما تعلمه عن نفسك ، وسواء أنكرت هذا الحب أم بحت به ، فسننظر في امرك لان الخطيب قد مات موتاً شائناً بين خليلتين وخلا لك الجو .

فأطرق روكامبول وقال : ولكن قبره لا يزال مفتوحاً .

فابتسم الفيكونت وقـال : إنه سيغلق فـاطمئن ، فسأخدمك أجـل خدمة .

ثم دخل الإثنان إلى المنزل فذهب صهره إلى امرأته وذهب روكامبول إلى اندريا فأوقفه على جميع ما حدث وسأله تعلياته فكتبَ له على اللوح الحجري : « إصبر إلى ان يردك كتاب من إبنة الدوق او تقابلها » .

فدخل روكامبول إلى غرفته واقام ينتظر فيها هذا الكتاب إلى السـاعة الثامنة ، فلم يحضر فذهب الى النادي ولبث فيـه الى منتصف الليل . ثم خرج منه فلقي عند بابه رجلاً عرف انه خادم إبنة الدوق فأعطاه رسـالة وانصرف . فأخذها روكامبول والفرح ملء قلبه ، وركب مركبة وسارت به تنهب الأرض إلى المنزل حتى إذا بلغه ذهب تواً إلى غرفة أندريا ففض

الكتاب وتلاه عليه .

وخلاصة هذا الكتاب انها ذكرت فيه كيف انهم أتوا بالدون جوزيف قتيلاً إلى القصر ، وانها وإن كانت تعتقد أنها القاتلة لأنها أغرت روكامبول على قتله فإنها لا تستطيع أن تخفي ما نالها من التأثر الشديد ، ثم ذكرت له انهم وجدوا في جيب الدون جوزيف كتاباً من فاديكس يشير إلى موت أخيه الدون بادروا ، وانها لا تنكر على الدون جوزيف ان يحضر إلى المراقص في الليلة التي يرد فيها نعي أخيه لأنها تعلم انه سفاك أثيم ، وانه هو الذي قتل أخاه بالسم فلا يكاترث بموته ، ثم طلبت اليه أن يحضر اليها لأنها تريد أن تراه .

ولما أتم روكامبول تلاوة الكتاب قال لأندريا : ماذا ترى ؟

فأخذ أندريا لوحه الحجري وكتب عليه : لقد خطوت خطوة كبيرة فإن ابنة الدوق تحبك وخطيبها قد مات ، ولكن ..

وهنا قطع الكتابة وجعل يفتكر فقال له روكامبول : ولكن ماذا ؟

فكتب أندريا . « ان الدون سالاندرا منعظماء الاسبان ومن كبار الأغنياء لاسيا وان ثروته ستزيد أضعافاً بما سيرثه من الدون بادرو والدون جوزيف ، أما أنت فانك مركيز وغني ولكن شتان بين ثروتك وثروته ومقامك ومقامه » .

فقال روكامبول : وما عليّ من التباين بين الحالتين إذا كانت تحبني ؟

— أصبت .. إنما أحب أن أعلم إذا كان قد تقدم لطلبها أحد غيرك من النبلاء .

فقال روكامبول: نعم فلقد خطبها من قبلرجل عرفناه في أدوارنا السابقة وهو الرجل الذي كنت تغريه على إغواء هرمين أي الكونت دي مايلي الذي أصبح الآن دوقاً بعد موت قريبه الدوق الذي مات دون ان يتزوج الأرملة غير ان طلبه قد رفض .

فقال اندريا · ذلك لأن الدون جوزيف كان خاطباً للفتاة وكان لا يزال في قيد الحياة ، أما الآن فقد يمكن بعد شهر أو شهرين ان يعود إلى هذا الطلب ويفوز وهنا كل الخطر .

فقال روكامبول : لقد أصبت غير اني لا أخشى الدوق دي مايلي بل اني أخشى باكارا لاتصالها باسرته .

فاضطرب أندريا عندما سمع اسم باكارا وبدت علائم الغضب على وجهه المشوه فقال روكامبول : لقد قلت لك ان باكارا باتت تدعى الكونتس أرتوف وهي الآن في روسيا مع زوجها غير انها ستعود في أوائل الشهر القادم ولقد رأيت كثيرين من الناس الذين عرفوني حين كنت أدعى الكونت دي كامبول وحادثتهم فما عرفني منهم أحد وأنا أحمل لقب المركيز ، الا اني اخشى أن تعرفني باكارا فان تنكري لا يخفى عليها ، أما باكارا وزوجها فقد عرفا الدوق سالاندريا منذ سنتين في مياه ويسبادن وبات الكونت أرتوف صديقاً للدوق وباتت باكارا صديقة لابنة الدوق وأمها وعلى ذلك فاني أخشى ان يكون الكونت أرتوف هو الذي طلب ابنة الدوق للدوق مايلي وان تحبط باكارا مساعينا كما أحبطتها من قبل إذ لم نبالغ في الحذر ، لذا فاني أري ان الاهتمام بشأن باكارا أولى من كل اهتمام ، فان الدوق وامرأته وابنته لا بد أن يسافروا بجثة الدون جوزيف الى اسبانيا .

فوافقه أندريا بهز رأسه مرات متوالية فقال روكامبول : وأعلم بأني لا أخرج عن أمرك في شيء ، بقي أن تعلم اني لا أستهجن كرهك لأخيك الكونت دي كركاز فقد كان السبب الأول في شقائك غير أنه يجمل بك الآن أن تتخلى عنه مؤقتاً فإنك لو تدبرت في ماضيك لعلمت ان كرهك له ومحاولتك الانتقام منه كانا علة حبوطك في جميع مساعيك ولو كنت قد تخليت عنه من قبل وجعلت كل اهتمامك في باكارا لما فقدت لسانك وبصرك ولكنت ظفرت بتلك الفتاة اليهودية التي أحللتها في أعظم محل من قلبك .

فاصفر وجه اندريا عند ذكر اسم اليهودية ورأى روكامبول ذلك الاصفرار فعلم أنه لا يزال يحبها فقال له : إذا ساعدتني على الانتقام من باكارا ومنعها عن التعرض لي فزنا عليها وكانت لك تلك اليهودية مكافأة لأعمالك .

فظهرت على وجه اندريا علائم الفرح الوحشي ووافق روكامبول على كل ما قال ، فغادره روكامبول ومضى وهو واثق من الفوز .

وفي اليوم التالي ركب مع صهره مركبة مجللة بالسواد وذهب إلى قصر الدوق لحضور جنازة الدون جوزيف . فقد تقرر أن يصلى عليه في الكنيسة ثم تحنط جثته كي تدفن في اسبانيا .

ولما كانوا في الكنيسة والناس منشغلون برش المياه المقدسة على الميت دنا خادم ابنة الدوق من روكامبول وأعطاه رسالة منها ، فأخذهـا روكامبول ودسها في جيبه ثم انتظر الى أن انتهت المراسيم .

ثم عاد مسرعاً الى استاذه أندريا وقرأ عليه هذه الرسالة وهي كما يأتي : « اننا مسافرون غداً إلى سالاندريرا نحمل جثة الدون جوزيف اليها لدفنهـا في مدفن العائلة ولا أريد بل لا أطيق السفر قبل أن أراك فأحضر الليلة عند منتصف الليل الى الحديقة في المكان المعهود » .

فلما أتم قراءتها قال : ماذا ترى ؟

ــ أرى انه يجب أن تذهب للقائها .

ــ ما هذا الذي أعنيه بل اني أسألك رأيك في الرسالة ، فكتب اندريا ان رأيي هو انه يجب ان تحتفظ بجميع هذه الرسائـل حتى اذا نستك وهي في اسبانيا او تزوجت بالدوق مايلي او دوق سواه تضع له هذه الهدايا في العلبـة التي تضع فيها هدية العرس ، فضحك روكامبول وتحدث معه هنيهة ثم تركه وانصرف إلى النادي فاقام فيه إلى انتصاف الليل وعند ذلك ذهب للقاء ابنـة الدوق فوجد انها تنتظره في الحديقة .

ودار بينهما حديث طويل افتتحته ابنة الدوق بشكر روكامبول عن خدمته

الجليلة ثم اخبرته أن أباها بات يمقت البلاد الاسبانيـة لكثرة ما لقي فيها من المصاعب وانه سيقيم في باريس ، وما زالا ينتقلان من حديث إلى حديث ويتناجيان بالحفاظ إلى أن ناب اللسان عن العيون فتشاكيا وتناجيا وتوافقا على الحب إلى الموت ، ثم افترقا وقد اتفقا على المراسلة ، فودعها روكامبول وهو يمسح دمعة عن خده لا ندري من أين نزلت ، فشهقت ابنة الدوق بالبكاء وهي تقول أحبك ، وذهب روكامبول وهو يتأوه ويتنهد .

- ١٥ -

خرج روكامبول والفرح ملء قلبـه وهو يقول في نفسه : لقد ظفرت بما ابتغيته وأصبحت هذه الأموال الاسبانية في قبضة يدي ، ثم جعل يمشي وهو غارق في بحار هذه الهواجس غير مكترث بالمطر المتساقط عليه ولا زال يمشي إلى أن أيقظه من سبات تصوراته صوت امرأة تستغيث فاسرع الى المكان الذي خرج منه الصوت فرأى امرأة تحاول ان تتخلص من رجل وهو يمسك بهـــا فيجرها تارة ويضربها بحمق كلما امتنعت عن اللحاق به ، ولا ندري ما دفع روكامبول إلى انقاذ تلك الفتاة وما هاج في صدره تلك المروءة إلا أن يكون قد طمع بغنم من هذا الانتصار فجرد خنجره وصاح بالرجل صيحة أرهبتـه فذعر كما يذعر اللصوص عندما يفاجئهم مفاجيء ، ثم لما رأى الخنجر يلمع في الظلام بيد روكامبول ترك الفتاة وأركن إلى الفرار فدنا روكامبول منها وقال: اطمأني لا خوف عليك وأنا بقربك .

فقالت له الفتاة بصوت الخائف : بربك لا تتخلف عني ولا تدعني وحدي فانه يعود إليّ ويقتلني دون شك .

فارتعش روكامبول عند سماع صوتهـا وقال في نفسه انني سمعت هذا

الصوت قبل الان ، غير ان الظلام كان مدلهما فلم يستطع أن يرى وجهها ولكنه مسك يدها وقال لها : لا تخشي وهلمي معي فاوصلك إلى محل تأمنين فيه فمشت المرأة معه إلى ان بلغا الى مركبة واقفة في الشارع فتبين وجهها على نور مصباحها وارتجع متذعراً الى الوراء وهو يقول . . باكارا . . .

وكان ذهول روكامبول عظيماً حتى انه لم يتمالك رشده ونسي انه اذا تظاهر بمعرفة باكارا امامها فكأنه يدعوها إلى ان تعرفه غير أن المرأة اجابته وهي منذهلة أيضاً : انك واهم يا سيدي فما أنا بصاحبـــة هذا الأسم الذي ذكرته فجعل روكامبول يتفرس في وجهها بامعان فرأى انها باكارا بعينيها وشفتيها وطولها وشعرها وصوتها وكل ملامحها غير انها كانت أهزل من تلك التي تدعى منذ أعوام بالكونتس ارتوف وهي لابسة أحقر الملابس فوقف روكامبول بازائها ساكناً باكتاً وهو يقول في نفسه : أما ان تكون تشابهها وهو من غرائب الاتفاق واما ان تكون هي باكارا بعينها فانهــا كانت تتنكر أحياناً حين تحوجها بعض الأعمال الخيرية إلى التنكر ولكنها اذا كانت باكارا فما شأنها مع ذلك الرجل السكير الخامل الذي كان يكلمها كمن له السلطان عليها بما يدل على علائق سابقة بينهما وكانت ظواهره تدل على الاضطراب الشديد غير ان المرأة لم يظهر عليها أنها انتبهت إلى شيء من ذلك ، ففتح روكامبول باب المركبة ودفعها اليها وهو يقول : لقد خدعت فانك تشبهين شبهاً غريباً امرأة عرفتهــا من قبل .

-- لا شك بانخداعك لأني ما رأيتك مرة في حياتي .

ثم دخل في أثرها إلى المركبة وقال لها إلى أين تريدين أن أذهب بك ؟

فاحمر وجه تلك المرأة وقالت ليس لي منزل يا سيدي فقد كنت مقيمة مع هذا الرجل الذي أنقذتني منه ، ولكنه كان يسيء الي اساءة لا تحتمـل حتى اضطررت إلى الفرار منه في هذه الليلة وجعل يبحث عني حتى لقيـني وكان بيني وبينه ما عرفت

ـ لا بأس !.

ثم همس في اذن السائق اسم الشارع الذي كان فيه منزله السري فسار بهما وعند ذلك سألها روكامبول عن اسمها فقالت : ريبيكا ..

ـ أيهودية أنت ؟

ـ كلا غير أن امي كانت يهودية ؟

ـ وأبوك ؟

فتلجلج لسانها وقالت : ما عرفت أبي غير مرة واحدة فاني ابنة الحب الشائن وقد أرتني اياه امي مرة وكان معه امرأته الشرعية وفتاة صغيرة شقراء تشبهني أتم الشبه وربما كانت المرأة التي عرفتها وحسبتني إياها

ـ أكان أبوك غنياً ؟

ـ كلا . بل كان من العمال وكانت أمي تحبه كثيراً وكان تماديها في غرامها أساءه فغادرها مع طفلتها وهي أنا وتزوج بسواها زوجة شرعية .

وكان روكامبول يعرف حقيقة تاريخ باكارا وسريز فقال في نفسه : لا يبعد أن تكون ريبيكا هذه اخت باكارا . ثم قال لها . قلت ان أباك كان من العمال أتعلمين ما كانت مهنته ؟

ـ نعم فقد كانت تقول لي امي انه حفار .

ـ أتعلمين اين كان يشتغل ؟

ـ في معمل أنطوان .

ـ لم يعد شك عندي الآن بأن تلك الفتاة الشقراء التي أخبرتني عنها هي اختك .

ـ أهي المرأة التي تعرفها ؟

ـ نعم !.

فهاج مكامن حقد دفين في صدر ريبيكا ظهر باتقاد عينيها وقالت . إذن فاعلم ان تلك التي تدعوها باكارا هي اختي حقيقة وهي التي جردت أبي من

كل عاطفة حب لي وهي التي زجتني إلى الحضيض الذي انا فيه فـأصبحت من بنات السبيل وسرت إلى ذلك السير الشائن ؟

— كم عمرك الآن ؟

— ٣٢ عاماً ..

وقال روكامبول في نفسه : انها اكبر من باكارا بعامين وسنرى ما يقول اندريا وكيف يستفيد من هذه اللقطة العجيبة .

وعند ذلك وقفت المركبة عند باب منزله فنزل وانزلها وقال لها : ادخلي معي فاني سأحدثك بأمور تسرك . ثم دخل بها إلى قاعة فاخرة الرياش فأجلسها بازائه ودار بينهما الحديث الآتي فقال روكامبول :

— قصي علي الان تاريخ حياتك بجملته فقد بات يهمني كثيراً .

فابتسمت ابتسام الحزين وقالت : ان من كان مثلي لا يروق سماع قصته .

- لا بأس فقصي علي كل شيء إذ قد أكون عوناً ارسلني اليك الله فلقـد قلت انك ابنة غرام وان امك كانت تحب اباك حباً شديداً .

— بل كانت تعبده عبادة ولما هجرها كنت طفلة لا يزيد عمري عن عـام ثم ماتت امي وعمري خمسة أعوام فتولت تربيتي جارة لنا إلى أن بلغت الخامسة عشرة من عمري .

— وبعد ذلك ؟

— نهجت في مناهج امي وسرت في ذلك السبيل الشائن الذي تسير فيه كل فتاة تربت في مهد الرذيلة ولم تجد من يردعها فأحببت اول شـاب ابتسم لي وقال انك حسناء .

— من كان هذا الشاب ؟

— تلميذ من التلامذة الأغراب فكنت أذوق حلاوة العيش مرة وأمج علقمها مرات ، ثم جعلت انهض من هوة فأسقط في غيرها حتى صرت إلى هذا الرجل الذي انقذتني منه .

– إذن أنت تكرهين أختك با كارا التي تشبهك هذا الشبه الغريب ؟

– كما أكره الموت .

– وأنا أيضاً ..

– أنت تكرهها أيضاً ؟

– لأني أحببتها كثيراً وقد داستني بقدميها فإذا كنت تكرهينها كما تقولين وهيأت لك وسيلة للانتقام منها أتقبلين ؟

فقالت وقد ظهرت عليها مظاهر الفرح الوحشي : كيف لا أقبل وإذا لم أستطع أن أحب فاني أريد ان اكره، وإنما يعيش المرء كيما يضر وينفع ولكن كيف لي أن أنتقم ؟

– سأساعدك وأخدمك أجل خدمة .

– أتقسم بشرفك ؟

- سأفعل خيراً من ذلك وهو اني سأهبك هذا المنزل الذي أنت فيه الآن ومتى عرفت ذلك فلا يبقى لديك شيء من الريب .

فنظرت اليه نظرة المنذهل قائلة : أصحيح ما تقول ؟

– إني أعيد عليك ما قلته وهو أن هذا المنزل لك والخادم الذي فيه تحت مطلق سلطانك وأنا سأزورك في كل يوم .

– كيف ذاك ؟ ألك منزل آخر غير هذا تقيم فيه ؟

– نعم فإني غني وستذوقين معي حلاوة العيش ، ونهض وقال : إني ذاهب الآن وسأعود اليك غداً .

ثم دعى الخادم وقال له انك ستكون طوع أمر هذه الفتاة إنما تكون مسؤولاً عنها فلا تدعها تخرج من هذا المنزل .

فانحنى الخادم إشارة إلى الامتثال ووقفت ربيكا حائرة لا تعلم كيف أرسلت لها الأقدار هذا الرجل أما روكامبول فإنه ركب مركبة وانطلق الى منزله ودخل إلى غرفة أندريا الذي كان ينتظر عودته بذاهب الصبر ليعلم

ما جرى بينه وبين ابنة الدوق فقص عليه روكامبول جميع ما كان بينهما ، وما حدث من تبادل العهود ، وسفرها إلى اسبانيا واتفاقها على المكاتبة بالسر إلى أن تعود مع أبيها إلى باريس ، فكانت علائم السرور تبدو على وجـه أندريا ، ولما فرغ من حديث ابنة الدوق أخبره بأمر ربيبكا ، وانها تشابـه أختها باكارا كما تتشابه نقط الماء ، وانه حصرها في منزله السري إلى أن قال والآن فقد أتيت أستشيرك في شأنها لأني لا أعلم كيف أستفيد من هذه اللقية وما حبستها في منزلي إلا لعلمي بأنك من رجال القرائح النابغة ، وانك لا بد أن تجد فائدة عظيمة من هذا التشابه الغريب ، لاسيما وأن ربيبكا تكره أختها باكارا ولا أحب اليها من الانتقام منها .

فأطرق أندريا يفكر وقد خاض في بحار تأملاته عدة دقائق وروكامبول لا ينبس بحركة كي لا يقطع عليه تصوره إلى أن فرغ اندريا من التفكير فأخذ اللوح الحجري و كتب فوقه « إذهب الآن ونم مطمئناً وعد الي عند الصباح ».

العلك اهتديت إلى السبيل ؟

— « اني لا أزال في الطريق ولا بد لي من الوصول »

فانصرف روكامبول طائعاً ممتثلاً لأستاذه وهو واثق أشد الوثوق من قريحته الجهنمية ، وعاد اليه في صباح اليوم التالي فوجد أن اندريا لم ينم بعد وقد صرف ليله بالامعان والتفكير فقال له : ألعلك اهتديت ؟

— نعم .

ثم كتب على لوحه يسأله متى تعود باكارا من روسيا ..

— بعد ثمانية أيام ..

— أأنت واثق مما تقول ؟

— بعض الثقة .

- إذن فاعلم أنه لا بد من إيجاد شاب حاد المزاج ضعيف العقـل بحيث يمكن أن يحب امرأة الكونت أرتوف ، أي باكارا حباً صادقاً شديداً ، ومتى

وجدت هذا الشاب نبلغ من باكارا ما نريد .

فأجاب روكامبول يخال لي اني حزرت خطتك الهائلة ، أما هذا الشاب فسأجده دون شك وأنا ذاهب لأراه عند اختي في ساعة الغداء .

- ١٦ -

إن الذي جعل روكامبول يفتكر بأخته وبهذا الشاب الذي يتغدى عندها هو انه عندما كان عائداً أمس مع صهره من جنازة الدون جوزيف قال له صهره : إن صديقك رولاند دي كايلت هو الآن في باريس وقد أرسل لي كتاباً اليوم يقول فيه انه سيزورني غداً ويتغذي عندي فلا تأ كل غـــداً في النادي حسب عادتك .

فأجابه روكامبول بالقبول دون أن يفتكر بهذا الشاب إذ لم يخطر له في بال اقتراح اندريا ، فلما غادر اندريا ذهب الى اخته فوجدها مع زوجها ورولاند في قاعة الاستقبال فقال له صهره · لقد جئت في الوقت المناسب فإنك ستسمع قصة رولاند وهي جميلة دون شك كجميع حكايات غرامه، ألم تقل لي بالأمس ان العشاق لا يكتبون الى أصدقائهم ؟

— نعم . وهذا ما أرتاب به ؟

— ولكنك مخطىء فإن رولاند كتب لي ..

فالتفت روكامبول وقال له : ألا تزال عاشقاً أيها الصديق ؟

فتنهد قائلاً :نعم واأسفاه .

فقال الفيكونت فابيان : ولكنه لا يعشق أميليا كما تعهد بل ان حبـــاً جديداً طرد ذلك الحب القديم.

فقال روكامبول : مثل المسمار يدفع المسمار ويحل محله .

ـ هذا ما جرى لصديقنا رولاند فانه برح باريس واليأس ملء قلبه علّه يجد سلوى عن غرامه بالسياحة والأسفار فشفي من هذا الداء بعد ثلاثة أشهر، غير أنه شعر في بدء الشهر الرابع ان قلبه بات خلياً وانه لا يستطيع أن يحيا دون غرام فعاد من المانيا مكبلاً بقيود حب جديد .

فقال روكامبول : لعله شغف بإحدى الألمانيات ؟

ـ كلا .. فإن التي يحبها روسية ، ولا أعلم التفاصيل ، ولكن رولاند سيقصها علينا .

فاختلج فؤاد روكامبول عندما سمع كلمة روسية ، وقال رولاند : يسوؤني اني في حاجة إلى هذه التفاصيل أكثر منك

فقال روكامبول : ألعلك تهزأ بنا .

ـ كلا .. فإن المرأة التي أحبها ..

ثم توقف متردداً إلى أن قال : إن هذه المرأة لم أرها غير مرة .

ـ أأحببتها من نظرة ؟

نعم .. حباً يشبه العبادة !..

فقال روكامبول بلهجة الهازىء : إنك هربت إلى روسيا كي تنسى حب الفرنسية ، وقد رجعت إلى باريس كي تنسى حب الروسية .

ـ اني لم أكد أراها حتى جننت بها ولم أكلمها كلمة واحدة

ـ لا أجد لك شبهاً إلا الإناء ملئه البارود إذا دنت منه الحرارة هب والتهب ، وأنت كذلك فان نظرة واحدة تثير منك مثل هذا الغرام ، والحق ان مثل هذا الحب لا يوجد إلا في الروايات .

ـ وان حبي حكاية ..

ـ ايمكن أن أقرأها ؟

ـ بل انك تسمعها لأني سأقصها عليك وهي بسيطة محزنة كسائر حكايات الغرام فاني كنت قادماً من حديقة بادن فرأيتها فيها وكنت قد شفيت من

غرامي القديم وعزمت على الرجوع إلى باريس فدعاني أحد أصدقائي إلى حفلة راقصة وقال لي: تعال معي فسأريك الليلة أجمل امرأة وهي الكونتس أرتوف

فاضطرب روكامبول اضطراباً شديداً لم ينتبه اليه أحد ، وأتم رولاند حديثه فقال ثم أخبرني صديقي بحديث هذه الكونتس فقال لي انها كانت تدعى باكارا ، وهي من أشهر مومسات باريس وقد قدر لها أن تنقلب من الشر إلى الخير فأحبها الكونت ارتوف الروسي وتزوج بها . فلما سمعت اسم باكارا وكنت سمعت بشهرتها أحببت ان أراها في تلك الحفلة ورقصت معها فما انتهى الرقص إلا وقد ذهبت بعقلي .

فقال روكامبول وقد أخفى اضطرابه : أهذا كل الحديث ؟

- كلا ، فإني عندما خرجت من تلك الحفلة سكرت كأني مصاب بحمى شديدة ، فلم أنم طول ليلتي وهي تتمثل لي بكل تخيل حتى خشيت أن أكون جننت .

فقال فابيان : لا يجب أن تخشى شيئاً ، فإنك منذ عهد بعيد محسوب من المجانين .

فابتسم رولاند وعاد الى حديثه فقال : وفي اليوم الثاني أقسمت على ان ألحقها حتى أحملها على حبي ولو اضطررت الى ان أصيغ النجوم لها عقوداً . فأخذت أطوف في ذلك اليوم المنتزهات على أراها ، فما وقفت لها على أثر . وفي الساعة الخامسة ذهبت إلى الفندق الذي كانت مقيمة فيـــه فقيل لي انها سافرت إلى هلدبرج فذهبت اليها في ذلك المساء .

فقال روكامبول : العلك رأيتها ؟

– بل أنقذتها من الموت !

فقاطعه روكامبول قائلاً : لقد تقدم لك القول انك ما رأيتها غير مرة وانك لم تكلمها كلمة واحدة فكيف تقول الآن انك أنقذتها من الموت ؟

– إن ما أقوله حقيقة لا ريب فيه .

فقال فابيان : وأنا أقول ان جنونك لم يعد جنون غرام ، بل جنون أكيد .

إنك عندما تسمع حكايتي ترجع عن كلامك هذا .

فصاح الجميع : إذن لنسمع الحكاية .

وجعل بعضهم يهزأ وبعضهم يسكت المازئين ، إلى ان استرعاهم روكامبول السمع وقال : لنسمع الحكاية ، فقد قلت ايها الصديق انك لم تكلمها كلمة .

— لم أرد بذلك إني لم أكلمها على الاطلاق ، فقد كلمتها بضع كلمات حين كنت أراقصها .

فقال روكامبول ولكنها كلمتك دون شك فقد سمعت عن هذه المرأة انها كانت كثيرة الكلام حين كانت تدعى باكارا .

— لقد كانت كذلك حين كنت أراقصها ، ولكنها لم تفه بكلمة حين أنقذتها من الموت لأنها أغمي عليها .

وعندما عادت إلى رشدها ألم تشكرك ؟

- لم تجدني لأنني سافرت . ولكني لم أسافر طائعاً مختاراً ، بل إنهم طردوني

فعجب الجميع ببدء قصته وطلبوا اليه ان يقص عليهم الحديث بجملته فقال : إن باكارا أو الكونتس برحت مدينة بادن في صباح الليلة الراقصة ، وذهبت مع زوجها إلى هدلبرج فاقتفيت أثرها في الحال ، وذهبت الى تلك المدينة وعلمت ان زوجها قد سافر الى فرنكفورت ، وانها مقيمة في منزل جميل على شاطيء البحر ، ثم علمت انها ستنتظر هناك زوجها مدة شهر إلى أن يعود .

وقد رأيت انه لا يليق أن أزورها لأني ما رأيتها غير مرة واحدة في تلك الحفلة الراقصة ، فجعلت أترقب الفرص كي أراها ، فعلمت في اليوم التالي أنها تخرج إلى قارب صغير تتنزه فيه ، ومعها اثنان من القوزاق مائلا

الجثة تلوح عليها ملامح الفظاعة والشراسة ، فعلمت ان زوجها قد جعلها حارسين عليها .

فذكر روكامبول هذين الرجلين اللذين قد وضعاه في الكيس والقياه إلى النهر ، واختلج جسمه لهذه الذكرى . وتابع رولاند قائلاً : وقد ترصدتها عدة مرار وتصديت لها في طريقها ، فاذا سلمت عليها من بعيد ردت السلام ببرود وقلة اكتراث فصبرت وجعلت كل يوم أركب قارباً وأتنزه مثلها بازاء قاربها إلى ان اتفق يوماً ان الرياح عصفت فجأة ، فانقلب القارب وسقطت منه با كارا إلى البحر ومعها الرجلان فألقيت بنفسي وقلت هوذا الفرصةقد دنت وما زلت أصادم الأمواج حتى بلغت اليها قبل البحارة فأنقذتها وهي موشكة الى الغرق وسحبت بها مغمياً عليها إلى القارب .

وكان البحارة قد أسرعوا الينا جميعاً فاحتملوا القوزاقين وبا كارا إلى قارب وسبحت أنا إلى قاربي وقد أنقذتها من الموت

فلما كان اليوم التالي لبست أفخر ملابسي وتطيبت وذهبت لأزور تلك التي كانت مدينة لي بحياتها وانا واثق من حسن استقبالي . فلما طرقت الباب فتح لي أحد هذين الرجلين فما لبث ان رآني حتى أقفل الباب بوجهي ولم يرد علي بحرف . على اني عدت إلى منزلي وأرسلت اليها رسالة هنأتها فيها بالسلامة فكتبت لي تقول ان الكونتس ارتوف لا تنسى انها مدينـــة بحياتها للمسيو رولاند دي كايلت وانها تؤمـــل ان يزورها بعد أسبوعين في باريس لتفيه تشكراتها . فلما قرأت رسالتها علمت انها تقول بعبارة صريحة انها لا تريـد ان تراني في هدلبرج . وفي الوقت نفسه ورد لي كتاب من عمي يستعجلني فيه بالحضور الى باريس ، فلم أجد بداً من الحضور وها أنا الآن بينكم أنتظر رجوع هذه الفاتنة بفارغ الصبر ، ولكنها ستعود قريباً ولا بد لي ان أراها ولا بد لها ان تحبني .

ولما انتهى من حكايته وعلم روكامبول انه مغرم مفتون ببا كارا ترك الحفلة

وأسرع إلى اندريا وقال : لقد وجدت الرجل المطلوب .

– الرجل الذي سيحب با كارا ؟

– بل الذي يحبها .

فابتسم اندريا ابتساماً هائلاً وقال : وأنا وجدت ايضاً ، فاسمع .

ثم خط له خطة هائلة سيقف عليها القراء في الفصول التالية .

م

- ١٧ -

بعد ان خلا روكامبول باندريا خلوة طويلة سرية ، تركه وانصرف الى ريبيكا اخت با كارا ، وكانت هذه الفتاة لا تزال بين مصدقة ومكذبة لما رأته فإنها بعد ان كانت تجول في الأزقة تلتمس قوت ليلة من طرق النكد وبعد ان كاد عشيقها السكير يقتلها أصبحت في منزل أنيق وفرش فاخر ولديها خادم يقف أمامها بملء الاحترام ويناديها بالقاب السيادة .

وكان روكامبول يقول في نفسه وهو قادم اليها: إنني إذا البست هذه الفتاة شالات با كارا وملابسها الثمينة فلا تعود تفرق شيئاً عنها لشدة ما بينهما من التشابه وهي ذكية الفؤاد مثلها فلا بد لخدعة اندريا ان تنجح .

فلما وصل اليها استقبلته شاكرة فرحة فسألها عما اذا كانت قد سرت بهذا المنزل فقالت : اني سررت سروراً لا يوصف ، ولا أتمنى إلا أن يكون لي مثله .

– إنني أعددت لك خيراً منه فهلمي معي الى المنزل الجديد .

فوجف قلب الفتاة وخشيت ان يكون هازئاً بها ثم تبينت من وجهه الصدق وقالت في نفسها : قد يكون وقع في غرامي .

فاطمأنت وسارت معه حتى بلغ بها الى منزل في شارع بامي ، تكتنفه

حديقة صغيرة وعليه ملامح الجلال ثم دخل بها اليه وأدخلها الى قاعة الاستقبال فاذا هي مفروشة من أجمل فرش ، وجعل يذهب بها من غرفة الى غرفة وهي منذهلة لما تراه وتحسب انها حالمة الى ان ذهب بها الى غرفة خاصة بملابسها فجلس وإياها وقرع جرساً فأسرعت خادمة بارعة في الجمال وقالت : العل مولاتي تدعوني ؟

— نعم . إنها تريد ان تلبس ثيابها وغداً تأتي اليها الخياطات .

ثم نهض وقال لريبيكا : انك الآن في منزلك وأنا ذاهب ولكني سأعود اليك في المساء فأتعشى معك . واعلمي الآن انه لديك في هذا المنزل طباخة ووصيفة وخادم وسائق مركبة وجوادان .

ثم قبل جبينها وخرج فبهتت ريبيكا وقالت : لا شك انه فتن بي وسأخلص له الحب لأنه يعرف طرق قلوب أمثالي .

* * *

ولنسبق الآن روكامبول وندخل قبله الى منزل الدون جوزيف الذي استقبل فيه البولونية قبل ان يقتل فنقول ان جثته لم ترسل الى منزله كما يعلم القراء، بل أرسلت الى منزل الدوق

وكان زامبا ينتظر مولاه في تلك الليلة التي قتل فيها حتى اذا انتصف النهار ولم يعد ذهب الى قصر الدوق ليسأل عنه فأخبروه انه قتل . فعلم للحال ان ذلك من صنع الرجل المتنكر اي روكامبول ، وجعل يقول في نفسه انه لو عاش سيدي وتزوج إبنة الدوق لكان جعلني وكيل منزله ، اما الآن وقد مات ماذا أصنع ؟ أأسرق ما في منزل الدون جوزيف وأفر هارباً ؟ ولكني قد لا أنجو من القضاء . وهب اني نجوت فليس في منزله ما يسرق أكثر من عشرة آلاف فرنك وهي لا تكفيني شر العوز في المستقبل . وخير لي ان أتزلف للدوق فانه كان يحب الدون جوزيف ، فربما أبقاني في خدمته فقد استفيد

فائدة عظيمة لوقوفي على سر هذا الرجل المتنكر الذي لم يعد لدي شك انه هو الذي أغرى على قتل الدون جوزيف كي يتزوج ابنة الدوق ولكن ما بال هذا الرجل المتنكر لم أره منذ ثلاثة ايام ؟ العله لم يعد في حاجة إلي بعد ان أدرك قصده ؟

وفي كل حال فلا بد لي من البقاء في منزل الدون جوزيف أتولى حراسته الى أن ارى ما يكون .

وكان قد عاد الى المنزل وجعل يفتش في خزائن القتيل ويسرق ما فيها من المال . وفيما هو على ذلك إذ سمع قرع الباب الخارجي فبادر الى إقفال الخزائن ، وأسرع الى الباب ففتحه فرأى ذلك الرجل المتنكر ، الذي كان يفكر فيه .

ولم يكن هذا الرجل غير روكامبول ، فانه عندما ترك ريبيكا ذهب الى منزله السري فتنكر وقدم الى منزل الدون جوزيف كي يرى زامبا . فلما رآه انحنى مسلماً عليه حتى كاد يبلغ الأرض ، فقال له روكامبول : هل أنت وحدك ؟

ــ نعم .

فدخل وأمره ان يوصد الباب فأحكم ايصاده ودخل الاثنان الى احدى الغرف ودار بينهما الحديث الآتي :

فقال روكامبول أتقدر ان تخبرني عن قتل الدون جوزيف ؟

ــ عجباً كيف تسألني هذا السؤال وانت أعلم بالتفاصيل مني !

ــ لا بأس أخبرني بكل شيء .

ــ ان الدون جوزف مات قتيلاً بخنجر قاطمة واظن انك انت الذي وضعت في يدها هذا الخنجر .

ــ ربما كان ذلك ولكن اتعلم السبب فيه .

ــ كلا .

– ذلك لأن الدون جوزيف كان يبغي الزواج بابنة الدوق .

– اذا كان هذا الزواج قد ساءك فأنت تخدم دون شك رجلاً آخر يريد ان يتزوج بها اذ لا اظن انك انت الراغب بزواجها .

– ارى انك رجل نبيه ذكي الفؤاد فقد أصبت وانا اخدم سواي في هذه المهمة كما كنت تخدم سواك فلنتفق اذن اذا امكن الاتفاق

. فجلس زامبا جلسة الواثق من شدة الحاجة اليه وقال : كل اتفاق ممكن بين عاقلين .

– انما اسألك قبل كل شيء ان لا تنسى اني واقف على سرك وانك محكوم عليك بالاعدام واني استطيع ان ابعث بك الى المشنقة حينما اريد .

– وانا التمس منك ان تكون كريماً ورحيماً .

– سأكون كما تريد فاعلم الآن انطمعت ان تكون وكيل منزل ابنة الدوق وستكون وكيلها بعد زواجها غير انه يجب من اجل ذلك ان تخدم في الوظيفة التي سأعينها لك الى ان يتم هذا الزواج .

– اخدم اينما اردت .

– لي صديق يثقل وجوده علي واحب ان اضع في منزله من يراقبه ، وهو الدوق دي مايلي .

– عرفت هذا الدوق بالنظر .

– وغداً ستذهب اليه ويكون لديك كتاب توصية من ابنة الدوق .

– من ابنة الدوق وكيف لي ان احصل على هذا الكتاب ؟

– سأرسله لك بالبريد .

ثم تركه روكامبول ومضى إلى منزله السري فدعا خادمه وقال : لقـــد أعفيتك من خدمتي وضاعفت راتبك .

فأجفل الخادم وقال : كيف ذلك يا مولاي ؟

– ذلك اني سأعينك في خدمة رولاند دي كايلت لمراقبة أحواله وستذهب

اليه بهذا الكتاب .

ثم كتب اليه كتاباً إلى صديقه رولاند يوصيه بهذا الخادم الأمين وأعطاه للخادم وقال له : انصرف بهذا الكتاب اليه وعد الي غداً لأخبرك بما يجب أن تصنع .

فأخذ الخادم الكتاب وهرول فرحاً بهذا المورد الجديد .

وفي الساعة السادسة من المساء ذهب روكامبول إلى ريبيكا فوجدها تنتظر وقد أصبحت بملابسها الجديدة فتنة للعيون وفيما هما يتعشيان قال لها : لا بد أن يكون قد خطر لك باني أحببتك واني أريد أن أتخذك لي خليلة .

فعجبت ريبيكا وقالت . ما عسى أن يكون قصدك إذن بما تنفقه علي ؟

— اني أريد أن أجعلك من النساء النبيلات وان تكوني جديرة بالاسم الذي تدعين به ؟

فزاد عجب الفتاة وقالت : العلي تقمصت وصار لي إسم جديد ؟

— نعم .. فانك تدعين منذ الآن الكونتس أرتوف ، أي با كارا شقيقتك العزيزة .

- ١٨ -

كان رولاند دي كايلت فتياً لم يتجاوز عشرين عاماً وكان على حداثة سنه كثير الغرور بجماله ، وشديد الاعجاب بنفسه ومقدرته على فتنـــة النساء ، ولكنه كان على هذا الغرور ضعيف العقل كثير الخيلاء ، لا يراعي حرمة النساء حتى انه يندر إذا كلم امرأة أو رأى منها ابتسامة ان يسلم عرضها من فلتات لسانه ، فيتباهى أمام اخوانه بأن فلانة تتمنى رضاه وفلانة تذوب هياماً بـه شأن كثيرون ممن يـــأخذهم الغرور من الشبان فيجعلون فضيلات النساء

مضغة الأفواه وسمر النوادي والويل لمن تبسم لهم ابتسامة رضى وتكلمهم كلمة حلوة فانها لا تنجو من مخترعات غرورهم .

وهذا كان شأن رولاند فإنه عندمـــا عاد إلى باريس يحمل بفؤاده حب باكارا الجديد جعل يطوف على اصحابه وكل ما عثر بواحد منهم حدثه بحديث الكونتس أرتوف بجملته وقال له : انه سر أودعك إياه فلا تبح به لأحـــد وما زال على ذلك حتى شفى غليله واتصل هذا السر بنحو ثلاثين من أولئـك الأصحـاب .

وكان يقيم وحده في منزله وليس معه فيه غير الخادم جرمين الذي أرسله اليه روكامبول ، وقد طاف يوماً كاملاً فلم يجد صديقاً جديداً يبوح له بغرامه الجديد حتى إذ عاد إلى منزله لم يجد أمامه غير خادمه فجعله في زمرة أصدقائه وباح له بسره ثم عهد اليه أن يراقب مجيء الكونتس فجعل الخـادم يذهب كل يوم بحجة الاستفسار عن رجوعها من خدامها ويذهب إلى روكامبول فيأخذ منـه التعليمات اللازمة .

وقد مضى على دخوله في خدمته سبعة أيام دون ان يحدثه بأمر جديـد عنها ، إلى أن عاد رولاند إلى منزله في اليوم الثامن وسأل خادمه إذا كان علـم أمراً جديداً ، فقال : لقد علمت من خدام الكونت انهم ينتظرون عودته بعد ثمانية أيام ..

— والكونتس ؟

— لو كنت تعلم يا سيدي بما أتيتك به من الأنباء لكنت تجازيني خير جزاء فإن الكونتس لا تعود مع زوجها ؟

- ويحك ماذا تعني ؟

— أعني أنها الآن في باريس وحدها .

فاختلج فؤاد رولاند سروراً وقال : اين أقامت أفي قصرها ؟

— كلا . بل انها استأجرت منزلاً في شارع باسي وأقامت فيه متنكرة

وقد علمت ذلك من وصيفتها التي تحبني وأحبها ولكنني لا أزال أجهل نمرة المنزل. ولا بد لي أن أعرفها في هذا المساء .

فطار فؤاد رولاند سروراً وقال لخادمه صنيعة روكامبول : انك إذا عرفت نمرة المنزل أجازيك خير الجزاء .

وفيما هما على ذلك إذ طرق الباب ودخل صديق جديد يدعى اوكتاف كان غائباً عن باريس وكان من أخص أصدقائه فسر رولاند بقدومه وأخبره بجميع أمره مع باكارا إلى أن اخبره بحديث خادمه فقال له صديقه : انها لم تتنكر وتأتي إلى باريس قبل زوجها إلا بقصد ان تراك وفي جميع ذلك مما يدل على انها مفتونة بك ، وكيف لا تحبك بعد أن انقذتها من الموت ؟ بل كيف لا تهواك وقد خصك الله بجمال بثَّ فيه فتنة النساء . فسر رولاند وجعل يفتل شاربيه مختالاً

وفيما هما يتحدثان إذ دخل الخادم يحمل كتاباً إلى مولاه فأخذه رولاند وفضه على عجل فقرأ فيه ما يأتي :

« إذا كان رولاند دي كايلت هو ذلك الرجل النبيل الذي تدله عليه ظواهر أعماله، وإذا كان خليقاً باسمه وبذلك الحب الذي غرسه في قلب المرأة المدينة له ، فليركب جواداً في الساعة الحادية عشرة من المساء وليذهب إلى شارع باسي وينتظر » .

فلما أتم قراءته عرف انه من باكارا فدفعه إلى صديقه وهو لا يصدق ما يراه من الفرح فقرأه أوكتاف وقال لم يعد شك أنها مفتونة بك .

— نعم غير ان الخط ليس خطها

فهزأ به اوكتاف وقال : الا تظن ان لها وصيفة تأتمنها على سرها وتستكتبها مثل هذه الرسائل الخيرة فاقتنع رولاند وخرج مع صديقه إلى النادي لمناولة الطعام .

وكان هناك روكامبول وصهره فابيان فدار الحديث بين الحضور على

أبحاث شتى إلى أن عاد رولاند إلى حديث غرامه فجعل يخلو بكل واحد من أصدقائه ويخبره بحديث الرسالة إلى ان افضى الدور إلى فابيان ، ولما باح له بكل شيء جعل يؤنبه لما يبديه من الطيش والغرور وقال انك والكونت من اصدقائي وقد بحت لي بسرك مع امرأته فأوقفتني اصعب موقف على اني لا أزال اشكك في هذه الرسالة وأعتقد ان احد اصدقائك أراد ان يمازحك فكتبها اليك ، وفي كل حال فان الكتمان أجدر بك وإلا فإنك تعرض نفسك لمبارزة الكونت أرتوف .

فهاجت الكبرياء بصدر رولاند وقال : أتحسب اني اخشى مبارزته ؟

— كلا .. ولكنك تخشى مقابلة تلك المرأة بعد ان تقتل زوجها ، وفي كل حال فانه يجدر بك صيانة عرض تلك المرأة إذا كنت تحبها كما تقول وإلا فأي حب هذا ؟

فأطرق رولاند وهو لا يعلم بماذا يجيب وما صدق ان دخل بعض اعضاء النادي إلى الغرفة التي كان فيها حتى غير الحديث ثم أفلت من فابيان ونصائحه واندمج مع اصدقائه الأخرين وهو لا يلويه شيء عن الافتخار بهذا الحب الجديد وما زال في النادي الى ان حان الموعد المضروب فخرج من النادي وركب جواده وانطلق للقاء باكارا وهو موجس خيفة من تحذير فابيان وهو ان هذه الرسالة قد يكون كتبها له أحد اصدقائه على سبيل المزاح

- ١٩ -

وكانت الليلة ممطرة ولكن رولاند لم يبال بالمطر لما كان يتأجج بصدره من نار الوجد فجعل يسير مسرعاً بالجواد إلى ان وصل إلى الشارع المعين فوقف ينتظر فلم ير احداً وقد اقفر الشارع من المارة لانهار المطر .

وما زال يسير ذهاباً واياباً في مسافة محدودة لا يتعداها الى ان حان منتصف الليل أخذ يرجح ظنون فابيان وسئم من نفسه لاباحته بسره لجميع اصدقائه حتى جعلهم يهزأون به هذا الهزء ولكنه بقي له شيء من الرجاء فلم يخب رجاؤه فبينا هو واقف في الطريق والمطر ينهمر عليه إذ لقي مركبة تدنو منه حتى وصلت اليه فاوقفها سائقها ونزل منها رجل فدنا منه وقال له : ألملك رولاند دي كايلت ؟

— نعم .

— تفضل إذن بالتخلف عن جوادك والركوب في هذه المركبة إلى حيث ينتظرونك ، أما جوادك فسأحتفظ به إلى حين عودتك ، فامتثل رولاند وهو لا يصدق ما يسمع ودخل في تلك المركبة فاقفل بابها من الخارج وانطلقت به مسرعة إلى منزل الحبيب .

وبعد مسير عشر دقائق وقفت المركبة على باب منزل كبير فأراد رولاند أن يفتح باب المركبة فوجده مقفلاً من الخارج فحاول أن يرى من زجاج نافذتها فرآه مصبوغاً بدهان بحيث لا يستطيع أن يرى شيئاً فعلم أن باكارا أرادت بهذا الحذر أن لا يعرف طريق منزلها .

ولم يطل انتظاره فان باب المركبة فتح من الخارج ورأى رولاند خادماً يقول له : تفضل يا سيدي واتبعني ، فتبعه إلى قاعة مفروشة بأجمل الرياش منورة بنور ضعيف فادخله الخادم اليها وانصرف فرأى رولاند ريبيكا التي تمثل دور باكارا جالسة قرب المستوقد فلم يشكك رولاند أنها امرأة الكونت لشدة الشبه بينهما ودنا منها فاخذته بيدها البيضاء فقبلها باحترام وقال لها : ما أرق قلبك وما ألطف شعورك .

فابتسمت له ابتسام الحزين بعد أن جذبت يدها من يده باضطراب وقالت: تفضل يا سيدي بالجلوس بقربي ، وكان رولاند يعتقد انه يحب امرأة الكونت ارتوف حباً شديداً فتلجلج لسانه عن الكلام حين رآها ، كذلك ريبيكا فانها

كانت تمثل دور الغرام فلم تنبس بحرف كأنها لا تجسر ان تفتح الحديث .

وكان روكامبول قد علمها دورها حتى اتقنته فلما رأت رولاند يضطرب ولا يجسر أن يتكلم ، بدأت هي بالحديث ، فقالت باسمة : إذن أنا مدينـــة لك بحياتي .

فقال رولاند وقد حلت عقدة لسانه : حبذا يا سيدتي لو تمكنت من أن أجعل حياتي في كل ساعة فداءك .

فابتسمت وقالت : انك لا شك مجنون

— ذلك لأني جننت بحبك .

فتنهدت وقالت . أريد أن أقول ان كلينا مجنون إني أحبك ايضاً ، ثم غطت وجهها بيديها فخيل لرولاند انه رأى دمعة نفذت من خلال أصابعها ثم مسحت تلك الدمعة وكأنها ذكرت انها امرأة الكونت ارتوف وانهـا مقيدة بقيود الواجبات فقالت لرولاند وكان لا يزال واقفاً أمامها : أجلس على هذا الكرسي بجانبي واحذر أن تبدو منك ما انكره عليك وإلا . .

— وإلا ماذا ؟

فقالت بلهجة المازح : وإلا أقصيتك عني فلا تعود تراني .

فاطمأن رولاند للهجتها وامتثل لها فجلس بقربهـا فوضعت يدها بيديه وقالت : لنتحدث .

— أي حديث يا سيدتي يفصح عما أجد من غرامك ؟

— تريد أن تقول انك منذ لقيتني لم تعرف طعم الرقاد وانك لم تنم إلا على أمل أن ترى طيفي في الأحلام .

فوضع يده على قلبه وقال هو ما تقولين أيتها الحبيبة ، فانني لقيت ما لا تقوي النفوس على احتماله

— وقد وصلتك رسالتي فتلوتها مراراً واتيت إلي وأنت كالثمل من شدة الرجاء انك تريد أن تقول لي جميع هذه الجمل التي أسبقك إلى قولها فانك ترى

اني جريت في حلبة هذا العمر شوطاً بعيداً وقرأت جميع تواريخ الغرام فباتت فقراته وفصوله في محفوظي .

— لا أرى إلا انك فتنة العيون واني احبك

فابتسمت وقالت : لو لم اكن واثقة من حبك اكنت تراني في خلوة معك اما وقد عرفت سر قلبي فلا بد لي من ان اوقفك على شيء من أسرار حياتي فاعلم اني لم اخلق نبيلة كما تراني ،بل انني قبل ان اكون امرأة الكونت ارتوف كنت ادعى باكارا ، ألم تسمع بباكارا ؟

- ذلك سيان عندي فاني احبك

— اصغ الى تتمة حديثي فان باكارا عرفت انها لا قلب لها يشعر بالحب ، ولكن الحب نفذ الى قلبها يوماً كما تنفذ اشعة الشمس الى الآنية فتملأها شعاعاً ، فلما تبت عن عيشي السابق واصبحت امرأة الكونت ارتوف اقسمت على ان احترم اسمه الشريف وان اكون من اطهر النساء فما نكثت بهذا العهد واحببت زوجي اربعة اعوام حباً يشبه العبادة .

ثم غطت رأسها بيديها وتظاهرت انها تضطرب وبعد حين نظرت اليه بعين يترقرق الدمع فيها وقالت : كيف اعترضتني في سبيلي وكيف لقيتك وما لقيت منك فاني ما لبثت ان رأيتك حتى اختلج فؤادي وعلمت ان لك سلطاناً علي لا يغلب فبينا انا الكونتس ارتوف إذ غدوت فجأة باكارا وبات هذا الكونت النبيل الذي طالما احببته ممجاً في عيني حتى لم اعد اطيق النظر اليه . ثم جعلت تبكي بعد هذا القرار بكاءاً شديداً وتقول رباه ما هذا الحب وما اصعب مواقف الغرام .

فذهب عقل رولاند ولم يدر ما يقول فجثا أمامها وجعل يقبل يدها وهو يقول بلسان متلجلج : أحبك .

غير ان ريبيكا رأت انه يجمل بها الاندفاع فجذبت يدها من يده بلطف وقالت رولاند ان زوجي سيحضر بعد ثلاثة أيام .

فتنهد وقال : ثلاثة أيام فقط ؟

– نعم .. واأسفاه فقد اصبحت امقته اشد المقت فارث لحالي فان هنائي بصحبته اربعة اعوام سينقلب الى شقاء شديد لا قبل لي باحتماله

فتحمس رولاند وقال · اتهربين معي ؟

.. إلى أين فاننا لو ذهبنا إلى آخر المعمورة لأدركني وقتلني شر قتلة .

. أتخشينه وانا بقربك ؟

– انه يقتلك أيضاً وأنا لا اريد لك الموت بل ان تعيش لي وتحبني ،فلنبق هنا الى ان اجد سبيلاً يجمعني وإياك ولكنك ستدفن سري في اعماق قلبك اليس كذلك ؟

– اعندك شك بهذا ؟

وقد نسي في تلك الساعة ان سره يتحدث به ثلاثون من اصدقائه .

قالت : ولا تأسف حين يكون زوجي في باريس اذا لم استطع ان اراك كل يوم بل اصبر كما انا صابرة .

– سأصبر الى ان تجد وسيلة كما تقولين

– إذن فاذهب الآن وسنجتمع غداً ..

– اين ؟.

– في هذا المنزل ، فتأتي إلى الشارع على جوادك وتنتظر إلى ان توافيك المركبة التي وافتك اليوم .

فامتثل رولاند وقبل يدها بلهف ثم خرج فشيعته باسمة الى الباب فلقي المركبة تنتظره فركب فيها وانطلقت به الى حيث كان ينتظره الخادم بجواده فامتطى الجواد وانطلق يعدو به إلى النادي حيث كان يرجو ان يجد فيه احداً من أصدقائه ، فيبوح له بهذا السر الذي كاد ينفجر بقلبه ولكنه لم يجد احداً منهم فانقلب راجعاً إلى منزله يمشي مشية الحزين لضيق صدره بهذا السر مع انه لم يكن في حياته على ما هو عليه من الفرح بهذا الاجتماع .

ونام فلم يحلم تلك الليلة إلا ببكارا وظل نائماً الى الظهر فلما فتح عينيه سمع جرس الباب الخارجي يدق فظن ان صديقه اوكتاف قام لزيارته ولكن ظنه اخطأ فان القادم كان المركيز دي شمري ، اي روكامبول . فدخــل الى غرفته وقال باسماً : اتدري لماذا اتيت لزيارتك ؟

– كلا !.

- اني اتيت لظني بانك في حاجة الى صديق وفيمن يكتم سرك ويعينك باخلاصه على ما انت فيه .

– لقد احسنت فان لدي سراً سيقتلني دون شك إذا بقي مدفوناً في قلبي.

فجلس روكامبول على طرف سريره وجعل رولاند يقص عليه ما جرى له في ليلة أمس ..

- ٢٠ -

وكأن الصدفة ارادت ان تخدم روكامبول اجل خدمة وذلك انه في اليوم التالي لتلك الليلة التي كانت ربيبكا تمثل فيهــا دور الكونتس ارتوف ، كانت هذه الكونتس ، أي باكارا ، سبقت زوجها الى باريس بيــومين فقدم هو عن طريق الرين وبلجيكا لقضــاء بعض المهــام ، وقدمت هي عن طريق ستراسبورج ولورين وهي اخصر الطرق الى باريس ، وقد ذهبت تواً الى قصرها ، وكان الخدم متأهبين لاستقبالها وجلست هنيهة الى ان استراحت من مشاق السفر ثم طلبت رسائلها التي وردت فجعلت تطالعها حتى رأت بينها وُرقة نعي ففتحتها ورأت انها نعي الدون جوزيف الذي كان يحول بين الدوق مايلي وبين ابنة الدوق دي سالاندريرا ، فاختلج فؤادها عند تلاوتها هذا النبأ وقامت في الحال الى مكتبها فكتبت الى الدوق مايلي تعلمه بقدومها وتدعوه

اليها وأرسلت كتاباً مع أحد الخدم ثم كتبت كتاباً آخر إلى اختهـا سريز تخبرها بحضورها وجعلت تنتظر حضور الدوق .

وكان الدوق مايلي يبلغ الثلاثين من العمر وهو وافر الثروة عريق النسب جميل الطلعة وكان يحب ابنة الدوق سالاندريرا حباً عظيماً وتعرض لخطبتها غير أن أباها رفض لعزمه على تزويجها بالدون جوزيف .

فلما أتى الدوق مايلي وجد باكارا تنتظره في غرفة أشغال زوجها وأمامها منضدة عليها دفتر ملئت صفحاته بخط تدل ثخانة حروفه على انه خط رجل فقال لها . كنت أحسب يا سيدتي أني سأرى معك الكونت .

ـ ان زوجي لا يحضر إلا بعد ثلاثة أيام ولولا هذا النبأ الذي علمتـــه منذ ساعة لكنت انتظرت حضوره فدعوتك إلي ثم أعطته ورقـة نعي الدون جوزيف ، فاصفر وجهه ولم تخف حالته على باكارا ، فقالت له ألا تزال تهوى ابنة الدوق ؟

ـ نعم وأسفاه وانما اتأسف لأنه حب لا رجاء فيه

ـ اني أراك قانطاً على انك لو قرأت هذا الدفتر الذي تراه أمامي لتبدل يأسك بالرجاء .

فذهل وقال : ما هذا الدفتر ؟

ـ صبراً الآن وأجبني على أسئلتي أليس لعائلتك فرع في روسيا ؟

ـ نعم في أودسا ان أخ جدي وهو الشفاليه دي مايلي ذهب في عهد لويس الخامس عشر مع الدوق دي شوازيل الذي تعين سفيراً لفرنسا في بطرسبرج فأحب فتاة من حاشية الامبراطور كانت وافرة الثروة وتزوج بها فعين عند ذلك كولونيلاً في الجيش الروسي وقد ولد له ثلاثة بنين استوطنوا روسيا ونسوا انهم فرنسيون فلم يعد لهم أقل علاقة بنا وأذكر أن عمي لقي في حربها مع روسيا سنة ١٨١٢ كولونيلاً روسياً يدعى باسم عائلتنا وتقاتل معه .

ـ اني اريد أن احدثك عن هذا الكولونيل نفسه فانه هو الذي أعطاني

هذا الدفتر اليك وقد لقيناه هذا العام في أودسا وقد دعانا إلى حفلة راقصة في قصر الحاكم فلما سمعنا باسمه ذهلنا فاخبرنا انه من أصل فرنسي وحكى لنا هذا التاريخ الذي حكيته .

ثم استحكمت حلقات الصداقة بينه وبيننا وبعد زيارات كثيرة أخبرته بأمرك وانك تحب ابنة الدوق سالاندريا ولكنهم يرفضوا طلبك فانذهل عمك وقال . كيف يرفضون طلبه ؟ قلت لأن الدوق سالاندريا لم يخلف مولوداً ذكراً وهو يود أن يورث ألقابه واسمه لأبن أخيــه الدون جوزيف قال : انه مصيب في ما يرتئيه ولكن الدوق مايلي هو قريب الدوق سالاندريا .

ارتعش الدوق وقال . أنا قريب سالاندريا ؟

. ربما ، ثم أتمت حديثها متبسمة وقالت ألم يكن أحد اجـــدادك من أركان الحرب في عهد لويس الخامس عشر .

— نعم .

— ألم يكن من فرقة الشرف التي سارت الى اسبانيا مع الملك فيليب الخامس؟

— يظهر انك تعرفين تاريخ عائلتي كما أعرفه .

— بل أكثر مما تعرفه فانك لم تكن تدري ان أحد أجدادك هذا تزوج في العاصمة الاسبانية .

— كلا .

— إذن إقرأ هذا الكتاب الطويل الذي كتبه اليك عمك الروسي قبل سفرنا فتعلم ما كنت تجهله .

أخذ الدوق مايلي الدفتر وجعل يقرأ ما فيه بلهف شديد حتى أتمه وهي حكاية طويلة يظهر منها ان لعائلة مايلي اتصالاً شديداً بعائلة سالاندريا غير ان هذا النسب مكتوم عن الناس ولكن عمه الروسي قال له في آخر كتابه : ان لديه كتاباً بخط والده الدوق دي سالاندريا وكتاباً آخر بخط رئيس الأساقفة يثبتان هذا النسب وانه مستعد لارسال الكتابين اليه إذا كان زواجه بالتي يحبها

متوقفاً على اثبات هذا النسب .

فلما أتم الدوق قراءة هذه الحكاية لبث هنيهة مفكراً مطرقاً ثم قال : إذاً لم يبق حائل بيني وبين هذه الفتاة بعد موت خطيبها ؟

– ان هذا لا ريب فيه فان الدوق لم يرفض طلبك إلا لوجود من هو أقرب اليه منك وهو الدون جوزيف ، والآن فلم يبق لدينا غير أمر واحد وهو الحصول على هذين الكتابين اللذين أشار اليهما عمك لاثبات النسب ومتى وردا اليك أتمد بنيل ما تبتغيه من زواج ابنة الدوق ، فاذهب إلى منزلك واكتب لعمك عن اضطرارك إلى هذين الكتابين ، ثم أرسل لي كتابك هذا فاني أبعث به مع واحد من خدامي القوزاق

– متى يرد الجواب ؟

– بعد اسبوعين ومتى ورد الكتابان وعادت عائلة سالاندريا الى باريس أتولى المخابرة عنك في هذا الشأن الخطير على ثقة من النجاح فيه .

فودعها الدوق وخرج وهو يحسب نفسه حالماً لقرب تحقيق آماله

أما باكارا فانها عادت الى قاعة الاستقبالات فرأت أن اختها سريز تنتظرها فكان سرور الأختين بالتقائها لا يحيط به وصف فلما سكنت عوامل شوقهما قالت لها سريز : عجباً كيف تكتبين لي انك وصلت منذ ساعة وأنا رأيتك أمس ؟

فذهلت باكارا وقالت : أين رأيتني ؟

– رأيتك أو خيل لي اني رأيتك أمس في الساعة الثانية في الشارع الكبير وكنت راكبة في مركبة يجرها حصان واحد فما تمالكت حين رأيتك من أن أصيح صيحة دهش واستغراب .

– اني كنت في هذه الساعة قادمة من نانسي وكان بيني وبين باريس عدة أميال ولا بد أن تكوني رأيت امرأة تشبهني فقد كان منذ ستة أعوام يوجد امرأة تشبهني أتم الشبه .

فأطرقت سريز وقالت : ربما كانت « هي » .

وقد أشارت بقولها هي الى اختها دون ان تجسر على التصريح باسمها ، فلم تكترث باكارا لذلك وقالت : إن الخلق يتشابهون .

ولم يخطر لها في فكر ما ستجره عليها هذه المشابهة من بلاء .

- ٢١ -

وفي اليوم التالي لاجتماع باكارا بالدوق مايلي ، بينما كان روكامبول جالساً في المكان السري ، وهو متنكر بالزي الذي كان يلقى به زامبا ، إذ طرق البـاب ففتح للقادم وكان زامبا الذي عينه روكامبول في خدمة الدوق كما عين خادمة في خدمة رولاند كي لا تخفاه خافية من أعمال الاثنين .

فدخل زامبا وهو يبتسم تبسم الظافر ،فأدرك روكامبول معنى هذا الابتسام وقال له . ما وراءك من الأخبار ؟

جئتك بخبر هام .

— ما هو ؟

— تعلم أنه بات للدوق ثقة عظيمة بي بعد ان أعطيته كتاب توصية الغـادة الأسبانية ، فجعلت أدرس طباعه منذ ثلاثة أيام حتى عرفته حق العرفان ، فهو يحب ابنة الدوق يا مولاي حباً شديداً وأصبح كل ما لقيني يسألني عنها أسئلة متواترة تدل على شغفه غير اني كنت أتبين من أسئلته انه لم يكن طامعاً بزواجها وبقي على هذا اليأس الى ليلة أمس .

فوجف قلب روكامبول وقال : ماذا حدث أمس ؟

— وردته أمس رسالة من الكونتس أرتوف تدعوه فيها اليها . فاضطرب الدوق عند تلاوتها وهرول مسرعاً إلى زيارتها وعاد بعد ساعتين وعليه ملامح

التأثير ولكنه تأثير فرح وصفاء .

– العلك عرفت لماذا ؟

– كلا ، ولكننا سنعرف السبب إذا فتحنا هذا الكتاب الذي عهد إلي الدوق بإرساله إلى الكونتس أرتوف قبل أن ينام ، ولا يزال نائماً إلى الآن فإنه صرف ليلته بالقراءة .

– وماذا كان يقرأ ؟

– دفتراً ضخماً ربما جيء به من عند الكونتس .

– سوف ترى .

ثم أخذ الكتاب من زامبا وفتح درجاً فأخذ منه غلافاً يشبهه ، فكتب عليه عنوان باكارا مقلداً خط الدوق أتم التقليد ، وفض الكتاب فرأى في طيه كتاباً آخر إلى ابن عمه في اودسا وكان فحوى كتاب باكارا انه يسألها فيه مراجعة كتابه الى ابن عمه حتى إذ رأته موافقاً أرسلته مع خادمها الى اودسا كما وعدت وكان فحوى كتابه الى ابن عمه انه يطلب اليه إرسال الشهادتين الدالتين على نسبه وقرباه من عائلة سالاندريرا .

فلما قرأهما روكامبول اصفر وجهه ولكنه لم يعلم حقيقة هذا اللغز ، فقال لزامبا لا بد لي من قراءة هذا الدفتر الذي أتى به من عند الكونتس .

– غداً يكون عندك لأن لدي مفاتيح جميع خزائن الدوق .

فاطمأن روكامبول وأعطاه كتاب باكارا وذهب به اليها . وفي اليـــوم التالي عاد اليه بالدفتر فأخذه روكامبول وانطلق به مسرعاً إلى استاذه أندريا فتلاه عليه وأخبره بكتاب الدوق الى باكارا ، ففكر اندريا ملياً ثم كتب على لوحه الحجري : لا بد للدوق مايلي من فوزه مع حليفتـــه باكارا ، إلا إذا استحـــال على باكارا مساعدتـــه ، وبذلك يجب ان تتم الـــدور الذي شرعنا بتمثيله

– سنتمه كما تريد .

– لا ينبغي ان يموت الكونت أرتوف لأن موته يدفع باكارا الى الاهتمام بامر الدوق كي تتعزى عما هي فيه .

– إذن فما نفع الدور الذي تريد أن نمثله ؟

-- ستعلم النتيجة يوم مبارزته مع رولاند .

فنظر روكامبول اليه نظرة ارتياب وقال أرى ان الحزن والشقاء قد ذهبا بصوابك .

فابتسم أندريا إبتسام الساخر وقال : إنك لم تتغير عهدي فيك ، فإنك لا تزال غراً أبله جاهلاً بدقائق أسرار المهنة على طول تمرنك فيها .

فاستاء روكامبول وأجاب إذا كنت لا تريد قتل الكونت أرتوف فلماذا تريد حمله على المبارزة ؟

– ذلك إني أريد أن أصيره مجنوناً في ساعة المبارزة .

– أرى اني أنا الذي سيغدو مجنوناً لأني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .

– ستفهم كل شيء حين الأوان . والآن فان باكارا لا بد ان تكون أرسلت رسولاً إلى اودسا للحصول على أوراق نسب الدوق مايلي ، ولا بد لهذا الرسول ان يعود بالأوراق قبل شهر . فلما يرجع لن تستطيع باكارا أن تهتم بالدوق مايلي لانشغالها بزوجها وجنونه وتلطيخ سمعتها غير أنها حين ترد اليها الأوراق ترسلها الى الدوق ومتى وصلت اليه عرضها على الدوق سالاندريرا إذاً فلا بد من الحصول على هذه الأوراق

– لا نستطيع الحصول على الأوراق إلا إذا قتلنا الرسول .

– إن الكرة الأرضية غاصة بسكانها فلا تؤثر عليها نقص واحد او اثنين .

– حسناً وبعد ذلك ؟

– يجب قتل الدوق مايلي .

فأجفل روكامبول وقال : العلك تريد إرسالي الى المشنقة ؟

- حقك أ تكون معلقاً عليها منذ عهد بعيد ، ولكنك ستنجو منها الآن

كما نجوت من قبل ، وما عليك الآن إلا أن تنفـذ اوامري دون أن تعترض علي في شيء .

– ماذا تريد أن أفعل ؟

– أريد ان تذهب إلى ربيبكا وتملي عليها هذا الكتاب :

« حبيبي رولاند

« لا أستطيع واأسفاه أن أكون حرةفي هذه الليلة غير اني أرجوك ان تكون في منزلك غداً في الساعة الخامسة فسأزورك فيه » .

« التي تحبك »

فأجاب روكامبول : هذا كل ما ترومه ؟

– هو كل ما أطلبه اليك الان فاذهب عني لأني أحب ان أستريح .

– ٢٢ –

فتركه روكامبول ومضى إلى ربيبكا ، فأملى عليها الكتاب المتقـــدم وأرسله إلى رولاند . فذهب رولاند حسب عادته الى جميع أصحابه وجعل يخبرهم بأمر الرسالة ، وكان من الذين أطلعوا على هذا السر روكامبول ، أي صديقه المركيز دي شمري فلما ذهب روكامبول الى منزله لمناولة الغداء لقي صهره فابيان فخلا به وقال له : أتحب رولاند ؟

– إني أحبه حباً شديداً ، وفوق ذلك فاني مسؤول عنه أمام والده فإنه يكتب إلي في كل اسبوع يوصيني بالعناية به والحرص عليه

– إذن فاعلم انه سيوقفـك بعد أسبوع في أشد موقف لأنـه سيدعوك لتكون أحد شاهديه في قتاله مع الكونت ارتوف .

فهز فـابيان كتفيـه وقال : إني لا أصـدق حرفاً من حديث حبـه

للكونتس .

– إنك مخطىء في زعمك . فقد زارها أمس في منزل سري في شارع باسي ثم انها ستزوره اليوم في منزله فانها كتبت اليه .

– لا شك ان الكتاب مزور .

– ربما كان ذلك ، وفي كل حال يجب ردعه عن تماديه فقل جعل عرض الكونت مضغة الأفواه ، ومتى عاد الكونت واتصل به شيء من هـــذه الأحاديث يقتله لا محالة . والذي أراه أنه يجمــل بك الان أن تذهب اليه في منزله فانه ينتظرها فيه وتردعه عن هذه الخطة المنكرة فإنك مسؤول عنه كما تقول :

– أحسنت وها انا ذاهب اليه الان وعسى ان أوفق لردعه .

ثم افترقا فذهب روكامبول الى النادي وانطلق فابيان الى منزل رولانــد فوجده وعلائم الجزع بادية عليه فقـــال له ما بالك قلقاً ، العلك تنتظر زيارة أحد .

– إني أنتظرها أي الكونتس .

– لقد قلت أيها الصديق إنك منخدع ، فان التي تحبها وتزعم انها تحبك ليست الكونتس ارتوف .

– ومن عسى تكون ؟

– ربما تكون إحدى بنات الهوى لقيتك في بادن فانتحلت هذا الاسم كي تتمكن من إغوائك .

- وكأن رولاند قد مست كبرياءه فقال له : أتريد أن تعلم الحقيقة ؟

– نعم .

– إن الكونتس ارتوف ستكون هنا بعد عشر دقائق ، وســأجتمع بها في هذه القاعة التي نحن فيها . فاذا أردت ان تتأكد بأني غير منخدع فادخل إلى هذه الغرفة المجاورة وانظر اليها من ثقب القفل ، فتعلم الحقيقة إذ تراها

وما أوشك ان يتم حديثه حتى قرع الباب الخارجي ، فارتعش رولانـد وقال : إنها أتت فاذا شئت ان تراها فأسرع الى هذه الغرفة المجاورة .

– نعم اريد ان أراها فأظهر لك انخداعك .

– إذن أسرع بالاختباء .

فامتثل فابيان ودخل الى الغرفــة ، ثم أغلق بابها ووضع عينه على ثقب القفل .

وبعد هنيهـة دخلت الى القاعة امرأة مبرقعـة الوجه وقالت لرولاند : الملك وحدك ؟

فاختلج فابيان لسماعه هذا الصوت وحدق النظر من ثقب الباب ، وكانت قد أزاحت البرقع عن وجهها فكاد يسقط على الأرض لدهشته ولشدة تأثيره لأنه رأى الكونتس بعينها ولم يعد لديه شك بما كان يقوله رولاند ، وإنما خدع لشدة الشبه بين باكارا وريبيكا ، حتى ان النـاقد البصير لا يستطيع التمييز بينهما إلا اذا كانتا بازاء بعضهما . فلما أيقن من انها امرأة الكونت رجع عن الباب فجلس على كرسي في آخر الغرفة كي لا يرى ولا يسمع وهو يقول في نفسه إن المرأة اذا سقطت في هوة الرجس وتدنست بالآثام فلا رجاء باصلاحها ولا تكون مظاهر توبتها غير كاذبة ، فما أشد شقاء من ينخدع بهذه المظاهر ويتزوج إحدى هؤلاء التائبات فان الوحل يجف اذا أصابته أشعـة الشمس فيستحيل الى تراب ، ولكنه لا يلبث ان يعود وحلاً عند اول رشاش يصيبه من المطر .

أما ريبيكا فانها جلست بازاء رولاند وهو يوشك ان يطير سروراً بها وقالت أتعلم ان الكونت سيحضر غداً ؟

فهدد رولاند الفضاء بقبضتيـه وقال : يا ويله اذا اجتمعنا ، فلا يلاقي غير الموت .

- حبذا ما تقول ! ولكن أتدوم على حبي متى أصبحت مطلقة القياد .
- بل أعبدك عبادة وكيف لا أحبك وانا أريد ان أقتله من أجلك .

فأخذت يده بين يديها وقالت . لعلني أجد طريقة تجمعني واياك الى الأبد ، أما الان فليس لي من سعادة لقياك غير ليلة واحدة سأصرفها برمتها معك ، ولأجل هذا أتيتك فاذهب الان الى الأوبرا واستأجر اللوج الأول فيها وأنا أوافيك اليه في الساعة العاشرة ، ثم نعود سوية الى محل نستتر به حبنا عن العيون .

- العلك ذاهبة الان ؟

- نعم ، فقد صحبتني امرأة تنتظرني على الباب بالمركبة ، وما هي إلا رقيبة علي فلا أحب أن أحملها على الريبة بي اذا أطلت الاقامة عندك .

ثم أفلتت من يديه إفلات الظبي وخرجت وهي تقول : لا تنس الأوبرا .

وبعد ذلك دخل فابيان ، فقال له رولاند أسمعت بأذنك ورأيت بعينيك ؟

- نعم ، وبئست الساعة التي علمت فيها هذه الحقيقة الهائلة . والان فلم يبق لي إلا ان أسديك النصيحة وهي أن تكتم هـذه الحقيقة عن جميع إخوانك لا إشفاقاً على عرض هذا الكونت المسكين ، بل رحمة لنفسك فانه رجل شديد .

ثم خرج دون ان يسلم عليه لفرط تأثيره . فلما وصل الى منزله رأى فيه المركيز البرت فريدريك دي شمري ، فسأله عما رأى ، وكأنه لا يعلم شيئاً عن هذه الحوادث .

فأجاب رأيت ان رولاند لم يكن منخدعاً وان امرأة الكونت أتت بنفسها اليه وستجتمع به هذه الليلة في الأوبرا في لوج واحد وربما رفعت برقعها وعرضت وجهها لجميع الحضور .

فرد روكامبول : إنها قد تقدم على أكثر من هذا ، وعندي ان رولانـد

بات مقضياً عليه لا محالة ، فان الكونت أرتوف سيدري بخيانة إمرأته أو عودتـه ، فيقتلها ويقتله ثم يقتل نفسـه ، غير مكترث بالحيـاة بعد فقد الشرف .

وعند ذلك دخل الخادم ودفع كتاباً لروكامبول فاصفر وجهه إذ رأى عليه طوابـع أجنبية وعلم انه من إبنة الدوق فاستأذن صهره وذهب الى غرفته ليطالع هذا الكتاب

وكان الكتاب من إبنة الدوق وهو يتضمن تفصيل سفرها ، وشدة تأثير أبيها لفقد قريبيه، وانقسام حبل اسرته . ثم ذكرت له انـه بعد ان خفت لواعج أبيها كاشفتها أمها بأمر الزواج ووصفت لها الدوق دي مايلي مثنية على آدابه ، واشترك معها أبوها فذكره أمامها بالخير مما يدل على رضاه عنه غير ان إبنة الدوق ختمت كتابها بتجديد علائق الحب مع روكامبول وعادت إلى شكره لإنقاذها من الدون جوزيف كأنها تطلب اليه إنقاذها من الدوق مايلي أيضاً .

فلما أتم تلاوته ذهب بـه لأندريا وقرأه عليه ، فأخذ لوحه الحجري وكتب عليه : يجب أن تسرع بشأن باكارا ، وان لا تهتم بشأن ابنة الدوق إلى ان تعود .

– ماذا يجب ان أصنع بشأن باكارا ؟

– يجب ان تجد ذلك الطبيب الذي عالجني فانه خبير بجميع أنواع السموم وان بين هذه السموم سماً لا يقتل شاربه ولكنه يذهب بعقله الى حين فاذا تمكنت من الحصول منه على هذا السم بلغتك ما تريد .

– ماذا تبغي ان أصنع بهذا السم ؟

– ستعلم ذلك حين احضاره .

فذهب روكامبول ممتثلاً وهو يفكر في حيلة تمكنه من إغراء هذا الطبيب على إعطائه السم المطلوب .

ولنعد الان الى رولاند فانه ذهب في الساعة التاسعة الى الأوبرا واقام في اللوج الذي اتفق مع ربيكا أن ينتظرها فيه . وكان جميع أصحابه قد علموا بهذا الموعد فجاءوا الى الأوبرا كي يتأكدوا صدق رولاند . فلما كانت الساعة العاشرة رأوا ان إمرأة أدخلت إلى لوجه وجلست بازائه ، ولكنهم لم يتبينوا وجهها لأنها أقامت إلى انتهاء التمثيل دون ان تزيح برقعها . غير ان الفضول دفعهم الى معرفتها فتصدوا لها ولرولاند عند خروجها من اللوج ووقفوا في ممرهما ، وكان معهما روكامبول. فلما خرجا ونظرت اليهم أشار اليها روكامبول إشارة خفية فأزاحت البرقع كأنها تريد إصلاحه ، فرآها الجميع وأيقنوا أنها الكونتس أرتوف لشدة ما كان بينها وبين باكارا من الشبه ، ثم اقتفوا أثرهما إلى ان رأوهما دخلا إلى منزل رولاند فرجعوا وكلهم يعجبون بما رأوه ويتوقعون لرولاند القتل العاجل .

أما روكامبول فانه انفصل عنهم وفي اليوم التالي تنكر وذهب إلى منزله السري ، وأقام فيه ينتظر قدوم زامبا اليـــه بخبر جديد ، فما طال انتظاره حتى جاءه هذا الخادم وأخبره ان الكونت ارتوف وصـــل إلى باريس في هذا الصباح وان امرأته أرسلت الى الدوق مايلي هذه الرسالة فتصفحها روكامبول فاذا هي تخبره فيها بقدوم زوجها وأنها ينتظرانه في هذا المساء وان زوجها طال اشتياقه الى باريس ونواديها ، فهـــو ينتظر زيارة الدوق مايلي ثم يذهب وإياه إلى ناديه . فلما أتم قراءتها ردها إلى زامبا وقال له : يجب أن أقف على أخبار سيدك ، كل يوم بالتفصيـــل . وإذا تعذر عليك القدوم إلي ، فاكتب لي .

فانصرف زامبا ممتثلاً ، وبقي روكامبول فجعل يضحك ويقول في نفسه : لقد كنت أبحث عن طريقة أتمكن بها من جمع رولاند بالكونت أرتوف ، وقد

وجدت هـذه الطريقة نفسها ، فان الدوق دي مـايلي ورولاند مشتركان في ناد واحد ، وسيأخذ الكونت صديقه الكونت أرتوف إلى هذا النادي فيجتمعان .

ثم غير زيه وذهب الى ريبيكا ، فجلس إلى منضدة وأخرج من جيبه رسالة من خط با كارا فقلد خطها تقليداً عجيباً ، وكتب رسالة بهذا الخط المقلد الى رولاند وأعطاها لريبيكا وقال لها : إذهبي بها في الساعة العاشرة إلى منزل رولاند .

– أيكون فيه ؟

– كلا ، بل يكون في النادي . لكنك تعطين هذه الرسالة إلى خادمه وتأمرينه ان يذهب بها إلى سيده في النادي فيمتثل أما أنت فإنك تدخلين الى المنزل وتنتظرينه فيه الى ان يحضر فتقيمين معه ساعةثم تذهبين دون ان تحددي له موعد آخر .

– أهذا كل شيء ؟

– نعم، وتقولين ايضاً ان زوجك الكونت أرتوف قد ذهب الى الناديمع الدوق مايلي فاغتنمت هذه الفرصة للحضور اليه

ثم أعطاها الرسالة وعاد الى منزله فتلبس بلباس المركيز ومضى الى منزل اخته المركيزة .

وفي الساعة العاشرة من المساء ذهب مع صهره فابيان الى النادي وكان فيه رولاند وأوكتاف ومعظم أعضاء ذلك النادي الذين كانوا واقفين على سر رولاند . وفيما هم جالسون على طاولة اللعب اذ ورد كتاب الى فابيان من الكونت أرتوف يقول فيه أنه قادم الى النـــادي مع الدوق دي مايلي وهو يرجو أن يراه فيه . فأوقف فابيان روكامبول على هـذه الرسالة وقال له : إن الكونت سيلتقي الآن برولاند ، وعندي أنه يخلق بنا إبعاد رولاند تلافياً لهذا اللقاء

فأجاب روكامبول وماذا عليه من هذا اللقاء ، أتحسب ان رولاند سيقول للكونت اني أحب إمرأتك ؟

. كلا ، ولكنه سيقف معه موقف الوقح المتتصر فيثير منه الظنون فخير له ان نحتال في إبعاده

– إن ذلك محال ، فإنه يلعب الآن وفوق ذلك فإنه يخسر فلا سبيل الى إخراجه .

فالتفت فابيان الى جهة الباب وقال : لم يعد سبيل الى ذلك فان الكونت قد حضر .

ولم يتم كلامه حتى دخل الكونت أرتوف والدوق دي مايلي فأقبل الجميع يهنئون الكونت أرتوف بعودته وينظر بعضهم الى بعض ويتغامزون . وقام فابيان فسلم عليه وقام له روكامبول فاحتفل به الكونت احتفالاً عظيماً ، وقد تنكر عليه فلم يعلم ان هذا المركيز الجديد قد وضعه منذ خمسة أعوام في كيس والقاه في النهر . ثم جاء به الدوق مايلي الى طاولة اللعب التي كان عليها رولاند وعرفه بجميع من كان حولها حتى انتهى الى رولاند فحياه الكونت باحترام وقال له .إني أغتنم هذه الفرصة لشكرك يا سيدي باسم امرأتي التي أنقذتها من الموت فإنها مدينة لك بحياتها .

فتناظر الحضور نظرات الهزء . أما رولاند فإنه اكتفى بأن يقول له«اني عملت واجباتي.

وعاد الى اللعب وعلائم عدم الاكتراث بادية عليه فهمس روكامبول باذن صهره وقال ما هذا الأبله ؟

فتنهد فابيان وقال . إنه يسعى الى حتفه بظلفـــه ، إذ لا بد أن يقتله الكونت .

ولما رأى فابيان قحة رولاند خشي وخامة العاقبة فاقترح على الكونت كي يشغله عن مراقبة الحضور ان يدخل معه ومع روكامبول والدوقـة الى

غرفة ثانية فيلعبون بالورق ، فقبل الكونت شاكراً ودخلوا جميعهم الى الغرفة وبدأوا باللعب .

وخلا الجو لرولاند ورفقائه فجعلوا يبحثون في شأن الكونت ورولاند كما يريدون من هازىء به ومشفق عليه ، كل ذلك ورولاند يبتسم إبتسام المنتصر الى أن قال أحدهم : لا شك ان الكونت غير مرتاب بشيء وإلا لما وقف الأمر عند هذا الحد .

فقال آخر : ولكن رولاند اصفر وجهه عندما رآه حتى يقال انه اضطرب وخشي من ان ينظر اليه .

فتحمس رولاند وقال : لقد أخطأت أيها الصديق ، بل اني سأبحث عنه وأجلس وإياه على طاولة واحدة كي تعلم اني لا أهاب نظراته .

ثم ترك اللعب وذهب يبحث في غرف النادي حتى انتهى الى الغرفة التي كان فيها الكونت ، فدنا من الطاولة التي كانوا يلعبون عليها وجلس تجاه روكامبول واشترك معهم باللعب وكان الكونت جالساً في الجهة المقابلة له ، غير انه كان منهمكاً باللعب فلم ينتبه الى ما كان يظهره رولاند من القحة والميل الى إظهار العداء ، ولم يكن يخشى سوء عاقبة هذا الاجتماع غير فابيان .

وفيما هو يلعب مع اللاعبين إذ دخل خادم النادي وقدم له كتاباً ففضه والقى الغلاف الى الأرض ثم ما لبث ان تلاه حتى ابتسم ابتسام الظافر وأعطاه لروكامبول وهو يقول له بصوت منخفض : إنه منها كأنه نسي أن الكونت مقيم بينهم .

فعلم فابيان أن الكتاب من باكارا ، فنهض عن كرسيه وأسرع فاختطف الكتاب من يد روكامبول وقال لرولاند بصوت المؤنب المازح · إنك لا تشفق على أحد . اليس من الظلم أن تثلم عرض هذه الممثلة ، وانت تعلم انها ذات زوج ؟

وبينا رولاند في انذهاله من هذه المفاجأة ولا يعلم أيغضب ام يضحك لقول صديقه أدنى فابيان الرسالة من الشمعة وأحرقها بحيث لم يبق من أثرها غير الغلاف الذي القاه رولاند على الأرض ثم قال له: إذهب ايها الصديق الى موعدك وكن حريصاً على الأعراض .

فقام رولاند وقد نسي كل شيء عند ذكر الموعد وسلم بملء القحة وخرج فذهب للقاء ريبيكا التي يحسب انها باكارا وعـاد اللاعبون الى اللعب غير ان الكونت كان مقطب الجبين لا سيا من كل ما أجراه رولاند .

وبعد ساعة فرغوا من اللعب فذهب فابيان والدوق دي مايلي الى منزليهما وبقي روكامبول والكونت فأخذ كل منهما جريدة من جرائد المساء وجعل يطالع أنباءها ، وكان روكامبول يقرأ ويراقب الكونت فيراه ساهي الطرف والجريدة بيده كأنه يفكر بتلك الرسالة وإسراع فابيـان الى اختطافها وإحراقها الى أن أبعد كرسيه ورجع بها الى الوراء ، فالتفت وهو يصلحها الى الأرض فرأى غلاف الرسالة فانحنى وأخذه وما كاد يقع نظره على خطه حتى اصفر وجهه اصفراراً شديداً ، وأوشك ان يسقط من اضطرابه ، فقال روكامبول في نفسه : لقد قضي الأمر وعرف الخط .

ثم ترك الغرفة وانصرف وهو فرح القلب بنجاح مساعيه وهو يقول في نفسه: إن الليل قد انتصف فإذا لم يحدث شيء فوق الحسبان فإن الأمور تجري على ما أريد وذلك ان باكارا اما تكون قد عادت من عنـد اختها أو ان تكون باقية عندها فاذا كانت قد عادت فان الكونت قد تدفعه الغيرة والغضب الى قتلها ، واذا كانت لم تعد فلا بد للكونت من الذهاب الى رولاند وفي كلتا الحالتين فان الفوز لي .

أما الكونت ارتوف فانه كان كلما أعاد النظر الى خط الغـلاف يزيد اضطراباً فانه ايقن ان الخط خط امرأته وانها هي التي راسلت رولاند ثم ايقن ان هذا الرجل أنقذها من الغرق وانه كان يراسلها وقد حاول ان يزورها عدة

مرات وان فابيان بل جميع أعضاء النادي واقفون على سر علائقها مع رولاند وخطر له ان فابيان لم يحرق الرسالة الا لأنه يعلم بما فيها وان نظرات اصحاب رولاند وتغامزهم لم تكن الا عليه فهاجت به الغيرة حتى اوشك ان يجن واسرع الى الخروج من النادي الى منزله .

ولما وصل اليه رأى مركبة على الباب فسأل البواب : لمن هذه المركبة ؟ فأخبره انها لامرأته .

– متى عادت ؟

– الآن .

فصعد الكونت الى غرفتها وكانت لا تزال بالملابس التي كانت فيها عند اختها مريز وهي باسمة الثغر طلقة المحيا وعليها جميع دلائل السرور ولكنها ما لبثت ان نظرت الى زوجها حتى راعها اصفراره فقالت له : ما بالك العلك لعبت فخسرت ؟

– العل نقص مالي ينقص من حبك لي .

ثم وضع يده على جبينه كمن يريد ان يفتكر قبل ان يقدم على امر هائل ، فأعاد هذا التفكير بسكينه وقال لها : اتسمحين لي ان اضع يدي على قلبك ؟

فلم تفهم باكارا شيئاً من مراده واخذت يده ووضعتها على قلبها فكان ينبض النبض العادي وكانت شفتاها تبسمان فقالت له : ما بالك ايها الحبيب وما هذه الأمور التي تجريها العلك جننت ؟

– كلا ، ولكني على وشك الجنون . اتسمحين لي ان اسألك بعض الأسئلة؟

فابتسمت وقالت سل ما تشاء ، يا حضرة قاضي التحقيق ولنرى ، فلعلي مذنبة !

فقال الكونت ببرود : لا اعلم فقولي لي متى عدت ؟

– الآن .

– من عند اختك ؟

– دون شك فاطرق الكونت يفكر ثم نظر إلى باكارا فرآها هادئة ساكنة لا أثر في وجهها للاضطراب . فقالت له باكارا ، يظهر انك غيور .

– هذا اكيد .

– إذن فتصرف بما أعطيته من سلطة الزواج وسل ما تشاء .

– أما قلت لي مرة أن رولاند دي كايلت أرسل الك عدة وسائل كاشفك فيها بغرامه ؟

– نعم ، وقد فعل ذلك في بادن ثم عاد اليه في مدينة هلدبرج حين أنقذني من الغرق .

– يظهر انه بات له عليك حق انقاذك من الموت .

– إني أعرف هذا الشاب فهو في مقتبل العمر كثير الغرور فقد لا يبعد أن يكون روى حادثة غرقي وانقاذي رواية خدشت سمعتي واتصلت اليك غير اني التمس منك أمراً .

– سلي ما تشائين

– انك دعوت بعض الاصدقاء إلى شرب الشاي عندك في مساء غد فاذن لي أن أدعوا هذا الفتى فنشكره لأنقاذي من الغرق وبعد ثمانيـة أيام يرسل اليك بطاقة زيارته حسب العادة فترسل له رقعتك وينقضي كل شيء كما أرجو.فاننـا مدينون لهذا الرجل .

– أهذا كل ما تريدين أن تقوليه ؟

– وما أقول غير هذا ؟

– ألم تنظريه بعد عودتك إلى باريس ؟

فقالت بملء السكينة : كلا .

فاقتنع الكونت بعض الاقتنـــاع لما رآه من سكينتها ولكنه قال : انه أمر غريب .

فأخذت باكارا يده بين يديها وقالت : أوضح لي كل شيء أيها الحبيب انك

طاهر القلب نبيل وأنت تعلم اني أحبك حباً شديداً فلا يخلق بي أن أقف امامك موقف المجرمين .

– وهذا الذي يسؤني .

فاجفلت باكارا وقالت بلهجة السيادة اني أسألك بدوري فاجبني من أين أتيت ؟ وماذا سمعت ؟ وماذا قيل لك ؟..

– اني أتيت من النادي الذي ذهب بي اليه الدوق دي مايلي وقد لقيت فيه رولاند دي كايلت ولقيت من قحته ما لا أنساه

– لا ينبغي أن تعجب من قحته فقد تجاسر أن يرسل لي رسائل غرامه وهو لا يكاد يعرفني أهذا كل شيء ؟

– كلا فقد كان هذا الفتى مع فريق من اصحابه وكلهم على شاكلته فكانوا ينظرون إلي نظرات تهكم ويتغامزون .

– انه لأمر خطير كما يظهر فلا بد أن يكون رولاند قد اختلق عني ما يسئ وفي هذه الحالة فلا بد من تأديبه ، وبعد ذلك .

– وبعد ذلك فانه بينما كان رولاند جالساً على طاولة اللعب أحضر له خادم النادي رسالة ففضها وقال : ان هذا الكتاب ورد اليه من سيدة لها مقام كبير وهي تنتظره في منزله ثم رمى الغلاف إلى الأرض وأعطى الرسالة إلى المركيز دي شمري الذي كان في جواره فاسرع فابيان إلى اختطافها واحراقها وبعد ذلك ذهب اللاعبون وذهب رولاند فلما وجدت نفسي وحيداً في الغرفة أخذت الغلاف عن الأرض وعدت به اليك وهذا هو .

فأخذته باكارا وما اوشكت ان تقرأ العنوان وتتبين الخط حتى اصفر وجهها ثم وثبت عن كرسيها منذعرة كأنما لسعتها أفعى وقالت : رباه ماذا أرى فان الخط خطي لا ريب فيه فمن زور هذا العنوان ومن كتب بيدي ؟ ثم سقطت على كرسيها وهي قريبة الاغماء وكانت جميع مظاهر انذعارها واضطرابها صادقة لا سبيل إلى الارتياب فيها حتى أن الكونت جثا أمامها

على ركبتيه وقال : أسألك العفو فإني تجاسرت على إساءة الظن بك .

فأنهضته باكارا وقبلته بجبينه ثم قالت له : وكيف لا تشكك وبيدك مثل هذا البرهان ؟

– مهما كان من أمر هذا البرهان فما كان ينبغي ان أشك بك على ان هذا الرجل التعس لا بد ان يموت غداً ، وها أنا ذاهب لاعين شهودي ونتفق على موعد المبارزة .

فأوقفته باكارا وقالت : بل إبق هنا واصغ إلي فتعلم إني غير مخطئة .

– قولي ماذا تريدين ان أصنع ؟

فأخذت باكارا الغلاف وقالت : إن هذا الخط يشبه خطي شبهاً غريباً ، فإما ان يكون رولاند قد تمكن من تقليد خطي كي يفتخر أمام إخوانه بملاطفته معي ، وإما ان يكون هذا التشابه من قبيل الاتفاق كما يتفق تشابه الوجوه . ويكون رولاند يحب إمرأة يشبه خطها خطي من قبيل هذا الاتفاق

– إن هذا مستحيل .

– لا شيء مستحيل في الأرض .

– إذا كان رولاند يحب امرأة يشبه خطها خطك فما معنى هذه النظرات من اخوانه وما معنى تغامزهم علي ؟

– هل انتقدت على هذه النظرات قبل ان تعثر بالغلاف ؟

– كلا .

– إذن فقد أثار بك الغلاف هذه الهواجس ، ومثل لك هذه النظرات تغامزاً عليك . على اني لا أزال أقول ان رولاند إما ان يكون تعساً مجرماً وفي هذا المقام فلا بد من عقابه شر عقاب بعد إظهار جريمته للجميع ، وإما ان تكون هذه الخيانة من عند الصدفة والاتفاق ... انظر إلي أيها الحبيب ، وسل نفسك : أيمكن لامرأة رفعت مقامها حتى بلغت اليك

وتجاسرت على حمل اسمك الشريف ، أن تبلغ من نكران الجميل الى حد الخيانة .

ثم شهقت بالبكاء فحن الكونت اليها وضمها إلى صدره وقال : إني أريد ان أعرف العالم أجمع إنك خير إمرأة على الأرض .

ثم سكت الاثنان سكوتاً قصيراً الى ان بدأت باكارا الحديث فقالت : أتأذن لي ان أتولى هذا الأمر بنفسي كما كنت تأذن لي من قبل .

ـ نعم فافعلي ما تشائين .

ـ إني سأدعو رولاند الى شرب الشاي عندنا غداً وانت تراقبه كما تريد حتى إذا تجاسر على ان يخرج عن حدود الاحترام سلمته اليك .

ـ حسناً فليكن ما تريدين .

فقامت عند ذلك إلى منضدة وكتبت الى رولاند هذه الرسالة :

« سيدي

« لم أنس إني مدينة لك بالحياة ، فأذن لي ان أشكرك بذلك وان ادعوك الى زيارتنا مساء كي تشرب الشاي عندنا مع بعض الأصدقاء كي أظهر لك شكري وامتناني » .

« الكونتس ارتوف »

ثم طوت الرسالة وتركتها على المنضدة كي يأخذها الخادم صباحاً الى رولاند وبعد حين ترك الزوجان الغرفة التي كانا فيها ودخلا الى غرفة النوم وكل منهما يفكر في شأن .

وفي الوقت نفسه فتح باب ودخل منه زامبا فانقض على الرسالة وقرأها ثم نسخها وخرج دون ان يشعر به أحد . فذهب تواً الى منزل روكامبول السري إذ قال له انه ينتظره فيه الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل فلما رآه روكامبول علم انه يحمل خبراً جديداً ، فقال له : ما وراءك من الأخبار ؟

فأطلعه زامبا على نسخة الرسالة فسر روكامبول سروراً عظيماً بها ، لأنه

لو لم يقف عليها لذهبت جميع مساعيه أدراج الرياح ، ثم أطلق سراح زامبا وواعده إلى الغد ، وانطلق بعد ذلك الى ريبيكا فأملى عليها كتاباً لرولاند وانصرف .

- ٢٤ -

وفي اليوم التالي أقبل اوكتاف على صديقه رولاند قبل ان يخرج من منزله فقال له : إني أراك باسم الثغر فرح القلب ، فما شبهك إلا فرنسوا الأول الذي كان ينام على مركبة المدفع ليلة القتال .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك لأني أراك قرير العين ناعم البال كأنك غير خائف من شيء .

ـ ومما أخاف ؟

ـ من الكونت ارلوف .

ـ لا أعلم لماذا يجب أن أخافه .

ـ لأنه سيعلم قريباً بكل شيء فتتبارزان وقد روي عنه أحاديث كثيرة تدل على شدة هوله في المبارزة فإنه ما بارز خصماً إلا قتله .

ـ أنا سأقتله فإن الشواذ من لوازم كل قاعدة .

وفيا هما على ذلك إذ دخل الخادم يحمل كتاباً الى رولاند فأخذه وفضه مسرعاً لأنه عرف الخط وقرأ ما يأتي :

« حبيبي رولاند

« إني اكتب اليك في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل مغتنمة فرصة رقاد زوجي الظالم لأخبرك بأنه قد ثارت عاصفة وستنقض على رأسي ، كأن الليالي قد غيظت من تساقينا الهوى فدعت بــأن نغص وذلك اني أخطأت خطأ

عظيماً حين كتبت لك أمس بخط يدي لحذري من وصيفتي التي استكتبها فحرقت رسالتي ، ولكنك أبقيت الغلاف فوقع بيد زوجي الكونت وعرف الخط ، وجاء إلي وهو يتميز من الغضب وكنت قد رجعت من عندك حتى خشيت ان يقتلني ولكني قد تشجعت وهبت لي قوة عظيمة تجاه هذا الموقف الخطر فكذبت وأنكرت وقلت تشابه الخط من قبيل الاتفاق وهو يتشابه كما تتشابه الوجوه فصدقني ولكنه بقي له شيء من الريبة بي ، فطلب إلي ان أدعوك كي تشرب الشاي عندنا مساء غد وغرضه من هذه الدعوة ان يراقبنا ، ويتمعن بحركاتنا ونظراتنا فاحذر من ان تبدر منك بادرة ايها الحبيب فان نظرات المحبين لا تخفى على الحاذقين ولا تتجاوز معي حد الاحترام وأنا سأكون كذلك فأمثل البساطة والطهارة خير تمثيل فاذا اقتديت بي وكنت حكيماً نجونا وعدنا الى ما كنا فيه .

« والآن فإني استودعك الله الى الغد . كلا فإني سأكون غداً غريبة عنك إذن استودعك الله الى لقاء تمهده لنا الصدفة ... احبك » .

وكانت هذه الرسالة خالية من التوقيع فلما أتم رولاند تلاوتها دفعها إلى اوكتاف فقرأها وقال : إني اود ان أخسر سنة من حياتي وأكون مدعو الى تلك الحفلة كي ارى ما يكون منك فيها .

وعند ذلك طرق الباب مرة ثانية ودخل الخادم بكتاب آخر وكان هذا الكتاب من باكارا الحقيقية تدعوه فيه إلى شرب الشاي في منزلها كما اتفقت على ذلك مع زوجها .

وفي الساعة التاسعة من المساء ذهب رولاند الى منزل الكونت ، وكان عدد المدعوين قد تم وبينهم روكامبول وصهره . فكان روكامبول خائفاً من أن تعرفه باكارا ، ولكنه اطمأن لأنه حين قدم لها باسم المركيز دي شمري حادثته بامور كثيرة فلم يظهر منها شيء يدل على ريبتها به . أما رولاند فانه كان يعامل باكارا بملء الاحترام والكونت يراقبه ، فلم ير منه ما يدل على شيء من

آثار الحب . فلما انقضت السهرة وانصرف المدعوون كان رولاند آخر المودعين فقبل يد باكارا في أشد حيرة لأنها لا تعلم ما كان يعنيه بهذا الامتثال إذ لم تأمره بشيء ولكنها قالت في نفسها إنه ربما كان يريد بذلك انه لم يزرني في مدينة هدمبرج لأني لم أدعه فعد ذلك امتثالاً .

ولما انصرف الجميع عادت الى زوجها فقالت له : ماذا رأيت ؟

– رأيت اننا ظلمنا هذا الشاب بريبتنا به ، فإني لم أر منه إلا كل احتشام وأدب .

وفي اليوم التالي خرج الكونت يتنزه بعد الظهر على جواده حتى وصل الى محل تباع فيه أشهر المرطبات ، وهي حديقة مقسمة الى غرف صغيرة يفصل بينها خشب رقيق . فدخل إلى إحدى هذه الغرف وطلب كأساً من الشراب ، وفيما هو يشربها سمع صوتاً من الغرفة المجاورة لغرفته عرف انه صوت اوكتاف الذي تعرف به أمس في النادي ، فأصغى بالرغم عنه الى حديثه مع رفيقه فسمع اوكتاف يقول : كنت أود أن أكون أمس في الحفلة التي كانت في منزل الكونت أرتوف .

فأجاب رفيقه : لا بد ان يكون رولاند قد تصرف بحشمة وأدب .

فارتعش الكونت وقال في نفسه : لماذا يتكلمان عن رولاند في معرض الكلام عني ؟

فقال اوكتاف يحادث رفيقه : إني لقيت رولاند اليوم فأخبرني ان كل شيء قد تم على مرامه .

– كيف ذلك ؟

– ذلك ان رولاند كان يمثل رواية في ما أبداه من مظاهر الحشمة ولكني أعجب من الكونتس كيف انها كانت باسمة الثغر ماهرة باظهار عدم الاكتراث وإخفاء مظاهر الخجل ، حتى انها كانت تحادث رولاند كأنها قد رأته للمرة الأولى .

فقال له رفيقه : لا تثق بأقوال رولاند فانه كثير الغرور مهذار .

– بل أنت ثق بأن الكونتس تحبه .

– أرأيتها في منزله ؟

– كلا ولكني رأيتها معه في الأوبرا .

– أكانت مسفرة عن وجهها ؟

– كلا ، ولكنها عند خروجها من اللوج الذي كانت فيه مع رولاند تصديت لها في الممر ورأيتها قد أبعدت البرقع عن وجهها فعرفتها

فشعر الكونت ارتوف عند سماعه هذا الكلام ان العرق البارد ينصب من جبينه . أما اوكتاف فإنه أتم حديثه فقال : وفوق ذلك فاني صديق رولاند وهو لا يكتم عني امراً ويطلعني على جميع رسائله ، وقد علمت منه ان الكونتس كانت تستقبله في منزل في شارع باسي ، ثم اني كنت عنده في صباح أمس فورد اليه كتاب أوقفني عليه وكان من الكونتس وقد قالت له فيه : انها ارسلت كتاباً آخر غير هذا يتضمن دعوته الى منزلها غير ان هذا الكتاب كان بخط وصيفتها ، والكتاب الآخر المتضمن للدعوة كان بخطها . فان باكارا تعرف ان تحذر .

– ولكن رولاند يسعى إلى حتفه بظلفه فان خصمه قوي شديد

فقال اوكتاف: لقد قلت مثل هذا القول لرولاند وان من يجسر على الزواج بباكارا لا بد أن يكون من الأشداء .

غير ان اوكتاف قبل ان يتم كلامه سمع من ورائه صوتاً شديداً صعق له فالتفت فرأى أمامه الكونت ارتوف وقد اصفر وجهه فأصبح كالأموات وجعل الشرر يقذف من عينيه وانقض على أوكتاف ، شد عليه فألقاه على الأرض راكعاً ثم قال له بصوت يتهدج من الغضب : أنا هو الكونت ارتوف ولا يمنعني عن قتلك الآن غير ما أجده من حداثة سنك وانه لا بد أن يكون لك أم تبكي عليك ثم لا ينقذك من قبضتي غير امر واحد .

وكان هياج الكونت شديداً حتى ان هذين الغلامين باتا يرتجفان أمامه كما يرتجف التلميذ المسيء أمام معلمه وجعل أوكتاف يعتذر فأنهضه الكونت وقال له : إنك لا تنجو مني إلا اذا أقسمت لي بأنك تذهب الى منزلك فتقيم فيه يوماً وليلة لا تخرج منه ولا ترى رولاند .

فاقسم أوكتاف فقال الكونت : إحذر من أن تنكث عهدك إذا أردت أن تسلم من الموت فإني لا أريد قتلك بل قتله .

ثم أطلق سراحه ، فانصرف مع رفيقه وهو يقول : لقد قضي على رولاند القضاء المبرم

- ٢٥

يذكر القراء ذلك الطبيب الذي عالج أندريا وأزال عن وجهه آثار ذلك الوشم الذي كان يشوهه أيما تشويه وقد كان لهذا الطبيب شهرة بعيدة في باريس وفي المنتديات العلمية ، ولا سيما بالسموم ، إذ كان من أشد الأطباء خبرة بها وكان هذا الطبيب واسمه صموئيل يقيم في منزل واسع تكتنفـــه حديقة غنـــاء ، فيصرف معظم أوقاتــه بالبحث والمطــالعة والوقوف على الدقائق العلمية .

ففي اليوم نفسه الذي كان فيه الكونت أرتوف يتنزه وقد لقي أوكتاف وسمع منه تلك الكلمات الهائلة كما تقدم ، كان روكامبول قد ذهب لزيارة صموئيل الطبيب ، فأوقف مركبته خارج الحديقة ودخل به الخادم الى الغرفة التي كان يشتغل فيها الطبيب وكان يدعوها غرفة السموم لوجود جميع أنواعها فيها بين قاتل ومشوه ومفن وذاهب بالعقل الى غير ذلك .

ولما دخل روكامبول كان الطبيب جالساً على طاولة وعليهـــا كثير من

الكتب صف بعضها فوق بعض ، بحيث باتت تحجبه عن عيون الداخلين ، وكان يفحص بنظارة أحدى الأوراق السامة فحصاً مدققاً حول انتباهــه اليها بحيث لم يشعر بدخول المركيز اليه الا حينما نبهه الخـــادم وأعلن له اسم المركيز دي شمري . فأسرع الطبيب لاستقباله وقابله مقابلة تـدل على علو مكانته عنده فقال له روكامبول أسألك المعذرةعن مضايقتي لك في أشغالك ولكني مررت ببابك فذكرت أني مدين لك باصلاح هذا البحري المسكين (يشير الى أندريا) وإني تأخرت عن إظهار امتناني لك الى الآن فأتيت كي أصلح هذا الخطأ .

ثم أخذ من جيبه ورقة مالية بقيمة الف فرنك ووضعها بلطف واتضاع على الطاولة . ثم لما انتهى من حديث المجاملة قال له روكامبول : ألا تزال عاكفاً على طلب العلم والتنقيب عن غوامضه ، ألم يكفك ما بلغت اليه وأنت اليوم إمام العلماء وحجة الأطباء ؟

فأجابه الطبيب باتضاع ورفق: إن هذا العلم يشبه أعماق الأوقيانوس الهندي التي يطلبها الغواص لاستخراج اللؤلؤ . فهو كلما غاص فيه يزيد عثوره عـــلى مخبآته ، ثم يخرج لسطح الماء وقـد كادت أنفاسه تنقطع فـلا يلبث ان يملأ رئتيه من الهواء ويستريح حتى يعود الى ما كان فيـه من الغوص واستخراج اللؤلؤ الثمين . وهكذا العلماء فإنهم يغوصون في لجج هـــذا العلم ، فكلما اكتشفوا شيئاً بدت لهم أشياء لم يروها من قبل فلا يزالون على ذلك الى أن تتلاشى قواهم ولا يستطيعون أقل جهد .

فقال روكامبول إذن فما نقول نحن الجهلاء إذا قضي علينا أن نندمج معكم ونغوص في هذه اللجج كل يوم ؟

فابتسم الطبيب وعاد روكامبول الى الكلام فقال : لقد كنت أمس في مجلس دار فيه الحديث على العلم والعلماء ، فجملتك سمر هذا الحديث وقلت ان لديك مجموعة من السموم الهندية لا يوجد منها في أوروبا،منها ما يميت ومنها

ما يشفي من الموت .

فابتسم الطبيب وقال : بل منها ما يذهب بالعقل ، ومنها ما يشفي من الجنون .

– إني أعرف هذا السم الذي يذهب بالصواب .

– إن هذا الذي تعرفه مشهور في أوروبا ، ثم ان الجنون الذي يحدثه لا يكون إلا وقتي .

– وقد سمعت أحدهم يذكر سماً هندياً من مدينة جافا يقول انه إذا شربه المرء جن جنوناً طويلاً .

– إن لدي منه في مجموعتي أتريد ان تراه ؟

– لا بأس فقد رويت حكاية عن تأثير هذا السم تشوقت بعدها أن أراه .

فقام الطبيب الى واجهة معلقة في الجدار وأخرج الزجاجة الثالثة من الصف الأول وجاء بها الى روكامبول فرآها تحتوي على رشاش يشبه الدقيق فحكى له الطبيب تاريخ هذا السم وقال ، انه ورق شجرة لا تنبت إلا في جافا يؤخذ ورقها فيجفف ويسحق حتى يغدو كا تراه . فإذا وضع درهم من المسحوق في كأس ماء او شراب وشربه المرء جن وبقي مجنوناً مدى الحياة . غير أن الغريب في هذا السم انه الداء والدواء في حين واحد ، فإن شاربه لا يشفه منه إلا به ، وذلك بأن يسقى منه ثانيــة مقادير لا سبيل إلى بيانها لتعلقها بحالة المسموم به وأعراض جنونه ومدتها إلى غير ذلك مما لا يفهم تفصيله غير الأطباء .

فاظهر روكامبول عجباً شديداً بلء البساطة وذهب الدكتــور فأرجع الزجاجة الى محلها . وفيما هو عائد الى روكامبول ، إذ فتح باب الغرفة بعنف ودخل اليها خادم الطبيب ووراءه اثنان عليهما ملامح الذعر وهما يصيحان : أدركنا ..

– ماذا حدث ؟

فقال أحدهما إن أحد خدم البيوت الكبيرة لطمته مركبة فسقط على باب منزلك وهو لا يعي

فاعتذر الطبيب وقال له لقد عيلتك حارساً لغرفتي الى ان أعود .

ثم خرج في أثر الجماعة لمعالجة الخادم المغمي عليه على باب الحديقة الخارجي حتى وصل إلى هذا الرجل المغمي عليه فنزع عنه ثيابه وفحصه فحصاً مدققاً فلم يجد به أثراً لرض أو جرح . فأمر ان ينضحوا وجهه بالماء البارد ويدلكوا صدغيه بالخل ففعلوا ووقف بينهم ينتظر النتيجة . ولم تمض هنيهة حتى استفاق الرجل كأنه لم يصب بشيء . ولم يكن هذا الماكر إلا زامبا ، صنيعة روكامبول .

بينما كان الطبيب يعالج هذا المريض الكاذب كان روكامبول وحده في غرفة الطبيب وقد عرف موضع الزجاجة فأسرع اليها وأخذ منها المقدار الكافي لجرعتين او ثلاث . ثم وضع هذا الرشاش في ورقة وطواها كما يطوي الصيدلي مثل هذه الأوراق ووضعها في جيبه ، وبعد ذلك أرجع الزجاجة الى موضعها وجلس على كرسيه ينتظر عودة الطبيب وهو يقول لقد أجاد زامبا غاية الإجادة في تمثيل دوره ، ولا سيما انه ترك لي الوقت اللازم لمباحثة الطبيب ، وسأجازيه خير جزاء . ومهما أعطيته يكون قليلاً بالقياس إلى ما سأقبضه من ملايين ابنة الدوق فإن درهماً واحداً من هذا الرشاش يشغل باكارا بزوجها وجنونه .

وما زال يعلل النفس بهذه الأماني إلى ان عاد الطبيب فجالسه ساعة وانصرف عائداً إلى منزله وهو يحسب انه نال السعادة بهذا الرشاش حتى إذا وصل الى منزله رأى على بابه مركبة ، فسأل الخادم . من الذي قدم فيها ؟

- الكونت أرتوف جاء لزيارتك وهو الآن في القاعة مع صهرك .

فأسرع روكامبول الى القاعة وقد أيقن ان الكونت قد عرف كل شيء .

فلما دخل رأى الكونت واقفاً وعيناه متقدتان ، ورأى فابيان مضطرب أشد الاضطراب ولكنه سر عندما نظر روكامبول كأن عينيه كانتا تقولان لقد أتيت في حين الحاجة اليك . فوقف روكامبول في باب القاعة وجعل ينظر الى الاثنين نظر الفاحص المنتقد واليك السبب في زيارة الكونت .

بعدما لقي الكونت أرتوف أوكتاف ، وعرف منه خيانة إمرأته على ما تقدم ، خرج من الحديقة فأمر الخـــادم ان يذهب بجواده الى منزله وركب مركبة وأمر سائقها ان يذهب به الى منزل المركيز دي شمري وكان غرض الكونت ان يرى فابيان ، لأنه تذكر ان فابيان اختطف الرسالة التي وردت لرولاند في النادي وأحرقها فقال في نفسه : انه لا بد ان يكون فابيان واقفاً على سر رولاند فان هذه الحادثة وما علمته من أوكتاف وتغامز أعضاء النادي جميع ذلك كان يثبت خيانة باكارا أتم الثبوت

ولكنه كان لا يزال يحب امرأته حباً عظيماً ، فأراد ان يقف على الحقيقة من فابيان لشدة وثوقه بنبله ، ولهذا فانه لم يذهب الى منزله بعـــدما علمه من أوكتاف حذراً من ان يدفعه الغضب الى قتلها ، وكان لا يزال يحبها الى الآن ولكن حب قنوط .

وكان فابيان في ذلك الحين مقيماً في غرفتــه يكتب فيها بعض الرسائل. فلما دخل عليه الكونت أرتوف ورأى ما كان عليه من الاضطراب أجفــل لرؤيته وخف لاستقباله ، غير ان الكونت بقي واقفاً في مكانه وقال له : إني أتيت لأحدثك بشأن خطير ايها الصديق ، فقل لي الست بصديق رولاند دي كابلت ؟

فاختلج فؤاد فابيان لذكر اسم رولاند وقال : نعم ولا ، وذلك لأن بيني وبين هذا الفتى عشرة أعوام فلا يصح ان يكون عشيري ولكن أباه صديق لأبي وقد أوصاني به خير وصاية .

– لكنك صديقي الحميم منذ سبعة أعوام .

– هذا لا ريب فيه وسأحفظ لك عهد الصداقة ما حييت . ولكن ما بالك مضطرباً إلى هذا الحد ؟

– ذلك لأن الكونت أرتوف وورلاند سيقتــل أحدهما غداً ، في مثــل هذه الساعة .

فوقف فابيان وقد بدت عليه علائم الاضطراب وقال · ماذا حدث ؟

– أحب قبل ان أجيبك ان أسألك بعض أسئلة ورجائي ان تجيبني عليها لما بيننا من روابط المودة .

– سأجيبك فسل عما تشاء .

– إنك أول أمس اختطفت رسالة وردت إلى رولاند في النادي وأحرقتها فلماذا تصرفت هذا التصرف ؟

– ذلك لأن رولاند فتى كثير الغرور .

– ليس هذا الجواب الذي أطلبه ايها الصديق .

– إن رولاند كان يحـاول مس عرض امرأة ، بعرض رسالتها اليه على أصدقائه .؟

فقال الكونت وقد سكن جأشه ، ولكن كما يقر الأسد قبل الوثوب وكما يسكن الجو قبل انقضاض الصاعقة : لا شك انك عرفت تلك المرأةايها الصديق ولولا ذلك لما تعرضت لإحراق رسالتها .

– ذاك أكيد

– وليس انت وحدك الذي عرفتها بل كان يعرفها كل من كان يلعب معنا من أعضاء النادي .

– ذاك أكيد أيضاً فان رولاند لا يعرف أن يكتم سراً

– إذن لم يعد فائدة من إحراق الرسالة ما زال جميع الحضور يعرفون تلك المرأة . بقي ان زوج تلك المرأة كان بينكم وهو لا يعلم أمراً من خيانة إمرأته اليس ذلك أيها الصديق ؟ اني أستحلفك بشرفك ان تقول الحق

فأطرق فابيان استحياء وقال هو الحق ما تقول .

— اني لا أسألك اسم هذا الزوج التعس المنكود الذي أصبح شرفه وعرضه مضغة في أفواه الصبيان ، بل أسألك أن تصغي إلي فاسمع انني بعد ذهابك من النادي بقيت فيه وحدي فأخذت غلاف الرسالة الذي ألقاه رولاند إلى الأرض وتمعنت في خطه فرأيت انه خط امرأتي فذهبت إلى منزلي وأعطيتهـا هذا الغلاف فذعرت له وصاحت صيحة دهش بدت فيها علائم الصدق التي لا تنقض حق وثقت من براءتها وأيقنت أن هذا المنافق قد قلد خطها لغرض سافل دنيء.

فحسب فابيان أن الكونت ليس له غير هذا البرهان فقال : ان هذا ممكن فان رولاند يقدم على كل شيء .

فقال الكونت : اصغ إلي فـاني لم أتمم بعد ثم قص عليه جميع ما علمه من أوكتاف بالتفصيل إلى أن فرغ من الحكاية

فقال : اني كنت منذ ساعة مشككا أحسب أن رولاند قد زور الخط أو ان تشابه الخطين من قبيل الاتفاق ولم يكن يشكل علي غير السبب في احراقك للرسالة أما الآن فقد علمت انك عارف الحقيقـة بجملتها وقد أتيت اليك كي أقف منك على هذه الحقيقة بتفاصيلها .

قال فابيان : أتراني مضطراً مكرهاً إلى قول كل شيء ؟

- هذا ما أراه والا فانك تدعوني إلى قتل رولاند دون مبارزة .

فصاح فابيان صيحة انكار .

فقال الكونت : إذا أثبت لي أنت الذي أحترمه وأجله خيـانة امرأتي فاني أقاتل رولاند قتال مبارزة وأقتله قتل الأشراف ، واذا قلت انها بريئـة فاني أثق بكلامك وأرجع عن كل شيء .

فأصبح فابيان في شر موقف يتصارعه عاملان من الشرف والاشفاق ولكن الشرف تغلب عليه فقال بصوت مختنق أرسل شاهديك اليه أيها الكونت .

جمد الدم في عروق الكونت ووهت رجلاه اذ أنقض عليه هذا التأكيد

انقضاض الصاعقة ولكنه ضبط نفسه وقال اني واثق مما تقول أيها الصديق ولكن أليس لديك برهان تقوله لي ؟

– وا أسفاه أيها الصديق اني رأيت الكونتس في منزل رولاند

وفي هذا الموقف الحرج وقبل أن يتم فابيان جملته المتقدمة دخل روكامبول فلما رآه الكونت كظم غيظه ومد يده فسلم عليه متكلفاً الابتسام ثم أرتد إلى فابيان وقال : انك كنت صديقي وقد برهنت لي الآن انك لا تزال ذلك الصديق .

– بل سأكون صديقك إلى آخر العمر .

– إذن لا اسألك لتأييد هذا القول برهاناً مستحيلاً كأن أطلب اليك أن تكون شاهدي في مبارزتي لرجل هو من أصحابك .

فقال فابيان باشمئزاز : لقد كان صديقي من قبل ، أما اليوم فاني أحتقره بقدر ما كنت أميل اليه .

– بل أطلب اليك ما هو أيسر من ذلك فاني لا أحب أن أعود اليوم إلى منزلي وأرجوك أن تخفيني هنا إلى الغد .

فقال له روكامبول انك يا سيدي في منزلك ونحن الضيوف فيه .

فشكره الكونت وجلس أمام طاولة فكتب الى امرأته ما يأتي :

« سيدتي

« كنت بالأمس مشككاً والآن فلم يبق في نفسي أثر للريب فلا تنتظري عودتي إلى المنزل إذ لا أعود اليه بل لا تنتظري ان تريني إلى الأبد فاني أرجو أن أقتل غداً رولاند دي كايلت واذا سلمت من الموت فاني أغادر فرنسا بعد ساعة .

إني أحببتك من قبل وأنا أصفح عنك الآن »

« كونت ارتوف »

ثم طوى الرسالة فاعطاها لفابيـــان وقال له : اني سأغيب ساعة وأعود

وتركها وانصرف ذاهباً إلى منزل رولاند .

وكان رولاند في منزله وقد وصلت له رسالة من ريبيكا وهو يحسبها من باكارا حسب العادة تثني عليه فيها لحسن تصرفه في حفلة أمس وتدعوه إلى انتظارها في منزله الى الساعة الخامسة إذ انها ترجو ان تزوره . فبقي في منزله حتى انه أطلق سراح خادمه كي يخلو له الجو . وفي الساعة الثانيـة طرق باب منزله فرقص فؤاده سروراً لاعتقاده ان باكارا قادمة اليه فأسرع وفتح الباب ولكنه ما لبث ان رأى الكونت أرتوف حتى ذعر وتراجع الى الوراء ، فقال له الكونت : إني أتيت يا سيدي لأباحثك في شأن هام فأذن لي ان أدخل الى منزلك فان مثل حديثي لا يقال على الأبواب .

ثم دخل قبل أن يجيبه فدخل أول غرفة لقيها مفتوحة ووقف ينتظر فيها رولاند الذي تأخر عنه لاقفال الباب .

وكان رولاند ثاب من دهشته وذهب اضطرابه بزوال أعراض الدهشة الأولى فعاد اليه رشده وعلم من لهجة الكونت ومن اتقاد عينيه أسباب زيارته له وانه عارف بكل شيء . فأدخله الى الغرفة التي كان فيها وهو شامخ الرأس وسلم عليه وهو يبسم ابتسام الاحتقار ، ثم قال له : أيريد سيدي الكونت ان يعلمني بالسبب الذي شرفني من أجله بهذه الزيارة ؟

فأجابه الكونت : كلمة واحدة تفصح عن السبب . وهي اني عـارف بكل شيء .

فلم يتكلف رولاند الاحتجاج او الانكار بل قال له إني رهن أمرك وسأقبل كل شروطك .

– شرطي ان نتبارز اولاً بالمسدسات ثم بالسيف اذا اقتضت الحال إذ لا يخفاك انه يجب ان ينطرح أحدنا ميتاً في ساحة القتال .

- ليكن ما تريد .

– وسنتبارز غداً في الساعة السابعة صباحاً وسنلتقي في غابة فانسان بدلاً

من غابة بولونيا.

— حسناً وستجدني مع شهودي .

وعند ذلك أحنى الكونت رأسه مودعاً وخرج، فشيعه رولاند إلى الباب وهناك نظر كل واحد منهما الى الآخر نظرة حقد كانت أنفذ الى قلبيهما من السهم المسنون .

أما رولاند فانه كتب الى صديقه اوكتاف بما حدث وكلفه ان يدعو صديقاً له فيكونان شاهديه .

وأما الكونت أرتوف فإنه ذهب الى صديقه الدوق دي مايلي وقال له : أرجوك أيها الصديق ان تكون غداً شاهدي ، فإني سأبارز رولاند دي كايلت.

فذعر الدوق وقال : لماذا هذه المبارزة ؟

— لا بد أن تعلم السبب فهو اني كنت أحسب نفسي أمس الى صباح اليوم من أسعد البشر فعلمت الآن اني من أشقاهم .

— ما هذا اليأس وأي شقاء تعني ؟

— لا شيء سوى اني محب غـــير محبوب وقد كنت أحسب ان المرأة إذا تابت عن ذنوبها تصبح من ملائكة السماء ، ولكني أخطأت في هذا الزعم فان المرأة متى سقطت في هوة الفساد فلا بد لهـــا مهما بلغ من توبتها ان تعود إلى هذه الهوة .

— رباه ! ماذا أسمع أيمكن ذلك ان يكون ؟ أيمكن ان الكونتس ...

فقاطعه الكونت بإشارة وقال له : لا تذكر اسمها أمامي فقد محتها الجريمة من صفحات قلبي .

بينا كانت هذه الحوادث تتوالى ، كان يجري في قصر الكونت أرتوف حادث أشد تأثيراً منها ، وذلك انه بعد ان خرج الكونت ارتوف من منزله يتنزه كما تقدم خرجت باكارا في أثره لشراء بعض حاجات لها ولم تعد إلا في الساعة الثالثة فوجدت فيه رسالة لها .

ولم تكن هذه الرسالة من الكونت ارتوف كما يتبادر الى أذهان القراء ، بل كانت من رولاند فقد كتب لها ما يأتي :

« يا ملاكي المحبوب

« إن الذي يحبك ويحبك الى الأبد يقيم منذ ساعة على أحر من جمر الغضا ولولا خوفي من ان تكوني قتيلة لأسرعت اليك ، فقد خرج زوجك الآن من عندي وقد عرف كل شيء وسنتبارز غداً مبارزة لا تنتهي إلا بموت أحدنا وكنت أتمنى ان أموت من أجلك لولا ما أخشاه عليك من انتقام هذا الظالم على اني سأحيى كي أحميك . فاكتبي لي كلمة كي أطمئن عليك . كلمة واحدة بحق السماء . »

(رولاند دي كايلت)

وكان أحضر هذا الكتاب خادم رولاند وهو خادم روكامبول ، فجاء به إلى المنزل وأعطاه الى الخادم فقال له : إن هذا الكتاب الى الكونتس من أختها سريز ، ولكنها اوصتني ان أسلمه لها يداً بيد ، فهل تتعهد عني بتسليمه على هذا الشرط ؟

— لا شك في ذلك فان سيدتي قد وصلت الآن وهي وحدها في المنزل .

ثم أخذ منه الكتاب وأعطاه لباكارا بعد ان قال لها انه من اختها سريز ولكنها قبل ان تفض ختمه وتقرأ ما فيه سمعت صوت مركبة وقفت على الباب فأطلت من النافذة وهي تحسب انها مركبة الكونت ، ولكنها اندهلت

أشد الذهول لأنها رأت أختها سريز نزلت من المركبـــة ، فانشغل قلبها لزيارتها وأسرعت لاستقبـالها ، والكتاب لا يزال مختوماً بيدها فقالت لها : ويحك أجننت ؟

– لماذا ؟

– أتكتبين لي كتاباً ثم تجيئين في أثر الكتاب ؟

فانذهلت سريز وقالت : أي كتاب تعنين ؟ فإني لم اكتب لك شيئاً .

– هذا الكتاب الذي في يدي أما أنت أرسلتيه إلي وأمرت الخادم ان يسلمني إياه يداً بيد .

– كلا ، فلم يكن شيء من ذلك .

فأسرعت باكارا إلى فض الكتاب ، وأول مـــا وقع نظرها على توقيع مرسله وقرأت اسم رولاند دي كايلت . ثم قرأته فانذعرت ووقع الكتاب من يدها وهي تقول : رباه ! أفي يقظة أنا أم في حلم ؟

فأخذت سريز الكتاب من الأرض وقرأته ايضاً وقالت : إني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز يا أختي ومن هو رولاند هذا ؟

– إني ما رأيتـه غير مرتين ، وما كلمته أكثر من جلتـين . فماذا يعني بهذا الكتاب ؟

– ومن هو هذا الرجل الذي سيبارزه ويخشى عليك منه ؟

فلم ترد عليها باكارا وجعلت تقول : رباه ! ما هذا المصاب فلقد اوشكت أن أجن !

وعند ذلك فتح الباب ودخل الخادم برسالة وقال : إنها من الكونت .

فأخذتها باكارا بيد ترتعش . فلما تلتها صاحت صيحة القانطين وسقطت مغمياً عليها ، وقد عرف القراء فحوى هذه الرسالة التي كتبها الكونت في منزل فابيان .

وبعد ربع ساعة أفاقت من إغمائها ولكنها كانت شبيهة بالمجانين ، فقالت

لأختها بصوت مختنق : هلمي معي فإني أريد ان أذهب إلى هذا الرجل الذي قلد خطي وبلغ من السفالة إلى هذا الحد .

ثم خرجت معها فركبتا مركبة وسارتا إلى منزل رولاند وكانت يا كارا في الطريق لا تفوه بكلمة . فلما وصلت المركبة إلى منزل رولاند نزلت سريز وقالت لأختها: إنتظريني فسأقابل هذا الرجل وأعود اليك بما يكون .

ثم تركتها وصعدت إلى منزل رولاند فطرقت بابه وهي تضطرب .

ولم يكن خادم رولاند في المنزل ففتح لهـــا رولاند واندهل حين رآها ، فقالت له إني أدعى يا سيدي مدام ليون رولاند ، وأنا أخت الكونتس أرتوف .

فاندهش رولاند لهذه الزيارة واستقبلها خير استقبال فقالت له : إن اختي يا سيدي تنتظرني في المركبة الواقفة على بابك الخارجي .

فظهرت على رولاند علائم السرور وقال: ألم يقتلها؟ أسلمت من شره؟ الحمد لله والف شكر لك يا سيدتي فلقد كدت أجن من الخوف عليها .

فقالت سريز كأنها لم تسمع ما قاله : إن اختي في المركبة وهي لا فرق بينها وبين المجانين لأنها لم تعلم شيئاً من رسائلك .

– العل زوجها لم يعد الى المنزل ؟

– إنها لم تفهم شيئاً من كتابك ولا من كتاب زوجها .

ثم عرضت عليه كتاب الكونت فقرأه وقال : لقد عرفت سبب اضطرابها ولكن لتعلم يا سيدتي اني سأحميها لأني أحبها .

فقالت سريز وقد طاش رأسها :إعلم يا سيدي أنه إما ان يكون هناك اتفاق غريب خدعت به او انك من أشد الناس حطة ونذالة فإن أختي ما نظرتك غير مرتين وما أحبتك ولم يكن لها بك أدنى اتصال .

فقال رولاند ببرود : عفوك يا سيدتي ، فلقـــد كنت أحسب ان أختك أوقفتك على أسرارها بدليل قدومك إلي ، وانها تنتظرك على باب منزلي .

وفي كل حال فلا يسعني ان أتغاضى عن شتمك لي ، فما انا بنذل وان اختك تستقبلني في منزل لها في باسي منذ ثمانية أيام وقد أتت بنفسها إلى منزلي هذا ثلاث مرات

فصاحت مريز صيحة اشمئزاز وهي تحسب ان الرجل قد جن ، كأنما هذا الإقرار قد أثر بها تأثيراً شديداً،حتى أنها لم تعد تدري ماذا تجيب ولكنها أسرعت الى الخروج من غرفة رولاند ونزلت على السلم مهرولة حتى بلغت الى حيث اختها فأمسكتها بيدها وجرتها وهي تقول : إصعدي معي الى هذا الخسيس فانه يقول انه ذهب اليك في باسي وأتيت اليه في منزله . أسرعي فان الرجل لا شك مجنون .

فهاجت هذه التهمة بباكارا ووثبت من المركبة فصعدت السلم مقتفية أثر أختها ، وكان رولاند لا يزال واقفاً على باب منزله الداخلي . فلما رأى باكارا صاح صيحة الفرح وأسرع اليها وقد فتح ذراعيه لضمها اليه ، فصدته باكارا بعنف وقالت له : إنك رجل سافل او إنك معتوه لا عقل لك ويحك بأي حق تريد معانقتي ؟

فتراجع رولاند وقال عفواً أيتها الحبيبة ! فما انا بسافل وما جننت إلا بهواك وخطئي الوحيد هو اني كنت احسب أختك واقفة على سرنا .

– وأي سر تعني ؟ ومتى كان بيني وبينك أسرار ايها الرجل ؟

فأطرق رولاند لحظة ثم نظر اليها وقال : إني أسألك بدوري اذا كنت قد جننت أم أنك تمثلين دوراً لا يخطر لي ببال .

فسقطت باكارا واهية القوى على كرسي وغطت رأسها بين يديها وهي تقول: يا لك من رجل سافل .

فدنا منها رولاند وهو واثق أشد الثقة من انها المرأة التي يهواها لأنها لا تتميز عن ريبيكا إلا بصفاء عينيها . غير انه لقيها بحالة اضطراب شديد لم يعد بعده سبيل الى معرفة ذاك الفرق ثم قال لها بصوت منخفض : اذكري

أيتها الحبيبة اجتماعنا في باسي ، بل اذكري انك كنت اول امس جالسة على نفس الكرسي الذي أنت جالسة عليه الآن ، وإني كنت جاثياً على ركبتي أمامك .

فاتقدت عينا باكارا بلهيب الغيظ ورفعت يدها تريد صفعه .

وعند ذلك خطر خاطر لسريز فأمسكت يد أختها وقالت : لقد علمت كل شيء يا اختي فاطمئني واذكري تلك المرأة التي تشبهك والتي خدعت بها فحسبتها إياك حين رأيتها .

فانتعش فؤاد باكارا وقالت : رباه عسى ان يكون ذاك صحيحاً .

وعند ذلك استحالت الى السكينة بعد ذاك الغضب ، وأخذت يد رولاند وقالت له بلهجة الاستعطاف هوذا وجهي معرض للنور ، فتمعن فيه جيداً تعلم أنك عشقت امرأة تشبهني وان هذه المرأة قد قلدت خطي أنظر إلي جيداً ... إني أتوسل اليك والتمس منك هذا التمعن راكعة أمامك على ركبتي .

وكانت نبرات صوتها تشف عن صدق أكيد ، حتى ان رولاند تأثر وارتعش ، ولكنه ما لبث أن قال : كلا ان التشابه إلى هذا الحد محال ، فان الصوت والوجه والشعر واحد ، وفوق ذلك فهذه الرسائل التي أرسلتيها إلي بخطك ، وهذه التي أرسلتيها بخط وصيفتك. ألم تكتبي لي في هذه الرسالة جميع ما حدث بينك وبين زوجك حين عودته من النادي .

ثم أعطاها الرسالة ، فلما قرأتها باكارا علمت ان كل شيء يدل على انها مجرمة ، وان فكراً حاذقاً قد دبر هذه المكيدة فصاحت صيحة يأس وسقطت مغمياً عليها ، فاسرع رولاند وسريز إلى إنهاضها عن الأرض وجعلت سريز تصيح وتستغيث ، أما رولاند فقد تزعزع اعتقاده لما رآه من دلائل الصدق على الأختين

وقد أسرع خدام المنازل المجاورة عندما سمعوا صوت الاستغاثة فطلبت

اليهم سريز أن يساعدوها بنقل أختها قبل ان تستفيق الى المركبة فحملوها اليها ، وعند ذلك قالت لرولاند : التمس منك يا سيدي ان تأتي الى منزلي بعد ساعة فانه لا بد من وجود سر هائل يجب ان نكشفه .

فوعدها رولاند بالذهاب وقد اشتد اضطرابه حتى انه خشي ان يكون قد أساء الى هذه المرأة إساءة لا تغتفر .

أما سريز فانها ذهبت الى منزلها باختها وهي مغمي عليها حذراً من ان يفتك بها الكونت حين يراها .

* * *

بينما كانت المركبة تسير بسريز وأختها ، خرج رجل من مركبة كانت واقفة منذ حين على مسافة ٥٠ خطوة من منزل رولاند ، فدفع أجرة المركبة ودخل الى منزل رولاند . ولم يكن هذا الرجل إلا روكامبول ، وكان باب رولاند لا يزال مفتوحاً ، فدخل روكامبول وهو يقول في نفسه ، إن المقابلة كانت من غرائب المضحكات .

وتقدم الى القاعة التي يجلس فيها رولاند ، فألفاه ضائع الرشد ، مشتت البال فقال له لقد عرفت كل شيء ايها الصديق ، فان الكونت أرتوف زارك في منزلك ، وإنكما ستتبارزان غداً ، فلم أجد بداً من زيارتك . وقد علمت من حكاية الكونت أرتوف ، ان صديقك أوكتاف كان علة هذه الفضيحة .

فقال له رولاند دون ان يهتم لحديثه : لقد علمت كل شيء كما تقول فهل علمت ان الكونتس أرتوف خرجت من هنا قبل دخولك .

فتظاهر روكامبول بالاندهال واجاب : رباه ! ماذا أسمع أتبلغ جسارتها الى ذلك الحد ؟

— بل قد حدث ما هو أشد من ذلك .

ثم قص عليه ما جرى بينه وبين باكارا وسريز وهو يميل بحكايته الى تصديق الأختين الى أن أتم حديثه ، وكان روكامبول يصغي اليه أتم الإصغاء فلما رأى اعتقاده قد تزعزع قال له وهو يبتسم : كم عمرك يا رولاند ؟

— أربعة وعشرين عاماً .

— إذن فان عذرك ظاهر لأنك لا تزال صغيراً تجهل مكائد النساء فاذا كنت عرفت شيئاً من حبهن فقد غابت عنك من مكائدهن أشياء .

— ماذا تريد بهذا القول ؟

— أريد ان باكارا واختها قويتان وانهما قد عبثتا بك إذ لا يوجد شبيهة لباكارا كما تزعمان وهي نفسها التي أحبتك ثمانية أيام باتت عدوة هائلة لك في مدة ساعتين .

فذهل رولاند وقال : كيف ذلك ؟

— ذلك حين علم الكونت كل شيء لم يذهب الى منزله بل كتب الى امرأته فأسرعت باكارا مع اختها اليك وقد اتفقتا على تمثيل هذا الدور ونجحتا فيه كما يظهر لأنك أصبحت تعتقد كما أرى ، انه يوجد شبيهة لباكارا ولو لم يتفق قدومي اليك لكنت تماديت في اعتقادك هذا حتى تحسب نفسك مخطئاً إلى الكونت ، فتعتذر اليه غداً ، ثم تقول له إني ما عرفت الكونتس ولم يكن لي بها اتصال غرام ، بل كنت منخدعاً بامرأة تشبهها . فاذا شئت ان تقتلني فافعل . ولكني أقسم لك بشرفي أن امرأتك طاهرة بريئة ! وعند ذاك يلقي الكونت حسامه الى الأرض ، وتبطل المبارزة . ثم تبحث وإياه عن تلك المرأة ، التي لا توجد إلا في مخيلة باكارا ، فلا تجدانها .

— ومنزل باسي ؟

فأجاب روكامبول بلهجة الاستغراب: العلك عرفت هذا المنزل ؟ أما كنت

تذهب اليه في مركبة مقفلة مسدودة النوافذ ألا يمكن ان يكون المنزل في غير هذا الشارع ؟

فأطرق رولاند وقال : لقد أصبت

فقال روكامبول متمماً حديثه : إنه بعد ان تبحث أنت والكونت ثلاثة أو أربعة أيام دون أن تجدا شبيهة باكارا يخف غضب الكونت ويعود إلى الثقة بطهارة إمرأته .

ـ ولكننا لا نجد شبيهة باكارا فتراجعه الظنون .

ـ كلا فان باكارا تكون في خلال هذه المدة قد أثبتت لزوجها براءتها كما تكون قد أثبتت له أيضاً انك أنت المذنب وانك أنت الذي أردت إخفاء شبيهتها كي تبقى الشبهات متمكنة في نفوس أصحابك من انك تحب الكونتس حقيقة وانك اختلقت هذه الحكاية كي تنفذها .

ـ ولكن ذلك عمل ساقل لا تقدم عليه باكارا .

ـ بل انك فتى غر لا تعرف شيئاً من مكائد النساء وأحقادهن فان باكارا لا تصفح عنك إلى الأبد ولا تنسى انك أنت الذي دنست سمعتها بافشاء سرها أمام أصحابك

فأطرق رولاند هنيهة يفتكر ثم أجاب: لقد أصبت أيها الصديق فانها تلعب بي كما يلعب الغلمان بالكرة فاطمئن لأني قد وقفت في مواقف الحذر .

وبعد أن تركه روكامبول كتب رولاند إلى سريز يعتذر اليهـــا عن عدم حضوره ثم أعطى الكتاب لخادمه وذهب الى النادي كي يرى أصحابه بـــل يخبرهم بجميع امره .

أما روكامبول فانه ذهب إلى منزله فوجد فيه الكونت أرتوف وصهره فابيان ، وكان الكونت بعد ان ذهب الى رولاند والدوق دي مايلي وبعد أن كتب الى باكارا ذاك الكتاب الذي صعقها عاد الى فابيان فكتب عدة رسائل وفابيان جالس أمامه لا يجسر ان يفتح الحديث فلما فرغ الكونت من كتابه قال لفابيان : إني أحب ان أجعلك منفذ وصيتي ألك ما يمنعك عن قضاء هذه المهمة أيها الصديق ؟

فنظر اليه فابيان منذهلاً وقال : ماذا يدعوك الى كتابة وصيتك الآن وأنت واثق من قتل خصمك ؟

ــ ولكني قد أقتل .

ــ إن الله أرحم من ان يجازيك هذا الجزاء إذ لا بد للفضيلة ان تنتصر ولو بعد حين

ــ أصبت على ان كتابة الوصية محمودة في كل حال .

فاجاب فابيان وقد تبين قصداً هائلاً من ملامحه : إنك لا تزال تحب هذه المرأة يا كونت .

ــ نعم وعلى الكره مني .

ــ وإذا لم يقتلك خصمك فماذا تصنع ؟

ــ أقتل نفسي !

ثم تنهد وقال : إصغ إلي فاني قسمت تركتي الى قسمين : القسم الأول وهو أملاكي في روسيا وسيرثها أهلي من بعدي ، والقسم الثاني أملاكي في فرنسا فان إيرادها يبلغ مائة الف فرنك في العام ، وأنا أريد ان أجعلك منفذاً لوصيتي عن هذا القسم ... لا تقطع علي الحديث ايها الصديق ، لأني أعلم ما تريد أن تقوله لي ، واعلم اني إذا لم أقتل في المبارزة غداً فسأقتل نفسي لأن

سعادتي كانت متعلقة بهذه المرأة التي ما أحببت سواها ، فملأت جميع فراغ قلبي فلم يعد لهذا القلب رجاء بالحياة بعد أن سحقته تلك الخيانة ، فاذا قتلت غداً هذا الفتى فانه قد قتلني قبل ان أمد له يداً . فاعجب لقاتل يقتله مقتول أما الموت فهو أشهى الأمور لدي وكفى به معزياً عما أنا فيه والآن فهل تكون منفذ الوصية .

فتنهد فابيان وقال : نعم .

– إذن سأدع هنا وصيتي وجميع رسائلي فاذا كان الغد ...

وعند ذلك دخل روكامبول ، فأجاب فابيان باشارة يريد بها انه فهم المقصود .

أما روكامبول فانه دنا من الكونت وقال له : لقد أمرت الخدم يا سيدي ان يهيئوا لك غرفة بازاء غرفتي .

فشكره الكونت وقال إذن لنذهب اليها ولندع فابيان مع امرأته فقد حان وقت العشاء ولا أحب ان أظهر أمامها بمظهر الاضطراب .

ثم خرج روكامبول بالكونت وصعد به الى منزله فقال له: أتريد أن نجلس على مائدة الطعام ؟

فابتسم الكونت ابتسام الحزين وقال : لا أجد شهية للأكل .

– انه لا يجمل بك ان تبيت فارغ المعدة ، وانت مضطر الى المبارزة في الصباح .

– أصبت . وامتثل امتثال الأطفال .

ولما فرغا من الطعام أتاهما الخادم بالقهوة فقال له روكامبول . أنصحك نصيحة ، وهي ان لا تشرب هذه القهوة ، بل اشرب كأساً من هذا الشراب .

وأشار الى زجاجة على المائدة ، فقال الكونت : لماذا اخترت ذلك الشراب دون سواه ؟

— لأنه يساعدك على النوم ، وأنت محتاج الى الرقـــاد في هذه الليلة للراحة .

— بل للنسيان ، فهات من شرابك .

فصب له روكامبول كأساً وصب لنفسه من شراب آخر فسأله الكونت : لماذا لا تشرب أنت من شرابي ؟

فضحك روكامبول وقال : لأني لست محتاجاً للنوم مثلك .

ثم شرب الاثنان ، وعند ذلك نظر روكامبول الى الساعة المعلقة وقال في نفسه : اننا في الساعة السابعة الآن ، وفي الساعة السادسة من الصبـــاح ستكون المبارزة .

وبعد ان اقاما على المائدة هنيهة ، دخل الكونت الى الغرفة التي أعدت له ، وذهب روكامبول الى استاذه اندريا فقال له : لدي أيها الأستاذ كثير من الأمور التي تحب ان تقف عليها ، فـــان باكارا شبيهة بالجانين ، وقد قابلت رولاند . ولولاي لـكان اعترف ذاك الأبله للكونت بأنه يهوى شبيهة إمرأته .

ثم قص عليه جميع ما جرى . فلما اتم حديثه ســأله : أواثق أنت من تأثير السم الذي سقيتـه للكونت أرتوف ، وانـه يتم جنونه بعد اثنـتي عشرة ساعة ؟

فهز أندريا برأسه إشارة المصادقة .

— وإذا اتفق ان المبارزة حدثت قبل الجنون ؟

فكتب اندريا على لوحه الحجري : يكون ذلك لنكد رولاند . الملك مشفق عليه ؟

— إنك لم تعلمني الإشفاق .

فكتب أندريا كن مطمئناً فان أعراض الجنون تظهر في الساعة السابعـة وتحول دون المبارزة .

وفي صباح اليوم التالي نهض روكامبول باكراً وأيقظ الكونت فشكره الكونت وارتدى ثيابه مسرعاً ولكنه شعر بدوار في رأسه فلم يكترث له ، وخرج فركب مركبة وذهب بها الى الدوق دي مايلي شاهده في المبارزة. وسار الاثنان الى المكان المعين فلقيا رولاند وشاهديه فسلم كل فريق على الآخر باحناء الرأس وبعد اتفاق الشهود وقف الخصمان موقف القتال .

وكان روكامبول قد سبقهما الى محل المعركة متنكراً ، ووقف بحيث يرى جميع ما يجري دون ان يراه أحد . وكانت عند ذلك الساعة السابعة بينما كان الشهود ينتظرون بدء القتال رأوا ان الكونت قد حمل سلاحه ومشى الى رولاند فظن الجميع انه سيقتل خصمه دون شك ولكنه بدلاً من أن يطلق عليه النار جعل يكلمه خلافاً للقواعد المعروفة في المبارزات ، فكان اول ما قاله : إننا يا سيدي في موقف لم يعد ينفع فيه الاعتذار ، ولا بـــد لأحدنا من الموت .

فأجفل روكامبول وخاطب نفسه : العل اندريا والطبيب يهزآن بي فان الوقت قد حان ولا أرى عليه شيئاً من أعراض الجنون .

فقال رولاند مجيباً الكونت : لقد صدقت يا سيـدي ، وها أنا مستعد لقتالك .

فقال الكونت بسكينـة وأدب . ما تظن يا سيدي بفتى ضعيف العقل احب امرأة لم تهواه على الإطلاق .

فأنكر عليه رولاند هـذا الكلام وقال : ما لنـا وللعود الى تلـك الأبحاث ؟

- عفوك يا سيدي ودعني اتم كلامي .

فهز رولاند كتفيه إشارة الى عدم المبالاة وقال : قل ما تشاء

- إن تلك المرأة لم تكن تهواه فعول على الانتقام منها بالنميمـة عليها وتخديش سمعتها فجعل يظهر لجميع اخوانه الأغرار ان المرأة تهواه .

فأوقفه رولاند وقال: إنك تتمادى في القول يا كونت ، فقف عند حدك .
فأجابه الكونت بصوت الملتمس : بالله دعني أتم حديثي .

فانذهل رولاند وجميع الشهود لأن الكونت كان يخالف نظام المبارزة مخالفة ظاهرة لا تخفى على أحد ، فدنا الشهود منه بضع خطوات . أما الكونت فإنه أتم كلامه فقال : لحسن الحظ يا سيدي ان الرذيلة مهما تمكنت من النفس فإن أضعف شعاع ينفذ اليها من أشعة الفضيلة يتغلب عليها ويلقي صاحبها في مهاوي الندامة .

فنفذ صبر رولاند وقال له مغضباً : ماذا تريد بهذه الأقوال ؟

فتحمس الكونت وقال له : إصغ الي بحق السماء فان تتمة حديثي يتعلق عليها شرف إمرأتك .

فجمد رولاند من الذهول وقال له إمرأتي ؟

فسقطت الدموع من عيني الكونت وقال نعم يا سيدي الكونت أرتوف فلقد وشيت بامرأتك الكونتس أسفل الوشايات فاصفح عني .

فوقعت هذه الكلمات الأخيرة وقع الصاعقة على رولاند وعلى الشهود . أما الكونت فإنه عاد الى حديثه فقال : إني يا سيدي الكونت أدعى رولاند دي كايلت ، كما انك تدعى الكونت أرتوف ، وكلانا شريف نبيل و ..

فقاطعه رولاند وقال : أنا الكونت أرتوف وأنت رولاند دي كايلت ؟ لا شك يا سيدي إنك مجنون !

— لقد كنت يا سيدي في عداد المجانين حين تجاسرت أن أرفع نظري إلى تلك المرأة الجميلة النبيلة . ولكنك ستصفح عني دون شك فتصافحني وتقبل اعتذاري .

ثم جثا على ركبتيه أمام رولاند ، وهو يقول : عفوك يا سيدي الكونت .

فصاح الشهود منذعرين : إنه مجنون !

وفكر روكامبول في نفسه . لا شك ان اندريا من الأنبياء ، فها هو قد جن عند الساعة السابعة تماماً كما قال .

ودنا الدوق دي مـايلي من رولاند وهمس في أذنه قائلاً : إقبـل جميع أعذار هذا المسكين . فإنك لم تعد الآن أمام الكونت أرتوف بل أمـــام تعس منكود ، ذهب صوابه بذهاب شرفه ، وداست إمرأته على عقله بأقدام حبها السافل .

وبعد ذلك ببضع ساعات كان روكامبول يحدث اندريا بجميع ما رآه من جنون الكونت أرتوف الغريب فقال له إنه لا يزال يعتقد انه رولاند وقد ركب إلى جنبه رولاند في مركبة واحدة ، وأراد الذهاب معه الى منزله كي يعتذر الى باكارا التي يعتقد انها زوجة رولانـد فكان يعتذر اليــه طول الطريق الى أن بلغوا الى منزل الكونت أرتوف فلم يجدوا باكارا فيه فحبسوه في قصره وذهب كل في شأنه ، والآن فقل لي أية فائدة لنا من جنون الكونت أرتوف ؟

فأجابه أندريا بلوحـه الحجري : إن الأطباء سيصفـون له السفر مداواة لجنونه ، فلا بد لباكارا من السفر معـه ومغادرتها باريس فيخلو لك الجو وتأمن شرها .

– وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك تضعف قوة الدوق دي مـايلي ونستطيع التفرغ له آمنــين مطمئنين .

– ألعلك قررت أمراً بشأنه ؟

– نعم .

– أتطلعني على الخطة التي رسمتها ؟

– كلا ، فـاكتف الآن بتنفيذ أوامري ولا تنـاقشني في شيء ، بـل

اطمئن ... فليس الدوق دي مـايلي الذي سيمنعك عن الزواج بغـادتك الاسبـانية .

- ٢٨ -

بعد ذلك بثلاثة أيام ورد إلى الكونت مايلي من باكارا الكتاب الآتي :

« أيها الدوق العزيز

«ان امرأةدنس بنو الشرشرفها وضربتها يد القضاء ضربة لا قيام لها بعدها تكتب اليك لتودعك وداعاً ربما كان أبديـاً ولست أدري إذا كنت في عداد الذين يثقون بخيانتي ولكنك رجل نبيل طاهر القلب عف الضمير » إذا كنت تتهمني كما يتهمني الناس بتلك الخيانة التي اختلقتها قريحة جهنمية فانك تحفظ لي دون شك شيئاً من العهد القديم لا سيما حين تعلم انك كنت الرجل الوحيد الذي افتكرت به حين خروجي من باريس .

« اننا نسافر غداً فقد وصف الأطباء السفر لزوجي العزيز وقال ان هواء سويسرا ومناظر جبالها قد يعيـدان اليه صوابه وما أسعد ذلك اليوم الذي تصدق فيه ظنون الأطبـــاء على اني عالمة بأن زوجي حين يعود اليه صوابه يطردني من داره طرد المجرمات ويأنف من أن ينظر إلي لأني لم يعـد لي أقل أثر في قلبه بل ربمـا قتلني أيضاً ولكني لا أهتم لحياتي وسأخاطر بكل شيء في سبيل شفائه لأنه لا يزال في عنفوان الشباب ولا بد لجرحه أن يندمل بتقادم الأيام .

« ومع كل ما أنا فيه أيها الصديق (أواه دعني أرجو أن تسمح لي بأن أناديك بهذا اللقب) فلا أحب أن أغـــادر باريس دون أن أهتم بأمرك فقد وردني اليوم كتاب من قريبك في روسيا يقول فيه انه وصل اليه رسولي الذي

يحمل كتابي وانه سيرسل معه بعد ثلاثة أيام الأوراق التي تثبت علاقة نسبك بالدوق سالاندريرا .

« وعلى ذلك فسيصل هذا الرسول قريباً اليك ويعطيك هذه الأوراق التي تبلغك ما تريد من الزواج بابنة الدوق ، أما أنا فسأكتب للدوق سالاندريرا وأخبره بأمر نسبك وأعيد عليه ما كتبته من قبل وهو أن تكون زوج ابنته ولا شك ان الدوق لم يصل اليه بعد نبأ شقائي وسأكتب اليه بلهجة المرأة التي لا تزال سعيدة فانتبه لنفسك وأعمل ما يجب عليك فقد علمت أنا ما يجب علي.

« الوداع أيها الصديق فارث لحالي ولا تحتقر دعائي لك فاني لا أزال طاهرة بالرغم عن المرجفين »

(الكونتس أرتوف)

فتأثر الدوق عند قراءته هذا الكتاب وقال في نفسه : أن قلبي يحدثني انها غير مجرمة وفي كل حال فاني لا اسمح لأحد أن يهينها أمامي .

وكان الدوق يحاول الخروج من منزله عندما ورد اليه هذا الكتاب فلما فرغ من تلاوته أعاده إلى غلافه ووضعه على طاولته وانصرف وكان زامبا يراقبه فلما خرج سيده دخل إلى غرفته فنسخ الكتاب وذهب بنسخة إلى روكامبول في منزله السري الذي كان هذا الأخير ينتظره فيه وهو متنكر بالشكل الذي يعرفه فيه زامبا وكان منهمكاً بتلاوة كتاب ورد اليه من ابنة الدوق تقول فيه . أن أباها يعهد اليها بعد موت الدون جوزيف اختيار الزوج الذي ترضاه وأنهم عائدون من اسبانيا فيصلون إلى باريس بعد ثلاثة أيام وفي الختام طلبت اليه أن يجيئها إلى الحديقة عند منتصف الليل حسب العادة .

فلما دخل زمبا أخفى روكامبول كتاب ابنة الدوق فاطلعه على نسخة كتاب باكارا إلى الدوق دي مايلي فاجفل لهذا الخبر وقال في نفسه : لقد أخطأ ظن أندريا فان باكارا لم يشغلها جنون زوجها عن خدمة الدوق ولكنه أخفى اضطرابه وقال لزامبا أن يعود اليه في الساعة الثامنة فانصرف وبعد

ذهابه غير روكامبول شكله وذهب يستشير استاذه اندريا .

وبينما مركبته تسير به وهو يمعن الفكرة بكتاب باكارا إذ قطع خيط تصوره صياح السائق بقوله أحذر وروجوعه بالمركبة إلى الوراء فالتفت روكامبول عندما تبين هذا الرجل لأنه عرف أنه فانتير وكيل منزل الأرملة مالاسيس الذي خان أندريا وأفشى سره للكونت أرتوف ، فكان السبب في قطع لسان اندريا كما تقدم في رواية التوبة الكاذبة . فجعل فـــانتير يشتم السائق دون أن يرى من فيها ، لأن روكامبـول احتجب في داخلها حذراً من أن يعرفه ، واستمر السائق يمشي هنيهة فأوقفه روكامبول ونزل وقال له : إذهب بالمركبة الى المنزل ، أما انا فسأعود ماشياً . ذاك لأنه خطر له أن يقتفي أثر فانتير كي يعلم حقيقة حاله

ولما شفى فانتير غله من شتم السائق جعل يمشي في الشـــارع ، واقتفى روكامبول أثره حتى بلغ الى منعطف الطريق فأسرع اليه وسأله أن يولع سيكارته من سيكارته ، قد أراد بذلك ان يعلم اذا كان يعرفه بالنظر اليه ، فأعطاه فانتير سيكارته ونظر اليه دون اكتراث فأيقن روكامبول انه لم يعرفه وما زال يتعقبه حتى وصل إلى منزله في شارع حقير فأخـذ مفتاح غرفته من البواب وصعد اليها وبعد حين عرف روكامبول من هذا البواب ان فانتير يدعو نفسه جوناتس وانه في أشد حالة من الشقاء حتى ان صاحب الغرفة طرده منهـا عدة مرات لامتناعه عن دفع الأجرة

ولما عرف روكامبول جميع ما يريد معرفته عاد الى منزله وذهب تواً الى أندريا فأخبره بكتاب الغادة الأسبانية ،وبكتاب باكارا الى الدوق مايلي وبلقائه بفانتير . فأمعن اندريا الفكرة طويلاً ثم قال له بلوحه الحجري: يجب أن يكون فانتير من رجالنا كي نرسله بشأن خطير الى اسبانيا .

فدهش روكامبول وسأله : ماذا يصنع في تلك البلاد ؟

– يذهب لسرقة كتاب باكارا الى الدوق سالاندريرا من كيس البوسطة قبل

وصوله الى الدوق .

ـ وإذا كان الكتاب قد وصل الى الدوق ؟

ـ ذلك غير ممكن فإنه قد برح اسبانيا أمس اما الكتاب فانه يسير الى اسبانيا والدوق خارج منها فيتقابلان على الطريق .

ـ لقد فهمت قصدك وسيكون ما تريد ان يكون .

- ٢٩ -

بينما كان فانتير عائداً الى منزله في اليوم التالي ، ناوله البواب كتاباً باسمه ، عليه علامة المركيز . فاندهش فانتير وقال : العل أحد النبلاء في حاجة إلي ؟

ثم فض الكتاب بلهف وأسرع بنظره الى التوقيع ، فاصفر وجهه وخارت قدماه ، ذلك انه قرأ « السير فيليام » وبعد ان ملك روعه أخذ يقرأ الكتاب فقرأ ما يأتي .

« عزيزي فانتير .

« بل أيها اللص القديم الخبير باساليب المهنة . إني عدت الى باريس من سفر طويل بعد ان طفت حول الأرض ، وانا الآن في خير حالة بفضل مؤازرة بعض إخوان ، غير اني أصبحت بعين واحدة . ولكن إذا كانت باكارا قد قطعت لساني فإن ذلك لا يمنعني عن ان اصدر الأوامر بالكتابة ، فاعلم الآن ان عصابتي تهتم منذ شهرين في البحث عنك . وقد بحثت في جميع أنحاء لندرا وباريس ، حتى عثرت بك وأصبحت الآن في قبضتي بحيث استطيع ان أبلغ منك ما أشاء وأشويك شيئاً على النار واقطع لسانك انتقاماً منك لأني أعلم ما يعانيه المرء من الشقاء بعد قطع لسانه ،

ولكني لا أصفح عنك بعد خيانتك لي إلا إذا رضيت ان تدخل في خدمتي وتكون لي عبداً ، فإذا قبلت فتنزه الليلة أمام باب منزلك ، وإذا أبيت فاستعد لما أنذرتك به » .

(السير فيليام)

فضمضع هذا الكتاب رشد فانتير لشدة خوفه من أندريا ، وأول ما خطر له أن يهرب من انتقامه ولكنه قال في نفسه . لا بد ان يكون قد وضع الجواسيس من حولي فلا سبيل الى الفرار ثم انه لو لم يكن في حاجة الي لكان قتلني دون ان يرسل إلي مثل هذا الانذار

وعندما خطر له هذا الخاطر اطمأن باله وجعل يتمشى أمام منزله ذهاباً وإياباً كما أوصاه السير فيليام في الكتاب .

وبعد ساعة اتى رجل من ورائه وهمس في أذنه : السير فيليام !

وكان هذا الرجل روكامبول ، فالتفت اليه منذعراً ، وجعل يحدق به دون أن يعرفه فخاطبه روكامبول بلهجته العادية : هلم بنا يا فانتير إلى هذه القهوة نتحدث فيها .

فعرفه فانتير من صوته وصاح منذعراً : روكامبول ؟

ـ أجل أنا هو . وقد بعثني اليك السير فيليام لترصيد حساب قديم بيلنا .

ورأى فانتير المسدس بيد روكامبول فخاف خوفاً شديداً وجعل يعتذر اليه عن الخيانة السابقة بانه اضطر اليها مكرهاً وانه مستعد للدخول في سلك العصابة متعهداً أن لا يخونها حتى الموت .

فتظاهر روكامبول بقبول عذره وذهب به الى قهوة منعزلة فأخبره بالمهمة التي ينتدبه اليها وهي سرقة الرسائل الذاهبة من فرنسا الى أسبانيا باسم الدوق سالاندريرا ، وأرشده الى طريقة سرقتها من كيس البريد ، ثم أعطاه الفي فرنك ليستعين بها على رشوة حامل البريد إذا تعذرت لديه الوسائل ووعده بعشرة آلاف اخرى إذا نجح في مسعاه . ففرح فانتير بهذه المهمة

الجديدة التي أنقذته من مخالب اندريا ومن نكد الفقر وقـــال له : اقتل إذا اضطررت الى القتل ؟

ــ لا بأس ولكن تجنب إهراق الدماء ما أمكنك .

فسافر فانتير لساعته الى اسبانيا ، وعاد روكامبول الى اندريا ، فأخبره بما كان ثم قال له : إني لا أعلم الى الآن ، أية فائدة لنا من سرقـة هذا الكتاب ؟

ــ ذلك أن الدوق مايلي يضطر بعدها الى ان يخبر الدوق سالاندريرا بنسبه الجديد وبالشهادات التي تثبت قرابته منه .

فرد روكامبول منذعراً : وإذا وصلت هذه الشهادات الى الدوق مايلي ؟

فضحك اندريا وأجاب : إن الذي سيحضر بها من روسيا خادم باكارا اذا شئت ان يصل اليه سالماً فافعل .

فأدرك روكامبول قصده وأجاب : حسناً .. فستكمن له منذ الليـلة ، في الطريق .

* * *

بعد ذلك بثلاثة أيام عاد فانتير يحمل كتاب باكارا وهو فرح القلب بنجاح مسعاه ، وفي اليوم نفسه دخل روكامبول الى أندريا يحمل جريدة وسأله : أتريد أن أقرأ فصلاً من هذه الجريدة ؟

فهز أندريا رأسه إشارة الى الرضى ، وقرأ روكامبول ما يأتي بعنـوان جريمة هائلة :

« حدثت جريمة هائلة منذ يومين في غابة سنارت ، وذلك انهم وجدوا في الطريق العام جثة منطرحة على بطنها وهي جثة رجل ظهر من ملابسه انه قوزاقي وقد حسبوا في البدء ان الموت لحادث او مرض ، غير انه تحقق بعد ذاك ان

ان الرجل كان مطعوناً بخنجر في قلبه وأنه مات على الأثر ، وقد ثبت أن قاتله من اللصوص لأن لم يوجد شيء في جيوبه من النقود ، فأخـذ البوليس في البحث عن الجاني الخ » .

ولما فرغ روكامبول من تلاوة هذه القطعة أخذ من جيبه ملفاً من الأوراق وخاطب أندريا. اسمع لاقرأ لك هذه الأوراق التي تثبت نسب الدوق دي مايلي وقرابته من الدوق سالاندريا قبل أن احرقها .

وبعد ان أتم قراءتها قبض اندريا على يده بيسراه وكتب باليمنى على لوحه الحجري إحفظ هذه الأوراق وإياك ان تحرقها .

فانذهل روكامبول وسأله وأية فائدة لنا من إبقـاء الدلائل على قرابة العائلتين ؟

فابتسم أندريا وكتب : إن العاقل يجب ان يتوقع كل شيء ، فان ابنة الدوق مهما كانت تحبك الآن فقد تتغير عليك بل قد تضطر الى عدم الزواج بك ، وعدا ذلك فان الدوق مـــايلي يدفع أكثر من مليون فرنك ثمن هذه الأوراق .

— لقد أحسنت ولكن ماذا أصنع بالأوراق ؟

— إحفظها

— واذا فتشوا منزلي وعثروا عليها عندي ، ألا تثبت جريمة القتل علي؟

— إنك قد نسيت انك تدعى الآن المركيز دي شمري لا روكامبول وانك بعيد عن الشبهات .

فاقتنع روكامبول ووضع الأوراق بجيبه ثم خرج من عند أندريا كي يخبىء الأوراق بمحل أمين في منزله ، ولكنه قال في نفسه إني قد أموت فجأة او أقتل في حادث ، ولا أحب ان يهان اسمي بعد الموت ، وخير لي ان أخبئها في منزلي السري ، فاني معروف فيه باسم آخر فعزم على تخبئتها في المنزل السري .

وفي المساء عاد روكامبول الى منزله فوجد فيه رسالة من ابنة الدوق تخبره فيها انها وصلت في الصباح مع أبيها وأمها الى باريس ، ودعتــه الى موافاتها في الحديقة في الموعد المعين . فلما انتصف الليل ذهب إلى لقـــائها فوجدها تنتظره على مقعد خشبي تظلله شجرة كبيرة ، فأسرع اليها روكامبول وأخذ يدها فقبلها قبلة حارة مزج فيها الحب بالاحترام ، وجعـل الاثنان ينظر كل منهما الى الآخر ، وهو لا يعرف كيف يفتح الكلام ، إلى أن تظاهر روكامبول بأنه تغلب على تأثره من هذا اللقاء فقال : هذه أول ساعة منذ شهر ، شعرت أن لي قلباً يعرف لذة الحياة ، فاني لم أكن عاشقاً إلا بالتذكار .

فضغطت ابنة الدوق على يده ، بينما تابع كلامه إني بعد سفرك كنت أعد الأيام ، ثم لما علمت بعزمك على الرجوع صرت أعد الساعات ، ثم لما وردني كتابك اليوم أصبحت الدقائق عندي أعواماً . فمـــا أتعب الحب وما أهناه .

– مهما كان من جزعك فانت لم تبلغ به بعض ما كان ، وذلك لأنه كانت تردك رسائلي في كل بريد فتعلم كل أخباري ، أما أنا فلم يردني شيء منك ، وكنت في أشد حالة من الجزع لانقطاع أخبارك حتى كنت أتمادى في ظنـوني عندما كنت أناجيـك في خلواتي ، وأحسب أنـك قد نسيت عهـدي .

فقال روكامبول بلهجة العاتب : أهكذا تسيئين ظنك بمن يموت من أجلك وهو باسم الثغر ؟

وجرت بين العاشقين معاتبات حلوة ، إلى ان ختما على هـذا الحديث بقبلات الغرام . ثم تنهدت الفتاة وقالت : إني أتيت الى باريس وأنا أتقلب بين الخوف والرجاء وهما رجاء لقيـاك والخوف من ذلك الخطر الجديد الذي يتهددني .

فأجاب روكامبول بلهجة المتحمس اي خطر تخافين وانا بقربك ؟

– إنك أنقذتني من مخالب الدون جوزيف ، ولكنك لا تستطيع إنقاذي من إرادة أبي ، فإنه بعد ان سمح لي ان أختار الزوج الذي تميل اليه روحي ، كما كتبت لك رجع عن عهده . وهو الآن يرغب إلي ان أقترن بالدوق دي مايلي ، لأنه شديد التمسك بالألقاب ، والحرص على الاتصال بالأسرات القديمة .

فتنهد روكامبول وأجاب : لقد فهمت أيتها الحبيبة ، فإنه لا ينظر إلي بالعين التي ينظر بها الى الدوق دي مايلي ، فما أنا دوق وبيني وبينه تفاوت عظيم في مراتب الثروة .

– إني أهواك وكفاني بقلبك النقي ، ونفسك الطاهرة ثروة لا تنضب ومجداً لا يبارى .

فأجاب روكامبول ، وقد رأى ان الوقت قد أزف للتظاهر بالكرم والمروءة إصغي إلي يا سيدتي وافحصي في أعماق قلبك ، فلعلك لا تجدين فيه حب ولده حب الاعتراف بالجميل .

فأنكرت الفتاة قوله وقالت : أتجسر على هذا الظن ؟

– أجل ، فقد تكونين حسبت انك مقيدة بحبي لأني أنقذتك من رجل تكرهينه .. لا تنظري إلي هذه النظرات أيتها الحبيبة ، وكوني حكيمة عاقلة . فإذا كان أبوك يريد ان يزوجك بهذا الدوق النبيل ، فلا تخالفيه .

فذعرت الفتاة من كلامه وقالت : ما هذه القسوة ألا تعلم أني أهواك ؟

– إجتهدي ان تنسيني ، ايتها الحبيبة ، كما اني سأجتهد لاكراه قلبي على نسيانك .

فأخذت الفتاة يده على يديها وقالت . إني أهواك هوى لا ينسى فاحفظ عهدي كما أنا حافظة عهدك . ألا تعلم اني أقسمت يميناً على هواك ما حييت واني

لا أتزوج سواك .

ثم فاضت عيناها بالدموع . فركع روكامبول أمامها وأقسم لها مثل يمينها فجدد العاشقان العهود ، وأقسما على ان يهربا الى أقصى البلاد إذا لم يكن بد لهما من الافتراق .

وبعد ساعة خرج روكامبول وسار وهو مطرق الرأس ، يفكر بهذه السعادة الجديدة ، ولا ينظر إلى شيء مما حوله حتى بلغ إلى ضفة نهر السين وهو سائر الى منزله .

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، فانتبه لغناء بعض النوتية في قارب ثم نظر أمامه فرأى إمرأة عجوزاً تسير وهي تحمل مصباحاً ، فأخرج سيكارة من جيبه ودنا من تلك العجوز وسألها ان يولع سيكارة من مصباحها فلما سمعت العجوز صوته ورأت عينيه صاحت صيحة فرح قائلة ولدي روكامبول كيف عدت ومن أين أتيت ؟

فذعر روكامبول وعرف انها مدام فيبار . ثم أيقن أنها عرفته من صوته ومن عينيه ، فلم يجد سبيلاً للإنكار ولفق لها حكاية طويلة عن حاله ، ثم سألها عن حالها فأخبرته أنها لاتملك قوت ليلة ، وأنها تشتغل مع فانتير ولكنهما لم يرزقا شيئاً منذ أمد بعيد لشدة تيقظ الشرطة

فأجفل روكامبول من ذكر علائقها مع فانتير ، لا سيا وقد عرفته بهيئة المركيز ، فخاطبها : لا بأس عليك يا أماه ، فسأنقذك مما أنت فيه من العسر ! .

ثم أخرج من جيبه دينارين وقال : خذي الآن هذه النقود وسأزورك غداً فأنظر في أمرك .

وبينما كانت مدام فيبار تأخذ الدينارين مبتهجة بهما وتضعهما في جيبها قبض روكامبول على عنقها وضغط عليه ضغطاً شديداً ، فصاحت صيحة اختناق ثم سكتت فحسب انه قضى عليها ، وكان قريباً من ضفة النهر فحملها

بين يديه والقاها فيه ، ثم أسرع الخطى الى ان بلغ الى شارع فركب مركبة وانطلقت به مسرعة الى المنزل .

- ٣٠ -

في اليوم التالي لاجتماع روكامبول بابنة الدوق ، دخل زامبـــا على سيده الدوق دي مايلي ولفق له حديثاً خلاصته ان ابنة الدوق سالاندريا كانت تكره الدون جوزيف كرهاً عظيماً وانها كانت إذا ذكر لها الدوق دي مايلي يعبق وجهها إشارة الى انها تهواه . وقد أنهى هذه القصة الملفقة بقوله : ان الدوق قد وصل إلى باريس مع امرأته وابنته منذ أمس .

فسر الدوق سروراً عظيماً وقام من مكتبه فكتب الى الدوق سالاندريا الكتاب الآتي :

« سيدي الدوق

« إني أكتب اليك هذا الكتاب وفي يقيني ان الكونتس أرتوف قد كتبت اليك عن القربى التي تصل بيني وبينك وهو ما أرجو بعده ان تسمح لي بزيارتك لأوقفك على حقيقة هذا النسب الجديد »

« الدوق دي مايلي »

ثم أعطى هذا الكتاب لزامبا وقال له : أسرع به الى الدوق ، وائتني بالجواب .

فأخذه زامبا وانطلق به مسرعاً الى روكامبـــول في منزله السري . فأطلع عليه روكامبول وقال له : يجب ان تجري مع إبنة الدوق على ما علمتك ثم يجب ان تحرق ذاك الدفتر الذي أعطته باكارا للدوق دي مايلي فإنك تعلم أين خبأه سيدك .

ـ نعم ، فإنه وضعه في صندوق خشبي صغير ، يضعه عادة فوق طاولة الكتابة .

ـ إذن ، فاذهب الآن الى الدوق الأسباني بجوابه وارجع إلي لأخبرك ما يجب ان تصنع ولا تنس ابنة الدوق .

فذهب زامبا تاركاً روكامبول ينتظر عودته ، إلى منزل الدوق الأسباني . فطلب اليه خادم الغادة الأسبانية ان يستأذن له مولاته بمقابلتها ، ففعل وأذنت له فدخل ورأى عندها وصيفتها ، ونظر اليها نظرة فهمتها إبنة الدوق فصرفت الوصيفة. وعندها وقف زامبا أمامها موقف الخشوع والاحترام وقال : أتأذنين لمجرم ان يسألك العفو والرحمة ؟

ثم ركع أمامها فقالت مندهشة : أي ذنب ارتكبته ؟

ـ إني خنتك يا سيدتي .

ـ كيف تستطيع خيانتي وما أنت بخدمتي ؟

ـ ذاك اني كنت خادماً للدون جوزيف وقد جعلني رقيباً عليك لا تأنفي من النظر إلي يا سيدتي فإن الخيانة عظيمة ولكني كنت مخلصاً لمولاي وقد وجب له علي الخضوع .

ـ أراقبتني ؟

ـ أجل واذا سمحت لي سيدتي أخبرتها كيف كان ذلك .

ـ تكلم .

ـ إن الدون جوزيف كان يعلم انك لا تحبينه وانك لم ترض به خطيباً إلا امتثالاً لإرادة أبيك ، ثم انه كان يعلم او كان يظن بانك تهوين سواه فعهد إلي ان اراقب الطريق في جوار المنزل ، لأنه كان يعتقد انك قد تكوني تهوين الدوق دي مايلي .

فظهرت على وجه الفتاة علائم الاشمئزاز ، غير ان زامبا لم يكترث لذاك وأتم كلامه قائلاً .

- بينا كنت ليلة اراقب حسب عادتي رأيت رجلاً دخل من باب الحديقـة وقد قاده خادمك الى داخلها .

فغضبت وقالت : اسكت أيها الشقي كفى !

- التمس من سيدتي ان تسمع حديثي الى نهايته فقد تصفح عني متى علمت كل شيء وإني رأيت هذا الرجل فأقام ساعة وخرج منها يسبقه خادمك كما دخل .

فاصفر وجه الفتاة وقالت : أعرفت الرجل ؟

- كلا ولكنه لم يكن الدوق دي مايلي .

ولما رأى زامبا انها تنهدت تنهد الفرج تابع : فأخبرت الدون جوزيف في اليوم التالي بما شاهدت فقال : ما دام ذاك الرجل هو غير الدوق الذي أكرهه كرهاً لا يوصف فلا أخاف مزاحماً غير اني آمرك ان تراقبه وتعرفه غير ان الدون جوزيف قتل في اليوم الثاني ولكن .

ثم توقف عن الكلام فقالت · أتم حديثك .

- ولكني عرفت الرجل الذي قتل سيدي وسأنتقم منه شر انتقام .

فاصفر وجه الفتاة وخشيت ان يكون واقفاً على حقيقة السر فقالت من هو القاتل ؟

- هو الدوق دي مايلي يا سيدتي .

فكادت الفتاة تقول له : كلا ليس هو القاتل !

ولكنها خشيت عاقبة هذا الانكار وان يعلم هذا الخادم انها واقفة على سر القتل ، فاطرقت برأسها الى الأرض وسكتت فقال زامبـا : اني حين أيقنت ان الدوق قتـل سيدي أقسمت ان أنتقم منه ولذا ترينني جاثياً على ركبتي أمامك .

فذهلت وقالت إنك لم تخدعني في شيء ايها الرجل ، فانك خدمت سيدك ولا أعلم عن أي خطأ تريد مني ان أصفح عنك

– سيدتي اني تجاسرت على تزوير كتاب توصية لي الى الدوق دي مايلى كي أتمكن من الدخول في خدمته .

-- أقبل ان يستخدمك ؟

– أجل وانا الآن خادم غرفته .

فاشمأزت وحاولت ان تطرده ولكنها فكرت ان ذاك الرجل مضطلع على بعض سرها وانه رأى رجلاً يدخل اليها من الحديقة فسكتت هنيهة دون ان تجيبه بشيء ، ثم قالت : حسناً اني لا أنكر ذاك الكتاب إنما قل لي ماذا تريد ان تصنع بالدوق ؟

– أريد ان أنتقم منه وأمنعه عن القران بك .

فوجف فؤادها وقالت : العله لا يزال يفتكر بي؟

– بل انه لا يشغله شاغل عنك ولا يحلم إلا بقرانك ، وإذا أذنت لي يا سيدتي ان أتمادى بالكلام أظهرت لك من دناءة هذا الرجل ما ينفر منه كل طبع شريف .

– قل .

– إن الكونتس ارتوف وذاك الدوق قد اتفقا من ثمانية أيام على طريقة تسهل للدوق أسباب الزواج بك . وذلك قبل نكبة الكونتس الأخيرة .

– أية نكبة تعني ؟

– الحق انت لا تعلمين شيئاً لأنك كنت مسافرة ، وحكاية هذه النكبة ان زوجها علم بأنها تخونه مع شاب يدعى رولاند دي كايلت فاتفقا على المبارزة واشتهرت الفضيحة في جميع باريس ، غير ان المبارزة لم تحدث لأن الكونت ارتوف أصيب بالجنون في ساحة القتال .

فأجفلت الفتاة لأنها كانت تعتقد ان باكارا مثال الصلاح وقالت : ما ذاك الأمر الهائل ؟

– إصغي إلي يا سيدتي فستعلمين من احوالها ما هو أشد منه . فان هذه المرأة كانت مرتبطة اشد الإرتباط مع الدوق دي مابلي كما يظهر ، وقد أتت الى منزله من ثمانية أيام ، وكنت أنا في الغرفة المجاورة للغرفة التي كانت فيها مع الدوق بحيث سمعت بعض حديثها ، فانها حين دخلت جلست قربه دون كلفة وقالت له لقد خطر لي اليوم خاطر عجيب وهو ان أجملك دوقاً اسبانياً

– لقد حاولت هذا الأمر مدة فلم تنجحي .

– ذاك لأن الدون جوزيف كان في قيد الحياة . أما وقد زال هذا الحائل الآن ، فقد خطر لي خاطر غريب ، وهو ان أجملك من انسباء الدون سالاندريرا ، وذلك اني الفق حكاية سرية عائليـــة ، بلسان عمك المقيم في روسيا .

ثم اقتربت منه وجعلت تكلمه بصوت منخفض فلم أعد أسمع شيئاً .

فارتاعت ابنة الدوق لما سمعته من هذه الأسرار ، ولم تجب بشيء . فقال لها زامبا : إذا كنت تثقين بي يا سيـدتي ، فاني أفضح هذا الدوق أعظم فضيحة .

وعند ذلك دخلت الوصيفة وقالت لزامبا : إن سيدي الدوق يأذن لزامبا بالذهاب اليه .

فانحنى زامبا أمام ابنة الدوق وقال لها : ستريني مرة أخرى .

وذهب بكتاب مولاه الى الدوق ، فأخذ الدوق الكتاب منه وقرأه مراراً وهو يظهر العجب والاستغراب لانه لم يفهم شيئاً ، وبعد ذلك أرسل اليه الكتاب الآتي :

« سيدي الدوق

« لم يصلني كتاب من الكونتس ارتوف كما تقـول ، وقد يكون كتابها قد أرسل إلى أسبانيا ، ثم يعود إلي منها الى باريس ، وفي كل حال فاني

لا أعلم أي قرابة تعني . وأنا أنتظرك في منزلي للوقوف منك على هذه التفاصيل » .

« الدوق ساندريرا »

فاخذ زامبا هذا الكتاب وانطلق به الى روكامبول الذي كان ينتظره فلما قرأه قال له . هل كان الدوق دي مايلي لابساً ثيابه حينما تركته ؟

– كلا ، بل كان بلباس النوم .

– أين يضع مفاتيحه عادة ؟

– على مائدة الكتابة

– اذهب إذن وأعطه هذا الكتاب واغتنم فرصة انشغاله بتلاوته ولبس ثيابه فأسرق المفاتيح حتى إذا شاء أن يأخذ الدفتر لا يجد مفتاح الصندوق الموجود فيه فيذهب إلى الدوق ويعده باطلاعه عليه وبعد ذهابه تحرق الدفتر والصندوق ثم تضع النار في جميع أثاث غرفته وتخرج فتصيح النار كي لا يشكك بك ويعلم ان احتراق الدفتر كان قضاء وقدراً .

– فهمت كل شيء وسأمتثل لكل ما تريد ، ثم تركه وانصرف مسرعاً بالرسالة إلى مولاه .

وكان الدوق دي مايلي ينتظر زامبا بفارغ الصبر فلما عاد اليه بكتاب الدوق اضطرب وقال : أسرع باعداد ملابسي وقل للسائق يعد المركبة ثم دخل إلى غرفته فلبس ثيابه بسرعة ، فسرق زامبا المفاتيح في خلال ذلك غير أن الدوق لم يفطن للمفاتيح والدفتر بل ركب مركبته وأمر السائق أن يسرع به إلى منزل الدوق الأسباني فخلا الجو لزامبا وأخذ صندوق مولاه فسرق ما فيه من الأوراق المالية وأخذ الدفتر فألقاه في المستوقد وأضرم النار في الصندوق وفي ستائر الغرفة وأثاثها ثم أقفل باب الغرفة وخرج إلى حيث كان يقيم الخدم فجعل يحادثهم مطمئناً نحو ربع ساعة إلى أن تصاعد الدخان وعلموا باحتراق غرفة الدوق فأسرع بعضهم الى اطفائها وهرع آخرون لاخبار رجال المطافيء

وفي مقدمتهم زامبا .

أما الدوق دي مايلي فانه لما وصل الى منزل الدوق الأسباني استقبله خير استقبال فأخبره الدوق دي مايلي بجميع ما عرفنـاه من نسبه الجديد فأظهر الدوق الأسباني دهشاً عجيباً وسر سروراً عظيماً للنبأ، غير أنه بقي مشككاً لعدم وجود أثر له في أوراق فانتير فقال : اني أخشى أيها الدوق ان تكون منخدعاً وحبذا لو أطلعتني على كتاب قريبك الروسي .

ان ذلك سهل ميسور فان الكتاب في منزلي ، ثم استأذنه وخرج لاحضار الدفتر فلم يطل غيابه وعاد مصفر الوجه وعلائم الاضطراب الشديد بادية عليه فذعر الشيخ لهيئته وقال : ما أصابك ؟

– ذهبت الى منزلي لاحضار الدفتر فرأيت النـــار ملتهبة فيه ورجال المضخات يشتغلون باطفائه فلم يحترق منه غير تلك الغرفة التي وضعت فيهـا ذلك الدفتر .

وكان الصدق باديـاً في لهجته فطيب الدوق خاطره وقـال : لا بأس من احتراق الدفتر فان عمك الروسي لا يزال على قيد الحيـــاة وهو سيرسل اليك سواه

– بل اني انتظر منه ما هو خير من ذلك أي الأوراق المثبتة هذا النسب ويسوءني ان الرسول قد أبطأ فقد كان ينبغي ان يكون هنا منذ يومين .

– لا بد له ان يحضر فأقام عنده ساعة وكانت الفتاة حاضرة اجتماعهما فلما انصرف ودعه الدوق الاسباني الى الخارج وقال له: متى وردت هذه الأوراق أسرع وأخبرني بها .

ولما خلا الدوق بابنته أخبرها بحديث الدوق وقال لها : إذا ثبتت هذه الأوراق كنت من أسعد البشر وكنت امرأة ذاك الدوق

فظهر النفور منها وأوشكت ان تبوح بما حدثها به زامبا ، غير انه دخلت إحدى الزائرات فكفتها مؤونة الإباحة لأنها أخبرت الدوق الاسباني وامرأته

بحكاية باكار وجنون الكونت ارتوف .

فأجفل الدوق للحكاية الغريبة وبدأ الظن بالدوق دي مايلي وحسب لعلاقته مع باكارا الف حساب

أما إبنة الدوق فانها دعت اليها روكامبول وأخبرته بجميع ما جرى وحكت له حكاية زامبا فطيب خاطرها وقال : إذا كان ما قاله زامبا صحيحاً فلا بد لي من إظهار خداع ذاك الدوق .

٣١ -

ولنعد الآن الى فانتير الذي أرسله روكامبول لسرقة كتاب باكارا الى الدوق من البريد الأسباني . فانه بعد ان تمكن من سرقة ذاك الكتاب وعاد به الى باريس جعل يفكر بأمره ويقول في نفسه إن روكامبول لا يدفع عشرة آلاف فرنك في سبيل الحصول على ذاك الكتاب إلا إذا كان يتضمن سراً عظيماً يعود عليه بفائدة تساوي أضعاف هذه القيمة .

فخطر له ان يفتحه وهو في المحطة ولكنه ذكر أندريا فوجف فؤاده من الخوف وجعل يتردد في أمر فتحه وهو سائر الى منزله حتى بلغ اليه ودخل الى غرفته فدهش لأنه رأى إمرأة ممددة في سريره .

فلما شعرت المرأة بوقع اقدامه انتبهت جالسة في السرير فصاح فانتير مندهشاً مدام فيبار ، كيف أنت نائمة في سريري ومن أين أتيت ؟

– أني آتية من نهر السين ، وقد قمت من بين الأموات ، أن روكامبول ذاك الشقي الخائن الذي ربيته وأحسنت اليه احسان الأمهات قد ألقاني في النهر وهو يحسب انه اماتني خنقاً ، فلما سقطت فيه اسرع إلي بحارة كانوا يصيدون في قارب فانقذوني فكتمت أمر روكامبول وجئت أختبيء في دارك

كي لا يشك في موتي لأني أريد أن أضربه الضربة القاضية .

انت تقولين ما لا تفعلين ، فإنك لا تلبثين أن تريه حتى يعاودك الحنـو وتنسي جميع إساءته اليك .

– كلا ، فلقد ذهب كل حنو من قلبي بعد ما لقيته من خيانته لا سيما وانه حسن الحال ، فقد رأيته متختماً بالماس ، وعليه دلائـل الثروة الواسعة ، لا شك انه مقدم على أمر عظيم ، وقد خشي مني حين رآني عرفته .

- أحادثته ؟

- بلى ، فلقد ذكر لي انه عاد بثروة واسعة من لونـدرا ، وان أندريا قد مات .

فقاطعها فانتير ، وقد بدت على وجهه ملامح السرور وسألها : أقال لك أن أندريا مات ؟

- نعم

فأطرق فانتير هنيهة ثم قال · لا بأس فسنجد طريقة للانتقام منه ، والآن فاطمئني لأن لدينا ما ننفق مدة طويلة وخذي الآن فاشتري لنا ما نأكله فإني أكاد أموت جوعاً

ولما خلا المكان بفانتير قال في نفسه · إن أندريا قد مات وروكامبول لا أخافه فلأفتح هذا الكتاب فقد يكون لي منه خير جزيل .

ثم فتح الكتاب وقرأ فيه جميع ما كتبتـه باكارا الى الدوق الأسباني ، ففكر في نفسه : يظهر أن باكارا تريـد تزويج الدوق دي مايلي بابنة الدوق سالاندريرا ، وان روكامبول يريد منع هذا الزواج بدليل اهتمامـــه بسرقة الكتاب ، وانه لا شك باذل جهده بالحصول على الأوراق التي تثبت حقيقة نسب الدوق دي مايلي وقرابته من الدوق الأسباني . ولا يبعد أن يكون روكامبول قد تقمص كونتاً او مركيزاً وانه يريد الزواج بابنة هذا الدوق . إذن فان الحرب ستكون شديدة بين باكارا وروكامبول . أما انا وقد وقفت

على هذا السر فإلى أي الفريقين أنضم ... لنبدأ بروكامبول فـإني لو ختمت هذا الكتاب وعدت به اليه ، فانه لا يعطيني إلا بقية العشرة آلاف فرنك هذا إذا لم ينتبه الى اني فتحت الكتاب ، واذا انتبه فلا يعدم وسيلة يتمكن بها من قتلي بعد ان يعرف اني اطلعت على سره

وأما باكارا فانها قد تكون جاهلة عودة روكامبول وانه يحاول الانتقام منها فاذا انضممت اليها وأطلعتها على السر فقد أكسب منها ثروة تغنيني عن هذه الأعمال الشائنة .

ولما رأى ان كفة باكارا قد رجحت وضع الكتاب في جيبه وعند ذلك عادت مدام فيبار فأكل معها وتركها على ان يعود قريباً ثم ذهب تواً الى منزل الكونت ارتوف ، وسأل بواب المنزل عنه فعلم فانتير منه نكبة باكارا وجنون الكونت وقنط قنوطاً شديداً لذهاب آماله أدراج الرياح وفكر في نفسه : لا بد ان يكون لروكامبول يد في جنون الكونت وحادث باكارا .

ثم قال في نفسه بعد الامعان الشديد: إنه إذا كانت باكارا مسافرة فخير لي ان أرى الدوق دي مايلي نفسه وأطلعه على ذلك السر .

ولكنه رجع عن هذا العزم وقال : إني أنفقت العمر وأنا أشتغل لغيري فلأشتغل الآن لنفسي لأن هذا الدوق قد يعلم مني السر ثم ينفحني بقليل من النقود لا يسد عوزاً ولا يغني من فقر .

وعند ذلك دخل الى قهوة في الشارع الذي كان فيه ، وخطر له أن يبدأ بالكون أمام منزل الدوق سالاندريا كي يعلم إذا كان روكامبول يزوره ثم أخذ جريدة وجعل يقرأ فيها فأصاب نظره إعلاناً مفاده ان الدوق دي مايلي يحتاج الى سائق إنكليزي لمركبته ، فصفق بيديه سروراً وقال : هوذا الصدفة قد بدأت تخدمني ، فاني أعرف اللغة الانكليزية كأبنائها وقد احترفت هذه المهنة عشرة أعوام . فلأذهب الآن الى الدوق وربما قدت يوماً

ونهض في الحال وذهب الى الدوق مايلي ، بعد ان تنكر وتقلد الانكليز ، فعرض عليه خدمته وقبله على سبيل التجربة فنزل فانتير الى الاصطبل يفحص الجياد وذهب الدوق في زيارته الخصوصية .

وبعد ذلك دخل زامبا غرفة مولاه وجلس فيها يتأول بما صار اليه أمره وفيما هو على ذلك إذ دخل عليه أحد خدم المنزل فقال له : يوجد رجل على الباب يريد ان يراك .

– من هو ذاك الرجل ؟

– لا أعلم !

ثم وصفه له ، فعلم زامبا أنه سيده الحقيقي أي روكامبول وأمر الغلام ان يدخله في الحال فجاء به الغلام وانصرف .

فلما خلا روكامبول بزامبا قال له : إني جئتك لأمرين خطيرين عندي أحدهما أن تطرد السائس من الاصطبل ، وتعين السائس الجديد الذي سأرسله اليك .

– هذا سهل . فما أمرك الآخر ؟

– الثاني هو أن تستلفت أنظار الدوق حينما يعود الى هذا الفصل المنشور بهذه الجريدة .

ثم أعطاه الجريدة فأخذها زامبا وأجاب : وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك تنظر ما يكون من أمر الدوق بعد تلاوته هذا الفصل وتأتي إلي فتخبرني بجميع ما يحدث

ثم تركه وانصرف فشيعه زامبا بملء الاحترام إلى الباب الخارجي .

وبعد هنيهة عاد الدوق فلقي زامبا وبيده الجريدة فسأله : ما هذه الجريدة التي بيدك ؟

فتظاهر زامبا بالاضطراب وأجاب : قد اشتريتها لك يا سيدي

خاصة ، لأنها تتضمن مقالة عن تفصيل مقتل رجل في غابة سنارت ، بين ميلين وباريس .

- ولماذا يهمني هذا القتل ؟

- ذلك لأني أخشى ان يكون ذاك الرجل المقتول نفس الرسول الذي ينتظره مولاي الدوق من روسيا .

فاضطرب الدوق اضطراباً شديداً ، وأخذ الجريدة وجعل يقرأ المقالة بملء الاهتمام .

وكانت خلاصة تلك المقالة ان هذا الرجل قتل بخنجر وان جثته عرضت في ليو سانت فلم يعرفها أحد وأنه يوجد في صدره وعلى يديه وشم وانه كان قادماً من روسيا ، ولكنه لا يوجد في جيوبه من النقود مما يظهر على ان اللصوص قتلوه .

فلما أتم الدوق تلاوتها تأمل برهة ثم قام الى مائدة الكتابة فكتب الى الدوق الأسباني ما يأتي :

« لا أعلم كيف أحاطت المصائب بهذه الأوراق التي أنتظر ورودها من أودسا لأني حين عدت الى منزلي قرأت في جريدة الحاكم ان رجلاً قتل في غابة سنارت ، وأخشى ان يكون رسولي . ولذا فاني مسافر الى ليو سانت حيث تعرض الجثة الآن . وأرجو في كل حال ، أن أعثر على هذه الأوراق وأرسلها اليك غداً صباحاً ، لأني مسافر وأعود دون أن أتوقف » .

ثم ختم الرسالة وأعطاها لزامبا قائلاً : اذهب بهذه الرسالة الى الدوق .

ثم ركب جواداً من الاصطبل وانطلق يعدو به الى روكامبول .

أما فانتير فانه صعد الى الدوق فرآه على اشد حالة من الاضطراب وبيده جريدة الحاكم فحفظ اسم الجريدة ووقف ينتظر أمر مولاه فقال له الدوق : تأهب للسفر في الحال الى ليو سانت .

فامتثل فانتير وخرج فأمر السائس ان يعد المركبة ، وأسرع إلى بائع جرائد بالقرب من القصر فاشترى منه تلك الجريدة وقرأ فيها تلك المقالة فقال في نفسه: إن يد روكامبول منغمسة فيهذا الدم المسفوك دون شك وهو الفصل الثاني من الرواية لأني انا مثلت الفصل الأول بسرقة الكتاب وهو مثل الفصل الثاني بسرقة الأوراق

وبعد هنيهة أقبل الدوق وكانت المركبة قد أعدت فركب بها وأمر السائق ان يسير حتى إذا مر بمنزل الكونت ارتوف أوقفه ودعا البواب اليه وسأله: أعرفت الرسول الذي بعثه الكونتس الى روسيا ؟

ـ أجل وهو لم يعد الى الآن .

ـ أتعرفه جيداً ؟

ـ أجل إني أعرفه منذ عشرة أعوام وأنا أدخلته في خدمة الكونت .

ـ أرأيت صدره عارياً في مدة عشرتك له ؟

ـ أجل رأيته مرات كثيرة وفيه كثير من الوشوم وعلى جنبه الأيسر وشم آخر يمثل رجلاً عارياً الى وسطه وهو يحمل مدفعاً بيديه .

فاكتفى الدوق بما سمع وأمر فانتير ان يواصل السير فما زال يسير حتى وصل الى ليو سانت بعد منتصف الليل فدخل إلى فندق وسأل صاحبه عن الجريمة التي حدثت وعن المكان الذي عرضت فيه الجثة فذهب به يدله عليها وذهب فانتير في أثرهما .

فلما رآها الدوق وفحصها رأى ذلك الوشم الذي أخبره بـه بواب منزل الكونت أرتوف ، فأيقن انه رسوله ووقف وقفة الحائر المضطرب وهو لا يعلم إذا كان هذا القتل بسبب الأوراق أم انه كان من قبيل الاتفاق ، غير ان فانتير لم يدع له وقتاً لإطالة التمعن فانه ما أوشك ان نظر الجرح حتى عرف الخنجر فدنا من الدوق وقال له بالانكليزية : لقد عرفت الجرح وعرفت السلاح .

فارتعش الدوق وحاول ان يسأله غير ان فانتير أوقفه باشارة وخاطبه بصوت

منخفض : لا تقل كلمة أمام هؤلاء الحراس .

ثم خرج الدوق وفانتير فقال فانتير : لم يعد لنا شغل في المكان فلنعد إلى باريس ، فأجفل الدوق من لهجة فانتير إذ كان يكلمه بدون كلفـة ونظر اليه نظرة المستغرب ، فقال فانتير : لا يستاء مولاي اني اكلمه بهذه اللهجـة واذا أذن لي ان اكلمه بحرية واراد ان ينسى هنيهة اني سائق مركبته انه لا يندم عما فعل .

ـ إذن تكلم .

ـ ليس هنا يا سيدي فان الحديث يطول ، فزادت دهشة الدوق ومشى أمامه إلى المركبة .

ركب فانتير بازائه وسارت بهما المركبة يقودها الدوق فبدأ فانتير الحديث وتكلم باللغة الفرنسية ، قال :

ـ لم يمض علي ليلة في خدمتك بعد ومع ذلك إنني أعرف نصف سرك واول ما ابدأ به هو انك عاشق لابنة الدوق سالاندريا .

فقال له الدوق بعظمة : ماذا تقول ؟

ليعلم مولاي اننا نسير في ظلام ليل دامس فاذا كلمني دون كلفة فلا يجد من يواخذه إذ لا يجد من يراه ولو سمح لي ان اتكلم لشرحت له حقيقـة موقفه وربما فرجت ازمته الحاضرة

ـ قل ما تشاء .

قلت لك يا سيدي انك تعشق الغادة الاسبانية .

ـ هذا اكيد .

ـ وان الكونتس أرتوف التي كانت تدعى من قبل باكارا خطبتها لك فرفض أبوها .

ـ وهذا أكيد أيضاً

ولكن باكارا عرفت بعد ذلك قريباً لك في روسيا فعرفت منـه انه

يوجد قربى بينك وبين الدوق سالاندريا .

فزاد انذهال الدوق وقال : كيف عرفت جميع هذا ؟

من الكتاب الذي ارسلته باكارا إلى الدوق الأسباني فوصل إلي قبل ان يصل اليه وهو لا يزال معي

فذعر الدوق وقال : كيف هذا ومن أنت أيها الرجل ؟

اني يا سيدي ذاك الرجل الذي سينقذك من خطر عظيم فعندك أعداء لا تعرفهم جعلوا اقصى مرادهم ان يحولوا دون زواجك بابنة الدوق .

ـ من هم أعدائي ؟

ـ ستعرفهم بعد حين وارجو أن تكتفي الآن بان تعلم بانهم هم الذين سرقوا كتاب باكارا وهم الذين قتلوا الرسول القادم من روسيا وسلبوه الأوراق .

فغضب الدوق وقال: أتعرف هؤلاء الأسافل وتشاركهم في سرقة الكتاب ثم تدخل في خدمتي ؟

ـ اني ما دخلت في خدمتك وما تنكرت بهذا الزي الذي تراني فيه إلا لأفضح أمرهم انهم أشداء يجب معهم الحرص الشديد .

ـ وأية غاية لك من فضيحتهم بعد ان كنت في عدادهم ؟

ـ لا غاية لي غير أن أحصل منك على مكافأة تغنيني في مستقبل أيامي عن مثل هذه الأعمال الشائنة وأعلم يا سيدي انك الآن لا تعلم سوى أن لك اعداء ولكنك لا تعرف شيئاً من امرهم ولا تدري كيف تتقيهم فاذا كنت لا أخلص في خدمتك فانك لا تتزوج ابنة الدوق على انك إذا عملت بما أقوله لك واتبعت مشورتي فلا بد لك من الزواج .

ـ قل ما تريد ان يكون جزاؤك

ـ قبل أن أعين المال اسأل مولاي أن يتعهد لي بابقائي في خدمته سائقاً لمركباته وأن لا يعلم أحد من الناس بما يدور بيني وبينك وان تتبع مشوراتي وان لا تسألني أقل سؤال عما أجريه .

ـ اني أتعهد لك بجميع ذلك

ـ إذن فلنبحث بأمر الجزاء ، اعلم يا مولاي أني كهل قد ناهزت الخمسين وقد فطرت على الكسل بحيث لا استطيع احتمال تعب الأعمال فأنا أطلب من مولاي إيراداً سنوياً قدره ٢٦ الف فرنك

ـ أي أنك تريد خمسمائة الف فرنك .

ـ هو ذاك يا سيدي غير أني لا أقبض منك فرنكاً قبل ليلة زفافك ، فاذا بلغت مرادك من هذا الزواج دفعت لي هذا المال وإلا فاني لا اطالبك بشيء .

ـ لكن ما تريد على شرط أن ترجع لي الأورق المسروقة .

ـ سأجدها .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ليذكر مولاي ما تعهد به فاذا كان يريد أن يصل إلى نتيجته المطلوبة فلا يسألني عن شيء .

ـ ليكن ما تريد ولكني اسألك مسألة واحـــدة فقط وهو أيطول الزمن الذي تجد فيه هذه الأوراق ؟

ـ لا أستطيع أن أعين الزمن غير انه لا يقل عن اسبوع .

وهنا انقطع الحديث إلى أن بلغت المركبة إلى مكان تظهر منه مياه نهر المارن على أشعة القمر فقال فانتير : أنظر إلى هذا النهر يا سيدي فان أحد أعدائك القي فيه ضمن كيس منذ خمسة أعوام ولكنه مزق الكيس بخنجره قبل أن يبلغ إلى العمق وتمكن من النجاة ومثل هؤلاء الأعداء الأشداء ينبغي معهم كل حذر فاني ما أقدمت على مقاومتهم والانضمام اليك وإلا وأنا مخاطر بحياتي أشد الأخطار .

ولما وصلت مركبة الدوق إلى منزله كان جميع من في القصر نياماً ، فدخل فانتير إلى الأصطبل بعد أن قال للدوق أحذر من جميع من في منزلك .

أأحذر من زامبا أيضاً ؟

- منه على الأخص فان جميع ما أراه منه يحملني على الريبة به .

فتركه الدوق وصعد إلى غرفته فرأى على مائدته كتاباً عرف أنه من الدوق الاسباني ففضه للحال وتلا فيه ما يأتي :

« سيدي الدوق

« اضطررت إلى السفر سفراً فجائياً مع عائلتي بضعة أيام وأنه قد عرض لنا من الحوادث التي لا يسعني ذكرها ما يدعوني إلى الرجوع عن ذلك الاتحاد الذي نوينا على اجرائه أرجوك أن لا تلح علي بعد في هذا الشأن وأن تقبل احترامي »

(الدوق سالاندريرا)

وقد دعا الدوق الأسباني إلى قطع علائقه مع الدوق مابلي ما رآه من كذبه في انبائه فقد أخبره أن باكارا أرسلت اليه كتاباً فلم يصل الكتاب وأخبره أن عمه أرسل له دفتراً حكى له فيه قصة اتصاله بعائلة سالاندريرا فلما طلب اليه الاطلاع على هذا الدفتر قال له . انه أحترق ، وأخبره أخيراً أنه أرسل رسولاً إلى روسيا ليحضر له الأوراق التي تثبت نسبه ، ثم قال : أن الرسول قتل فدعت جميع هذه الأسباب مع ما عرفه أخيراً من خيانة باكارا وأنها كانت في سابق عهدها من بنات الهوى إلى أن يرسل الدوق الأسباني هذا الكتاب إلى الدوق مابلي ، أما ما أشار اليه في كتابه من أمر السفر وهو أنه عازم على شراء أرض في ضواحي باريس من فابيان صهر روكامبول فهو حقيقي .

فلما اطلع الدوق مابلي على هذا الكتاب ورأى أن قطع العلاقة ظاهرة

فيه لا يحتمل الشك سقط الكتاب من يده لفرط تأثره ولكنه ما لبث أن عاد اليه الأمل بفانتير ، فأخذ الكتاب ونزل إلى حيث كان فانتير ، فأشار اليه أن يدنو منه .

ثم لما خرجا من الأصطبل ناوله الكتاب دون أن ينبس بكلمة فأخذه فانتير وقرأه ثم جعل يتأمل الغلاف والختم بامعان وقال . لا بأس فلا بد أن تحين الساعة تعرف فيها الحقيقة ، ولكني أرجوك أن تخبرني عن الذي أحضر لك هذا الكتاب .

- زامبا دون شك .

- إذن اعلم ان هذا الرجل يخونك إن الكتاب قد فتح قبل أن يصل اليك وهي حقيقة لا تخفى على من كان مثلي من أرباب المهنة ولكنها تخفى عليك .

فاجفل الدوق وقال : أترى لأجل من يخونني ؟

- لا أعلم ولكني أرجح انه يخدم أعداءك الذين سرقوا كتاب باكارا وقتلوا الرسول لأن أعداءك لا يمكن أن يعلموا بكتاب باكارا وبأنك تنتظر الرسول من روسيا إلا من رجالك .

- لقد أصبت ، ثم خطر له في الحال إحراق غرفته وإحراق الدفتر فيها فأيقن أن زامبا يخونه وقال : لا بد لي من طرد هذا الخائن وعقابه .

- كلا ، بل يجب أن تبقيه .

- كيف أبقي هذا الخائن في منزلي بعد ثبوت خيانته ؟

- نعم ، ولو عشت مثلي بين اولئك الأشرار لعلمت الفائدة التي يمكن نيلها من عدو مستتر وهو يحسب انك واثق به .

- إذن افعل ما تريد .

- بل أنت افعل ما اقوله لك ، اصعد الآن إلى غرفتك وأجلس في سريرك وعندما يدخل زامبا أظهر امامه انك بأشد حالة من اليأس وأنا اتكفل بالباقي .

ألا أكتب للدوق الاسباني ؟

- كلا .

- لكنه يسافر .

ليسافر .

فاضطرب الدوق وقال : إني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .

ـ لا ينبغي ان تفهم فإني قد وضعت خطتي وليعلم مولاي أن نفعي لا يكون إلا بزواجه

فرجعت ثقته بفانتير وأجاب : لقد أصبت . إفعل ما تشاء .

ثم تركه وانصرف فانتير لينام .

* * *

وفي الساعة نفسها التي أحضر فيها زامبا كتاب الدوق الأسبـــاني الى الدوق دي مايلي المتضمن لقطع العلائق ، كان روكامبول جالساً أمام استاذه أندريا يخبره بشأن الكتاب وبعزم الدوق الأسباني على السفر ، فقال له اندريا بلوحه الحجري : لقد أحبطت مساعي الدوق ، ولكنك لم تخبرني شيئاً عن فانتير ، ألم يعد بعد ؟

ـ كلا فإن غيابه يشغل بالي

ففكر أندريا هنيهة ثم تابع : إن هذا الرجل قد خاننا كما خاننا من قبل ، ولكنه لا يستطيع أن يستفيـد بشيء من الكتاب لأن باكارا سافرت ، على أنني أخشى ان يتصل إلى غيرها . وفي كل حال فانه يجب أن نفرغ من أمر الدوق دي مايلي

فارتعش روكامبــول وقال له : ألا تقــول لي شيئاً عن خطتـك التي أنفذها كالآلة الصماء ؟ وماذا تبغي من إدخالي سائساً في اصطبـل الدوق دي مايلي ؟

- إني لا أقول لك شيئاً لأنك لا تزال على غرور الصبى ولم تمرنك التجارب

بعد ، إكتف بتنفيذ أوامري .

ـ ليكن ما تريد . فماذ أفعل غداً ؟

ـ تتناول أولاً الطعام مع أختك وصهرك .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تذهب وتتنزه .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تتوجه الى النادي وتسلي نفسك بالمقامرة .

ـ أراك تهزأ بي !

ـ هو ما تقول . ولكن بعد ان تعود من النادي وقبل ان تذهب لوداع إبنة الدوق تعال إلي لأخبرك لماذا يحتاج الدوق دي مايلي الى سائس مثلك في إصطبله .

فانصرف روكامبول ففعل كما أوصاه . وفي اليوم التالي عاد اليه وسأله : اني فعلت جميع ما أوصيتني به ، فهل تقول لي الآن لماذا يحتاج الدوق الى سائس ؟

ـ أجل ، فهل سمعت بهذا المرض الذي يسمونه « الجمرة الفارسية » ؟

ـ إنه مرض قتال يصيب الخيل والأبقار فيفتك بها .

ـ وهو إذا أصاب الناس قتلهم أيضاً .

- ٣٣ -

لقد تركنا الدوق جاعلاً كل اعتماده على فانتير في أزمته التي ضاق صبره عن احتمالها . أما فانتير فإنه لما أصبح وحده جعل ينظر في موقفه ويقول : إن اثنين يتنازعان على هذه الغادة الأسبانية وهما الدوق دي مايلي وروكامبول

ولكني لا أدري إذا كان روكامبول يشتغل لغيره او لنفسه . فقد تعود هذا الجسور ان يتقمص كل يوم في نفوس الكونتية والبارونات . وهنا السر ، إذا كان يشتغل لنفسه فأي مركيز هو الآن ؟ وماذا يدعى ؟ وكيف لي ان أعلم ذلك ؟ وإذا كان يشتغل لغيره فاني أبحث منذ يومين ولا أهتدي لشيء ، ولا يعلمون أن أحداً طلب ابنة الدوق غير الدوق دي مايلي . على أن مدام فيبار أخبرتني انها رأت روكامبول قادماً من الطريق المؤدية إلى منزل الدوق الأسباني وانه كان لابساً أفخر لباس ، إذن لا بد ان يكون قادماً من ذلك المنزل حين رأته وقد يتفق ان ابنة الدوق أحبته وأنه يكيد هذه المكائد من أجل زواجها ، وعلى ذلك لا بأس من ان أكمن له في تلك الطريق ليلتين او ثلاثاً لعلي اهتدي الى حل ذاك اللغز .

ثم قام لساعته فتنكر وذهب الى الشارع الذي كان فيه منزل الدوق فجعل يسير فيه ذهاباً وإياباً وهو يراقب الباب . ولبث في مكمنه الى منتصف الليل فرأى رجلاً قدم الى باب الحديقة ففتحه بمفتاح خاص ودخل وأقفله من ورائه فقال فانتير : لا أعلم إذا كان هذا الرجل روكامبول او سواه ولكنه عاشق ابنة الدوق دون شك وسنعلم من هو هذا المزاحم .

وبعد ساعة خرج الرجل نفسه كما دخل من باب الحديقة ، فرأى فانتير ان رجلاً شيعه إلى الباب فمد الرجل ، وكان روكامبول ، يده إلى جيبه وأخرج منها نقوداً فأعطاها للرجل الذي شيعه . فسمع فانتير ان الرجل شكره ودعاه بمركيز ، ثم أقفل الباب ومضى روكامبول في شأنه ذاهباً الى منزله السري فدخل اليه وأوقد شمعة فقال فانتير في نفسه : لقد عرفت الآن أين تسكن أيها المركيز وستري في أمرك . ثم صبر هنيهة الى ان أطفىء النور ، فحسب أنه دخل الى سريره لينام ، فذهب في شأنه . اما روكامبول فإنه اطفأ الشمعة وخرج من باب آخر يؤدي إلى شارع آخر غير الشارع الذي كان واقفاً فيه فانتير .

وفي اليوم التالي ذهب فانتير متنكراً بملابس الخدم الى منزل روكامبول السري وقال للبواب ، اين حضرة المركيز اني احمل كتاباً له ؟

—اي مركيز تعني ؟ فليس في هذا المنزل من يلقب هكذا

— اريد به ذلك الشاب الذي يسكن في الطابق الأول

— إنه يدعى المسيو فريدريك .

لا بأس فهو الذي اعنيه العله في منزله ؟

— كلا لقد سافر منذ ساعة وهو لا يعود إلا بعد ثلاثة ايام .

وكان فانتير يكلم البواب ويفحص المنزل ، فرأى ان له منفذين فترك البواب وهو يقول في نفسه : لا شك اني ابله ، لقد حسبت امس انه نام حين اطفأ الشمعة ولكنه خرج دون شك من الباب الآخر ، فان من يطمع بزواج ابنة الدوق سالاندريا لا يسكن مثل هذا البيت الحقير ، ولا يكون اسمه المسيو فريدريك .

* * *

ولنعد الى روكامبول فانه بعد ان امر زامبا ان يطرد السائس من اصطبل الدوق مابلي وبعد ان امتثل زامبا كما امر ، قدم روكامبول بزي سائس فأدخله زامبا في الخدمة بدلاً من السائس المعزول . فلما تقرر قبوله استأذن السائق وهو فانتير كي يذهب لإحضار ملابسه ، فأذن له ولم يعرف احدهما الآخر لمبالغتهما في التنكر .

اما روكامبول فانه ذهب الى منزله فغير زيه وانطلق الى اندريا فأخبره بما فعل ، وسأله تعليماته فقال له : ينبغي عليك الآن ان تذهب الى غرفتك فتأخذ دبوساً غليظاً وتضعه في علبة ثم تذهب في الصباح فتتنزه في جهة مونتفوكون .

فظن روكامبول انه يهزأ به فقطب جبينه وقال : ما علاقة الدبوس

وتنزهي في هذه الجهة بدخولي في صفة سائس في اصطبل الدوق ؟

- سوف تعلم فانك تذهب الى تلك الجهة التي يلقون فيها الخيول المصابة بالجمرة الفارسية ، ولا بد ان تلقى فيها جواداً اصيب حديثاً بهذا الداء فاذا عثرت به خذ الدبوس من العلبة وشكه ببطن الجواد ثم ارجعه الى العلبة واقفلها ، واحذر ان يكون في يدك اقل خدش حين تمس هذا الدبوس المغموس بدم الجواد .

فبرقت عينا روكامبول وقال : اظن اني علمت مرادك .

— كلا انك لا تعلم شيئاً فاسمع انك بعد ان تغمس الدبوس بدم الجواد المريض تذهب به الى منزل الدوق دي مايلي .

— أاشك به الدوق ؟

فهز اندريا رأسه هازئاً واجاب كلا بل تشك به بطن الجواد الذي يفضله الدوق على سائر جياده .

— لماذا تريد ان يسري ذاك المرض الى جواده دونه ؟

فغضب اندريا وقال له بلوحه الحجري : قلت لك مراراً لا تسألني عن شيء بل اكتفي بتنفيذ اوامري .

فأجاب روكامبول إني لا اصفح عنك لاحتقارك لي إلا اذا تزوجت إبنة الدوق .

— إنك لا تحرم زواجها إلا اذا قضي علي بموت فجائي ، والآن إذهب لم يعد لي ما اقوله لك .

فذهب روكامبول ممتثلاً الى تلك الجهة فلقي جواداً مصاباً بهذا الداء وغمس دبوسه بدمائه . ثم عاد مطمئناً فذهب الى النادي واقام فيه الى ان حان موعد اجتماعه بابنة الدوق فذهب اليها ، واخبرته انها مسافرة مع ابيها وامها الى قرية في جوار باريس وذلك ان اباها يريد شراء ارض في تلك الضواحي .

- لقد عرفت هذا فان الأرض ارض صهري ، وهو سيذهب معكم تصحبه اختي

فسرت سروراً عظيماً وسألت : إذن ستذهب معنا ؟

- كلا بل سأتبعكم بعد اربعة ايام كي يكون صهري واختي قـد رشحاني لخطبتك لدى أبيك وامك فقد علمت اختي بسرنا

ولبث العاشقان ساعة ثم افترقا ، وفيما كان روكامبول عائداً يسير على ضفة النهر إذ رأى كثيراً من الناس محتشدين في المكان الذي القى فيه مدام فيبار فأسرع الخطى واختلط بين المحتشدين فرأى ان فريقـاً من البحارة مجتمعـون حول فتاة أنقذوهـا من الغرق ، فسأل احدهم : ما شأن هذه الفتاة ؟

- لا ندري ؟ سوى ان هذا الأسبوع قد بات موسم الانتحار عنـد النساء . فاننا خلصنا الآن تلك الفتاة ومن ليلتين خلصنا إمرأة عجوزاً كانت مشرفة على الاختناق

فأجفل روكامبول، وسأله وكيف انتحرت تلك العجوزة ؟ ومـا هي صفاتها ؟

- لقد قـالت لنا انها انتحرت لفقرهـا ويأسها ، فجمعنا لها من النقود ما تيسر . ثم وصف له صفاتها فوجف قلب روكامبـول ، وأيقن انها مدام فيبار ، وقـال في نفسه : إني لم اجهز عليها حين خنقتها لثقتي انها ستموت غرقاً .

ثم اسرع الى اندريا وكان نائماً فأيقظه وأخبره بما سمع عن مدام فيبار فأطرق اندريا ملياً ثم قال : ألم تعلم شيئاً عن فانتير الى الآن ؟

- كلا وقد بت أخشى ان يلتقي بمدام فيبار وهي تعرفني إذا رأتني .

- لا بأس إنك سوف تجدها لأن الشارع الذي تقيم فيه غير متسع الأرجاء والآن قل لي اذهبت الى مونفوكون ؟

– نعم ..

– أغمست الدبوس بدماء الجواد المصاب ؟

– نعم .

– إذن فاذهب الآن ونم وعند الصباح إذهب الى اصطبل الدوق وشك دبوسك ببطن جواد الدوق .

وفي صباح اليوم التالي ذهب روكامبول بعد ان تنكر بزي سائس إلى اصطبل الدوق وفعل ما أمره به اندريا .

- ٣٤ -

في الساعة العاشرة من الليلة نفسها كان فانتير كامناً أمام منزل روكامبول السري وفي جيبه حلقة علق بها عدة مفاتيح مختلفة وبعض الآلات التي لا يستغني عنها اللصوص لفتح الأبواب ، ثم جعل يخطر ذهاباً وإياباً أمام ذلك المنزل يترقب غفلة بوابه للدخول اليه بعد أن أيقن ان روكامبول قد سافر منذ الصباح كما أخبره البواب الى ان دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فوثق ان روكامبول قد سافر حقيقة إذ لم يعد حسب عادته. واغتنم فرصة موافقة فدخل الى المنزل وفتح بابه بأحد المفاتيح التي كانت معه ودخل فرأى الظلام سائد ولا أثر لوجود أحد في البيت ، ولكنه قال في نفسه : لا بد ان يكون في هذا البيت خادم او طباخ .

فأخذ من جيبه شمعة فأشعلها وأخذ بيده الأخرى غدارة وجعل يمشي على رؤوس أصابعه فيفحص كل غرفة حتى تفقد جميع البيت وأيقن انه لا يوجد فيه أحد ، فأضاء مصباحاً نقالاً وجده في غرفة المائدة وأطفأ شمعته ثم قال في نفسه : لأبحث الآن عن هذه الأوراق التي تثبت نسب الدوق مايلي ، لا بد

أن يكون روكامبول قد خبأها في هذا المنزل .

وعاد يتفقد الغرف حتى بلغ الى غرفة المكتبة فلقي فيها صندوقاً ضخماً فعالجه حتى فتحه وبحث فيه فوجد كثيراً من النقود وأشياء مختلفة فلم يحفل بها ولكنه لم يجد أثراً للأوراق فشغل قلبه وجعل يفتش في جميع الخزائن دون ان يعثر على شيء حتى خطر له ان يفتش المكتبة وقال في نفسه : اني أعرف كثيرين من الذين يخبئون الأوراق المالية بين صفحات الكتب ولا يبعد ان يكون روكامبول فعل مثل ذلك .

فأخذ يفتش كل كتاب في المكتبة فيمسكه من طرفيه ويهزه فلا يسقط منه شيء . وفيما هو على ذلك إذ سمع صرير مفتاح في قفل الباب فأقفل المكتبة في الحال وأطفأ المصباح واختبأ وراء ستارة الغرفة ثم سمع وقع أقدام في الرواق ثم سمع احتكاك عود من الكبريت فاشعلت شمعة ودخل بها ذلك القادم الى المكتبة وهو يغني فعرف فانتير من صوته انه روكامبول وكان ينظر اليه من خلال الستارة وبيده الغدارة محشوة فحار في أمره لأن صوته يدل على انه روكامبول وهيئته لا تدل على شيء من ذلك إذ إنه كان متقمصاً بهيئة المركيز دي شمري .

أما روكامبول فانه وضع شمعته على المائدة وفتح المكتبة فأخرج منها كتاباً ضخماً أحمر الجلد ففتح أول ورقة منه فتفقدها ثم أعاد الكتاب الى محله فقال فانتير في نفسه : لقد فتشت الكتاب فلم أجد فيه شيئاً ولا بد ان تكون الأوراق فيه وقد تفقده ليطمئن على كنزه الثمين .

وبعد ان اطمأن روكامبول على الأوراق اطفأ الشمعة وخرج وهو يغني فلما سمع فانتير إقفال الباب صبر هنيهة الى ان تحقق بعد روكامبول ثم اضاء الشمعة وأخرج ذلك الكتاب وهزه فلم يسقط منه شيء فجعل يقلب صفحاته بيده صفحة صفحة ، حتى وصل الى الصفحة البيضاء في آخره فرأى انها ثخينة غير متناسبة مع اوراق الكتاب فرقص فؤاده من الفرح وأيقن ان الأوراق

مخبوءة بين ورقتين .

وعند ذلك أخرج مدية رقيقة الشفرة من جيبه وحاول ان يفصل بينها ولكنه خشي ان يخدشها وخطر له ان لا يبقي أثراً لسرقته فـــأسرع الى المطبخ وغلا الماء على النار حتى تصـــاعد بخاره فوضع ورقة الكتاب فوق البخار هنيهة حتى سال غراءه ففصل الورقتين وأخرج من بينهما تلك الأوراق المثبتة لنسب الدوق وهي شهادتان مكتوبتان على ورق رفيع فخفق قلبـه سروراً وهو يحسب انه ملك زمام السعادة وقرأهما حتى إذا أتم قراءتها وضعها في جيبه وأخذ ورقتين تناسبها من الورق الأبيض ووضعها بين صفحتي الكتاب بدلاً من الشهادتين ، ثم الصقهما بصمغ كان على الطاولة ، وأعـاد كل شيء إلى مكانه ، وخرج من ذلك المنزل بعد أن أطفأ النور وبلغ منه ما يريد .

وكانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل،فاسرع الى قصر الدوق كي يعطيه الشهادتين غير انه لم يستطع ان يراه لأنه كان نائماً فقال في نفســـه : لا بأس فسأعطيه إياها في الصباح .

ودخل الى الاصطبل ليتفقد الجيـــاد ، فرأى جواداً نائماً على الأرض والزبد يغطي شدقيـــه ، فنادى أحد البيطريين وقال له : مــاذا أصاب الجواد ؟

فأجاب : لا أعلم لأنه أصيب بعارض فجائي منذ خمس ساعـــات ، وهو يعض نفسه ولا يستقر عـــلى حالة وقد أتى الدوق بنفسه فتفقده عدة مرار .

فدنا فانتير منه ، وفحص الجواد فحصاً مدققاً ، دون أن يمسه بيده ، فعلم انه مصاب بالجمرة الفارسيـــة ، وقال : لا خير منه ولم يعد يصلح إلا للمجزرة

وكان روكامبول قد شك بطن هذا الجواد بالدبوس الحامل لمكروب هذا الداء ، كما ذكر القراء

* * *

لنعد الآن قليلاً الى ذكر ما حدث على اثر ذلك فانه بعد ان فعل روكامبول بهذا الجواد ما فعل قدم زامبا وأمر السائس أي روكامبول ان يسرج الدوق جواداً فأسرجه له في الحال الجواد المطعون ، فركبه الدوق وذهب ليتنزه وبعد ذلك دنا روكامبول من زامبا وقال: سر بي الى الغرفة التي يقيم فيها الدوق عادة لكتابة رسائله .

فامتثل زامبا وسار امامه حتى دخل اليها فرأى طاولة الكتابة وأمامها كرسي ضخم مجلل بالمخمل فقال : أيجلس على هذا الكرسي حين يعود ؟

— نعم ، وهي عادة مطردة له في كل يوم حين يعود من النزهة بهذا الجواد الذي حبه حباً عظيماً يدخل إلى هذه الغرفـــة فيجلس على هذه الكرسي ويكتب رسائله .

— أفي كل يوم يفعل هذا ؟

— هي قاعدة باتت مطردة لديه لم يتحول عنها منذ عرفته .

— حسناً ، ثم أخرج من جيبه علبـــة ملأى بالدبابيس وجعل يشكها في اطراف الكرسي من الجهات التي تسند اليها الأيـدي حتى فرغ ، ثم خرج مع زامبا وعادا إلى الأصطبل .

وعند الظهر عاد الدوق من نزهته وجلس على كرسيه يكتب رسائل ، فلما فرغ منها وضع يديه على طرفي الكرسي مستنداً عليها كي ينهض فشكت الدبابيس يديه فصاح صيحة ألم ثم نادى خادم غرفته زامبـا وقال له مغضباً : كان ينبغي أن تضع هذه الدبابيس في مكانها حين تفرغ من استعمالها لا أن تشكها في ساعدي الكرسي ، فاطرق زامبا متظاهراً بالخجل ورأى أن كف

الدوق قد خدش وجالت منه نقطة دم .

أما روكامبول بعد أن وثق من أن الدوق قد خدشت يده قال في نفسه : لم يعد لي ما أعمله في هذا المنزل الآن فلاذهب للتفتيش عن مدام فيبار وعن فانتير فانهما أصبحا خطراً علي ، ثم خرج وذهب إلى داره واقام فيه إلى أن أقبل الليل فسار إلى منزل مدام فيبار فلم يجدها، ثم ذهب إلى المنزل الذي يقيم فيه فانتير فطرق الباب كمن يستأذن في الدخول لأنه كان مفتوحاً من الداخل فسمع صوت مدام فيبار وهي في سريرها تقول ادخل ، فولج وأقفل الباب من الداخل ثم اسرع اليها وهي في سريرها وقبض على عنقها وهو يقول :

– أنا روكامبول فاحذري من أن تصيحي لأني لا أريد بك سوءاً بل اريد أن أتباحث معك ، فلم تستطع العجوز أن تقول كلمة لما تولاها من الرعب .

فقال روكامبول : قلت لك اني لا أريد بك سوءاً بل أريد لك كل خير ، فقد ندمت لما ظهر مني من قبل وذكرت ما لك علي من حق التربية فاتيت استغفر منك ، إذا كنت لا تريدين أن اسيء اليك إحذري من الصياح وإلا قتلتك في الحال .

فحلت عقدة لسانها وقالت : رحماك لا تقتلني .

فلطف روكامبول لهجته وقال . لا تخشي يا اماه وانظري إلي ألا تجدين بين عيني ما يدل على الندم وها أنا أرفع يدي عن عنقك ولكني أحمل بيدي هذا المسدس وأحذري من الصياح .

فهدأ روعها قليلاً وقالت : ماذا تريد مني بعد أن أردت قتلي والقيتني في النهر ؟

– انك تعلمين يا اماه اني احبك حباً صادقاً ولكنك حينما لقيتيني تلك الليلة ناديتني بصوت مرتفع وأنا الآن مركيز .

فصاحت العجوز منذهلة : كيف ذلك أتكون مركيزاً ثم تترك امك تعضها انياب الجوع بل تقتلها كي تتخلص منها ؟

- بالله يا اماه لا تذكري لي تلك الجريمة فقد بكيت كثيراً ولا ازال كلما ذكرتك أبكي ، ثم طوقها بذراعيه وجعل يقبلها .

فحن قلبها وقالت : إذن ندمت ؟

— كل الندم .

— وبكيت أيضاً ؟

فتهدج صوت روكامبول وقال وهو يجهش بالبكاء : نعم ولا ازال أبكي .

وكانت هذه العجوز التي عاشت بين الدمـــاء والجرائم لا يحن قلبها إلا لروكامبول ولا تحب سواه في الوجود لأنها ربته وهو في المهد وتبلته فغذته بلبانها ، فلما سمعت اقواله حملها حبها له على تصديقه وغلبها الحنو وبكت ، فقال لها روكامبول : إذن فقد صفحت عني ؟

فقبلته بدورها وقالت : كل الصفح . والآن قـل لي هل أنت حقيقة مركيز ؟

— نعم ، وفوق ذلك فإن ثروتي تعد بالملايين .

— أرجعت عن العيش السابق ؟

— وأي فائدة لي بعد من ارتكاب الموبقات وإني غني نبيل

— أتحبني دائماً ؟

- لولا ذلك لما أتيت اليك ، وسأهبك ثروة تعيشـــين بها أرغد عيش مدى الحياة .

- إذن إسمع إني سأحدثك بأمر هذا الخائن فانتير الذي يتعقبك ويحاول تسليمك للشرع .

ثم قصت عليه جميع ما عرفناه من أمر فانتير معها وكيف انه قدم منذ ثلاثة أيام ، وفض ختم كتاب كان معه ، وكيف انه عاهدهـا على الفتك بروكامبول .

وكان مما قالته له انه دخل سائقاً في منزل الدوق ، فاضطرب روكامبول

وذكر في الحال ان السائق الذي رآه في اصطبل الدوق دي مسايلي يشبه فانتير بالقامة وضخامة البطن وتقاطيع وجهه بعض الشبه وانه رآه يعرج بالرجل اليمنى عرجاً خاصاً بالذين يحكم عليهم باللبان والقيد بالسلاسل ، ثم ذكر أيضاً ان ذاك السائق لم يدخل في خدمة الدوق إلا منذ يومين ، فأيقن انه فانتير .

ولما أتمت العجوز حديثها قال لها روكامبول · لا بأس يا أماه فسننظر في أمر هذا الرجل الذي يريد قتلي ، فاذا جاء إنتبهي من ان تقولي له شيئاً عني بل تجاهلي أمامه انك رأيتني ، وكوني معه على ما يريده والآن خذي هذه النقود واشتري بها خير ما تحتاجين اليه من اللباس وسأشتري لك في هذا الأسبوع منزلاً كبيراً تعيشين من إيراده مدى الحياة .

ثم أعطاها ورقة بنك قيمتها الف فرنك وقبلها مودعاً ثم وعدها ان يزورها في الغد وخرج وهو واثق منها

وكان الليل قد انتصف فذهب تواً الى منزله السري حين كان فانتير فيه يبحث عن الأوراق فلم ينتبه روكامبول اليه كما تقدم ، وغادر المنزل فسرق فانتير الأوراق وذهب آمناً كما قدمناه .

غير ان روكامبول قبل ان يصل الى منزله خطر له ان يعود إلى منزله السري لبعض الشؤون فدخل اليه بعد خروج فانتير ، وأشعل عوداً من الكبريت كي ينير به المصباح فرأى ان المصباح في غير الموضع الذي تركه فيه ، فأجفل وخطر له ان سارقاً دخل إلى البيت ، فأخذ المصباح واسرع الى غرفة المكتبة فرأى نقطة ماء على المائدة وهي من الماء الحار الذي استعمله فانتير بحرارته على فتح صفحتي الكتاب فطاش رأسه وأيقن من السرقـــة فبادر الى المكتبة في البدء وأخرج الكتاب الذي كان مخبئاً فيه الأوراق وفتحه فرأى أثر الصمغ الذي فيه ، ففتح الصفحتين وأخرج الورقتين اللتين كانتا بينهما فإذا هما من الورق الأبيض وضعتا بدلاً من الشهادتين فكاد يضيع

صوابه من الغيظ ، ولا شك ان السارق فانتير ، ولا شك انه سائق مركبات الدوق . والآن لم يبق لي غير رجاء واحد وهو ان يكون الدوق نائماً لئلا يصل اليه فانتير .

عند ذلك أسرع الى غرفة الملابس وتنكر بزي السائس وانطلق بعد ان تسلح بغدارتين وخنجر الى منزل الدوق دي مايلي ، فلقي في الاصطبل فانتير واثنين من السياس منهمكين بشأن الجواد المصاب ، وسمع فانتير يقول لأحدهما : إن الجواد مصاب بشر الامراض، ولكني لا ادري كيف اتصل به هذا الداء لأنه لم يخرج من الاصطبل منذ يومين .

فوافقه السائس على استغرابه وقال له : ربما كان ذلك من صنع السائس الذي طردتموه اخيراً ففعل ما فعل بالجواد على سبيل الانتقام .

ولم يحفل فانتير بتعليله وأجاب : أأتى الدوق لتفقد الجواد ؟

- نعم إنه حضر مرتين في المساء .

- وهل مسه بيده ؟

- جملة مرار لأن الجواد لم يكن يأنس إلا به فكان يمسح الزبد عن شدقيه بمنديله ويمسح جلده بيده .

فارتعش فانتير وقال . ألم يعضه ؟

- بل كان يلحس يده بلسانه .

وكان روكامبول يسمع كل هذا الحديث فقال في نفسه : لا شك ان فانتير لم يقابل الدوق بعد ولا شك ان أوراقي لا تزال معه . وفي ذلك الحين دخل زامبا الى الاصطبل وسأل عن الجواد فأجاب فانتير: إنه على وشك الموت، قل لي أنام الدوق ؟

أجاب زامبا : إن الدوق مريض

- أهو الذي أرسلك لتسأل عن الجواد ؟

- نعم .

– أيمكن ان أراه لأخبره بحقيقة أمره ؟

إنه في سريره وسأسأله إذا كان يريد ان تذهب اليه .

ثم خرج من الاصطبل ولما بلغ الى الرواق رأى روكامبول قد تصدى له وأمره بصوت منخفض : إتبعني .

فامتثل وسار معه حتى اجتازا الرواق ولم يعد يراهما أحد . فخاطبه روكامبول · إذا لم تنفذي أوامري في الحال خسرنا كل شيء .

فأجفل زامبا وسأله ماذا حدث ؟

– حدث انه إذا قابل هذا السائق الدوق ، ذهبت أتعابنا أدراج الرياح !..

– إن ذلك ميسور ، سأعود اليه وأقول ان الدوق مريض لا يستطيع ان يقابل أحداً .

– قل لي كيف حاله ؟

إنه مصاب بحمى شديدة وقد تورمت يده .

– أدعي اليه طبيباً ؟

– كلا !.

فوقف روكامبول يفتكر هنيهة ثم قال له : انه يوجد ثلاث غرف متسعة قبل غرفة الدوق ، إذا تكلم أحد بصوت مرتفع في الغرفة الأولى أيصل كلامه الى غرفة الدوق ؟

– كلا إن المسافة بعيدة .

– حسناً ، إصعد الى مولاك وقل له ان الجواد بحالة حسنة ولا تذكر كلمة عن السائق وخذ بي الى الغرفة الأولى

فامتثل زامبا وصعد أمامه السلالم حتى وصل إلى الغرفة ففتح بابها وقال له أدخل . فدخل روكامبول قائلاً إذهب الآن الى الدوق ، وعد إلي في الحال .

وبعد هنيهة عاد زامبا فخاطبه روكامبول : إنزل الى الاصطبل وقـل للسائق ان الدوق يريد ان يراه واصعد به إلي وامش أمامه وبيدك شمعة منورة . فمتى دخلت الى هذه الغرفة اطفأ الشمعـــة والقها الى الأرض ، ثم اقبض على ذراعه على هذا النمط كما أفعل بك الآن. وهنا عله كيف يقبض عليه وتابع : إذهب في الحال قبل ان تفوت الفرصة .

وانطلق زامبا مسرعاً فوجد فانتير ينتظر عودته بفارغ الصبر فقال له . هلم معي لأن الدوق ينتظرك .

ولم يكن فانتير يعرف بعد مداخل القصر ومخارجه ، فسار في أثر زامبا حتى دخل به الى الغرفة التي كان فيها روكامبول ، فاطفـــأ الشمعة وانقض عليه فقبض على ذراعيه كما تعلم . وفي الوقت نفسه ، وقبل ان يتمكن من الصياح شعر بيد وضعت على فمه ، وخنجر وضع على عنقه ، وسمـع صوتاً منخفضاً يقول له : أنا روكامبول ، أيها الأبله ، فاذا نطقت بكلمة فانك مقتول .

- ٣٥ -

لما سمع فانتير صوت روكامبول وشعر بوخز خنجره في عنقه وهت ركبتاه من الخوف وضاع رشده حين أيقن بالخطر المحدق من حوله فجعل يقول بالله اعف عني ولا تقتلني .

أجاب روكامبول . اصمت ولا تفه بحرف .

وقال لزامبا : أمسكه جيداً .

ثم عاد يخاطب فانتير بتهكم قائلاً : إن من كان لصاً خائناً مثلك فهو لا يخلو من السلاح .

وجعل يفتش في جيوبه وأخرج منها مسدسين ثم أخرج من حزامه خنجراً عرفه من قبضته فقال له . إن هذا الخنجر لي وقد سرقته مني منذ ساعة أما الآن وقد جردتك من سلاحك فلنتحدث قليلا .

فعاد فانتير الى التوسل والاستعطاف وهو يختلج من الرعب ، فقال له روكامبول : إذا فهت بكلمة دون أن آمرك بالكلام قتلتك في الحال . ثم خاطب زامبا أطلق الآن إحدى يديه وخذ الخنجر وضعه بين كتفيه واذا بدرت منه حركة اقتله بسرعة .

ووضع روكامبول خنجره في فمه كي يستخدم كلتا يديه ثم أخـــذ قماش الستائر ومزقه قطعاً طويلة وربط بها رجلي فانتير ويديه وأخذ منديله فكم به فمه كي لا يستطيع الاستغاثة وبعد ان انتهى من جميع ذلك قال لزامبا : دعه الآن وأنر المصباح .

فلما أضاءه قال له ضع المصبـاح على المستوقد ، واقفل جميع الأبواب واذهب بسلام وانتظرني خارج الباب

فامتثل زامبا وأقفل الأبواب وخرج .

ولما خلا المكان بهذين اللصين دنا روكامبول من فانتير وخنجره بيده ففك رباط فمه وقال بلهجة الهازىء المتهكم : يجب قبل كل شيء ان اخبرك بحقيقة الحالة : إن الدوق دي مايلي الذي لا بد ان يكون قد وعدك بمبلغ جزيل ثمن الرسالتين اللتين سرقتهما من عندي لا يستطيع ان يستفيد منها بشيء ، لأنه لم يعد له في الحياة غير ساعات معدودة ، إذ انه مصاب بالجمرة الفارسية كجواده . فخير لك ان ترد لي الرسالتين حالاً لتشتري بهما حياتك . ثم اني اخبرك ايضاً ان رامبا هو عبد لي يخضع لي في جميع ما أريده ، ولهذا تراني أتصرف في المنزل كأنه منزلي ، فان لم تسلمني الأوراق التي سرقتها من عندي منذ ساعة أقتلك واذهب في شأني ولا خوف علي من احد لأن زامبا وبواب منزلي السري لا يعلمان من أنا .

أجاب فانتير : إنك مركيز

ولما سمع روكامبول كلمة مركيز رفع خنجره وقال : قل من أنا .. أسرع وقل اسمي إذا شئت ان تسلم من الموت .

فذعر فانتير لما رآه من اضطراب روكامبول وأجاب : مولاي عفوك فاني أعلم انك مركيز ولكني لا أعرف اسمك .

فتنهد روكامبول تنهد المنفرج بعد ضيق وقال له : لقد عرفت ما أريد أن أعرفه منك . وما دمت تجهل اسمي فإنك تجهل منزلي وعلى ذلك فان الوقت فسيح أمامي وسأقتلك حينما أشاء .

فزاد اضطراب فانتير وقال : ماذا تريد مني ؟

— الأوراق .

— خذها إنها في بطانة صدرتي .

فظل روكامبول ماسكاً الخنجر بيده اليمنى ومد يده اليسرى الى بطانة صدرة فانتير وأخرج منها الأوراق وبعد ان فحصها فحصاً مدققاً وقال له : أريد أن أبرهن لك عن ان دي مابلي لم يبق له غير ساعات معدودة في الحياة أنظر إلي .

ثم أدنى الشهادات من الشمعة فاحرقها وقال إن هذه الشهادات لا قيمة لها إلا عند دي مابلي وحرقي لها دليل على انه مائت ولم يعد الآن ما يمنعك عن الإقرار التام .

— إني اعترف لك بكل شيء على شرط ان تصفح عني ولا تدعني وشقائي سلني عما تريد .

— ماذا فعلت في أسبانيا ؟

- قتلت مأمور البريد وسرقت الكتاب ، ثم عدت الى باريس وفتحته فعلمت كل شيء .

- كيف عرفت اني مركيز ؟

ـ من مدام فيبار .

ثم قص عليه جميع ما دار بينه وبين مدام فيبار من الحديث والمؤامرة عليه فلما وثق روكامبول من صدقه قال له : لم يبق عليك إلا شيء واحد وهو ان تنضم إلى أتباعي ، فان من لا يستطيع ان يكون قائداً فخير له ان يعود جندياً .

ـ العلك تستفيد مني بشيء ؟

فضحك روكامبول ضحك الساخر وأجاب لو لم يكن لي فائدة منــك لقتلتك بسرعة لأنك تستحق القتل لخيانتك لي ولرئيسي .

ـ إذا كان ذلك إني اقسم بالله اني لا أخونك بعد ذلك

وعند ذلك دنا روكامبول منه ففك قيوده وقال : هلم بنا .

أما فانتير فانه رأى بعينه ان الشهادتين قد أحرقتا وان الدوق في حالة النزع فعلم انه لم يعد له بد من الانقياد الى روكامبول ، فسار في أثره حتى بلغ به الى منزله السري فقال له : لو تنبهت قليلاً وأرجعت المصباح الى مكانه لما علمت بسرقتك .

فتنهد فانتير ولكن روكامبول أشفق عليه وقال : إطمئن إن سرقتك لم تكن لتنفعك لأن الدوق مسموم منذ يومين .

والآن إجلس على المائدة واكتب ما أمليه عليه الى مدام فيبار .

ثم أملى عليه ما يأتي :

« إن مسألتي مع روكامبول تمنعني عن ان أراك اليوم ولكني سأزورك في هذا المساء ، فنامي في سريرك ودعي المفتاح على الباب ، لأني سأحضر بعد منتصف الليل » .

ولما انتهى من الكتابة ورقع باسمه على الرسالة أظهر انذهاله وقال ماذا تريد بهذه الرسالة الغريبة ؟

ـ سترى ما هو أغرب من ذاك لأني سأعود الى ربط رجليك ويديك وكم

فمك لتبقى في هذا المنزل أسيراً إلى مساء غد .

فذعر فانتير وبدت عليه ملامح العصيــــان فاستل روكامبول خنجره وقال له أتريد ان تعود الى ما كنا فيه من الخلاف بعد ان اتفقنا ؟

فخاف فانتير وقدم يديه للتقييد ، فشد روكامبول وثاقه وأقفل الباب عليه وخرج .

- ٣٦ -

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل روكامبول الى غرفة استاذه أندريا وقال : أتذكر حين لقيتك وأنقذتك مما كنت فيه ما قلت لك بعد اجتماعنا ؟ إني قلت لك يومئذ انك من النوابغ ، ولكنك على سمو عقلك وشدة دهاك ، ليس لك غير عيب واحد كان السبب في جميع ما تقدم لك من الفشل والخذلان وهو انك تستخدم رجال الشر لتنفيذ الشر ، ولو كنت تستخدم رجال الخير لهذا القصد السيء لكنت من الفائزين لأن الكريم الشريف لا تخطر له المقاصد في بال خلافاً للماكر الشرير ، فإنك إذا استخدمته لغرض فطن لقصدك ، وكان اول ما يجول في خـاطره أن يستأثر بالنفع دونك . مثال ذلك :

فانتير ، إنك ركنت اليه في المرة الأولى فخانك وقطع لسانك وذهب ببصرك ثم ركنت اليه في المرة الثانية فكاد يصعد بي الى المشنقة لو لم أنتبه له ويخدمني الاتفاق في إحباط سعيه .

ثم قص عليه حكاية فانتير ومدام فيبار بجميع تفاصيلها الى ان أخبره بأنه غادره عنده مكبلاً موثقاً .

فضحك أندريا ثم افتكر هنيهة وأخذ لوحه الحجري وكتب عليه ما يأتي:

إن الدوق دي مايلي في حالة النزاع ولم يعد لك حاجة بزامبا ، وفانتير خائن وقد أحبطت جميع مساعيه فلا نستطيع ان نأمنه بعد الآن ، ومدام فيبار عرفتك ولا يحمل بك ان تكون عبداً لها.أي يجب ان تتخلص من هؤلاء الثلاثة مرة واحدة .

فصفق روكامبول بيديه وأجاب : هذا ما خطر لي واني أفتخر ان يتوارد خاطري مع خاطرك . غير اني لا أعلم كيف يكون هذا القتل واين تمثل هذه الرواية .

– إنها ستمثل في غرفة مدام فيبار . أما طريقة قتلهم سأخبرك عنها ، إذهب الآن إلى مدام فيبار وانظر اذا كان يوجد تحت غرفتها قبو وتفقد ذلك القبو ثم أخبرني بتفاصيله ، لأن عهدي بهذه المنازل ان يكون فيها أقبية واسعة .

فامتثل روكامبول وذهب تواً الى مدام فيبار فالقاها تنتظره فلاطفها وجدد وعد- لها بشراء البيت الذي باتت ليلتها طامعة به ونفحها بمبلغ آخر من النقود فبكت من سرورها ثم حادثها بشأن الانتقام من فانتير .

واتقدت عيناها بشر الغضب وقالت: اين هو الخائن الذي يريد ان يفجعني بك لأمزقه بأسناني ؟

– ستري والآن إفتحي لي هذا القبو الذي في غرفتك ، لأني أحب ان أتفقده .

فقامت مدام فيبار وأزاحت خشبة كبيرة كانت تغطي مدخل القبو عند باب الغرفة فانكشف عن هوة عميقة فقال لها : هاتي السلم اني أحب ان أنزل اليه .

فامتثلت وأحضرت السلم فأنزله روكامبول حتى استقر على أرض القبو ، وأسنده الى الحائط وأضاء شمعة ونزل وحده وجعل يتفقده .

وكان القبو خاوياً خالياً إذ لا مؤونة لهذه العجوز لتخزنها فيه . وبينما

كان روكامبول ينظر في جدرانه إذ رأى أحدها مبتلاً بالماء دون سواه . فقال في نفسه : لا بد ان يكون لهذا الجدار شأن .

وأقبل يفحصه فحصاً دقيقاً فرأى الماء يخرج من ثقب رفيع في أنبوبة في جوف الجدار يسيل منها الى المجاري العمومية . فخطر له في الحال خاطر هائل وأخذ خنجره وأزاح الطين المتلبد فوق الأنبوبة حتى انفرجت له وظهر ثقبها الرفيع فشق تلك الأنبوبة بخنجره ووسع ثقبها فجعل الماء يخرج منها بقدر ثخانة الإصبع .

وأقام في ذلك القبو ساعة يفحص انصباب الماء فيه حتى غمرت المياه قدميه فقال في نفسه : اذا دام انصباب الماء على هذا القياس ولا بد ان يدوم فانها ستبلغ عند منتصف الليل الى نصف علو القبو اي علو مترين ، وهذا القدر يكفي .

ثم صعد السلم مطمئناً حتى بلغ الى الغرفة فأخرج السلم وأعاد الخشبة وهي باب القبو الى ما كانت عليه .

أما مدام فيبار فإنها كانت منذهلة لا تعلم شيئاً من قصد روكامبول ولم يتوانى روكامبول الى إخبارها بل قال لها : إنتظريني الليلة فسأحضر اليك وأخبرك عن الفخ الذي سنصنعه بفانتير .

— وإذا أتى قبل ان تحضر فما أخبره ؟

— إنه لا يحضر وكوني واثقة من ذلك . إنما لا تخرجي من غرفتك .

ثم تركها وعاد لمنزله فغير ملابسه وعاد الى اندريا وأخبره بجميع ما صنع فأخذ اندريا لوحه الحجري وكتب عليه سطوراً كثيرة كان روكامبول يقرأها وهو واقف وراءه . ولما أتم كتابته كتب تحتها : أفهمت ؟

— نعم ويا له من فكر هائل .

فابتسم اندريا معجباً بأفكاره الجهنمية وذهب روكامبول مطرق الرأس يتمعن بانفاذ هذه الخطة .

وفي الساعة السادسة من المساء قابل روكامبول زامبا وسأله عن حالة الدوق فأجاب : انه في أسوأ حالة ، وقد قنط الأطباء من شفائه .

- إعلم الآن ان سيدي الذي يريد ان يتزوج بابنة الدوق أمرني ان أبلغك رضاه عنك وهو سيجعلك وكيله بعد الزواج دون شك ، ثم أمرني ان أمنحك الفي فرنك على سبيل المكافأة عن حادثـــة الدوق والدبابيس ذلك عدا عن المكافأة العظيمة التي ستنالها بعد الزواج . غير انه يسألك ايضاً قضاء أمر لا بد منه .

- إني مستعد لكل أمر فقل أطع .

- انه يريد الانتقام من هذا السائق الانكليزي الذي دخل في خدمة مولاك وكاد يحبط جميع مساعينا .

- أيريد قتله ؟

- ذلك لا بد منه .

- متى وأين ؟

- إذهب بعد ثلاث ساعات الى القهوة التي كنا نجتمع فيها فأذهب بك لأخبرك بما يجب ان تصنع ولا تنس ان تحضر معك احسن خنجر عندك .

- ٣٧ -

وفي الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة قدم روكامبول الى بيت مدام فيبار وطرق بابها فدنت من الباب وقالت بصوت منخفض : من أنت ؟

فذكر روكامبول اسمه ففتحت ودخل يصحبه زامبا فقال لها: لقد أحضرت هذا الرجل لأنه يريد ان نتحدث قليلاً مع فانتير .

ثم أقفل الباب وقال لزامبا : أطلعك على المهمـة التي انتدبتك اليهـــا

والتي تكون بعدها وكيل من يتزوج ابنة الدوق .

فقالت مدام فيبار متحمسة : إن المهمة هي قتل فانتير .

فرد زامبا منذهلاً : أيدعى السائق فانتير ؟

أجاب روكامبول : نعم انه اسم لا يشير الى ان صاحبه من أصحاب النفوذ. غير انه اذا بقي في قيد الحياة فهو يحول دون تحقيق أمانيك وربما القى بك في هوة السجن المؤبد لتعيش بقية عمرك مقيداً بالسلاسل .

فهلع قلب زامبا لهذا الانذار ورد : اذن سيموت .

وأمر روكامبول مدام فيبار ان تضيء المصباح وتحضر سلم القبو فامتثلت وهي لا تعلم شيئاً من خطته . ففتح روكامبول باب القبو وأنزل السلم اليه ثم أخذ المصباح بيده ونزل درجات السلم حتى بلغ الى نصفها وشعر بالماء وقال في نفسه : إن علو الماء قد بلغ مترين وهو يكفي لإغراق انسان . ورأى ان الماء لا يزال يخرج من الانبوبة بمعدله الأول ، فاطمأن خاطره وصعد وقال لزامبا : انك ترى هذا القبو الذي نزلت اليه ، إصغ اليَّ الآن انك ستقتدي بي وتنزل الى هذا القبو كما نزلت ، وهو ملآن بالماء لأن الامطار الاخيرة نفذت اليه وجعلته بئراً .

فأجفل زامبا وقال : أيمكن للمرء ان يغرق فيه ؟

أجاب روكامبول مبتسماً : إنه يغرق ولا يغرق . وذلك انك ستنزل الى القبو انت وفانتير ، فيغرق هو وأما أنت ستصبح وكيل من يتزوج ابنة الدوق .

– اني لا أفهم شيئاً مما تقول .

– اني موضح لك هذا اللغز ألا ترى السلم في القبو ؟

– نعم .

– ألا ترى ان مدخل القبو عند عتبة الباب ؟

– نعم .

— إنه عندما يأتي فانتير يكون الظلام سائداً وباب القبو مفتوحاً فاذا فتح الباب ودخل سقط في الهوة أعلمت الآن ؟

— نعم علمت واما انا فماذا أعمل بالقبو ؟

— انه شديد المهارة بالسباحة واذا ترك وشأنه في القبو فهو يعوم فوق المياه عدة ساعات ويستغيث بصوته العالي الى ان يرده المدد ولذلك ينبغي ان تخمد أنفاسه ولا تبقى له مطمعاً في الحياة .

— سأعمل ولكن بأية وسيلة أخمد أنفاسه ؟

— إنك تقف على آخر درجة متصلة بالماء من درجات هذا السلم فمتى سقط فانتير في الماء أول ما يخطر له ان يلتمس ما يتمسك به ولا يجد غير السلم ، واذا دنا منه ومسك به تطعنه بخنجرك طعنة نجلاء تقضي عليـــه ، ثم تصبر هنيهة الى ان تعلم انــه مات فتنــاديني ، وعند ذلك أنــير لك الطريق لتصعد .

· اذن اني مستعــد للنزول ، وهــذا خنجري بيــدي ، وكن واثقــاً من قتله

وعند ذلك أنار له روكامبول منفذ القبو ، ونزل زامبا درجات السلم حتى بلغت رجله الى الماء فنزل درجة ووقف ، وعند ذلك اطفأ روكامبول المصباح وانزوى في الغرفة مع مدام فيبار فقالت له : أأنت واثق ان فانتير سيحضر ؟

— كل الثقة فقد كان أسيراً عندي أطلقت سراحه ووعدته ان اعطيه خمسين الف فرنك .

— لماذا يأتي إلي ولماذا تعطيه خمسين الف فرنك ؟

— جزاء قتلك إذ انه يحسب بأنه آت لقتلك .

ارتعشت العجوز وقالت : يقتلني أنا ؟

— ألا تعلمين انه خائن يبيع بنيه بالمال ، قد وعدك بجزاء حسن إذا ساعدتيه

على فضيحتي وأنا وعدته بجزاء حسن إذا ساعدني على قتلك فانطلت عليه الحيلة ووقع في الفخ الذي نصبه لي .

وفيما هما على ذلك إذ سمعا وقع أقدام اضطرب فؤاد روكامبول وقـــال : اسكتي ، ها هو قد حضر ، ثم سمعا صوت المفتـاح في القفل ، ثم فتح الباب فمشى فانتير ثلاث خطوات وكانت خطوته الرابعة في الهوة المفتوحة فسقط في القبو وصاح صيحة عظيمة ، أسرع روكامبول إلى باب القبو ووضع أذنه على مدخله ونام فوقه كي يسمع ما يجري بين زامبا وفونتير .

كان أول ما سمعه أن فانتير جعل يقذف الشتائم واللعنات لا يجيبه غير صدى هذا القبو المتسع المظلم ، ثم جعل يسبح بيديه ورجليه وقد قنط من بلوغ صوته إلى المسامع لمـا سمعه من تجاوب الصدى وبقي يسبح ويقذف نحو عشر دقائق ثم انقطع الصوت ووقفت الحركة ، قال روكامبول في نفسه : انه قد عثر بالسلم وسنرى ما يكون من زامبا ، ولكنه لم يكد يتم مناجاته حتى سمع صرخة قوية عقبها صوت سقوط جسم ضئيل في المياه ثم انقطع الصوت ، قال روكامبول : لقد قضي أمره وانتهى الفصل الأول من هذه الرواية، فلنباشر تمثيل الفصل الثاني .

ثم نهض فلقيته مدام فيبار فقالت : ماذا جرى ؟

– لقد مات دون شك ، اني لا أسمع له حساً ، وبعد حين وجيز سمع صوت زامبا يناديه ، أمر العجوز أن تضيء المصباح ، ففعلت ثم ذهب به إلى باب القبو وفتحه وقال لمدام فيبار : تعالي وانظري يا أماه ، فرفصت العجوز على حافة الهوة وجعلت تحدق على نور المصباح لتنظر جثـــة فانتير ، لما رأتها قالت : لقي هذا الخائن جزاء خيانته .

وضع روكامبول المصباح امامه وقال : لم أقتله لهذا يا أماه ، بل لأنه كان واقفاً على اسراري .

فذعرت العجوز وحاولت ان تقف لما تولاها من الخوف، غير ان روكامبول

كان أسرع منها فانه ضغط على عنقها بيديه ضغطاً قوياً وهو يقول : انك لا تسلمين هذه المرة ، وبعد ان أتم خنقها قذف بها إلى القبو ، سقطت في المـــاء جثة جامدة لا حراك فيها .

وعند ذلك قال لزامبا : أصعد الآن فقد انتهى كل شيء ، فجعل زامبـــا يصعد درجات السلم وهو فرح القلب بنجاح مهمته وكان روكامبول من ورائه فلما ظهر رأسه من القبو بادره روكامبول بطعنـة خنجر قوية بين كتفيه ، صاح صيحة ألم وانقلب يهوي فوق رفيقه . وتم بذلك تمثيل الفصل الثالث من هذه الرواية .

أما روكامبول فانه أخرج السلم من القبو بأتم سكينـة فوضعه في مكانه ووضع الباب فوق القبو ثم أطفأ المصباح وخرج من الغرفة وانسل إلى الشارع العام دون ان يراه احد وهو يقول : اني لم اجد بين هؤلاء الثلاثة أشد بلهاً من زامبا لاعتقاده باني ارضى ان يكون وكيلي بعد ان اتزوج بابنـــة الدوق وأغدوا من عظماء الأسبان .

وذهب إلى منزله السري فغير زيه وعاد مركيزاً نبيلاً ، ثم انطلق إلى النادي ودخل وهو يغني غير مكترث لشيء كأن يده الأثيمة لم تنغمس بقتل ثلاثة منذ ساعة ، وهناك علم ان الدوق دي مايلي قد مات مسموماً ورأى الأسف بادياً على جميع الوجوه فلم يسعه إلا إظهار الأسف معهم وأقام بينهم الى الساعة الأولى بعد منتصف الليل ثم برح النادي الى منزله فوجد على المائـــدة كتاباً من الغادة الاسبانية أرسلته اليه من القرية التي ذهبت اليها مع أمها وأبيها وصهره فابيان واخته . وكانت خلاصـة الكتاب ان اخت روكامبول قـد ذكرته أمام الدوق الاسباني ولمحت تلميحاً عن حب أخيها لابنته ، فأظهر الارتياح وهي تدعوه الى موافـاتهم في تلك القرية راجية ان يعودا منها زوجين شرعيين .

ففرح روكامبول بهذا الكتاب فرحاً لا يوصف ودخل الى غرفة اندريا وأخبره

بجميع حوادث الليل وبموت الدوق مايلي وبكتاب الغادة الأسبانية ، فظهرت علائم السرور على وجه اندريا وقال لتلميذه الهائل بلوحه الحجري: تأهب للسفر صباحاً واعلم انه يجب ان اسافر معك .

— ما شأنك معي في هذا السفر ؟

— قال ذلك كي أوقع على شروط زواجك وان قلبي يحدثني انه إذا لم أكن معك لا يعقد هذا الزواج .

فلم يعبأ روكامبول بكلامه وأجاب : أتظن ان حديث قلبك يصدق ؟

— لا أظن بل أؤكد . وخذ عني هذه الكلمات واطبعها على ذاكرتك بحروف من نار وهي انا النور الذي يضيء نجمك فإذا لم أكن موجوداً ينطفيء نور هذا النجم .

- ٣٨ -

بينما كانت هذه الحوادث التي رويناها تتوالى في باريس كانت تجري في مدينة نيس حادثة لها علاقة شديدة بهذه الرواية

ويذكر القراء ان باكارا قد ذهبت بزوجها المنكود الى تلك المدينة كما وصف له الأطباء ، فاستأجرت منزلاً جميلاً على شاطيء البحر ، وكان يصحبها طبيب خاص حكم على الكونت أرتوف ان يعتزل الناس ما أمكن وان لا يفارق امرأته لاعتقاده ان هذه الطريقة تعجل في شفائه ، على ان حالة الكونت لم تتغير وما زال يعتقد انه يدعى رولاند دي كايلت ، وليس الكونت ارتوف . ثم اتسع هذا الاعتقاد منه حتى بات يحسب ان الكونت أرتوف طلق امرأته ، وان باكارا تبعته بعد طلاقها من زوجها الى نيس لشدة شغفها به .

وكان بين الأجانب المقيمين في نيس ضابط إنكليزي خدم مدة طويلة في الهند وكان يرى باكارا وزوجها كل يوم حين خروجها للنزهة فتوصل الضابط إلى السلام عليهما لكثرة التقائه بهما .

وبينما كانت باكارا جالسة في غرفتها صباح يوم إذ دخلت خادمة غرفتها تحمل اليها رقعة زيارة الضابط الانكليزي ، فدهشت لهذه الزيارة ولكنها خرجت لمقابلته واستقبلته في القاعة الكبرى وجلست بازائه فبدأ هــذا الضابط بالحديث وقال : أرجو ألا يسوء سيدتي ما تراه من أقدامي على زيارتها ولم يدفعني اليها غير الرجاء بنفعها لما علمته من جنون زوجها واعلمي يا سيدتي ان هذه المدينة لا يأتي اليها غريب حتى تتجه اليه الأنظار ولا يمضي عليه زمن يسير حتى يعلم الغرباء أمثاله بجميع أمره .

قالت باكارا : إذن لقد عرفوا حكايتي .

– نعم يا سيدتي لقد عرفوها بتفصيلها وانقسم الناس بشأنك قسمين بين مصدق ومكذب ، وخــاضوا في تأويل أسباب جنون الكونت الى ان قدم أمس احد الاعيان من باريس فأخبرنا ...

ثم توقف عن الحديث وقال : عفوك يا سيدتي فإنك لو بحثت في أعماق قلبي لما رأيت غير الاحترام .

فقالت باكارا وهي لا تعلم الى اين يريد أن يصل بحديثه : إني أعلم بما حدثوك واسمح لي قبل إتمام حديثك ان اقول ان رجلاً شقياً لا مبدأ له ولا شرف زج بنا الى هذا الشقاء بنميمة كاذبة .

– لم أشكك لحظة يا سيدتي بما تقولين . واسمحي لي ان أكلمك عن زوجك وجنونه ، فلقد ذكر لنا هذا الباريسي أمراً غريباً وهو ان جنون الكونت كان فجائياً لا يتقدمــه شيء من العوارض المعروفة ، وقــد ظهر الجنون في ساحة المبارزة .

– ذاك أكيد .

- وان جنونه حمله على الاعتقاد بأنه هو خصمـــه وان خصمه يدعى الكونت أرثوف .

- واأسفاه يا سيدي إنه لا يزال يعتقد هذا الاعتقاد .

- ولكن الغريب في هذا الجنون انه غير عادي .

- إنه كان يحبني وقد اعتقد أخيراً انني .

فقاطعها الضابط قائلاً : كلا يا سيدتي فان زوجك قد سقي سماً فجن .

فاندهشت باكارا وأجابت : كيف عرفت ذلك ثم أيوجد بين السموم مـا يذهب بالعقل

- نعم يا سيدتي . إني خدمت بالهند وأقمت سنة في مدينة جافا وعلمت انه يوجد في هذه الجزيرة شجرة إذا جففت أوراقها وطحنت كان شربها داعياً الى الجنون وقد رأيت كثيرين من الذين جنو بهذا السم ومن أخص ما رأيتـه من الأعراض ان المجنون به ينكر نفسه ويحسب انه سواه وهـذا ما أصاب زوجك .

فارتعدت باكارا وقالت : إن زوجي لم يذهب الى الهند ولا يعرف أحداً في باريس من الهنود .

- أعرف ذلك يا سيدتي غير ان من تجاسر على النميمة بك وكاد مثل هذه المكائد لك فهو يجسر أيضاً على تسميم زوجك .

فوجف قلبها وقالت إذا صح ما تقول فإني أخشى أن لا يكون لهذا التسمم دواء .

- بل إني أعرف طبيباً حاذقاً بشفاء هذا الجنون ، وهو طبيب نال شهرة واسعة في الهند ، وقد لقيته منذ شهر في باريس وعلمت انه يقيم فيها منـذ عهد طويل ، وان له شهرة عظيمة في فرنسا ايضاً ، وقد اشتهر خاصة بمعالجة تشوه الوجوه وإزالة الوشوم والشفاء من الجنون شهرة خاصـة وهو يدعى صموئيل البرت ، فإذا دعوتـه يا سيدتي لمعالجة زوجك فإني أرجو أن

يشفيه سريعاً .

فظهرت علائم الرجاء على محيا باكارا وقالت : كلا لا أدعوه إلي بل أنا أسير اليه كي لا يطول انتظاري

— لقد أحسنت يا سيدتي واحذري من ان تثقي بغير هذا الطبيب واعلمي ان الأطباء يتحاسدون ولا تقولي شيئاً أمام طبيب الكونت بل اختلقي حجة أمامه السفر بزوجك الى باريس .

فشكرته باكارا شكراً جزيلاً وودعها الضابط وذهب في شأنه .

وفي اليوم التالي ركبت باكارا مع الكونت مركبة البريد وبرحت نيس الى ليون وركبت منها السكة الحديدية الى باريس .

* * *

بينا كانت باكارا ذاهبة بزوجها الى باريس كان رولاند دي كايلت عازماً على السفر من باريس الى الريف ، إذ قد ورد اليه نعي عمه فرأى ان الفرصة موافقة للبعد عن باريس بعدما رآه من ابتعاد الناس عنه أثر حادثة الكونت واحتقار أصحابه له بحيث لم يبق له بينهم غير اوكتاف لاتفاقه وإياه في مبادىء الغرور .

ولما وصل اليه نعي عمه تأهب للسفر وذهب لوداع صديقه اوكتاف قبل الرحيل ، وفيما هو سائر بمركبته شعر ان المركبة وقفت لازدحام المركبات ووقوفها عن المسير لمرور موكب ، حتى ان معظم الذين كانوا في تلك المركبات نزلوا منها ، فأطل رولاند من مركبته وجعل ينظر الى الناس والى ازدحام المركبات ورأى بالقرب منه ريبيكا التي يحسبها الكونتس أرتوف فصاح صيحة دهش سمعتها الفتاة ، والتفتت اليه فما وسع رولاند إلا أن يحني رأسه مسلماً عليها ، فردت تحيته بابتسام ولم يعد لدى هذا المسكين من شك انها تحبه حباً أكيداً ، وانها اضطرت أمام اختها أن تمثل دورها

ثم رآها وضعت سبابتها على فمها تشير اليه بالصمت غير ان رولاند تجاهل قصدها، ونزل من المركبة للقائها ، فأسرعت الى مركبة في الطريق ، فصعدت اليها وقالت للسائق بصوت مرتفع كي يبلغ الى مسمع رولاند : إلى شارع باسي نمرة ٤٢ .

فارتجف رولاند وقد علم انها تريد ان يزورها في ذلك المنزل ، وذهب الى صديقه اوكتاف وأخبره بهذا الاتفاق حين اضطراره الى السفر فقال له صديقه : خير لك ان تسافر لتقضي مهمتك وتعود بعد غد لأن ابتسامتها لك يدل على انها لا تزال تهواك فهي تنتظرك الليلة . ومتى رأت انك لم تحضر فلا بد لها أن تكتب اليك وتكون في ذلك الحين قد عدت إلى باريس وقضيت شؤونك التي لا يمكن تأجيلها .

فامتثل رولاند لنصيحة صديقه اوكتاف وركب القطار الذي يخرج من باريس في الساعة الثامنة ولما بلغ الى المحطة الأولى وصل اليها ايضاً في الوقت نفسه القطار الخارج من باريس والداخل اليها في أول محطة ووقف القطاران دقيقتين لنزول الركاب وصعودهم .

وكان هذا القطار قادماً من ليون ، فجعل رولاند ينظر الى الركاب دون اكتراث ، حتى أصاب نظره ركاب الدرجة الأولى ، فصاح صيحة منكرة لأنه رأى بين اولئك الركاب باكارا وزوجها الكونت وهو قد رآها منذ ساعة تسير الى شارع باسي ، فأوشك ان يضيع رشده وأسرع الى النزول من القطار الذي كان عائداً بباكارا الى باريس ، ولكن القطار كان قد سار فلم يستطع إدراكه .

وصاح منبه القطار يدعو الركاب الى الصعود اليه ، ثم نظر إلى رولاند فرآه محدقاً بذلك القطار المسافر ، فنبهه الى الصعود غير ان رولاند قال له : إني عزمت على الرجوع الى باريس ، وسأنتظر القطار القادم في هذه المحطة .

فصفر المنبه بصفارته وانطلق القطار سائراً الى الريف .

أما رولاند فإنه انتظر هنيهة الى ان قدم قطار فركب به وعاد الى باريس ولما وصل الى المحطة سأل عن رئيس القطار الذي قدم رأساً من ليون فأرشد اليه فقابله رولاند وقال له . أأنت رئيس القطار الذي قدم الآن من ليون ؟

– نعم وقد وصلت به منذ نصف ساعة .

– أرأيت بقطارك امرأة شقراء وجميلة كان معها رجلان ؟

– نعم وهم الكونتس أرتوف وزوجها وطبيبه .

فاضطرب رولاند وقال : إني أرى على صدرك إشارة تدل على انك منعم عليك بوسام ، وانك من رجال الشرف ، ولهذا فاني أستحلفك بهذا الوسام الذي تتقلده ان تقول لي هل الكونتس أرتوف حضرت بهذا القطار من ليون .

– نعم يا سيدي ، وأنا الذي أعنتها على الصعود اليه في محطة ليون .

فشكره رولاند وخرج وهو شبيه بالمجانين ، فركب مركبة وأمر سائقها ان يسرع به الى شارع باسي نمرة ٤٣ فذهب السائق الى ذلك المنزل ، فأطلق رولاند سراحه ودخل فقرع الباب وأجابه صوت إمرأة من الداخل : من أنت ؟

فلم يجب بل جعل يقرع الباب الى ان فتحت له خادمة ، فقال لها :

أين سيدتك ؟

فتلجلج لسانها وأجابت : انها لم تعد بعد .

– لا بأس فسأنتظرها .

. غير انه رأى من عين تلك الخادمة انها غير صادقة في قولها فنظر اليها نظرة المتوعد وقال لها : إختاري بين أن أنقدك عشرة جنيهات وبين ان تذهبي معي الى رئيس البوليس حيث يسألك عن بعض الشؤون .

فتظاهرت الخادمة بالخوف وقالت : إن سيدتي تطردني من المنزل اذا أدخلتك اليها دون اذنها ، غير اني سأخاطر لأجلك هذه المخاطرة فاتبعني ...

فسار رولاند في أثرها وصعدا الى الدور الثاني من هذا المنزل ، حتى انتهت به الخادمة الى غرفة نوم ريبيكا فقال لها : دعيني وحدي واذهبي بشأنك . فتركته وانصرفت .

أما رولاند فانه دخل إلى غرفتها دون استئذان فوجدها نائمة ، فوضع يده على كتفها فهبت من رقادها مذعورة ، ثم ثابت الى رشدها حين رأت رولاند فقالت : كيف أتيت ؟ وكيف جسرت على الدخول الى غرفتي دون اذني ؟

– ذلك أيتها الحبيبة لأنك اخبرتني اليوم بنمرة منزلك حين ذكرتيها للسائق بصوت مرتفع .

فأنكرت ريبيكا ثم قالت له : لا بأس وحيث قد اتيت فاجلس أمامي .

فجلس رولاند أمامها وقال لها بلهجة المتهكم أتريدين يا سيدتي الكونتس ان تخبريني بشيء عن حالة زوجك الكونت .

– انه لا يزال مجنوناً وقد أرسلته الى نيس .

– أيقيم فيها زمناً طويلاً ؟

– لا أعلم فإن ذلك مناط بطبيبه .

— لقد أصبت ، ويظهر ان طبيبه استحسن ان يعود به الى باريس فعاد في هذا المساء

من الذي عاد زوجي ؟

-. كلا بل الكونت ارتوف وكانت تصحبه امرأته الكونتس

وكانت ريبيكا شديدة الجرأة غير انها لم تستطع ان تقاوم نظرات رولاند وجعل وجهها يحمر ويصفر في آن واحد لما تولاها من الاضطراب ، وعند ذلك نهض اليها رولاند وقال لها : لقد انقضى زمن التضليل ، وأصبحت عالماً الآن انك لست الكونتس ارتوف ، بقي علي ان أعرف من أنت ؟ فاذكري اسمك .

وكان رولاند ينظر اليها نظرات إنذار علمت بعدها انه لم يعد لها حيلة وان الانكار لا يجديها نفعاً ، فضحكت ضحكاً شديداً دون ان تجيب فصاح بها رولاند صيحة شديدة وقال أيتها الشقية اذكري اسمك او أقتلك في الحال دون إشفاق .

ثم قبض على عنقها وضغط عليه فصاحت : رحماك لا تقتلني ... إني ادعى ريبيكا .

فرفع رولاند يديه من على عنقها وقال : من أية عائلة ؟

— لا عائلة لي وإنما من بنات الهوى .

— من الذي دعاك الى تمثيل هذا الدور الشائن ؟

— رجل لا أعرفه .

فاحتدم رولاند غيظاً وعاد الى التهديد فقال : لقد كذبت .

— أقسم بالله اني لا أعرفه .

ولكن رولاند لم يبال بقسمها فقال : إذن انك تريدين الموت .

ثم عاد الى الضغط على عنقها فصاحت الفتاة وقالت : دعني فسأخبرك بكل شيء ، ولكني أقسم لك اني لا أعرف اسم هذا الرجل ، فقد لقيني ليلة

فقادني الى منزل لا أعرفه، ثم جاء بي في اليوم التالي الى هذا المنزل وقال لي ينبغي ان يكون اسمك من الآن فصاعداً الكونتس أرتوف .

فأفرج عنها رولاند وقال لها : أتقولين جميع ذلك للكونتس الحقيقة ؟

فذعرت الفتاة وقالت · كلا .

فلما قالت هذا القول نظر الى ما حوله فرأى سكيناً على المائدة بقرب سريرها واختطفها وأسرع اليها فوضعه على صدرها وقال إختاري بين الموت وبين ان تذهبي معي الى منزل الكونتس

وكانت صحة وعيد رولاند بادية في عينيه فأيقنت الفتاة انها لا ينقذها منه غير الامتثال فقالت : ليكن ما تريد هلم بنا .

وبعد هنيهة خرج الاثنان فركبا مركبة سارت بهما الى منزل الكونت أرتوف . وكانت ريبيكا تقص على رولاند جميع ما تعلمه من أمر روكامبول الى أن وصلت المركبة إلى منزل الكونت فنزل منها رولاند مع ريبيكا وسأل الخادم عن الكونتس فقال له إنها أتت في هذا المساء وهي الآن عند اختها فإنها لم تعد بعد .

– لا بأس ... فسأنتظر عودتها مع هذه السيدة ، لأني أتيت اليها بشأن خطير .

فأدخلهما إلى قاعة الانتظار وكان على وجه ريبيكا نقاب كثيف .

– ٤٠ –

أما باكازا فإنها بعد ان وصلت الى باريس غادرت زوجها في المنزل مع طبيبه الخاص ، وذهبت إلى أختها سريز فأخبرتها بالسبب الذي دعاها إلى

الرجوع الى باريس . ثم ذهبت وإياها إلى الطبيب صموئيــل ، فاستقبلها خير استقبال .

وكان الطبيب عالماً بحكاية باكارا وجنون زوجها فقال لها : أظنك يا سيدتي آتية إلي بشأن زوجك .

- نعم واأسفاه لأنه لا يزال على حاله ولم يفده الطب الى الآن في شيء وأنا أرجو ان تتمكن من شفائه لما بلغت اليه من الشهرة .

- لا أستطيع ان أحكم في شيء قبل ان أرى الكونت وأعلم بالتفصيل كيف بدأت معه أعراض الجنون .

- إن جنونه كان فجائياً وهو يعتقد انه ذات الرجل الذي كان يريد مبارزته ولا يزال ينكر نفسه الى الآن .

ثم أخذت باكارا تذكر جميع أعراض الجنون الى ان انتهت الى قصة الضابط الانكليزي فأخبرته ان هذا الضابط يعتقـــد ان زوجها مسموم وإنه هو الذي أشار عليها بعرض أمره على الطبيب صموئيل .

فارتجف الطبيب عندما سمع لفظة التسمم وقال : أنه لا يوجد غير نوعين من السموم يحدثان الجنون أحدهما مشهور في اوروبا ، ولكن الجنون الذي يحدث عنه لا يكون خطراً ، ولا تنطبق أعراضـــه على ما ذكرته لي من أعراض جنون زوجك ، والنوع الثاني غير معروف إلا في الهند ولا يوجد منه في اوروبا إلا في منزلي وعجيب ان تلك الأعراض تنطبق على أعراضه فهل ذهب زوجك الى الهند ؟

- كلا .

- ألعله يعرف أحداً فيها ؟

- كلا .

ففكر الطبيب هنيهة ثم قال : إذا صح ما قاله الضابط الانكليزي فلا بد أن يكون الكونت قد شرب السم قبل زمن المبارزة بليلة ثم لا بد ان يكون

بات تلك الليلة في المنزل .

كلا يا سيدي إنه لم يبت في المنزل ، ولكني أرجح انه بات في منزل الدوق دي مايلي فإنه كان شاهده في المبارزة وهو يقول لنا كل شيء .

- العلك تجهلين يا سيدتي ان الدوق مات أمس ؟

فهبت باكارا مذعورة وهي تقول: كيف مات الدوق وهو غض الصبى وفي ريعان شبابه ؟

فلم يجبها الطبيب ولكنه أخذ جريدة كانت أمامه ودلها على خبر نعيه فيها فقرأته باكارا ثم ضغطت على الجريدة وقالت والدمع يجول في عينيها : كيف مات هذا المنكود ؟

- بالجرة الفارسية وقد سرت اليه العدوى من جواد كان يحبه

وساد السكوت هنيهة الى ان عاد الطبيب الى محادثتها بشـأن زوجها فقال : مما يزيد عجبي ان هذا السم الذي شربه الكونت لا يوجد منه إلا في جافا وعندي ، وليس لدي منه غير ثلاث اوراق طبية فكيف توصل هؤلاء الأئمة اليه ؟

ثم نهض الى الخزانة الزجاجية الموجود فيها هذا السم وأشار بيده إلى حق فيه رشاش ناعم فقال : هذا هو السم .

- إذا كان لا يوجد منه إلا عندك كما تقول ، ألا يمكن ان يكون قد سرق من منزلك ؟

- إن هذا مستحيل إذ لا يدخل هذه الغرفة إلا أنا وخادم لي به ثقة شديدة وفوق ذلك فاني حين أخرج من الغرفة اقفل بابها بحيث لا يمكن الدخول اليها ، ومع ذلك فقد قلت لك ان لدي من هذا السم ثلاث اوراق وسأزن ما في هذا الحق فأعلم اذا كان مسروقاً .

ثم أخرج من درج مكتبه ميزاناً صغيراً وأحضر الحق من الخزانة فأفرغ ما فيه في ورقة ووزن السم ، فاضطرب واصفر وجهه لأنه وجد انه ينقص

ستة عشر غراماً وقال : لقد سرقت .

فوقع هذا القول عليها وقع الصاعقة ، وجعل الطبيب ينظر تارة الى باكارا وتارة إلى السم نظر البلاهة وهو لا يصدق إلى ان قال : إن هذا السم لا يمكن ان يسرق إلا إذا نسيت ان أقفل الخزانة وتركت باب الغرفة مفتوحاً وخرجت منها ولم يحدث شيء من هذه الأسباب الثلاثة .

ثم قرع الجرس يدعو خادمه فأقبل الخادم ، وهو رجل عجوز يناهز الستين كان يثق به الطبيب ثقة لا حد لها ، ولكنه سأله : أتعلم ما كان في هذا الحق ؟

– نعم فقد كان فيه سم قاتل .

– لقد سرقوا منه ستة عشر غراماً فاستخدموها لجريمة هائلة .

أجاب الخادم بلهجة تبين منها الصدق : أن ذاك مستحيل .

فالتفت الطبيب الى باكارا وقال : أسمعت يا سيدتي ؟

– أنا لا أتهم هذا الرجل .

فعاد الطبيب الى الخادم وسأله : تذكر جيداً ، ألا تذكر انه دخل أحد الى الغرفة في مدة غيابي منذ شهر ؟

- كلا .

– ألم تلاحظ اني نسيت مفاتيح الخزانة على الطاولة في حين من الأحيان ؟

– كلا .

– ألا تذكر انه دخل احد الى غرفتي ثم خرجت منها وبقي فيها ؟

- نعم أذكر شيئاً من ذلك ، فلقد زارك رجل منذ اسبوعين او ثلاثة وفيما هو مقيم معك اضطررت الى الخروج لمعالجة خادم صدمته سيارة ، وكانت الخزانة مفتوحة ، وأسرعت الى الذي صدمته المركبة ، ولم يكن مصاباً بشيء .

– غير ان زائري يستحيل عليه سرقة السم .

فقالت باكارا : لماذا ؟

ــ لأنه خيرة النبلاء وهو المركيز دي شمري .

ــ عرفته .. فهو ابن عم الكونت فابيان . وهو قد خدم دهراً طويلاً في الهند .

ــ هو بعينه .

ــ إن هذا الرجل شريف لا يمكن اتهامه

ــ هو ما قلته يا سيدتي .

ثم غرق الطبيب في هواجسه وخطرت له مباحثته مع روكامبول بشأن هذا السم خاصة فقال : لقد ذكرت الآن يا سيدتي اني قد تباحثت مع هذا المركيز بشأن السموم عامة وهذا السم خاصة ، وانه سألني أسئلة كثيرة عن تأثيره وطريقة استعماله وزمن فتكه ، الى غير ذلك حتى انه طلب إلي أن يراه فأريته إياه .

ففكرت باكارا وقالت : إن جميع ذلك يشير الى انه هو السارق غير ان ذلك مستحيل .

ــ ليس من مستحيل في الأرض ، وإذا صدق فان المركيز هو الذي سقاه الكونت على انه إذا كان جنون زوجك من هذا السم فإني أتعهد بشفائه شفاء عاجلاً مضموناً .

فأظهرت باكارا من الفرح ما لا يوصف وشكرت الله فقال لها الطبيب : عودي يا سيدتي الى منزلك وسأزورك غداً عند الظهر لأفحص الكونت فحصاً مدققاً وسنجد من الله معونة لمعرفة الأثيم الجاني .

فودعته باكارا وانصرفت فأوصلت اختها الى بيتها وعادت الى منزلها وهي تقول في نفسها : إن المركيز دي شمري لا يمكن ان يقدم على هذه الخيانة ، ومهما يكن فإن ثقتي بهذا الطبيب باتت عظيمة حتى اني أصبحت واثقة من شفاء زوجي العزيز

ولما بلغت الى منزلها أخبرتها الخادمة انه يوجد في قاعة الانتظار شاب وسيدة ينتظران عودتها .

— ما اسمها ؟

— لا أعلم . غير اني أكرر اني رأيت الشاب مرة في هذا المنزل .

— والمرأة ؟

— لم أستطع ان أتبين وجهها لأنها مبرقعة الوجه ، ولكن قامتها تشبه قامتك أتم الشبه .

فتركتها باكارا ودخلت الى القاعة فرأت رولاند .

وكأنما حية لسعتها حين رأته فصاحت صيحة الدهش وتراجعت مندعرة الى الوراء ، غير ان رولاند دنا منها وركع أمامها . فنظرت باكارا اليه والى هذه المرأة التي تشبهها اتم الشبه وقالت لرولاند : قم يا سيدي فقد عرفت الآن كل شيء .

غير ان رولاند بقي راكعاً فعادت باكارا الى ريبيكا وقالت لها : من أنت ، يا من تشبهيني هذا الشبه العجيب ؟ وكيف تجاسرت على سرقة إسمي ؟

فقالت ريبيكا ببرود . إني يا سيدتي إبنة أبيك واسمي ريبيكا .

فسكن غضب باكارا وقالت بلهجة الحنو والاشفاق : إذن انت اختي ؟ . نعم فلقد ذكرت الآن فقد حكت لي امي حكايتك عدة مرات .

فقالت ريبيكا : يسرني منك ما أراه من إشفاقك علي بعد ان سببت لك من المصائب ما لا يحمل معه من الاشفاق ، فأصبحت اقرب الى عيشة التوبة والصلاح بفضل هذا الحنو ولا سيا بعد ان دعوتني أختك .

ثم ركعت أمامها بجانب رولاند وقبلت يدها وهي تشرق بالدموع ، فتأثرت باكارا لما رأته وقالت لها : إنهضي ايتها الأخت العزيزة فقد صفحت عنك . وأنت يا سيدي فانك لا تزال في مقتبل الشباب ولا شك انهم خدعوك

فان قلبك الصغير لا يسع مثل هذا الشر العظيم ، فأنا أسامحك ايضاً ، غير ان هذه المصيبة التي نكبتني بها لا تذكر بازاء مصيبة هذا الرجل النبيل الذي لقبني باسمه فيجب علينا ان نتعاون للوصول الى معرفة ذلك الجاني الأثيم الذي مثل هذا الدور الهائل وخدعنا جميعنا على السواء .

فنظر رولاند الى ريبيكا وقال : انت التي حضرت بك الى هذا المنزل بعد الانذار الشديد قولي الحقيقة الآن .

— نعم سأقول كل شيء .

ثم قصت على باكارا جميع حكايتها مع روكامبول ورولاند بالتفصيل وكانت باكارا مصغية اليها أتم الاصغاء فلما أتمت حديثها سألت باكارا رولاند : كيف كانت تصلك رسائلي ؟

— كان يحملها إلي خادم كان عندي وكان يقول لي ان له علاقة مع وصيفة الكونتس ارتوف فهي تعطيه رسائل سيدتها وهو يوصلها إلي .

— لقد قلت ان الخادم كان عندك الملك طردته ؟

— كلا بل انه سرقني وهرب

— ومن أدخله في خدمتك ؟

— أوصاني به صديق لي يدعى المركيز دي شمري .

فذعرت باكارا وقالت في نفسها : ما شأن هذا المركيز وبماذا أساءت اليه فإن جميع القرائن تدل على اشتراكه بهذه الجرائم ؟

وبعد ان افتكرت هنيهة قالت لرولاند : إنك يا سيدي إذا كنت لا تزال في طيش الصبى فان لك قلباً شريفاً ورثت دماءه من أبيك فهل تقسم لي بهذا الشرف بانك تمتثل لي في جميع ما أريد ؟

— إني اقسم لك بشرفي وبشرف أبائي اني أكون أطوع لك من البنان ، وسأنشر حديث غروري والخداعي بين جميع سكان باريس كي ..

فقطعت باكارا حديثه وقالت : اول ما أسألك إياه ان لا تفوه بكلمة عن

جميع ما علمته وان تدع الناس على اعتقادهم الأول بي ولذلك فان اختي ريبيكا ستبرح باريس في صباح غد مبرقعة الوجه بحيث لا يراها احد فان ساعة براءتي لم تحن بعد .

- ٤١ -

في صباح اليوم التالي هب الدكتور صموئيل من رقاده فدخل الى غرفة شغله وبدأ بمطالعة جرائد المساء فاستلفت نظره مقالة بعنوان : جريمة عظيمة بدأت كما يأتي :

« كثرت الجرائم في هذه الأيام دون أن يتمكن رجال الأمن من معرفة الأثيمين فقد نشرنا من قبل حادثة مقتل القوزاقي الذي كان قادمـــاً من روسيا الى باريس . أما اليوم فاننا ننشر حادثة أشد فظاعة وهي ان سكان إحدى الحارات في شارع مونمارتر رأوا في المساء ان المياه تخرج بغزارة من باب غرفة تسكنها إمرأة تدعى مدام فيبار ، وبعد ان أيقنوا انه لا يوجد أحد في الغرفة وخافوا خطر المياه المتدفقة أسرعوا الى استدعاء الشرطة .

« فأقبل رجال الشرطة وكسروا الباب فوجدوا ان المياه تخرج من قبو بعد امتلائه ورأوا رجلاً منزوياً في إحدى زوايا الغرفة والدماء تسيـل من كتفه وهو يحدق بعينيه تحديق المجانين فاخرجوه ونضحوا المياه من القبو ، فظهر لهم قتيلان أحدهما مدام فيبار صاحبة الغرفة وقد وجدت مخنوقـة والآخر يدعى فانتير ، وهو مطعون بخنجر اما الرجل المجنون فقد عرف بعد التحقيق انه يدعى زامبا ، وقـد كان خادم غرفة الدوق دي مايلي الخ »

فلما أتم الطبيب تلاوة المقالة شغل باله امران أحدهما جنون زامبا الناتج

عما لقيه من الرعب والثاني مقتل هذا الرجل في نفس اليوم الذي مات فيه سيده الدوق دي مايلي . فذهب الى المحل الذي عرضت فيه جثتا القتلين ، ففحصها فحصاً دقيقاً ثم ذهب الى المستشفى الذي نقل اليه زامبا وطلب ان يراه فما أوشك ان ينظره حتى تراجع منذعراً إذ علم انه نفس الخادم الذي ادعى ان العربة صدمته حينما كان المركيز دي شمري عنده فخرج لمعالجته تاركاً المركيز في غرفته كما عرف القراء .

وعند ذلك غادر المستشفى وذهب الى منزل الكونت ارتوف فاستقبلته باكارا وأخذته الى الحديقة حيث كان الكونت جالساً على مقعد وهو يرسم على الرمل بعصاه الحرف الأول من اسم باكارا غير مكترث بشيء مما حوله فاذا أتم رسمه محاه الحرف نفسه وهكذا دون انقطاع .

وكان الطبيب يراقبه فلما أيقن انه لا يهتم إلا بأمر واحد علم انه مسموم لا محالة بذلك السم الهندي فالتفت الى باكارا وقال: إطمئني يا سيدتي فاني سأشفيه باذن الله واسمحي لي ان اسألك سؤالاً واحداً وهو هل كانت علاقاتكم وطيدة مع الدوق دي مايلي .

— نعم .

فأخرج الجريدة من جيبه وطلب اليها ان تقرأ ذلك الفصل الذي قرأه ، فلما قرأته قرأت اسم فانتير ومدام فيبار جمدت عيناها وقالت : كل ذلك من صنع اندريا .

وكان الكونت لا يزال يرسم رسمه على الرمـــل ، فلما ثابت باكارا من دهشتها أشارت الى الطبيب ان يتبعها وخلت به فقالت : إن كل ما قرأناه وعلمناه يدل على حدوث الجريمة ، ولكن الظلمات تكتنفنا فلا نعلم شيئـــاً أكيداً وينبغي ان نخرج من هذه الظلمات الى النور ولنبدأ بما عثرنا عليه أمس فلقد ثبت لنا ان السم قد سرق من غرفتك

هذا لا ريب فيه .

ثم انك أصبحت واثقاً ان السارق هو المركيز دي شمري .

– لم يعد لدي أقل شك ، فلقد ذكرت إلحاحه علي بالحديث بشأن هذا السم .

– وقد ثبت لك اليوم ان جنون زوجي كان لشربه السم .

وذاك أكيد ايضاً .

إذن إسمع ما حدث لي .

ثم قصت عليه حديث رولاند وريبيكا بالتفصيل الى ان قالت له : إن ريبيكا لا تعرف الرجل الذي كان يغويها،ولكنها عرفت المنزل الذي كان قادها اليه في أول ليلة لقيها وهو في شارع سوسانس .

فأجفل الطبيب وقال : إن للمركيز دي شمري منزلاً في الشارع يستقبل فيه باسم فريدريك .

الملك ذهبت الى ذاك المنزل ؟

.. عدة مرات فقد كان يدعوني اليه لمعالجة رجل بحار مقطوع اللسان وشوهت القبائل المتوحشة وجهه بالوشوم .

فارتعدت باكارا عند سماعها قول الطبيب وقالت . أتقول انـه مشوه مقطوع اللسان ؟

فتعجب الطبيب لاضطرابها وقال هل تعرفين الرجل ؟

كيف لا أعرفه وانا التي قطعت لسانه بعد ان لاقيت منه الأهوال الشداد فان الرجل الذي قال عنه المركيز دي شمري انه بحار إنكليزي مــا هو إلا الفيكونت أندريا أي السير فيليام .

وعند ذلك قصت باكارا عليه حكاية اندريا إلى أن قالت : ان فانتير ومدام فيبار كانا من أعوانه ولقد حاربت هذا الرجل أربعة اعوام حروباً هائلة كنت المنتصرة في ختامهـا ، ولا شك ان فانتير وتلك العجوز لم يقتلا إلا بامره ولا شك أيضاً ان المركيز دي شمري كان آلة بيـــد اندريا فانتقم مني بما صنعه

بزوجي وبثلم شرفي غير انه إذا كانت فائدة اندريا الانتقام فأية فائــدة لهذا المركيز من هذا الانتقام ؟

اندهل الطبيب مما سمع وقال ان هذا سر غامض !.

– أنت واثق من أن زامبا الذي رأيته في المستشفى هو نفس الخادم الذي عالجته عند باب منزلك حين سرق منك السم ؟ .

– أتم الثقة .

– إذن لنبدأ به ، إنه لا شك شريك السارق ولم يعد لدي ريب الآن ان الدوق دي مايلي سيد هذا الخادم قد مات مسموماً باليد نفسها التي دست السم للكونت ارتوف ولا أعلم الآن حقيقة هذا الرابط السري الذي يوثق بين اندريا والمركيز وزامبا غير أن هذا الخادم كان يدعى زامبا حقيقة فقد كان قبل ان يخدم الدوق خادم الدون جوزيف الذي قتلته خليلتـــه في مرقص الجنرال الأسباني منذ شهرين ، وقد كان الدون جوزيف هذا خطيب ابنـة الدوق سالاندريا .

فقال الطبيب : نعم لقد سمعت بشيء من هذا .

– لا أعلم الآن لماذا دخل زامبا في خدمة الدوق بعد قتل سيده ، ولكن هذا اتفاق غريب وهو أن سيده كان خطيب ابنة الدوق وكان الدوق دي مايلي يحبها أيضاً وقد طلب الاقتران بها وكان ينتظر أوراقاً خطيرة من روسيا تحمل الدوق الأسباني على الرضى بتزويجه ابنته متى اطلع عليها على اننا مع جميع ما عرفناه لا تزال تحيط بنا الظلمات، أتعرف أين نجد النور الذي يبدد هذا الظلام ويكشف لنا الغامض عن هذه الأسرار ؟

– أين ؟

– في عقل الرجل المفقود الذي يسمى زامبا أتظن ان شفاءه من الممكنات.

– نعم ، وقد يشفى بسرعة ، فان جنونه لم يحدث إلا على أثر الرعب الذي تولاه .

— إذن إعلم انه إذا كان هذا البحري المشوه هو اندريا ، وإذا كان المركيز دي شمري آلة بيد اندريا وإذا كان السوق دي مايلي قد مات مسموماً فان الدقائق تعد بالساعات .

— ولماذا ؟

— يجب السرعة فان قريحة اندريا الجهنمية لا تقف عند حد فضيحة امرأة وقتل رجل .

— إذن فلنسرع واول ما أطلبه اليك ان تسألي أحد اصحابك من ذوي النفوذ أن يساعدني لدى الحكومة فتأذن لي بمعالجة زامبا في منزلي .

— ان ذلك سهل ميسور ، ثم قامت من ساعتها وكتبت كتاباً مطولاً بهذا الشأن إلى الكونت أرمان دي كركاز وأعطته للطبيب فأخذه وودعها وصار به إلى الكونت أرمان .

وبعد ثلاث ساعات ورد اليها كتاب من الطبيب يقول فيه أنه فاز بمراده وان الكونت ذهب بنفسه معه إلى دار الحكومة وان زامبا عنده في بيته .

فلما قرأته قالت في نفسها تخاطب أندريا ، انك قد عدت إلى القتـــال ولكني سأظفر بك أيضاً وفي هذه المرة لا ابقي عليك ولا اكتفي بتشويه أعضائك بل أريح الأرض من وجودك .

غير أن باكارا أخطأت فليست هي التي ستقتل السير فيليام .

- ٤٣ -

بعد ثلاثة أيام من الحوادث المتقدمة قدمت باكارا إلى منزل الطبيب صموئيل فاخبرها ان زامبـــا قد عاد اليه صوابه وانه عازم على أن يبوح بكل شيء

فدعوه الى غرفة السموم ، وجعلت باكارا تسأله وهو يجيبها ثم لما انتهت من أسئلتها جعل يخبرها بما عرفه من شأن هذا الرجل المتنكر وكيف انه تنكر بزي سائس وشك الدبابيس بكرسي الدوق دي مايلي فأدمى يديه وسرت اليه العدوى من جواده .

ثم ذكر لهم بالتفصيل جريمة المؤامرة على فانتير وقتل مدام فيبار وكيف أنه سمع تلك العجوز دعته روكامبول .

فصاحت باكارا صيحة منكرة وذكرت دون ان تريد اسم اندريا غير انها ما لبثت ان ثابت من دهشتها حتى انكشفت تلك الأسرار بعض الانكشاف ، وأيقنت ان روكامبول اراد قتل هؤلاء الثلاثة خشية على سره من الافتضاح ، فقالت للطبيب ولرولاند ، الذي كان يصحبهما دعاني أسأل هذا الرجل ، فإني أعلم من هذه الأسرار ما لا تعلمان .

ثم التفتت الى زامبا وقالت له : أعلم ايها الرجل انك في قبضة الحكومة التي عهدت الى الطبيب صموئيل معالجتك ، فمتى شاء الطبيب ردك اليها ، إصغ إلي الآن فانك قد اعترفت باقرارك انك انت الذي قتلت فانتير ، ويكفي ان يشهد الطبيب والمسيو رولاند عليك ، فلا يكون جزاؤك إلا الإعدام .

فاصطكت أسنان زامبا من الخوف وأجاب . عفوك يا سيدتي !

– ان العفو مناط باقرارك بكل شيء .

فيأس زامبا عند ذلك ولم يجد له منقذاً إلا الاقرار التام . فحكى لها كيف ان روكامبول اطلع على سر جريمته التي ارتكبها في اسبانيا ، فاستعبده من أجلها وذكر لها جميع ما كان يحدث بينهما ، في شارع سرسانس .

فقالت باكارا عند ذلك لرولاند أعرفت الكونت فابيان ؟

– نعم إنه من خير الناس .

– وكيف علائقه مع ابن عمه المركيز شمري ؟
– إنها على أحسن حال فان الكونت يحبه حباً شديداً .

فعجبت باكارا من ذلك وقالت لزامبا . أعرفت المركيز شمري ؟
– نعم رأيته مرتين إحداهما في منزل الدوق سالاندريرا والثانية في جنازة الدون جوزيف .

فسألت باكارا الطبيب عند ذلك ان يحتفظ على زامبا في منزله ، فأمر خادمه بالذهاب به الى الغرفة المعدة له ، بعد ان وعده خيراً . ولما خلت باكارا برولاند والطبيب قالت لهما : إني أرى ان تسميم زوجي وتسميم الدوق دي مايلي وقتل الدون جوزيف جميعها صنع يد واحدة ، وان صاحب هذه المكيدة كان يحاول امرأ واحداً وهو إبعاد هذين الخطيبين عن ابنة الدوق الاسباني ليزوجها برجل ثالث . أما هذا الرجل فلا أعرفه ولا اخشى إلا ان يكون روكامبول الذي لا يقف بجرائمه عند حد . ولكني لا أدري كيف يجسر هذا اللص على الطمع بزواج ابنة دوق من أعظم عظماء الأسبان . ولكني أرجح انه يخدم سواه في هذه المهمة .

أما أوجه تهمة المركيز دي شمري فهي متعددة : منها انه أرسل خادماً الى رولاند فمثل دوراً مهماً في الخيانة التي اتهمت بها ، ومنها انه هو الذي سرق السم الذي تسمم به زوجي ، ومنها انه كان يقيم في منزل سري له في شارع سرسانس وهو المنزل الذي كان يعالج فيه البحار الانكليزي وقد كان زامبا يجتمع به في ذلك المحل نفسه ، اي ان الطبيب عرفه فيه باسم المركيز دي شمري كما عرفه زامبا باسم روكامبول في اليوم الأخير ، فهل حدثت جميع هذه الجرائم لخدمة المركيز دي شمري ؟ وإلا فأية علاقة بينه وبين روكامبول ؟ وهل يمكن ان يكون الاثنان واحداً ؟ إن ذلك لا يصدق .

فقال رولاند : إن للمركيز دي شمري شهرة واسعة وليس بين أصحابه

من يذكره بسوء وعندي انه يستحيل ان يكون له أدنى اتصال بمثل هؤلاء اللصوص .

– لم يبق إذن إلا ان يكون روكامبول قد تقمص بالمركيز دي شمري لأن هذا المركيز فارق أهله صغيراً وعاد بعد أعوام طويلة ، فلا يبعد ان يكون هذا اللص وقف على سر هذه العائلة وجاءها بصفة ابنها وهو واثق من موته ، او انه قتله واطلع على اوراقه . فإني اعرف كثيراً من امثال هذه الحكايات .

فقال رولاند منكراً عليها هذا الظن: إن كل شيء ممكن ولكنك يا سيدتي رأيت المركيز وانت تعرفين روكامبول كما تقولين .

– نعم ولكني ما رأيته غير مرة ولم أنتبه اليه ولم يعد لي بد من ان أراه ، لأن هذا الشك قد تمكن مني فلا يزول .

أجابها رولاند . إن ذلك سهل فإني أدعوه الى منزلي للطعام وتختبئين في غرفة لتريه وتسمعين كلامه كما تشائين .

فقال الطبيب : إن ذلك غير ميسور الآن ، لأن المركيز قد غادر باريس منذ ثلاثة أيام .

فقالت باكارا العله سافر وحده ؟

– كلا بل صحب معه ذلك البحار المشوه الذي تقولين انه اندريا .

– انه اندريا دون شك . ولكن أعلمت اين سافر ؟

– نعم . إنه ذهب إلى ارض لصهره يريد بيعها للدوق سالاندريرا ، وقد ذهبت العائلتان منذ اسبوع ولحق بهما المركيز منذ ثلاثة ايام .

فقالت باكارا : إني أعرف هذه الأرض ، ولا بد لي ان ارى المركيز .
ثم قالت لرولاند : إحضر إلي في صباح غد واحرص أشد الحرص على ان تبوح بشيء مما سمعت ، لأن كلمة واحدة تخرج من فمك ، تفسد جميع ما انا شارعة فيه .

ثم ودعتها وعادت إلى منزلها .

وفي اليوم التالي جاء رولاند حسب الاتفاق ، فذهـل إذ رأى باكارا مرتدية بملابس الغلمان ، ومتأهبة للسفر فقالت له : إني تنكرت بهذا الزي كي يسهل اختلاطي بخدام الكونت فابيان ، فأرى المركيز كل حين .

– الملك ذاهبة الى تلك الأرض ؟

– بل إني ذاهبة معك الى أرض عمك المجاورة لها فهلم بنا اليها، وإني أرجو أن أتبين فيها وجه المركيز على ما اشاء .

فامتثل رولاند لها وخرج الاثنان فركبا مركبةوسارت بها الى تلك الأراضي غير انهما ذهبا بعد الأوان لأن اندريا وروكامبول سبقاهما بأربعة أيام جرى في خلالها من الحوادث ما سنقصه على القراء

– ٤٣ –

وليس في هذه الأراضي التي أراد الدوق سالاندريرا شراءها من صهر روكامبول سوى إنها زراعية طيبة المناخ ، وفيها قصر قديم البناء تنبسط أمامه مروج خضراء تنتهي بواد عميق هائل نشأت الصخور في جوفه واشتهرت تلك الأرض بذلك الوادي .

وكان فابيان وامرأته والدوق وابنته أقاموا جميعاً في هذا القصر المتسع وجعلوا يخرجون كل يوم للصيد في الأراضي الفسيحة فيقضي الدوق الاسباني ساجتين وهما النزهة وفحص تلك الأرض التي عزم على شرائها .

وقد تمكنت الصداقة في هذه الأيام القلائل بين امرأة فابيان وبين الغادة الاسبانية ، حتى افضت الى ان الغادة باحت لهـا بحبها لأخيها ، وانها تخشى معارضة أبيها .

وكانت امرأة فابيان تحب روكامبول حباً شديداً لاعتقادها انه أخوها وهي لم تصحب زوجها بهذه الحيلة إلا تمهيداً لزواجه بابنة الدوق بما تبذله من المساعي في هذا السبيل. فكانت تؤنس الشيخ وتلاطفه حتى مال اليها ميلاً عظيماً وباحثته مراراً بشأن أخيها بأحاديث مزوقة جعلت لروكامبول مكانة عظيمة في نفس الدوق فرضي عنه كل الرضى .

وكانت تكتم جميع هذه الأحاديث عن الغادة الأسبانية ولكنها كلما خلت بها أملتها خيراً إلى ان قالت لها ابنة الدوق يوماً . أراك تكتمين عني أموراً كثيرة ، وكلما سألتك عما يجري بينك وبين ابي تدعينني الى الصبر وتحملينني على الرجاء .

– نعم ولا أزال ادعوك الى الرجاء

– سأرجو كما تشائين ولكن ألا تقولين لي على أي أمر تعتمدين في هـــذا الرجاء ، لأن أبي لم يقل لي كلمة بعد عن المركيز .

– إذن ، إصغي إلي لأني سأخبرك بكل شيء . إن أباك يحبك حباً يقرب من العبادة ، ولا أكتمك الآن ما يحملني على هذا الرجاء ما قاله لي وهو انه سيدع لك الخيار في انتقاء الزوج الذي تهواه نفسك .

فظهرت علائم السرور على محيا ابنة الدوق وقالت أهو الذي قال لك هذا الكلام وباية مناسبة جرى الحديث ؟

– أتذكرين يوم ذهبت مع أمك وزوجي للنزهة ، وبقيت أنا مع أبيك في القصر .

– نعم .

– بينما كنت أتنزه وإياه في الحديقة سألني : إني أعجب كيف ان أخاك المركيز لم يحضر معنا ؟ فاضطربت عند ذلك اضطراباً لم يخف على الدوق ، وسألني عن أسباب اضطرابي فقلت له عند ذلك : ان أخي يحب حب يأس ، وان هذا الحب الذي لا رجاء فيه حال دون قدومه إلى هذه القرية . فعجب

أبوك وقال كيف ذلك ؟ العل تلك الفتاة التي يهواها مقيمـــة في القرية ؟ قلت : كلا بل إنها أتت اليها منذ ثلاثة أيام . فلما قلت هذا الكلام الصريح اضطربت اضطراباً عظيماً وكنت احسب ان حياتي متعلقة بتلك الكلمة التي ستخرج من فم أبيك بل كنت أخشى ان يقول لي إن أخاك عظيم الجسارة غير انه لم يقل شيئاً من ذلك ولكنه دهش لسؤالي ثم قال أأنت واثقة بما تقولين ؟ قلت : كل الثقة يا سيدي لأني أخته . قال : أيحبها حباً شديداً ؟ قلت : ليس وراء حبه حب لأنه عاش في بلاد الهند ولم يعرف الهوى قبل ان يرى ابنتك فملكت شغافه وتمكن حبها من فؤاده اي تمكن حتى بت أخشى عليه من الهلاك لأنه يكتم أمره في صدره وهو يعلم ان عائلة سالاندريا أعرق نسباً من عائلته وأبعد شهرة .

فقاطعني أبوك قائلاً : إن عائلتي يا سيدتي أكثر شهرة غير انها ليست أعرق نسباً قلت : وفوق ذلك يا سيدي إن التباين عظيم بين ثروتـــك وثروته ؛ فابتسم الدوق وقال لي بانعطاف : إننا متى اشتركنا زال التباين ، ثم أضاف بكآبة : إني عزمت يا سيدتي عزماً أكيداً أن أطلق لابنتي الحرية باختيـــار الزوج الذي تريده ، وذلك لأني اخترت لها ثلاثة خطاب فقضي عليهم جميعاً حتى تشاءمت من نفسي وبت اشفق على من يقع عليه اختياري من الخطاب .

فاختلج فؤادي عند هذا القول وقلت : إذن إذا كانت ابنتك تحب أخي أيمكن أن .. فقــاطعني قائلاً إنها تغــدو دون شك المركيزة دي شمري في أقرب حين . ولكني أخشى أن لا يكون هذا الحب متبادلاً بينهما وان تكون ابنتي تحب سواه .

فصحت صيحة فرح وقلت : سترى انها تحبه وإذا شئت ان تمتحن ذلك فاذكر اسمه عرضاً ونحن على المائدة ، ثم انظر اليها فترى ما يكون . أجاب : حسناً سأمتحن هذا الامتحان .

وقد فعل ذلك فإنكم بعد ان رجعتم من النزهة وجلسنا جميعاً على المائدة

ذكر أبوك اسم أخي ثم نظر اليك ونظرت معه فرأيت أن وجهك قد احمر احراراً شديداً ، وابتسم لي أبوك ابتساماً خفياً أشار فيه إلى اقتناعه من تبادل الحب وبعد أن قمنا عن المائدة خلا بي وقال لي لقد أصبت فيما قلته لي فاكتبي لأخيك ان يحضر وقد كتبت له أمس .

فنهضت ابنة الدوق وأكبت على عنق إمرأة فابيان تقبلها فجعلتا تتعانقان وكل منهما تنادي صاحبتها بأختي .

وكان الكتاب وقد وصل الى روكامبول ، كما يذكر القراء ، فأخذ اندريا وسافر معه .

وفي اليوم التالي خرج الدوق وامرأته وابنته وفابيان وامرأته من القصر للنزهة ، فلم يمشوا بضع خطوات حتى سمعوا صوت مركبة قادمة فوقفوا ينتظرون قدومها لندور قدوم المسافرين الى هذه القرية ، وكانوا كلهم يتكهنون عن القادمين بها ما عدا ابنة الدوق وامرأة فابيان ، فانهما كانتا موقنتين ان القادم هو المركيز دون سواه .

ولم يطل وقوفهم حتى وصلت المركبة وكان فيها روكامبول واندريا ، فلما رآهم روكامبول وثب مسرعاً الى صهره واخته فعانقهما وسلم على الدوق وامرأته وابنته باحترام شديد ممزوج بمظاهر الكآبة ، ثم قال لهم : إني أحضرت معي ذلك البحار المسكين لتغيير الهواء ، فقد كان يضنيه انحباسه في المنزل .

فقالوا جميعاً : حسناً فعلت .

وعادوا الى المنزل فوضعوا أندريا في غرفة خاصة ، وعينوا أحد خدام القصر لخدمته ثم خرجوا جميعاً للنزهة ثانية فعلم روكامبول من أخته ومن ابنة الدوق كل ما تقدم لنا بيانه ففرح فرحاً لا يوصف وأيقن من زواجه بتلك الغادة الاسبانية التي كلفته إهراق كثير من الدماء وعرضته لأشد الأخطار وبعد ذلك انضم الى الدوق وفابيان ، وكانا يتحدثان بامور الصيد ، وقد

اتفقا ان يخرجـا في الغد لصيد الدب ، فقـال لروكامبول : أتخرج معنـا غداً للصيد ؟

– بملء الرضى ، فإني تعودت صيد الوحوش الكاسرة في الهند ولا أحب إلي من هذا الصيد .

ولما عادوا إلى القصر دخل روكامبول إلى غرفة أندريا ، فأخبره بجميع ما كان . فظهرت علائم السرور على وجه هذا الرجل الذي لم يعرف قلبـه الحب الصحيح الى ان أصيب بتلك النكبة وانقطعت آماله من غرور الحياة فعادت اليه العواطف الإنسانية وأصبح يحن الى روكامبول ويحبه حب الآباء للأبناء فضغط ضغطاً شديداً إشارة إلى ما تولاه من الفرح وأخذ لوحه الحجري وكتب عليه كتابة طويلة أرشد فيها تلميذه الى طريقة يعرض فيها حالة الدوق للخطر في الصيد ثم ينقذه من الخطر .

فعلها ودخل الى غرفته فنام نوم المطمئن وهو يحلم طول ليلته بملايين الاسبانية وتاج الدوقية .

وخرج في اليوم التالي الدوق وفابيان وروكامبول بحاشية كبيرة من الخدم وقواد الكلاب . وقد التمس روكامبول من الدوق ان يوليه إدارة هذا الصيد ففعل ، فأصـدر روكامبول أوامره للخـدم ان يطاردوا الدب في جهة عينها لهم ، إلى أن وصلوا اليها فعين موقف الدوق فجعله بعيداً عن فابيان واختبأ هو على مسافة قريبة منها بين الأدغال فجعل ينظرون قدوم الوحش بفـارغ الصبر وكلهم متأهب على صهوة جواده لقتاله .

وبعد ساعة علا نباح الكلاب وقـدم الوحش من جهة الدوق ، فصوب الدوق بندقيته عليه وأطلق النار فأخطأه . فهاج غضب الدب فأطلق النار عليه ثانية فجرحه جرحاً بالغاً . غير ان الوحش لم يسقط بل هاج هياجـاً عظيماً وهجم على جواد الدوق ، ونشب أنيابه في ساقه فسقط الجواد بفارسه على الأرض وأيقن الدوق من الموت فرمى بندقيته واستل خنجره للدفـاع به

الدفاع الأخير ، وشعر بانفاس الدب تهب على وجهه وهو يمزق صدر الجواد ، ولكنه قبل ان يصل الوحش اليه سمع دوي بندقيـــة ورأى ان رصاصة وقعت في ظهر الدب ، فترك الوحش الجواد منذعراً والتفت الى الوراء ليرى هذا العدو الجديد

والتفت الدوق بعده فرأى روكامبول هاجماً عليه بجواده ورأى الوحش هاجماً عليه ، فأطلق عليه روكامبول رصاصة ثانية ثم ترجل عن جواده فاستل خنجره وهجم على الوحش بعد ان أصابه رصاصه بجراح بالغة ، وما زالا يتجولان وروكامبول يحذره ويلتمس منه مطعناً حتى ظفر بـــه وطعنه بخنجره طعنة صادقة بقلبه فانقلب الدب صريعاً يتخبط بدمائه .

وفيما هو يمسح خنجره بجلده غير مكترث لشيء إذ دنا منه الدوق وقال له بصوت يتهدج : إركع يا بني واشكر الله معي ، فلقد نذرت اليه نذراً وأجابني الى دعائي .

فقال روكامبول : أي نذر هو يا سيدي ؟

— إني كنت منذ خمس دقائق بين مخالب هذا الوحش الكاسر فنذرت الى الله ان أجعلك ولداً لي إذا سلمت من هذا الخطر وقد سلمت منه ، وأنت الذي أنقذتني .

فوجف قلب روكامبول وأجاب : أنا ولدك ؟

— نعم يا بني ، عرفت كل شيء فإنك تحب ابنتي وهي تحبك ولا بد لكما من القران .

وعند ذلك رأى روكامبول ان حسن الذوق والمجاملة يقضيان عليه بالإغماء فتظاهر انه أغمي عليه من السرور وسقط على الأرض لا يعي .

فأسرع الدوق اليه وجعل يفك أزرار ثوبه وينادي فابيان إلى ان أتى لنجدته فرأى روكامبول انه قد حان له ان يفيق من ذلك الإغماء الكاذب ، فلما استفاق رأى أمامه الدوق وفابيان ، فقال الدوق لفابيان وهو يضطرب :

إصغ إلي أيها الفيكونت . إن ثلاثة خطبوا ابنتي فلقي كل حتفه دون أن يحقق أمانيه من الزواج ، حتى لقد بت أخشى على المركيز وهو الخطيب الرابع ، ولما كان المركيز قد أصبح ولدي وكنت مديناً له بالحياة فلنسرع بعقد زواجه على ابنتي لأن هذا الزواج لا بد منه في القريب العاجل بل اني أريد أن يكون غداً وهو يوم أحد . فتول عني إبلاغ الكنيسة هذا الزفاف الذي سنحتفل بالاعلان عنه غداً دون شك

– ٤٤ –

وفي يوم الأحد أي في اليوم التالي وعظ الكاهن في كنيسة تلك القرية الصغيرة وأعلن الناس أنه سيحتفل قريباً بزواج المركيز فريدريك البرت أرثوريه دي شمري أحد ضباط البحرية في الهند الانكليزية على المدموازيل كسبسيون ابنة الدوق سالاندريا .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر جاء المسجل الى القصر فخلا بالدوق ساعة ثم خرج به الى القاعة العمومية حيث كان ينتظرهما الفيكونت فابيان وامرأته وامرأة الدوق وأندريا وهو جالس بينهم بملابسه الرسمية وكان روكامبول والقادة الاسبانية جالسين بمعزل عن الحضور يتناجيان الغرام .

فجعل المسجل يكتب شروط الزواج أمام الدوق وفابيان الذي كان ينوب عن روكامبول ، وقد ذكر فيها ثروة روكامبول وخطيبتـــه ، وان الدوق يحق له ان يورث القابه واسمـــه للمركيز دي شمري بعد وفاته ، فيتسمى المركيز باسمه ويلقب بالدوق سالاندريا حفظاً لنسب العائلة ، إذ ليس لها وريث ذكر .

وبعد أن أتم الكتابة أقبل الجميع وفي مقدمتهم روكامبول وخطيبته فوقعا

على صك الزواج ثم تلاهما الباقون الى ان انتهى الدور الى اندريا فقاده روكامبول الى الطاولة وأعطاه القلم .

فأدمعت عينا أندريا حنواً على تلميذه وجعل القلم يرتجف بيد هذا الرجل الجهنمي الذي لم يرتجف بيده الخنجر ...

- ٤٥ -

في مساء ذلك اليوم الذي فاز فيه روكامبول بما يبتغيه بعد جده الطويل ، وبعد ان قتل في هذا السبيل النورية ومرضعتها والدون جوزيف والدوق دي مايلي وفانتير ومدام فيبار ، وبعد أن هتك عرض باكارا وذهب بعقل زوجها وبعد ان قتل المركيز شمري وزامبا كما يظن ، كان الليل مدلهماً والحر شديد والرياح تهب حارة والسماء متلبدة بالضباب وعند منتصف الليل جعل الرعد يقصف والبرق يتألق في تلك السماء المظلمة .

وكان جميع سكان القصر نياماً ولم يبق صاحياً غير روكامبول ، فكان يسير في غرفته ذهاباً وإياباً سير المضطرب يتنازع فؤاده عاملان لا يعلم الى أيهما يخضع .

وكان يقف خلال مسيره فيضع يديه على جبهته ثم يعود إلى السير بخطوات غير متوازنة تدل على اضطرابه ، ثم يدنو من زجاج النافذة فيفتحه وينظر الى ذلك الوادي السحيق الذي يشرف عليه القصر فيتراجع منذعراً ويعود الى مشيه المضطرب .

فما أصاب هذا الرجل وقد أدرك أقصى أمانيه فوقع على صك الزواج وتعين القران الديني في الليلة التالية . ألعله أصيب بنكبة بعد التوقيع على الصك أم تأخر الزواج لعارض فجائي ؟

كلا ، إنه لم يصب بشيء من ذلك ولكنه كان مضطرباً لأنه كان يحاول الإقدام على أمر هائل تنازعت فيه مصلحته وعواطفه إذا صح القول بأن لهذا السفاك الجهنمي عواطف إنسان دون أن نهين تلك الكلمة .

وكان يناجيه أثناء سيره المضطرب صوتان : صوت حب الذات والأثرة الوحشية التي كمنت في فؤاد لص قاتل يريـد ان يمحو جميع براهـين ذنوبه السابقة ، وصوت يقرع ضميره ونفسه ويذكره واجب الاشفاق والامتنان وعرفان الجميل.

غير أن لكل نزاع نهاية ، وقد انتهى تنازع نفسه بالاصغاء إلى الصوت الأول ، فرفع رأسه بعد انخفاض وقال : لا بد لي من الانتهاء ، فسـأغدو من عظماء الأسبان ولا يجب ان يبقى في هـــذه الأرض من يعرف جرائمي واسمي القديم .

وعند ذلك امتنع تردده فزرر ثوبه ولبس قبعته وفتح باب الغرفة فخرج منه يحمل مصباحاً ودخل الى غرفة أندريا فوجده في سريره ، ولكنه لم يكن نائماً فقال له : أراك مثلي أرقاً العل الحر منعك عن النوم ؟

فأشار برأسه إشارة إيجاب ، فقال روكامبول : وانا كذلك وقد زاد على الحر اني سأتزوج غداً وكيف يستطيع المرء رقاداً ليلة زفافه ؟ ثم اني أتيتك لأحدثك بمشروعاتي في المستقبل .

فابتسم اندريا ابتساماً معنوياً كأنه يريد أن يقول لتلميذه : العلك مللت الشر بعـد بلوغك منتهى ما طمعت فيـه ، وأردت ان تكفر عن ذنوبك بصنع الخير ؟

فأدرك روكامبول معنى ابتسامه وقال ٠ هو ما تظن إذ أصبحت في غنى عن ارتكاب الموبقات .

ثم أعطاه سيكارة وقال : هلم بنا نخرج الى السطح فنتحدث ملياً ونأمن شر هذا الحر .

فامتثل أندريا وخرج به روكامبول بعد أن البسه ثيابه الى السطح المشرف على الوادي وجلسا هناك على حافة السطح يتحدثان الواحد بلسانه والآخر باشارات رأسه ويديه ، فقال روكامبول مفتتحاً الحديث : أتعلم يا عماه اني قد نلت ما لا ينال وغدوت من عظماء الأسبان ، وانا لا أعلم اين ولدت ، وقد ربيت في خمارة ، فنشأت بها سفاكاً لا يقف بجرائمه عند حد ؟

فهز أندريا رأسه إشارة الى الموافقة وهو يبتسم إعجاباً بتلميذه فقال روكامبول : إن صفحتين تكتبان من تاريخ حياتي تكفيان لارسالي إلى ليمان طولون وأربع صفحات تبعث بي الى المشنقة ، ولكنك تعلم ان هذه الصفحات الأربع لا يأذن المركيز شمري سالاندريرا أن تكتب .. ولقد أرشدتني يا عماه الى التخلص من الذين وقفوا على بعض أسراري فقتلت الثلاثة ودفنتهم في قبو واحد فلم يعد الآن في الأرض من يعلم ان المركيز دي شمري كان يدعى روكامبول إلا أنت يا عماه .

فابتسم أندريا ابتساماً كأنه يقول له : إنك تعلم أني لا أخونك وإني أحبك كما يحب الأب وحيداً له .

فلم يحفل روكامبول بما رآه وقال : أتعلم أين نحن الآن ؟... إننا في أقصى مكان من سطح هذا القصر الشاهق ، وهو مكان منعزل لا يحيط جار ولا تبلغ الأصوات منه سكان القصر ، فلو أراد أحدهم قتل إنسان فيه لما سمع استغاثته أحد .

ولم يكن أندريا يستطيع المحادثة لأن لوحه الحجري لم يكن معه . فكان روكامبول يتولى الحديث وحده فقال بعد سكوت قصير : إن الفضيلة خير ما تستنير به النفوس يا عماه ، ولا سيما لمن سار مسيري في طريق الآثام ، ولهذا فسأكون من فضلاء القوم إرضاء لمروسي وأغدو في طليعة رجال الخير والاحسان كما تقتضيه ثروتي الطائلة ومركزي المعظم .

فصفق أندريا بيديه إشارة الى الانذهال من استحالة أخلاق تلميذه فقال

روكامبول . لا تعجب ايها الأستاذ فلقد القت تمثيل دور المركيز دي شمري حتى بت أصدق نفسي ولا أحسب إلا إني ولدت مركيزاً ولم أدع يوماً بروكامبول ، ولم أعرف أبداً هذا الرجل السافل الجهنمي الذي يدعى السير فيليام .

وقد قال هذا القول وجعل يضحك ضحكاً شديداً . فلم يستاء أندريا وحمل تلك الاهانة على محمل المزاح .

ثم عاد روكامبول الى الحديث فقال : لقد أحسنت الى نفسي حين لقيتك وأنت تعرض على المسارح لقبح سحنتك وتشويه خلقتك ، فأنقذتك وذلك لأنك أرشدتني خير إرشاد في مسائل الدون جوزيف والدوق دي مايلي والكونت أرتوف ، وليس من ينكر انك داهية شديد الذكاء . غير ان لديك عيبين عظيمين يا عماه ، أحدهما أنك لا تزال تكره أخاك الكونت أرمان دي كركاز كرهاً شديداً ، فإذا لم أضع حداً لكرهك فقد تدفعني الى الانغماس في جرائم أخرى كي تشفي غلك دون الانتقام ، وأنا أحب أن أعيش عيشاً صالحاً أحفظ به كرامة اسمي الشريف . وعيبك الثاني انك تجاهر بمبدأك فقد علمتني يوماً هذه القاعدة وهي أنه إذا اشترك اثنان في جريمة وجب على القوي منهما ان يقتل الضعيف .

فلما سمع أندريا هذا القول ملأ الشك قلبه وحاول أن يقف فوضع روكامبول يده على كتفه وقال له ضاحكاً : إجلس أيها الأبله ودعني أتمم حديثي فاسمع .. إننا الآن يا عماه جالسان على حافة سطح تحته واد سحيق كثير الصخور يبلغ عمقه نحو مائة متر .

فأجفل أندريا وأيقن من قصد روكامبول فحاول النهوض غير ان روكامبول أسرع إلى عنقه يضغط عليه بيديه كما فعل بدام فيبار وقال له : يعز علي ان يكون بيننا هذا الفراق ويكون هذا جزاؤك مني غير أني أعمل بما علمتني ومثل المركيز دي شمري لا يجب أن يعرف السير فيليام .

وعند ذلك ضغط ضغطاً شديداً على عنقه فوثب اندريا مدفوعاً بحفظ الحياة

وهب هبة شديدة فتخلص من روكامبول وحاول الفرار غير انه لم يعلم أين يفر وهو لا يرى فأتى روكامبول وحمله يريد القاءه الى الهوة فجرى بينهما نزاع هائل أسفر عن تغلب روكامبول عليه فألقاه الى الأرض ووضع ركبته على صدره ويده على فمه وقال له بلهجة المتهكم : لا تقنط لهذا الموت فسنلتقي في جهنم ولا تعدم وسيلة للانتقام .

ثم دفعه الى الهوة فانقلب يهوى في ذلك الوادي السحيق .

فسمع روكامبول صوت سقوط جسمه وتحطمه على الصخور ثم انقطع الصوت وساد السكون.

وعند ذلك قصف الرعد وأبرقت السماء برقاً متصلاً أنار الأرض كما ينيرها ضوء الشمس فرأى روكامبول على ضوء البرق المتألق جثة أستاذه أندريا ملقاة في أسفل الوادي وذكر في الحال ما قاله في حياته وهو (انا النور الذي يضيء نجم سعودك فإذا هلكت انطفأ النجم) .

فجثا روكامبول على ركبته وقد هاله ما فعل فقال : رباه ! لقد خفت .. أنا الذي لم أعرف الخوف .

وحق لروكامبول ان يخاف فقد أطفأ بيده تلك الشمعة الجهنمية التي كان يسترشد بها في ظلمات الآثام وأما أندريا فقد زجته ذنوبه الى الهوة الأبدية فقتل باليد التي طالما دفعها للقتل وصح فيه قولنا :

هكذا عاقبة الاثم فما ... لقي الانسان إلا ما صنع
بشر القاتل بالقتل فمن ... زرع الشر جنى مما زرع

انتهت رواية « الغادة الاسبانية »

ويليها الجزء الرابع من روكامبول « انتقام باكارا »

الجزء الرابع

انتقام باکارا

انتقام باكارا

- ١ -

بعد مضي نحو شهرين على الحوادث التي سبق ذكرها في رواية الغادة الاسبانية كانت مركبة بوستة قد سافرت من اورليان في الساعة العاشرة من المساء تجري في أرض تورين نحو الساعة الخامسة من الصباح على الطريق العمومية المؤدية من تورين إلى مدينة صغيرة تدعى ج... توجد على نحو ثلاثة فراسخ منها أرض اورنجاري التي ماتت فيها منذ ١٨ عاماً المركيزة دي شمري أم المرحوم هكتور دي شمري والآنسة اندري برينوت .

وكانت المركبة المذكورة تقل رجلين قد اشتهرا عند القراء وهما الفيكونت فابيان دي اشمول والمركيز فردريك البر اوري دي شمري أي بطلنا روكامبول .

وكان روكامبول يومئذ كالخيال الذي لا حراك له أصفر اللون حائر البصر تبدو على وجهه علائم القلق وينبيء منظره انه واقع في شرك حزن قاتل لأن رفيقه كان ينظر اليه فيراه غائصاً في لجة عميقة من الأحزان ينظر إلى جانبيه نظر رجل قد تملك الجزع نفسه وضاقت عليه الدنيا برحبها .

قبض الفيكونت على يد المركيز قبضة اشفاق وقال له : ألا تدري أيها

الصديق انك تخيفني .

فتكلف روكامبول الابتسام واجاب : أنا أخيفك أيها الصديق ؟

– نعم .

– وكيف ذلك ؟

– ان رؤيتك على هذه الحالة من القلق والغم منذ شهرين لم أعلم لها سراً .

– ليس في ذلك ما يخيف ، ومعرفة هذا السر سهلة جداً .

– مهما تكن معرفة هذا السر سهلة فانني لم أدركها بعد .

– أما تعلم انني أحب ابنة الدوق سالاندريا ؟

– وماذا يحزنك من ذلك وأنت ستتزوج بها بعد ستة أسابيع .

فهز روكامبول رأسه وقال : ان نفسي حزينة ضعيفة الأمل وكان صوته مختنقاً حتى لم يكد فابيان يسمعه .

فقال الفيكونت . اني أشعر انك ضعيف العواطف وليس لك جلد وصبر على حلول المقادير .

– بربك لا تذكر لي هذا الكلام فانه يزيدني حزناً .

– كنت اظنك أيها الأخ العزيز اكثر صبراً وأقوى جلداً على تقلبات الأيام وطوارق الحدثان ولا سيما ان ما تستعظمه مما ألم بك ليس في الحقيقة شيئاً عظيماً أن حظك السعيد الذي تطلبه انما قد تأخر إلى ستة اسابيع فستقترن بعدها بابنة الدوق سالاندريا وتكون أسعد حظاً وأوفر سروراً واذا كانت المقادير السيئة قد قضت بموت أبيها في صباح اليوم الذي كان تقرر فيه قرانكما فكان من الضرورة تأخير هذا القران فما ذلك من الأسباب التي توهن عزمك وتضعف أملك لتهرع إلى هذا اليأس الذي أنت فيه وبالله كيف لا يكون من الضرورة تأخير هذا القران وقد التزمت هذه الغادة الأسبانيــة أن تبدل حلتها البيضاء بحلة سوداء حداداً على أبيها وعلى خادمك البحري أيضاً الذي مات ضحيــة العاصفة القوية في نفس الليلة التي مات فيها صاحبنا الدوق سالاندريا .

فتنهد روكامبول ولم ينبث بكلمة .

فعاد فابيان إلى كلامه وقال . ان العادة الأسبانية لم تكن تستطيع الأقتران بك في اليوم التالي لوفاة والدها وكان من الضرورة أن يتأخر زمن الزواج طبقاً للعادة المتبوعة عند الأسبانيين في الحداد ولا شك ان هذه العادة لا تزال تحبك كالمحبة السابقة بل أن محبتها تزيد مع توالي الأيام وهل مر عليك يوم واحد لم تحصل فيه على رسالة ودية منذ ضمها مع والدتها قصر سالاندريرا حيث احتفل بجنازة الدوق ؟

– كلا فهي تراسلني كل يوم .

– ومع ذلك فانت حزين قلق البال بدون انقطاع تندفع مع تيار الهواجس الكاذبة حتى كأنك في حلم عميق تصدق فيه كل ما يبدو لك ويمر ببالك ، ولقد مضى بضعة أيام وأنا واختك بلانش امرأتي في قلق وخوف من حالتك الحاضرة.

– انني اقاسي في نفسي عذاباً كعذاب الموت .

أجننت أيها الصديق أما ترى أن يوم سعدك سيحل في القريب ؟

– ومن يعلم ذلك ؟

لفظ روكامبول هذه الجملة الوجيزة والاضطراب آخذ منه أشد مأخذ ثم ما لبث أن تظاهر بالسكينة والدعة ورفع رأسه وهو يتكلف الابتسام وقال : كأنك أنت لا تكاثرك الهواجس ولا تضطرب منها .

– كلا ، فلا تأثير لها علي .

– إذن فما أسعد حظك .

– كأن في نفسك شيئاً تريد قوله : وإلا ماذا تعني بهذا الكلام ؟

– أريد أن أقول انني قد طالما علقت الآمال بالسعادة ونيل المنى وما زال يبدو في خاطري انني انخدع ببارق الآمال ولا أقصد غير السراب وقد حلمت حلماً راعني جداً وما زلت موجساً خيفة من مغزاه وقد كان في الليلة التالية لموت الدوق سالاندريرا وذلك البحري التعيس ولتر بريت .

— وما هو هذا الحلم ؟

— هو اني بعد ان أغمضت عيناي حلمت ان رجلاً يوقظني فاستيقظت في الحلم وإذا برجل يلبس اثواباً بيضاء قد تقدم مني وجلس عند موضع قدمي من السرير ، فحدقت به فرأيته البحري ولتر بريت ولكني رأيته على غير هيأتـه الماضية فليس عليه شيء من علائم التوحش وليس أعمى العينين كما كان ، فمنظره جميل وعيناه صحيحتان زرقاويتان وابتسامته ابتسام رجل عظيم ، ثم انه ما لبث أن نظر إلي قائلاً : انني انتقلت إلى الحياة الثانيـة ، وما أتيت اليك إلا لأخبرك بالمستقبل . .. . وأشار بيده إلى السماء من النافذة المفتوحـة وأراني بين الغيوم المتكاثفة نجمة زاهرة فهذه النجمة كانت عندئذ سافرة زاهية ثم لم يكن أكثر من لحظة عين حتى رأيتها كأنها تضطرب ثم سقطت في الفضاء واضمحلت ولم يبق لنورها أثر .

— ومن الذي لا يضحك عندما تقص عليه هذا الحلم ويعلم اضطرابك منه .

— بالحقيقة انني أعتقد أن هذه النجمة هي نجمة حياتي .

— ما هذا الجنون ؟

— ونفسي تحدثني بأنه من المستحيل أن اقترن بالغادة الأسبانية .

— لو لم تكن عاشقاً لعددتك مجنوناً، ولكن العشاق تكثر عليهم الهواجس ولا سيما انك قد زاد ما اتفق من موت الدوق وتأخير الزواج هواجس بالك المتغلبة عليك فهرعت إلى الحزن واليأس على انك في الحقيقة ستنال عن قريب غاية مناك وانني متحقق بانك ستقترن بابنـة الدوق سالاندريرا وهي ستصير المركيزة دي شمري قبل مضي شهرين .

فكأن كلام فابيان كان يعيد إلى روكامبول بعض الآمال فانتعش قلب روكامبول وقال لفابيان وهو يبتسم عن أمل وفرح ، عسى أن يحقق الله أملي فمن اتكل عليه لا يخيب ، وأنا قد رجعت الآن إلى نفسي فظهر لي أن اليأس الذي جنحت اليه ما كان إلا من كثرة هواجسي الكاذبة وان الأولى بي أن

أعود إلى الرجاء والاتكال على الله .

فقال فابيان الحمد لله فان مرادك قريب المنال فاجتهد ان تطرد عن خاطرك كل هاجس كاذب وان تبدو دائماً مستريحاً مطمئن البال لا يبدو عليك أثر من علائم الحزن واليأس .

– سأجتهد في كل ذلك ولا أكون إلا كما تقول ولكن هل نقيم مدة طويلة في الاورنجاري ؟

– إننا ليس لنا فيها أشغال نروم قضاءها وما مجيئنا اليها إلا للتنزه وترويح النفس ، وأنت لم تذهب اليها منذ أتيت من بلاد الهند ، وأنا قد تركت أشغالي لأجل الحضور بك اليها فلا غرو إذن إن قضينا فيها أياماً قليلة نشاهد أماكنها الجميلة ونشرح الصدر بطيب هوائها .

فتنهد روكامبول تنهد جزع لما سمع ان مدة أيامها فيها ستكون طويلة :

تابع فابيان : لما تتنهد وتجزع فانني قد أتبعت نصيحة طبيبك صاموئيل اليوت فهو الذي أشار اليّ باطالة هذه السفرة بالاورنجاري من أجل شفاء نفسك وزوال الهم عن قلبك .

فارتعش روكامبول من سماع هذا الكلام ولم ينطق بكلمة .

فقال فابيان . إن الطبيب الذي عرضت عليه حال صحتك مراراً كثيرة منذ دخولنا إلى باريس قد انفرد بي منذ أيام وقال لي إنني أصنع حسناً إذا سافرت بك من باريس مدة أيام لأجل تغيير الهواء ، وقد أردت تلبية إشارته وعرضت عليك السفر إلى الأورنجاري فرضيت به .

فقال روكامبول وقد تناول يد فابيان وتظاهر بالسكينة ربما كان الطبيب مصيباً بما أشار به فإنني أشعر ان ضيق الصدرعن الصبر هو الذي يسبب آلامي وكثرة الغم تسقمني وتكثر هواجس نفسي ولكن يجب أن أكون اليوم أبعد عن الهم من الأمس وأن لا أميل إلى التخيلات الكاذبة التي تشتد عليّ وتسبب علتي ثم قال وهو يبتسم : ويجب ان انتظر بكل سكينة أيام سعادتي الآتية .

– أتعدني بذلك ؟
– نعم أعدك به وعداً صحيحاً.

وعند ذلك أراد فابيان أن يغير هذا الحديث ليزيل عن خاطر روكامبول كل شيء يمكن أن يؤثر عليه فقال له : أين نحن الآن من أرض الأورنجـازي ؟ وأطل رأسه من نافذة المركبة ليرى الناحية التي هما سائران فيهـا ففعل روكامبول فعله وجعـلا يرسلان بصريهما إلى جوانب تلك الأرض التي تسير المركبة عليها .

وكان ذلك اليوم من متوسط شهر ابريل والساعة تقرب من الخمسة ونصف من المساء والسماء صافية الأديم خالية الأفاق من الغيوم ، وكانت المركبة التي تقل فابيان وروكامبول تجري عندئذ بين مروج خضراء تتصل بمدينة س .. التي تكاد المركبة تصل اليها وكان ذلك اليوم يوم السبت أو بالأولى يوماً من أيام المواسم

وكانت الطريق عندئذ تكاد تزدحم بالذاهبين إلى هذه المدينة من سائر القرى وهم يسيرون عليها بين مشاة على الأقدام وركب على الخيول وعلى العربات وقد زادت الطريق ازدحاماً بهم ولا سيا عندما وصلوا إلى قرب المدينة فهناك ظهرت عليهم ملامح المسرعين لمشاهدة شيء عظيم وجعل يزاحم بعضهم بعضاً في دخول المدينة .

وكان يظهر من ملامحهم وكثرة عددهم انهم يحضرون إلى المدينة لمشاهدة مشهد عظيم وكانوا كلهم يقصدون ساحة الموسم ، أو ساحة المهرجان وقبل ان يصل راكبوا الخيول والمركبات إلى المكان المذكور كانوا يلـتزمون أن ينزلوا عن خيولهم ومركباتهم ويسيرون على أقدامهم كي لا تدوس خيلهم أحداً من الجموع المزدحمة في الطرق حول ساحة المهرجان ، فلم يشعر فابيان وروكامبول إلا والمركبة قد وقفت ونزل خادم الفيكونت أي خادم فابيان عن كرسيه وتقدم من النافذة وقال : لا تستطيع المركبة التقدم إلى الأمام ومن المحال ان تتقدم عن هذا الحد . فدهش روكامبول وسأله عن السبب ، فأجاب : سيحل قضاء الموت

بعد خمس دقائق في ساحة المهرجان والأسواق جميعها مزدحمة بالناس والخيـل والعربات عند هذا الحد ولا يدعونها تتقدم خطوة إذ لا سبيل لها .

فما كاد روكامبول يسمع لفظ القضاء حتى أجفل واهتز من الجزع فتنهـد فابيان وقال : لقد فهمت الآن لماذا يحتشد الناس ويتسابقون إلى دخول هـذه المدينة ، فقد كنا ظننا ان كثرة الوفود ناتجة عن كون هذا اليوم من أيام المواسم ولكن مثل هذه الجموع الغفيرة وهذا الازدحام الشديد لا يكون لأجل ذلك .

وبينما المركيز والفيكونت يسرحان أبصارهما من نافذة المركبة إذ نظرا على مسافة مئة متر منها آلة قطع الرؤوس مهيئة في ساحة يحيط بها الجنود ثم يحيط بهم من كل جانب جماهير غفيرة من الناس وهم يشخصون ابصارهم في هذه الآلة المخيفة ويتساءلون عما جنى الأثيم المحكوم عليه بالاعدام ويكادون يرجفون هولاً من شدة العبرة التي نالتهم من رؤية الآلة الهائلة ومنظر هذا المشهد المخيف .

أما فابيان فإنه أمر بأن تساق المركبة راجعة من حيث وصلت فقـال له السائق . لا استطيع العودة الآن ، لأن وراءنا جماهير يتوافدون وهم مزدحمون ازدحاماً بحيث يجب ان ننتظر حلول القضاء الهائل حتى يرجع النـاس الذين وراءنا فنكون نحن بعدهم أول الراجعين من الذين امامنا .

فتنهد الفيكونت وقال : بالله ما هذا المشهد الفظيع الذي ستبصره الآن عيوننا بالرغم عن إرادتنا .

أما روكامبول فحين سرح بصره في آلة الاعدام استولى الرعب على قلبـه وحول وجهه عن النافذة كي لا يراها فكأنه لم يهرق في عمره دمـاً ولم يشهـد مشهداً مؤثراً من مشاهد القتل والخنق التي كانت يده آلة في زمـانه السابق وكأن هواجسه الشديدة قد مثلت له ان هذه الآلة إن لم تكن مهيئـة له في نفس ذلك الوقت ، فهي ستهيىء له قريباً وتهرق دمه بمشهد أشد تأثيراً على الناس من المشهد الذي كان يراه ، وبينما هو وفابيان صامتان متأثران إذ سمعا امرأة بالقرب من المركبة تقول لرفيقتها : الويل لهـذا الجاني التعس فان ساعته

قد دنت وسيعدم في الساعة السادسة .

وكان بالقرب من المرأتين رجل لا يزال راكباً على حماره يدير أذنيه إلى كل متكلم ليعرف حقيقة الجريمة التي جناها ذلك الشقي المزمع إعدامه فلما سمع كلام المرأة سألها قائلاً : وماذا صنع هذا التعس فاستحق هذا الجزاء الشليع ؟

– قتل امرأة تعسة كانت قد ربته كولد لها .

- وكيف قتلها ؟

– خنقها بيده القاسية ولم يشفق عليها وهي عجوز لم يبق لها في الحياة غير ايام قليلة فقطع حبال أيامها ظلماً غير مكاترث بعاقبة فظاعته .

فلما سمع روكامبول كلام هذه المرأة اقشعر بدنه وارتجفت أعضاؤه من شدة الخوف واصفر لون وجهه حتى كاد يموت خوفاً وجزعاً .

ثم سأل الرجل المرأة . وكم يبلغ من العمر هذا الشقي المحكوم عليه ؟

– عمره ثمانية وعشرون عاماً .

فزاد روكامبول ارتعاداً ويأساً وهو مصغ إلى تتمة الكلام .

ولم تكد المرأة تنتهي من كلامها حتى جعل القوم من كل جهة يلفظون قائلين : ها هو قد ظهر ، يعنون المحكوم عليه ، ولم يلبثوا ان سادت بينهم السكينة وشملهم الهدوء ولم يعد لهم غوغاء تسمع كأنه لم يكن في ذلك المكان جموع تضج وتلغط .

وفي الوقت نفسه بينما كان فابيان منحني الرأس متخشعاً يصلي الى الله عن هـذا التعس المزمع إعدامه أخذ روكامبول يتكلف هيئة فابيان وعمله فخانته الحال وشعر في نفسه بقوة غالبة رفعت ابصاره رغماً عن إرادته إلى آلة الاعدام وجعل يزداد ارتجافاً من شدة الخوف والعرق البارد يتصبب من جبهته ولكن فابيان كان منشغلاً عنه بصلواته فلم يرد .

فأول ما وقع عليه نظر روكامبول سطح آلة الاعدام يقف عليها رجلان ما هما غير مساعدين للجلاد بقبض الأرواح ثم لم يلبث أن رأى رجلاً يصعدعلى

سلم الآلة وهو اصفر الوجه من الخوف يدل منظره انه لا يزال في ريعان العمر وهو حليق شعر الرأس مكشوف العنق لأنه غرض الآلة القاطعة .

وكان الرجل المحكوم عليه بالاعدام يصعد على سلم الموت وهو مرتجف الاقدام واهن القوى من الرعب يعينه على الصعود اثنان من ورائه هما الجلاد والكاهن.

ولم يمض بضع ثوان حتى رأى روكامبول هذا الجاني التعس الذي لا يزال في ريعان الشباب قد ذبلت نضارة وجهه وبان كأنه شيخ قد أخذت السنون من جماله ورونقه كما أخذت من قوته وهو بين الكاهن الذي يدني الصليب من فمه ويطلب له المغفرة من السماء وبين الجلاد الذي يقف كأنه فارغ الصبر ينتظر الأمر باعدامه .

وما كادت تتوالى بضع ثوان حتى رأى روكامبول ان هذا التعس قد استلمه الجلاد من يد الكاهن وقدمه الى الأمام حيث وضع عنقه تحت شفار الآلة .

فزاد ارتعاد روكامبول واضطرب بصره فجعل يدير في تلك الآلة بصراً قلقاً وفؤاده يخفق خفوقاً قوياً كأنه نفس المقدم للاعدام وعندئذ ضج القوم ضجيجاً مؤلماً من فظاعة المشهد ، وسقط رأس المجرم وروكامبول يهتز من الاضطراب ويكاد يموت من شدة رعبه فأغمي عليه وسقط قرب صهره لا يعي .

- ٢ -

لنترك الان روكامبول وفابيان في هذه السفرة ولنعد الى باريس لنرى ما كان بعد سفر روكامبول عنها ففي ذات ليلة نحو الساعة التاسعة من المساء كانت الكونتس أرتوف جالسة قرب المستوقد بمنزلها الكائن في شارع بانينار وكان عندها الدكتور صموئيل اليوت وهو جالس لا يحول معها في الاحاديث ولا يكلمها في شيء ، فنظرت اليه وقالت له بعد ان كانت ساكتة منذ ربع ساعة :أتعلم

أيها الدكتور انه الآن قد مضى شهران كاملان على سفري الى فرنش كونتي مع رولاند دي كايلت ؟

- نعم أعرف ذلك .

- ويظهر أنك منذ ذلك الوقت لا تريد ان تسألني عن أمر من الأمور كما كنت أوصيتك

- نعم فقد تبعت إرادتك وما عدت أسألك عن شيء بعدما عرفت انك لا تريدين ذلك .

فتنهدت الكونتس أرتوف وقالت : بالحقيقة إنني لم أطلب اليك ان تعدل عن سؤالي عن كل شيء ، إلا لأنني أرى نفسي إمرأة قد قضت أيامهـــا بين الشرور والأعمال الفظيعة ، فهي ترى انه أولى بها ان لا تحدث أحداً بأمر من أمورها ، وان تخفي جميع أسرارها في زوايا صدرها ، وتتوب عن سلوكها الماضي توبة كاملة . ولكنني اليوم أرى انني يجـدر بي أن أخفي عنك كل شيء من أسراري إلا الأمر المهم الذي لا بد لي من إظهاره لك إذ ذلك أولى بي من إخفائه .

فأحنى الدكتور رأسه ولم يجب بشيء .

فأتمت الكونتس كلامهاوقالت : أظن ان الساعة قدآنت الآن لأظهر لك فيها هذا السر المهم وأطلعك على ما صنعت وعلى ما أريد ان أصنع لنصل إلى الغاية التي نسعى اليها .

- إنني مصغ اليك فتكلمي .

- أريد ان أخبرك بالتفصيل عن سفرنا الى فرانش كونتي وما كان لنا من الحوادث في هذا السفر حيث تركنا رفيقنا رولاند .

ثم جلست الكونتس جلوساً حسناً شأن من يريد ان يحدث حديثاً طويلاً وأتمت كلامها فقالت إنك لا تجهل انني سافرت من باريس على مركبة بوستة مع المسيو دي كايلت ، ولا بد انك تتذكر انني غيرت زي النساء ، وتزييت

بزي الرجال ، وكان يخالني من ينظر إلي في هذا الزي المستعار شاباً في مقتبل العمر لا يزيدسنو عمره عن الثانية عشرة ، وقد قطعت كل الطريق وأنا أتظاهر بانني وكيل رولاند

أما القصر الذي مات فيه دي كايلت وأقام ابن أخيه قيماً عليه فقد كان يبعد منا ثلاثة فراسخ بالطريق العمومية ولا يبعد غير فرسخ ونصف فقط إذا سلكت اليه بطريق مختصرة تمتد بين الغابات المتصلة بقصر هوبا فوصلنا الى كليت بعد ثماني وأربعين ساعة مضت على خروجنا من باريس .

وقد قضت التقادير أن يذهب الى قصر هوبا المركيز دي شمري والفيكونت والفيكونتس دي اسمول والدوق الأسباني وامرأته وابنته ، وقد كنت أظن ويجول في خاطري أن المركيز دي شمري مـــا هو إلا روكامبول نفسه ، ولكني كنت من ذلك بين الشك واليقين . فرأيت من الضرورة أن أتحقق من ذلك ، ففي أول ليلة لوصولنا قلت لرولاند : يجب أن تذهب الى الفيكونت دي أسمول

فأجابني متعجباً : وماذا تريدين بذلك وقد تراخت بيننا العلائق الودية منذ مثلت ذلك الدور الكبير .

– إنك تحتج في زيارتك له بانك إنما أتيت اليه لأمر ذي أهمية يختص بأشغال ناجحة تتعلق به وبك .

– نعم الرأي الذي ارتأيته فهو موافق غاية الموافقـــة لأن عمي في السنة الماضية قد اشترى له طاحونة لم يدفع ثمنها تماماً حتى اليوم .

إذن فاذهب اليه بهذه الحجة .

– ولأي غرض ؟

– لكي تأتي به الى هنا مع المركيز فإنه يجب ان أرى هذا الرجل .

– ولكنه يعرفك .

– كلا فهو لا ينظرني لأنني أختبىء فأراه دون ان يراني

أما رولاند فهو منذ عرف حقيقة خطته إلي صار يطيعني طاعة عمياء وهذا الشاب المعروف بالطيش الى هذا الحد صار في مدة أيام قليلة تبدو عليه ملامح الكبر كأن هذه البضعة أيام كانت كعشر سنوات مضت من عمره .

فقال لي : إنني مطيع ، فمتى تريدين أن أذهب ؟

— غداً صباحاً .

ففي اليوم التالي هب باكراً وسار على الطريق ماشياً يحمل على كتفه بندقية فجعل يجوب أرضاً مرملة واقعة بين كليت وهوبا فما كاد يتوغل فيها حتى التقى برجل صياد كان قد رافقه الى الصيد مراراً كثيرة .

فحين قابل هذا الرجل رولاند تنهد وقال له : لقد فاتك صيد ناجح .

— متى ؟

— قبل أمس أي يوم السبت .

— وأين فاتني ذلك ؟

— في الغابة السوداء حيث كان الفيكونت دي اسمول وصهره المركيز دي شمري مع رجل اسباني ودوق وهم قد صادوا دباً

— ومن هو هذا الذي صاده منهم ؟

— هو المركيز .... وهنا أخبر رولاند كيف تمكن روكامبول من قتل هذا الدب ثم أضاف إلى كلامه ان الزواج قد تقرر .

— وأي زواج تعني ؟

— زواج المركيز بابنة الرجل الاسباني .

فقال رولاند وقد أخفى الدهشة التي تولته ومتى يكون هذا الزواج؟

— قرئت أمس ورقة الزواج في الكنيسة بعد الذبيحة التي تقام الساعة الحادية عشرة من الصباح وأظن أن القران سيتم هذا اليوم .

أما رولاند فقد قال لي انه عندما سمع من الرجل هذا الكلام أخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً حتى جعل يرتجف من شدة غيظه ، ولو لم يتمسك بحبل الجلد والصبر

لسقطت البندقية من بين يديه لشدة ارتجافه ولكن هذا الخبر الذي علمه قد فقه أفكاره وجعله يتبصر فيا أرسلته لقضائه .

ثم ترك الرجل وجعل يواصل سيره وهو يقول في نفسه : إن شقياً نظير المركيز دي شمري لا يقدر أن يتزوج إبنة الدوق سالاندريا ولا يمكنني الوقت من الرجوع على الأقدام إلى الكونتس أرثوف لأطلعها على ذلك فأنا أواصل السير لأرى وحدي في هذا الأمر .

وكان يسير سيراً سريعاًوهو لايدري ماذا يصنع ليمنع هذا الزواجأو بالأقل ليؤخره عنميعاده ولما كاد يصل الى حيثيذهب كان الوقت نحو الساعة الثامنة من الصباح .

وكانت الثلوج قد كست تلك الطرق حلة بيضاء أثناء الظلام ، فلما اقترب رولاند من المكان الذي يقصده ، رأى على الطريق آثار الأقدام باقية على الثلوج ، ورأى أثر أقدام حصان تظهر له على طريـق مختصرة تودي إلى قصر هوبا .

فخالج فكر رولاند أن آثار هذه الأقدام ما هي إلا من أهل ذلك القصر ، وانهم خرجوا منه باكراً كي يقضوا جميع الأمو اللازمة التي لا بد منها في وقت القران ولكنه لم يكد يصعد على الأكمة التي يوجد عليها القصر المذكور حتىبدا له راكب عجوز يسير نحوه فتأمله رولاند فإذا به طبيب كبير السن يقيم في بلدة قريبة تدعى أولناي كان يعرفه منذ صغره .

فتقدم حتى دنا منه وحياه وبعد ان تبادلا التحية سأله رولاند :

— من أين تأتي في هذا الصباح ؟

— من هوبا .

— أزرت فيه مريضاً ؟

فأحنى رأسه دلالة على ذلك ثم قال نعم إنني قد زرت مريضاً ولكني أتيت اليه متأخراً

– وكيف ذلك ؟
– إن الدوق قد مات .
– أمات الدوق ؟
– نعم .
– الدوق دي سالاندريا ؟
– نعم هو .
– وكيف مات ؟
– مات بعلة فجائية شديدة وحين وصلت اليه رأيته يتردد الأنفاس الأخيرة فلم يعد لي حيلة وقد مات على أثر وصولي .

وأخبر هذا الطبيب رولاند بسبب موت الدوق فقال : أنه قبل أمس قد ذهب للصيد مع آخرين فاعترضهم دب هائل فاستولت رجفة شديدة على الدوق من كثرة خوفه وقد أدت إلى موته .

– نعم وقد التقيت في طريقي بصياد فأخبرني هذا الخبر ولكن كيف أدى ذلك إلى موته ؟

– حين اشتدعليه الخوف وتمكنت منه هذه الرجفة الشديدة أثر ذلك على دمه تأثيراً عظيماً ففسدت دماءه وفاجأه داء السكتة فمات .

– ومتى كان ذلك ؟
– في هذه الليلة نحو الساعة الحادية عشرة من المساء .
– وهل عرفوا به حال وقوع هذا الداء عليه ؟

– لم يعرفوا به حتى الصباح لأنه لم يستطع نداء أحد وحين دخلوا اليه في هذا الصباح وجدوه في حالة خطرة .

– أليس خادمه الذي دخل اليه أولاً ؟
– كلا فهو المركيز .
– وأي مركيز ؟

— المركيز دي شمري صهر الفيكونت دي اسمول والذي سيتزوج إبنة الدوق دي سالاندريا .
— لقد ذكرت هذا المركيز فإني أعرفه .

فعاد الطبيب الى حديثه وقال : يظهر ان هذا المركيز ايضاً قد بات بليلة الملسوع وحق له أن يأرق فانه يحب تلك الغادة الأسبانية وكان يرجو ان يتزوجها في اليوم التالي ، وإذ لا يحق له ان يدخل الى غرفة خطيبته دخل الى غرفة عمه ولكنه ما لبث ان دخل اليها حتى جعل يستغيث وينادي الخدم وسكان القصر فأسرعوا اليه فوجدوا الدوق سالاندريا قد سقط من سريره إلى الأرض وليس فيه ما يدل على الحياة .

وكان المركيز دي شمري قد خدم في البحرية وهو يعرف شيئاً من فن الجراحة فأسرع الى فصد عمه بساعده وأرسلوا أحد خدم القصر على جواد إلي يدعوني فوصلت ولكن بعد فوات الأوان لأن الفصادة قد تأخر وقتها ولم تفد هذا المريض إلا أنها أخرت موته ساعتين فمات بين يدي .
— ما هذه المصيبة الفادحة .
— لا أنكر أن الخطب عظيم غير انك لم تعلم غير نصف الحادثة .
— لا أفهم ما تقول .
— أريد أن هذا القصر لم يمت فيه واحد بل اثنان أحدهما الدوق
— والآخر ؟
— الانكليزي النوتي الأعمى الذي أحضره معه المركيز .

فعلم رولاند انه أندريا وقال له : كيف مات هذا النوتي ؟
— يظهر انه سقط عن السطح الى الوادي فان غرفته تشرف على السطح وقد خرج يستنشق الهواء فزلت قدمه وهوى الى ذلك الوادي السحيق فرأى الفلاحون جثته مهشمة على الصخور فأخذوه وحملوه الى القصر فكان لموته تأثير شديد حتى ان المركيز دي شمري أغمي عليه حين رآه قتيلاً .

فأظهر رولاند اندهاشه لهذه الحادثة وحادث الطبيب هنيهة ثم افترقا فذهب الطبيب بشأنه وبقي رولاند وحده وهو حائر فيما يعمل فانه لم يجد الفرصة مناسبة للذهاب الى قصر الدوق ولكنه وثق من أن موت الدوق سيؤخر زواج المركيز دي شمري فقال في نفسه : إن الوقت فسيح لدينا . ثم وضع بندقيته على كتفه وعاد الى قصر عمه .

أما أنا فقد اندهلت اندهالاً عظيماً حين رأيته أسرع في عودته وزاد في دهشتي ما أخبرني به من تلك الأحاديث فان حديث رولاند دعاني إلى الامعان فقلت في نفسي بعد هذا التفكير : إنه لا بد لموت الدوق أن يؤخر هذا الزواج ومهما يكن من حب العادة الاسبانية للمركيز فانها لا تستطيع أن تزف اليه قبل الثلاثة أشهر حسب الاصطلاحات الموضوعة ولا سيما لدى الأسبان فانهم شديدو الحرص على عاداتهم .

فلما رآني رولاند أفكر سألني : على ماذا عولت ؟

– عزمت أيها الصديق على أن نعود إلى باريس .

– ألا تريدين أن تنظري المركيز ؟

. ذلك لا بد منه لاني لا أزال مشككة بأمره وأحسب انه روكامبول ، فاذا صحت ظنوني وكان هذا اللص متقمصاً بالمركيز دى شمري فلا بد أن يكون المركيز الحقيقي موجوداً ، وبالتالي فلا بد من إيجاده لإظهـــار حقيقة روكامبول .

– هذا لا ريب فيه . غير اننا نحتاج إلى وقت طويل لإيجاد هـــذا المركيز .

– ما دام الزواج قد تأخر ثلاثة أشهر على الاقل بسبب وفاة الدوق فان الوقت فسيح لدينا .

– إذن فكيف عزمت على ان تنظري المركيز ؟

إني سأتنكر بزي الخدم وسيدفنون الدوق والانكليزي فأرى الرجل دون أن يراني إذ لا بد له من حضور الجنازة .

٣

قالت باكارا . وفي اليوم التالي غيرت ملابسي بملابس أحد خدم رولاند وذهبت مع خادم كان رولاند يأتمنه وله صحبة مع خدم قصر الفيكونت فابيان دي اسمول صهر ذلك المركيز الكاذب فاختلطنا مع خدم القصر ونظرت جثة ذلك الاعمى ثم نظرت المركيز كا أشاء وعدت الى رولاند .

فأسرع الى استقبالي وقال . ما رأيت ؟

– رأيت ذلك الاعمى وهو أندريا ، ورأيت ذلك المركيز وهو روكامبول .

– أأنت واثقة مما تقولين ؟

– كل الثقة لان هيئة هذين الرجلين لا تخفى علي مهما تشوه أندريا وتنكر روكامبول .

– وماذا يجب ان نعمل الآن ؟

– أما أنت فلا يجب أن تعمل شيئاً بل يجب أن تقسم لي بشرفك على أن تبقى في القرية ولا تعود الى باريس إلا حينما أذن لك بالرجوع .

- وأنت ؟

- أما أنا فاني سأسافر في المساء إذ يجب ان أعلم ما حدث للمركيز دي شمري الحقيقي .

وفي اليوم نفسه غادرت رولانـد في القرية لا يعلم ماذا يعمل ، ورجعت الى باريس .

فلما سمع الطبيب صموئيل جميع ما قالته باكارا ، وكان مصغياً اليها أتم

الإصغاء ودهش دهشاً عظيماً من جرأة روكامبول وقال : إن ما أقدم عليه هذا اللص لا يقدم عليه أحداً ويجب أن نضربه الضربة القاضية ونريح الارض من شروره .

فقالت باكارا : صبراً أيها الصديق واسمع تتمة حكايتي فاني لم أفرغ بعد واعلم بأنه لا يكفي ان أعلم بأن المركيز دى شمري هو روكامبول ، لان مثل هذا اللص الحاذق لا يتنكر باسم سواه ولا يدخل في عائلة شريفة ولا يختلط بالشعب البأريسي دون ان يكون قد اتخذ الاحتياطات الشديدة وبالغ في إخفاء آثاره السابقة التي تظهر اسمه الحقيقي .

ثم انه لا بـــد ان يكون لديه اوراق وأدلة وشهادات جمة تثبت أنه ذلك المركيز ، الذي إما أن يكون قتله وتنكر باسمه أو انه سرق أوراقه واستخدمها لاغراضه ، فاسمع ماذا صنعت

إني عند وصولي الى باريس أسرعت الى الكونت ارمان دى كركاز فرويت له جميع ما سمعت ورأيت .

وكان ذاك الكونت يعتقد ان أخاه السير فيليام قد هلك بين القبائـل المتوحشة ، فجمد رعباً عندما علم بشروره الاخيرة وانه مات قتيلاً في واد بضواحي باريس .

ثم سألت الكونت رأيه فقـــال لي : إن يد الله ورائنا فان موت الدوق سالاندريا في اليوم الذى كانت ستزف فيه ابنته الى ذاك اللص السفاك دليل على ان الله أراد تأخير الزواج كي نتمكن من غل يد ذاك اللص وانه لم يأذن بموت الدوق إلا اجتناباً لمصيبة أعظم ، وهي وقوع الفتاة الطاهرة بين مخالب الوحش الضاري .

– إني من رأيك يا سيدي الكونت ولكني لا أعلم كيف نغل يد ذاك اللص.

فقال الكونت دي كركاز : يجب أن لا نغفل عن أمر خطير وهو أننا إذا فضحنا روكامبول وأظهرنا إسمه الحقيقي فاننا نفضح عائلة شريفة تتناولها أقلام

الجرائد فيظهر للناس قاطبة كيف ان هذه المرأة الطاهرة أحبت لصاً سفاكاً وهي تعتقد انه أخوها ، بل اننا نهين كثيراً من العائلات التي فتحت أبوابها لاستقبال هذا الرجل الذي لا ينبغي أن يكون مقره إلا في أعماق السجون .

ـ ولكننا لا نستطيع أن ندع هذا اللص يلقب نفسه بالمركيز دي شمري .

ـ لا ريب في ذلك ، غير أننا قبل أن نبدأ في نزع اللقب منه يجب أن نعلم ما حدث لذلك المركيز الحقيقي الذي اختلس منه روكامبول هذا الاسم .

وكان الكونت دي كركاز مصيباً فيما قال فعزمنا في الحال على السعي في كشف الحجاب عن غوامض هذه الأسرار .

وأول ما خطر لنا هو أن نعلم كيف كانت عودة روكامبول إلى باريس فجعلنا نبحث حتى علمنا بعد يومين إن الذي يدّعي أنه المركيز دي شمري وصل إلى باريس يوم وفاة أمه فيها وأنه كان الرجل الوحيد الذي سلم من الغرق لأن الباخرة التي قدم عليها غرقت وذلك منذ ثمانية عشر شهراً .

فلما وقفنا على هذه التفاصيل قال لي الكونت دي كركاز : أنه يرجح أن المركيز دي شمري الحقيقي وروكامبول اتفق وجودهما سوية في تلك الباخرة التي غرقت ، فإذا صح ظني فإنه يسهل علينا أن نعلم الحقيقة وذلك لأن المركيز دي شمري كان عائداً من الهند فلا بد له من المرور بلندرا ولا بد للاوراق الموجودة مع روكامبول أن يكون عليها كتابة من الأميرالية البحرية وبالتالي فلا بد أن نجد في لندرا ضباطاً يعرفون المركيز من الذين خدموا في الهند سواء كلكيتا أو في بمباي .

ـ إن ذلك ممكن لاسيا وأنه يرد في كل يوم إلى لندرا سفن من شركة الهند.

ـ إن المركيز الحقيقي إذا كانوا رأوه في لندرا فهو إما انه كان من جملة ركاب الباخرة التي غرقت ، وإما أن يكون قتل قبل سفرها ، فإذا كان الأول يكون قد فقد واستولى روكامبول على أوراقه ، وإذا كان الثاني فإننا نستطيع الوقوف على آثاره في لندرا .

– لقد فهمت ما تقول وسأسافر إلى لندرا غداً

– وأنا أسافر معك أيضاً فإن رأيين أحسن من واحد .

وفي اليوم التالي سافرت مع الكونت دي كركاز وبعد اثنتي عشر ساعة وصلنا إلى لندرا فكان أول ما شرعنا به اننا ذهبنا إلى الأميراليــة البحرية وسألنا عن المركيز دي شمري فاخبرنا أحد الموظفين انه يذكر بأنـــه كتب الكتابات المألوفة على جواز المركيز دي شمري منذ ثمانيــة عشر شهراً وقال لنا انه يذكر أيضاً بأن هذا المركيز ضابط بحري في الهنــد الانكليزية وهو مستقيل .

واخبرنا ضابط في الأميراليــة انه يعرف المركيز وانه خدم وأياه في سفينة واحدة ، فقلنا له أواثق أنت من أن الذي قدم جوازه إلى الأميرالية هو نفس المركيز دي شمري ؟

– كل الثقة وأذكر أيضاً اني سلمت عليه وباحثته في أمور كثيرة ثم أخذ دفتراً ضخماً فقلب صفحاته ونظر فيها وقــال : كان يصحبه حين حضوره القائد جوكسن وهو من اصحابه الأخصاء أما هذا القائد فلا بد أن يكون الآن في لندرا لأنه قدم اليها عائداً من افريقيا منذ عشرة أيام فاذا أحببتم أن تروه فانكم تجدونه دون شك في فندق جنوا في شارع بلغراف .

فشكرنا هذا الضابط ثم غادرناه وانطلقنا مسرعين إلى هذا الفندق وكان القائد جوكسن موجوداً فيه .

فذهل هذا القائد في البدء لأسئلتنا الكثيرة إلى أن اخبره الكونت كركاز باسمه وانه لا يسأله عن المركيز إلا لأمر عائلي ، فقال عند ذلك ما يأتي :

أن المركيز شمري كان من أخلص اصدقائي وقد سافر منذ ثمانية عشر شهراً من لندرا إلى فرنسا على سفينة شراعية وكنت من الذين ودعوه .

– أتعرف هذه السفينة ؟

– نعم ، اسمها مويات

ــ أرأيته صعد اليها ؟

ـ بل رأيتها سافرت به وبقيت واقفاً على الرصيف أودعه بالاشارات إلى أن توارت السفينة عن الأنظار .

وكان هذا جميع الذي نريد أن نعرفــه إذ ثبت لنا ان المركيز دي شمري الحقيقي سافر دون شك في السفينة التي غرقت .

فلما غادرنا القائد جوكسن وخلوت بالكونت قال لي : لم يعد لدينــا شك الآن أن أوراق المركيز قد سرقت سواء كانت السرقة في السفينـــة أو بعد غرقها فاذا كانت سرقت في السفينة فلا بــد أن روكامبول كان موجوداً فيها وإذا كانت بعد غرقها فقد يكون حدث اتفاقاً أن روكامبول كان على الشاطيء متى غرقت فيه السفينة وانه عثر بجثة المركيز فسرق الأوراق

ــ هذا لا يمكن احتماله .

ـ لماذا ؟

ــ لأن روكامبول لا يعود إلى فرنسا إلا إذا دفعــه أمر خطير الى العودة اليها ، فاستصوب الكونت كلامي

ولم يبق علينا بعد ذلك إلا أن نستطلع بعض الأمور من البوليس فذهبنــا إلى إدارة قلم الجوازات وعلمنا منها انه يوم سفر السفينة مويات أخذ منها رجل جوازاً باسم السير ارثير ثم وصف لنا أوصاف هذا الرجل كما هو مبين عنده في الكتاب فوجدنا انها تنطبق أشد الانطباق على أوصاف روكامبول .

وبعد ذلك عدنا إلى الهافر فدقق الكونت كركاز بالاستعلام عن غرق تلك السفينة فعلم انه لم يسلم أحد من ركابها غير انه كانوا يشيعون أن أحد اصحاب قوارب الصيد في اتترات كان يقول ان رجلاً عليه ملامح رجال البحرية قد بلغ سباحة إلى الشاطيء .

فذهبنا من الهافر إلى ايترات ولم تكن حادثة غرق السفينــة قد تنوسيت بعد فاخبرنا الصيادون الذين كنا نسألهم أنهم جميعهم يذكرون الحادثة وأن

معظم الغرقى قذفت الأمواج جثثهم إلى الشاطىء .

ولما اوشكنا أن نقنط من معرفة الحقيقة قال لنا أحد الصيادين ، إذا شئتم أن تعرفوا الحقيقة بتفاصيلها فاسألوا الصياد فانتيال إنه يعلم جميع التفاصيل .

فدعونا هذا الصياد وسألناه عما يعلمه فأخبرنا أنه لم يسلم من ركاب السفينة غير رجل واحد ولكننا لم نعرف اسمه فانه لم يحدثنا بكلمة بل اكتفى أنه اشترى منا رداء ولباساً .

— وأين ذهب ؟

— ركب مركبة، وسار بها إلى الهافر ويظهر انه قضى ليلة قبل وصوله في جزيرة صغيرة قريبة من الشاطيء ثم انه يوجد شاب آخر قد نجا من ركاب السفينة ولكن هذا الرجل لم تطأ اقدامه الأرض

فتعجبنا من البيان وقلنا : ماذا تريد بذلك ؟

— أن لذلك حكاية غريبة وهي انه بعد غرق السفينة بثلاثة أيام كنت عائداً مع ابني في قارب إلى الهافر فرأينا سفينة كبيرة ذات ثلاثة صواري عليها علم نروجي وهي شاحنة خشباً من الشمال ، وكنا قد اصطدنا صيداً كبيراً وكان البحر هادئاً فاقتربنا من السفينة قصد أن نبيعها سمكاً من صيدنا فصعد ابني اليها فعرض سمكه على الربان فاشترى منه وقال له أغرقت سفينة حديثاً عند تلك الشواطىء ؟ فقال ابني نعم ، وحكى له عن غرق موبات ، فسأله الربان ، إذا كان نجا أحد من ركابها ، فقال له : لم يسلم غير واحد ، فانه نجا سباحة حتى بلغ الشاطيء . فقال الربان ، إذن فان الذين نجوا اثنان .

ثم أخذ ولدي بيده وذهب به إلى غرفة فرأى فيها سريراً ممدوداً عليه شاب يناهز الثامنة والعشرين من عمره وهو منطبق العينين كأنه نائم وأمامه طبيب السفينة .

فسأل الربان الطبيب كيف حاله قال : أرجو أن أشفيه ، ولكن شفاءه يطول وأخشى متى شفي جسمه يذهب عقله .

وعنـــد ذلك أخبره الربان أن الشاب المنطرح على السرير ضائع الرشد وليس عليه من الملابس غير بنطلون وقميص وجده بحارة السفينة منذ ساعتين مغمياً عليه في حفرة كائنة في جزيرة صغيرة ، وقد كان البحارة نزلوا اليها لجمع الأصداف فعثروا به

ثم أخبره الربان أنهم يرجحون بأنه سقط في الحفرة بالليل وانهم عندمـــا وجدوه كان في وشك الموت .

فقال الكونت : أواصلت السفينة النروجية سيرها ؟

ــ نعم وأصطحبت معها الشاب .

ــ أعرفت إسم تلك السفينة ؟

ــ نعم فإنها تدعى انفسبيل ، وكانت رافعة راية نروجية .

فوضع الكونت يده على جبينه كمن يتذكر أمراً ثم قال : لقد ذكرت الآن فلقد قرأت منذ ستة أشهر في جريدة اسبانية أن إحدى البوارج الاسبـــانية أسرت سفينة نروجية ذات ثلاث صواري وقبضت على بحارتها وهم إثنا عشر رجلاً فحكمت عليهم بالليمان .

قالت باكارا : ولما قال الكونت هذا القول أعطى الصياد دينارين مكافأة له عن تعليماته ثم قال لي : أظن اننا قد أصبحنا عارفين مقر المركيز دي شمري الحقيقي .

هذه هي الحكاية التي قصتها باكارا على الطبيب صموئيل ، فلم نجد بدأ من من ذكر بعضها مما لا غنى عن إيضاحه في سياق هذه الرواية فنقف من حديثها معه عند هذا الحد ونقول انها في اليوم التالي برحت باريس مع الطبيب في رحلة سرية سيعلم القراء تفاصيلها والغرض منها .

ثم نذهب بالقارىء إلى البلاد الاسبانية حيث نجد فيها كثيرين من أبطال هذه الرواية العجيبة .

هوذا الفجر قد انبثق وتفجرت أشعته اللامعة على قمم الجبال وسكنت مياه البحر ، فكانت نسمات الصباح تنقش على صفحاته زرداً وكانت مياهه لا تزال زرقاء تشبه زرقة السماء التي كسف الفجر أنوار نجومها .

وكانت الجبال الشامخة تشرف على ذلك البحر الذي كانت فيه السفن الشراعية كالحمائم عائدة بالصيادين مشحونة بالأسماك وبينها مدينة بيضاء القصور بنيت منازلها على الطريقة المغربية وكان أهلها لا يزالون نياماً في ذلك الصباح .

أما هذه المدينة فهي كاديس ميناء الأندلس وهي لا تزال محافظة أثر سلطانها المغربي الذي فارقها والدمع ملء عينيه وهو يعلم انه فارق الأقطار الاسبانية فراق الأبد .

وكان المار في شوارع تلك المدينة الضيقة عندتبلج الفجر يجدها خاليةقفراء لأن سكانها كانوا لا يزالون نياماً غير ان باب فندق الأندلس فيها فتح وخرج منه شاب جميل مرتد بملابس يظهر من حسن هندامها على بساطتها انها باريسية وكان يصحب هذا الشاب امرأة حسناء على كتفيها شال من الكشمير الثمين وقد تأبطت ذراعه وسار الاثنان إلى جهة البحر فكان الشاب يقول لها :

— ستربن يا حبيبتي هرمين أجمل منظر تبتهج له النفوس وهو شروق الشمس وأنت في البحر .

— لقد رأيت هذا المنظر في العام الماضي حين كنا مسافرين من الهافر إلى بليموث .

وكان هذا الشاب فرناند روشي وامرأته هرمين اللذين عرفهما القراء فيما تقدم من فصول الرواية .

فابتسم فرناند لزوجته وقال لها : إن الأوقيانوس المحيط يشبه البحر المتوسط كما يشبه الزجاج البراق الألماس ، وإن سماء أوروبا تشبه سماء الأندلس كما تشبه الأشعة المنعكسة نور الشمس .

ثم ذهب الاثنان إلى الميناء وهما يتحادثان .

وكان فرناند قد رجع إلى زوجته بعد ذلك الهجر القديم الذي دعاه اليه شغفه بتلك الفتاة التي كانت تلقب بالفيروزة وكان يسافر في ذلك العهد مع امرأته سائحاً في اسبانيا ، فبعد أن ذهب إلى غرناطة برحها قادماً إلى قاديس.

وكان يقول لها وهما سائران إلى الميناء : أتعلمين أيتها الحبيبة أن قومندان الميناء ، القائد بيدرو هو ابن عم الجنرال الاسباني صديقنا الذي يقدم في كل شتاء لباريس .

– كلا لم أعرف ذلك من قبل .

– إذن فاعلمي إنه عندما كنت منهمكة في ترتيب ملابسك أمس اغتنمت فرصة انشغالك وأرسلت اليه كتاب التوصية الذي أعطاني إياه ابن عمه الجنرال ليلة سفرنا ..

– وهل أجابك على ذلك الكتاب ؟

– نعم ولذا فقد بادرت إلى إيقاظك قبل الفجر كي لا تفوتنا نزهة البحر شروق الشمس ، ولكن أتعلمين كيف نتنزه في هذا البحر الهادىء ؟

– في إحدى سفن الصيد دون شك .

– كلا أيتها الحبيبة في سفينة القومندان نفسه وهو الذي سيصحبنا في هذه الرحلة الفجرية .

– يظهر ان هذا الرجل رقيق الحاشية وأنه يبالغ في إكرامنا .

– وستكون بحارة السفينة من الأشقياء المحكوم عليهم بالليان لاستفحال شرورهم .

ورأى فرناند أنها أجفلت وخافت من أولئك الأشقياء فقال لها : اطمئني فإنهم سيكونون أشد وداعة من الحمام بحضرة القومندان .

وعند ذلك وصلا إلى الشاطىء فرأيا تلك السفينة بانتظارهما ، فلما رآهما القومندان هرع إلى استقبالهما وأنزلهما إلى سفينته وكان فيها اثني عشر رجلاً من

أولئك الأشقياء مقيدة أرجلهم بالسلاسل الضخمة وأربعة من جنود البحرية .

وبعد أن تبادلوا التحيات المألوفة أمر القومندان أن ترفع المراسي ثم نظر إلى أحد أولئك المجرمين وقال له : لقد وليتك قيادة السفينة يا حضرة المركيز

وكان المجرم الذي ناداه القومندان باسم مركيز شاب جميل الطلعة رشيق القد أزرق العينين أشقر الشعر وعلى محياه ملامح الاكتئاب غير ان هيئته كانت تدل على الانفة والسلامة خلافاً لرفقائه المجرمين ، فلما سمع أمر القومندان انحنى أمامه احتراماً وشرع بقيادة السفينة بمهارة فـــائقة تدل على انه ممرن في فنون البحر .

فقال أحد المجرمين لرفيق له : ان هذا المركيز حسن البخت وقـــد بات القومندان يحبه ويعزه علينا حتى لقد بت أخشى أن يطلق سراحه ويوليه مكانه

فانتهره رفيقه وقال له : كفاك حقداً على هذا الرجل ، فإنه يفضلنا جميعاً بلين أخلاقه وحسن آدابه ، وانك لا يدفعك للهزء به غير حسدك .

فتمتم المجرم بكلمات لا تفهم ثم سكت خوفاً من أن يسمعه القومندان .

وكانا يتكلمان باللغة الاسبانية وفرناند قريب منهما فلم تفته كلمة من حديثهما لأن فرناند كان يعرف هذه اللغة وقد هاج به الفضول إلى أن يعلم السبب في تلقيب ذلك المجرم بالمركيز فدنا من القومندان وكان يحادث امرأته هرمـين وقال له :

- إني عجبت لأمر الشاب الذي دعوته بمركيز فكيف أتاه هذا اللقب بل كيف وجد بين المجرمين على ما يبدو منه من ظواهر السلامة والدعة .

فابتسم القومندان وقال لقد تولتني قبلك الدهشة فاني عندما توليت رئاسة الميناء ، وذلك منذ تسعة أشهر ، حكم على هذا الشاب بالسجن والقيد خمسـة أعوام .

فتأثرت هرمين لنكبته وكانت تنظر اليه نظرة اشفاق وقالت للقومندان : أي ذنب جناه ، ولماذا حكم عليه ؟

ــ ذلك لأنه وجد في سفينة قرصان زوجية أسرتها إحدى مدرعاتنا فحوكم بحارتها ومن جملتهم هذا الشاب في مجلس عسكري وحكم عليهم بالسجن خمسة أعوام .

فقالت هرمين بلهجة ظهر منها عدم التصديق : أيمكن لهذا الشاب أن أن تكون مهنته النخاسة ، فيسرق العبيد ويبيعهم بيع السلع ؟

ــ نعم يا سيدتي . .

ــ العله زوجي ؟

ــ كلا فانه يقول انه فرنسي ولكني أرى من لهجته انه انكليزي .

ــ اني أعجب كيف تكون هذه الملامح النبيلة في وجه قرصان نخاس .

ــ بل هو أعظم من ذلك يا سيدتي فانه بلغ من التزوير مبلغاً لم يخطر لأحد من قبل حتى لقد كاد يقنعني فيما يدعيه .

ــ كيف ذلك ؟

فسار القومندان بفرناند وزوجته إلى محل فسيح في آخر السفينة وقال : تصوري يا سيدتي ان رفقاءه لا ينادونه إلا بلقب مركيز .

ــ أهو مركيز حقيقة ؟

ــ هذا ما كان يدعيه ويحاول أن يحملني على تصديقه وهي حكاية لطيفة سأقصها عليكما فاسمعا .

- ٥ -

انه في اليوم التالي لدخوله إلى السجن التمس هذا المركيز ان يقابلني فاشفقت عليه وأذنت له بهذه المقابلة وقد دهشت كما دهشتما لحسن منظره وملامح نبله فقال لي : اني يا سيدي أدعى المركيز البرت أونوريه دي شمري وقد كنت في

فصحت صيحة انذهال لقوله ولكنه لم يأبه لي فأتم حديثه وقـــال : اني ولدت يا سيدي في باريس وفارقت عائلتي وليس لي من العمر غير عشرة أعوام فما رأيتها بعد ذلك

وقد رجعت منذ شهر من الهند إلى لندرا بعـــد ان استقلت من الخدمة وعزمت على الرجوع الى فرنسا لورود كتاب لي من امي تدعوني فيه إلى الحضور فسافرت من لندرا على باخرة تجارية كانت مسافرة إلى الهافر .

ولما قربنا من الشواطىء الفرنسية هبت عاصفة شديدة فجنحت السفينـة فغرق ركابها ونجوت أنا سباحة ، وكان يحاول النجاة معي شاب انكليزي ، فأنقذته من الغرق وصعدت به وهو مغمى عليه إلى جزيرة صغيرة .

وكان الليل حالك السواد وقد أصبت بعطش قوى فوضعت رفيقي وهو لا يزال مغمياً عليه على الرمل وجعلت أمشي في الجزيرة التمس مـا خلفه الشتاء في احدى حفرها وبينا أنا أمشي زلت قدمي وسقطت في حفرة عميقة استحال علي الخروج منها فبقيت فيها الى أن أشرق الصباح .

ولما رأيت أن صعودي منها محال جعلت أستغيث بملء صوتي راجياً أن يكون رفيقي عاد إلى رشده فيسمعني ، فما أخطأ ظني وأسرع الي فأخبرته بما أصابني وقلت له أني تركت منطقتي وغدارتي وحزامي على الأرض ثم رجوته بأن يأتي بذلك الحزام الي فاتعلق به وأصعد عليه من الهوة .

فذهب الشاب ، وكان هذا آخر العهد به فتوالت الدقائق والساعات ثم أقبل الليل ولم يحضر فتغلب علي الجوع والعطش والقنوط والضعف فانطرحت مغمياً علي ، ولم أعلم ما جرى لي بعد ذلك غير اني حين استفقت رأيت نفسي ممدداً فوق سرير في سفينة يحيط بي بحارة ما عرفتهم من قبل .

ثم عرفت بعد أن سألتهم أنهم وجدوني بين حي وميت في هوة واني بعد أن فقت من اغمائي أصبت بحمى قوية عقبها هزيان اتصل بضعة أيام ثم نقهت من

علي فارتأى ربان السفينة أن يجعلني بحاراً لقلة البحارة .

قال القومندان : ولما رآني في هذا المخادع مصغياً اليه متأثراً لكلامه أتم حديثه فقال ولكني علمت بعد ذلك أن السفينة سفينة قرصان غير اني كنت مكرهاً على الخدمة فيها وقد حاولت الفرار فانذروني بالقتل ولما رأى الربان اني ماهر في فن البحارة رقاني إلى درجة نائب ربان وما زلنا نحترف هذه المهنة الشائنة حتى قبضت علينا الحكومة الاسبانية وهذا هو السبب يا سيدي في أن المركيز دي شمري يوجد مع المجرمين مكبلاً بالقيود .

قال الربان : فلما انتهى المركيز الكاذب من حديثه أشفقت عليه إشفاقاً شديداً لأني كنت أتبين الصدق الأكيد من لهجته لاسيا وقد قال لي أنه عرض أمره على المجلس الحربي فلم يصغ اليه ولكنه يلتمس مني أن أكتب إلى لندرا وباريس في شأنه فوعدته عند ذلك أن أكتب .

قال فرناند : وهل كتبت ؟

– كتبت دون شك في اليوم نفسه لوثوقي من صدقه إلى أن ورد الي الجواب فعلمت ان حديثه ملفق وان حكايته كاذبة فإن المركيز دي شمري موجود في باريس حتى انه أوشك أن يتزوج منذ شهرين بابنة وطنينا الدوق دي سالاندريا ، ولكن الدوق مات موتاً فجائياً يوم الزفاف فتأجل اقترانه إلى انقضاء مدة الحداد .

فأظهر فرناند إندهاشه من هذه الحكاية الغريبة ، وبينا القومندان يتكلم كانت هرمين تنظر إلى المركيز بامعان وتقول : أيمكن لهذا الشاب ان يكون منافقاً إلى هذا الحد وليس في ملامحه ما يدل على ذلك ؟

ثم دنت من زوجها وقالت له بصوت منخفض أرجوك ان تستأذن لنا القومندان بمحادثة الرجل حين رجوعنا إلى البر فاني أراه نبيلاً بعيداً عن المنكر والنفاق وقد أكون صادقاً بظنوني .

قال : لا بأس فسألتمس منه هذا الالتماس .

وعند ذلك أشرقت الشمس فبعث أشعتها الذهبية فتخرق قمم الجبال وتبسط على مياه البحر فيلاعبها نسيم الصباح وترقص الأمواج احتفاء بها فنسي الجميع عند ذاك المنظر حديث المركيز معجبين بجمال الطبيعة .

- ٦ -

بينما كان الكونت أرمان دي كركاز يطالع بريده بعد هذه الحوادث المتقدمة بأسبوعين أخذ رسالة وجد عليها طوابع اسبانية فاستلفتت نظره وفضها مسرعاً ونظر الى التوقيع فاذا هي من فرناند روشي فقال في نفسه ، ماعسى أن يريد مني هذا الصديق ، وما دعاه إلى كتابة هذا الكتاب الطويل ثم جعل يقرأ ما يأتي :

« سيدي الكونت ..

«لو لم نلق من مكائد الخيانة أشدها ونشترك من صروف الدهر بأمرها ونعمل يداً واحدة في كثير من الأحيان لدفع غارات الزمان ورد كيد الانسان لما كنت كتبت اليك هذا الكتاب لأن ما أكتبه اليك من أغرب ما خطته يد الجرائم في هذا الباب فاسمع .

« أعرفت في باريس هذا الشاب الجميل الذي كان في البحرية الهندية الانكليزية وهو المركيز دي شمري ابن عم الكونت فابيان دي أسمول ؟

« اني عرفته قبل سفري الى اسبانيا فقد عرفني به أحد الأصدقاء .

« فاذا كنت عرفت هذا الرجل أو سمعت بهذا الاسم فاعلم اني وجدت في قاديس رجلاً يدعى بهذا الاسم وهو يدعي أيضاً انه خدم في الهند في البحرية وانه أيضاً ابن الكولونيل دى شمري شقيق بلانش دي شمرى التي تزوجت الفيكونت فابيان منذ عام ، ثم يضيف الى هذه الأقوال كثيراً من التفاصيل

بلهجة يتبين منها الصدق ولا تحمل على شيء من الشك .

« إذن فان المركيز الأول هو الآن في قصره في باريس وهو سيتزوج المدموازيل سالاندريا » والمركيز الثاني في قاديس ولكن أتعلم أين وفي أية حالة ؟ انه في السجن مكبل بالقيود محسوب في مصاف المجرمين . لا تدهش لما تقرأ واقرأ البقية . »

وهنا ذكر له فرناند جميع ما تقدم لنا ذكره من أمر السجين وحكايته للقومندان .

« ولما فرغ من جميع ذلك قال له : اني التمست من القومندان بناء على طلب امرأتي أن يأذن لي بمحادثة هذا المركيز لأنها كانت تعتقد انه بريء .

« وقد أذن لنا القومندان وذلك انه دعانا إلى العشاء في منزله واستدعى المركيز فقال له أمامنا : اني قصصت حكايتك في هذا الصباح على ضيفي فاستغرباها ورغبا ان يسمعاها من فمك .

« وكان المركيز واقفاً يحمل قبعته بيده وهيئة كآبته تقطع القلب من الاشفاق

« فانحنى أمامنا باحترام ثم نظر إلى القومندان فابتسم ابتسام الحزين وقال له : انك أبيت أن تصدقني يا سيدي القومندان ولكني أرجو أن تصدقني السيدة وزوجها وهما مثلي فرنسيان .

« فهز القومندان كتفيه إشارة إلى ان اعتقاده راسخ بكذبه ثم استأذن منا وتركنا وإياه

« فقص علينا المركيز نفس القصة التي قصها على القومندان بلهجة صادقة ولما اتم حكايته قلت له : ألا تعلم انه يوجد في باريس مركيز يدعى المركيز دي شمري وان جميع نبلاء باريس عرفوه ؟

« - إن ذلك محال إلا إذا .. ثم وقف متردداً .

« قلت . قل إلا ماذا ؟

« - إلا إذا كان الذي انقذته . ثم صاح صيحة قانط وقال : لقد عرفت كل

شيء ، فان الرجل قد سرق أوراقي واختلس اسمي وهو يعتقد اني ميت .

« قلت إن هذا صعب التصديق فان المركيز دي شمري الموجود الآن في باريس رُوي عنه انه حزن حزن الخنساء على أخيها حين وفاة أمه .

« فما قلت هذا القول حتى شمرت كأن الصاعقة قد انقضت على رأس هذا المسكين فجعل يصيح ويقول أمه .. أمه . أي أمي التي ماتت . وعند ذلك وهت رجلاه وسقط على الأرض وهو ينتحب ويبكي بكاء الأطفال ويذكر أمه بأشجى الألفاظ .

« فلم أشكك بعد هذا البرهان الجلي بصدق كلامه وانه هو المركيز الحقيقي

« وفي ذلك الحين دخل علينا الربان فوجدني مع امرأتي محيطين بهذا التعس المنكود نعزيه على مصابه ونبكي لبكائه فأجفل لما رآه لأنه كان لا يزال معتقداً بأنه من الكاذبين ولكني عندما رويت له ما جرى مال الى التصديق فأخبرته اني سأكتب اليك ووعدني انه سيبذل جهده لاطلاق سراح المركيز وهو الآن قد أخرجه من السجن فجعله في خدمته الخاصة تخفيفاً لشقائه .

« والآن فاعلم يا سيدي الكونت لماذا اكتب لك فان المركيز سواء كان صادقاً او كاذباً فانه يقول ان لعائلته ارضاً تدعى الأورنجرى وان فيها قصراً كبيراً وهو يقول انه يوجد في القصر صورة تمثل رسمه وهو في التاسعة من عمره وانه قد مثل في الرسم لابساً لباس الايكوسيين وعلى رأسه قلنسوة عليها ريشة عقاب وصورة عليها خطوط زرقاء وبيضاء ورجلاه عاريتان الى الركبتين .

« ثم انه كشف امامنا عن ساقه وارانا لطخة حمراء تشبه آثار الخمر على القماش الأبيض وقال لنا : ان اللطخة مرسومة في الصورة بشكلها وحجمها ولونها كما هي الآن .

« ولذا يا سيدي الكونت قد كتبت لك هذه التفاصيل فاذا رأيت تلك الصورة وعثرت بهذا الأثر فيها فان المركيز هو المركيز الحقيقي دون شك ، وان مركيز باريس أعظم منافق خداع عرف الى الآن » .

« وأنا أرجو بعد أن تقف على حقيقة هذه التفاصيل أن تشير علي بما يجب أن أصنعه في شأن هذا الرجل فاني لا أقدم على أمر قبل أن ترد إلي مشورتك والسلام » .

(فرناند روشي)

فما أوشك الكونت أن يتم قراءة الكتاب حتى دخل خادم غرفتـه يخبره بقدوم الكونتس ارتوف فسر الكونت لقدومها واسرع وهو يقول لقد وجدته .

فاندهشت باكارا وقالت : ماذا وجدت ؟

– بينا كنت عازماً على الكتابة إلى اسبانيا أستعلم عن تلك السفينـة التي فقدنا فيها آثار المركيز دي شمري وردتني رسالة من اسبانيا عن هذا المركيز .

– من الذي كاتبك من اسبانيا ؟

– فرناند .

فارتعشت باكارا عند ذكر اسم فرناند كأنها لا تزال تحبـــه وقالت : ماذا عمل ؟

– انه وجد المركيز الحقيقي ، ثم أخذ الرسالة وأعطاها أياها فتلتها بامعان وعلائم الدهشة تبدو عليها حين تلاوة كل سطر ، فلما أتمتها قــال لها الكونت أرمان : ماذا ترتئين ؟

– ان الآنسة سلاندريرا لا تزال في اسبانيا والمركيز الحقيقي فيها فيجب إذن أن اذهب إلى تلك البلاد .

– أنت تذهبين إلى اسبانيا ؟

– نعم وسأصحب معي الطبيب صموئيل وزامبـا خادم الدون جوزيف والدوق دي مايلي المتوفيين .

– إذن فما ينبغي ان اكتب لفرناند ؟

– لا تكتب له شيئاً فاني سأصل الى قاديس في اليوم الذي يصل فيهـــا كتابك اليها لأني مسافرة غداً فأية فائدة من كتابك ؟

– ولكن هذه الصورة الذي ذكرها فرناند في كتابه ؟
- سأحصل عليها .
فقال أرمان : اني تعودت يا سيدتي الكونتس ان أثق ثقة عمياء من فوزك بكل ما تفعلين فاذهبي بأمن الله واصنعي كما تشائين .
– سأسافر غداً كما قلت لك غير اني أرجوك أن تكتب كتاباً ثانيـــاً الى قنصل فرنسا في قاديس
– سأكتب له في المساء
والآن أعطني كتاب فرناند فاني أحتاج إلى مراجعة ما تضمنه من التعليمات
فأعطاها إياه ، وعنـــد ذلك نهضت فودعته ووعدته أن تكتب اليه من قاديس ومضت .
وفي الساعة نفسها بعد ان أخذت الكتاب كتبت إلى الطبيب صموئيل ترجوه ان يحضر معها وقد عرف القراء ما جرى بينهما من الحديث عند اجتماعهما فانها عندما أخبرت هذا الطبيب انها ستسافر وإياه في الغد إلى اسبانيا قالت له : أتظن أن زامبا قد شفي من جنونه شفاء أكيداً ؟
– لا ريب عندي في شفائه التام .
- أيستطيع أن يصحبنا في هذه الرحلة ؟
– نعم .
– إذن يجب ان تسأل قاضي التحقيق الذي أذن لك بمعالجته بواسطة الكونت كركاز أن يأذن لك أيضاً بالذهاب به إلى اسبانيا وأرسله إلي في المساء .
– سأفعل ما تشائين ولكنك لم تقولي لي شيئاً عن السبب الذي نذهب من أجله إلى اسبانيا .
– اننا نذهب لنجد المركيز دي شمري
– أهو في اسبانيا ؟
– انه في سجن قاديس فاذهب وأعد معدات سفرك وأرسل إلي زامبا .

ـ وماذا نصنع بالكونت ارتوف زوجك ؟

ـ نصحبه معنا .

ـ ان هذا محال فانه آخذ في النقاهة وأخشى عليه اذا صحبناه معنا أن ينتكس ولكني سأعين للأعتناء به طبيباً من اخواني فيعالجه بطريقتي .

وافقته باكارا على ذلك وانصرف وبعد ذلك بنصف ساعة قدم اليها زامبا وقد عاد اليه صوابه ولم يبق له شيء من أعراض الجنون فسلم على باكارا باحترام ولبث واقفاً ينتظر اوامرها .

فقالت له باكارا ألا تزال تذكر حالتك وموقفك الخطر ؟ فانك محكوم عليك بالاعدام في اسبانيا وأنت في باريس أسير تحت مسؤولية الطبيب صموئيل فاذا بلغ هذا الطبيب الحكومة انك شفيت من جنونك تعـود إلى قبضة الحكومة الفرنسية .

فركع زامبا امامها وقد وجف قلبه لذكر الحاكم والجرائم وقال : ارحميني يرحمك الله .

ـ ان الحكومة الفرنسية تبدأ بالبحث في قضيتك ثم لا تزال تنتقل من تحقيق الى تحقيق حتى تنتهي الى معرفة حقيقة حالك .

ـ إذن أنت تريدين تسليمي إلى الحكومة ؟

ـ كلا ، إلا إذا لم تطعني .

ـ انك تعلمين يا سيدتي بأني سأكون لك أطوع من العبيد .

ـ لا أريد أن تكون عبدي الآن بل اكتفي ان تكون خادمي في السفر .

ـ وإلى أين تريد سيدتي السفر ؟

ـ إلى اسبانيا .

ـ ويلاه ان الحكم بالاعدام صدر علي في اسبانيا وهناك القضاة ...

ـ انك عشت فيها أربعـة اعوام في خدمة الدون جوزيف بعد صدور الحكم عليك .

ـ هذا أكيد ولكن الدون جوزيف ...

ـ إنك ستكون أيضاً آمناً في خدمتي على نفسك فلا يمسك أحد بسوء .

فأحنى زامبا رأسه وقال : سأمتثل لما تريدين .

ـ والآن أتعلم لماذا أكرهك على السفر معي ؟

ـ كلا .

ـ إن الآنسة سالاندريرا في أسبانيا وأنا أذهب بك اليها لأني أريد ان تخبرها كيف مات الدون جوزيف والدوق مايلي

ـ وإذا فعلت ذلك أألجو من الحاكم ؟

ـ إنك ستنال العفـو في اليوم الذي يقبض فيـه على ذلك الرجل الذي جازاك عن صدقك في خدمته بضربـة خنجر ، فيرسـل إلى السجن او الى المشنقة .

٧

وفي اليوم التالي في الساعة الثامنة من المساء سافرت باكارا وبصحبتها الطبيب صموئيل وزامبا جالساً وراء المركبة .

وكانت باكارا متنكرة بزي الغلمان ، كما فعلت حين سافرت مع رولاند دتي كايلت . فكانت تمثل فتى من الأسرات النبيلة في المستعمرات يسيح في أوربا مع مؤدبه وخادمه . غير انها لم تكتف بعقد شعرها كما فعلت في المرة الأولى بل انها قصته غير مشفقة عليه وجعلته كشعر الفتيان كي يتم الشبه ولا يبقى مجال للشك .

أما زوجها الكونت أرتوف فانه بقي في باريس وقد عين له الطبيب صموئيل طبيباً يراقبه حسب إرشاداته ، وقد كانت حالته تحسنت تحسناً بيناً .

وفي اليوم التالي لسفرها كانت مركبتها تجتاز أرض التورين وقد وصلت عند غروب الشمس إلى قرية صغيرة فقالت للطبيب :

— إني لم أقل لك بعد الى أين نحن ذاهبون .

— كيف ذلك ألم تقولي اننا ذاهبون إلى اسبانيا ؟

— نعم ولكننا سنقف قبل ذهابنا اليهــا في مكان يبعد مرحلتين عن هــذه القرية التي نحن فيها .

— أين ذلك ؟

— في الأورانجري وهي أرض المركيز دي شمري .

فعجب الطبيب لكلامها ولكنه قبل أن يسأل قاطعته باشارة وقالت له . ألم تشر على المركيز ، بل على الرجل الذي اختلس هذا الاسم النبيل أن يذهب إلى الاورانجري كما أوصيتك تبديلاً للهواء لما أصابه من الهزال .

— نعم وقد قال لي أنه سيسافر .

— أنه سيسافر في هذا المساء من باريس فيصل إلى أرضه غداً ونكون قد سبقناه اليها بليلة .

— ألعلنا ننتظره في قصره فيها ؟

— كلا . بل ننام هذه الليلة في القصر .

— لماذا ؟

— ستعلم ذلك فيما بعد واكتف الآن بأن تعلم أن السائق الذي يقود مركبتنا سيسقط المركبة بنا في حفرة واقعة عند مدخل بستان القصر .

وكان الطبيب قد تعود من باكارا أنها تكتم سرها فلا تبوح به إلا عنــــد الاقتضاء ، فلم يلح عليها بمعرفة السر ولم يكترث لوقوعه في الحفرة .

وبعد ساعة كانت الشمس قد غابت وساد الظلام والمركبة قد دنت من ذلك البستان فاندفعت المركبة بسرعة عظيمة .

وعند ذلك قالت باكارا للطبيب : إحذر فقد وصلنا إلى الحفرة .

ولم تكد تتم قولها حتى سقطت المركبة في تلك الحفرة .

وكانت باكارا والطبيب قد رجعا إلى الوراء وتأهبا فلم يصبهما ضرر خلافاً لزامبا فانه سقط عن كرسيه من وراء المركبة وجعل يصيح ويستغيث بصوت مرتفع وكذلك السائق .

وما زالا يستغيثان حتى فتح باب البستان وخرج أربعة من الفلاحين يتقدمهم رجل كهل كان نافذ الكلمة بينهم فأخرجوا زامبا من الحفرة وقد ابتلت ثيابه بمائها وتلوثت بوحلها وخرج الطبيب وباكارا وهي بملابس الغلمان كما تقدم .

ثم أخرجوا المركبة وجيادها،وفيما يخرجونها رأت باكارا دولاب المركبة قد انكسر فأظهرت أسفها ، وبعد أن شكرت زعيم أولئك الفلاحين لاهتمامه بهم قالت له أن دولاب المركبة قد انكسر ونحن مضطرون إلى اجتياز ثلاثة مراحل بعد أن نصل إلى المحطة فأين نحن الآن ؟

فأجابها الزعيم وكان اسمه أنطوان: إنكم في أرض الأورانجري ملك المركيز دي شمري وهذا القصر قصره وأنا وكيله .

فقالت باكارا وهي تمثل دورها أتقن تمثيل : اني أعرف هذا المركيز وصهره الفيكونت دي أسمول من أخلص أصدقائي .

— إذا كنت تعرف يا سيدي مولاي المركيز فاسمح لي أن أدعوك باسمه إلى المبيت الليلة في قصره إلى أن يصلح دولاب المركبة .

— لا بأس إنما أرجوك أن تقول لي كم يقتضي من الوقت لاصلاح الدولاب ؟

— عند الصباح يكون قد تم إصلاحه فتستطيعون مواصلة السير .

وعند ذلك مشى انطوان أمامهم فتبعوه إلى داخل القصر ودخل بهم إلى القاعة الكبرى المعدة للاستقبال ثم تركهم وانصرف كي يعد لهم عشاء فاخراً ثم جلسوا جميعاً على المائدة إلى أن حضر الطعام فجعلت باكارا تحادث أنطوان فقالت له : أيأتي المركيز دائماً إلى قصره ؟

— انه لم يزره منذ عودته من الهند

إذن فسأنبئك نبأ تسر له، وهو أن المركيز سيكون هنا غداً فقد كنت وإياه في النادي أول أمس فأخبرني أنه مسافر غداً إلى أرضه في الاورانجري وهو قد برح باريس أمس فلا بد أن يكون هنا غداً كما قلت لك .

ففرح أنطوان فرحاً عظيماً وقال : إذن سأرى هذا المركيز قبل أن أموت فإني ما رأيته إلا صغيراً كما هو ممثل بهذا الرسم ، أي وهو في التاسعة من عمره ثم أشار بيده إلى صورة معلقة في الجدار .

فأخذت باكارا المصباح بيدها ودنت من الصورة فجعلت تتأملها بامعان شديد فقالت في نفسها : انها الصورة التي فصلها فرناند في كتابه وهذه هي البقعة الظاهرة فوق ساقه تشبه لطخة الخمر فوق الثوب الأبيض .

ثم نظرت إلى أنطوان وقالت له عجباً أهذا المركيز ؟

- نعم وهو في التاسعة من عمره وهذه الصورة تمثله أحسن تمثيل .

- إذن فقد تغير تغيراً عظيماً بحيث يستحيل على من لم يره من ذلك العهد أن يعرفه الآن .

- إني لم أره منذ عشرين عاماً ويندر جداً أن تبقى الشبان الملامح التي كانت لهم في دور الطفولية .

وبعد أن تحادثا قليلاً خرج أنطوان لبعض الشؤون ودخل زامبا فقالت له باكارا : إنك لص ماهر أليس كذلك

فانحنى زامبا دون أن يجيب ولكنه كان يشير بانحنائه إلى الامتثال .

فقالت باكارا : إذن سأعهد اليك بمهمة تعود فيها إلى مهنتك القديمة ، أترى هذا الرسم المعلق في الحائط ؟

- نعم .

- يجب أن تسرقه . وأعلم اننا سنبيت الليلة في القصر ونسافر في الساعة الخامسة من الصباح، فانزع الرسم من الاطار المحيط به وضعه بين ثيابنا واحذر من أن يراك الوكيل .

- سأفعل يا سيدتي ما تريدين .

وعند ذلك عاد الوكيل إلى الغرفة فقالت له باكارا : لقد قلت لك اني صديق لمولاك المركيز ، ولكني لم أقل اسمي ، فإني شريف برازيلي أسيح متجولاً في أوروبا يصحبني مؤدبي وقد أقمت في باريس سنة كاملة فعرفت في خلالها المركيز وكان من أخلص خلاني وهذه رقعة زيارتي .

فأخذ الوكيل رقعة الزيارة ورأى عليها تاج المركيزية فعلم أن صاحبها من النبلاء وانحنى أمامها باحترام عظيم .

– أعتمد عليك باصلاح المركبة بحيث أستطيع السفر عليها عند الفجر .

– كل الاعتماد يا سيدي فان العمال لا ينامون قبل إنجازها .

ثم رأى الوكيل أن هذا السائح ومؤدبه يريدان أن يناما فنادى خادماً كهلاً مثله وأمره أن يذهب بهما إلى الغرفة التي أعدها للزائرين .

ولما كانت الساعة الرابعة قرع زامبا غرفة باكارا قرعاً خفيفاً وكانت قد استيقظت منذ حين ولبست ملابسها ففتحت له الباب فدخل وقال لها : إن المركبة يا سيدتي معدة للسفر .

– والصورة ؟

– في المركبة .

– ألا تخشى أن ينتبه الوكيل لفقدها ؟

– لا أظنه ينتبه يا سيدتي فإنها موضوعة قرب باب الغرفة وباب القاعة يبقى دائماً مفتوحاً بحيث يحجبها وفوق ذلك فإن الوكيل لا يزال نائماً وسنسافر قبل أن يصحو .

وكان زامبا مصيباً في ظنه فخرجت باكارا يتقدمها زامبا إلى أن وصلت إلى المركبة فوجدت الطبيب ينتظرها فيها والسائق متأهب للرحيل .

ولما صعدوا جميعهم إلى المركبة شاهدوا الوكيل يركض مسرعاً اليهم وقد كان نومه ثقيلاً فاضطر الخدم إلى إيقاظه فأسرع إلى ضيوف مولاه يعدو كالمجانين

وهو يخشى أن لا يدركهم

فقالت له باكارا : أرجوك أن تهدي سلامي إلى المركيز ثم شكرته لحسن ضيافته ونفحته بورقة مالية وأشارت إلى السائق بالرحيل فسارت الجياد تنهب الأرض نهباً حتى تجاوزت القرية وبلغت إلى الطريق العام .

وفي خلال هذه المدة كان الوكيل انطوان عاد الى القصر وهو مهتم بهبة باكارا أكثر من اهتمامه بقدوم المركيز فدخل إلى القاعة كي يقفل أبوابها وكان لا بد له عند ذلك من إعادة النظر إلى صورة المركيز الذي سيراه غداً بعد فراق عشرين عاماً ، ولكنه ما لبث ان رفع نظره اليها حتى صاح صيحة القانط ، لأنه رأى الإطار ولم ير الصورة .

وعند ذلك دخل عليه أحد الخدم وقال: أرأيت هذا الشاب الصغير الذي بات عندك أمس أني أراهن على ما تشاء بأنه لم يكن غلاماً بل امرأة بزي غلام.

وكان الاضطراب قد بلغ مبلغاً عظيماً من الوكيل فقال له : ليكن ما يشاء فان الذي أعرفه انه سرق صورة المركيز .

ثم خرج من القاعة وانطلق يعدو وهو يحاول اللحاق بعربة المركيز ولكنها كانت قد ابتعدت بعداً شاسعاً فرجع قانطاً وقد ضاقت به الدنيا على رحبها وأقبل الخادم يعزيه ويقول : إنها لا شك امرأة وانها عاشقة للمركيز فسرقت صورته ولا بد للمركيز أن يعرفها فيسترد الصورة منها إذا شاء .

- ٨ -

ولنعد الآن إلى المركيز الكاذب إلى روكامبول الذي غادرناه مغمياً عليه في المركبة حين رأى آلة القضاء قد قطعت رأس ذلك المجرم .

وقد كان صهره فابيان معه كما تقدم ولكنه حين وقعت الآلة على عنق ذلك

المسكين أغمض عينيه فلما فتحها رأى روكامبول بجانبه مغمياً عليه فذعر وأمر السائق أن يسرع إلى القصر حتى إذا بلغ اليه نزل فابيان وأمر باحضار طبيب في الحال ، ثم نقلوا روكامبول الى غرفة وهو لا يزال مغمياً عليه .

وبقي على ذلك إلى أن حضر الطبيب ففحصه وعلم السبب في إغمائه فقرر ان هذا الاغماء غير خطر وانه ما دعا اليه غير الرعب والتهيج العصبي الناتج عما أصابه من الانفعال النفساني ، ثم قال : انه سيفيق من نفسه دون واسطة ، غير انه قد يصاب بعد ذلك بحمى يصحبها هذيان موقت لا يحمل على الخوف .

ومع ذلك فانه لم يجد بداً من وصف علاج كما تقتضيه واجبات المهنة فكتب العلاج وانصرف

ولم يطل تحقيق نبوءة الطبيب فان روكامبول أفاق على أثر ذهابه من اغمائه ففتح عينيه وجعل ينظر نظراً تائهاً إلى ما حوله فرأى انه في مكان لم يعرفه من قبل ولم ينظر صهره فابيان الذي كان جالساً على كرسي بجانب السرير ثم بدأت الحمى كما قال الطبيب فجعل يقول أين أنا ؟ ويجيل في الغرفة نظراً قلقـاً مضطرباً فلا يذكر شيئاً مما هو فيه وحاول أن يجلس في سريره فلم يستطع .

كل ذلك وفابيان جالس بقربه لا يجسر على الدنو منه حذراً من ازعاجه

ثم بدأ معه دور الهذيان فوضع يده على جبينه وقال لقد ذكرت الآن .. اني رأيت الجلاد ، نعم رأيته وكان عاري اليدين .. فضحك عندما رآني وأراني الخنجر . ثم جعل يضحك ذلك الضحك العصبي الذي يصاب بـه من يتولاه الرعب أو القنوط

فدنا صهره عند ذلك وحاول أن يمسك يده فصاح به روكامبول الى الوراء ارجع ولا تدن مني .. ألأنت آت كي تقبض علي لأني أنا أيضاً قتلت أمي التي ربتني خنقاً بيدي .. ارجع فاني سأنجو منك ويا طالما أفلت من أعماق السجون ونجوت من أعماق البحار .. فاني أدعى . ... ان اسمي الحقيقي .

وهنا توقف عن الكلام كأنما بارق من الصواب قد لاح له حين هذيانه فامتنع

عن ذكر اسمه ولكنه قال : انك تريد ان تعرف اسمي ولكنك لن تعرفه .

ثم عاد إلى ذلك الضحك المؤلم وجعل بعده يبكي وينطق بألفاظ متقطعة وجمل مقتضبة فكلما أوشك أن يظهر شيئاً من حقيقة أمره يختلط هذيانه بالصواب فتقتضب الجمل وتلتبس معانيها ثم تراجع إلى الوراء كأنما الرعب قد تولاه وجعل يصيح بصوت مختنق إلى الوراء . أيها الجلاد . إلى الوراء واشفق على نفسك.

وقد دامت هذه النوبة نحو ساعتين ثم نام بعدها نوماً هادئاً الى المساء

ولما صحا من رقاده لم يبق أثر للهذيان وعادت اليه سكينته ولكنه بقي متعجباً لوجوده في مكان يجهله .

وكان صهره لا يزال في غرفته فلما رآه قد فتح عينيه ورأى ما هو عليه من السكينة دنا منه فأخذ يده بيده وقال : كيف أنت الآن يا البرت ؟

فنظر اليه روكامبول باندهال وقال له : أهذا أنت .. اين نحن الآن ؟

— إننا في قرية ج. على بعد ثلاث مراحل من الأورانجري .

— ولماذا توقفنا في هذه القرية ؟

— لأنك كنت مريضاً .

— أنا مريض وكيف مرضت ؟

— انك كنت مصاباً بحمى شديدة على اثر إغماء أصابك .

. عجباً . ولماذا أغمي عليّ ؟

فتردد فابيان في جوابه غير ان روكامبول ذكر السبب وقال نعم لقد ذكرت الآن المقصلة وذلك الرجل الذي قطع رأسه فيها .

فقال فابيان : نعم هو ذاك أيها الحبيب، وقد هالك ذلك المنظر الهائل حتى انك لم تطق احتماله فأغمي عليك وحملناك وانت فاقد الرشد الى هذا المكان .

وكان روكامبول قد نفض عنه غبار الحمى فانقضى هذيانه وعادت اليه الحكمة فقال : ما هذا الضعف الذي تولاني فكنت اشبه بالنساء ، ولا بد أن اكون أصبت بالحمى

- هو ذاك وقد عقب تلك الحمى هذيان

فذعر روكامبول وخشي أن يكون باح باسراره وهو لا يدري فقال العلي أصبت بهذيان ؟

- كان هذياناً شديداً حتى انك كنت تقول أشياء لم أسمع أغرب منها .

- كيف ذلك وماذا قلت ؟

- إن حديث هذا الرجل الذي قضي عليه بالاعدام وحكوا لنا أمره قبل إعدامه قد أثر عليك تأثيراً عظيماً حتى أصبحت تحسب انك انت هو ذلك المجرم المقضي عليه .

- ما هذا الجنون ؟

- ولبثت ساعة كنت في خلالها تحسب انك أنت الذي خنقت أمك التي تبنتك وتعتقد ان الجلاد قادم للبحث عنك .

فاضطرب قلب روكامبول وخشي ان يكون صهره قد اطلع على سره فنظر اليه نظر المستطلع .

غير ان فابيان ابتسم له وجعل يحدثه بجميع أخبار هذيانه بسلامة لا يداخلها شيء من الشك .

فارتاح بال روكامبول وأيقن أنه لم يبح بشيء ثم تشدد ونهض من سريره فسأله فابيان : كيف أنت الآن ؟

- على أحسن حال .

- إذن ، أتستطيع مواصلة السفر الى الاورانجري ، والمبيت فيها هذه الليلة ؟

- دون شك ، وها أنا سألبس ملابسي فلنسافر بعد العشاء .

وعند ذاك خرج فابيان وأمر باعداد المركبة للرحيل

ولما خلا المكان بروكامبول جعل يتخطر في أرض الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يؤنب نفسه لما أبداه من الضعف ويقول : أيغمى علي لأني نظرت رجلاً يشنقونه

كأني لم أر ميتاً قبلا ولم أسفك دماء ، ثم أصاب بالحمى وأهذو بكلامي ، فأذكر مدام فيبار فانــه ضعف شديد . وإذا جدت بي حادثة أخرى كهذه ، كنت من الهالكين لأنه لو اتفق انه كان لفابيــان أقل ريب بي ، وحاول ان يعلم حقيقة أمري ، لما فاته شيء من أسراري ، ولقضي على تلميذ السير فيليام .

وكأنما أندريا قد تمثل له حين خطر في باله ، فأجفل مرتعداً وقــال في نفسه : لقد أخطأت الخطأ الشديد بقتل هذا الرجل ، فإنه كان مرشدي في كل سبيل ومعيني في كل معضلة . أما الآن فقد ندمت لفقده ، وبت أرى المشنقة منصوبــة لقتلي ، حتى اني أكاد أسمع صــوت مطارق العمال الذين ينصبونها .

ثم سمع وقع أقدام صهره فابيان فانقطع حبل هواجسه وقال في نفسه : ما هذا الجنون ومتى كان روكامبول يخضع للهواجس ويخشى نكبات الأقدار ؟ وأية حاجة لي بهذا الرجل وقد مات ؟ الست المركيز دى شمري وخطيب إبنة الدوق فلأمشي إلى الأمام ولأكن جريئاً مقداماً فقد كان يقول السير فيليام أن الجرأة مفتاح الصعاب ؟

وعند ذلك دخل صهره فابيان وقال له : هلم بنا إلى المائدة فإن الشمس قد غابت ولا بد أن تكون جائعاً

ـ هو ما تقول لأن شهيتي عظيمة .

ولبس روكامبول ملابسه بسرعة ، ثم خرج الاثنــان إلى المائدة . وبعد أن أكلا برحا ذلك الفندق ، فركبا مركبة وسارت بهما إلى الاورانجري .

وكان روكامبول يعرف هذه الأرض ومداخل القصر وجميع خدمه فلما بلغ اليه مع صهره أظهر حنيناً عظيماً وجعل يذكر عهد حداثته وجميع ما يعرفه من أحوال تلك الأرض .

ثم أقبل الخدم وجعلوا يقبلون يديه فرحين مسرورين بعودة مولاهم ما خلا

وكيل الأرض أنطوان ، فانه لم يكن موجوداً بينهم ، وقد كانوا يعجبون كيف عرفهم .

ثم انه نادى أحدهم باسمه وهو الذي قال لأنطوان أن باكارا لم تكن غير امرأة متنكرة بزي الغلمان ، وقال له : أين الوكيل أنطوان ؟ وكيف لا أراه بينكم ؟

– إنه ذهب إلى قرية ج .

– إنني قادم منها فكيف لم أره فيها ؟ وما دعاه الى السفر ؟

– انه سافر يا سيدي المركيز في الصباح كي يقدم شكواه للحكومة ، لقد سرقونا في هذه الليلة .

– كيف سرقوكم وما سرقوا ؟

– إسمع هذا الحديث الغريب يا سيدي ، فقد قدمت أمس مركبة وعند مرورها قرب البستان سقطت في حفرة فانكسر دولابها ، وكان فيها ثلاثة سياح ، وهم فتى في مقتبل العمر يقول أنه من أصدقائك ، ومؤدبه وخادمه .

– ما اسم هذ الرجل ؟

– لا أعلم ولكن انطوان قد عرف اسمه .

– أهو هذا الفتى الذي سرق ؟

– نعم .

– وماذا سرق ؟

– سرق صورة مولاي المركيز التي كانت تمثله طفلاً وكانت معلقة ضمن إطار في جدار القاعة الكبرى .

فصاح روكامبول صيحة اندهاش وعادت اليه هواجس الشر .

وعاد الخادم إلى إتمام حديثه فقال: ومما يدل على ان الفتى كان يعرف سيدي المركيز انه أنبأنا بقدومه .

– بقدومي أنا ؟

– نعم يا سيدي فقد قال لأنطوان انك ستقدم الى أرضك في اليوم التالي فصدق فيما أخبر .

فحار روكامبول في أمره ، وقال لصهره . أتذكر انك أخبرت أحداً بسفرنا ؟

- لا أعلم فإني لا أذكر شيئاً من ذاك .

فقال الخادم: إن الفتى يا سيدي قال انه رآك في النادي وانك أنت أخبرته بعزمك على السفر في الغد .

ماذا أسمع ؟ وما هذه الألغاز ؟ فإني منذ ثلاثة أشهر ما ذهبت الى النادي !

ثم دخلوا جميعاً الى القاعة ، فأراهما الخادم إطار الصورة المسروقة ، فوقف روكامبول فوق كرسي وجعل يمعن النظر في طريقة إخراج الصورة من إطارها ، فوجف قلبه وعلم ان يداً ماهرة نزعتها من موضعها ثم التفت الى الخادم وقال له :

– أذكر لي شكل الفتى .

- إنه ربعة القوام أشقر الشعر هزيل

– أعرف انطوان اسمه كما تقول ؟

. لا بد ان يكون عرفه فانه أعطاه رقعة زيارته واسمح لي يا سيدي ان أقول ان انطوان طاهر القلب شديد الاخلاص ولكنه متعنت في رأيه لا يسمع نصحاً ولا يجري إلا ما يخطر في باله .

– كيف ذلك ؟

– ذلك انه ذهب الى تلك القرية كي يعرض شكواه ، وفاته ان من يحضر في مركبة لسرقة رسم لا يكون من عوام الناس .

– هذا لا ريب فيه ولا شك ان انطوان بسيط القلب .

فتشجع الخادم لما سمعه وقال : أتأذن لي يا مولاي ان أقول كلمة ؟

– قل .

– أظن ان هذا السارق كان له فائدة عظمى بسرقة الصورة حتى انه قد يبذل في نيلها كل عزيز .

ثم دنا من روكامبول وقال له بصوت منخفض: إن الفتى لم يكن غير امرأة متنكرة بثياب الغلمان

وكان فابيان قد سمع ما قاله الخادم فقهقه ضاحكاً وأجاب لم أكن أتوقع هذا الختام .

غير ان روكامبول خطرت له في الحال أوصاف ذلك الفتى ، وهي أنـــه ربعة القوام هزيل أشقر الشعر لا نبـات في عارضيه ، فارتجف ولم يبتسم لضحك صهره ، بل ان العرق البارد جعل ينصب في جبينه وقال في نفسه : ... يا كارا !

فدنا منه فابيان وقال . ماذا فعلت يا البرت ؟ الملك محبوب الى هذا الحد ؟ وكيف تسمح بمثل هذا الغرام وأنت على أهبة الزواج بابنة الدوق ؟

ولم يكد فابيان يتم كلامه حتى سمعوا وقع حوافر جواد فأطل الخادم من النافذة وقال : هوذا أنطوان قد رجع .

فقال فابيان : ستعلم الآن كل شيء، ادخل يا البرت إلى غرفتك لأن المسكين سيجن سروراً برؤياك وانا سأقابله وأعلم منه كل شيء .

فدخل روكامبول الى غرفة قاده اليها الخادم وهو موجس شراً عظيماً لا يعلم سره فيتلافاه ، فوقف أمام نافذة الغرفة وجعل ينظر الى انطوان الشيخ

وقد ترجل عن جواده وقال لفابيان وعلائم السرور بادية في ثنايا وجهه : إن مولاي لا بد ان يكون في القصر !.. وقد عرفت ذلك من القرية التي كنت فيها ، فقد أعطتني إدارة البريد كتاباً اليه وصله إلى باريس بعد سفره .

– من أين أتى هذا الكتاب ؟

– من اسبانيا .

فلما سمع روكامبول كلامه فرح فرحاً عظيماً وقال للخادم الذي كان لايزال معه : أسرع واحضر لي الرسالة التي أتى بها انطوان

وكان روكامبول قد نسي في تلك الساعة سرقة الصورة وهواجسه ورعبه وباكارا ، حين سمع بذكر تلك الرسالة . فلم يطل انتظاره حتى عاد بها الخادم اليه ففضها وجعل يقرأ فيها بينما كان صهره فابيان يسأل انطوان عن حادثة الصورة .

أما الرسالة فقد كانت من خطيبته كونسبسيون ابنة الدوق الأسباني وهي كما يأتي :

« أيها الحبيب

« هوذا ثمانية أيام قد مضت دون ان أكتب لك فيها حرفاً ولا بد ان يجول في خاطرك إني نسيت عهدك على أني لا تمر بي دقيقة من دقائق حياتي دون أن أناجيك فيها ، فان حياتي لك .

« ولقد كتبت اليك آخر كتاب قبل هذا من سالاندريرا حيث أقمت فيها مع والدتي ستة أسابيع نبكي على ذلك الوالد الحنون الذي اختطفته يد المنية من بيننا ليلة زفافنا وندعو له الله في خلواتنا، وعسى ان يجيب دعواتنا ويحشره في زمرة الأبرار .

« والآن أيها الحبيب فاني أكتب اليك من جرناديز وهي أرض لنا قضيت فيها عهد الطفولية وهي واقعة بين قاديس وغرناطة في قلب تلك الجنة المغربية

التي يدعونها بلاد الأندلس .

« وفي هذه الأرض يتنازع في مخيلتي تذكاران من السعادة والشقاء أحدهما ملذات الطفولية وأخراهما نكد الشباب فان في هذه الأرض سقت تلك النورية التي كانت تهوى الدون جوزيف ، ذلك السم النقيع للدون بادرو فأودت بحياته الطاهرة .

« ولا يخطر في بالك إني أتيت هذه الأرض مندفعة بتلك الذكرى فان قلبي يحملته لك بل اني أتيت اليها مع أمي كي أعجل عقد قراننا .

« وأنت تعلم أن عادات الأسبانيين شديدة في الحداد . ولو قدر الله أن يبقى أبي في قيد الحياة ساعتين لكنت الآن امرأتك أمام الله والناس ، ولكنه أبى علينا هذا النعيم، فغادرنا باريس نصحب تلك الجثة الباردة الى سالاندريرا فاستقبلنا أسقف غرناطة ، وهو من أقارب أمي ، فبقي معنا بعد الاحتفال بدفن الجثة ثمانية أيام كان يمتزج دموعه بدموعنا . وقبل ذهابه خلا بأمي وتداول معها في أمر لم أعلمه إلا في هذه الأيام ، وهذه خلاصته أنقلها اليك وهي :

« ان أمي والأسقف تداولا في شأن وفاة أبي ليلة عرسي ، وبما لقيته من العناء لهذا الاتفاق الغريب ، حتى أنهما كانا يخشيان علي عاقبة تلك الأحزان ، فجعلا يفكران في طريقة تعجل عقد قراننا تخفيفاً لأحزاني فقال الأسقف : إن أصول الكنيسة لا تؤذن بزواج الأبناء بعد موت والديهم قبل مضي شهرين ونصف على الأقل ثم أن هناك مصاعب أخرى وهي العادة عند نبلاء الاسبان باطالة زمن الحداد احتراماً للآباء فلو نقضنا ذاك العهد لقامت علينا قيامة الأشراف وسلقونا بألسنة حداد .

« — إني أعرف جميع ما ذكرت ولذا بت قلقة البال على ابنتي لما أعلمه من شغفها بخطيبها .

« — إسمحي لي أن أسألك بعض أسئلة قبل إبداء رأيي فهل عقدت شروط

الزواج بينكم وبين المركيز ؟

« - نعم .

« - وهل أورث صهره اسمه والقابه ؟

« - نعم .

« - إذن فان الأمر سهل . وهو ان الملك في حاجة إلى سفير من النبلاء يرسله إلى البرازيل ، وقد كان عزم على تعيين زوجك الدوق في هذا المنصب ولما عزم على الكتابة اليه واستدعائه فاجأه خبر نعيه ، وهو لا يزال حائراً فيمن يعينه .

« فقالت أمي وأية علاقة لما تقول بتعجيل الزواج ؟

« - إسمعي ، فأنت تعلمين ان الملك لا يخيب لي رجاء وسأذهب إلى مدريد والتمس منه تعيين المركيز دى شمري في ذاك المنصب .

« - لم أفهم بعد .

« - إنه لا يعنيه إلا متى صار اسبانياً ، ولا يصير اسبانياً إلا متى تسمى باسم الدوق سالاندريرا ، ولا يتسمى بهذا الاسم إلا متى تزوج بابنتك ، فمتى عرف الناس ان المملكة تحتاجه الى سفير ترسله في الحال الى البرازيل، وأن الملك وقع اختياره على صهرك بطل عتبهم ، وعلموا أن إرادة الملك قضت بتعجيل الزواج .

« فصفقت أمي سروراً وافترقا فذهب الأسقف الى مدريد بعد ان أوصى بكتمان الأمر مني وذهبنا إلى غرناطة .

« وبعد شهر ورد إلى أمي كتاب من الأسقف يقول فيه ان الأمور تجري على ما يريد وأمرها ان تسافر بي إلى هذه الأرض التي أكتب لها منها الآن . »

« وبعد يومين ورد اليها هذا الكتاب الثاني وخلاصته أن الأسقف قد تباحث مع الملك في هذا الشأن ، فوعده جلالته أنه سيمر في أرضنا اتفاقاً ويعزي أمي لمصابها ، ثم يعين ابنتها من نساء بلاط الملكة دلالة على احترامه للدوق الفقيد . ولما كانت نساء البلاط ينبغي أن يكن متزوجات ، وقد صدر أمر الملك بتعييني في بلاطه ، فلا بد إذن من زواجي وهو خير واق لتقول الناس .

« فلما اطلعت أمي على هذا الكتاب أخبرتني عند ذلك بكل شيء . فاسمع الآن ما حدث بعد ذلك .

« إننا أصبحنا يوماً وإذا بخادمة غرفتي دخلت إلي مذعورة وهي تقول : سيدتي إن الملك والملكة دخلا بموكبهما وهما الآن على الباب .

« فخرجت مضطربة فرأيت أمي قادمة إلي فذهبت بي لاستقبال جلالتهما.

« وجعل الملك والملكة يعزيان أمي وأقاما في قصرنا ساعتين ثم خلت الملكة بامي وعند انصرافها مع الملك قالت لي: إني عينت بين نساء بلاطي مدام شمري سالاندريا .

« فهزتني هذه الكلمات كما تهز الرياح أوراق الخريف حتى اني تلعثمت فما عرفت كيف أشكرها غير ان أمي تولت عني تلك المهمة .

« وبعد ذهابها بساعتين قدم الينا الأسقف ودعانا الى الذهاب الى قاديس حيث نقيم في منزله مدة إقامة الملك في تلك المدينة ، وسأكتب لك منها بعد ثلاثة أيام .

« هذا ما أكتبه اليك الآن أيها الحبيب وفي كل حال فكن متأهباً للسفر قريباً إلى اسبانيا فان يوم سعادتنا غير بعيد . »

« خطيبتك »

« كونسبسيون »

فتلا روكامبول الكتاب والتأثر باد في وجهه فنسي موقفه الشديد ولم يخطر في باله غير ان إبنة الدوق تهواه وان ملكة اسبانيا اهتمت في شأنه وان أعدائه قد هلكوا وانقرضوا ، فقال في نفسه : ممن أخاف ولماذا هذا الاضطراب ؟ اتقتلني ذاك الرجل الذي يدعي نجم سعادتي ؟ وماذا حدث لي الآن مما يحملني على المخاوف ؟

ثم ضحك من أوهامه وقال إذا كان لا بد لي الموت فلا أحب أن أموت إلا سفيراً .

وبعد ذلك خرج كي يرى فابيان الذي ذهب للقاء انطوان .

وكان انطوان أخبر الفيكونت فابيان بجميع الحوادث التي جرت قبل سرقة الصورة بأدق تفصيل فلما فرغ من تفاصيله سأله فابيان ماذا يدعى الشاب الذي سرق الصورة ؟

فأخرج أنطوان من جيبه رقعـــة الزيارة التي تركتها باكارا وأعطاها لفابيان . فأخذها منه فابيان وتركه وانصرف ذاهباً إلى قاعة الأكل ودنا من المصباح الموضوع على المستوقد كي يقرأ الاسم على نوره ، وكان انطون قد تبعه اليها .

وفي ذلك الحين ظهر روكامبول على باب القاعة ، وسمع فابيان يقرأ هذا الاسم :

« المركيز دون الجو دي لوس مونتس » .

فلما طرق الاسم مسمعه تراجع الى الوراء منذعراً لأن الاسم لم يكن غير الاسم الذي اختلقه له أندريا حين عهد اليه إغواء امرأة أخيه الكونتس دي كركاز كما تقدم في رواية التوبة الكاذبة .

ولحسن حظه ان فابيان وانطوان كان ظهراهما من جهة الباب فلم يريا مـــا أصابه من الرعب والاصفرار حين تلاوة الاسم .

أما فابيان فإنه قلب الرقعة بيده وقال: إني لا أعرف صاحب هذا الاسم

ثم التفت فرأى روكامبول واقفاً في الباب فقال له: أتعرف المركيز دون أنجو دي لوس مونتس ؟

وكان روكامبول قد ضبط نفسه في هذه الفترة وعاد اليه سكونه فأجاب صهره ببرود قائلاً : كلا .

أما الوكيل انطوان فانه أسرع الى روكامبول وهو يحسب انه مولاه المركيز فصاح صيحة فرح وقال : مولاي المركيز أهذا أنت ؟

وكأنه أراد ان يعانقه ولكنه وقف متهيباً فقال له روكامبول: لا بأس ايها الشيخ تقدم وعانقني .

فهجم عليه انطوان عند ذلك وعانقه عناقاً طويلاً ثم قال له : تعال معي إلى نور المصباح كي أرى ما بقي في وجهك من آثار الطفولية .

وبعد أن حدق به انفك راجعــاً وهو يقول : عجباً إنه لا يوجد في وجهك أقل أثر من مــلامحك القديمة ولو رأيتــك خارج القصر لاستحال عــلي أن أعرفك .

فقال روكامبول : أمــا أنا فقد عرفتك ، أتعلم انك لا تزال كما كنت في عهد الشباب ؟

— ومع ذلك فاني قد تجاوزت السبعين من عمري .

وكان لا يزال يحدق به فقال: من الغريب انك لا تشبه نفسك في شيء حين كنت في عهد الحداثة .

فخفق فؤاد روكامبول وقال في نفسه : أيجسر هذا الأبله على فضيحتي .

وعند ذلك قطع فابيان كلام انطوان وقال لروكامبول : إذن فلا تعرف صاحب هذه الرقعة .

— كلا !.

— غير ان الخادم يوسف يقول إن هذا الفتى كان امرأة متنكرة بثياب الغلمان .

إني لا أعلم شيئاً من تلك الألغاز وفي كل حال فقد أحسن انطوان بتقديم شكواه الى الحكومة .

— وأنا من رأيك .

ثم أعطاه رقعة الزيارة التي تركتها باكارا ، فلما وقع نظره عليهـا علم في الحال انها الرقعة التي كان يستعملها حين كان يدعى باسم ذاك المركيز البرازيلي وان أشائر المركيزية نفسها وقطع الرقعة والحروف المطبوعة عليها ولون الورق كل ذلك واحد ... ...

بعد ذلك بساعتين كان روكامبول في غرفته يمشي فيها ذهاباً وإياباً بخطوات غير موزونة . .

وكان يقول في نفسه : لم يعد لدي شك الآن بأن ذاك الفتى الأشقر الذي جاء الى القصر وتسمى بالاسم الذي كنت أدعى به من قبل ، وسرق رسم المركيز دي شمري القديم لم يكن من الفتيان بل كان إمرأة وان تلك المرأة لم تكن إلا باكارا .

وعندما خطر في باله ذاك الخاطر وقف خائفاً وداخل فؤاده شك هائل فقال: لماذا سرقت صورة المركيز ؟

وفي الحال إنتقل بتصوره الى المركيز دي شمري الحقيقي الذي تركه ملقى في الحفرة في الجزيرة ، ينتظر أن ينتشله منها ، وكان يعتقد أنها ستكون قبراً له لصعوبة خروجه منها فقال في نفسه وهو يرتعش : أيمكن أن يكون ذاك المركيز قد نجا من الموت وعاد الى باريس ؟ وإلا فما قصد باكارا من سرقة الصورة ؟

وعند ذلك طرق باب غرفته وكان الطارق انطوان فأذن له روكامبول بالدخول فدخل وكانت الساعة قد آذنت بانتصاف الليل .

فقال الوكيل : أرجوك يا مولاي معذرة لدخولي إليك في تلك الساعة المتأخرة ، ولكني أسمع خطواتك من ساعتين ، فخشيت أن تكون محتاجاً

الى شيء .

فابتسم له روكامبول وقال له : لست بحاجة إلى شيء الآن .

فحاول ان يخرج غير ان روكامبول أوقفه وقال له : إجلس أمامي لنتحدث .

فجلس انطوان وعاد إلى التحديق بروكامبول وقال : عجباً ما هذا التغيير الذي طرأ عليك فان المرء مهما تغيرت ملامحه فلا بد أن يبقى له شيء من الملامح القديمة .

فجعل روكامبول يحدق بذلك الشيخ بدوره وقال : وأنا لم يبق لي شيء من تلك الملامح .

– كلا فاني لا أجد منها أثراً لا في ابتسامتك ولا في نظراتك حتى ان لون عينيك قد تغير وهو من الغرابة بمكان فان لون العين لا يستحيل كأنما قد غيروك في الهند كما يبدلون الأحداث في مهودهم .

فضحك روكامبول ضحك الساخر وقال له : لا شك إنك مجنون !

ثم انه جلس على كرسي وقال له : أعني على خلع حذائي ودعني بعد ذلك وشأني فاني أريد ان أنام .

ومد له رجله اليمنى فركع انطوان وعالج الجزمة التي كان يلبسها روكامبول فأخرجها من رجله وانكشف من تحتها بطة ساقه .

وكان على المستوقد مصباحان ينبعث منهما نور متألق ، فجعل انطوان يمعن النظر في ساق روكامبول ثم خرجت من فمه صيحة تشير الى الدهشة العظيمة والإنكار .

فسأله روكامبول : ماذا أصابك ؟

– تقول ماذا أصابني . اليس هذا ساقك الأيمن ؟

– دون شك .

– إنه كان يوجد على هذا الساق بين البطة والركبة اثر لا يمحى ولا يزول.

ـ لا شك إنك مجنون قم وامض عني .

ـ كلا لست بمجنون فأين ذاك الأثر ؟

ـ إنه قد زال مع مرور الأيام الا تعلم ان آثار الندوب والجروح تزول من الأجسام بتوالي الزمن عليها ؟

فلم يبق ريب عند ذلك لدى انطوان ، فوقف وقال له : لقد كذبت فان ذاك الأثر لم يكن جرحاً او ندبة ، بل كان بقعة حمراء خليقة في ساقك لا يمكن زوالها .

فهاج غضب روكامبول وقال : ويحك ايها الشقي أتجسر على تكذيبي ؟

فصرخ الشيخ يقول : إنك لست بولاي وما انت المركيز دي شمري .

فانقض كلامه على روكامبول إنقضاض الصاعقة وخشي الفضيحة ، ولكنه تجلد وقال له ليس ما يمنعني ايها الوقح ان أرمي بك النافذة لولا حبي لك ولو لم يكن لك علي حق التربية .

غير ان انطوان قد تغلبت عليه عواطف العدوان فقال له: إذا كنت المركيز دي شمري كما تقول فاكشف عن صدرك امامي .

ـ لماذا ؟

ـ اكشف عن صدرك .

ـ أتأمرني امراً ايها الوقح .

ـ إعلم يا سيدي انه إذا اتضح اني كاذب فلك ان تعاقبني بما شئت ، واذا ابيت ان تكشف عن صدرك امامي ناديت جميع من في القصر وقلت امامهم انك لست بالمركيز .

فكان لذاك الانذار تأثير شديد على روكامبول فلم ير إلا الامتثال للشيخ ، ففتح صدرته وفك ازرار قميصه ثم كشف عن صدره فأخذ انطوان المصباح بيده وجعل يتمعن في ذلك الصدر المكشوف حتى اذا اتم فحصه ارجع المصباح الى موضعه وقال له متهكماً إنك لو كنت المركيز دي شمري حقيقة لوجب

أن يكون لك ثلاث شامات تحت ثديك الأيسر فما أنت غير مزور محتال ولا بد أن تكون فتكت بالمركيز أيها القاتل السفاك .

وعند ذلك ابتعد عنه وحاول أن يصيح مستغيثاً فانقض عليه روكامبول وقبض على عنقه وجعل يقول له : اصمت واسمع ما أقول .

- ١١ -

غير ان الشيخ كان يحاول الافلات منه ويصيح بصوت المختنق لشدة الضغط عليه فيخرج متقطعاً كالأنين ، فلما رأى ذلك منه روكامبول خلع عنه رداء المركيزية وعاد لصاً سفاكاً ، فضغط على عنق الشيخ ضغطاً شديداً حتى جعل الزبد يخرج من فمه وجحظت عيناه ولكنه مع ذلك كان يدافع دفاعاً شديداً بالرغم عما يتطلبه منه من الضعف غير ان أيدي روكامبول كانتا قد نشبتا في عنقه كما تنشب الكلاليب فلم يستطع صراخاً ولكنه لبث يئن

وعند ذلك دقت الساعة مشيرة إلى انتصاف الليل وكان جميع من في القصر نياماً فقال له روكامبول كفاك تئن أو أقتلك ، وإذا قتلتك فلا يشعر بي أحد لأن الجميع نيام .

غير ان الشيخ لم ينقطع عن الدفاع ومحاولة الاستغاثة فجذبه روكامبول والقاه على الأرض ، ثم وضع ركبته فوق صدره ويداه لا تزالان على عنقه وقال له : إنك ترى نفسك تحت رحمة يدي فإذا لم تنقطع عن الصراخ خنقتك دون إشفاق .

فلم يستطع الشيخ أن يجيبه ولكنه نظر اليه بعينيه الجاحظتين نظرة ملؤها الاحتقار وحاول أن يتخلص ايضاً .

وحاول روكامبول أن يجرب معه التمليق فقال اني أجعلك غنياً فأعطيك

مائة الف فرنك وأهبك المنزل الذي في آخر البستان إذا طاوعتني فيما أريد فان المركيز مولاك قد مات ، وأنا هو المركيز الحقيقي لدى جميع النـاس ومهما تقل فلا تجد من يصدق أقوالك ... قل الآن أترضى بما وعدتك به وتكتم هذا السر ؟

ثم أفرج قليلاً عن عنقه كي يسمع جوابه فلم يجبه بغير هـــذا القول : إلى الوراء أيها القاتل السفاك إلى الوراء .

فقال له روكامبول : إذن فلم يعد بد من قتلك فاستعد للموت ثم ضغط على عنقه ضغطاً شديداً وهو لا يستطيع حراكاً لأن ركبة ذلك اللص كانت فوق صدره ولكنه لم يخنقه .

وكان جميع من في القصر نياماً كما قدمنا ولـما كان هذا الشيخ المسكين لا يستطيع حراكاً ولا صراخاً كان الوقت فسيحاً لروكامبول للامعان فيما هو فيه فذهبت عنه آثار الرعب وعادت اليه سكينته المعتادة فقال للشيخ :

- اني في شرخ الشباب وأنا قوي الساعد متين العضل كما ترى فلا رجاء لك بالخلاص مني لأنك عارف بسري ولا يجب أن يعرفه أحد سواي ، إذن فلا بد من قتلك وسأفتكر بطريقة موتك .

وعند ذلك جعل روكامبول يقول في نفسه : إني إذا قتلتـــه بالخنجر أو خنقته بيدي فلا بد أن يروا في الغــد أثر الخنجر في صدره أو أثر اليدين في عنقه .

وفيما هو يفتكر شعر ان دبوس رباط رقبته قد برز منه صعداً ولمس عنقه .

وكأن هذا الدبوس قد أوحى اليه فكراً هائلاً فابتسم ابتسام الظافر لفكره الجهنمي وقال له ستموت أيها الأبله من يدي وسيحسب النـــاس انك مت بالسكتة الدماغية .

وفي الحال أدار ذلك الشيخ المسكين الذي انتهكت قواه فقلبه على بطنـه وركع على ظهره وكان بالقرب منه مخدة السرير فوضعها تحت فمه كي يمنعه عن

الصياح ، ثم قبض على عنقه من القفا بيده اليسرى وأخذ بيده اليمنى الدبوس من صدره فشكه في مخه .

فانتفض الشيخ انتفاضاً هائلاً ألقى روكامبول طريحاً على الأرض ونهض لحظة ثم انقلب صريعاً لا حراك به فان الدبوس اخترق نخاعه وأماته في الحال.

اما روكامبول فانه أسرع اليه والرعب ملء قلبه لخوفه من صياحه فوجده لا حراك به ، وعند ذلك اطمأن باله فأخذ المصباح بيده واجتذب الدبوس من مخ ذلك الخادم الأمين .

وكان الدبوس قد ثقب في مخه ثقباً رفيعاً بقدر جرمه ، لا يبدو أثره للعين ، ولم يسل غير نقطة صغيرة من دمه البريء فمسحها ذلك السفاك بيده وأعاد ترتيب شعور الشيخ البيضاء إلى مـا كانت عليه فاختفى أثر الدبوس أتم الاختفاء .

ثم قال في نفسه : إن سر هذا الموت لا يدركه غير حكيم ماهر وهوسيخفى على طبيب هذه القرية الحقيرة لأنه دون شك دجال فاذا قلنا أمامه أنه مـات بالسكتة الدماغية وافق على قولنا أتم الموافقة .

وبعد أن مسح دبوسه وأرجعه إلى مكانه اقبل يفحص عنق الشيخ وقبضتيه فما وجد فيها أقل أثر يكشف حقيقة ما كان بينهما فوقف ينظر إلى وجهـه المصفر وقوف الظافر المطمئن ، ثم ابتسم ابتسام الأبالسة وقال : لقد أخطأ من يقول إن حسن الذاكرة من نعم الله ، فان هذا الأبله لم يقتله غير ذاكرته إذ انه لو لم يذكر ذلك الأثر في ساق المركيز وتلك الشامات في صدره لما قضى عليه بالموت ولأبقيته حياً يتمتع بالوكالة عني في أملاكي

ولما أنتهى من تأبينه حمله إلى زاوية الغرفة وغطاه ثم قال لنبحث الآن في هذه الحالة الحاضرة فانه يجب قبل كل شيء أن أضع هذا الرجل في غرفته وعلى فراشه إذ يجب أن يجدوه ميتاً فيها ، ولكن أين هي غرفته فاني لا أعرف شيئاً من أحوال هذا القصر فلنبحث .

وخرج من غرفته وبيده المصباح فأقفل بابها وأخذ مفتاحها من قبيل الحذر وجعل يمشي في الرواق مشي اللص الخائف .

وكان روكامبول قد تنكر منذ عامين بزي الشحاد وأتى الى القصر مستطلعاً أحواله فعرف كل شيء من أمره ولكنه لم يخطر في باله انه سيضطر إلى قتل وكيله فلم يهتم بمعرفة المكان الذي ينام فيه هذا الوكيل المنكود .

وكان يعلم ان الخدم ينامون في الدور الثاني ولكنه كان يرجح ان انطوان بصفته وكيلاً في القصر يميز نفسه عن الخدم وينام في الدور الأول لاسيا بعد غياب مواليه عن القصر أعواماً طويلة .

فلما بلغ إلى منتصف الرواق وقف وبيده المصباح وقال في نفسه : إن هذا الأبله قد طرق باب غرفتي ودخل عليّ وقال : انه كان يسمع صوت خطواتي فلا بد إذن من ان تكون غرفته ملاصقة لغرفتي وإلا فــلا سبيل له إلى سماع صوت .

فدنا من الغرفة المجاورة فرأى فيها نوراً ضعيفاً فأطفأ مصباحه واقترب من الباب فوضع عينه على ثقب القفل وجعل ينظر من خلاله موجودات الغرفة فكان أول ما رآه طاولة كان عليها مصباح ورأى بجانب المصباح علبة للتبغ ذكر انه رآها بيد الشيخ في أول الليل .

ثم نظر إلى الجدار فرأى معلقاً عليه أسلحة وملابس ورداء طويلاً كان رأى الشيخ مرتدياً به فلم يبق لديه شك ان الغرفة غرفة القتيل .

فأصغى أتم الاصغاء كي يعلم إذا كان يوجد أحد في الغرفة ولما وثق من خلوها دفع الباب ودخل ففحص الغرفة فحصاً مدققاً ووجد على الطاولة جريدة ملفوفة بقطعة من الورق مطبوع عليها هــذا العنوان « إلى الموسيو انطوان وكيل قصر الاورنجري » فلم يبق لديه شيء من الشك ، فأنار مصباحه وخرج إلى غرفته فحمل القتيل على كتفه وجاء به إلى الغرفة فجرده من ثيابه والبسه ملابس النوم ووضعه في سريره وفتح الجريدة فقلب صفحاتها ثم القاها الى الأرض كي

يقال انه كان يقرأ قبل ان يموت هذا الموت الفجائي .

ولم يبق عليه الا صعوبة واحدة وهي إقفال الغرفة من الداخل والخروج منها كي لا يبقى مجال للشك انه مات حتف انفه وبعد الامعان رأى فوق الطاولة التي بازاء السرير نافذة واحدة فصعد إلى الطاولة وفحصها فوجد أنها تشرف على الرواق ففرح فرحاً وحشياً ونزل فأقفل باب الغرفة من الخارج ثم عاد الى الطاولة فصعد منها الى النافذة وسقط الى الرواق .

فلما وصل الى حجرته اطمأن خاطره وتنهد تنهد المنفرج بعد ضيق شديد وقال ليس من يشك في الغد ان هذا الشيخ قد مات بالسكتة الدماغية ثم عاد الى كتاب خطيبته ابنة الدوق يتغزل بمعانيه ويعلل النفس بما سيناله من الوجاهة في البلاط الاسباني وبتلك السعادة التي سينالها كأن يده الأثيمة لم تتلطخ بدم ذلك القتيل المنكود .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي دخل روكامبول الى غرفة صهره وهو باسم الثغر وعليه ملامح السعادة والهناء فدفع كتاب خطيبته الى صهره وقال له : ما رأيك في هذا الكتاب ؟

فأخذه فابيان وجعل يقرأه بامعان وهو يتبسم فلما أتم قراءته قال له: أرى انه يجب أن تغدو اسبانياً في أقرب حين .

وفيما هما يتباحثان إذ أقبل عليهما خادم وعليه ملامح الذعر فاخبرهما بوفاة انطوان .

فأجفل روكامبول وقال له : ويحك كيف مات هذا الخادم الأمين ؟

— اننا وجدناه يا سيدي ميتاً في غرفته وهو في فراشه .

فقال روكامبول وقد أخذ الكدر منه كل مأخذ ، مسكين فلقد مـــات مسروراً بي وما قتله إلا الفرح

ولنعد الآن الى اسبانيا حيث تركنا فرناند روشي مع امرأته هرمين في قاديس بعد أن علما من قومندان الميناء ما ذكرناه بشأن المركيز دي شمري الحقيقي فنقول :

أنه بعد مضي خمسة عشر يوماً على ما تقدم كانت سراي الحكومة في قاديس مزينة أجمل الزينة ، والشعب الاسباني تتقاطر جماهيره في الشارع المؤدي الى السراي .

وذلك لأن الملكة كانت تقيم في ذلك الثغر منذ خمسة عشر يوماً للاستحمام بمياه البحر وكانت قد وعدت المجلس البلدي بحضور حفلة أعدها لمساعدة فقراء المدينة .

فبدأت المركبات تتوارد الى السراي منذ الساعة التاسعة صباحاً فتنزل من فيها من الزائرين والزائرات ثم تعود فتقف في مواضعها المعينة .

وكانت الحفلة حفلة رقص اختلفت فيها أزياء المدعوين وقلدت فيها ملابس جميع العصور والشعوب بحيث باتت مناظر تلك الأزياء الغريبة مما تدهش الأبصار .

و كان نظام تلك الحفلة ان الرقص يبدأ الساعة التاسعة ويسوغ للراقصين والراقصات ان يلبثوا متنكرين الى منتصف الليل وعند ذلك تحضر الملكة فتسفر البراقع عن جميع الوجوه احتراماً لجلالتها إذ لا يسوغ ان يقف أحد من رعيتها امامها موقف التنكر

فلما دقت الساعة التاسعة أقبلت مركبة يظهر من شكلها انها فرنسية الى السراي وخرج منها رجلان وامرأة فكان احد الرجلين متنكراً بملابس رجال البلاد في عهد لويس الخامس عشر وكانت المرأة لابسة لباس المركيزات وهي متأبطة ذراعه .

وكان كلاهما سافر الوجه فلما رآهما المتفرجون ذكروا انهما رأوهما مرات كثيرة في الملاعب وفي شاطىء البحر والمتنزهات العمومية ، إذ انهما كانا فرناند روشي وامرأته هرمين .

أما الرجل الآخر الذي كان يصحبهما فقد كان متنكراً بزي حرمي من الحرس الامبراطوري الرومي ، وهو شاب جميـــل الطلعة لم ينبت الشعر في خديه ، أشقر الشعر ، حاد النظر ، تدل هيئته على الثبات وقوة الارادة ، وكان أيضاً كرفيقيه مسفر الوجه .

فلما دخل إلى القاعة الاولى بعد فرناند وامرأته ، أحدقت بـه الأبصار لجماله ، وقال اسباني من المدعوين الى الحفلة لرفيق له :

– من هذا الفتى المرتدي بملابس الحرس الرومي ؟

فأجابه رفيقه : انه رومي حقيقة .

– ماذا يدعى ؟

– انك تسأل سؤالاً يصعب الجواب عليه فإنْ اسمه ينتهي بلفظة « سكي » أو « أوف » كثير الحروف ، بحيث يستحيل التلفظ به إلا بعد حفظه مرات كثيرة .

– ومتى قدم إلى قاديس ؟

– منذ ثلاثة أيام . .

– وأين يقيم ؟

– في فندق استيري ولا تسألني غير ذلك فإن هذا كل ما أعلمه .

– الحق انه بارع الحسن يفضل بجماله النساء .

وبينما كان الاسبانيان يتحدثان بشأن هذا الحرمي كان ذاك الفتى الجميـل يطوف في قاعات السراي مع فرناند وامرأته وهم يبحثون عن قومندان الميناء العسكري .

فلما عثروا به تبادلوا التحية ، ثم أخذ الرومي القومندان وسار بـه إلى

حديقة السراي، وجلسا في محل منفرد لم يكن فيه أحد ، ودار بينهما الحديث الآتي فقال الروسي :

- أنجحت في مهمتك ؟

- نعم يا سيدتي .

- لا تناديني بألقاب النساء ، ثم لنتكلم باللغة الفرنسية مبالغة في الحذر .

. ليكن ما تريدين .. عفواً فقد غلطت وليكن ما تريد ..

- قل الآن ما فعلت .

- ذهبت في هذا الصباح ، إلى القصر الذى تقيم فيـــه الملكة والملك فالتمست من جلالته ، أن لا يسألني عن السبب ، ونلت منه حرية الاجراء ، وذلك بعد أن قلت له ان شرف أسرة من أعرق أسرات البلاد الاسبانيـــة نسباً يتعلق على تصرفي هذا ، فاسمعي الآن بيان الخطة التي عزمت على أن أتبعها .

- قل لنرى .

- انه سيحضر الآن فيتجول بين الراقصين والراقصات وهو مقنع الوجـه إلى أن ينتصف الليل فيترك الحفلة وينصرف .

- وبعد ذلك .

- يعود إلى الحفلة بعد انصراف الملكة ..

- ويزيح القناع عن وجهه ؟

- كلا إذ لا يوجد كثير من الناس .

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا تريد أن يبرح الحفلة عند حضورها ويعود بعد انصرافها ؟

- ذلك لأنه مهما كانت براءته تامة جلية في أعيننا فانه لم يتبرأ بعد تبرئـة رسمية ، وإذ كان لا يزال من المجرمين في عين القضاء فلا يحمل حضوره حفـلة تحضرها الملكة فإن ذلك يحسب إهانة لها وللقضاء .

– لقد أصبت وأما هي فماذا يكون من شأنها ؟
– إنها تبقى في الحفلة بعد ذهاب الملكة .
– أتحضر حفلات الرقص بالرغم عن واجب الحداد ؟

– نعم ولا جناح عليها في شيء فان جلالة الملكة قد عينتها بين نساء بلاطها وحيث تكون الملكة يجب عليها ان تكون واما بقاءها في الحفلة بعد ذهاب الملكة فستأمرها الملكة بالبقاء دون ان توضح لها الأسباب .
– ألم تسألك الملكة شيئاً ؟
– كلا فإني جثوت أمامها وقلت لها ان ما التمسه من جلالتك سينقذ من العار أنبل أسرة اسبانية فاكتفت بذلك ولم تسألني شيئاً .
فقال الروسي إن الأمور تجري في خير المناهج

ثم أخذ برقعاً مخملياً من جيبه ووضعه على وجهه الجميل وقال للقومندان : دعني أفارقك الآن فاني ذاهبة لمراقبة ذاك الرجل الذي تحميه إنما قل لي : أأنت واثق من ان الفتاة لابسة ثوباً أسود وعلى كتفها شريطة حمراء ؟
– كل الثقة .
– وهو ماذا يلبس ؟
– إنه يبقى بثوبه العادي ولما كان البرقع يستر وجهه فلا يعرف أحد حقيقة أمره ويحسبون انه متنكر بملابس المجرمين .

ثم دخل الاثنان إلى قاعات الرقص وهناك افترقا ، فذهب القومندان يبحث عن فرناند روشي وامرأته ، وذهب الروسي الى القاعة الأولى التي لا بد لكل مدعو من المرور بها حين قدومه وجعل يراقب عند بابها وهو مقنع الوجه لا يعرفه أحد .

وأقام عدة دقائق يراقب في هذا الموقف ، إلى ان دخل رجل استلفت أنظار الحضور بلباسه الغريب ، وجعلوا يتحدثون بأمره وكلهم ينظر اليه

ضاحكاً معجباً .

وكان ذاك الرجل ربعة القوام تدل خطواته وثبات أقدامه وسرعة انتقاله على انه لم يتجاوز عهد الشباب ، وهو مقنع بقناع كثيف يحجب وجهه عن العيون .

على ان جميع حركاته وشكل سلامه كانت تدل على انه من كبار النبلاء .

أما الذي كان يدعو الناس إلى العجب منه فانه كان مرتدياً بملابس المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة

فكان أحد الحاضرين يقول : ما هذا الثوب المخيف ؟ ويقول آخر : لا شك انه إنكليزي إذ لا تخطر هذه الغرابة إلا في خواطر الانكليز .

واتفق في ذلك الحين مرور القومندان فقالت له إحدى السيدات على سبيل المزاح : الملك يا حضرة القومندان دعوت محابيسك لحضور الحفلة ؟

نعم ولكن اطمئني يا سيدتي لأني ما دعوت إلا أعقلهم ولا تخشي هذا المجرم لأنه من الأشراف .

ثم تركها القومندان وانصرف ومشى المجرم أيضاً فسار بأثره الروسي حتى إذا بلغ القاعة الثالثة وضع الروسي يده على كتف المجرم وقال له :

– أتلعب لعبة البا كارا يا سيدي ؟

فارتعش المجرم وأجابه بصوت منخفض : نعم يا سيدي .

– إذن ، اتبعني .

ثم تأبط ذراعه وسار به الى قاعة لم يكن فيها رقص وكان فيها بعض المدعوين يتكلمون بأصوات منخفضة .

وكان بينهم امرأة لابسة لباساً أسود وعلى كتفها شريطة حمراء ولكنها جالسة بمنعزل عن الحاضرين لا تكلم أحداً فدل الروسي المجرم عليها وقال له : تعال معي اليها .

وكانت هذه الفتاة غائصة في بحار من التأملات العميقة فلما شعرت بدنو

الرجلين منها ، ورأت مـلابس ذلك المجرم ذعرت لمرآه ، وبدت عليهـا علائم الخوف .

فقال لها الروسي : لا تخافي يا سيدتي فان المجرمين الذين يحضرون مثل هذه المراقص لا خطر منهم .

فاطمأنت الفتاة وابتسمت معجبة بهذا اللباس وجلس الروسي بازائها فقال لها : إنك أتيت يا سيدتي من فرنسا قريباً أليس كذلك ؟

فاندهلت الفتاة لأنها كانت متنكرة أشـد التنكر ، وقالت له : العلك تعرفني ؟

- نعم وإذا كنت تريدين فإني أذكر لك اسمك

ثم دنا منها وقال لها همساً: إنك تدعين يا سيدتي كونسبسيون دي سالاندريرا ولم أتجاسر على الدنو منك إلا لأنك قادمة من فرنسا .

فجعلت، إبنة الدوق تنظر اليه متمعنة وقد خيل لها انها سمعت هذا الصوت من قبل ثم قالت العلك فرنسي ؟

— إني روسي كما ترين من ملابسي التي البسها ، وأما صديقي هذا . . .

ثم أخذ بيد المجرم وقدمه لابنة الدوق سالاندريرا قائلاً : إن هذا المجرم من أشرف العائلات .

فانحنى المجرم أمامها باحترام شديد أزال ما بقي في فؤادها من آثار الرعب لمنظره فردت تحيته ودعته إلى الجلوس بجانبها .

فنهض الروسي عند ذلك وانحني أمام المجرم وهمس باذنه قائلاً : إياك على الأخص ان تذكر أمامها اسمك . ثم تركها ومضى

فلما خلا المكان بالمجرم وابنة الدوق دار بينهما الحديث الآتي، فقالت الفتاة:

— إذن ، أنت فرنسي ؟

— نعم يا سيدتي .

— وأنت قادم من باريس دون شك ؟

– إني لم أر بلادي يا سيدتي منذ عشرين عاماً واأسفاه !
– إذا كان ذلك فكم يكون عمرك ؟
– سأبلغ الثلاثين بعد بضعة أشهر .
– إذن فقد غادرت بلادك وأنت في العاشرة من عمرك ؟
– واأسفاه هي الحقيقة ما تقولين .
– وسكنت في اسبانيا بعد ذلك ؟

فارتعش المجرم وقال : إني لم أعرف اسبانيا إلا منذ إحدى عشر شهراً وأنا في قاديس غير اني قبل ذلك ... ثم وقف متردداً .

– قل يا سيدي اني مصغية اليك .

فقال بصوت فيه لهجة الكآبة أثر على ابنة الدوق تأثيراً عظيماً : إنه قد يتفق يا سيدتي وجود امرأة تحضر حفلة راقصة وهي بملابس الحداد ، كما تفعلين ويتفق أيضاً وجود رجل في هذه الحفلة لا يحق له لبس الحداد كما اتفق لي

- ماذا تعني بذلك ؟
– أريد يا سيدتي ان حزني شديد يخترق أعماق القلب ولا يدري به أحد .
- إذن فقد تعذبت كثيراً ؟
– ولا أزال أتعذب .

وقد قال تلك الكلمات الأخيرة بلهجة حزينة اضطرب لها قلب الفتاة ، ولكنه أسرع بعد أن تنهد الى الحديث فقال : لقد التمست يا سيدتي أن أقدم اليك فانك قادمة من العاصمة التي طالما حن قلبي اليها ، ولا أحب إلي من الكلام عن ذاك الموطن العزيز الذي تركت فيه من أحب فلقد ذكر عن لطفك ما دفعني الى أن أقدم اليك دون ان أتردد او أخشى الخيبة .

وسكت الاثنان بعد ذلك سكوتاً قصيراً ، فان إبنة الدوق تضايقت في أمرها حين رأت نفسها منفردة بهذا الرجل الذي اختارها كاتمة لأسراره دون

أن يعرفها ثم كأنما الرغبة الفطرية بالنساء للوقوف على الأسرار دفعتها إلى الاطلاع على أمره فذهب ما عندها من الوجوم وقالت له: العلي أستطيع خدمتك في شيء يا سيدي ؟

فقال المجرم بلهف :حدثيني يا سيدتي بأحاديث باريس فان اسم هذه العاصمة حبيب الى قلبي .

ولبث الاثنان ساعتين يتحدثان في تلك القاعة الخالية من الراقصين فتحدثا عن باريس وفرنسا وأخلاق الباريسيين ، فان كل كلمة كان يسمعها ذاك المنفي الذي فارق الوطن منذ عشرين عاماً تدعوه إلى العجب والانذهال وتدفعه الى الأسئلة والاستفهام ، فانه كان باريسياً ولكنه لا يعرف باريس ، وكان فرنسياً ولكنه لا يعرف فرنسا إلا كما يعرفها من يقرأ رواياتها من الغرباء عنها .

غير انه كان حنون الصوت عذب الكلام رشيق التعبير ، فكانت الفتاة تصغي لأقواله وهي تشعر انها منجذبة اليه بجاذب سري .

وعند ذلك دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فارتجف المجرم ونهض مسرعاً .

- ١٣ -

فنظرت إبنة الدوق الى اضطرابه منذهلة . أما المجرم فانه قال لها : عفوك يا سيدتي فاني مضطر الى الذهاب .

— والى اين أنت ذاهب ؟

فوضع إصبعه على فمه وقال : ان هذا سر من الأسرار .

ثم أخذ يدها ، وتجاسر على تقبيلها وقال : إنك لا تبرحين المرقص قبل

- لماذا ؟

- لأني في الساعة الثالثة أكون قد عدت اليه .

ثم انحنى أمامها مسلماً باحترام شديد وانصرف .

فجعلت ابنة الدوق تراقب خطواته الى ان غاب عن أبصارها ، فجعلت تقول في نفسها : ما هذا الرجل وما هذا النظام السري الذي تخضع له القلوب هذا الخضوع فاني ما رأيت وجه هذا الرجل ولا عاشرته من قبل ولا عرفت شيئاً من أمره ، ولكن لهجة صوته الحزينة تميل اليه القلوب ، ولا بد أن يكون قد أصيب بنكبة شديدة أورثته هذه الكآبة الحنونة ، وهو يبالغ في كتمان أمره .

ثم نظرت الى ما حولها فرأت انها وحدها في القاعة فقامت تحاول الاختلاط بالناس . ولكنها ما لبثت ان رأت الفتى الروسي قد دخل وهو لا يزال مقنعاً فدنا منها وقال .

- ماذا فعلت بصديقي ؟

- إنه تركني فجأة حين دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل .

- إني أعلم سر انصرافه في هذه الساعة ، ولكن هذا السر غير مختص بي ولا يسعني إفشاؤه . على انك لو سألتني يا سيدتي إفشاء اسراري الخاصة لما تمنعت عن الإباحة لك بها .

- أنت محاط بالأسرار أيضاً ؟

- هي اسرار غريبة يا سيدتي .

- وما يهمني اذا كان لا علاقة لي بها .

- لا شيء ولكنها على عكس ما تظنين .

- وأية علاقة لي باسرارك يا سيدي ، إني لا أفهم ما تقول ؟ ولا أعرف من أنت ؟

– هذا أكيد ولكننا قد التقينا مرات عديدة في مجالس باريس وأنا أعرف كثيرين من معارفك حتى اني أعرف المخلصين لك أيضاً .

فارتعشت ابنة الدوق وقالت : أصحيح ما تقول ؟

– لا ريب فيما أقوله ودليل ذلك اني أقص عليك شيئاً من تاريخ حياتك اذا أحببت .

فقالت له بقلق : من أنت ؟

– انك ترين أيتها السيدة الحسناء أننا في حفلة رقص يجوز فيها التنكر .

– إذن فلا تقول لي من أنت ؟

– كلا ولكني مقابل هذا الكتمان أخبرك بأمور لا تعلمينها بعد أن تتذكري كثيراً مما تعلمينه ، مثال ذلك إني أعلم كيف مات الدون جوزيف خطيبك الثاني .

فاضطربت الفتاة واصفر وجهها تحت البرقع وعاد الروسي إلى الحديث فقال :

- وأعلم أيضاً كيف مات الدوق دي مايلي .

وكان روكامبول كتم عنها موت الدوق ، فصرخت قائلة : كيف ذلك أمات الدوق ؟

– إنه مات يا سيدتي في ذات اليوم الذي ذهبت فيه من باريس مع أبويك إلى أرض الفيكونت فابيان لشرائها .

فذعرت الفتاة وقالت : من أنت أيها الرجل العارف بجميع تلك الأمور ؟

– إنك ترين أيتها الحسناء إني من حرس جلالة إمبراطور روسيا .

– ولكن ذلك لا يدل على اسمك .

- إني أدعى أرتوف .

– أرتوف ؟

– نعم يا سيدتي . فإنك تعرفين هذا الاسم ، وأنا قريب الكونت أرتوف ذلك التعس المنكود الذي خدعته إمرأته كما يقال . وقد عرفت حكايته دون

شك فإنه ذهب عقله وهو يحاول مبارزة رولاند دي كايلت .

– لقد سمعت بهذه الحادثة يا سيدي فقد تناقلتها الأفواه .

ثم قالت بلهجة الساخر : أما أنت فلا بد أن تكون عرفت تفاصيلها من الكونتس أرتوف نفسها ؟

ورأى الروسي ان اسم الكونتس أرتوف قد أثر تأثيراً سيئاً على الفتاة فقال لها : إنك إذا أذنت لي يا سيدتي أخبرتك بأمر تجهلينه .

فقالت له مظهرة عدم الاكتراث : إني آذن لك فقل ما تشاء .

أتأذنين لي أيضاً يا سيدتي أن أذهب بك إلى الحديقة ؟

- لماذا ؟

– لأريك شخصاً تعرفينه ولا يخطر في بالك أنه في قاديس .

– الحق يا سيدي انك مكتنف بالأسرار والألغاز .

- ألم أقل لك يا سيدتي إني أعرف شيئاً من أسرارك ؟

فأظهرت إشارة دلت بها على ريبها فقال لها الروسي :

- مثال ذلك إنك كتبت أمس إلى خطيبك المركيز دي شمري .

فخفق فؤاد إبنة الدوق وجعل ذراعها يرتجف تحت ذراع الروسي ولكنها كانت تسير معه الى الحديقة مندفعة بحب الوقوف على هذا السر وكي ترى ذلك الرجل الذي قال لها الروسي انها تعرفه وقد خطر لها ان هذا الرجل يمكن ان يكون « هو » المركيز دي شمري

وكان الروسي يسير بها إلى الحديقة وفيما هو نازل وإياها على سلم القصر قال لها : لا تحسبي أيتها السيدة الحسناء إني أبالغ في ما ترينه من التحوط والكتمان إلا لأمر خطير .

فضاق ذرع الفتاة وقالت له بلهجة الجازع : أوضح لي يا سيدي إذن هذه الألغاز .

– ستعلمين كل شيء فاتبعيني .

ثم سار الاثنان في رواق طويل تكتنفه الأشجار من الجانبين ولم يكن يمر به غير بعض المتنزهين .

وكان يوجد في آخر الرواق غرفة أو كوخ من الخشب تغطيه الخضرة ولم يكن فيها غير مصباح واحد معلق في وسط سقفها .

ففتح الروسي باب الكوخ ودخل فتبعته ابنة الدوق فرأت فتاة جالسة على مقعد وهي مقنعة بقناع كثيف ومتنكرة بملابس النور .

وكانت هذه الفتـاة تنتظر قدومها دون شك ، كما ظهر من نهوضهـا

الدوق لانها لم تكن ترى في تلك الليلة غير أسرار يشكل

، فأغلق الروسي عنـد ذلك باب الكوخ وقال لابنة الدوق : إننا الان وحدنا ، وسأريك هـذا الشخص الذي قلت لـك انك تعرفينه ، وفاء للوعد .

ثم أشار الى المتنكرة النورية ، فأزاحت البرقع عن وجهها ، ووقفت بقرب المصباح .

فصاحت ابنة الدوق صيحة انذهال وقالت : من أرى.. الكونتس أرتوف؟

فجعل الفتى الروسي يضحك ضحكاً عالياً ثم وقف بازاء تلك التي دعتها بالكونتس أرتوف فأزاح القناع عن وجهه وقال : أنظري إلي أيضاً يا سيدتي فان في منظري ما يدهشك

فلما رأته ابنة الدوق صاحت صيحة أخرى وجعلت تجيل نظرها بينهما وقد بدت عليها علائم الانذهال الشديد والحيرة الغريبة ذلك لانها كانت ترى أمامها إمرأتين كلتاهما الكونتس أرتوف وكلتاهما باكارا ، ولم تر فرقاً بينهما إلا بالملابس ، فإن إحداهما كانت متنكرة بملابس النوريات والأخرى بملابس حرمي رومي .

فقالت لها حينئذ باكارا وكانت هي المتنكرة بلباس الفتيان : أتعلمين ياسيدتي

أينا الكونتس أرتوف ؟

- إني أحسبني حالمة فلا أفقه شيئاً من هذه الألغاز .

- كلا بل أنت في اليقظة

- إذن فقد ذهب عقلي الآن وما أنا إلا من المجانين وإلا فما معنى ما أراه؟

- أنظري يا سيدتي الى هذه الفتاة فإنها أختي وهي تدعي ريبيكا ولكنها أختي من أبي فان أمها يهودية .

فنظرت إبنة الدوق عند ذلك الى الفتى الرومي وقالت : إذن انت الكونتس أرتوف بالحقيقة .

وشفعت كلامها بابتسام دل على الاحتقار . فعظم ذلك عند باكارا وعلمت أنها أرادت احتقارها لاشتهار حادثتها في باريس فقالت لها : سلي هذه السيدة حتى تجيبك أنها هي التي أحبها رولاند كايلت وكان يحسبها الكونتس أرتوف وليس أنا .

فقالت ريبيكا : نعم أنا هي وقد دفعت الى تمثيل هذا الدور الشائن .

فصاحت إبنة الدوق صيحة جديدة ولكنها لم تكن صيحة اندهاش ذلك أنها رأت بعد ما علمته ان حجاباً كثيفاً قد انجلى عن بعض الحوادث الغامضة لديها غير انها لم تعلم كل شيء بل إنها أوشكت ان تعلم .

ولما كانت هذه الفتاة من نبلاء الأسرات الاسبانية فقد وبخها ضميرها لاتهامها باكارا بالخيانة فمدت يدها اليها وقالت لها مستغفرة : أسألك العفو يا سيدتي فقد تجاسرت على اتهامك بما أنت بريئة منه .

فابتسمت باكارا ابتسامة حزينة وقالت : لست أنت وحدك يا سيدتي التي تفردت باتهامي بل ان جميع أسرات باريس قـــد حكمت علي حكماً صارماً لا يطاق

- ولكنها سترجع إلى ما هي مدينة لك به من الاحترام كما رجعت أنا حين تشتهر الحقيقة .

— كلا فلم يحن الوقت بعد .

— لماذا ؟

— لأن لدي مهمة خطيرة يجب أن أهتم بها قبل الاهتمام بنفسي .

ولما رأت باكارا ان انذهال إبنـــة الدوق قد بلغ أقصاه ، قالت لها : لا تنذهلي يا سيدتي ، فستعلمين كل شيء وستحمديني لاهتمامي بشؤون غيري قبل الاهتمام بشؤون نفسي . والآن فاسمحي لي أن أسألك الست مقيمة مع سيدتي الدوقـة والدتك في قاديس ، في منزل قريبـك أسقف غرناطة ؟

— نعم .

— اليس هذا المنزل خارج المدينة وهو على شاطىء البحر تتكسر الأمواج على جدرانه ؟

— نعم .

— إذن أرجوك ان تكوني على سطح المنزل غداً في مثل هذه الساعة أي بعد منتصف الليل .

— ولكن ألا تقولين لي ...

— لا أستطيع أن أقول شيئاً الآن يا سيدتي سوى أن أخبرك بانك معرضة لخطر هائل .

- رباه ماذا أسمع إنك تخيفيني .

— لا بأس فاسمحي لي بالذهاب .

ثم أخذت البرقع وتقنعت بـه ، فقالت لها الفتاة : ألا أراك بعـد هذه الليلة ؟

— ربما ولكن لا تنسي ان الساعة قد بلغت بعد منتصف الليل .

فارتعشت الفتاة وقالت : ماذا تعنين بذلك ؟

— أعني ان الرجل المتنكر بملابس المجرمين قد وعدك ان يعود إلى المرقص

في هذه الساعة ويجب أن تقابليه .

ـ وأية علاقة بيني وبين ذاك الرجل ؟

ـ ذلك ما لا أستطيع أن أقـوله أيضاً إنما حين ترينـه قولي له « إني رأيت الكونتس وانها تأذن لك بأن تقص علي قسماً من حكايتك » .

ثم أشارت با كارا الى اختها ريبيكا ان تتبعها ، فوضعت برقعها على وجهها وعند ذلك حيت با كارا إبنة الدوق وقالت لها . إبقي في مكانك هـذا فسأرسله اليك .

وعند ذلك خرجت الاختان وبقيت ابنة الدوق في موضعها وكانت قد تلاشت قواها لفرط ما سمعت من الغرائب، لا سيا حين علمت انها معرضة لخطر هائل . فجلست على مقعد في ذلك الكوخ ووضعت رأسها بين يديها وقالت : رباه؟ما هذه الأسرار ؟

وأقامت وحدها عدة دقائق فكانت الأنغام الموسيقية يحملها نسيم الليل فيجتاز بها أشجار تلك الحديقة الغناء فتبلغ إلى مسامعها رخيمة شجية لايزاحمها غير حفيف الاوراق . ولكنها كانت بعيدة عن الإصغاء اليها لانصراف بالها الى حديث با كارا وما أورثتها من المشاغل ، حتى انها أرادت أن تفتكر بمن تهواه نفسها أي بخطيبها المركيز دي شمري فلا تجـد للافتكار به سبيلاً لشدة اضطرابها .

ولم يكن يصغي قلبها إلا لذلك الصوت السري الذي كانت تخرج نبراته الحنونة من فم ذلك الرجل الذي تزيا بزي المجرمين وهو أشد وداعة من الحمام كا يستدل من لطف حركاته ومن صوته الحنون الرخيم فكان يشغلها من أمر هـذا الرجل شاغلان أحدهما ما وجدت في نفسها من الارتياح اليه والآخر شدة توقها الى الوقوف على حكايته .

وفيا هي غائصة في بحار تأملاتها إذا سمعت وقع أقدام فرفعت رأسها ورأت رجلاً واقفاً على باب الكوخ وكان هذا الرجل هو بعينه أي ذلك المجرم الذي

شغلها هذا الانشغال

غير انه لم يكن مقنعاً كما رأته قبل منتصف الليل ، بل كان حاسر الوجه فأثرت هيئته على ابنة الدوق تأثيراً عظيماً

وكان هذا المجرم يناهز الثلاثين من العمر وهو أشقر اللحية أزرق العينين ينبعث منهما أشعة تمتزج بين الكآبة ومظاهر الذكاء وبجمل هيئته يدل على السلامة والدعة .

فدنا منها وقبل يدها باحترام وقال لها : ان الكونتس أرتوف يا سيدتي قد أخبرتني الآن انك في هذا المكان من الحديقة و ..

ثم توقف ، مترددا عن الكلام فشجعته ابنة الدوق بابتسامة فقال باضطراب:

ـ الكونتس وما قلته لي أنت

بها وقالت له : إن الكونتس

وكان يحاول دون شك ان يبدأ بقص

، حتى رأى ان باب الكوخ قد فتح

ـوق عند رؤياه .

ألوانها وشكلها على انه من حراس

ن اضطراب ابنة الدوق بل انه نظر

نمرة ٣٠ لأن كل سجين يستبدل اسمه

ب ان تعود في الساعة الرابعة وان الساعة

الآن الثالثة ونصف فلم يبق لك من الحرية غير نصف ساعة ايها المركيز .

ولما قال هذا القول بلهجة الآمر تركه وانصرف فلما رأت ابنة الدوق انه خرج نظرت الى هذا الشاب الذي دعاه حارس السجن بنمرة ٣٠ ثم دعاه بالمركيز وقالت له والرعب ملء فؤادها: من هذا الرجل وماذا يريد وماذا يبغي من قدومه الى هنا ؟

فأجابها بلطف إنه أتى يا سيدتي يبحث عني

— يبحث عنك أنت ؟

فلم يجبها الفتى ولكنه رفع الوشاح الذي كان يغطي ساقه وقال لها أنظري يا سيدتي .

فذعرت ابنة الدوق ذعراً شديداً لانها رأت سلسلة من الحديد مربوطة في ساقه وهي قيد المجرمين في السجون وتراجعت الى الوراء .

فقال لها بكآبة ولكن دون خجل : إن هـذا الرجل يا سيدتي هو حارسي ، وإن الثوب الذي البسه لا أريد به التنكر في هذه الحفلة الراقصة بل اني مجرم حقيقي أكرهت على لبس هذا الثوب واستبدل اسمي بنمرة فهم يدعونني نمرة ٣٠ .

— ١٤ —

ولقد يتوقع القارىء ان يغمى على ابنة الدوق من الذعر ، أو انها تخاف مما رأته فتصيح وتستغيث وتفر هاربة من هذا المجرم غير انها لم تفعل شيئاً من ذلك .

وذلك ان هذا الرجل كان مجرماً حقيقياً ولم يعد لديها ريب في أمره بعد ان رأت في رجله القيد .

غير ان لهجته كانت لهجة النبلاء ورواء عينيه يدل على السلامة والخلوص حتى انه عندما أكد لها أنه من المجرمين كان يكلمها بكآبة ونبل تظهر ان شدة بعده عن مواقف الذنوب فهدأ ثائر روعها وقالت، لا بد ان يكون هذا المسكين ضحية أغلاط القضاء وإن له حكاية غريبة فلم يجد سبيلا الى إظهار براءته مما هو متهم به .

وقد استحال نفورها منه وانذعارها من قيده الى استئناس به وارتياح اليه فقالت له : لقد رأيت قيدك يا سيدي ولكني واثقة من براءتك فبأية جريمة قد اتهموك . ثم مدت اليه يدها إشارة الى ارتياحها .

فأخذ يدها وبرقت عيناه من السرور والامتنان وقال : أشكرك يا سيدتي الف شكر لما تفضلت به علي من حسن الظن ولانك لم تصدقي اني من المجرمين .

– لا يمكن ان أحسبك مجرماً إذ ليس في نظراتك ما يدل على الذنوب أما وقد ثبت لي انك بريء فأرجوك يا سيدي ان تقص علي أمرك بتفاصيله ، بل يجب ان تحكي لي جميع حكايتك فإن لي شفاعة لدى الملكة وسأذهب اليها وأنطرح على قدميها فلا تخيب رجائي .

فابتسم الشاب وقال : أشكرك يا سيدتي فان الوقت لم يحن بعد وفوق ذلك فإن إطلاق سراحي وتبرئتي لا يتعلقان بالملكة .

– رباه ما هذه الالغاز وبمن إذن يتعلقان ؟

– ربما كانا يتعلقان بك دون سواك .

فزاد انذهال ابنة الدوق حتى لم تعد تصـــدق ما تسمع وقالت له : بي أنا وكيف ذلك ؟ إني لا أفهم شيئاً مما تقول .

– قلت لك يا سيدتي ربما كان أمري متعلقاً بك وفي كل حال فان الوقت لم يحن بعد لكشف هذه الغوامض المشكلة عليك

– ولكني أرجوك أن توضح لي شيئاً من هذا فاني أحسب نفسي حالمة أو أصبحت في عداد المجانين .

ـ واأسفاه يا سيدتي اني لا أستطيع .
ـ إذن قل لي على الأقل منذ أي حين أنت في ..
وتوقفت عن لفظة السجن إذ لم تجسر على قولها .
فشكرها بالنظر وقال: اني في سجن قاديس منذ أحد عشر شهراً وقد حكم علي بالتكبيل بالقيود خمسة أعوام .
ـ وبأي ذنب أنت متهم ؟
ـ بالنخاسة يا سيدتي ، وقد كنت في ذلك العهد دون شك في باريس ، ولكن لا بد أن تكوني قرأت في الجرائد أن دارعة اسبانية أسرت سفينة أسوجية شراعية ..
ـ نعم ، نعم .. أذكر ذلك !
ـ وكانت هذه السفينة تشتري العبيد فتخبئهم في عنابرها وتبيعهم بيع السلع الراغبين فيهم .
ـ لقد ذكرت جيداً الآن فإن أبي قرأ لنا هذه الحادثة .
ـ وقد حكم على ربانها ونائبه وتسعة من بحارتها بالسجن وكنت أنا نائب ذلك الربان .
ـ أنت .. أنت تحترف هذه المهنة ؟
فنظر الشاب اليها نظرة ملؤها السويداء وقال لها : انك ترين يا سيدتي اني أصبحت مضطراً إلى أن أحكي لك شيئاً من حكايتي .
ـ ولماذا لا تحكيها بجملتها ؟
ـ لأنه غير مأذون لي أن أذكر اسمي أو اسم عائلتي ، ولا أن أقول الآن أين صرفت عشرين عاماً خارج موطني .
ـ إذن قل لي ما تستطيع قوله .
ـ كنت يا سيدتي منذ عامين مسافراً على سفينة من انكلترا إلى فرنسا وكنت ممنطقاً بحزام علقت فيه حقيبة وضعت فيها اوراق ولادتي وشهادة خدمتي بصفة

ضابط في البحرية الانكليزية فثارت عاصفة شديدة أغرقت السفينة ومن فيها ولكني نجوت من الغرق سباحة وأنقذت معي شاباً كان رفيقاً لي في هذا السفر وعمره لا يزيد عن عمري ولا ينقص .

وهنا أخبرها بجميع ما جرى له في تلك الجزيرة المقفرة بما عرفه القراء غير أنه عمل بما اوصته باكارا فلم يذكر اسمه ولم يشر إلى سرقة أوراقه ، ثم ذكر لها كيف وجده البحارة مغمياً عليه وهو بحالة تقرب من النزع لما تولاه من الضعف من الجوع والعطش ، فأخذوه إلى سفينتهم وعالجوه حتى شفي فأكرهوه على الخدمة في السفينة بصفة بحار ، ولما رأوا انه ماهر في المهنة جعلوه رباناً ثانياً للسفينة .

فقالت له ابنة الدوق وكانت تسمع حديثه باصغاء تام : لماذا لم تقص أمرك بتفاصيله حين قبضوا عليك ؟

– لقد حكيت كل أمري ولكنهم لم يصدقوني في شيء .

– ألم تقل أنه كان لديك أوراق تثبت مولدك وحقيقة حالك؟

– نعم .. ولكني عندما استفقت من اغمائي في السفينة لم أجد تلك الأوراق معي وهي لا بد واأسفاه أن تكون باقية في تلك الجزيرة .

– أليس لك عائلة في باريس ؟

– نعم أم وأخت ..

– لماذا لم تلتجيء اليها ؟

– لقد التجأت إلى قومندان الميناء وحكيت له جميع أمري فصدق حديثي وكتب إلى باريس فأجابوه اني منافق مخادع وان الرجل الذي اتخذت اسمه موجود في باريس يراه سكانها كل يوم .

– ماذا أسمع .. إن هذا مستحيل .

– ولكنها الحقيقة يا سيدتي .

– ولكن كيف تقول أن ..

وقبل أن تتم كلامها فتح الباب فجأة وظهر الحارس فنادى نمرته وقال : هلم بنا فقد بلغت الساعة الرابعة ..

فنهض الفتى مذعوراً فودع ابنة الدوق وشكرها لرفقها به واعتنائها بأمره.

— كيف ذلك ، أتنصرف الآن ؟

فقال : لأنه لا بد لي من الانصراف فانهم لم يسمحوا لي بالخروج من السجن إلا من قبيل المجاملة التي لا يطمع بها أحد المسجونين وقد حان الوقت فلا بد من الانصراف .

— إذن فسأذهب بنفسي وأرى قومندان الميناء فانه كان صديقاً حميماً لأبي

- التمس منك يا سيدتي ان لا تفعلي شيئاً من هذا فانهم يسمون أحل سعي في سبيل انقاذي وكل مداخلة جديدة تسد علي منافذ الخلاص .

— ليكن ما تريد ، أفلا أراك بعد الآن ؟

— ربما يا سيدتي وهذا غاية ما ارجوه .

ثم تركها وانصرف مع حارسه وغادر تلك الفتاة تائهة حـــائرة لا تعلم أفي يقظة هي ام في منام .

وقد حملت رأسها بين يديها وجعلت تعيد في مخيلتها جميع مـــا مر بها من الحوادث الغريبة وبعد ان امعنت في التفكير جعلت تسائل نفسها فتقول:

كيف اتفق للكونتس ارتوف ان تعلم امر هذا الرجل وهو قد عاش عشرين عاماً خارج بلاده ، بل كيف اتفق ان يكون لي دخل في جميع هذه الحوادث فقد قال ان تبرئته وحريته يتعلقان بي دون الملكة ، فما المراد بهـذه الأقوال وما معنى هذه الأسرار .

وأقامت تمعن الفكرة هنيهة فلما لم تهتد إلى حل هـــذه المعميات نهضت فغادرت ذلك الكوخ وذهبت إلى قاعات الرقص .

وكانت الحفلة قد قاربت النهاية فإن قاعـات كثيرة فرغت من الراقصين وقصرت الشموع حتى أن بعضها ذاب وانطفأ فلم يضعوا بـدلاً منه وسكتت

اصوات الموسيقى .

فذكرت ابنة الدوق عند ذلك انها جاءت الى هذه الحفلة بأمر خاص من الملكة ، وانه كان يصحبها اليها قريبة لها تدعى المركيزة دورنا جوزيفين فتركتها حين قدومها في إحدى قاعات اللعب في بدء الحفلة ثم انشغلت بباكارا وبذلك الجرم حتى نسيتها ولكنها عادت إلى الحفلة ورأت نفسها وحيدة ذكرت تلك القريبة وجعلت تبحث عنها فذهبت في البدء الى القاعة التي تركتها فيها فما وجدتها .

وبينما هي تبحث عنها في القاعات إذ نظرت خادماً يطفيء الشموع في إحدى القاعات فعرفته في الحال وقالت مندهلة . زامبا .

وكان هو بعينه فوقف امامها باحترام وهو يظهر انذهاله ايضاً .

فقالت له : كيف انت هنا ؟

– اني خادم غرفة رئيس المجلس البلدي يا سيدتي ..

– متى دخلت في خدمته ومتى رجعت من باريس ؟

– منذ وفاة الدوق دي مايلي ..

فأثر هذا الاسم تأثيراً جديداً على ابنة الدوق فقد ذكر امامها مرتين في تلك الليلة وفي المرتين ذكر بمناسبة موته .

فنظرت إلى زامبا وهي ترتعش وقالت له : إذن فقد مات حقيقة هذا الدوق ؟

– منذ شهرين يا سيدتي .

فنظرت الفتاة الى ما حولها ورأت إن القاعات خالية من الناس فجلست على كرسي وقالت لزامبا : اخبرني كيف كانت وفاة هذا المنكود .

فابتسم زامبا ابتساماً معنوياً وقال . ان الجرائد يا سيدتي نشرت انه مات بالحمرة الفارسية .

– ما هو هذا الداء فاني لم اسمع به ؟

– انه مرض يصيب الخيل فيقتلها ..
– وكيف اتصل بالدوق ؟
– قالت الجرائد يا سيدتي ..
فقاطعته ابنة الدوق وقد طوت مروحتها بسأم وقالت :لا أسألك عن آراء الجرائد بل أسألك عما علمته أنت من أمر موته فانك كنت خادم غرفته .
– هذا أكيد يا سيدتي .
– إذن فأنت تعرف أكثر من الجرائد كيف مات ؟
– هذا أكيد أيضاً ، ولكن لا بد لي أن أذكر لسيدتي ما قيل ا
– قل ماذا يقولون .
– إن الدوق كان عنده جواد مولع به ولعاً شديداً وقد أصيب هذا الجواد بداء الجمرة . وكان الدوق مفرطاً في حبه فكان يعتني به اعتنائه بنفسه دون ان يحذر ، فاتصل به المرض بالعدوى فمات وهذا ما كانت ترويه الجرائد ويتناقله عنها الناس ..
.. أليست هي الحقيقة أم ان الدوق مات بغير هذا المرض الغريب ؟
– هي الحقيقة بعينها يا سيدتي غير ان العدوى ما سرت اليه من الجواد ..
– أوضح يا زامبا فاني لا أفهم ما تقول ..
– ان الدوق يا سيدتي قد مات بالجمرة كما مات الجواد الا أن كلا من الدوق والجواد أصيبا بالمرض كل على حدة دون أن يعدي أحدهما الآخر وان يكونا قد ماتا بمرض واحد
– كيف ذلك ؟
– لأن الجواد قد شك بطنه بدبوس طويل يحمل مكروب هذا الداء من بطن جواد ميت كان مصاباً فيه .
– والدوق ؟
– أما الدوق فإنه كان في اليوم نفسه جالساً على مائدته يكتب رسائله ،

فلما فرغ من الكتابة وحاول النهوض استند بيديه على الكرسي الذي كان جالساً عليه وصاح صيحة ألم سمعتها لأني كنت في الغرفة المجاورة فأسرعت اليه ووجدت أن الدم يسيل من إحدى يديه .

وتوقف زامبا عند ذلك وجعل ينظر إلى ابنة الدوق فعلم انها لم تفهم شيئاً فاستطرد حديثه قائلاً : وقد سال الدم من يده يا سيدتي لأنها أصابت دبابيس كانت مشكوكة بوسادة الكرسي وكانت الدبابيس تحمل أيضاً ذات المكروب الذي أصيب به الجواد .

– عجباً ومن الذي شك الدبابيس في كرسيه ؟

– أنا .

- أنت .. كيف أنت .. إذن فلا بد أن تكون وضعتها خطأ .

- كلا يا سيدتي بل قصداً ..

– ماذا تقول أيها الشقي ..

– لقد فعلت ما فعلت يا سيدتي لأني كنت أكره الدوق كرهاً شديداً بعد ما علمت انك لا تحبينه .

فصاحت ابنة الدوق صيحة رعب وإنكار وقد هالها أمر الجريمة لاعتقادها ان هذا الخادم لم يدفعه اليها غير حبه القديم للدون جوزيف وقالت له ويحك أيها الشقي أتحسب أنك تسرني بقولك انك ارتكبت مثل هذه الجريمة من أجلي وتظن اني سأتركك من دون عقاب ، لقد ساء فألك وسترى ما يكون .

فأجابها زامبا بملء السكينة قائلاً : كلا يا سيدتي فاني ما شككت الدبابيس في وسادة الكرسي بغية إرضائك .

- إذن فلأي غرض شككتها أيها الشقي الخائن ألعل الدون جوزيف أوصاك بارتكاب هذه الجريمة قبل موته ؟

– لا هذا ولا ذاك يا سيدتي ..

فسكتت الفتاة سكوتاً قصيراً ثم قالت : إذن فلأي سبب قتلتـــه العلك

تحمل عليه حقداً خصيصاً ؟

ـ كلا فإن الدوق كان من نبلاء القوم فلا متسع لأن يحقد عليه حقير مثلي وفوق ذلك فقد كان شريف المبدأ لا يميز بين الخدم والأسياد لاعتقاده ان الجميع واحد في الانسانية فكان من المحسنين الي ..

إذا كان ما تقوله صدقاً فما حملك على قتله ؟

ـ الخوف

فبهتت ابنة الدوق وقالت له : أي خوف تعني ومن كنت تخاف ؟

ـ يوجد رجل يا سيدتي يعرف أموراً لم يكن يعرفها غير الله والدون جوزيف وأنا وقد كان هذا الرجل يعرف اني محكوم علي بالاعدام في اسبانيا فكان قادراً بكلمة تخرج من فمه ان يسلمني إلى الجلاد فينزع رأسي .

ـ ما هذه الأمور الهائلة التي اسمعها ؟

ـ إن هذا الرجل يا سيدتي امرني ان اقتل الدوق فلم اجد بدأ من الامتثال

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ لم أكن أعرف اسمه من قبل وقد عرفته في هذه الأيام الا انه لم يؤذن لي أن اصرح به .

ـ اتكتم اسمه عني ايها الشقي ؟

ـ إني اضطر إلى كتمانه مكرهاً الا ان سيدتي إذا شاءت ان تعلم اكثر مما علمت مني عن وفاة الدوق وكثيراً غير تلك من أمور تجهلها ويهمها ان تعرفها فلتسأل الكونتس أرتوف .

ثم انحنى مسلماً باحترام واحتجب عن الأبصار .

وكانت ابنة الدوق قد نهضت عن كرسيها وحاولت القبض على زامبـــا وإكراهه على الكلام ولكنه افلت قبل ان تتمكن من القبض عليه فسقطت على كرسيها لفرط ما تولاها من الشواغل بعد تلك المعميات .

وقد كانت اتت إلى هذه الحفلة وهي منقبضة الصدر لوفاة أبيها ولكن قلبها ملؤه الأمل بالمستقبل .

ثم رأت نفسها انها ستخرج من الحفلة والهواجس ملء فؤادها والرعب يفعل في قلبها حتى أوشكت ان تصاب بالحمى وخالت انها حالمة وان جميع ما مر بها من تلك الحوادث الهائلة لم يكن سوى أضغاث أحلام .

وكانت تدور في مخيلتها تذكارات ذلك المجرم وتسمع صوته الرخيم يرن في أذنيها فينقبض صدرها إشفاقاً لمصابه وحنواً على نكبته ثم يخطر في بالها أحاديث الكونتس ارتوف ورواية زامبا فتضطرب حواسها وتصاب بذهول عظيم .

إلا انه لحسن حظها قدمت اليها في هذه الساعة المركيزة جوزفين قريبتها بعد ان بحثت عنها في جميع القاعات وفي جميع انحاء الحديقة وأروقتها فلما رأتها سرت سروراً عظيماً كأنها قد قنطت من لقائها وقالت اين كنت ايتها الحبيبة ؟

فاظهرت ابنة الدوق مثل اندهالها وقالت لها : إنما كنت ابحث عنك .

— وانا ايضاً لم أدع مكاناً في القصر حتى بحثت فيه اتعلمين ان الفجر قد انبثق ونحن لا نزال في المرقص .

— إذن فلنذهب ..

فنظرت اليها المركيزة على نور مصباح قريب فذعرت لمنظرها وقالت لها : رباه ماذا اصابك وما علة هذا الاصفرار في وجهك ؟

— اني رأيت احد المدعوين إلى الحفلة بملابس المجرمين

-- وانا رأيته ايضاً فإن زيه من اغرب الأزياء العلك خفت منه ؟
ـ لقد خفت خوفاً شديداً لأني لقيته في الحديقة وكنت اتنزه فيها وحدي
وقد تخلصت ابنة الدوق بهذه الكذبة من إلحاح قريبتها بالسؤال .

وكانت مركبتها تنتظر على البـاب فودعتا رئيس المجلس البلدي وخرجتا الى المركبة فذهبت بها إلى القصر الذي تقيم فيه ابنة الدوق وامها خارج المدينة على شاطىء البحر فلما بلغتا اليه ودعت ابنة الدوق قريبتها ودخلت إلى المنزل اما المركيزة فانها عادت بالمركبة الى منزلها في داخل المدينة .

فلما دخلت ابنة الدوق الى غرفتها رأت خادمتها تنتظرها فيها فأعطتهـا غلافاً فيه كثير من الأوراق .

فتعجبت الفتاة وقالت . من اين هذا الغلاف ؟
ـ لا أعرف يا سيدتي الذي احضرها ولكنها لك .
ـ الذي أحضرها لي ؟

-- في الساعة التي ذهبت فيها سيدتي إلى الحفلة الراقصة فقد احضرها رجل يظهر من ملابسه انه من الخدم فقال لي يجب ان تقرأ سيدتك هذه الأوراق حين رجوعها وقد سألته عن مرسلها فلم يجبني وانصرف .

قالت : دعيني الآن وحدي .
ثم دنت من المصباح ونظرت إلى الغلاف فقرأت عليه بحروف كبيرة .
« تاريخ الكونت ارمان دي كركاز واخيه السير فيليام وتلميذ هـذا الأخير روكامبول » .

فقالت في نفسها ما عسى ان يكون هذا التاريخ ومن هو السير فيليـام وروكامبول ، فإني ما سمعت بهذين الاسمين ، اما الكونت دي كركاز فلم اره الا مرة واحدة فأية علاقة لي بهذا التاريخ وما هذه الغرائب التي تتـوارد امامي من اول هذا الليل .

ثم فتحت الغلاف فرأت فيه دفتراً ضخماً ورأت ورقة منفصلة عنه مكتوباً فيها ما يأتي :

« عندما يقع هذا الدفتر بيد المدموازيل سالاندريا تكون قد عادت من المرقص ، الذي لا بد ان تكون وقفت فيه على كثير من الغرائب ، ومرسل هذا الدفتر يلتمس منها أن تقرأ جميع صفحاته لخطارتها ولتعلقها بمصلحة مقدسة » .

فقالت في نفسها : لنرى ما في هذا الدفتر !

وكانت تحسب انها ستقرأ فيه حكاية ذلك الجرم الذي رأته في المرقص ، ففتحته وجعلت تقرأ ما فيه بامعان شديد .

وكان هذا الدفتر قد كتبته بجملته يد باكارا ، وهو يتضمن خلاصة تلك القصة التي عرفها القراء منذ قتل والد ارمان الكونت دي كركاز الى ذكر العقاب الهائل الذي عاقبت به باكارا أندريا على السفينة فويلر .

على ان باكارا لم تشر أقل إشارة إلى عودة روكامبول وقد اختفت آثاره في الدفتر حين سفره الى انكلترا

ولبثت إبنة الدوق تقرأ حتى الساعة العاشرة من الصباح وهي تغلب النعاس منتصرة عليه بوقائع الرواية الهائلة فما تركت الدفتر إلا بعد ان أتت على آخره وقرأت آخر كلمة منه .

فلما فرغت منه وهي لم تكن تعرف بين جميع أشخاص هذه الرواية غير الكونتس أرتوف تولاها الانذهال وجعلت تقول في نفسها · أية علاقة لي بهذه الحكاية ؟ ولماذا أرسلتها لي الكونتس ؟ إذ لا شك أنها هي التي أرسلتها .

ولم يكن يخطر في بال هذه الفتاة العذراء ان ذاك المركيز الجليل دي شمري التي تدلهت في حبه وأصبحت خطيبته ، كان ذلك اللص السفاك الذي نشأ في خمارة مدام فيبار ، إذ لا يخطر لأحد سواها ان روكامبول والمركيز دي شمري واحد .

ثم انها لم تجد في تلك الحكاية أقــل أثر لذلك المجرم الذي لقيته في المرقص فحارت في أمر هذا الدفتر وضاق صدرها لهــذه الغوامض ، وانكمشت نفسها لكثرة ما قرأت من الجرائم الهائلة فخرجت من غرفتها الى الرواق المطل على البحر كي تجلي عن نفسها بمناظره الفسيحة صدأ هذه الهموم واستندت على رخام الرواق وجعلت تسرح أنظارها في تلك المياه الزرقاء .

فكانت مياهه ساكنة هادئة والنسيم بليلاً يداعب هذه المياه ، فيعقد فوقها زرداً ينعش منظره الصدور والجبال مشرفة عليه تكتنفه من يمينه وشماله مفروشة ببسط العشب الخضراء والشمس تتوهج وتتوقد فوق المياه فترقص أشعتها الذهبية لهينمة النسيم .

وكان فؤاد إبنة الدوق قد ارتاح لهذه المناظر البهية فنسيت حديث الدفتر ورجعت بتصورها الى الماضي فانصرفت بأفكارها الى من تحبه وجعلت تعد على أصابعها الأيام التي مضت على إرسالها اليه كتابها الأخير وتقول لا بد أن يكون وصل كتابي اليه يوم الثلاثاء ونحن الآن في يوم الجمعة فإذا أجابني عليه حين وصوله فلا بد ان يرد إلي اليوم كتابه العزيز .

وكانت تناجي نفسها بهذه الأماني وهي تسرح نظرها في عرض البحر المحيط وتتبع بأبصارها سفينة شراعية كانت تجول وتحاول الدنو من الشاطىء .

وكانت السفينة جميلة الرواء سريعة الحركات تجري في تلك المياه بخفة الأسماك فراقها منظرها ودخلت الى غرفتها فأحضرت منها نظارة مكبرة وعادت إلى الرواق فما أوشكت ان توجهها إلى السفينـــة وتضعها على عينيها حتى ذعرت وأصيبت باضطراب شديد .

ذلك ان هذه السفينة كانت لقومندان الميناء وان ابنة الدوق رأت بنظارتها البحارة فعلمت من ثيابهم الحمراء انهم من المجرمين .

وكانت السفينة تدخل إلى الشاطىء مسرعة والشاطىء يبعد عن مدخل القصر الذي كانت فيه إبنة الدوق ٣٠ ذراعاً .

وكان المنظار لا يزال بيد إبنة الدوق فلما رأت ان السفينة تدنو اضطرب قلبها ، لأنها رأت جميع من كان في السفينة فلم تعرف منهم غير اثنين وهما قومندان الميناء وهو ، أي ذاك المجرم الذي رأته في المرقص ، فحاولت ان ترجع إلى غرفتها ، غير ان قوة عظيمة تغلبت على إرادتها فلبثت في موضعها طائعة مكرهة .

ولم تعد في حاجة الى المنظار ، فان السفينة اقتربت منها حتى باتت تميز أشخاصها بالنظر المجرد ورأت ان ذلك المجرم كان يتولى قيادة السفينة ورأت انه قد رفع نظره اليها وابتسم فزاد اضطرابها ولم تعد تعلم ماذا تصنع لا سيما بعد أن رأت القومندان يسلم عليها بالاشارة وان السفينة قادمة إلى موقفها خاصة كأنما القومندان يريد زيارتها .

ثم طويت قلوعها وجعل بحارتها يجدفون حتى بلغوا بها الى الشاطىء ، فنزل القومندان وحيى إبنة الدوق بالاشارة ثم صعد اليها ، فلبثت في موقفها تنظر إلى السفينة والى ذلك المجرم فيها ، غير انه كان مطأطأ الرأس كأنه يخشى ان ينظر اليها .

وأقام القومندان معها هنيهة يتحادثان عن المرقص ثم عاد الى سفينته فأقلعت به . غير ان إبنة الدوق لبثت في مكانها تنظر إلى ذلك المجرم وهي تشعر بعاطفة سرية تجذبها اليه .

وعند ذلك دخلت خادمة غرفتها اليها وأعطتها كتاباً قائلة لها : إنه من فرنسا .

فصاحت إبنة الدوق صيحة فرح ونسيت ذلك المجرم ثم فضت ختام الكتاب مسرعة وهي عالمة انه من روكامبول .

ولندع الآن قاديس عائدين الى روكامبول حيث تركناه وقد فتك بذلك الشيخ المنكود دون ان يعلم بجريمته غير الله .

فإن سكان الأورانجري رأوا ذلك الشيخ ميتاً في غرفته فحكموا انه مات فجائياً ودفنوه آسفين عليه وبعد ذلك باسبوع سافر قاتله المركيز فردريك البرت أونوريه دي شمري إلى باريس .

وقد نهض يوماً مبكراً فجلس على كرسي أمام نافذة تشرف على حديقة القصر وجعل يسرح نظره في مناظرها الجميلة غير ان علائم القلق الشديد كانت بادية في وجهه ثم وضع رأسه بين يديه كأن هذه المناظر الخضراء لم ترقه وجعل يناجي نفسه فيقول .

إنهم سرقوا الصورة وتركوا لي رقعة زيارة طبع عليها اسم كنت أسمى به من قبل في عهد اندريا وارمان وقال الخادم ان الشاب الذي سرق الصورة كان إمرأة متنكرة بزي الغلمان ومن عسى تكون هذه المرأة غير باكارا ، وما هذه المعميات العلها واقفة على أسراري ؟

إنها ما عرفتني إلا باسم المركيز دي شمري فهل رأتني غير مرة بزي آخر فعلمت اني روكامبول ؟ وأين ذلك ومتى ؟ فإنها لم ترني غير مرة واحدة وذلك في منزلها وأذكر انها نظرت إلي عرضاً نظرة لم تظهر فيها شيئاً من الاهتمام وهي لو كانت عرفتني فيها لعلمت ذلك من اضطرابها او انذهالها ولكنها لم يبد منها شيء لأني كنت محدقاً بها أراقبها أشد مراقبة فأين إذن رأتني ؟

ثم إننا لو افترضنا انها عرفتني وانها إذا طاردت المركيز دي شمري فهي تطارد روكامبول ، فلماذا سرقت صورة المركيز الحقيقي ؟ العل هذا المركيز في قيد الحياة ؟

لما بلغ بتصوره الى هذا الحد ذعر وجعل قلبه يخفق خفوقاً شديداً ثم قال :

لم يبق لدي ريب انه اذا كان المركيز حياً فقد قضي علي قضاء مبرماً وبت من الهالكين وخير ما ينبغي إجراؤه في هذا الموقف الحرج ان أسرع بمغادرة باريس والسفر الى اسبانيا فأتزوج ابنة الدوق .

وإني أرى كل شيء قد جرى في خير المناهج فان جميع الذين كانوا واقفين على سري وهم فانتير وأندريا وزامبا ومدام فيبار والشيخ انطوان قد هلكوا وانقرضوا وجميع نبلاء باريس يشهدون عند الاقتضاء بأني هو أنا المركيز الحقيقي ذلك فضلاً عن الأوراق التي تؤكد حجتي .

غير انه إذا كان المركيز الحقيقي الذي أحسبه ميتاً قد نفض غبار الموت ، وإذا كانت با كاوا قد اتصلت به فان جميع هذه الحسابات ضائعة .

وعند ذلك سمع ان باب غرفته يطرق فقام الى الباب وفتحه وكان القادم اليه صهره فابيان فقال له :

– يسرني أيها العزيز ان أراك نهضت من الرقاد .

– لماذا ؟

– إذ يجب علينا أن نخرج في الحال .

– إلى أين ؟

– إلى السفارة الاسبانية فقد أعددت كل شيء لتغيير تبعتك ولم يبق إلا ان توقع على الأوراق التي ستعرض عليك .

– لقد عجلت في قضاء هذه المهمة فألف شكر لك .

– ذلك لأني أحب السعادة ولأنه ينبغي ان تسافر مساء غد الى اسبانيا

– سأذهب دون شك ولكني لا أزال قلقاً على كثرة سعادتي .

– من أي شيء ؟

– من الصورة فان سرقتها لا تزال تقلقني .

– لا أخالفك هذا القلق فان سرقتها تشغل البال .

– إني أخاف ان تكون إحدى المومسات قد سرقتها وذهبت بها إلى ابنة

الدوق لشأن سافل لان أمثال هؤلاء النساء يقدمن على كل شيء .

- لا تخشى شيئاً من ابنة الدوق فان قلبها قد ختم على حبك .

- لا ريب عندي في حبها .

- حتى انهم لو برهنوا لهـا غداً ، انك مجرم تستحق السجن ، لما رجعت عن حبك .

فضبط روكامبول نفسه عند ذكر السجن وقال : هذا لا ريب فيه .

وكان روكامبول قد أتم لبس ثيابه عند ذلك فخرج الاثنان الى السفـارة ووقع روكامبول على جميع الأوراق التي عرضت عليه .

وقد لقيا في السفارة ذلك الجنرال الاسباني ابن عم قومندان الميناء في قاديس وهو ذلك الجنرال الذي قتل الدون جوزيف في منزله في الليلة الراقصة فسلم روكامبول عليه وعندما أتم التوقيع على الاوراق قال له ·

- إني مسافر الى اسبانيا فهل أستطيع خدمتك فيها بشيء ؟

فابتسم الجنرال إبتسام الحزين وقال له : إني منفي متطوع لا يريد أن يسمع كلمة عن وطنه . ثم قال له : متى عزمت على السفر يا حضرة المركيز ؟

- غداً مساء

- والى أين تذهب ؟

- الى قاديس .

فابتسم ايضاً وقال لفابيان انى أعلم السبب في ذهابه فانه قد عرف الطريق الى قلب إبنة الدوق .

- نعم ولكنه يحبها حباً شديداً .

- إذا أردت ايها المركيز أن أعطيك كتاباً الى ابن عمي قومندان الميناء فعلت بارتياح..

- أقبل كتابك بشكر وغبطة .

- ولا أجد بدأ أيضاً من أن أحملك كتاباً اليه فقد كتب لي عن حكاية عجيبة

لم أكن لأطلعك عليها لو لم تقل لي انك ذاهب الى قاديس .

ـ ما هي هذه الحكاية العجيبة ؟

ـ إنك خدمت مدة طويلة في الهند اليس كذلك ؟

ـ مدة طويلة لا تنقص عن ١٨ عاماً .

ـ أكان يوجد تحت إمرتك لوتي فرنسي ؟

ـ ربما كان ذلك ولكني لا أتذكر ، فقد كان تحت أمري كثيرون من البحارة . ثم تطلع الى الجنرال تطلع المستطلع وقال له : ولماذا تسألني هذا السؤال ؟

ـ ستعلم السبب . فاسمع انه يوجد بحار لم تعلم تبعته بعد ، ولكنه يقول انه فرنسي ، ويبدو ان هذا البحار خدم في الهند بقيادتك لانه يعلم جميع عاداتك وعلائقك وأخلاقك وذوقك وكل علائقك مع عائلتك .

فارتعش روكامبول وقال له : كيف ذلك ؟

ـ ان هذا الرجل قبض عليه مع رفقاء له في سفينة قرصان ، وحكم عليه بالسجن .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ أتعلم كيف تجاسر هذا الرجل ان يدافع عن نفسه ؟

ـ كيف أستطيع أن أعلم ؟

فضحك الجنرال الاسباني ضحكاً عالياً وقال : انه ادعى بأنه المركيز دي شمري .

ولو سمع هذه المباغتة من الجنرال غير روكامبول ، لكان اصفر لونه واضطربت أعضاؤه لان حياته موقوفة على هذا المركيز. وقد قيل له فجأة انه لا يزال حياً يرزق ينذره بالفضيحة والسجن بل بالموت موت المجرمين السفاكين غير ان تلميذ أندريا تالك نفسه فلم يبد عليه شيء من ملامح اضطرابه الداخلي ، بل انه ابتسم بسكينة طالما أنقذته من أصعب المواقف حين كان رئيساً للجمعية

السرية في عهد أستاذه وقال بلهجة المتعجب: ان هذا التزوير عظيم لا يقدم عليه غير الاشداء .

– وأنا من رأيك فاصغ الى تتمة حديثي .

– قل يا سيدى الجنرال فقد شغلتني هذه الحكاية لغرابتها .

إن هذا المزور تمكن من إقناع ابن عمي قومندان المرفأ في قاديس على انه هو المركيز دي شمري .

– لا عجب في ذلك فان ابن عمك لا يعرف عائلتي ، ولا يعلم اني مقيم في باريس .

– فلما وثق ابن عمي من حكايته الملفقة كتب إلي منذ بضعة أشهر يخبرني بحكاية هذا الرجل ، ويسألني إرسال التفاصيل عن عائلة دي شمري الى غير ذلك من هذه الأبحاث .

فقال روكامبول ضاحكاً : وماذا أجبت يا سيدي الجنرال ؟

– أجبت ابن عمي ان هذا الذي يدعي انه المركيز دي شمري كاذب منافق لان المركيز دي شمري من أصحابي وكان أمس من المدعوين الى حفلة راقصة أعددتها في منزلي في باريس .

– ما هذه الغرائب إن جسارة هذا الرجل لم نقرأها حتى في القصص .

– ولكنك ذاهب الى قاديس فسترى فيها دون شك الرجل .

– ذاك لا ريب فيه ، ولقد خطر لي خاطر يا حضرة الجنرال فاكتب لي كتاباً الى ابن عمك .

- إني عرضت عليك هذا الكتاب .

– نعم ولكني أحب أن تقدمني الى ابن عمك باسم غير اسمي الحقيقي .

- لأي قصد ؟

– لأني أحب ان أقيم في قاديس ثمانية أيام متنكراً بحيث أستطيع ان أرى هذا الرجل كما أريد وأسمع حكايته العجيبة من فمه .

- ليكن ما تريد. وسأرسل لك في هذا المساء كتاباً بعنوان ابن عمي القومندان بيدرو أوصيه بك خير وصاية فبأي اسم تريد ان أقدمك اليه ؟

- باسم الكونت بولاسكي وتخبره اني من أعيان بولونيا .

فابتسم الجنرال وأجاب : سأرسل لك الكتاب في المساء .

ثم ودعه وافترقا .

وكان الكونت فابيان يتحادث في ذلك الحين ، مع السفير الأسباني ، في الطرف الآخر من القاعة ، فلم يسمع كلمة واحدة مما دار بين الجنرال الأسباني وروكامبول .

فدنا منه روكامبول وقال له : هلم بنا الآن إلى دائرة البوليس لنأخذ الجواز

بعد ذلك ببضع دقائق بينا كان فابيان وروكامبول ذاهبين بمركبتهما إلى دائرة البوليس مرت بهما مركبة كان فيها صديق لفابيان فأشار كل منهما إلى مركبته بالوقوف وحيى الثاني .

وكان الرجل يدعى سيرفيل وهو شاب من رجال القضاء درس الحقوق مع فابيان في مدرسة واحدة وتعين حديثاً قاضياً للتحقيق .

فقال له فابيان : من اين آت ؟

- من منزلي في سانت لويس .

- وإلى أين أنت ذاهب ؟

- الى المجلس .

فابتسم فابيان وقال له : إنك من حين تعينت قاضياً للتحقيق لم يعد أحد يراك .

- لا تذكرني بمنصبي أيها الصديق فانك تهيج أحزاني .

- لماذا وأي حزن يعتريك من مثل ذاك المنصب الرفيع ؟

- ذلك لأن أول عمل عهد إلي التحقيق فيه كان أعقد من ذنب الضب، ولا

أزال تائهاً في ظلماته .

– في أي تحقيق ؟

– في مقتل مدام فيبار والحادثة التي حصلت في غرفتها .

فارتعش روكامبول ارتعاشاً شديداً حين سماع القاضي ولكنهما لم ينتبها الى اضطرابه لانه كان داخل المركبة .

فسأله فابيان . إني لم أسمع بهذا القتل فكيف اتفق ؟

– إنها مشكلة من أصعب المشاكل أيها الصديق فقد وجدوا منذ شهرين في غرفة تلك العجوز المياه قد فاضت في قبو تحت غرفتها ووجدوا جثتين طافيتين فوق المياه إحداهما جثة العجوز صاحبة الغرفة وهي مخنوقة والثانية جثة رجل مطعون بخنجر ولقد تبين انه من مشاهير المجرمين .

– ما هذه الحادثة الهائلة ؟

– ثم رأوا رجلاً حياً جالساً في زاوية من الغرفة .

فارتعد روكامبول ارتعاداً عظيماً لأنه علم الآن ان زامبا لم يمت .

فقال فابيان : إنه كان القاتل دون شك

– كلا أيها الصديق فقد كان هو أيضاً مجروحاً بظهره وثيابه مبتلة مما يدل على أنه كان في المياه ونجا منها .

– لا بد أن تكون سألته عن هذه الجناية .

– لم أستطع أن أسأله شيئاً لأنه كان مجنوناً .

وهنا تنفس روكامبول الصعداء وبقي له شيء من الأمل .

فقال القاضي . إن ذاك المجنون لم يكن يتكلم غير الاسبانية والبورتغالية وقد سلم الى طبيب حاذق يتولى معالجته حتى اذا شفي نستطيع أن نعرف الحقيقـة .

– من هو هذا الطبيب ؟

– إنه الطبيب المشهور صموئيل .

فالتفت فابيان الى روكامبول وقال له : إنه طبيبك الخاص

وبعد ساعة عادا الى القصر بعد ان أخذ روكامبول جواز السفر إلى اسبانيا فما صدق روكامبول ان افترق عن صهره فابيان حتى دخل إلى غرفته وأوصد بابها وارتمى على مقعد وهو يوشك أن يجن من اليأس فقال : إن المركيز الحقيقي في قيد الحياة ، وزامبا لم يمت . . لقد فقدت كل شيء ، وما أنا إلا من الهالكين .

غير ان اليأس لا يتمكن في صدر روكامبول ولا يلبث أن يحل محله الرجاء فإنه عندما رأى ان الأخطار تحيط به من كل جانب ، وأمعن في موقفه الحرج الشديد ، هبت اليه جرأته النادرة فاتقدت عيناه ببارق من الأمل ، وزال عن قلبه كل خوف ، وقال في نفسه : أنا الغريق وما خوفي من البلل . وسأمثل الدور الأخير من الرواية ، فإما أن أفقد كل شيء أو أنال كل شيء .

١٧ -

وفي صباح اليوم التالي خرج روكامبول من منزله ماشياً على الأقدام بعد ان أمر خادم غرفته باعداد مهمات سفره وبرح شارع فرنيل ذاهباً إلى شارع سيرنس حيث جعل فيه منزله السري .

وكان خادم ذلك المنزل لم يره منذ شهرين غير ان روكامبول قد عوده على مثل هذا الغياب بحيث لم يجسر الخادم أن يسأله كلمة عن غيابه .

فدخل روكامبول الى تلك الغرفة العجيبة التي كان يعدها لتغيير سحنته وأزيائه عندما يريد التنكر لغرض من أغراضه الجهنمية ، فأخذ من الملابس والبراقع والمواد الكيماوية ما وقع اختياره منها وهي مواد يستطيع بها تغيير

لون جلده كما يشاء .

ثم وضع جميع هذه الأشياء في صندوق وأقفله بقفل سري وحمله بنفسه الى المكان الذي يقيم فيه البواب وطلب ان يحضر له حمالاً .

فامتثل البواب وهو مندهش مما يراه ، وعاد بعد حين بحمال لقيه في الشارع ، فأعطاه روكامبول الصندوق وأمره أن يتوجه به إلى منزله في شارع فرنيل .

ثم انه بدلاً من أن يسير في أثر الحمال تركه يسير في شأنه بعد أن دله على منزله وذهب الى شارع سانت اونوريه حيث يقيم الدكتور صموئيل اليوت .

ولم يجد حاجة الى التنكر في هذه المرة ، لأنه لم يخطر له في بال ان هذا الطبيب متفق مع باكارا على إهلاكه ، ثم أنه وجد حجة معقولة في زيارته لذاك الطبيب ومعرفة ما حدث لزامبا عنده ، وهي انه مسافر وانه يريد ان يقابل هذا الطبيب فيقول له : إني سأبرح باريس في هذا المساء الى اسبانيا لأتزوج فيها إبنة الدوق سالاندريرا ، وسأسافر في اليوم التالي لزواجي إلى البلاد الاميركية ، فسأنا آت لاودعك قبل هذا السفر الطويل ، ولاسألك أن تعطيني كتب توصية إلى أصحابك في تلك البلاد ، لانك من أبنائها وقد نشأت فيها .

وقد وجد روكامبول أن هذه الحجة مقبولة فقال في نفسه : إني لا أبرح منزله حتى أعلم حقيقة شأن زامبا ومبلغ جنونه .

غير انه دهش دهشة عظيمة حين بلغ إلى ذلك المنزل وأخبره بوابه بسفر الطبيب فسأله : كيف يستطيع طبيب أن يغادر زبائنه على كثرتهم في باريس ؟ إن هذا محال !

- ولكنها الحقيقة يا سيدي .

- متى ذهب ؟

- منذ ثمانية أيام .

- والى أين ذهب ؟

- لا أعلم ولكنك اذا سألت في شارع بيبينيار يخبروك

فارتمد روكامبول لاسم الشارع الذي تقيم فيه باكارا وسأله : العله يقيم في ذلك الشارع ؟

- كلا ولكنه يعالج فيه عظيماً من عظماء الروسيين أصيب بالجنون .

فاستند روكامبول على الباب وقد كاد يضيع صوابه ولكنه ضبط نفسه بسرعة وقال : لقد علمت الآن فانه يعالج روسياً يدعى الكونت أرتوف .

- هو ما تقول يا سيدي فقد ذكرت اسمه الآن .

فتركه روكامبول وذهب فلما وصل الى الشارع تراكمت عليه الهموم فاشتدت هواجسه ووهنت قواه حتى أوشك أن يسقط .

واتفق مرور مركبة في ذلك الحين ، فركب بها وأمر السائق أن يذهب به الى شارع سيرسنس ، فسارت به الى حيث يريد وهو ضائع الرشد مشتت الحواس .

غير أن مدة يأسه لم تطل فلم تسر به المركبة مسافة قصيرة حتى ثاب اليه رشده وتمثلت له تلك الاخطار المحيطة به فقال في نفسه : لقد أصاب أندريا فيما أنذرني به من أفول نجم سعدي حين يموت .

والآن فان الكونت أرتوف الذي سقيته ذلك السم فذهب بعقله ، يعالجه الطبيب صموئيل الذي سرقت منه ذلك السم وعلى ذلك فلا بد لهذا الطبيب أن يعلم كيف أصيب الكونت بالجنون . ومن يدري فقد يعلم اني أنا الذي سرقت منه السم .

ثم ان الطبيب الذي يعالج زوج باكارا قد يكون علم منها جميع تاريخي واتفق معها على هلاكي .

وعندما خطر له هذا الخاطر المخيف جمد الدم في عروقه من الرعب ونادى السائق فقال له توجه بي الى منزل الكونت أرتوف في شارع بيبينيار .

وقد خطر له ما يخطر للقانطين في موقف الخطر الاكيد فقال في نفسه · سأذهب إلى باكارا فأقرأ ما في نفسها من عينيها ، وأعلم كيف يجب أن أنهج في القتال ، وأتخذ حجة في ذهابي اليها إني آت منقبل صهري صديق الكونت أرتوف للسؤال عن صحة زوجها والاطمئنان عنه .

وعند ذلك دخلت المركبة إلى ساحة منزل الكونت أرتوف ، فحكم روكامبول لاول وهلة ان أصحابه غائبون عنه لانهرأى النوافذ في الدور الاول مقفلة جميعها .

ولما وقفت المركبة نزل منها روكامبول وتقدم الى الباب ، فدنا منـــه البواب وقال له :

ـ بماذا يأمر مولاي ؟

ـ إنني أرى النوافذ مقفلة فهل أسيادك غائبون عن المنزل ؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ متى يرجعون ؟

فبدت ملامح التردد على البواب غير ان روكامبول تكلف من هيئة النبل جهد ما استطاع وقال له . إنني أدعى البارون دي كيروف وأنا ضابط روسي أتيت من بطرسبرج الى باريس لارى فيها خالي الكونت أرتوف .

فوقف البواب موقف الاحترام حين علم أنه قريب مولاه وأجاب · إذن فان سيدي يعلم المصيبة التي فاجأت سيدي الكونت .

ـ نعم علمت انه أصيب في عقله ، ولكنهم يرجون له الشفاء العاجل ، كذلك فقد كتبت لي الكونتس ان الذي يتولى علاجه هو الدكتور صموئيل اليوت

ـ نعم يا سيدي وهو من أشهر الاطباء .

ـ وأسيادك غائبون كما تقول ؟

ـ إن سيدتي أمرتني بالكتمان ، ولكني لا أظنها تريد كتمان هذا

الامر عنك .

- ذلك لا ريب فيه وهي تعلم اني آت خاصة من بطرسبرج لاراها .

- إن سيدي الكونت مقيم الآن في أرض له في فونتيناي .

- مع الطبيب صموئيل ؟

- كلا ، بل صحبه أحد تلامذة هذا الطبيب الذي عهد اليه العناية به مدة غيابه .

- اذن فإن الطبيب غائب ؟

- نعم يا سيدي فقد سافر مع الكونتس منذ ١٠ أيام .

- الى أين ذهبا ؟

- لا أعلم وليس من يعلم وجهتها فإنهما لم يخبرا أحداً .

- سأعلم ذلك في فونتيناي .

ثم ترك البواب وركب مركبته وانصرف .

ولم يذهب روكامبول الى فونتيناي كما قال فان ما قاله له البواب وهو ان الطبيب سافر مع باكارا منذ عشرة أيام قد أرشده إلى معرفة شيء من هذه الحقيقة الهائلة وذكره بما قال له خادمه في الاورانجراي ، وهو أن الفتى الذي اتهم بسرقة الصورة لم يكن غلاماً بل كان امرأة متنكرة بزي الغلمان ، ثم انه كان يصحبه رجل بصفة مؤدب ، ذكر له من أوصافه ما ينطبق على أوصاف الطبيب صموئيل ، وخادم تشبه أوصافه أوصاف زامبا ، فلما انتهى روكامبول بذكراه إلى هذا الحد قال في نفسه : لم يبق ريب الآن ان الدكتور صموئيل وزامبا كانا يصحبان باكارا وانهم قد اشتركوا في سرقة الصورة ..

وبعد حين وصلت المركبة به إلى منزله في شارع فرنيل فدخل إلى غرفته وكتب إلى خطيبته ابنة الدوق الكتاب الآتي :

« خطيبتي العزيزة ..

« لم أر ولم أقرأ غير شيء واحد في كتابك وهو ان ساعة السعادة قد دنت ولست أبالي بالدوقية ولا يسرني أن أكون من عظماء الاسبان وسفيراً لاسبانيا إذ لا مطمع لي بسواك ، وإذ كنت لا أستطيع ان أنالك إلا بعد نيل هذه الألقاب فأنا أقبلها امتثالاً لك .

« توسعي في لومي أيتها الحبيبة كما تشائين فإن كتابك الي وصل باريس منذ خمسة أيام ولكني لم أفتحه إلا في صباح اليوم واليك بيان السبب :

« اني كنت غائباً عن باريس فقد ذهبت مع صهري فابيان لزيارة أرض لنا في التورين لإقامة عشرة أيام في قصر الأورانجري والعودة إلى باريس وقد فاتني أن آمر بارسال رسائلي إلى الأورانجري .

« فأقمنا في ذلك القصر ثمانية أيام بين اضطرابات شديده ، وذلك اننا حين وصولنا وجدنا خدام القصر مضطربين مسلحين تأهباً للطوارىء ، وعلمنا ان وكيل القصر قد سافر مسرعاً إلى المدينة المجاورة .

« وذلك لأن القصر قد سرق ، ولكنها سرقة غريبة لا تخطر في بال ، والحكاية ان مركبة بريد سقطت في حفرة قرب باب بستان القصر فكسر دولابها ، وكان فيها شاب طلب الضيافة إلى أن يتم اصلاح مركبته فأضافه الخدم لقوله انه من أصحابي ، وفي الصباح أصلحت مركبته فسافر ، ولكن أتعلمين ماذا سرق ؟

« ان ذلك لا يخطر لي في بال فإنه سرق صورة تمثلني حين كان لي من العمر تسعة أعوام وكانت هذه الصورة معلقة في جوار القاعة الكبرى .

« أما السبب في سرقة هذه الصورة فلم أقف عليه إلا حين عودتي إلى باريس ، ويمكنك أن تعرفيه بالتلميح عنه والرجوع إلى حياتي السابقة في زمن لم أكن أحلم فيه بسعادتي المستقبلة ، أيام كان يدفعني غرور الصبى وخلو الفؤاد من الحب الطاهر الشريف إلى الاندفاع في حلبة الملاهي .

« وما زلت على هذا الطيش إلى أن لقيتك في غابات بولونيا ، فعلمت كيف يكون الحب الصحيح ، ولكني كنت قد غادرت امرأة شقراء ، وتخلفت عنها دون أن تتخلف عني .

« وقد سألتني هذه المرأة أن أهبها تذكاراً مني فكنت أرفض طلبها، إلى أن أعياها الأمر فسرقت رسمي كما علمت الآن .

« وفي هذا المقام التمس منك العذر أيتها الحبيبة لجسارتي لهذا الاقرار ، ولكني لم أجد بدأ منه إذ يجب أن أحذرك كي لا تستطيع تلك المرأة أن تتخذ تلك الصورة سلاحاً تحاربني به أمامك فاني أحبك ولا أريد أن يدخل إلى قلبك شيء من الشك بصدق حبي .

« والآن فاسمعي ما جرته هذه السرقة من المصائب، فان وكيلي في قصر الأرنجري ، وهو شيخ عجوز كان يخلص لي أشد الاخلاص هالته سرقة الصورة وأثرت عليه تأثيراً عظيماً فمات رحمه الله موتاً فجائياً ، فأسفت لموته أسفاً شديداً ، لأنه مات بسببي ، وبقيت مع صهري في القصر إلى أن شيعت الجنازة ووري هذا الخادم الأمين في التراب .

« هذه هي الأسباب التي منعتني أيتها الحبيبة عن الاطلاع على كتابك قبل صباح اليوم .

« ولمثل تلك الأسباب سيطول زمن سفري إلى أربعة او خمسة ايام إلى أن أتمكن من الحصول على جوازات السفر والتجنس بالجنسية الاسبانية وانهاء جميع شؤوني الخاصة وفي كل حال فسأكون بعد ثمانية أيام جاثياً على قدميك »

محبك

« البرت »

وكان يرمي بهذا الكتاب إلى غرضين ، أحدهما أن يهيء ابنة الدوق لما ستجريه باكارا بشأن الصورة فيضعف تأثيرها ، والثاني أن تمكنه من السفر إلى قاديس والاقامة فيها متنكراً أربعة أو خمسة أيام لأن ابنة الدوق لا

تنتظر قدومه بعد ذلك الكتاب إلا بعد ثمانية أيام على الأقل

وقد قال في نفسه : اني قد قتلت الدوق دي مابلي ، والدون جوزيف ، وأندريا وجميع الذين كان وجودهم مثقلاً علي ، ولكني إذا لم اقتل السجين في سجن قاديس فلا اكون قد فعلت شيئاً وأغدو من الهالكين .

ثم انه لما شعر بحرج موقفه وما يحيط به من الأخطار هبت اليه قوة عظيمة ورجعت له جرأته النادرة واقدامه الغريب وفظاعته الوحشية وتلك السكينة الفطرية فيه الدالة على مبلغ قوته .

وقضى بقية ذلك اليوم بين صهره فابيان واخته بلانش إلى أن حان موعد السفر ، فركب المركبة وشيعه اليها صهره النبيل فصافحه مصافحة الاخوان وتلك المرأة الطاهرة فقبلته قبلة صادقة وهي تحسبه أخاها فقبلها روكامبول وقد أحس بدموعها تنفجر على خده فتأثر لحنوها وقال في نفسه ، لا شك اني خلقت لأكون نبيلاً إذ لا أجد أشهى الي من العواطف الصادقة .

ولكنه ما لبث أن اندفعت به المركبة وبعد عن ذلك الموقف حتى ابتسم تلك الابتسامة الجهنمية التي تعلمها من استاذه القديم وقال : لقد سرت فيطريق القتال فاما الفوز وإما الموت ، وإما أن أكون دوقاً اسبانياً أو ازج في ظلمات سجن قاديس .

- ١٨ -

في اليوم التالي لتلك الحفلة الراقصة التي احياها المجلس البلدي وجرت فيها تلك الحوادث التي يعلمها القراء كانت مركبة بريد يجرها أربعة بغال تدخل في الساعة الثامنة من المساء إلى ساحة فندق السحرة .

وهو الفندق الذي يقيم فيه فرناند روشي وزوجته

ولم يكن في هذه المركبة سوى سيد واحد عليه مظاهر النبلاء وبين يديه أربعة من الخدم كانوا في المركبة بين جالس أمامه وبين جالس في مؤخر المركبة وبين جالس بجانب السائق .

فنزل هذا السيد من المركبة وأسرع اليه الخدم فجعلوا يمشون أمامه إلى الفندق بين صفوف مستخدميه الذين كانوا واقفين بملء الاحترام لما رأوه من ملامح ضيفهم الدالة على العظمة .

وهو رجل يظهر من وجهه انه في الخمسين من سنه ربعة القوام هزيل أصفر الوجه مجعد الجبين ، وكان لابساً ثوباً طويلاً فوق ثيابه مبطناً بالفرو الأشقر وله لحية شقراء تشبه بلونها لون ذلك الفرو .

أما عيناه فكانتا تتقدان وترسلان أشعة تدل على ما في نفس صاحبهما من الهمة والاقدام .

وكان أحد خدامه يتكلم جميع اللغات الحية خلافاً للثلاثة الاخرين ، فإن كلا منهم لم يكن يتكلم غير لغة واحدة ، ومجموع لغاتهم الثلاث الروسية والبولونية والالمانية ، ولذلك كان الأول عليهم وقد تشرف بمهمة الترجمة لمولاه ، لأنه لم يكن يعرف اللغة الاسبانية ، فأخبر صاحب الفندق وزوجته ان مولاه عظيم من عظماء بولونيا ، يدعى البارون ونسلاس بولاسكي ، وهو من الأغنياء العظام ، فقد زوجته دون أن يلد له منها بنون ، وقد فقدها منذ عشرين عاماً ولكنه لا يزال يندبها وهو يسيح في جميع انحاء الأرض بغية نسيانها .

فبينما كان صاحب الفندق يسمع حديث هذا الترجمان معجباً به كانت زوجته قد سمعت بعضه فأسرعت إلى ذلك السيد البولوني وذهبت به إلى خير محل في الفندق .

وكان فندق السحرة هذا قائماً في محل مجاور للميناء ، فأعطته صاحبته محلاً فيه يطل على البحر كي يسر بمناظره الجميلة ، ثم تركته وانصرفت ،

وصعد الخدم يحملون اليه أمتعته .

أما البارون فلم يكترث بهم بل انه خرج إلى المشرف وجعل ينظر منه الى ما حول الفندق نظر الباحث المستطلع .

وكانت اشعة الشفق لا تزال تملأ الكون نوراً وتصبغ السماء بأنوارها الذهبية فأشار البارون الى احد خدمه وامره ان يفتح احد الصناديق واخرج منــه نظارة مكبرة وعاد إلى موقفه في المشرف فجعل ينظر في المنظار الى ما حوله وهو يعرف قاديس قبل اليوم .

فكان أول ما أصاب نظره بناية ضخمة فعلم انها سراي الحكومة ثم حول منظاره إلى مكان آخر فرأى بناية أضخم من الأولى جدرانها مائلة إلى السواد فاستلفتت أنظاره وتأملها طويلا وقد كانت هذه البناية دار السجن .

ثم أدار منظاره الى الجهة اليمنى كأنما منظر السجن قد أثقل عليــه فرأى قصراً جميلا مبنياً فوق قمة على شاطيء البحر المتوسط يحيط به بستان كبير مزروع بأشجــار الليمون والرمان فاستوقف منظر هذا القصر الجميل انتباهه ففحصه فحصاً ملياً ثم نظر إلى ترجمانه وكلمه باللغة الانكليزية .

فخرج ترجمانه وعاد بعد حين وجيز مع صاحب الفندق ، فقال الترجمان : ان مولاي البارون يريد ان يعرف صاحب هذا القصر الجميل المبني فوق هذه القمة على شاطيء البحر ، فأجابه صاحب الفندق انه لأسقف غرناطة غير أن الأسقف لا يقيم فيه الآن فقد تخلى عنه للدوقة سالاندريا وابنتها وهما تقيمان فيه الآن .

إنحنى البارون احتراماً لهما وكان هذا جميع ما يريد ان يعرفه ، ثم أخذ من جيبه محفظة فأخرج منها رقعة زيارة عليها اسمه وتاج البارونية فكتب عليهــا بقلم من الرصاص اسم الفندق النازل فيه وبعد ذلك أخرج من جيب آخر محفظة كبرى ففتحها بحيث ظهرت فيها الأوراق المالية مكدسة ثم أخرج منها كتاباً كان عليه عنوان السنيور بادرو قومندان الميناء في قاديس فوضع الكتاب ورقعة

الزيارة على الطاولة وأشار لصاحب الفندق بيده اليها .

فأخبره الترجمان ان مولاه يريد ايصال هذا الكتاب إلى قومندان الموقع فانه مرسل من ابن عمه الجنرال وهذه الرقعة من البارون .

فانحنى صاحب الفندق بملء الاحترام ثم أخذ الرقعة والكتاب ومضى .

وعند ذلك أشعل البارون سيجاراً وجعل يتفقد الفندق وصمد يطوف في رواقاته بحجة الرياضة والتنزه إلى ان يتهيأ طعام العشاء .

وفيما هو يجتاز رواقاً قرب غرفته رأى امرأة تتأبط ذراع رجل فأجفل لمنظرهما ولكنه لم يستطع ان يتحقق أمرهما لعدم وجود نور في تلك الرواق أما الرجل والمرأة فانهما استمرا في سيرهما دون أن ينتبها الى هذا البارون البولوني .

فنزل البارون من الباب الخارجي وبعد نصف ساعة صمد الى غرفته وتناول طعام العشاء فيها وأكل بشهية فائقة .

ولما فرغ من الطعام دخل اليه صاحب الفندق يحمل بيده دفتراً ضخماً وهو سجل يقيد فيـــه اسماء النازلين في فندقه فيكتب كل مسافر فيه اسمه بخطه ويذكر تحت اسمه نوع اعماله وتبعته والبلد التي جاء منها .

فنظر البارون الى هذا الدفتر بيد صاحب الفندق وظهر عليــه انه لم يفهم المراد منه فوضع صاحب الفندق الدفتر على الطاولة وقال للترجمان بعض كلمات ترجمها للبارون فهز رأسه اشارة الى المصادقـــة وأخذ الدفتر فجعل يقلب صفحاته ويقرأ الاسماء المكتوبة فيه منتظراً ان يأتيه صاحب الفندق بادوات الكتابة .

وفيما هو يقلب الصفحات إذ قرأ اسماً ارتجف له وذكر في الحال الرجل والمرأة اللذين رآهما في الرواق قبل العشاء لأن هذا الرجل البولوني كان يعرفهما كما يظهر أما الأسم الذي قرأه فهو فرناند روشي من باريس

وكان هذا الشريف البولوني قد اضطرب اضطراباً شديداً حين قرأ هــذا

الأسم غير انه تمالك نفسه فلم يظهر عليـــه شيء من ملامح اضطرابه الداخلي وكتب اسمه في السجل بأتم البرود والسكينة .

وبعد ذلك خرج الجميع فلم يبق في الغرفة غير هذا الشريف البولوني فجلس على كرسي طويل وجعل يناجي نفسه بهذا الحديث ويقول :

أي روكامبول انك في موقف شديد فأمـــا أن تكون بلغت منك البساطة حد البلاهة او انه يجب ان تعلم أموراً كثيرة من وجود فرنانـد وامرأته في قاديس فانهما لا بد ان يكون لهما علاقة بالدون بادرو قومندان الموقع ولا بد لهذا القومندان ان يكون أخبرهما بأمر السجين الذي يـدعي انه المركيز دي شمري الحقيقي ، ولا بد أيضاً أن يكونا قد كتبا إلى باريس ، وارجح انهما كتبا إلى الكونتس أرتوف، فاذا لم تكن باكارا في قاديس ، فهي ستحضر اليها دون شك .

وفيما كان البولوني يناجي نفسه بهذه الاحاديث اذ سمع انهم يطرقون باب غرفته بلطف فاذن الطارق بالدخول .

وكان روكامبول عند ذلك جالساً على كرسي طويل وراء الطاولة التي أكل عليها وفوقها المصباح بحيث ان الداخل عليه لا يرى وجهه من الباب لعدم وقوع نور المصباح على وجهه خلافاً للداخل فان وجهه يكون معرضاً لهذه الاشعة بحيث اذا التفت روكامبول يراه .

فدخل الترجمان وكان هو الطارق فقال : ان خادم غرفة قومندان الميناء في الباب .

وكان هذا القومندان قد تلقى كتاب روكامبول فأسرع الى اجابته انه ينتظر زيارته في الغد وعهد بارسال الجواب الى رجل ادخلته باكارا في خدمته في الليلة التالية لتلك الحفلة الراقصة .

فلما اخبر الترجمان روكامبول ان الخادم واقف بالباب التفت اليــه ، ثم حول وجهه عنه بسرعة وقد ذعر ذعراً شديداً لأنه علم ان هـــذا الخادم

كان زامبا .

ومن غريب الاتفاق ، ان اللباس الذي كان متنكراً به روكامبول في قاديس ، كان نفس اللباس الذي كان يتنكر به حين كان يقابل زامبا في باريس .

ولكن لحسن حظه لم ير زامبا وجهه لأنه كان في الظل كما قدمنا ، اما روكامبول فانه اشار في الحال اشارة خفية للترجمان فخرج وبعد خروجه دخل زامبا فأخذ منه الكتاب دون اكتراث ، وهو واضع منديله على وجهه كي يستره ووضعه على الطاولة ثم رجع خطوتين إلى الوراء ودخل إلى غرفة صغيرة كانت ضمن الغرفة الكبيرة ، وبعد أن لبث فيها برهة قصيرة خرج منها وعرض وجهه للنور أمام زامبا ، فتراجع مذعوراً إلى الوراء وقد عرف انه الرجل الذي كان يستعبده في باريس .

وكان روكامبول يحمل بيده مسدساً فصوبه إلى قلب زامبا ووضع اصبعه على شفتيه إشارة إلى الصمت وقال له باللغة الفرنسية الفصحى وليس باللغة الانكليزية كما كان يكلمه من قبل : يظهر أننا صديقان من عهد بعيد

فاضطرب زامبا من المسدس وقال : نعم فقد عرفتك من عهد بعيد ..

– إذن فاصغ الي وأجلس أمامي لنتحدث إذ لدينا كثير من المهمات التي يجب النظر فيها ..

فجعل زامبا يرتجف ارتجافاً شديداً حتى كاد يقع وقال له : ليكن ما تريد

– اجلس وسكن روعك فاني أراك ترتعش ارتعاش النساء ثم شفع قوله بضحكة عالية ، وأسرع إلى الباب فأقفله من الداخل وعاد إلى زامبا وجلس أمامه فجعل يضحك ويلعب بالمسدس وهو يصوبه اليه .

لقد تركنا ابنــة الدوق سالاندريا تفض أختام الكتاب الذي ورد اليها من باريس وقد عرفته للحال من خطه انه من خطيبها

ومثل هذا الكتاب يرد اليها من خطيب تهواه يشغلهـا بالطبع عن سواه ويطرد من مخيلتها تلك المؤثرات التي شغلتها في الحفلة الراقصة ولو إلى حين .

فقرأت الكتاب وأعادت تلاوته ثلاث مرات، فكان المركيز دي شمري يتمثل لها في خلال السطور .

أما الكتاب فهو الذي كتبه روكامبول يوم سفره إلى ابنة الدوق فأخبرها فيه عن سرقة الصورة بالشكل الذي أراده ثم أخبرها انه لا يستطيع مبارحة باريس قبل ثمانية أيام لاعداد مهماته .

ولكنه سافر في اليوم نفسه مع ذلك الكتاب متنكراً باسم البــارون ونسلاس كما علمناه ، ونزل في الفندق الذي كان ينزل فيه فرناند روشي وزوجته .

فلما شفت ابنة الدوق غلها من تلاوة كتاب خطيبها دفعته إلى أمهـا فقرأته وقالت معجبة : لا أدري كيف يقول انه لا يحضر قبل ثمـانية أيام ، ألا يعلم ان جلالة الملكة لا تقيم الى الأبد في قاديس وانها قد تبرحها قبل مجيئه وانه لا بد أن يقدم لها وللملك بصفة رسمية .

فتمتمت الفتاة تقول ثمانية أيام .. إنها دهر طويل فما أصعب الانتظار .

فابتسمت الدوقة وقالت : إذن أنت تحبينه حباً شديداً يا ابنتي .

فصبغ خداها بالاحمرار وأطرقت بنظرها مستحيية فكان استحياؤهـا أبلغ جواب .

ثم عادت إلى التأمل بمياه البحر فكانت فرحة القلب بما كانت ترجوه من قرب حضور المركيز ، ولكنها ما لبثت ان عادت الى الحوادث التي مرت بها في الليلة الراقصة حتى تولاها الانقباض وبدت على وجهها الجميل ملامح الكآبة والانكماش .

وكانت كلما أرادت طرد هذه الأفكار من مخيلتها بالافكار بركامبول غالبتها تلك الحوادث ، وتمثل لها ذلك السجين بمظاهر رجل شريف نكبه القضاء وحاربته الأقدار فحنت لمصابه ورثت لبلواه الى ان أعياها أمره ولم تجد سبيلاً لإبعاده عن تصورها ، فقالت في نفسها هب ان الرجل كان صادقاً فيما يقول ، فأي دخل لي في شأنه ؟ أليس من الحمق والشين ان أفتكر به أكثر مما أفتكر بخطيبي وما هذا السر بجنبني اليه ؟

ثم وضعت يدها على جبينها تحاول طرد ذلك الفكر كأنها لم تتجاسر على إتمامه .

وانقضى النهار ، فذكرت ابنة الدوق الموعد الذي اتفقت عليه مع الكونتس أرتوف ، فكانت كلما قربت ساعة الموعد يزيد سأمها ويفرغ صبرها فقد كان يتنازعها عاملان من شوق الى معرفة تلك المعميات ، ومن رعب كان مستولياً عليها وهي لا تعلم السبب فيه .

غير انها حملته على ما جاء في رسالة باكارا التي كتبتها اليه في مقدمة الدفتر ، من أنها لها دخل في حوادث تلك الرواية الهائلة التي قرأتها ، ولكن الذي كان يدهشها انها لم تكن تعرف أحداً من الأشخاص الذين ورد ذكرهم فيها .

فصرفت جانباً من الليل مع أمها الى أن تركتها الدوقة ودخلت إلى غرفتها لتنام . فعادت الفتاة الى موقفها السابق في الرواق المشرف على البحر ، وذلك لأن باكارا قالت لها في الحفلة . قفي على الرواق عند انتصاف الليل وانتظري .

وكان جميع من في القصر نياماً ولم يبق للموعد المضروب غير نصف ساعة فوقفت إبنة الدوق في ذلك الرواق مسندة كوعها الى الرخام وجعلت تنتظر وتتأمل ذلك الفضاء الواسع فلا ترى غير النجوم لاشتداد الظلام ، فجزعت وجعلت تعد الدقائق كما تعد الساعات وتصغي الى كل حركة تسمعها من البحر ، لعلمها ان الكونتس ستحضر في سفينة ولكنها على جزعها وخوفها لم تتمالك عن الافتكار بذلك المجرم السجين .

ثم خيل لها انها تسمع صوت حركات متشـــابهة ، فعلمت أنها أصوات المجاذيف ، وجعل قلبها ينبض نبضاً شديداً فأطلت الى الجهة التي خرج منهـا الصوت فشاهدت شبحاً يدنو مسرعاً الى جهة القصر ، فما شكت انها سفينة الكونتس أرلوف التي تنتظرها على أحر من الجمر .

ووصلت السفينة الى الشاطىء فخرج أحد بحارتها فربطها بحبل الى حلقة من الحديد في الشاطىء ثم خرجت إمرأة من السفينة وصعدت سلم الرواق الذي كانت تقيم فيه ابنة الدوق ، فتراجعت الفتاة الى آخر الرواق كأنها خشيت ان تستقبل تلك الزائرة .

فأسرعت اليها باكارا وقالت لها بعد التحية :

— العلك وحدك ؟

— نعم فإن أمي قد نامت .

— وأنا أيضاً قد أتيت وحدي .

فارتعشت ابنة الدوق وسألت : من الرجل الباقي في السفينة ؟

— بحري من بحارة الميناء .

فبدت على ابنة الدوق ملامح الاكتئاب كأنها كانت تتوقع ان يكون هذا الرجل المجرم الذي لم يكن يبرح من بالها فأخذت باكارا بيدها وقالت لها : إني كنت عازمة على إحضار زامبا معي .

— العلك تعرفينه ؟

ــ كيف لا أعرفه ، وقد اتفقت وإياه على ان يأتي الي الليلة ؟ ولكني انتظرته الى الساعة الحادية عشرة فلم يأت ، فاضطررت الى الحضور وحدي .

ــ العلك كنت محتاجة إلى زامبا ؟

ــ نعم وذلك لأنه يعرف كثيراً من الأمور التي يهمك شأنها وهو يستطيع أن ينقلها اليك أحسن مما أنقلها أنا .

فارتعشت الفتاة وأجابت : العلك تريدين مباحثتي أيضاً بشأن الدوق دي مايلي ؟

ــ ربما .

ــ أتأذنين لي يا سيدتي بكلمة ؟

ــ تفضلي .

ــ يظهر ان الدوق دي مايلي قد مات مسموماً ، وأنا مشفقة عليه غاية الإشفاق . غير أني لا أراني مضطرة أن أسكب الدموع الغزيرة عليه ، بعد أن كاد المكائد في سبيل الحصول على رضى أبي ، لتزويجه بي .

ــ العفو يا سيدتي فاني ما أردت أن اصحب معي زامبا اليك إلا لجلاء الغامض من هذه المكائد فإن ذلك الرجل قد خدم الدون جوزيف والدوق دي مايلي وهو يعرف كل شيء

فذكرت ابنة الدوق أن الكونتس أرتوف كانت تذكر الدوق دي مايلي بالخير أمام أبيها .

فقالت : اني أعلم يا سيدتي أن الدوق كان من أصحابك وكنت تحاولين مرات كثيرة أن تبرهني عن فضله أمام المرحوم أبي .

ــ اني لم أكن أبرهن إلا عن الحقيقة .

ــ أية حقيقة تعنين يا سيدتي ؟

ـ هي ان الدوق دي مايلي كان من أسرة سالاندريرا

ـ ان هذا ما كان يدعيه وليس هو من الحقيقة في شيء .

ـ بل هو الحقيقة بعينها فاصغي الي يا سيدتي كي أكشف لك النقاب عما تجهلين ان هـذا الكولونيل الروسي الذي هو من أسرة دي مايلي لا يزال حياً موجوداً في أودسا ، وكان لديه أوراق حقيقية لا ريب فيها تثبت ان الدوق دي مايلي من أسرة سالاندريرا .

ـ إذا كان ذلك أكيداً فلماذا لم يظهر هذه الأوراق ؟

ـ انه أرسلها إلى قريبة الدوق .

ـ وهي لم تصل اليه ؟

ـ كلا فإن الرسول الذي كان يحملها قتل في غابات فنسان .

ـ وسرقت منه الأوراق اليس كذلك ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ إن لهجتك يا سيدتي تدل على انك واثقة كل الوثوق من صدق هـذه الأقوال ولكني أؤكد أنهم خدعوك كما خدعوني .

ـ ومن تظنين انه خدعني ؟

ـ الدوق دي مايلي .

فهزت باكارا رأسها وقالت : كلا يا سيدتي بل إنهم خدعوك بشكل هائل ولا يزالون يخدعوك إلى الآن .

ـ أتظنين ان الأوراق كانت موجودة ؟

ـ بل أؤكد وهذا لا ريب فيه عندي .

ـ إذن فكيف اتفق ان الدوق دي مايلي قد خلا بي مرة واعترف لي ولا أنكر انه لم يعترف اعترافاً جلياً ولكنني علمت منه كل شيء .

ـ ماذا علمت يا سيدتي وبماذا اعترف لك ؟

ـ بأن الأوراق لا أثر لها .

– إني أعلم ان الدوق قد تمتم ببعض الكلمات حين اضطررته إلى الإجابة .
– كيف تعرفين ذلك وقد كنت وإياه دون ثالث بيننا ؟
– كلا يا سيدتي ، فقد كان أبوك في غرفة مجاورة براكا ويسمع كل ما تقولين
– غير أن الدوق كان يحسب أنه منفرد بي .
– إنك منخدعة أيضا يا سيدتي فقد وصل اليه كتاب منك في ذلك الصباح وكان في الكتاب أنه سيوجد في خلوتكما من يسمع حديثكما .
– كلا إن هذا محال لا صحة له في شيء
– إن كتابك لا يزال موجوداً .
– لا صحة لذلك فاني لم اكتب شيئاً من هذا .
– إن الكتاب عندي فادخلي معي يا سيدتي الى غرفتك .
– لماذا؟
– كي أريك الكتاب إذ لا يوجد نور في هذا المشرف .
– هلم بنا يا سيدتي وأظن أن واحدة منا قد فقدت صوابها .

ثم أخذتها بيدها وقالت لها . هلمي معي . إنما أرجوك أن تخفضي الصوت ما استطعت كي لا تستيقظ أمي ، إذ لا أحب أن تعلم شيئاً من هذه الأحاديث .

ودخلت الاثنتان إلى الغرفة ، فأنارت إبنة الدوق مصباحاً ، وعند ذلك أخرجت باكارا من صدرها ملفاً من الورق مربوطاً بخيط من الحرير .وقالت لها: خذي هذه هي رسائلك الى الدوق دي مليلي .

– رسائلي الى الدوق ؟ إذن فأنت التي فقدت صوابها يا سيدتي لأني لم أكتب الى الدوق غير رسالة واحدة في حياتي .

ثم نظرت نظرت الفاحص الى تلك الرسائل ، فما تبينت الخط حتى صاحت بجفلة منذعرة . إن الخط خطي لا سبيل إلى إنكاره ، ولكني لم

أراسل الدوق .

وقد أصابها في هذه الحادثة نفس ما أصاب باكارا منذ بضعة أشهر حين عرض عليها زوجها الكونت أرتوف تلك الكتابة التي كانت تشبه خطها أتم الشبه انها نفسها خدعت بها ولم تجد سبيلاً لإنكاره .

وعند ذلك أسرعت ابنة الدوق الى فض الرسائل ودنت من المصباح ، فلما تلتها صاحت قائلة : لا شك إني مجنونة او قد مثل لي حلم رهيب .

إنك غير حالمة يا سيدتي بل إنك تسمعين الحقيقة كما هي دون زيادة ولا نقصان .

-- إذن فقد كتبت أنا هذه الرسائل ؟

ــ كلا ولكنهم قلدوا خطك أتم تقليد .

فوضعت الفتاة يدها على جبينهـا وقالت : أوصلت جميع هذه الرسائل الى الدوق ؟

ــ كلها .

ــ وكان يظن انها مني ؟

ــ بل كان واثقاً يا سيدتي وقد نزل معه هذا الاعتقاد الى القبر .

ــ رباه إن هذا تزوير هائل !

ــ لا أنكر عليك ما تجدينه من فظاعة هذا التزوير ، فاقرأي يا سيدتي إلى النهاية .

فامتثلت الفتاة وجعلت تقرأ تلك الرسائل التي خطتها يد روكامبول وكان يرسلها بواسطة زامبا الى الدوق مايلي كما عرف القراء في رواية الغادة الأسبانية أي الجزء الثالث من هذه القصة .

فلما توغلت في قراءتها قالت : رباه ! ماذا أرى؟ لقد انجلت الغمامة عن عيني وفهمت الآن .

ــ تقولين انك فهمت ؟

- نعم فان الدوق كان يحسب أني أحبه .
- ذلك لا ريب فيه .
- وإنه كان يحسب أنه يوجد عدو له يحول دون زواجنا .
- كان يظن ان ذاك العدو هو أمك فإنه مات وهو يعتقد ان أمك كانت الحائل الوحيد دون زواجك به .
- ومن كان يحمل اليه تلك الرسائل ؟
- زامبا .
- تباً له من شقي خائن .
- ولكنه لم يكن غير آلة بيد سواه .
- اليس هو الذي كان يقلد خطي ؟
- كلا .
- من عسى أن يكون هذا المزور الجريء ؟
- سيقول لك زامبا عن اسمه .
- ولكن زامبا يقول انه هو الذي سم الدوق .
- هذا أكيد أيضاً ، غير أنه لم يكن غير آلة كما قلت لك . ويجب البحث عن الدافع له الى هذه الجناية الخفية .
فجعل العرق البارد ينصب من جبين ابنة الدوق لما تولاها من الذعر وقالت : رباه ! ما هذه الألغاز ألا تكشفين لي الحجاب عنها ؟
- لا أستطيع الآن وسأجلو لك كل شيء فيما بعد . وفي كل حال فلا بد من وجود زامبا لأنه هو وحده يستطيع أن يقول كل شيء .
- أيقول لي اسم الشخص الذي دفعه الى قتل الدوق دي مايلي ؟
- نعم ، أما هذا الشخص فهو كهل ذو لحيـــة شقراء وشعر أحمر ، وقد كان واقفاً على أسرار زامبـا ، وهو يستطيع في كل حين أن يرسله الى المشنقة .

– ألعل زامبا فعل ما فعله خوفاً منه ؟
– إنه ارتكب الجريمة لخوفه ولأمله بالمكافأة .
– ألا تقولين لي على الأقل السبب الذي قتل من أجله الدوق ؟
– إن الذي قتله كان يخشى أن يتزوج بك .
– إذن فان خصمه كان راغباً بزواجي ؟
– هي الحقيقة التي خرجت من فمك .
– إحذري يا سيدتي فقد قلت كلمة كبيرة لأنه لا يوجد غير اثنين طلبا الزواج بي .
– أعلم ذلك حق العلم .
– وان أحد الخطيبين هو الدون جوزيف .
– لقد مات قبل موت الدوق .
– وان الثاني يدعى ...
– إني لا أشكو أحداً .

فقالت الفتاة بكبرياء : إن الثاني يا حضرة الكونتس يدعى المركيز دي شمري وكلامك يدل ...

– قلت لك يا سيدتي إني لا أشكو أحداً ، وفوق ذلك فإن المركيز دي شمري لا يزال في عهد الشباب ، ولقد قلت لك ان الشخص الذي دفع زامبا الى قتل الدوق تجاوز حد الصبى ثم أخبرتك ان هذا الشخص أشقر اللحية أحمر الشعر وليس للمركيز شيء من هذه الأوصاف .

فتنهدت ابنة الدوق تنهد المنفرج ، لأن كلام باكارا الأخير نفى التهمة عن خطيبها المركيز ، وقالت لها . غير إني أرى أنه لا يزال يوجد من يحبني حباً خفياً ؟

– ربما .
– ومن هو هذا المحب الخفي ؟

– ألم تقرأي الدفتر الذي أرسلته اليك ؟
– قرأته كله .
– ولكنك لم تفهمي شيئاً ؟
– إن الذي أشكل علي فهمهُ في هذه الحكاية هو أني لم أعلم أية علاقة بيني وبين أشخاصها الذين لا أعرف منهم أحداً .
– ذلك لأن الحكاية لم تتم بعد .
– ماذا تعنين بذلك ؟
– أعني انها لا تزال في حاجة الى الخاتمة .
– وأية خاتمة تعنين فقد قرأت فيها ان السير فيليام شقيق الكونت أرمان دي كركاز قد مات .
– كلا فإنه لم يمت إلا منذ أربعة أشهر .
– مهما يكن من أمره فهو بعيد عن أوروبا .
– إنه عاد إلى باريس منذ عام .

وكانت باكارا قد مثلت أندريا في تلك الحكاية أفظع تمثيل بحيث لم تتمالك ابنة الدوق عن إظهار رعبها عندما سمعت باكارا تخبرها بعودته ، فلما رأت باكارا أنها ذعرت أسرعت إلى تطمينها فقالت لها : لا تخافي فقد مات موتاً حقيقياً منذ أربعة أشهر دون ان يسر قلبه بنجاح المكيدة الهائلة التي خطتها قريحته الجهنمية .
– ما هي هذه المكيدة ؟
– كان الغرض منها زواجك .

فصاحت الفتاة صيحة رعب منكرة وقالت : تزويجي أنا ... أكان يريد أن يتزوجني .
– كلا ، لم يكن يريد أن يجعلك زوجته ، بل كان يحاول أن يزوجك تلميذه

- ومن هو تلميذه هذا ؟

- إنه شاب شديد المكر يدعونه روكامبول .

- روكامبول ؟ أليس هو هذا اللص الذي كان يحاول إغراء الكونتس دي كركاز ؟

- هو بعينه .

- وهذا اللص كان يريد أن يتزوج بي ؟

- نعم يا سيدتي .

- رباه ! ماذا أسمع ؟

- إنه كان يريد أن يتزوج بك وقد ضمن له استاذه أندريا الفوز .

فجعلت ابنة الدوق تضطرب وتقول : ما هذه الجسارة النادرة ؟

- ولكن روكامبول كان ناكراً لجميل استاذه فانه قتل السير فيليام وخسر بموته كل أمل من الفوز .

ولما اتضح ذلك لابنة الدوق لبثت حيناً واجمة منصعقـــة بما سمعته من تلك الأخبار الهائلة وقد ثارت في هذا البدء عاصفـة كبريائها حين علمت أن لصاً سفاكاً مثل روكامبول تجاسر على الطمع بزواجها ، ثم تلا هذه العاصفة سكون حزن وبلاهة يصعب وصفها ، إلى أن ثابت من المؤثرات فنظرت إلى باكارا وقالت لها بكبرياء :

- إن جميع ما تقولينه لي يا سيدتي هائل وحشي ولا شك اني قد أصبت بعقلي فسمعت الحديث الى آخره ، بل لا شك اني قد أصبت بالبلاهة لما بدا علي من ظواهر تصديق الحديث .

- سيدتي ؟

- ولكني أفترض أن ما تقولينه أكيد وتفترض أيضاً انه اتفق وجود لص في باريس يدعى السير فيليام وشقي يدعى روكامبول وإن هذين الاثنين قد اتفقا وتجاسرا على تزويجي باحدهما

– هذه هي الحقيقة بعينها ولا ريب فيها .

– قلت لك اني أفترض ومع ذلك فلو سلمت بهذه الحقيقة وأتى روكامبول يخطبني .

– تريدين أن تقولي إنك ترفضينه .

فلم تتنازل ابنة الدوق الى إجابتها .

أما باكارا فإنها لم تتكدر لكبرياء الفتاة ، وما بدا عليها من مظاهر الاستهزاء والاستخفاف بل قالت لها : لقد سبق وعدك لي يا سيدتي أن تصغي لحديثي الى النهاية .

– وسأحافظ على هذا الوعد فقولي ما تشائين .

– انه منذ عهد بعيد يا سيدتي أي منذ ثلاثين عاماً حين عودة الملكية الى فرنسا قدم رجل الى باريس ودعى نفسه الكونت سانت هيلانة وقد عينه الملك كولونيلاً في الجيش ففتحت له قاعات باريس الكبرى أبوابها وكان الأعيان يستقبلونه باجلال يوافق مقامه .

فبينما كان ذاك الكولونيل عائداً يوماً من حفلة استعراض الجيش وهو في ملابسه الرسمية الباهرة اصطدم كتف بكتف شحاذ متسول كان واقفاً مع المتفرجين ، فمد هذا الشحاذ يده اليـــه يصافحه وناداه باسم بسيط خلو من كل لقب او رتبة ، فصده الكولونيل ودفعه باشمئزاز وانفة ، فارتفع صوت الشحاذ وكثر اللغط وكان بين الاثنين خصام شديد حكم فيه المجلس بعد بضعة أشهر .

– لقد عرفت هذه الحكاية ولكني لا أجد لها علاقة بما أنا فيه .

– ذلك لأنك لا تعلمين يا سيدتي ، أن أندريا قد هذب تلميذه روكامبول أتم تهذيب والبسه خير لباس يتمكن من أن يجعله زوجك .

فابتسمت الفتاة وقاطعتها فقالت : إن من كانت مثلي لا تنخدع بمن يقلد الأعيان تقليداً وهو ليس منهم .

فأجابتها باكارا بتهكم : أتحسبين يا سيدتي انك لا تنخدعين ؟

– بل أؤكد ، حتى ولو قدموا لي المسيو روكامبـول باسم جنرال ، فلا أنخدع به .

– ليكن ما تريدين . والآن فاسمحي لي قبل أن أندفع إلى الحد الذي رسمته لنفسي ، أن أكلمك عن رجل أظن انه استلفت بعض انتباهك في الليلة الماضية .

فصبغ الدم وجنتيها وقالت وهي ترتعش : العلك تريدين أن تحدثيني بشأن هذا الشاب الذي كان مرتدياً بملابس المجرمين ؟

– هو ما تقولين يا سيدتي .

فزادت دقـات قلبها وقالت العلك تريدين أن تقولي لي أيضـاً أن له علاقة بي .

– نعم يا سيدتي .

– كيف ذلك ؟

– ذلك ان الكونت سانت هيلانة الذي اختصم مع الشحاذ كان مجرماً سفاكاً فقتل الكونت الحقيقي وتسمى باسمه .

– وبعد ذلك ؟

– وأن روكامبول تلميذ أندريا قد اقتدى بذلك السفاك كي يكون له مقام في الهيئة يتمكن به من البلوغ إلى العائلات الكبرى .

– ماذا تقولين ؟

– أقول أن روكامبول كان يحسب أنه قتل ذلك الرجل الذي رأيتيه أمس في الحفلة الراقصة وكان بملابس المجرمين ولكن هذا المسكين لم يمت كما يظن بل احتجب عنه لوجوده في السجن .

– الرجل الذي رأيته أمس ؟

– هو بعينه ! ألم يقل لك في الليلة الماضية ان العاصفة أغرقت السفينة

التي كان فيها فالتجأ إلى جزيرة صغيرة وأغمي عليه فلم يجد نفسه إلا في سفينة عبيد أسوجية ؟

– نعم أخبرني كل هذا .

– ثم أنه أخبرك بكل ما جرى له بعد ذلك ، ولكنه لم يقل لك انه حين نجا وسبح إلى الجزيرة كان يصحبه رجل آخر نجا مثله بالسباحة .

– وماذا فعل به هذا الرجل ؟

– تركه ملقى في الحفرة وهو واثق من انه سيموت فيها إلى أن أنقذه رجال السفينة الأسوجية .

– وما كان غرض هذا الرجل ولماذا تخلى عنه بالحفرة ؟

فهزت باكارا كتفيها وأجابت : إن الرجل تخـــلى عنه لأنه كان يدعى روكامبول ، وقد تركه بعد ان استولى على أوراقه وجوازه وملابسه .

– لقد فهمت الآن أليس ان روكامبول قد تسمى باسم هذا المنكود حين كان يريد أن يخطبني ؟

– هو ما تقولين فإنه لم يتداخل مع العائلات إلا بعد تنكره بهذا الاسم وقد استولى بهذا التنكر الغريب على جميع ثروة ذلك المسكين وصار من الأغنياء الشرفاء حتى انه بات يؤمل ان يتزوج بك .

– إن ما أسمعه غريب يا سيدتي فإني عاشرت جميع الأعيان في باريس ، وعرفت معظم أسراتها ورأيت كثيرين من شبانها فلم أجد بينهم من تحمل هيئته وأحاديثه على شيء من الريب

– تذكري جيداً يا سيدتي .

– لماذا تريدين أن أجهد نفسي بالتذكر وأنت تستطيعين بكلمة واحدة إماطة الحجاب فتذكرين اسم المجرم الذي يدعى روكامبول وقد سرق اسم هذا البحار المنكود وثروته وألقابه .

وكانت باكارا تكلمها إلى ذلك العهد ببساطة ، كمن يقص حكايته في مجلس

ولكنها عندما رأت ان ابنة الدوق تلح عليها بمعرفة الاسم الذي ادعاه روكامبول ، ارتسمت على وجهها علائم الجد والكآبة وقالت : إنك يا سيدتي من أشرف العائلات الاسبانية ، وتجول في عروقك أطهر الدماء ، فأنت بمقام أسرتك العظيمة تشبهين تلك الشجرة الضخمة التي تهزها الرياح الشديدة ولكنها لا تقتلعها . ولهذا تجاسرت وأتيت اليك وأنا أعلم بأن الحقيقة سيكون وقعها شديداً هائلاً عليك وعزائي بابلاغك هذا الخطب الشديد انك ستكونين بعد ملافاته آمنة من كل طارىء .

فوقفت ابنة الدوق مضطربة مصفرة الوجه وقالت : أنا مهددة بهذا الخطر . رباه ! ماذا حدث وما عسى ان يكون أصابني ؟

– إني أتيت لإنقاذك أيتها الفتاة المنكودة .

– ماذا اسمع ... تكلمي أوضحي ما تقولين ، فإني لم أعد أطيق الصبر تكلمي . .

فترددت باكارا هنيهة ثم قالت إن الرجل الذي رأيتيه بملابس المجرمين في الحفلة الراقصة هذا الرجل الذي سرقوا اسمه ولقبه وثروته أتعلمين ماذا يدعى؟ إنه يدعى المركيز فريدريك البرت أوربه دي شمري وهو المركيز الحقيقي أما أنت فإنك ما أحببت إلا روكامبول !..

أما إبنة الدوق فانها لم تصح صيحة ولم تقل كلمة ولكنها تراجعت خطوتين إلى الوراء ثم انقلبت على ظهرها مغمياً عليها .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخلت منه الدوقة فلما رأت ابنتها دون حراك وباكارا بجانبها صاحت : أواه لقد قتلت ابنتي فاني سمعت كل شيء .

مر على هذا المشهد المتقدم بضع ثوان كانت المرأتان تخالها دهراً ، ولكنها بعد ان جعلت كل واحدة منهما تنظر الى الأخرى هنيهة ، وأسرعتا بعدها الى الفتاة المنطرحة أمامهما ، فحملتاها ووضعتاها على السرير الذي كان في الغرفة .

ثم دنت باكارا من جرس موضوع على المائدة وحاولت ان تقرعه كي تستدعي الخدم غير ان الدوقة منعتها وقالت لها : لا تفعلي فلا أحب ان يعلم الخدم شيئاً من هذا .

وأسرعت الى غرفة فأحضرت زجاجة رائحة منعشة وزجاجة خل فوضعت الرائحة قرب أنفها وجعلت تفرك صدغيها بالخل فلم يمر ربع ساعة حتى استفاقت من إغمائها وفتحت عينيها .

وقد نظرت أولاً الى أمها ثم الى باكارا وهي مندهشة لاتفاق وجودهما معاً ، ثم ضربت جبهتها بيدها بغتة وقالت بلهجة غريبة : لقد تذكرت أيتها الكونتس .

ولم تكد تتم كلامها حتى وثبت من سريرها ودنت من باكارا التي تراجعت خطوتين كي تدع الدوقة تدنو من ابنتها فقالت بسكينة تامة خشيت المرأتان ان تكون مقدمة الجنون . سيدتي انظري إلي جيداً ، فاني أدعى كونسبسيون دي سالاندريرا .

فعلمت أمها انه سيجري بين ابنتها وبين باكارا أمور هائلة غير أنها لم تجسر على المداخلة بل لبثت بعيدة عنها ساكتة تنظر الى ابنتها نظرات الخوف والاشفاق .

فقالت لها باكارا . إني أعلم يا سيدتي اسمك . وقد اضطرب صوتها لأنها أدركت صعوبة موقفها .

– إنك متى عرفت إسمي يا سيدتي تعرفين أيضاً اني اسبانية أي اني أعرف ان اكره وان احب إلى أبعد مدى الحب والكره . ولما كنت آخر من بقي من أسرة سالاندريرا فاني أشعر ان دماء آبائي تجتمع كلها في عروقي .

وبرقت عيناها على أثر كلامها ثم تابعت : إني قد أغمي علي لأول وهلة ولكني أذكر الآن كل ما تقدم حادثة إغمائي وإن جميع كلامك قد طبع في ذاكرتي بحروف دهرية لا تمحى .

وقد أرادت باكارا ان تجيبها غير انها قاطعتها باشارة ملئها الكبرياء وتابعت: إنك اخبرتني قبل إغمائي ان الرجل الذي أحببته وكاد يكون زوجي لم يكن المركيز دي شمري اليس كذلك ؟

فأحنت رأسها بكآبة إشارة الى الايجاب .

– وانت تقولين ان المركيز دي شمري الحقيقي هو في سجن قاديس .

– نعم يا سيدتي .

– وان الرجل الذي تسمى باسمه في باريس هو لص سفاك وقــد كتبت حكايته خاصة كي تطلعيني عليها .

– نعم وهذا اللص هو روكامبول .

– انظري يا سيدتي الى سريري ألا تجدين قربه صليباً ؟

– نعم ..

– إذن فاسمعي يمين اسبانية من اسرة سالاندريرا التي يتصل شرف نسبها منذ الف عام ، اني اقسم لك بهذا الصليب المقدس انه اذا كان ما تقولينــه اكيداً ، وكان هذا الرجل الذي أحببته اللص روكامبول فانه سيعاقب ، وان حي له يستحيل الى كره عجيب ينطبق على جسارته النادرة برفع انظاره الي ولمس يده ليدي فأعذبه عذاباً لا يخطر في بال احد من اهل هذا الجيل ولم يحدث مثله الا في القرون الوسطى المظلمة .

وكانت ابنة الدوق تتكلم بصوت منخفض وبلهجة شديدة تدل على مبلغ

انفما لحافات عينيها كانتا تتقدان وتنفذ منهما الأشعة كوميض البرق وقد اصفر جبينها وبدت بأعظم مظاهر الجلال والعظمة والكبرياء فكان يظهر ان دماء جميع اجدادها قد تسربت بجملتها الى عروقها

ثم توقفت هنيهة عن الكلام ونظرت الى امها فرأت عينيها تغروروقان بالدموع والى الكونتس ارتوف فرأتها مطرقة بنظرها الى الأرض تفكر بنكبتها فعادت الى الكلام ووجهته الى باكارا فقالت :

— واما اذا كنت كاذبة فيما تقولين او كنت منخدعة او كان جميع ما بدر منك زوراً وبهتاناً وكان هذا الرجل الذي احببته اهلاً لحبي فاني اقسم بشرف اجدادي اني لا اشكوك الى الحاكم انتقاماً منك بل اني انتقم لنفسي ثم اخذت بيدها خنجراً كان على الطاولة وتابعت : إذا كنت كاذبة فلا تموتين إلا من يدي بهذا الخنجر .

فرفعت باكارا رأسها واجابت ببرود : إعلمي يا سيدتي اني لم انهج هـذا النهج ولم اخبرك بهذا الخطر الماثل الذي كان ينذرك إلا وتوقعت ان اسمع منك ما سمعت ولو لم تكن لدي البراهين الكافية المسببة لما قلته لك لما تجاسرت على إبراز هذه الحقيقة لعلمي بمقدار تأثيرها عليك . اما وقد تحملت هذه النكبة التي لا يقوى عليها سواك بمثل ما بدا منك من الأنفة فلا اجد الآن ما يمنعني عن تتمة الحديث فاصغي إلي .

إنه منذ عامين توفيت المركيزة دي شمري في قصرهـــا في سانت جرمين وكانت آخر لفظة خرجت من فمها اسم ولدها .

وكان بالقرب من سريرها عند نزاعها فتاة وفتى وهما راكعان يبكيان فدخل رجل لاخلب له فأخذ الشاب بيده وطرده من المنزل وعاد الى الفتاة فقال لها : بلانش اني اخوك . ثم ركع امام سرير المركيزة وهي جثة باردة وجعل يبكي بكاء شديداً كأنما هو ابن المركيزة الحقيقي وقد فجع بفقدها .

وفي اليوم التالي تبارز مع ذلك الرجل انتقاماً لأمه فارتفع شأنه في العائلات وأيقن الناس انه المركيز دي شمري لا ريب فيه .

فقالت الفتاة الى أين تريدين البلوغ بحديثك وأنا أنتظر البراهين .

— سأظهر لك يا سيدتي إنما يجب قبل ذلك أن تعلمي كيف كنت وكيف كان مركزي حين كشفت سر هذا المنافق وعلمت أنه روكامبول يتنكر باسم المركيز .

— كلا اني أريد البرهان

. ما هذا الالحاح والتقاطع هوذا الأبواب أمامك فأقفليها إذا كنت تخشين أن أهرب ، فانك لتذرتيني بالقتل إذا كنت كاذبة » وأنا افتح صدري لخنجرك متى يئست من اقناعك غير أنه لا بد لك من الاصغاء الي .

فشعرت ابنة الدوق أنها مخطئة بالحاحها وقالت لها تكلمي يا سيدتي وها أنا مصغية اليك .

— ان ذلك اليوم الذي هتكت فيه أسرار ذلك الماكر كنت أرى فيه فتاتين أمامي ، إحداهما يا سيدتي أنت ، فقد كنت معرضة لخطر الزواج بهذا السافل ، ولكن الخطر كان يمكن ملافاته ، والثانية يا سيدتي هي تلك المرأة التي قضى عليها نكد الطالع أن تكون أقل حظاً منك فانها منذ عهد بعيد تنادي ذلك السفاك بأخيها » فتصافحه وتعانقه وتحبه كما تحب الأخت أخاها وهي لا تعلم أن يدها كانت تصافح تلك اليد الملطخة بدم أخيها الحقيقي .

— يا للهول .

— وقد علمت يا سيدتي انك شديدة صبورة فاذا أخبرتك بالحقيقة تستطيعين الصبر عليها خلافاً لبلانش دي اسمول فانها إذا علمتها مني تموت لا محالة .

— ماذا تعنين أيتها الكونتس ، العلك تريدين أن أتولى أنا اخبارها بالحقيقة ؟

— كلا .. فان السر سيبقى مكتوماً عنها ، أما البرهان الذي تطلبينه

بالحاح فهو الصورة التي تمثل المركيز الحقيقي ، فـــان الرجل المقيم الآن في السجن يشبهه شبهاً غريباً حين كان في عهد الطفولة ، ولما كنت قد رأيته أمس وعرفت هيئته فانك تعلمين انه هو المركيز الحقيقي حــين تنظرين إلى صورته وهو صغير .

ثم عرضت عليها الصورة فما لبثت ابنة الدوق ان تأملتهـا حتى صاحت صيحة دهش لأنها رأت ان الصورة تشبه السجين بالعينين والفم والابتسام وتلك الهيئة الدالة على التفكير وقالت كيف عثرت على هذه الصورة ؟

— ان زامبا سرقها .

— من اين ؟

— من قصر الأورانجري في التورين .

فذكرت ابنة الدوق للحال ذلك الكتاب الذي ورد اليها من روكامبول وما كتبه لها عن الصورة ، فدنت من باكارا فهزتها بعنف وقـالت : أعطني برهاناً واحداً يدل على أن الصورة هي صورة المركيز دي شمري وأنها أخذت من قصر الأورانجري أصدق كل شيء .

فوضعت باكارا أصبعها في آخر الصورة وقالت لها انك خبيرة يا سيدتي في فن التصوير فاقرئي هذه الكلمات المكتوبة ، المخطوطة بالدهان الأحمر تعلمي من ذلك اللون انها بعيدة العهد .

فقرأت ابنة الدوق تلك الكلمات وهي توقيع المصور واسم المركيز واسم القصر ، وفحصت ذلك الدهان فعلمت انه قديم منذ عشرين عاماً على الأقل وذكرت أن روكامبول كتب لها أن الصورة سرقت من قصر الأورانجري ، ورأت أن الرسم يشابه السجين أتم مشابهة فلم يبق لديها ريب بصدق أقـوال باكارا فمدت لها يدها تصافحها وقالت : أرجوك الصفح أيتها الكونتس فقد أسأت بك الظن .

ثم تلاشت قواها بعد ان ثبتت لديها تلك الحقيقة الهـــائلة فسقطت على

كرسي طويل وهي تقول : رباه ما أشهى الموت .

فأسرعت اليها باكارا والدوقة وجعلنا تعزيانها .

بعد ذلك بساعة كان الفجر قد بدأ ينبثق فبرحت باكارا القصر ونزلت من المشرف إلى السفينة فذهبت بها إلى الميناء .

وكان فرناند روشي ينتظرها فقال لها وهو منشغل البال :

ـ ما وراءك ؟

ـ لقد قضي الأمر ..

ـ أعلمت كل شيء ؟

ـ كما أعلم أنا وانت بحيث لم يعد يفوتها شيء ؟

ـ ألم تمت لذلك الخبر الشديد ؟

ـ لقد تركتها بين يدي والدتها وهي مصابة بحمى شديدة ولكنها باتت آمنة من كل خطر .

ـ أتحسبين انه لم يبق خوف عليها ؟

ـ هذا لا ريب فيه فان تنازع الحب والكره سينقذها ..

ـ ما تعنين ؟

ـ أريد أنها أحبت ذلك اللص السفاك روكامبول حباً شديداً ولا بد لذلك الحب ان يتحول إلى بغض أشد .

ـ هذا لا ريب فيه ، ولكن أي حب سيتنازع مع البغض ؟

فابتسمت باكارا وقالت : انها لا يمر بها اسبوع حتى تتولع بحب المركيز دي شمري الحقيقي .

فارتعش فرناند وقال : إذا حدث ذلك فما نصنع ؟

ـ كن مطمئناً فان لدي خطة لا استطيع اظهارها لك الآن .

ثم تأبطت ذراعه وقالت له . سر بي الآن إلى الفندق ثم اذهب إلى قومندان الميناء واسأل عن زامبا فاني انتظرته اكثر من ساعة فلم يحضر وقد بت منشغلة

البال في امره فاني لا أزال أخشى الخيانة .

وسار الاثنان فأوصلها فرناند إلى الفندق الذي كانت مقيمة فيه مع خادمتها والطبيب صموئيل في شارع معتزل بعيد عن الفندق الذي يقيم فيه فرناند وروكامبول .

ولما وصلت إلى باب الفندق رأت رجلاً مقيماً على بابه فاندهشت اندهاشاً عظيماً حين رأته ، لأنه كان زامبا .

٢١

ولنعد الآن إلى البارون بولاسكي ، أي روكامبول الذي تركناه مشهراً مسدسه على زامبا ، الذي كاد يجن من رعبه ، فانه لم ينس بعد هول هذا الرجل وسلطانه السابق عليه .

ولم يكن يخطر له في بال انه سيلقى هذا الداهية ، ولذلك أتى برسالة قومندان الميناء آمناً مطمئناً ، وهو موطد النفس بعد ايصال الرسالة على الذهاب الى باكارا التي كانت عازمة على ان تصحبه معها الى ابنة الدوق كي يخبرها بحقيقة امر روكامبول .

فلما رأى ان البارون الالماني لم يكن غير روكامبول ، وان هذا الشيطان المريد يشهر عليه المسدس علم انه لم يبق حائلاً بينه وبين الموت فتراجع الى الوراء ، والذعر ملء قلبه ، وقال له ببساطة الأطفال : العلك تريد قتلي مرة ثانية ؟

فضحك روكامبول ضحكاً عالياً وقال له : ان من لا ينجح في المرة الأولى فلا بد له من أن ينجح في الثانية غير اني لا أريد قتلك اليوم بل قد سررت جداً بلقياك .

وكان زامبا قد عادت اليه جرأته لما رآه من بشاشة روكامبول فقال له : ولكني انا لم اسر بهذا اللقاء .

فجلس روكامبول على كرسي وصوب المسدس الى زامبا وقال له : ان الأبالسة لم تنقذك من الموت في المرة الأولى الا خدمة لي لأنها علمت بـأني لا ازال محتاجاً اليك ..

– ربما تكون الأبالسة قـد اصابت غير اني اخشى ان ينطلق المسدس فتخسر انتفاعك بي .

– كلا .. فاصغي الي الآن .. اني قد تسرعت بارادة قتلك في ذلك القبو غير انك لو كنت في موقفي لفعلت فعلي دون شك فـاني سمعت حركة من خارج الغرفة فاضطررت إلى قتلك واقفال القبو .

– ليس هذا يا سيدي ، ولكنك كنت واثقاً من اني علمت اسمك الحقيقي ونحن في تلك الغرفة فلم تجد بداً من قتلي ..

فارتعش روكامبول وقال : كيف عرفت اسمي ؟

– لأن مدام فيبار دعتك امامي باسم روكامبول .

– انه اسم مختلق اريد به التنكر .

– ولكنه اسم مشهور كما يظهر ، كما اني اعلم ايضاً اسمك الآخر ..

– اي اسم تعني ؟

– الاسم الذي تسمى به امام العائلات .

فاصفر وجه روكامبول اصفراراً خفيفاً لم يخف عن زامبا مما زاد في جرئته فقال : ارجوك العفو يا سيدي فقد رأيت اني اسأت اليك بهذه الأخبار حتى بت اخشى ان ينطلق المسدس الذي بيدك .

– أهذا الذي يخيفك ؟

– لا أنكر عليك الحقيقة يا سيدي غير اني لا اخـاف على نفسي بل عليك ..

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك انه إذا خرجت الرصاصة من المسدس خرج معها دوي شديد فيسرع اليك رجال الفندق وينزعون عن وجهك هذه اللحية الحمراء ، وعن رأسك الشعر المستعار ، وعن خديك ذلك اللون الأصفر ، وعن جبينك تلك الغضون المصنوعة ، فتبرز للعيون شاباً من مشاهير باريس ، وعضواً في اعظم منتدياتها .

ـ اسكت ايها الوقح . .

ـ إذن فقد رجعت عن قتلي اليوم لأني عارف حقيقة امرك يا حضرة المركيز دي شمري ؟

ـ اتعلم اسمي الحقيقي ايضاً ؟

ـ اعلم اكثر من هذا فدع المسدس إذا اردت ان تعلم الحقيقة .

وقد تغير موقف اللصين بعد هذا الاقرار ، فبعد ان كان روكامبول صاحب السلطة والسيادة على زامبا ، اصبحت تلك السيادة لزامبا بعد ان برهن له انه يعرف اسراره .

فقال له روكامبول بصوت يتهدج من الاضطراب : اذن فأنت تعلم اسمي ؟

ـ بل اعلم ايضاً انك عازم على الاقتران بابنة الدوق سالاندريرا .

فصوب روكامبول مسدسه إلى زامبا وقال له : وبعد ذلك .

ـ انك تستطيع قتلي يا سيدي المركيز غير انك اذا علمت كل ما اعلمه ، وعلمت بأني قادر على نفعك لرجعت عن هذا القصد السيء .

ـ ليكن ما تريد فقد عفوت عنك فقل الان ما تعلم .

فابتسم زامبا ابتسام الساخر واجاب : انك كريم الأخلاق يا سيدي المركيز ولكني لا اريد ان ابيعك اسراري بحياتي بل بثروتك

فراع روكامبول ما رآه من سكينة زامبا واجابه : حسناً فسأعطيك من

هذه الثروة ما يكفيك .

- اني لا أقنع بالقليل

- سأعطيك ما تشاء بعد ان اتزوج بابنة الدوق .

فضحك زامبا بدوره ضحكة تقطع لها فؤاد روكامبول من الغيظ ثم اجابه لقد كان من حسن طالعك انك أتيت في هذا المساء .

- لماذا ؟

- لأنك لو أتيت في الغد لفات الأوان دون شك .

- كيف يفوت الأوان وماذا تعني ؟

- أعني انك لو لم تأت في هذا المساء لكانت علمت ابنة الدوق غداً كل شيء اي انهـــا علمت انك أنت روكامبول وإن المركيز دي شمري الحقيقي .. ثم توقف عن الكلام وتراجع خطوة إلى الوراء .

فقال له روكامبول : يا ويحك أتعرف هذا ايضاً ؟

- أعرف ان المركيز دي شمري في سجن قاديس .

فنظر اليه روكامبول نظرة من أصيب بالبله لما كان من شدة وقع هذا الكلام عليه غير ان زامبا لم يعد يحفل به فقال له . أترى كيف أصبحنـــا صديقين وكيف أصبحت في مأمن منك ؟

- قل ماذا تعلم ايضاً ..

- أجلس أمامي ولنتحدث فاني واثق من إننا سنتفق .

- وانا واثق كل الثقة .

- ان الذين يحترفون حرفتنا يتفاهمون بالاشارة ، فـإذا شئت أن نتفق فدع الآن مركيزيتك ودعني اكلمك بغير إضافة القاب السيادة التي لا فـائدة منها غير تطويل الجمل .

فأنّ روكامبول من غيظه وقال : تكلم كيف شئت : وقل ما تعلم .

- إذن فـــأعلم أنه يوجد امرأة تقتفي آثارك ، وقد عهدت الي أن

أبحث عنك .

– ما اسمها ؟

– الكونتس ارتوف .

– اني أعرف ذلك .

– وقد سرقوا صورة من قصرك في الارانجوي .

– من الذي سرقها ؟

– أنا .

– أنت ؟ وماذا صنعت بها .

– أعطيتها الكونتس أرتوف .

– تباً لك من خائن .

– كيف تعد ذلك خيانة ، فاني خدمتك فجازيتني بالقتل ، وخدمتها فجازتني خير جزاء وهي تعلم حقيقة أمري كما تعلمه أنت .

– وأين هي الآن هذه الكونتس ؟

– هنا في كاديس .

– يا للشقاء

– ومعها الصورة وهي ستعرضها على خطيبتك العزيزة ثم تقدم لها المركيز دي شمري أي المركيز الحقيقي وليس أنت .

– إذن لقد دنت ساعتي وخسرت كل شيء .

– إلا إذا تداخلت أنا في أمرك .

– كيف تتداخل في أمري وماذا تستطيع أن تفعل .

– اني أستطيع أن أزوجك ابنة الدوق وأعبث بباكارا وأغرق المركيز الحقيقي وأصيرك دوقاً من عظماء الاسبان إذا أردت .

وكان زامبا يتكلم بلهجة الواثق من الفوز فيما يقول فجعل روكامبول ينظر اليه وقد علق به كل رجائه .

ساد السكوت مدة بين هـذين اللصين غير ان عيونهما كانت تتكلم بأفصح لسان وقد خفض جانب روكامبول وذل بعد عزته وأطرق برأسه إطـراق المغلوب الخاسر ثم أيقن ان زامبا يصلح أن يكون شريكـه في آرائه فأعاد النظر اليه وسأله :

– إذن فأنت تريد المساومة ؟

– ربما .

– ما هي شروطك ؟

– إن شروطي مسهبة كثيرة التفاصيل أيها الصديق العزيز .

قال هذا وجلس على الكرسي الذي تركه روكامبول .

وكان روكامبول قد وضع مسدسه على الطاولة حين أيقن انه لا فائدة له من قتل زامبـا ، أو انذاره فمد زامبا يده بسكينة وأخذ المسدس .

فلما رآه روكامبول ذعر ذعراً شديداً وأسرع إلى زامبا كي يغتصب منه المسدس غير ان زامبا صوبه إلى رأسه وقال له :

– خير لك أن تبقى مكانك مطمئناً فـاني أعرف أن أدير المسدس كما تعرف أن تديره أنت ، ويكفي أقل كلمة منك لقتلك فقد ينطلق من يـدي إذا بدر أقل بادرة منك فلا يكون حظك غير الموت العاجل .

ولما رأى زامبا ان كلامه قد أثر على روكامبول أمره بالجلوس فامتثـل فقال له متهكماً :

– أي يا حضرة المركيز ... أكنت تعـاملني في باريس حين كنت صاحب السلطان المطلق خيراً مما أعاملك الآن ، بعـد أن خلعت عنك تلك السلطة ؟

– وبعد .. ماذا تريد ؟

- أريد أن أعرض عليك شروطي .

– وأنا مستعد لسماعها ..

– أولاً اني أريد أن اكون وكيل قصرك وأملاكك بعد أن تصير زوج ابنة الدوق سلاندريا كما كان اتفاقنا من قبل ..

– لقد قبلت ..

– ثم اني أرجو مولاي الدوق سالاندريا شمري أن يعقد معي اتفاقاً ..

– على أي شيء ؟

– لا تخف فسأملي عليك صورة الاتفاق ولكني لا بد لي قبل ذلك أن أشرح لك الحالة بتفاصيلها .

– تكلم .

– إن الكونتس أرقوف في قاديس .

– لقد قلت لي ذلك ..

– ولديهاصورة المركيز الحقيقي وهي عازمة على أن تعرضها على ابنة الدوق ثم تقدم لها المركيز .

فقال له روكامبول وقد تمكن منه الرعب : اسكت .

– كلا لا يجب الصمت يا سيدي ، فاني إذا لزمت الصمت فلا تعلم شيئاً ، اعلم الآن انه يوجد أمر لا ينبغي أن تنسى خطارته .

– ما هو ؟

– هو انه إذا اجتمعت الكونتس أرقوف بابنـــة الدوق تقضي باملاكك وتخسر كل شيء .

– ولكن باكارا ليس لديها برهان .

– ان لديها الصورة وفوق ذلك أخبرتها بكل شيء .

وكأن روكامبول قد نسي انه أصبح في قبضة زامبـا وقف وصاح به وهو يزبد من الغيظ : ويحك أيها الشقي الخائن كيف اطلعتها على كل شيء .

غير ان زامبا لم يحفل بغضبه فاكتفى بتصويب المسدس اليه وقال له بملء السكينة : اني لم اكتف بأني حكيت لها كل شيء بالتفصيل منذ موت الدون جوزيف إلى موت الدوق دي مايلي بل وعدتها أن أبوح بكل شيء أيضاً إلى ابنة الدوق سالاندريرا وان أعطيها تلك الرسائل التي كنتم سيادتكم توقعون عليها باسمها بعد تزوير خطها وكنت أنا احملها إلى الدوق دي مايلي فأخبره انها من ابنة الدوق .

- كيف وصلت اليك هذه الرسائل .

— انها لم تصل إلي ولكني أنا وصلت اليها وذلك اني سرقتها من خزانة الدوق المرحوم بعد وفاته .

- وسأراها ابنة الدوق ؟

- لا يمكن أن تراها إذا تم اتفاقنا واذا لم يحدث بيننا مصاعب في هذا الاتفاق فاني أخدع الكونتس أرتوف وأحضر لك صورة المركيز الحقيقي فتتلفها ثم تفتك بهذا المركيز المسجون في سجن قاديس فتلبث ابنةالدوق مقيمة على هواك وتقترن بها بعد أسبوعين .

فارتعش فؤاد روكامبول وبرقت عيناه بأشعة الأمل فقال له : قل إذن ما هذا الاتفاق الذي تريد أن نتعاقد عليه ؟

— انه لا يزيد عن أربعة سطور .

- وما هو ؟

— اجلس على هذا الكرسي أمام مائدة الكتابة فاملي عليك ما يجب ان تكتبه .

وكان زامبا يلقي اليه هذه الأوامر وهو يلعب بالمسدس ارهاباً لروكامبول وتقليداً له فيما كان يفعله من قبل فعلم روكامبول انه بات بجملته في قبضة هذا الرجل يعبث به كما يريد فلم يسعه إلا الامتثال وجلس على مائدة الكتابة ثم أخذ القلم بيده وجعل ينتظر ، فأملى عليه زامبا ما يأتي :

في اليوم الواقع في ... كنت في قاديس في فندق السحرة وحدي مع زامبا خادم غرفة الدوق دي مايلي سابقاً وخادم غرفة السنيور بادرو قومندان ميناء قاديس الآن فصرحت لزامبا المتقدم ذكره بما يأتي :

« اني لست المركيز البرت فردريك أونوريه دي شمري كما يظن النعاس بل أني أدعى روكامبول ، وقد سرقت أوراق المركـــيز دي شمري الحقيقي » .

وهنا توقف زامبا عن الاملاء لأن روكامبول توقف بعد أن كسر القلم مغضباً وقال : اذا كان يخطر في بالك أني أعترف كتابة مثل هذا الاعتراف فلا شك انك أصبحت من المجانين .

– ربما كان ذلك غير ان امضاءك على ما كتبته الآن لا بد منه .

– لا أمضي ولو فقدت عيني .

– إذن فانك لا تتزوج ابنة الدوق وتذهب إلى سجن قاديس موقتاً إلى أن ترسل إلى سجون فرنسا .

فاهتز روكامبول اهتزازاً عصبياً وأحمرت حدقتاه من الغيظ وأوشك ان يبطش بزامبـا ولكنه تراجع عن هذا القصد لخوفه من المسدس ولحذره من عاقبة الطيش .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين اللذين بات أحدهما محكوماً من الآخر بعد ان كان الحاكم المطلق عليه ، ثم ضرب روكامبول الأرض برجله وقال : إذن فأنت تريد اعدامي أيها الشقي ؟

فضحك زامبا ضحك التهكم واجاب : اية فائدة لي من اعدامك فلو كنت أريد ذلك لما احتجت إلى ان استكتبك هذه السطور ، بل كنت أطلق عليك المسدس وأبلغ هذا المراد ، غير انه لا فائدة لي من قتلك ، ومتى أخبرتك بالسبب الذي دفعني إلى حملك على كتابة هذا التقرير تذعن لي وتنقطع عن المقاومة .

فنظر اليه روكامبول نظراته السابقة كأنه يأمره بالايضاح .

فقال زامبا : اني خدمتك بضعة اشهر باكثر مما كنت تطمع به من الاخلاص فاذا كنت أخلصت لك لخوفي منك فقد كان معظم إخلاصي لما وعدتني به من الوعود الصالحة .

— ولا أزال مستعداً للوفاء بهذه الوعود .

— انك أكدت لي مثل هذا التأكيد قبل ان تلقيني في القبو وتطعنني تلك الطعنة النجلاء .

— هذا اكيد وأنا اقر بخطئي .

— اما انا فقد استكتبتك هذه السطور لأني اخاف ان يحلو لك هذا الخطأ مرة ثانية فتعود اليه .

— وماذا تريد ان تصنع بهذه السطور ؟

— اني اضعها في غلاف واختمه بالشمع ثم اذهب به إلى احد رجال القضاء

فادفعه اليه واقول له : هذه وصيتي قد اودعتها هذا الغلاف وسأزورك في كل شهر ، فاذا مر شهر ولم ترني فافترض اني مت وافتح الغلاف فتجد الوصية افهمت الان يا حضرة المركيز ؟

فهز روكامبول رأسه إشارة إلى المصادقة وهو مشتت البال .

فقال زامبا : إن هذه السطور ستضمن لي طول البقاء يا سيدي روكامبول ، اليس كذلك ؟. كفاك ذهولاً .. تشجع ووقع عليها فتتزوج ابنة الدوق .

غير ان روكامبول بالرغم عن الاسم الذي كان يجـذب فؤاده بقي يتردد وهو ينظر محدقاً الى زامبا كأنه يريد ان يخترق حجاب نفسه ويعلم مـــا في اعماقها من الاسرار ثم سأله :

– اهذا كل ما تطلبه ..

– نعم .. وليس لي مأرب آخر .

– اصحيح ما تقول ؟

– اني اعجب كيف ترتاب بصحة قولي واية فائدة لي من خدمة المركيز الحقيقي العله يعينني وكيلاً لأملاك سالاندريرا ؟

– اذا كان حقاً ما تقول فانك لا ترفض ان تكتب بضعة سطور كالسطور التي كتبتها انا فخذ القلم كي املي عليك ..

ثم املى عليه ما يأتي ..

« إنهم يدعونني زامبا ولكن اسمي الحقيقي هو « جان الكانشـــا » وانا بورتغالي وقد حكم علي بالاعدام لارتكابي جريمة القتل في . الخ »

فقال له زامبا : إذا كان هذا كل ما تبغيه فهو سهل ميسور .

ثم كتب جميع ما املاه عليه بوضوح وجاء ووقع على مـا كتبه باسمـه الحقيقي اي جان الكانشا .

وعندها مد روكامبول يده يريد اخذ الورقة فأسرع زامبا إلى تصويب المسدس وقال له : اني لا اسلمك الورقة الا متى كتبت انت ايضاً ما امليته

عليك ووقعت عليها باسمك الصحيح فنتبادل الورقتين .

- ليكن ما تريد .

ثم اخذ القلم فوقع على السطور التي كان زامبا املاها عليه من قبل واخذ كل منهما ورقة الاخر فوضعها بجيبه .

وبعد ذلك نهض زامبا وقال : اني ذاهب الان .

- إلى اين ؟

- للاهتمام بأشغالك فانك ستنال الصورة غداً .

- قبل ان تراها ابنة الدوق ؟

- دون شك .

- وسجين قاديس ؟

- نقتله ..

- متى ؟

- غداً مساء . غير اني ارجوك ان تجيبني إلى سؤال وهو انك اتيت الى قاديس كي تتزوج فإذا كان هذا قصدك فلماذا اتيت متنكراً باسم البارون بولاسكي ؟

- ذلك لأني اردت ان ارى المركيز .

- المركيز الحقيقي .

- نعم ..

- اذن كنت عارفاً بأمره من قبل .

- بجميع تفاصيله .

- ان تنكرك لا يفيدك بشيء وكان من حسن حظك انك لقيتني فلا ينفعك غير خدمتي في هذه المهمة ، والان فاقراء هذا الكتاب الذي جئتك به من عند القومندان فقد شغلت عنه بي .

ففض روكامبول الكتاب وقرأه ، فلما أتم تلاوته قال له زامبا : لقد فاتني أن أقول ان سيدي القومندان يدعوك غداً إلى العشاء وستجد عنده دون شك المركيز دي شمري .

فانتهره روكامبول وأجاب:أسكت ايها الوقح أيوجد غيري من يسمى باسم المركيز دي شمري ؟

– لم يحن الوقت بعد إنما غداً ترتاح منه الراحة الأخيرة . ثم وضع المسدس في جيبه .

– لماذا أخذت المسدس ؟

– لأني أحتاج اليه وسأرده اليك في الغد .

ثم ودعه وانصرف دون ان يزيد كلمة على ما قال فلما انتهى الى الشارع قال في نفسه . إن الكونتس أرتوف تنتظرني منذ ساعة في الميناء وهي لا بد أن تكون اتهمتني بالخيانة لتأخري عن موافاتها .

وعندما لفظ لفظة الخيانة توقف وجعل يقول في نفسه . إن الانتقام مسرة الآلهة كما يقال ، وأنا أراه مسرة الانسان أيضاً فإني عندما يخطر لي خاطر الانتقام من روكامبول ، الذي أراد قتلي ، أشعر بارتياح عظيم ، ولكن العاقل من يرجو الفائدة بالانتقام . وأية فائدة لي إذا خنت روكامبول ؟

ولا تزال الوسائط ميسورة لجعله دوقاً اسبانياً وتزويجه بابنة الدوق الاسباني ، فاذا فعلت ذلك فاني أنال منه ثروة أصبح بعدها من الأغنياء وأكون في مأمن من غدره بفضل هذا الاقرار الذي استكتبته إياه ، وكنت قبل خروجي من غرفته أهزأ به وأضمر له كل شر . أما الآن فلا بد لي من الانتباه بينه وبين أعدائه وبين انتقامي وفائدتي . فماذا أصنع ؟ وإلى أي الأمرين أميل ؟

اني إذا أنقذت روكامبول من موقفه الشديد أكون خادعاً لنفسي خادماً لرجل

لا أرجو له غير الشر مخالفاً لعواطف انتقامي .

غير أني إذا أنقذته أصبح من الأغنياء ولا أتوقع بعد مثل تلك الفرصة بعد بلوغي حد الشيب اذن فإن إنقاذه أفضل لي من إعدامه .

ولأبحث الآن لأرى إذا كان إنقاذه ممكناً ، فان ابنة الدوق خطيبته لا تعلم إلى الآن شيئاً من حقيقة أمره . فاني قد اتفقت مع باكارا على أن لا تعلم هذه الحقيقة إلا مني . وهذه الكونتس تنتظرني الآن في الميناء كي نذهب معاً الى ابنة الدوق ، فاذا ذهبت وإياها في قارب صغير ، فلا أسهل علي من إغراقها في الطريق ، وهو خير ما يجب ان أعول عليه .

ثم ابتسم ابتسام الرضى لرجائه بالفوز في هذه الخطة الهائلة واندفع يسرع الخطى إلى الميناء كي يلتقي بباكارا حيث كانت تنتظره .

* * *

وكانت الساعة تدق عندما وصل الى الميناء مؤذنة بانتصاف الليل فلم يجد باكارا ولكنه سمع أصوات المجاذيف ورأى خيال قارب صغير يبتعد فخشي ان تكون باكارا سبقته .

ورأى قارباً صغيراً راسياً في الميناء وفيه بحار يدخن بغليونه وهو يتأمل النجوم فدنا وسأله : أتعلم أيها الصديق من الذي يسير الى الصيد عند انتصاف الليل في هذا القارب ؟

وأشار الى الجهة التي سمع منها صوت المجازيف .

فأجابه النوتي : ليس الذي ذهب فيه بصياد .

— من هو إذن ؟

— سيدة تريد التنزه مغتنمة سكون البحر .

فامتقع وجه زامبا وقال في نفسه : لقد فسد كل حساب ، فإن هذه

المرأة هي الكونتس أرتوف ، وهي ذاهبة دون شك الى ابنة الدوق لتريها الصورة وتطلعها على كل شيء . إذن فان روكامبول سيء الطالع ولا بد لي من التخلي عنه .

ثم ترك الصياد وجعل يطوف في شوارع المدينة الى الساعة الثالثة وتوجه الى الفندق المقيمة فيه باكارا وجلس على بابه ينتظر عودتها .

فلما عادت باكارا عند بزوغ الفجر رأته جالساً على باب الفندق كما تقدم ، فأسرع زامبا اليها وحياها بملء الاحترام . فقالت لقد دعوتني إلى انتظارك ساعة فما معنى هذا الابطاء ؟

فأشار زامبا بيده إلى فرناند وأجاب : متى خلوت بك يا سيدتي أخبرتك بكل شيء .

– تكلم أمامه

– أرجوك المعذرة يا سيدتي وأسأل سيدي الصفح فان ما أريد ان أقوله لك سر عظيم لا يقال أمام اثنين .

– لا بأس ، إتبعني .

ثم ودعت فرناند وصعدت إلى الغرفة المعدة لها في الفندق فتبعها زامبا حتى اذا خلا بها المكان دار بينهما الحديث الآتي ، فقالت باكارا :

– إني أرى على وجهك ملامح الجد والاهتمام .

– ذلك لأن الأمر خطير .

– لماذا ؟

– لأنه يتعلق بروكامبول .

فارتعشت باكارا وقالت : ما وراءك من أخباره ؟

– كل أمر خطير فقد لقيته الليلة .

– ماذا تقول القيت روكامبول العله هنا ؟

– نعم فهو في قاديس .

– متى أتى اليها ؟
– منذ بضع ساعات وقد جاءها متنكراً باسم البارون بولاسكي .
– لا شك انك مجنون .
– كلا يا سيدتي بل ان ما قلته هو الحقيقة .
– أرأيته بعينك ؟
– بل كلمته ايضاً وهو الذي دعاني الى التأخر عن موافاتك في الوقت المعين فقد كنت عنده .
– ولكن أية غاية له بالقدوم إلى قاديس متنكراً ؟
– إنه أتى لتغيير الهواء فيها أولاً ثم لقتل المركيز دي شمري .
– كيف عرف ان المركيز حي ؟
– إنه يعرف كل شيء فقد عرف نصف هذه الخفايا في باريس .
– والنصف الآخر ؟
– عرفه مني .
– إذن فلم يعد بد له من الفرار وسينجو من قبضتنا .
– كلا ، فانه ينام الآن آمناً مطمئناً ، وهو يحلم دون شك بزواجه بابنة الدوق .
– قل إذن ما حدث بالتفصيل .
– ليكن ما تريدين يا سيدتي .
ثم أخبرها بجميع ما كان بينه وبين روكامبول وأراها الورقة التي خط عليها اعترافه بخطه وتوقيعه باسمه الصحيح ثم قال لها : أظن اننا نستطيع بهذا الاقرار ان نفعل به ما نشاء .
– نعم فلا بد من إرساله الى السجن المؤبد او الى ساحة الاعدام .
وأقامت باكارا مع زامبا نحو ساعة يتحادثان . فلم يعد يعلم أحد مـــا جرى بينهما . ولكنه عندما خرج زامبا ذهب الى فنـدق السحرة حيث

يقيم روكامبول ، ودخل اليه فقال له : هذه هي صورة المركيز التي وعدتك باحضارها .

ثم فتحها وأراه البقعة الظاهرة بها .

فأخذها روكامبول بيد مرتجفة وقال : ما أصنع بها ؟

قال زامبا . أحرقها ، فانه إذا ذهبت آثارها زالت الموانع بينك وبين ابنة الدوق .

وكان زامبا يقول هذا القول بلهجة المتهكم غير ان روكامبول لم ينتبه اليه لانشغاله بالصورة ولأن السير فيليام قد مات .

- ٢٣ -

بعد يومين مرا على اجتماع زامبا وروكامبول كانت مركبة خارجة في الليل من قاديس متوجهه الى قصر أسقف غرناطة الذي تقيم فيه الدوقة سالاندريرا وابنتها .

وكان يوجد في هذه المركبة رجل وامرأة . أما الرجل فكان فرناند روشي ، وأما المرأة فكانت باكارا ، ولكنها متنكرة بملابس الرجال كما أتت من باريس .

فكان فرناند يقول لها : ألم يحن الوقت بعد لاطلاعي على هذه الأسرار الغامضة ؟

فابتسمت له باكارا وقالت : نعم فسأوقفك على بعضها فسلني أجبك ، أو أنا ابدأ بسؤالك فانك قد اشكل عليك دون شك كيف اني أريد أن تحب ابنة الدوق المركيز دي شمري الحقيقي ؟

— نعم.ولكنك قلت لي انك لا تريدين أن تسوقي روكامبول إلى المحاكمة .

لأن مدام دي اسمول تعتقد انه اخوها وقد أحبته حباً أخوياً .

— هذا اكيد .

— غير ان الذي لم أفهمه هو انه لو تحققت امانيك واحبت ابنة الدوق المركيز الحقيقي ، ثم تزوجت به بدلاً من هذا الجسور روكامبول ، الا تخشى ابنة الدوق ان تظهر الحقيقة في مستقبل الأيام ؟

— لا أظن .

— ألا تعلم الفيكونتس دي اسمول هذه الحقيقة ؟

— كلا !.

— غير اني لا أرى ما ترينه أو اني لا أفهم ما تقصدين .

— إذن فاصغ الي فاني سأطلعك على خطتي بتفاصيلها ، فاعلم ان المركيز دي شمري قد أثر بلطفه وكآبته تأثيراً شديداً على ابنة الدوق التي لم تكترث له في بدء الأمر لتعلقها بحب روكامبول فلم تفهم سر ذلك التأثير ، ولكنها ستفهمه الآن

— وبعد ذلك ؟

— سأبذل الجهد بادخال الحب إلى هذين القلبين ، فاذا نجحت فيما أقصده وأنا واثقة من النجاح فلا أسهل من أن يحل المركيز في محل المركيز الكاذب

— أتظنين ؟

— بل أوكد فانهم ينتظرون في باريس الذي يحسبون انه المركيز الحقيقي وكل شيء مهيأ لعقد الزواج الذي سيكون قراناً بسيطاً في كنيسة قصر سالاندريرا ، لا يحضره أحد بسبب الحداد وبعد عقد القران يسافر العروسان إلى مدريد ، وهناك يأخذ المركيز أوراق تعيينه من جلالة الملك سفيراً لدى البرازيل ويسافر مع زوجته في اليوم نفسه .

ـ إلى البرازيل ؟

ـ دون شك .

ـ لم أفهم بعد ..

ـ هب ان هذه الاستحالة قد تمت وان المركيز دي شمري نال ما كان يطمع بنيله روكامبول فتزوج ابنة الدوق وعين سفيراً في البرازيل فانه سيقيم في تلك البلاد عشرة أعوام .

ـ لقد بدأت افهم .

ـ وان روكامبول يشبه المركيز بقوامه أتم الشبه ، ويشبه ذلك اللص في ملامحه بعض الشبه ، فاذا مضت عشرة أعوام فان تلك الملامح تتغير ، فاذا رأته اخته الفيكونتس دي أسمول بعد ذلك العهد الطويل في باريس فلا تشك بانها ترى أخاها .

ـ لقد فهمت الآن كل شيء غير ان الذي أراه انه يوجد كثير من المصاعب في سبيل هذه الأمنية .

ـ لا شك اننا سنلقى مصاعب لا تقاوم غير اننا نسعى من وراء هـذا القصد ويد الله من ورائنا .

ـ وبعد ذلك لماذا تصنعين بهذا اللص روكامبول ؟

فبرقت عيناها وقالت : سأؤدب به رجال الشر وسترى .

ـ بقي امر لا يزال مشكلاً علي فهمه وهو انه ما زال روكامبول موجوداً هنا متنكر فلماذا لا تقبضين عليه .

ـ اني سأكتم عنك هذا السر ثلاثة أيام ثم اخبرك بكل شيء .

وعند ذلك وصلت المركبة إلى قصر الأسقف فـنزلت باكارا و فرناند ودخلا ، فكان أول من قابلها الدوقة ، فانهـا حين رأت باكارا أسرعت اليها وصافحتها بلهف ، كأنها كانت تنتظر قدومها ، فسألتهـا باكارا عن ابنتها ، فأخبرتها انها بكت بكاءاً شديداً غير انهـا عادت بعد ذاك البكاء

إلى سكينتها ثم قالت لها :

– انها سألت عنك مرات كثيرة وهي ترغب ان تراك .

– اين هي الآن ؟

– انها في غرفتها منذ الصباح جالسة أمام نافذة مشرفة على البحر وهي تنظر اليه بشرود بت أخاف عاقبته .

– اني لا أرى ما ترين يا سيدتي بل اني بت أرجو كل خير .

– عسى ان يحقق الله رجاءك .

– أتأذنين لي أن أدخل اليها وحدي ؟

– كما تشائين .

وتأبط فرناند ذراع الدوقة وسار بها إلى قاعة الاستقبـــال بينا كانت باكارا ذاهبة إلى غرفة ابنة الدوق ، فلما بلغت اليها قرعت بابها ثلاث مرات فلم يجبها أحد ، ففتحت باكارا الباب ودخلت فرأت ابنة الدوق مستندة على النافذة تنظر إلى البحر كما قالت أمها وهي غارقة ببحار الهواجس .

فأغلقت باكارا الباب وتقدمت اليها حتى دنت منهـــا وهي لا تنتبه حتى لمستها بكفها ، فانتبهت من ذهولها والتفتت اليها فقالت باضطراب أهذا أنت يا سيدتي الكونتس ؟

فضمتها باكارا اليها وعانقتها بحنو شديد وهي تقول : مسكينة فلا بد أن تكوني قد تألمت كثيراً

وكأن تلك الكلمات قد أثارت كبرياء الفتـــاة فنظرت إلى باكارا نظرة انكار وقالت : أخطـــأت يا سيدتي الكونتس ، فاني لم أعد أفتكر إلا بالانتقام .

– سننتقم لك في وقت قريب .

– بل أريد أن يكون الانتقام اليوم ، إذ لا صبر لي على الانتظار غير

اني أشعر اني أحتقر ذاك الشقي احتقاراً شديداً حتى انني اخشى أن ارجع عن انتقامي منه لأنه غير أهل لانتقامي .

- سيدتي انه غير أهل لانتقامك ، ولكنك إذا كنت تستنكفين الانتقام من ذاك اللص ، فانه يحق لك معاقبته ، والمعاقبة غير الانتقام ، حتى انني أتجاسر وأقول انه لا يحق لك أن تصفحي عنه ، فان ذلك الرجل قتل وارتكب جميع الموبقات ، أفلا يجب أن يسحق كما تسحق الحية القاتلة ؟

- إذن اكشفي أمره وسلميه الشرع

- كلا .. فلم يحن الوقت بعد .

- ماذا تريدين أن تصنعي قبل تسليمه ؟

- يجب أن نفتكر قبل عقاب هذا اللص

- لقد علمت ما تقصدين فانني كنت افتكر طول ليلي هذا الفكر إذ يجب قبل كل شيء أن يخرج المركيز دي . شمري .. من السجن .

- نعم .. لقد أصبت .

- سأكتب للملكة وإذا دعت الأحوال ذهبت اليها .

فأوقفتها باكارا عن الحديث وقالت : انني أريد قبل أن اسدي اليك نصيحة ان التمس منك امراً

- تفضلي يا سيدتي وسلي ما تشائين .

- أسألك ان تأذني للمركيز دي شمري بمقابلة .

فاصفر وجه ابنة الدوق وكادت تسقط على الأرض ، غير ان باكارا أسرعت اليها فأخذتها بيدها وقالت لها : هلم بنا إلى الرواق المشرف على البحر .

وكان القمر ساطعاً ترقص أشعته على الأمواج ، وتظهر القوارب فيه كما تظهر في ضوء النهار ، فأشارت باكارا بيدها إلى جهة الميناء وقالت لها :

أنظري ألا ترين قارباً صغيراً يدنو من القصر ، الا ترين فيه رجلين ؟ ان أحدهما هو المركيز .

فاتكأت ابنة الدوق على كتف باكارا وجعل فؤادها يخفق خفوقاً شديداً فلم تعد تشكك باكارا انها تهواه .

وجعلت كلتاهما تنظر إلى ذلك القارب يدنو من القصر وكل منهما تفكر في شأن ، إلى أن دنا منهما فرأت ابنة الدوق فيه رجلين احدهما كان منحنياً على المجاذيف ، والآخر واقفاً في مؤخر القارب ، فما أوشكت ان ترى ذلك الرجل الواقف حتى توردت وجنتاها لما تولاها من التأثير .

ثم وصل القارب إلى الشاطىء فألقى المرسى ونزل منه ذلك الشاب الذي كان واقفاً فيه إلى الرصيف وجعل يصعد السلم المؤدي إلى الرواق .

وكان هذا الرجل المركيز دي شمري الحقيقي ، غير انـه لم يكن بملابس الجرمين كما رأته ابنة الدوق في الحفلة الراقصة بل كان مرتدياً بملابس ضابط في البحرية فزادت تلك الملابس ثقة ابنة الدوق به حتى يبق لديها أقل شك فيـــه وجعلت تسائل نفسها بعد ان رأته في تلك الملابس كيف انها فضلت تلميذ السير فيليام على هذا الشاب الجميل النبيل .

على أن المركيز دي شمري لم يكن أقل اضطراباً منها ولذلك حين سلم عليها مقبلاً يدها لم يكن يعرف كيف يكلمها لتلعثم لسانه واضطرابه .

أما ابنة الدوق فانها ابتسمت له ألطف ابتسام ثم دنت من باكارا وقالت لها همساً : أرجوك يا سيدتي ان تذهبي إلى القاعة حيث تجدين أمي وان تدعيني هنيهة مع المركيز .

فضغطت باكارا على يدها اشارة إلى انها عالمة بما سيجري بينهما وخرجت دون أن تجيب بكلمة .

فلما خلا المكان بالمركيز وابنة الدوق ولم يكن يحيط بهما غير سكون الليل

الهادىء، وتحت أقدامها مياه البحر وفوق رأسيهما تلك القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم جعل كل منهما ينظر إلى الآخر بضع دقائق فلا هو يجسر على أن يسأل كيف أنها طلبت أن تنفرد به ولا هي تجسر على مفاتحته بالحديث إلى أن تغلبت على نفسها ونظرت اليه نظرة الحزين المكتئب وقالت له : لقد عرفت الآن يا سيدي اسمك وتاريخك وعلمت انهم سرقوا أوراقك كما انك قد علمت انت أيضاً أن الذي تجاسر على سرقتها . .

فقاطعها المركيز وقال لها : اني أعلم يا سيدتي انك من أشرف النساء وأسوأهن حظاً

— كلا يا سيدي اني لا أريد ان اكلمك عن نفسي بل عن سواي فان رجلاً لصاً سفاكاً تنكر باسم رجل شريف وتعرض لي وقد تجاسر ذاك الشقي أن يرفع نظره إلي فخدعت باسمه الذي اختلسه حتى أحسب انني أحببته وأنا مستعدة ان أحمل كل عقاب وان أسمع الناس يقولون من حولي أن ابنة الدوقسا الاندريرا أوشكت ان تتزوج برجل سفاك . غير انه يا سيدي يوجد بالقرب مني ومنك سيدتان شريفتان قد تتحملان مثل عقابي وهما امي واختك

— لقد فهمت يا سيدتي ما تريدين فاني اذا أظهرت نفسي ظهر مكر ذلك السفاك فكانت تلك الفضيحة داعية إلى قتل امك وقتل اختي ومعاذ الله أن أدعهما يتحملان أقل سوء من أجلي ، فأجلي يا سيدتي زواجك بهذا الشقي إلى أجل غير محدود وأنا أتنازل عن اسمي وعن ثروتي ثم أقتل ذاك الرجل فتتظاهرين أنت بالبكاء على خطيبك وتبكي اختي ذلك الذي كانت تحسبه أخاها فيسلم شرفنا جميعنا من الأذى ولا يقول أحد ان لصاً أثيماً تجاسر على أن يسرق اسمي وان يلمس يد أشرف فتاة واني اكتفي أن تنقذيني من السجن فلعلي أرى ولو مرة في حياتي تلك الأخت العزيزة .

وكان المركيز يتكلم بلهجة المكتئب وقد هاجت عواطف حنوه فسقطت

دمعة من عينه على خده ثم انسكبت على يد ابنـــة الدوق التي كانت بين يديه فأثرت بها تأثيراً شديداً وقالت له : لقد كنت يا سيدي منخدعــة ولكن بين جنبي قلباً نبيلاً لا يعرف البهتان فأنا أنفق حياتي كلها على قدمي ذلك الرجل الذي يمد إلي يده في حين الشدة .

فلم يجسر المركيز على أن يتظاهر بادراك قصدها فقال : ماذا تقولين يا سيدتي ؟

— أقول يا سيدي المركيز انك رجل كريم نبيل ، فهل تريد أن تخلصني من العار وتنجي امي من القنوط وتنقذ اختك التي تحبها حب العبادة ؟

- مري يا سيدتي أطع .

فقالت بصوت ثابت أجش : اتريد يا سيدي المركيز ان تتزوجني ؟

فصاح المركيز صيحة فرح وركع امامها وهو يقول :

- نعم .. نعم .. لأني أحبك .

فأجابته الفتاة بصوت يتهدج من التأثير :

— وأنا ايضاً فاني أشعر بأني سأحبك .

بينا كان فرناند روشي وباكارا ذاهبين إلى القصر الذي تقيم فيه الدوقة وابنتها كان البارون بولاسكي ، أي روكامبول يسير في مركبته إلى قصر قومندان الميناء .

وذلك ان القومندان زار روكامبول في الفندق النازل فيه فدعـــاه إلى مناولة الطعام عنده في المساء .

فلما كان المساء ذهب روكامبول في الموعد المعين فاستقبله القومندان باحتفال عظيم على الباب الخارجي ودخل به إلى القاعة الكبرى فأقام معـه هنيهة ، ثم اعتذر منه فخرج إلى غرفة ثانية لقضاء بعض الشؤون .

وعند ذلك دخل زامبا وهو خادم القومندان كما يذكر القراء ، فدنا من روكامبول باحتراس وبعد ان التفت حواليه التفات المتحذر قــال له : ان لي كلمتين أقولها لك ثم امضي ، فقل لي اوصلتك رسائلي ؟

— نعم فقد قلت لي فيها ان أبقى في الفندق طول النهار .

— ألم تخرج منه أبداً ؟

— كلا .

— إذن فكل شيء يجري على ما نريد .

— ماذا تعني بهذا القول ؟

— أريد ان احدثك بأمور كثيرة غير ان الوقت لا يسمح لي الان فاعلم ان الأمر سيتم في هذا المساء .

— اي أمر ؟

— قتل المركيز دي شمري فقد دبرت كل شيء ، وفي هذه الليلة لا يبقى في

الوجود غير مركيز واحد .

فاضطرب روكامبول وقال : أحقاً ما تقول ؟

— كل الحق فاسمع الان ، انك بعد العشاء يجب ان تظهر أمام القومندان انك ترغب التنزه في البحر لصفاء الجو وسكون البحر أو غير ذلك من الحجج.

سأجد حجة لهذه النزهة وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك يضع القومندان في خدمتك قارباً صغيراً يقوده خـادمـه وأحد المجرمين .

— ومن يكون هذا المجرم ؟

— المركيز دي شمري .

— أتظن انه يرسل معي المركيز ؟

- بل انني واثق .

— والخادم ؟

— اصمت فسأخبرك بكل شيء إذ لا بد لي الآن من الذهاب .

وبعد ما خرج زامبا دخل القومندان ومعه امرأته فعرفه بها وأقاموا في تلك القاعة هنيهة ، ثم فتح باب قاعة الطعام وأقبل زامبـــا يدعوهم إلى المائدة ،فخرجوا جميعهم من قاعة الاستقبال إلى قاعة الطعام وجعل روكامبول يتحفهم بخير أحاديث الموائد ممـــا تعلمه من استاذه اندريا ومن الفته لعشرة الأعيان والظرفاء .

وقد فرغوا من الطعام في الساعة الثامنة ونصف فدعا القومندان ضيفـه إلى شرب القهوة في الرواق المشرف على البحر فجعل روكامبول يتغزل بالنجوم السابحة في الفضاء ، وبصفاء السماء تغزل الشاعر حتى استطرد في أوصافه البحر وأشار إلى رغبته بالتنزه فيه ، فأسرع القومندان ونادى زامبا فقال له : قل لأحد المجرمين ليعد قارباً لنزهة البارون واذهب أنت مع المجرم في خدمته .

فامتثل زامبا وخرج .

أما روكامبول فانه تظاهر بالانقباض حين ذكر المجرم وكان القومندان قد شعر بمخاوفه فقال له : لا تخشى فان المجرم الذي سنرسله معك من أفضل الذين لدي من المجرمين ، وفوق ذلك فسأرسل معه خادم غرفتي الخاص

وبعد ذلك قدم زامبا وأخبر مولاه أن القارب قد أعد لركوب البارون فودع روكامبول القومندان وسار مع زامبا إلى البحر .

فقال له زامبا على الطريق : اننا نستطيع الان أن نتكلم فاصغ إلي ، اننا سنذهب ومعنا المركيز إلى عرض البحر ونخرج من الميناء فنحتجب وراء صخورها عن الأنظار .

– وأية فائدة من هذا الحذر والظلام كاف لسترنا عن العيون ؟

– لست من رأيك فان اطلاق النار على الرجل كاف لفضيحتنا .

– إذن نقتله بالخنجر فهو أقرب إلى الغاية .

– كلا .. لأن الطعن بالخنجر لا يضمن الموت السريع ، ولا بد أن تذكر ذلك

– كفى ما مضى ولا تعد إلى مثل هذا التلميح .

– كما تريد ، ان رصاصة المسدس تضمن هذا القتل ، وها أنا الآن أرد اليك مسدسك فخذه واقتله به على غرة فإنه قوي نشيط ، فاذا علم بقصدك تضطر معه إلى عراك عنيف

فأخذ روكامبول المسدس ووضعه في جيبه .

وسار الاثنان حتى بلغا إلى الشاطىء الراسي فيه القارب وكان فيه المركيز دي شمري بملابس المجرمين .

فدنا زامبا من روكامبول وقال له همساً : لا تقتله إلا حين أقول لك كلمة خاصة تكون الاشارة بيننا الى وجوب قتله .

– وهذه الكلمة ؟

– هي أن أقول حين بلوغنا عرض البحر « أيها المركيز أخبرنا بقصتك

فانك مركيز حقيقي كما يقال » .

— وعند ذلك أطلق عليه ؟

— نعم فانه يوجد في مسدسك ست رصاصات فاذا اضطررت فاطلقها عليه كلها إلى أن يموت .

— كن واثقاً فسأقتله برصاصة واحدة .

ثم نزلا إلى القارب فارتعش روكامبول حين رأى ذلك المركيز بملابس المجرمين ، وقد كان رآه في تلك الباخرة قبيل غرقها منذ عامين بملابس الضباط ولا يمكن اللص أن يرى الرجل الذي سلبه إلا أن يصاب بمثل هذا الاضطراب ، غير ان اضطراب روكامبول كان شديداً حتى انه اوشك أن يسمع دقات قلبه ، ثم اصفر وجهه كأنه قد نسي انه متنكر فلا خوف من ان يعرفه المركيز .

ولكن هذا الاضطراب لا يطول في قلب مثل قلب روكامبول فما لبث ان عاد إلى السكينة وذهب فجلس في مؤخر القارب وادار ظهره للمركيز فجعل هذا السجين يجذف وانطلقت السفينة .

وكان زامبا جالساً أمام روكامبول فقال له بصوت منخفض : ان المركيز يعرف الانكليزية فكلمه بها .

فهز روكامبول يده مشيراً اشارة نفي ثم قال له همساً : انه قد يعرفني من صوتي .

وعند ذلك دنا زامبا فجلس بقرب المركيز وأخذ مجذافاً فساعده بالتجذيف حتى خرج بهم القارب فقال له المركيز : اننا نستطيع الآن نشر الشراع .

فأجابه زامبا : كما تشاء يا حضرة المركيز .

ثم نهض المركيز فنشر الشراع ولما أتم مهمته سأل زامبا قائلاً : الى اين تريد أن نسير .

— إلى عرض البحر .

— وبعد ذلك ؟

— تسير بالقارب إلى ذلك الصخر البعيد الذي يبدو لنا بشكل نقطة سوداء .

فامتثل المركيز ودفع القارب إلى حيث أمره .

وعند ذلك دنا زامبا من روكامبول وقال له : اليس من الغريب أن أصدر أوامري للمركيز دي شمري وان أقف أمامك في مواقف الاحترام .

فضغط روكامبول عليه ضغطاً شديداً وقال له همساً : كفى فلا تعد إلى هذه الأبحاث .

أما ذلك المركيز الحقيقي ، الذي مدت اليه ابنة سالاندريرا يدهـــا تسأله الزواج ، فانه كان يصدع بأوامر زامبا ويسير بالسفينة كما يريد دون أن يظهر عليه شيء من الاكتراث بمـــا كان يتحدث به زامبا وروكامبول بأصوات منخفضة .

وكانت السفينة تسير بسرعة عظيمة إلى أن بلغت القصر الذي تقيم فيـــه الدوقة سالاندريرا وابنتها فقال زامبا بلهجة المتهكم للسجين : أتعرف يا حضرة المركيز صاحب هذا القصر ؟

— نعم فهو لأسقف غرناطة ..

— أهنا تقيم خطيبة سميك ؟

فأجابه المركيز بعظمة : ليس لي سمي .

فالتفت زامبا إلى روكامبول وقال له بصوت منخفض : انتبه فقـــد آن الأوان .

وكان القارب قد اجتاز أسوار القصر فبات خارجاً عن الميناء والمركيز جالس فيه أمام مصباح خلافاً لزامبا وروكامبول فقد كانا مقيمين في مؤخر القارب لا تصل اليهما أشعة ذلك النور .

فعاد زامبا إلى محادثته فقال له :

– كيف تقول انه ليس لك سمي .
– ذلك لأني أقول الحقيقة .
– ومن هو المركيز دي شمري ؟
– هو أنا !.
– والذي يقيم في باريس ؟
– هو مزور محتال .

وكان روكامبول في ذلك الحين أخرج المسدس من جيبه وحمله بيده متأهباً للاطلاق حين صدور الاشارة المتفق عليها .

أما زامبا فانه قال للمركيز : إذن فأنت مركيز حقيقي فاذا كان ذلك فقص علينا حكايتك فلا بد أن تكون غريبة .

غير ان المركيز لم يجد مجالاً للجواب فان روكامبول أطلق عليه المسدس فانقلب المركيز في السفينة وصاح صيحة شديدة فأطلق روكامبول عليه ثلاث رصاصات من مسدسه فصاح المركيز صياحاً مؤلماً وحاول أن ينقض على روكامبول غير انه انقلب على ظهره وسقط في البحر فوارته الأمواج عن الأبصار .

وعند ذلك أسرع زامبا إلى تولي أمر الشراع وهو يقول لروكامبول : أهنئك الان فقد أصبحت مركيزاً حقيقياً لا ريب فيه .

- ٢٥ -

وقد فرح روكامبول في بدء الأمر فرحاً وحشياً لا يوصف لتخلصه من هذا المركيز وأطل من القارب كي يرى جثة المركيز المقتول فلم ير لهـا أثراً وأيقن ان الأمواج قد ابتلعتها

وساد السكون هنيهة بين هذين اللصين ثم قال زامبـا لروكامبول : تولى أنت أمر الدفة وأنا أتولى أمر الشراع إذ لا بد أن تكون خبيراً في هذه المهنة

— نعم فلقد كنت في حداثتي بحاراً في بوجيفال .

— إذن سر بنا .

— الى أين ؟

— إلى حيث ننام .

— أتعود إلى قاديس ؟

— إلى أين إذن تريد أن تعود إذا لم نعد اليها ؟

— والقتيل ؟

— انه مات .

— أعرف انه مات ، ولكن كيف نوضح سبب اختفائه .

— ان أمره منوط بي فلا تخف لأني سأقول للقومندان انك قتلته .

— ويحك اجننت ؟

— كلا . فان القومندان سيشكرك لقتله اجمل الشكر .

وكان زامبا قد نال السيادة المطلقة على روكامبول في هذين اليومين فلم يسع روكامبول غير الامتثال له لأنه بات واثقاً به أتم ثقة وسار بالسفينة عائداً إلى قاديس .

فلما سارت السفينة في الخطة التي رسمها قال له زامبا : والان يا حضرة الدوق دي شمري سالاندريا ، والنبيل المختلط اسمح لي ان اوقفك على حقيقة حالتنا فلقد قلت لك اني سأخبرك بأمور كثيرة .

— قل فاني مصغ اليك .

— لقد قلت لك قبلاً انه لم يعد سبيل للخوف من الكونتس أرتوف .

.. أتظن ؟

- بل أؤكد فانها برحت قاديس في هذا المساء .

— لماذا ؟

— كي تعود إلى زوجها فانه بات في حالة النزع .

— وابنة الدوق ؟

— لم تر الصورة وقد سافرت با كارا وهي تعتقد ان ابنة الدوق عالمة بكل شيء وانها لم تعد تخفى عليها خافية من حقيقة أمرك .

- كيف ذلك فاني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .

— ذلك لأنني خدعت الجميع من أجلك فاسمع : ان با كارا خافت في بدء الأمر أن تفاجىء ابنة الدوق بالحقيقة حذراً عليها من سوء العاقبة فأرادت ان تتلطف باطلاعها على الحقيقة بالتدريج ، فبدأت بأن قدمت لها المركيز دي شمري .

. ماذا تقول ؟

— لا تخف فان المركيز قد حكى حكايته لابنة الدوق ، ولكن با كارا منعته عن ان يبوح باسمه إلى ان يحين الوقت اللازم وقد عهدت الي با كارا ان أقدم الصورة لابنة الدوق وان انبهها إلى إسم المكتوب فيها كي ترى بعد ذلك الشبه بينها وبين المركيز ، وتعلم من تاريخها انها قديمة لا ريب فيها وانك خداع محتال .

ثم انه ورد إلى باكارا تلغراف يفيد ان زوجها بعد أن تماثــل إلى الشفاء

أصيب فجأة بالفالج وانهم ينتظرون موته في القريب العاجل فلم تجد بدأ من الرحيل إلى زوجها فعهد إلي بقضاء المهمة وأعطتني الصورة فأعطيتك أياها .

– دون ان تراها ابنة الدوق ؟

– هذا لا ريب فيه

– وهي لا تعلم ان هذا السجين الذي رأته المركيز الحقيقي ؟

– انها لا تعلم شيئاً على الأطلاق فاني ذهبت اليها بحجة تقديم احترامي لها والتماسي منها أن تدخلني في خدمتها .

– وماذا أجابتك ؟

– أجابتني انه يجب ان التمس منك هذا الالتماس بعد بضعة أيام أي بعد عقد الزواج فان كل شيء قد أعد لحفلة القران .

فبرقت أسرة روكامبول وقال : أقالت حقيقة هذا القول ؟

فابتسم زامبا ابتسامة هرء لم يرها روكامبول لاشتداد الظلام وقال : لماذا تعجب من قولها ألا تعلم انها تحبك ؟ ثم انها واثقة من انك لا تزال في باريس ودليل ذلك انها أعطتني كتاباً لك كي أضعه في البوستة .

– كتاباً لي ؟

– نعم وهو معنون باسمك في شارع فرنيل في باريس .

– وهل وضعته في البوستة ؟

– ما هذا القول أتحسبني أبله إلى هذا الحد .

– اذاً ماذا صنعت به .

– انه معي ، ثم مد يده إلى جيبه واخرج الكتاب ودفعه اليه .

– ماذا أرى أفتحته أيها النمم ؟

– كيف لا أفتحه ألسنا الآن شريكين ويجب ان أعلم من امورك ما تعلمه .

– لا أعلم الآن ما يصدني عن أن اسيل دماغك فانه لا يزال بمسدسي رصاصتان .

يمنعك عن قتلي الحكمة .

- لماذا ؟

- لأنك إذا قتلتني يفتضح امرك أيها الملك نسيت ذلك الأقرار الذي كتبته بخطك .

- وماذا صنعت به ؟

- اني اودعته امس عند أحد القضاة مختوماً وقلت له اذا مضى اسبوع دون ان تراني فافتحه .

- يسرني انك أهل لي وانني أهل لك وستتفق إلى آخر العمر ، والآن خذ عني هذه الدفة ودعني اقرأ كتاب ابنة الدوق .

فامتثل زامبا وادنى روكامبول المصباح منه ففتح الكتاب وقرأ ما يلي :

« أيها الحبيب

« سأبرح مع امي مدينة قاديس صباح غد وقد تعجب لهذا السفر غير أن سبباً لا بد من ذكره لك وهو ان الملكة غادرت قاديس بعد ان قالت لي « الوداع أيتها المركيزة اني انتظرك مع زوجك فيمدريد بعد خمسة عشر يوماً وأريد ان تصيري دوقــة فابرحي قاديس الآن إذ يجب ان يعقد قرانك في سالاندريرا كما يقتضيه واجب الحداد »

« هذا هو السبب الذي دعانا إلى السفر ونحن ننتظرك في قصر سالاندريرا وسيعقد قراننا قريبي اسقف غرناطة فنك تعلم ان الزواج المدني غير موجود في اسبانيا وليس فيها غير الزواج الديني

« ثم لا اكتمك اني اخبرت قريبي الأسقف بجميع ما كان بيني وبينك من حين تصادفنا إلى حين الخطبة وما كتمت عنه غير مسألة الدون جوزيف فلامني أشد اللوم لاندفاعي معك وقال لي انه لا يجب ان تنظري المركيز قبل الزواج فليحضر الى سالاندريرا متى شاء غير انه لا يحق له ان يراك إلا في ساعة عقد القران ولا يحق لك ان تخرجي من غرفتك قبل ذلك العهد »

« وهذا آخر ما سأحتمله من الظلم أيها الحبيب ولكن لا سبيل إلى مخالفة هذا القريب فانه شيخ شديد المحافظة على التقاليد القديمة التي كانت سائدة في اسبانيا منذ قرنين وهي ان الخطيب لا يحق له ان يرى خطيبته إلا في الكنيسة حين عقد القران فيدخل كل منهما من باب ويلتقيان امام الهيكل .

« فلنمتثل له إذ لا سبيل لمخالفته وعلى ذلك فانني انتظرك في سالاندريرا بعد ثمانية ايام لأن زواجنا سيعقد في ١٤ من الشهر الجاري وهو تاريخ تتفاءل به عائلتنا خيراً فاحضر في ١٣ او في صباح ١٤ الجاري فاذا حضرت في ١٢ فلا تصعد الى القصر ارضاءاً للاسقف بل أقم في منزل الصيد وقد صدر الأمر الى وكيل هذا القصر لأستقبالك

« الى اللقاء أيها الحبيب فاصبر على التقاليد القديمة التي لا بد من رعايتها فان ساعة الهناء آتية وكل آت قريب » « خطيبتك »

(كونسبسيون)

وقد تلا روكامبول الكتاب بامعان شديد فلما أتم تلاوته قال لزامبا : انك فتحت الكتاب فلا بد ان تكون قرأته ؟

– قرأته دون شك .

– ما رأيك فيه . .

– ارى اننا في اليوم السابع من الشهر وفي اليوم الرابع عشر منه تصبح زوجاً لأبنة الدوق .

– لا انكر ذلك ولكنني اسألك عن رأيك في هذا الزواج الغريب .

– وما وجه الغرابة فيه ؟

– انني لا استطيع ان ارى خطيبتي إلا ساعة عقد الزفاف .

فابتسم زامبا وقال يظهر انك لا تعرف اسقف غرناطة فانه رجل بسيط القلب الى حد البله شديد التمسك بالتقاليد حتى انه يحسب في كل احواله انه لا يزال في عهد شارلكان .

- أتعرف أنت سالاندريا ؟
- نعم فقد أقمت فيها ثلاثة أشهر مع الدون جوزيف .
- صف لي منزل الصيد الذي ذكرته لي ابنة الدوق في كتابها .
- انه منزل جميل ستكون فيه على ما تريد .
- وما رأيك الآن ؟
- أرى انه يجب أن تبقى في قاديس متنكراً بزيك هذا خمسة أيام .
وبعد ذلك ؟

- نذهب كلانا إلى سالاندرير وفي الطريق تغير زيك وتستبدل البارون بولاسكي بالمركيز دي شمري الكاذب .
- قل الحقيقي أيها الوقح إذ لا يوجد الآن مركيزان
- لا تؤاخذني فقد نسيت انك قتلته . ثم جعل يضحك ضحكاً شديداً لم يحمله روكامبول على شيء من محامل الريب .

وبعد ذلك بمدة دقائق دخل القارب إلى الميناء فطوى زامبا الشراع وجعل يجذف حتى وصل إلى الشاطىء المبني عليه منزل القومندان
وكان القومندان يتنزه في الرواق فقال روكامبول لزامبا .
- ماذا عزمت ان تصنع بشأن المركيز ؟
كن مطمئناً ودعني اتكلم .
ثم نزل زامبا إلى الشاطىء فتبعه روكامبول حتى وصلا إلى القومندان ، فقال القومندان لزامبا باللغة الاسبانية :

- لماذا أسرعت بالرجوع ، ألعل حضرة البارون أصيب بالدوار ؟
- كلا يا سيدي بل ان المركيز أصيب به .
- أي مركيز تعني ؟
- المجرم السجين .
فانذهل القومندان وقال له : أين هو الآن ؟

– لقد مات يا سيدي فان البارون قتله .

وكان روكامبول يتظاهر أنه لا يفهم شيئاً من هذا الحديث لأنه اخبر القومندان أنه لا يعرف اللغة الاسبانية .

أما القومندان فانه انذهل انذهالاً عظيماً لما حدثه به زامبا وقال له : ويحك العلك تمزح فيما تقول ؟

– كلا يا سيدي فان هذا الذي كان يدعو نفسه مركيزاً كان يظهر بأنه يحاول الفرار منذ عهد بعيد وذلك انه حين بلغ بنا إلى عرض البحر قال لنا : « انكما تعرفان ان تديرا القارب أما انا فاني أعرف أن اسبح » ثم ترك الدفة وألقى نفسه في البحر وعند ذلك عامله البارون معاملة بولونية .

– كيف ذلك ؟

– ذلك انه كان معه مسدس فأخرجه من جيبه وأطلقه على الهارب بسكينة الانكليز فقتله للحال

فأسرع القومندان إلى روكامبول وقال له بالانكليزية لقد أحسنت يا سيدي غاية الاحسان بما فعلت فان قتل الهاربين من السجون مأثرة عندنا تستحق كل ثناء

فقال له روكامبول : إني عملت ما يجب علي إذ لم أطق ان تتحمل من أجلي تبعة فرار هذا المجرم الذي أرسلته لخدمتي .

وفي اليوم التالي جاء زامبا إلى الفندق المقيم فيه روكامبول وأعطاه نسخة من جريدة تطبع في مدريد فقرأ فيها حكاية قتل المجرم السجين مشفوعة بالثناء العظيم على قاتله البارون بولاسكي ، فقرأها روكامبول وهو يضحك من تغفل القومندان .

مضى على هذه الحادثة خمسة أيام كان روكامبول يزور في خلالها القومندان وقد أعد لضيفه حفلة راقصة حضرها روكامبول بزي البارون بولاسكي ، فكانت الفتيات يتهافتن على مراقصته لاشتهاره بقتل السجين الذي كان يحاول الهرب ، على ما كان عليه من القبح بزيه الذي كان متنكراً فيه ، فإن الشهرة لدى اكثر النساء مقاماً فوق مقام الجمال .

وكان زامبا يأتي اليه في كل يوم وقد اخبره بأن باكارا قد سافرت إلى باريس وان الدوقة وابنتها قد سافرتا إلى سالاندريرا فصرف روكامبول تلك الأيام الخمسة بالتنزه في حدائق تلك المدينة وميناها .

وفي اليوم الخامس جاء زامبا وقال له :

— لقد حان زمن الرحيل الى سالاندريرا

فقال روكامبول اني متأهب للسفر فقد سئمت الانتظار ، ألا ترافقني في هذه السفرة ؟

— كيف لا أصحبك ألا يجب ان أحضر قران أسيادي ؟

- ماذا تعني بأسيادك ؟

— الملك نسيت انك عينتني وكيلاً لثروتك بعد الزواج ؟

— لقد أصبت فلنسافر .

وذهب روكامبول إلى منزل القومندان فودعه مدعياً انه وردت اليه أنباء خطيرة تدعوه إلى سرعة العودة إلى بلاده وعاد إلى زامبا فركب واياه مركبة وانطلقت بهما إلى برسلونه .

وقد برح قاديس وهو متنكر بزي البارون ، فلما وصل إلى برسلونه ذهب

الى أحد فنادقها للاستراحة فاختلى مع زامبا في غرفة وهنـــاك خلع رداء التنكر وعـاد الى الشكل الذي عرف به في باريس وهو شكل المركيز دي شمري .

وفي المساء برحا برسلونه وسافرا الى ببلين فاقاما فيها وذهب زامبـــا يبحث عن جوادين للسفر عليها إلى سالاندريا ، لأن الطريق اليها لا تصلح لسير المركبات ، ثم عاد بعد أن قضى هذه المهمة وجلسا حول مائدة معتزلة في الفندق يتعشيان

فلما فرغا من العشاء اقترح زامبا على روكامبول ان يشرب زجاجة من الخمر . فقال له روكامبول : ألم تشرب على المائدة ؟

- نعم ، ولكني ظمآن وقد اعجبني خمر هذا الفندق ، ثم اني اريد أن أشرب ايضاً لقصد آخر وهو اننا سنجتاز مسافة طويلة لا بد لنا فيهـا من المسامرة على الطريق وقـد تعودت ان لا ينطلق لساني إلا متى ارتويت من الشراب ، ولذلك فسأكون لك خير نديم ينسيك مشاق السفر الطويل .

ثم تركه هنيهة كي يضع الملف للجوادين وعاد يطلب زجاجة فجعـــل يكرع منها الكأس في اثر الكأس حتى فرغت ، فطلب زجاجـــة أخرى وصب منها كأساً فشربه وقال، إن الشرب يفرح قلبي ومتى كنت فرحاً أحب جميع الناس .

فكان روكامبول يضحك منه ، ولكنه كان يخشى عاقبة شربه لأنه رأى ان أعطافه تترنح من السكر .

ثم جعل لسانه ينعقد واصبحت حركاته بطيئة فزاد خـوف روكامبول غير انه لم يجد بدأ من مسالمته فصب له كأساً فشربها زامبا وقال : الحق انك تعجبني يا سيدي الدوق وغداً سيكون فرحي عظيماً لا يوصف .

— لماذا ؟

— لأنك ستتزوج غداً ابنة الدوق ، وثق يا سيدي انني لا افرح من اجل

تعييني وكيلاً لأملاكك بل اني احبك .

– إذن فلا يهمك ان تكون وكيلي .

– لا أحب هذا المنصب إلا لأني سأكون دائماً بقربك ، أتحسب ان الصداقة لا تكون إلا حيث تكون الفائدة ؟

– إذن فأنت صديقي ؟

– إلى آخر العمر .

– أتبرهن لي عن هذه الصداقة ؟

– عندما تريد .

– احب ان اعرف ما يكون برهانك .

- لقد طراء لي خاطر بديع .

– ما هو هذا الخاطر ؟

– أتقول يا سيدي الدوق إني لست صديق ؟

– انا لم أقل ذلك ولكني أقول ان الذي دعاك إلى هذه الصداقة هو انك ستغدو وكيلي و . .

فضحك زامبا ضحكاً عالياً وقال : انك تريد ان تشير الى هذه الورقة التي استكتبتك إياها ؟

-- نعم .

- ألعلك خائف منها ؟

– كلا . . ولكنها لو لم تكن موجودة لما أخللت بوعدي وسيان كانت لديك او فقدتها فانك ستكون وكيلي وصديقي في حين واحد .

– أحق ما تقول ؟

– أقسم لك خير الأقسام انني لا أنكث بوعدي لك وأية فائدة لي من الغدر بك فإذا لم أعينك وكيلاً فلا بد من تعيين سواك .

– إذا كانت هذه الورقة تسيئك .

فقاطعه روكامبول وقال ليس انها تسيئني فقط ، بل انها تنغص عيشي ، وأنا أعلم علم اليقين انك لا تستخدمها ما زلت حياً ، إذ لا فـائدة لك من فضيحتي ، ولكن اليس الانسان معرضاً للموت الفجائي ، فإذا أصبت لاسمح الله بهذا المكروه ، أفلا يفتح القاضي الغلاف الموجود فيه إقراري كما أوصيتك ويطلع على كل شيء ؟

فقهقه زامبا ضاحكاً وقال : العلك صدقتني ؟

– بماذا ؟

– بأنني أودعت اقرارك عند أحد القضاة إلى آخر ما لفقته من هـذا الحديث .

– الحق انني صدقتك ، ولا انكر عليك فماذا صنعت به ؟

– انني أودعته جيبي وهو معي الآن .

– انك تمزح دون شك .

– كلا .. وسأطلعك عليه .

ثم مد يده إلى جيبه وأخرج منه تلك الورقة التي استكتبها روكامبول، فلما رآها روكامبول اضطرب اضطراباً شديداً ونظر إلى المائدة فرأى سكيناً فهم ان يقبض عليه ويطعن زامبا التماساً لهذه الورقة ، غير ان زامبا لم يمهله فانه قال : انك تريد برهاناً عن صداقتي فانظر الى هذا البرهان .

ثم اخذ الورقة فأدناها من المصباح وجعل يحرقها الى ان أصبحت رماداً. فبجن روكامبول من فرحه وقال : ماذا تصنع ؟

– انني احرق ما كتبته لثقتي بك فانني ضامن انك لا تخدعني وانك ستفي بما وعدت .

فسر روكامبول سروراً عظيماً .وقام الى زامبا فضمه الى صدره وقال له : ستكون خـير صديق لي مـا حييت فلا يفرق بيننـا جاه وتباين ثروة ومقام .

وكان يظهر من زامبا انه قد ضاع رشده من السكر غير انه ما لبث ان نهض وقال : هلم بنا الى السفر فإن ركوب الجياد وصفاء الهواء يذهبان عني ثقل هذه النشاة

غير انه بقي يترنح فقال له روكامبول : توكأ علي ..

ففعل وخرج الاثنان من الفندق فأسرجا الجوادين .

ثم دنا زامبا من جواد روكامبول ففحص سرجه وقال له : لقد وضعت لك في عيني السرج مسدسين محشوين فان الطريق التي سنجتازها مقفرة وعرة حتى لقد يقتل السالك فيها دون ان يعلم أحد بخبره .

فاختلج فؤاد روكامبول وقال في نفسه : لقد اخطأت ايها الصديق باحراقك الورقة فانها كانت خير واق لك من الموت .

وركب الاثنان جواديهما فكانت اعراض السكر لا تزال بادية على زامبا غير انه جعل يشتد بالتدريج . فلما بعدا عن المدينة قال له روكامبول : سر أمامي كي تهديني إلى الطريق .

فأبى وقال له : إن الطريق لا تزال متسعة بحيث نستطيع أن نسير فيها جنباً إلى جنب .

ثم دنا منه وجعلا يتحدثان .

وكان الطقس صافياً والهواء بليلاً ، ونور القمر ساطعاً ، فما زالا يسيران حتى ظهرت أمامها سلسلة جبال فانعطف زامبا في منعرج وسار في طريق تلك الجبال وهو يقول : هذه هي الطريق إلى سالاندريا .

فلحق به روكامبول وسار بجانبه فدار بينهما الحديث الآتي فقال زامبا :

– إننا سنخترق هذه الجبال وأنا واثق من اننا لا نلقى في طريقنا أحداً من الناس إلا بعض اللصوص الذين يكمنون للمسافرين .

– ألعلك خائف منهم ؟

– كلا فان الذئاب لا تأكل بعضها بعضاً ثم أننا بعد أن نخترق هذه الجبال سنمر بطريق ضيقة تشرف على هوة سحيقة لا حد لعمقها كما يقال .

– وماذا تهمنا هذه الهوة ؟

– لا يهمنا أمرها ولكني أحببت أن أبين لك الطريق التي نسلكها .

– وأين هي هذه الهوة العليا بعيدة من هنا ؟

– كلا .. فانها قريبة جداً وقد ذكرتها لك لأنه ما مر أحد بها إلا انكمش قلبه وتولاه الخوف والذعر .

– لماذا ؟

ـ لأن اللصوص يكنون بالقرب منها فان قتلوا من يقع بأيديهم من المسافرين القوه فيها إخفاء لأثره حتى باتت تلقب بمقبرة المسافرين ، ومن أخطارها ضيق الطريق المشرفة عليها ، فلا يستطيع فارسان أن يمرا بها جنباً إلى جنب لضيقها بل يضطر أحدهما ان يسير أمام الآخر فإذا بوغت المسافر سقط بجواده إلى الهوة فلا يعلم به غير الله .

ـ أحقيقة ما تقول عن عمق هذه الهوة ؟

ـ لقد رأيتها بعيني في رائعة النهار فما استطعت أن أرى عمقها حتى انك إذا ألقيت فيها حجراً ضخماً لم تسمع صوت هبوطه ، إذ يستقر في غور بعيد من ذلك ما أرويه لك عن حادثة جرت أمامي حين كنت في خدمة الدون جوزيف وهي انه خرج يوماً من سالاندريا لصيد الذئاب فجعلنا نطارد ذئباً حتى بلغ إلى تلك الطريق الضيقة فأطلق عليه الدون جوزيف رصاصة أصابت منه مقتلاً فسقط يهوي إلى تلك الهوة السحيقة .فأسرعنا لنرى أين سقط فلم نر له أثراً .

ـ ألعل فم الهوة متسع ؟

ـ يبلغ اتساعه نحو مترين بحيث يسقط فيها الفرس والفارس .

فارتعش روكامبول وقال : ألا تزال بعيدة عنا ؟

ـ كلا . فقد قربنا منها جداً ، وها نحن قد دخلنا في الوادي فلا يمر بنا ربع ساعة حتى نبلغ اليها ولكنك لا تستطيع أن تراها لنكد الطالع فان القمر قد احتجب عن الأفق وبتنا في ظلام دامس .

ـ لا بأس فسنأتي اليها مرة في النهار ، ثم لكز بطن جواده فسار حثيثاً يتبعه زامبا وكان روكامبول يفتقد المسدسين من حين إلى حين .

ثم وصلا إلى الطريق الضيقة ، فتقدم زامبا من روكامبول كي يرشده إلى الطريق وجعل يسير أمامه ساكتاً وهو غارق في لجج التصورات فلم يزعجه روكامبول وجعل هو أيضاً يفتكر ويتمعن في خطة رسمها لنفسه .

وبعد ربع ساعة صحا زامبا من ذهوله وقال لركامبول : هوذا الهوة فقد

بلغنا اليهـا .

ـ اني لا أرى شيئاً فإن الظلام دامس .

فترجل زامبا عن جواده وقال له . اصبر فسترى .

ثم أخذ حجراً ودنا من الهوة فألقاه فيها وقال له بعـد حين أسمعت صوت سقوطه ؟

ـ كلا ولا بد أن تكون شديدة العمق فـإني سمعت صوت احتكاك الحجر بالعشب على جدرانها ولكني لم أسمع صوت بلوغه إلى الأرض .

ـ انها أعمق مما تظن .

ثم بحث عن حجر أضخم من الأول فحمله بيديه وحـاول أن يلقيـه في الهوة غير انه قبل أن يتمكن من القائه أخرج روكامبول المسدس وأطلق عليه النار .

فصاح زامبا صيحة هائلة وانقلب إلى الأرض ثم هوى إلى الهوة دون ان يسمع روكامبول صوت سقوطه فضحك ضحك المنتصر وقال : لا شك ان الأبالسة أخذت بناصري فلقد تخلصت من اشد عدو لي .

وعندما بزغ الصباح وصل بالمركيز فردريك البرت دي شمري الذي لم يبق سواه يسمى بهذا الاسم الى قرية صغيرة فكان أول كلمة قالها سؤال أحد القرويين عن قصر سالاندريرا فارشدوه إلى الطريق وأخبروه انها تبعد خمس ساعات عن هذه القرية فذهب الى أحد الفنادق فأكل ثم نام فيـه الى غروب الشمس فركب جواده وسار الى ساندريرا وهو يناجي نفسه بأمـاني السعادة ويبني القصور في اسبانيا .

وفي الساعة العاشرة وصل فد أل عن قصر الصيد كما أمرته إبنــــة الدوق وذهب اليه فاستقبله الوكيل استقبالاً حافلاً وأعد له مائدة فاخرة .

فأكل روكامبول بشهية عظيمة وقد وجد على المائدة زجاجة من الخمر أيقن أن إبنة الدوق ارسلتها اليه خاصة من القصر فشربها بجملتها ووجد بهـا لذة عظيمة ولكنه بعد فراغه من الطعام شعر بأن الخمر أثر عليه تأثيراً عظيما على فرط ادمانه على شرب الخمور فحسب ان الغرفة تدور ولم يعد يستطيع القيام.

فأسرع اليه وكيل القصر وقال : لا بد ان يكون اثر عليك هذا الخمر لأنه عتيق فتوكأ علي كي أوصلك الى الغرفة التي تنام فيها .

فاتكأ روكامبول عليه وسار معه حتى اوصله الى غرفة مفروشة بأفخر الرياش فقال في نفسه : لا بد أن تكون كونسبسيون قد أمرت باعداد هذه الغرفة والمبالغة باتقان فرشها فاني أجد ما فيها يدل على حسن الذوق .

ولكنه ما لبث ان صعد الى السرير حتى أطبق عينيه ونام نوماً عميقاً تمثلت له السعادة في أحلامه بابدع مظاهرهافرأى نفسه دوقاً اسبانياً وزوجاً لأشرف وأغنى فتاة ، ثم انتقل بأحلامه الى البرازيل حيث عين سفيراً اسبانياً لدى امبراطورها وما زال يتنقل فوق قنن هذه الأماني الجميلة الى ان بلغت الثامنة من الصباح فشعر ان يداً تهزه ففتح عينيه مذعوراً وهو يود أن تبقى له تلك الأحلام فرأى وكيل القصر واقفاً أمامه وقفة الاحترام وقد حل قبعته بيده وقال : ليعذرني مولاي إذا تجاسرت على ايقاظه فقد بلغت الساعة الثامنـة وازف الوقت .

ففرك روكامبول عينيه ووضع يده على جبينه كمن يتذكر وقال : لقد أصبت فان موعد الزفاف في الساعة التاسعة .

ثم وثب عن سريره الى الأرض وهو يقول : أليس من العار أن أنام يوم

زفافي الى مثل هذه الساعة المتأخرة .

فقال له الوكيل : ليأذن لي مولاي المركيز ان أخبره ببعض التفاصيل .

– عن أي شيء ؟

– عن حفلة الزفاف .

فنظر اليه روكامبول دون ان يفهم ما يريد وقال له : قل ما تشاء .

– انه في اسبانيا يجب على كل نبيل ان يتزوج حسب التقاليد التي كانت جارية في القرون الوسطى .

– العلهم يريدون ان ألبس خوذة ودرعاً ؟

– كلا . ولكنهم سيلبسونك قبعة تستر جميع وجهك ويكون ممسك فريق من الرهبان .

– ما شأن هؤلاء الرهبان ؟

– انهم يقبضون عليك وتكون خاضعاً لأوامرهم .

– الى متى ؟

– الى حين انتهاء حفلة القداس

– أهذا كل ما يطلبونه مني ؟

– نعم وقد حضر الرهبان وهم هنا الآن.

– ماذا يريدون ؟

– يريدون أخذ سيادتكم الى الكنيسة .

فأطل روكامبول من نافذة الغرفة المقيم فيهافرأى الكنيسة تحيط بها اشجار باسقة ولم ير احداً من الناس وكل شيء حولها يدل على الكآبة فانقبض صدره وقال في نفسه ، ما هذا العرس الذي يشبه الجنازة .

اما الوكيل فانه عاد الى حديثه فقال ان الرهبان ينتظرونكم يا مولاي .

– لماذا ينتظروني فهذه الكنيسة امامي وانا اعرف الطريق وحدي .

– انك لا تدخل اليها من هذا الباب الذي تراه يا سيدي بل من باب آخر

عينه أسقف غرناطة .

— ان هذا الأسقف مجنون كما يظهر .

— أنه شديد التمسك بالتقاليد يا سيدي وهو يريد أن يشبه زواجك بابنة الدوق بزواج المدموازيل كينا جوند دي سالاندريرا الذي جرى منذ أربعمائة عام مع السنيور لورانزو دي الفيار في ملك فرديناند الكاثوليكي .

— كيف جرى ذلك الزواج ؟

— ان هذا القصر الذي نحن فيه الآن كان كنيسة في ذلك العهد فقدم اليها الزوج ليلة زفافه كما قدمت أنت ، وبقي فيها طول ليلته منعكفاً على الصلاة ثم جاء اليه أربعة من الرهبان فعصبوا عينيه والبسوه ملابس العرس ، وهي قميص بسيط من الكتان يلبس فوقها ثوب راهب .

فقاطعه روكامبول وقال : ان هذه التقاليد لا تطاق ولم يعد لدي شك ان اسقف غرناطة من أعظم المجانين .

- وأنا من رأيكم يا سيدي ، وأظن أن المدموازيل كنسبسيون تشترك معنا بهذا الحكم فاني سمعتها أمس تقول لهذا الأسقف : « أن هذه التقاليد لا تحتمل في عصرنا الحاضر » .

— وماذا أجابها الأسقف ؟

— قطب حاجبيه وسكت فلم تجد ابنة الدوق بداً من السكوت لأن هذا الأسقف شيخ عجوز وثروته تعد بالملايين وهو لا وارث له سواها .

فهان عند روكامبول ما يلقاه من الضجر عند ذكر الملايين فقال له الوكيل: وفوق ذلك فان سيدتي قد اعطتني كتاباً كي أسلمه لكم وهـذا هو .

فأخذ روكامبول الكتاب وفضه مسرعاً فوجده خالياً من التوقيع ولكنه عرف أنه خط خطيبته ولم يكن يتضمن غير هذين السطرين :

« صبراً أيها الحبيب فلم يبق غير بضع ساعات بي يغدو المركيز دي شمري زوجاً لكونسبسيون دي سالاندريرا » .

فلما أتم تلاوته قال في نفسه . سأصبر كما تشاء فإن كل عذاب يعرف أجله يخف وقعه .

ثم قال للوكيل : إذن فانهم سيعصبون عيني ؟

– نعم ، إذ لا بد من ذلك .

– وفي أية طريق يسيرون بي إلى الكنيسة ؟

– بدهليز تحت الأرض يصل بين هذا القصر وبين الكنيسة

– وأسير به معصوب العينين ؟

– ويحيط بك الرهبان .

– ما أشبه هذا الزواج بزواج العميان ، أيريدون ان أتزوج وأنا معصوب العينين ؟

– كلا .. فانهم يزيحون العصابة عن عينيك في الكنيسة .

وعند ذلك طرق الباب فقال الوكيل : هوذا الرهبان قد حضروا .

ثم ذهب ففتح لهم الباب .

ودخل الرهبان الأربعة فذعر روكامبول لمرآهم وخرج الوكيل بعد أن انحنى أمامهم باحترام .

فدنا أحدهم من روكامبول وقال له باللغة الاسبانية : هل أنت مستعد ايها الأخ ؟

فقال روكامبول في نفسه ماذا أرى ألعلهم يحتفلون بادخالي في الماسونية. ثم ضحك وقال : نعم اني مستعد .

فاقترب أحدهم وعصب عينيه بعصابة سوداء فلم يعد يرى بعد ذلك شيئاً ، ولكنه بقي له حاستا السمع والاحساس فسمع أولئك الرهبان يتلون صلاة لاتينية ارتعشت أعضاؤه حين سماعها فانها كانت صلاة العصر التي تتلى عن نفوس الأموات وأحس ان أحدهم دنا منه وجعل ينزع عنه ثيابه ثم ألبسه بعد ذلك ثوباً لم يستطع ان يعرف لونه .

ولكنه عندما لمسه علم انه ذلك الكتاني الذي اخبره عنه الوكيل ثم شعر انهم البسوه فوق القميص ثوباً أثقل منه فعلم انه ثوب الرهبان الذي أخبره عنه الوكيل ايضاً

وبعد ذلك تأبط أحدهم وقال له : هلم بنا .

فسار معهم وهو لا يعلم أين يسير . ولكنه ما لبث أن مشى حتى عـاد الرهبان إلى الصلاة اللاتينية فعاد صدره الى الانقباض .

وأحس روكامبول في البدء أنهم ينزلون به درجات سلم ، ثم انتهت تلك الدرجات فسار في طريق مبلطـة بضع دقائق ، فشعر ان الهواء قـد زادت رطوبته ، وعلم انه يخترق ذلك الدهليز تحت الأرض الذي أخبره عنه الوكيل .

وبعد حين قال له أحد الرهبان : إرفع رجلك واصعد .

فامتثل روكامبول وجعل يمشي معهم مدة ساعة لم تكن تنقطع فيها صلاة الرهبان الخاصة بالأموات .

ثم شعر فجأة ان الهواء قد تغير وتبدلت رطوبته بحرارة ، فعلم انـه ترك الدهليز .

ثم سمع أصوات أبواب تفتح وتغلق فما زالوا يمشون به حتى شعر أنـه يمشي على بلاط من الرخام ، فأوقفوه وقال له أحد الرهبان إرفع العصابة عن عينيك .

فما صدق روكامبول أن سمع هذه الكلمة حتى أزاح العصابة وجعل ينظر إلى ما حوله نظراً مضطرباً فرأى انـه واقف في مكان يبلغ عرضه ستة أقدام تحت قبة مرتفعة مثل قباب الكنائس ورأى أمامه صورة كبيرة تمثل المسيح وعلى يساره صورة كبيرة تمثل زواج إحدى بنات سالاندريرا مع الدون القامير وعلى يمينه صورة أخرى كبيرة استلفتت أنظاره ، وهي تمثل العقابات الفظيعـة المختلفة التي كانت تجري في العصور الوسطى ، وقد كتب تحتها تاريخ هـذه

العقابات وأسبابها .

غير ان روكامبول اضطرب لمنظرها ولم يستطع ان يقرأ الكتابة فأدار نظره إلى الرهبان الذين كانوا يصحبونه فوجد ان ثلاثة منهم قد احتجبوا ولم يبق غير واحد كان واقفاً وراءه ساكتاً لا يتكلم .

وفيما هو ينظر حوله مندهشاً مما يراه فتح أمامه ستار ظهر من ورائه اولئك الرهبان الثلاثة الذين كانوا يرافقونه وهو معصوب العينين وكان أمامهم أتون كبير تتأجج فيه النار الموقدة وفي وسط النار حلقة من الحديد .

فذعر روكامبول لمرأى النار وما كان يحيط بها من الكلابات والمطارق على أن جميع ذلك مر أمام عينيه بسرعة ثم نزل الستار

وعقب نزول هذا الستار فتح ستار آخر أمام صورة المسيح ظهر من ورائه هيكل تتقد فيه آلاف من الشموع وفيه كاهن يصلي ، فردت إلى روكامبول روحه ، وقال في نفسه . لا شك ان هذا الكاهن ينتظر قدوم الخطيبين

ثم نزل الستار وفتح ستار ثالث وكان قلب روكامبول يدق دقات شديدة فرأى امرأة مرتدية بملابس بيضاء تتقدم وهي ماسكة بيد فتاة أخرى متشحة بملابس السواد .

فعرف روكامبول للحال ان تلك الفتاة هي خطيبته ابنة الدوق ، غير انه بينما كانت المرأتان تتقدمان الى الهيكل نزل الستـــار فاحتجبا عن نظره ، واحتجب الهيكل وشموعه ، ولم يجد روكامبول أماله غير ذلك الراهب الذي بقي معه فنظر اليه كأنه يستطلع كنه هذه الأسرار ولكنه ما لبث ان نظر اليه حتى نزع الراهب القبعة عن رأسه فصاح روكامبول صيحـــة منكرة وتراجع متذعراً الى الوراء .

إن هذا الراهب الذي ذعر منه روكامبول وخافه هذا الخوف كان زامبـا بعينه الذي رآه روكامبول يسقط أمامه في تلك الهوة الهائلة وكان يحسب منذ لحظة انه من الأموات .

فلم يصدق عينيه حين رآه وحسب ان خياله قد تمثل له ثم ما لبث ان تيقن منه حتى أخذ يتراجع الى الوراء وقد جحظت عيناه من الرعب وأخذ يبحث عن منفذ يهرب منه ولكن الأبواب كانت مقفلة جميعها فأسند ظهره الى الحائط وعيناه محدقتان بزامبا .

أما زامبا فانه كان ينظر الى روكامبول نظر الساخر حين راجعه، ثم ضحك ضحكاً شديداً وقال : كيف رأيت الآن يا حضرة المركيز ألا أجيد الاحتيال كما تجيده أنت ؟

فلم يجب روكامبول وظل ينظر اليه مرعوباً

فقال زامبا : لقد حسبتني أيها الأبلة ميتاً من السكر فظننت اني احرقت اعترافك لمجرد إرضائك

ثم جعل يضحك ضحكاً عالياً هازئاً به . أما روكامبول فلبث جامداً لا يتحرك كالأصنام .

وعاد زامبا إلى حديثه فقال لقد علمت منك انك لست لصاً صادقاً، فان اللصوص حسب مبادئهم لا يخون بعضهم بعضاً ولكنك سافل دنيء لا تجازي من يخدمك بغير القتل . فلقد حاولت المرة الأولى ان تقتلني في باريس فطعنتني من الوراء شأن الخائنين الجبناء ، ثم حسبت بعد ذلك اني أصفح عن خيانتك وأنسى لذة الانتقام . ثم لما رأيت انك أصبحت في قبضتي عرضت علي المال الوفير وأنت تحسبني راضياً بتلك الوعود ، ولكنك أخطأت يا حضرة الدوق ، فلو عرض علي تاج اسبانيا ومملكة الهند لما تخليت عن الانتقام من عدو

يخونني أعلمت الآن ؟

ثم قل لي بعيشك فقد عهدتك خبيراً بأساليب الاحتيال . ألم يكن حديث الهوة التي لفقته لك متقناً لا شك فيه ؟ وكيف يخطر لك في بال ان عمق هذه الهوة لا يبلغ عدة أقدام وان أرضها مفروشة بالعشب الأخضر كي لا يسمع صوت الحجر الذي إذا القي فيها فتحسبها عميقة وكي لا يرض جسمي إذا سقطت فيها؟ ثم كيف يخطر في بالك ان المسدس لم يكن محشواً بالرصاص بل بالبارود وحده وقد وضع في سرج جوادك بعد نزع الرصاص ؟

ولكني أعذرك لانخداعك فقد أطلقت على مسدسك فتظاهرت ان الرصاصة وقعت في صدري وصحت صياح المتألمين وسقطت في الهوة . ألم أمثل دوري خير تمثيل أيها المركيز ؟

ثم جعل يضحك غير ان روكامبول ثاب من دهشته ، وذكر انه رأى خطيبته ، وانه لا يفصل بينه وبينها غير ستار رقيق ، فوضع إصبعه على فمه وقال : أسكت أو اخفض صوتك . . إنني سأعطيك جميع ما تطلبه ... قل أتريد ثروتي بجملتها ؟

– لماذا تريد أن أخفض صوتي ؟

– لأن خطيبتي وراء الستار تنتظرني .

- أتظن انها تنتظرك ؟

فجعل العرق البارد ينصب من جبين روكامبول وقال : أما هي الآن وراء الستار أمام الهيكل ؟

– نعم إنها هناك ولكني نسيت انك ستتزوج وإنهم قد ألبسوك ملابس العرس . أتعلم يا حضرة المركيز ما هو هذا القميص الذي ألبسك إياه أسقف غرناطة تحت ملابس الرهبان ؟

ثم دنا منه ونزع عنه ثوب الراهب بحيث ظهر القميص لروكامبول فما لبث أن رآه حتى صاح صيحة منكرة لأنه كان ذلك القميص الأحمر الذي يلبسه

وعند ذلك دنا زامبا من الجدار وأدار لولباً فيه فارتفع ستار آخر وظهرت كنيسة غاصة بالناس فرأى روكامبول رجلا جاثياً أمام الهيكل وبجانبه كونسبسيون والأسقف أمامهما يعقد عقد القران .

أما الرجل فكان المركيز دي شمري الحقيقي الذي حسب روكامبول انه قتله وجمله طعماً للأسماك .

وفي الحال أدار اللولب ثانية فنزل الستار ودنا من روكامبول الذي كان مستنداً الى الجدار حذراً من أن يقع وقال له: لا يخلق بنا ان نكدر على المحتفلين حفلتهم واصغ إلي الآن فقد تعلمت مما كنت أراه في مسارح التمثيل أنه لا بد لكل رواية من ظهور خفاياها في آخر فصل منها .

وإذ قد بلغنا إلى الفصل الأخير من روايتنا فلا بد لي من إظهار غوامضها كي لا يفوتك شيء من أسرارها . فاعلم الآن ان المركيز دي شمري الحقيقي وليس أنت ، أي المركيز الذي تعقد الآن حفلة زواجه بابنة الدوق سالاندريرا لم يمت كما توهمت ولم يفعل به رصاص مسدسك إلا كما فعل بي ، وذلك اني نزعت الرصاص من المسدس ، ولم يبق فيه غير البـــارود ، فلما أطلقت مسدسك عليه تظاهر أنه أصيب برصاصة ، وألقى نفسه في البحر كما ألقيت نفسي في الهوة فغاص تحت المياه ، وكان الظلام شديداً فلم تره حين بلغ الشاطىء تحت منزل إبنة الدوق .

ثم أخبرك أنه عندما تهان إبنة نبيلة كإبنة سالاندريرا من مجرم سفـــاك مثلك فهي تنتزع من قلبها كل رحمة وإشفاق في سبيل الانتقـــام ، ولذلك فاني عندما سألتها أن تكتب اليك ذلك الكتاب الذي ألقاك في الفخ لم تتأخر هنيهة عن الكتابة .

فعلم روكامبول عند ذلك كل شيء وأيقن انه لم يخسر إبنـــة سالاندريرا ودوقيتها وملايينها ومركيزيته ومقامه والأموال التي اغتصبها بل انـــه قد

خسر أيضاً حياته لأنه رأى نفسه محاطاً بأعدائه من كل جانب .

وكأنما هذا الموقف الشديد الذي بات فيه قد زاده جرأة لما تولاه من القنوط فلم يحفل بما قاله زامبا وابتسم له إبتسام الهـــازىء المستخف بالموت ، فأجابه زامبا بأن ضغط على زر آخر ، ففتح ستار ظهر من ورائه أولئك الرهبان الثلاثة يوقدون النار التي تقدم لنا وصفهـــا فأيقن روكامبول أنهم الجلاد ومساعداه .

ثم رأى وراءهم شخصاً رابعاً فهلع قلبه لمنظره وذكر ذلك الشعر الذي قاله دانتي أب الشعراء الايطالي وهو (هنا يقطع كل رجاء) .

أما هذا الشخص فكان إمرأة لابسة ملابس سوداء كما يلبس القضاة وكانت هذه المرأة باكارا . . .

كثيراً ما يتفق للمجرمين ان تخور قواهم ويغمى عليهم في مقاعدهم حين يسمعون صدور الأحكام من أفواه القضاة ، غير أن روكامبـول لم يكن من أولئك المجرمين ، فإنه كلما زاد موقفه حرجاً زاد جرأة بقدر ازدياد قنوطه يزيد إقدامه .

غير أنه لم يجد سبيلاً للاقدام في تلك الساعة الرهيبة ، فاكتفى بالجرأة وعدم المبالاة بالموت ، وجعل ينظر إلى باكارا نظرات الاحتقار كمن يريـد أن يمـوت موت الأبطال ، ثم قـال لها بلهجة المتهـكم لقد عرفت أنك كنت تسيرين من وراء زامبا وتدفعينه إلى ما فعل ، فإن هـذا الأبله ليس من رجالي .

فقالت له باكارا ببطء : لا تشتم ولا تتهكم فان ساعتك قد دنت .

فشتمها شتماً قبيحاً وقال لها إني أهزأ بك وبكل ما فعلتيه ، ونعم إنك تستطيعين قتلي ، غير أني لا أكترث للموت ، لأني لم أكن مركيزاً ولكن ابنـة أعظم عائلة في اسبانيـا أحبتني ، والكونتس دي اسمـول دعتني أخاها

ثم ضحك ضحك الهازىء وقال . ثم اني هتكت عرضك وجعلتك مضغة في الأفواه بعد ان أصبحت مثال التوبة الصادقة وذهبت بعقل زوجك فاقتليني الآن كما تشائين فقد انتقمت لموتي قبل ان أموت .

ثم برقت عيناه ببريق من الانذار الجهنمي كأنما روح أستاذه السير فيليام قد مرت بعينيه .

غير أن باكارا قالت له بهدوء : إنك منخـــدع يا روكامبول ، فاننا لا نريد قتلك !

- إذن فماذا تريدين مني ؟

- أنظر إلى ثوبك فانه من ملابس المجرمين ، وانظر إلى هذه الحلقة التي تحمى في النار المتأججة فانها ستطوق ساقك ويربط بها قيدك ، فان من كان مثلك لا يكفيه عقاب الموت لأنه راحة لك ، بل أن عقابك ينبغي ان يكون بالسجن المؤبد ، حيث يندفع السجان بالسياط على كتفيك ولا تلقى أثناء الليل وأطراف النهار غير الذل والشقاء والقنوط وذكرى أيامك السابقة في باريس أليس هذا العقاب أشد من الموت ؟

ثم أشارت إلى الرهبان فهجموا عليه والقوه على الأرض وهو يصيح ويقاوم دون جدوى ، فلما تمكنوا منه رفع الجلاد ساقه إلى السندان وأخرج آخر تلك الحلقة المحمية من النار فأطفأها بالماء ووضعها على ساقه والدخان يتصاعد منها ثم طواها وطرق بها الساق .

ولما انتهوا من وضعها تركوه ملقى على الأرض وهو لا يستطيع حراكاً لما ناله من الألم .

ودنت منه باكارا فقالت له : إنـــك أرسلت المركيز دي شمري إلى السجن . فمن العدل ان تحل محله فيه ، وأردت أن تتزوج إبنة الدوق باسمه فمن العدل أن يحل محلك منها . وإنما عاملناك دون إشفاق لأنك لم تشفق على أحد .

فصاح روكامبول يقول: لقد ساء فألك فاني سأتظلم أمام القضاة وسأخبرهم بأنكم كنتم قضاتي ، فلا أريد أن يحكم علي إلا في المحاكم .

- إنك منخدع أيضاً ، فان الحكم عليك قانوني وقد وقع عليه في المراجع العالية ، فاذا كان قد نفذ فيك العقاب داخل هذا الدير دون أن يقف على أمرك أحد ، فما ذلك إلا صيانة لشرف أسرتين نبيلتين وسيبقى سرهما مكتوماً بالرغم عنك في سجن قاديس إلى الأبد ، فانك ستكون فيه باسم ذلك الرجل الذي كان يدعي انه المركيز دي شمري فلا يصدقه أحد أفهمت الآن ؟

- لا ! فان هذا المركيز لا يشبهني بشيء وسيرى السجانون والمسجونون أنني غير ذلك المركيز .

- إنك لا تزال منخدعاً فاعلم انه قد يتسنى لبعض المسجونين أنهم يحاولون الفرار فيشوهون وجوههم كي لا يعرفهم أحد متى باتوا خارج السجن ويأمنون مطاردة الجنود .

فصاح روكامبول صيحة رعب لأنه علم كل شيء ولكن الصيحة كانت آخر ما قاله ، فان يداً شديدة ضغطت على عنقه ، وربض آخر على صدره كي يمنعه من الحركة ، ثم أخذ راهب ثالث زجاجة وصب ما فيها باناء ، بل به خرقة من الكتان ، ثم وضعها على وجهه من الأنف إلى الذقن .

فأحس روكامبول بألم شديد لا يطاق ، ولم يستطع أن يصيح أو يتخلص .

وقد فعلوا ذلك به بسرعة زائدة ثم رفعوا عن وجهه الخرقة ودنا زامبا منه فأخرج مرآة من جيبه وقال له أنظر إلى وجهك .

فنظر روكامبول إلى تلك المرآة وأن أنيناً شديداً ، لأنه رأى أن وجهه قد تشوه أتم تشويه ، بحيث لم يعد يعرف نفسه لأنهم شوهوا وجهه بسائل الزاج

وفي ذلك الوقت كانت أجراس كنيسة سالاندريا تقرع وكان المركيز دي شمري خارجاً مع إمرأته ابنة الدوق سالاندريا .

- ٣٠ -

بعد ذلك بخمسة أيام كان الفيكونت فابيان دي اسمول جالساً مع إمرأته وهي ظاهرة عليها علائم الانقباض ، تشكو إلى زوجها انقطاع أخبار أخيها (روكامبول) عنها منذ سفره إلى اسبانيا ، وهو يلاطفها ويعزوا هــــذا الانقطاع إلى انهماكه في شؤون زواجه .

وفيما هما على ذلك دخل خادم يحمل رسالة من اسبانيا فأسرع الاثنان اليها وفضها فابيان فقرأ ما يأتي ·

« شقيقتي العزيزة بلانش

« إنني أكتب اليك وزوجي العزيز مقيم بجانبي في مدريد ينظر ما أكتب وإني أحب ان أكتب اليك كثيراً من الأمور فلا أعرف كيف أبدأ ولكن لا بد لي من القول قبل كل شيء ان أخـــاك أصبح زوجي وإني بهذا الزواج من أسعد النساء

« إن عقد زواجنا قد تم أمس ، وقد عقده لنا أسقف غرناطة في قصرنا في سالاندريا بحضور أمي والموظفين عندنا .

« وكان ينتظرنا على باب الكنيسة مركبة للسفر ، وفيها أحد أركان حرب جلالة الملك فسافرت فيها مع البرت إلى مدريد وقدمت زوجي بنفسي إلى الملكة فاستقبلته خير استقبال وقالت له :

« إني يا حضرة الدوق دي شمري سالانـــدريا قد وقعت اليوم على الأوراق القاضية بنقل جميع القاب الدوق دي سالاندريا اليك ، وكنت

عزمت من قبل على تعيينك سفيراً لمملكتي في البرازيـل . غير أني خشيت عليك وعلى إمرأتك مناخ تلك البلاد فعينتك لمثل هذا المنصب في الصين حيث تغيب عن أوروبا أربعـة أعوام على الأقل . وأنا أعلم بأن هذه المهمة شاقة صعبة عليك ، ولكني أؤمل أن يخفف عنك حبك لامرأتك أثقـالها .

« ولما فرغت من القاء أوامرها قدمت له يدها فقبلتها ثم دعتنا إلى العشاء على مائدتها الخاصة .

« ويسوءني أيتها الحبيبة إننا سنفترق عنك أربعة أعوام . غير أن عزائي أن البرت قد دخل في سلك السياسة ، فبدأ بالمنصب الذي ينتهي اليه أمـل الطامعين أي أنه بدأ بمنصب سفير وهو خير ما يطمع به رجال السياسة بعـد الصبر الطويل .

« والآن فاننا سنسافر بعد يومين وستبقى أمي في اسبانيا ولكنها ستحضر إلى باريس في الشتاء القادم فتحدثيها عنها بما تشتهين .

« إن البرت يحب ان يكتب لكِ بالرغم عما هو فيه ولا يزعجك هذ القول فإنه بينما كان يفتح أمس زجاجة كسرت ودخلت قطعة من زجاجة في سبابـة يده اليمنى فجرحتها بحيث لا يستطيع الكتابة بيده اليمنى عدة أيام ولذلك فهو يكتب لك باليد اليسرى .

« الوداع أيتها الحبيبة وعسى ان نلتقي في باريس قريباً باذن الله . والسلام عليك وعلى زوجك العزيز فابيان »

(كونسبسيون)

وقد أضاف المركيز دي شمري الحقيقي بضعة أسطر على هذا الكتاب بيده اليسرى ، وإنما اختلقوا حكاية جرح يده كي لا تنتبه الفيكونتس دي اسمول إلى تغير الخط لأنها تعرف خط روكامبول .

وبعد ان اطمأن خاطر الفيكونتس على أخيها تركها زوجها فابيان وذهب

إلى النادي فوجد فيه العديد من أصحابه وأصحاب روكامبول ، ولم يكن حديثهم غير زواج المركيز دي شمري بابنة الدوق وليس بينهم من يعرف شيئاً من حقيقة حال روكامبول

وبينما فابيان جالس بينهم إذ دخل رولاند دي كايلت فعجب أعضاء النادي لقدومه بعد طول احتجابه عنهم وكان معظم عجبهم مما رأوه من دلائل الرزانة بعد ما عهدوا به من الطيش والنزق .

غير ان رولاند لم يحفل بعجبهم فحياهم بوقار إلى أن وصل إلى فابيان فسلم عليه وقال له : أتأذن لي يا سيدي الفيكونت بمقابلة فإني قادم من منزلك ولم أرك .

فعجب فابيان وقال له : إن العلائق مقطوعة بيننا ، فما يدعوك إلى هذه المقابلة ؟

وكان فابيان يكلمه بلهجة تشف عن الاحتقار فلم يحفل به رولاند وقال له : لا أنكر عليك حقك بهذا الاحتقار غير أني التمس منك أن تأذن لي بهذه المقابلة

— وماذا تريد مني ؟

— لا أطلب اليك أن ترجع عن اعتقادك السابق بي ولكني أسألك ان تزورني هذا المساء في منزلي .

— لأي قصد ؟

— لا أستطيع ان أقول لك شيئاً الآن غير اني التمس منك مقابلة باسم الصداقة القديمة المؤسسة بين عائلتينا .

— حسناً فسأذهب ففي أية ساعة تريد ان يكون اللقاء ؟

— في الساعة التاسعة من المساء .

قبل أن نتبع الفيكونت دي اسمول الى منزل رولاند نذهب بالقارئ إلى قصر الكونت أرمان دي كركاز فنقول :

كان هذا الكونت جالساً في غرفته قبل هذه الحادثة المتقدمة ببضع ساعات وكان يقرأ في جريدة اسبانية حادثة فرار المركيز دي شمري من سجن قاديس وتشويه وجهه والقبض عليه على ما مثلته با كارا وهو لا يفهم شيئاً من هذه الألغاز .

وبينا هو مضطرب في أمره إذ دخل عليه فرناند روشي فسر بلقياه سروراً عظيماً وبعد ان جلس أمامه أخبره الكونت بخلاصة ما قرأه في الجريدة وانه لم يعلم شيئاً من هذه المعميات فقال له فرناند . إنني أتيت الآن من اسبانيا وسأخبرك بكل شيء .

– قل إذن ماذا حدث ؟

– تم كل شيء .

– كيف ذلك ؟

– تزوج المركيز بابنة الدوق .

– أي مركيز ؟

– المركيز الحقيقي الذي كان في سجن قاديس .

– إذن فما هذه الجريدة وأي مركيز تعني بتفاصيلها ؟

فابتسم فرناند وقال : ذلك من صنع با كارا ، فانها أخرجت من السجن المركيز الحقيقـي ووضعت بدلاً منه روكامبـول باسم ذلك المركيز ،

بعد أن شوهت وجهه أبشع تشويه ، كي لا يعرف السجان والمسجونين وجهه

ثم أخبره بجميع تلك الحيلة بالتفصيل كما قدمناه .

فأعجب الكونت أرمان بدهاء باكارا وقال له : أين هي الآن تلك الكونتس العزيزة

— لقد تقدمتني بساعة ولا بد ان تكون الآن في باريس .

وبينما الاثنان يتحدثان بحديثهما إذ دخل خادم يحمل إلى الكونت رسالة منها ففضها وقرأ فيها ما يأتي :

« أيها الكونت العزيز

« لقد عهدت إلى فرناند أن يخبرك بكل ما جرى ، وأنا أكتب اليك الآن على عجل كي أخبرك أن عدونا العام قد قص جناحاه ولم يبق علينا غير الاهتمام بتبرئتي من تلك الوصمة الشائنة التي وصمني بها قبل الانتقام منه ولذلك فاني أنتظر قدومك إلي في هذا المساء في منزل المسيو رولاند دي كايلت » .

« الكونتس أرتوف »

* * *

أما باكارا فانها وصلت إلى باريس قبل ان يصل اليها فرناند بساعة ، فذهبت تواً إلى أختها سريز وسألتها عن زوجها الكونت فأخبرتها انه بخير ، وان حالته قد تحسنت تحسناً عظيماً ، بحيث عاد اليه بعض صوابه وصار يعرف أنه الكونت أرتوف وليس رولاند دي كايلت كما كان يعتقد في بدء جنونه .

فسرت باكارا سروراً لا يوصف لأنها عدت ذلك خير مقدمة لشفائه ، ثم ذهبت باختها سريز إلى اختها ريبيكا

فسارت الأخوات الثلاث إلى منزل باكارا فوجدت فيه رسالة من رولاند ففضتها بلهف وقرأت فيها ما يأتي :

« وصلتني رسـالتك من مدريـد أول أمس وأنا في كايلت فامتثلت لأمرك وأسرعت إلى باريس وها أنا الآن فيها أنتظر أوامرك » .

فأخذت باكارا ورقة في الحال وأجابته قائلة :

« إني مرسلة اليك اختي ريبيكا فهي تخبرك بما أريده منك ، والآن اسرع إلى الفيكونت دي أسمول واطلب اليه ان يكون في منزلك في الساعة التاسـعة وسأكون أنا أيضاً فيه في تلك الساعة » .

ثم كتبت الى أرمان دي كركاز الرسالة التي تقدم شرحها ، وبعد ان أرسلت ريبيكا الى رولاند قالت لأختها سريز : هلم بنا الآن إلى حيث يقيم زوجي ، فقد سبقني الطبيب صموئيل اليه ليعلم إذا كانت حالته العقلية تسمح له أن يراني .

في الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه جاء الفيكونت فابيان إلى منزل رولاند حسب الاتفاق فوجد رولاند بانتظاره وبعد أن احتفل به خير احتفال دار بينهما الحديث الآتي فقال فابيان :

– أرأيت كيف اني كنت حريصاً على اللقاء على ما بيننا من النفور، وإنما أتيت لأنك طلبت إلي هذا اللقاء باسم عائلتينا ولأرى شؤونك الخطيرة التي دعوتني اليها .

– إني قادم يا سيدي من قرية فرانش كونته ، حيث كنت فيها لتسوية إرث عمي .

– لقد عرفت هذا .

– وقد كنت أنت أيضاً في تلك الجهة في قصر هوتبا ، حين توفي الدوق دي سالاندريرا فجأة ، وكنت أود مقابلتك هناك ، فما تيسرت لي المقابلة. والآن فاني ما طلبت اليك هذا اللقاء إلا لأطلب منك الايضاح عن الخطة التي تنتهجها معي .

– إني كنت صديقك بل إني كنت أعد نفسي بمثابة أخيك الكبير فانظر اليك بعين الإخاء وأقوم ما اعوج من مناهجك وأصلح ما فسد من أمورك بيد الاخلاص إلى أن علمت يوماً ..

فقاطعه رولاند وقال : إني أعلم ما تريد ان تقوله لي : فانك تريد أن تقول بأني تجاسرت يوماً على إهانة إمرأة ووصمتها بوصمة عار لا تمحى فلم تجد بدأ من احتقاري لأني ما جريت مجرى النبلاء اليس هذا الذي تريد أن تقوله لي يا سيدي ؟

فسكت فابيان وكان سكوته أبلغ جواب .

غير ان رولاند لم يحفل بهذا السكوت ومضى في حديثه فقال : إني لم التمس منك يا سيدي هذه المقابلة كي أرجعك عن سابق اعتقادك بي وأنا احتمل احتقارك لي لأن مهمة اجتماعي بك غير خاصة بي .

— بمن ؟

— بتلك المرأة الطاهرة التي دنست سمعتها أي الكونتس أرتوف .

فابتسم فابيان ابتسامة هزء وقال له : العلك تريد أن ترجع لها شرفها المفقود ؟

— ذلك لا ريب فيه .

— أمام من ؟

— أمامك قبل كل الناس .

فاستاء فابيان وقال : إنك تعلم بأننا لم يعد بيننا ذلك الوداد القديم الذي يؤذن لك بممازحتي إلى هذا الحد .

— إني لا أمزح بل أقول الجد .

— أي جد هذا العلك نسيت أني رأيتها من ثقب باب غرفتك في تلك الغرفة وسمعت ما كان يدور بينكما من الحديث ؟

— يحق لك يا سيدي أن تقول لي جميع هذا القول ، ويسوءني أني لا أستطيع أن أجيبك الآن ، ولكني سأبرهن لك بعد بضع دقائق بأصدق البراهين .

فجعل ينظر اليه نظر الفاحص وهو يحسب انه فقد صوابه ثم قال له : أتنتظر قدوم زائر ؟

وعند ذلك طرق الباب فتركه رولاند وذهب ففتح ودخل يصحبه الكونت أرمان دي كركاز .

فزاد عجب فابيان لأنه كان يعلم ان رولاند لا علاقة له مع ارمان ، وبعد

أن عرّف رولاند كلاً من زائريه بالآخر قال له فابيان : ألعلك كنت تنتظر حضرة الكونت ؟

نعم .. ولكني أنتظر شخصاً ثالثاً ايضاً وهو الكونتس ارتوف .

ـ أفي عزم الكونتس ان تحضر الى هنا ؟

فلم يجبه رولاند لأنه سمع طرق الباب وخرج ليفتح .

وفي خلال ذلك دار الحديث الآتي بين فابيان وأرمان فقال له ارمان :

ـ أتعرف يا سيدي الفيكونت الكونتس أرتوف حق المعرفة ؟

ـ نعم فان زوجها كان من أخلص اخواني .

ـ اتظن انها مذنبة كما يقولون ؟

ـ واأسفاه يا سيدي اني واثق كل الثقة لأن لدي برهاناً لا يدحض .

ـ أما أنا فاني أعتقد انها بريئة خلافاً لما يعتقده الناس

فابتسم فابيان ابتسام الحزين وقال : يظهر يا سيدي الكونت انك دعيت إلى هـذا المنزل لنفس السبب الذي دعيت أنا من اجله ؟

ـ ربما كان ذلك كما تقول .

ـ ان المسيو دي كابلت كان من اصدقائي ، ثم قطعت بيننا العلائق لسوء سلوكه مع الكونتس، ولكنه اقبل يسألني ان أوافيه اليوم في الساعة التاسعة إلى منزله .

ـ وانا وردني كتاب من الكونتس بهذا المعنى .

ـ ولست اعلم كيف يستطيع رولاند او الكونتس ان يبرهنا لنا عن خطأ الناس فيما يعتقدون .

ـ اما انا فان ثقتي شديدة .

ـ إذن فانك لا تعلم ما اعلمه فاني كنت ليلة مختبئاً في هـذا البيت ورأيتها فيه .

ـ رأيت من ؟

- الكونتس أرتوف وقد رأيت رولاند على ركبتيها وسمعت حديث الغرام بينهما .

فقاطعه ارمان وقال : أرأيتها بعينك ؟ أأنت واثق مما تقول ؟

- واأسفاه نعم يا سيدي وليس لدي بتهتكها اقل شك.

وقد حاول ارمان ان يجيب ولكنه لم يجد سبيلاً فان الباب فتح عند ذلك ودخلت منه امرأة فأزاحت البرقع عن وجهها وسلمت على ارمان وفابيان فانحنيا أمامها بملء الاحترام فانها كانت باكارا

غير انه في الوقت نفسه فتح باب مشرف على القاعة ودخلت منه امرأة لما اوشكت ان تزيح قناعها حتى تراجع ارمان وفابيان مذعورين ذلك انهما رأيا ان تلك الداخلة كانت باكارا نفسها وقد وجدا في تلك القاعة اثنتين لم يعلما ايتهما الكونتس ارتوف من شدة ما كان بينهما من الشبه .

وساد السكوت بين الأشخاص الخمسة الذين ضمتهم تلك الغرفة فكان فابيان يقلب طرفه بين تينك الامرأتين ، وهو لا يعلم ايتهما الكونتس ارتوف الحقيقية .

اما ارمان دي كركاز فلم يطل تردده ونظر الى الاثنتين نظر الفاحص ثم دنا من باكارا فوضع يده بيدها وقال . انت هي الكونتس .

اما فابيان فقد ظهرت بين ثناياه علائم البله وجعل يقول: لا شك اني حالم.

غير ان ارمان قال له : كلا يا سيدي فانني قد علمت كل شيء وان تلك المرأة التي رأيتها ..

وعند ذلك دنت ريبيكا من فابيان وقالت له : اني انا تلك المرأة التي رأيتها في هذا المنزل يا رولاند .

وكانت باكارا تنظر إلى هذا المشهد وتبتسم ابتسام الحزين ثم قالت تخاطب ارمان وفابيان : اسألكما العفو يا سيدي ، فاني ما دعوتكما إلى هذا المنزل إلا لأبرىء نفسي من تلك الوصمة التي وصمني بها رجال المكر والدهاء فلاقوا جزاء

ما كانوا يصنعونه ولا بد لي ان ابرأ امامكما كي ابرأ امام جميع الناس .

فقال فابيان مشيراً بيده إلى ريبيكا اليهودية التي كانت مطرقة بنظرها استحياء الى الأرض : من هي هذه المرأة ؟

فأجابته باكارا : انها اختي من امي وقد كانت تكرهني كرهاً شديداً فسول لها هذا الكره ان تكون آلة صماء بيد عدو لي هائل .

فأجفل فابيان لذكر العدو وقد حسب ان باكارا تعني به رولاند فنظر اليه نظرة احتقار شديد .

غير ان باكارا علمت ما كان يجول بنفسه فقالت له، لقد اخطأت يا سيدي فليس رولاند ذلك العدو بل انه نفسه كان آلة صماء .

ثم مدت يدها إلى رولاند وقالت له لقد دفعك نزق الشباب إلى فعل ما فعلت وها انا صافحة عنك بل اني سأبرهن للفيكونت انك أهل لصداقتي .

وعند ذلك قصت باكارا على الحاضرين جميع تلك الحكاية التي ذكرناها دون ان تذكر اسم روكامبول .

فقال ارمان : عرفت الآن ذلك العدو .

أما فابيان فانه لم يعلم شيئاً وقال : من عسى يكون هذا الرجل الجهنمي الذي يجسر على ارتكاب مثل هذه الذنوب الهائلة ؟

فقالت باكارا : عفوك يا سيدي أتأذن لي كتمان اسمه فـان امره سيبقى مكتوماً إلى الأبد ولكني لا اكتمك انه نال فوق ما يستحق .

فقال الفيكونت ألعله عوقب ؟

- نعم انه زج في السجن وسيموت فيه .

بعد ذلك بساعتين دخل الفيكونت فابيان ورولاند دي كايلت إلى النادي الذي أهين فيه اسم الكونت ارتوف منذ بضعة أشهر وبات أعضاؤه واثقين من ان الكونتس كانت تحب رولاند وقد خانت زوجها من أجل هواه .

وكان جميع الأعضاء مجتمعين في تلك الساعة يتقامرون على طاولة واحدة.

فوقف فابيان بينهم وقال لهم بصوت جهوري : اسألكم أيها السادة ان تدعوا اللعب هنيهة فاني محدثكم بشأن خطير .

ولما رأى فابيان ان الأنظار اتجهت اليه قال لهم : اني ادعوكم جميعاً إلى الأوبرا يوم الجمعة القادم .

فقال بعضهم ألعلهم سيمثلون رواية جديدة ؟

– كلا بل اني ادعوكم لتنظروا فيها امرأة لفحتها نار النميمة وهي الكونتس ارتوف وتروا بجانبها امرأة اخرى تشبهها شبهاً غريباً بحيث يستحيل على الناظر اليها ان يعلم ايتها الكونتس واني أقسم لكم بالشرف المقدس أن صديقي رولاند قد خدعته تلك المرأة التي تشبه الكونتس ، وان الكونتس ارتوف من أطهر النساء .

فذهل الجميع لهذا النبأ الخطير غير انهم وثقوا كل الثقة من كلام فابيان وزالت عن باكارا وصمة العار .

- ٣٣ -

ولنعد الآن إلى باكارا فانها ذهبت مع اختها سريز إلى حيث يقيم زوجها والطبيب صموئيل ، فلما وصلت إلى المنزل فتح لها الباب الطبيب نفسه فنظرت باكارا اليه محدقة تستطلع من هيئته ما تريد معرفته عن صحة زوجها فأخذ يدها وقال : اطمأني يا سيدتي فان أمل الشفاء قريب .

ثم أخذ بيدها وصعد تتبعه سريز الى القصر واقامها في غرفة خاصة غير أن باكارا فرغ صبرها وقالت له : اني اريد ان اراه .

كلا يا سيدتي فلم يحن الوقت بعد غير اني أعود الى تطمينك فان كل خطر زال عنه .

– إذن فلماذا تمنعني عن رؤياه ألعل يوجد ما يحول دون هذا اللقاء ؟

– كلا يا سيدتي انما اطلب منك ان تسمحي لي ان اسألك سؤالاً واحداً ؟
– تكلم واسرع .

– إذا خيروك بين أن تنظري زوجك في الحال فتؤخري شفاءه وبين ان لا تنظريه إلا بعد بضع ساعات ويكون شفاؤه قريباً فأي الأمرين تختارين ؟
– أوضح يا سيدي الطبيب ما تقول فلقد شغلت بالي .

– إذاً فاصغ إلي ان الدواء الذي عالجت به الكونت قد فعل به فعلاً شديداً وسار به سيراً سريعاً الى الشفاء وهو لا يزال مجنوناً غير ان شكل جنونه قد تغير فهو يعرف الآن انه الكونت ارتوف ولم يعد ينكر نفسه كما كان يفعل من قبل ولهذا يا سيدتي أخشى اذا اذنت له برؤياك ان ينتكس .
– لماذا ؟
– لأنه اذا رآك تعود اليه الذكرى القديمة .
فأطرقت باكارا برأسها وقالت : اشفه يا سيدي فاني اؤثر شفاءه ولو قضي علي أن لا أراه إلى الأبد .
– كلا يا سيدتي انك تبالغين في مخاوفك فاني لا أسألك أن تحتجبي عنه غير بضع ساعات فقط .

وما زال بها حتى اطمأنت لوعوده فقال لها : عودي الآن إلى المنزل واجتهدي ان ترسلي الي الفيكونت فابيان في صباح الغد .
فخرجت باكارا والدموع ملء عينيها وعادت مع اختها سريز وهي لا تعلم شيئاً من مقاصد الطبيب ، فاجتمعت بالفيكونت فابيان وأخبرته بما يطلب اليه الطبيب

وفي اليوم التالي ذهب فابيان الى القرية التي يقيم فيها الكونت ارتوف فاستقبله الطبيب صموئيل وخلا به مدة طويلة علمه خلالها ما يجب أن يصنع .
وبعد ان فرغ من حديثه تركه ودخل إلى غرفة الكونت ارتوف وكان لا يزال نائماً فان الطبيب كان خدره تلك الليلة وعالجه المعالجة الأخيرة فاستيقظ

الكونت وجعل يدير في الغرفة نظراً مضطرباً حتى استقر نظره على الطبيب فقلب طرفه فيه مراراً وقال له : من أنت ؟

فقال الطبيب : أنا طبيبك يا سيدي

– وما شأن الطبيب عندي هل أنا مريض ؟

– لقد كنت مريضاً يا سيدي الكونت واليوم شفيت باذن الله .

– أطالت مدة مرضي ؟

– ثلاثة أشهر .

– ما هذا النبأ الغريب ، اني لا أذكر شيئاً من هذا وأين أنا الآن ؟

– انك في منزلك في قرية فونتيناي .

– العلك تهزأ بي فاني لا أذكر ان لي قصوراً في هذه القرية .

– كلا يا سيدي وسأقدم لك صديقاً إذا نظرته تذكر كل شيء ثم صفق بيديه ففتح الباب ودخل فابيان .

فلما رآه الكونت ضرب جبينه بيده وصاح صيحة يأس وهو يقول : لقد ذكرت كل شيء . ثم تراجع إلى الوراء حتى لصق بالجـــدار وهو ينظر إلى فابيان نظرة المذعر . أأنا في يقظة ام انا في حلم .. كلا ، بل انا في يقظـة فاني نمت في منزلك ليلة المبارزة .. ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟

فدنا منه فابيان وقال له : اني سأخبرك بكل شيء .

وعند ذلك خرج الطبيب من الغرفة وبقي الكونت وفابيان منفردين .

وأخذ فابيان يد الكونت وقال له سكن روعك واجلس بجانبي فسأخبرك بكل شيء كما وعدتك .

— قل فاني مصغ اليك .

— إنك كنت مجنوناً أيها الصديق

— ذلك أكيد كما يظهر لي لأني لا أعلم كيف أتيت إلى هذا المنزل .

— انك هنا منذ شهر ولكنك قبل أن تأتي إلى هذه القرية كنت في نيس.

— ما هذه الغرائب التي لم أسمعها فاني لا أذكر شيئاً منها ، وقبل ذلك أين كنت ؟

— كنت في منزلك في باريس حيث كانوا يعالجونك فيه .

— ومن أي حين ذهب عقلي ؟

— منذ ثلاثة شهور .

فوضع الكونت يده على جبينه كي يتذكر ثم قال بعد هنيهة : كيف كان جنوني وفي أي حين ؟

— في حين كنت عازماً على مبارزة خصمك رولاند دي كايلت وقد ذهب صوابك في ساحة المبارزة فجثوت أمام خصمك ، ثم اختلط عقلك فحسبت خصمك الكونت أرتوف ، وحسبت نفسك رولاند دي كايلت .

— رباه ماذا أسمع أصحيح ما تقول ؟

— أقسم لك بالشرف .

— وبعد ذلك ماذا جرى ؟

— ذهب الشهود بك إلى منزلك.

– إلى منزلي أنا في شارع بيبينار ؟
– نعم أيها الصديق .
– ولكني أرجو أنها كانت غائبة على الأقل .
وقد اضمر عن زوجته باكارا لأنه لم يجسر على أن يذكر اسمها .
– بل كانت فيه .
– وقد رأتني ؟
– نعم ، وهي التي كانت تتولى العناية بك وهي التي ذهبت بك إلى نيس.
– أواه إنها خيانة لا تغتفر ولا بد لي من الانتقام .
– اني أتيت لأقترح عليك هذا الانتقام إذ يجب قتل رولاند والمرأة التي أحبته فانها لم تقف بخيانتها عند حد وقد اغتنمت فرصة جنونك للتمادي في غيها !

فاصفر وجه الكونت من الغيظ وقال : ان دور الجنون قد انقضى وقد بدأ دور الانتقام الرهيب وسيري الخائنان كيف تكون عواقب الاثم .

فأخذ فابيان رسالة من جيبه وقال له : خذ واقرأ أيها الصديق .

ثم أعطاه رسالة لا توقيع فيها ولكن خطها يماثل خط باكارا .

وكانت هذه الرسالة إحدى الرسائل التي كانت ترسلها ريبيكا إلى رولاند فيقلد فيها روكامبول خط باكارا تقليداً عجيباً بحيث لا يشك عارف خطها انها هي التي كتبته .

فأخذها الكونت أرتوف وقرأها ولم تكن تتضمن غير هذا السطر وهو :
« انتظرك في الساعة الحادية عشرة في المنزل الصغير » .

فلما قرأها الكونت قال له فابيان : ارأيت كيف انها تنتظره ؟

فاضطرب الكونت أرتوف وقال له : أين هو هذا المنزل ؟
– في باسي وقد استأجرته خاصة لهذا الغرض .
– ومتى يجتمعان ؟

– اليوم ..
– أتعرف المنزل ؟
- نعم ..
– إذن هلم بنا فإن صدري يكاد ينفجر
فوافقه فابيان ونادى الكونت خادم غرفته فالبسه ملابسه بسرعة عظيمة وخرج الاثنان من القاعة ومرا بالحديقة فجعل الكونت ينظر إلى ما يحيط بـه نظرة المنذهل ثم قال لفابيان :
– تقول اني هنا منذ شهر .
– نعم أيها الصديق .
– أكنت أتنزه تحت هذه الأشجار ؟
– كل يوم
– اني لا أذكر شيئاً من هذا ولا بد ان تكون رؤياك التي شفتني من جنوني
– كلا ، بل ان الذي شفاك دواء هندي عالجك به الطبيب صموئيل الذي رأيته في منزلك الآن .
.. كل ما سمعته غريب .
– إنك سترى أغرب من جميع هذا عند رجوعك من باسي
– لماذا لا تقول لي الآن عن هذه الغرائب القادمة ؟
– كلا لا أقول شيئاً إلا بعد أن تشفي غليلك من الانتقام .
ثم أخرج من جيبه الداخلي خنجراً فأعطاه للكونت وقال له : انتقم بهذا الخنجر فهو أسرع في قضاء الحاجات .
فأخذه الكونت وقال له كن واثقاً فإن يدي لا تضطرب .
.وبلغ الاثنان وهما يتحادثان إلى باب الحديقة وكانت مركبة فابيان تنتظر فركباها وأمر فابيان السائق ان يسير إلى شارع باسي وعين له نمرة المنزل ، فسارت المركبة سيراً حثيثاً حتى بلغت إلى المنزل المعين فوقفت ونزل منهـــا

الاثنان فقال الكونت ارتوف . انظر الي الا ترى وجهي مصفراً ؟
– نعم !.
– إن هذا الاصفرار دليل الغضب عندنا نحن الروسيين أهل الشمال فان كل روسي ، إذا أهين تذهب منه عواطف الاشفاق ويذكر انه تتري من أصل جنكيزخان .

فلم يجبه فابيان ودنا من باب ذلك المنزل الذي كانت ريبيكا تستقبل فيه رولاند وطرقه ففتحت له خادمة ، ولما رأت هذين الرجلين تظاهرت بالاضطراب وقالت لهما : إن سيدتي ليست بالمنزل .

فقال فابيان : كلا بل أنها في منزلها ولا تجزعي منا فنحن أصدقاء رولاند

ثم دخل وتبعه الكونت قبل ان يدع لها وقتاً للاعتراض فمشى أمام رفيقه حتى اجتاز الدور الأول فنظر إلى الكونت فرآه يمشي باقدام ثابتة غير ان اصفرار وجهه كان يشبه اصفرار الأموات ، وكانت عيناه تتقدان ويتطاير منها اللهب .

فوضع فابيان إذنه على أحد الأبواب وقال الكونت : تعال واسمع فاني اسمع صوتيهما فأتى الكونت ووقف يصغي إلى تلك الأصوات فاضطرب وهاج هياجاً شديداً لأنه سمع صوتاً يعرف صاحبه .

ثم نظر من ثقب قفل ذلك الباب فرأى الكونتس أرتوف جالسة على مقعد وبجانبها رولاند ماسكاً يديها وهي تنظر اليه نظرات العشاق وتقول له بغنج ودلال : إذن فانك لا تزال تهواني .

فقال لها رولاند : أحبك حباً لا يفنى و ...

ولكن الكونت لم يدعه يتم حديثه فانه دفع الباب برجله فانكسر ودخل وهو يزأر زئير الأسود والخنجر مشهر بيده .

وفي الوقت نفسه وبسرعة البرق فتح باب آخر مقابل للباب الذي كسره ودخلت امرأة فحالت بين الكونت وبين العاشقين فما أوشك الكونت ان ينظر

اليها حتى وقف وقفة الأبله وسقط الخنجر من يده فان تلك المرأة التي دخلت كانت الكونتس ارتوف ايضاً ، ولكنها كانت اكثر جمالاً وانضر شباباً من الكونتس أرتوف الأخرى

فلما رأت ما كان من سقوط الخنجر من يد الكونت واندهاله دنت منه بمظاهر الكبرياء ووضعت يدها على كتفه وقالت : اية هاتين المرأتين الكونتس ارتوف ايها الزوج العزيز ؟

فصاح الكونت صيحة فرح وقد عرف كل شيء ، ثم جثا أمام با كارا يلتمس منها العفو فلم يستطع ان يقول كلمة وسقط مغمياً عليه .

وعند ذلك دخل الطبيب وقال لبا كارا: اطمأني يا سيدتي فان هذه الحادثة الأخيرة انقذته .

وفي المساء كان الكونت ارتوف لا يزال منحط القوى اثر اغمائه وكان جالساً على كرسي كبير في منزل بامي وأمامه با كارا والطبيب صموئيل ورولاند دي كايلت الذي صافحه الكونت مصافحة الاخوان فزال ما بينهما من الأحقاد لأنه أخبره بجميع ما حدث له من مكايد روكامبول وبعد حين انصرف الجميع ولم يبق أمامه غير با كارا فطوقت عنقه بذراعها وجعلت تعانقه ودموع الفرح تنهل من عينيها وهي تقول : لقد زال الآن كل خطر فان اندريا هوى إلى ظلمات الأبد وروكامبول زج في أعماق السجون فلأنس شقائي بقربك إذ ليس ما يمنعني الان ان اعيش لك وبك .

ودارت قبلات الحنو بين الزوجين فلم يقطعها غير كلمة « أحبك » .

أما روكامبول فانه بقي في سجن اسبانيا نحو عام ثم ارسل الى سجن طولون في فرنسا .

وقد اتفق انه بعد خمسة أعوام مرت بهذه الحوادث كان الفيكونت فابيان وامراته بلانش في طولون فخطر لها ان يزورا سجنها الرهيب ، وفيما هما يطوفان فيه ومعهما رئيس ذاك السجن إذ رأيا احد اولئك المجرمين المنكودين ممدداً على

الأرض كأنما التعب اضنى جسمه فلم يستطع حراكاً فلما رأى هــذا المجرم الرئيس هم ان يقف كي يحييه ، ولكنه ما لبث ان وقف حتى سقط لضعفــه وان انين المتألم .

فأشفقت عليه بلانش.وقالت للرئيس : ما شأن هذا المسكين ؟

– انه مركيز يا سيدتي وقد صدعت رجله في هــذا الصباح وسينقل الى المستشفى في المساء .

فعجبت بلانش لكلامه وقالت كيف يكون مركيزاً ويكون في السجن؟

– انه مركيز وغاية ما أعلمه من امره انه حاول الفرار منذ خمسة أعوام فشوه وجهه كي لا يعرفه من يطارده ولكنه قبض عليه ورد إلىمكانه فيالسجن

وعند ذلك صرخ هذا المركيز متألماً فدنت منهبلانش وزوجها وهي راثية لحاله فلما رآها روكامبول صاح صيحة منكرة فحسبت بلانش انه يصيح منالألم فتوجعت لمصابهواخذت من جيبهاعدة فرنكات فأعطته اياها وقالت له :استعن بهذه الفرنكات على حالك ولا تقنط من رحمة الله .

ثم احتجبت عنه مع زوجهادون ان تعرفه لتشوه وجهه غير ان روكامبول عرفها وتمثلت له باريس وزخارفها وسابق أيامه فيها فأن ذاك الأنين ثمسقطت دمعتان على خديه وقال : كل ما لقيته من العذابلم يكن شيئاً مذكوراً ،والان قد بدأ العذاب الصحيح .

انتهت روي[redacted]تقام باكارا »

ويليها الجزءالخامس من روكامبول « سجن طولون »

وبه يبدأ المجلد الثاني

RIWAYAT RUCAMBUL

AL-MAKTABA AL-THAKAFIYAT